شامبليون في مصر

الرسائل والمذكرات

ترجمة عماد عدلي

مراجعة د. طاهر عبد الحكيم

دار الفكر
للدراسات
والنشر والتوزيع

هـذه ترجـمـة كـتـاب

JEAN-FRANÇOIS CHAMPOLLION

LETTRES ET JOURNAUX
ÉCRITS PENDANT LE
VOYAGE D'ÉGYPTE

recueillis et annotés
par H. Hartleben

Introduction de Richard Lebeau

Ouvrage publié avec le concours
du Centre national des Lettres

Collection « Epistémè »
dirigée par Stéphane Deligeorges

CHRISTIAN BOURGOIS ÉDITEUR

© Christian Bourgois Éditeur 1986
pour la présente édition
ISBN 2-267-00472-0

كلمة المترجم

أخيراً، وبعد عامين من الجهد المتواصل، يسرني أن أضع بين يدي قارىء العربية ترجمة هذا الكتاب القيّم الذي يتتبع خطوات "جان فرنسوا شامبليون"، مؤسس علم المصريات، خلال البعثة التي قام بها إلى مصر من شهر أغسطس ١٨٢٨ إلى شهر ديسمبر ١٨٢٩. لقد ظلت هذة الرحلة تراوده طيلة ما يقرب من عشرين عاماً، ولكنه لم يتمكن من تحقيقها إلا في آواخر حياته القصيرة، بعد أن نجح في فك طلاسم الكتابة الهيروغليفية معيداً بذلك إلى مصر سجل ماضيها المُشرف الذي يعود إلى سبعة آلاف عام. وقد وقف المصريون بفضل شامبليون على تاريخ أبائهم وأجدادهم، وعرفوا أنهم كانوا رجالاً حين كان اليونان لا يزالون أطفالاً.

ومن شواطيء الإسكندرية وحتى وادي حلفا أخذ "شامبليون" [يرتقي عتمة القرون المظلمة] مسحوراً برؤية اكتشافه العظيم يتأكد لحظة بلحظة. راح "شامبليون" يُدَون ويصف ويحلل ويقرأ وكل شيء يبدو أمامه ككتاب مفتوح. إن هذا الكتاب يشكل وثيقة هامة غنية لا تنضب عن الحضارة واللغة والتاريخ والديانة المصرية القديمة. كما يُعتبَر في نفس الوقت رائعة أدبية كُتِبت بأسلوب برّاق يتميز بالشاعرية وروح الدعابة والسخرية، ويميط اللثام عن شخصية حساسة وانفعالية لرجل كرس حياته كلها لمصر، والتزم بقضايا عصره على عكس صورة العالِم المنطوي على معارفه. كما ترك لنا لوحة مدهشة تختلط فيها العوالم بالسقاه والترجمانات وغيرها من الشخصيات البارزة والرفيعة من رجال السياسة والعلوم ومختلف الشخصيات الأخرى القديمة والمعاصرة. لذلك فإن جانباً من أهمية هذا الكتاب ينبع من أنه يرسم لنا صورة حيّة وصادقة للوضع الذي كان سائداً في مصر خلال القرن التاسع عشر.

ولكن الأهمية الخاصة لهذا الكتاب تكمن في أنه يعطينا وصفاً تفصيلياً لأكثر من خمسين موقعاً أثرياً قام فريق شامبليون بعمل مسح لنصوصها ونقوشها. ويعد ذلك شهادة لا تقدر بثمن نظراً لاندثار العديد من تلك الآثار والمعابد، وتدميرها وتحويلها إلى مستودعات لتخزين القطن، وسحق أحجارها في أفران الجير. راح شامبليون في حدة وفصاحة يعرض على محمد علي، الذي قابله لأول مرة في شهر أغسطس ١٨٢٨، خطة لانقاذ الآثار العريقة. كما نجح في انتزاع وعد من الباشا بنقل إحدي مسلتي الأقصر إلى باريس كي يقف الفرنسيون على عظمة الفن الفرعوني. وإذا كان القاريء سيتأثر بالوصف البرّاق الذي يسوقه شامبليون عن كل من "منف" و"دندره" و"طيبه" و"أبو سمبل"، إلا أنه سيستعصى عليه أحياناً تخيل المناظر التي سحرت شامبليون، نظراً لأن صرخته لحماية المواقع الأثرية راحت سدى: فما أكثر الآثار التي اختفت نتيجة التنقيب خلسة وتحت وطأة التصنيع والتحديث، أو نُقِلت من أماكنها، أو ترقد اليوم في أعماق بحيرة ناصر !

إن حماس شامبليون العالِم والمكتشف والشاعر يفوح لنا من خلال كل رسالة من رسائله التي أرسلها في معظمها إلى أخيه الأكبر "جان جاك شامبليون" الذي كان سنده الوفي وحاميه المخلص. وقد استهوتني كثيراً، وكان لها وقعاً طيباً في نفسي حفزني على ترجمة النص الكامل لها في هذا الكتاب. إذ تتجلى لنا من خلالها شخصيته العميقة وآراؤه وتوقد قلمه، فلم يكن شامبليون مجرد عالِم كبير شغوف بـ"الأحجار المنقوشة"، وإنما كان فضلاً عن ذلك فيلسوفاً وإنساناً. ولقد كتب مرة لأخيه قائلاً : [لا يوجد بين جميع الشعوب الذين أحبهم من يعادل المصريين في قلبي].

وأخيراً آمل أن تصبح هذه الترجمة مرجعاً علمياً قيّماً ومنهلاً لكل شخص يهتم بمصر ويعشقها سواء كان من دارسي الآثار المتخصصين، أو من هواة التاريخ المصري القديم، أو الراغبين في الاستضاءة بنور المعرفة واليقين.

ويقتضيني واجب الشكر والعرفان أن أتوجه بالشكر في المقام الأول إلى صديقي العزيز البروفيسور "نيقولا جريمال Nicolas GRIMAL"، مدير المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية بالقاهرة Institut Français d'Archéologie Orientale الذي كان له

عظيم الفضل في إرشادي وتذليل كافة المصاعب التي واجهتني خلال تنفيذ هذا العمل. كما أود أن أعرب عن تقديري العميق لكل من ساهم بصورة أو بأخرى في إخراج هذا الكتاب إلى حيّز النور، وهم كثيرون، وأخص بالشكر السيدة الفاضلة/ سعاد عبد الحميد التي لم تدخر وسعاً في قراءة وتصحيح النص العربي، وكذا الآنسة/ عبير عدلي. كما يجدر أن أقدم الشكر إلى السيد "ريشار جاكمون "Richard Jacquemond" أستاذ اللغة العربية الفرنسي لأنه اقترح عليْ ترجمة هذا الكتاب، والذي لولاه لما اهتديت إليه.

وبرغم ما بذلت فيه من جهود فأنا أول من يلمس ما فيه من قصور.

القاهرة في ٣٠ نوفمبر ١٩٩١

عماد عدلي

مقدمة

وُلِد "جان-فرانسوا شامبليون Jean-François Champollion" في "فيجاك Figeac" (مقاطعة "لوت Lot") في الثالث والعشرين من شهر ديسمبر عام ١٧٩٠، أي قبل نحو عشرة أعوام من قيام "بونابرت Bonaparte" بحملته على وادي النيل. وفيما بين عامي ١٧٩٥ و١٧٩٩ شهدت حكومة "المديرين Directoire" الفرنسية تألق نجم "نابليون بونابرت": [أول قائد مرتزقة في التاريخ منذ "يوليوس قيصر" يهتم ايضاً بمعرفة الأراضي الخاضعة لنفوذه. وقد اصطحب معه إلى جانب قواته العسكرية حشداً من العلماء لدراسة ووصف وادي النيل وآثاره. وفي عام ١٧٩٩ أسس هؤلاء العلماء "المجمع العلمي المصري Institut d'Egypte" الذي يُعد أول مؤسسة علمية حديثة في مصر. وقد ساعد ذلك على وصول آخر أنباء الأعمال والاكتشافات إلى اوروبا بسرعة كبيرة، وتعزيز الاهتمام بالحضارة المصرية القديمة الذي كان يبديه الأكاديميون والجامعيون في فرنسا] ("سيلفيو كيرتو S. Curto"، اركيولوجيا Archéologia ٥٢، ١٩٧٢، ص٢١). كما كان هناك قصد خفي يستتر وراء حملة "نابليون" على مصر: ألا وهو شق قناة السويس وفتح طريق الهند؛ وبالتالي تسديد ضربة قاصمة للاقتصاد البريطاني. وإذا كانت هذة الحملة قد أخفقت من الناحية العسكرية فإن أهميتها تكمن على الأخص فيما أحرزته من نتائج علمية: إذ كانت اللجنة الفنية والعلمية التي تم تأسيسها في القاهرة تتألف من مائة وسبعة وستين عالماً قاموا بالتطوع عام ١٧٩٨ على إثر النداء الذي وجهه "بونابرت" إلى الأكاديمية الفرنسية بمساعدة العالم الكيميائي الشهير "برتوليه Berthollet". وكانوا ينتمون إلى شتى مجالات الفنون والعلوم مثل صناعة المناطيد وقيادتها، وهندسة الطرق والكباري، والطباعة والهندسة، وعلوم الفلك والحيوان والنبات والمعادن، والرسم والتصوير، والنحت والموسيقى، والشعر والأدب،

والصحافة والاقتصاد. ومن بين "صفوة المثقفين المشهورين" في ذلك الحين كان هنالك -بالإضافة إلى "برتوليه"- المستشرق "فنتور دي بارادي Venture de Paradis"، وعالِم الحيوان "جيوفروا سانت-هيلار Geoffroy Saint-Hilaire"، وعالم الرياضيات "موغ Monge"، والرسام الشهير "فيفان دينون Vivant Denon". وعلى مدى ثلاثة أعوام أجرت هذه البعثة عدداً مذهلاً من الأبحاث الفنية والعلمية. كما قامت في الواحد والعشرين من شهر يوليو ١٧٩٨ بافتتاح "المجمع العلمي المصري" في قصر قديم ومهجور منذ عهد المماليك، وتقسيمه إلى أربعة فروع : الرياضيات، وعلم الطبيعة، والاقتصاد السياسي، والأدب والفنون. وكان هذا المجمع يهدف إلى اجراء [الأبحاث والدراسات ونشر الموضوعات المتعلقة بالطبيعة والصناعة والتاريخ في مصر]. بيد أنه وفقاً لمقولة "كاريه J.-M. Carré" : [يصعب علينا تحديد تاريخ مصر القديمة قبل التدخل الحاسم لـ"شامبليون" وفكه لرموز الكتابة الهيروغليفية. غير أن القرن التاسع عشر يدين في بدايته بمعرفة الفن الفرعوني إلى "فيفان دينون"، وخاصة إلى مهندسي "بعثة العلوم والفنون". إذ تجلت الهندسة المعمارية والنحت والفنون الثانوية الأخرى التي ترجع للدولة الحديثة والعصر البطلمي بصورة رائعة من خلال لوحات موسوعة "وصف مصر Description de l'Egypte" التي لم يتم وضعها إلا بفضل الرسوم وعمليات المسح التي أجرتها البعثات العلمية في جنوب مصر في عام ١٧٩٩]. وقد دُوِّنَت هذه النتائج في الواحد والعشرين مجلد الذي يُكون هذه الموسوعة التي تم نشرها بين عامي ١٨٠٩ و١٨٢٨ لتعطي أخيراً صورة حقيقية عن مصر العريقة. وقد لجأ أعضاء البعثة الفرنسية لأول مرة إلى استخدام أساليب الوصف والتدوين الموضوعي التي ظلت تُعد حتى ظهور التصوير الشمسي الأسلوب الوحيد لنشر الآثار المصرية. وقد عاد العلماء إلى فرنسا بعد ذلك بحصاد هائل من المذكرات والرسوم المخصصة لتكوين هذه الموسوعة الضخمة. ويُعتبر هذا العمل منبعاً لعلم المصريات نظراً لأنه سيضع أمام أنظار "شامبليون" نصوصاً مصرية منسوخة بقدر كاف من الدقة لكي يبرهن على صحة اكتشافه: أي فك رموز الكتابة الهيروغليفية.

ولا يخفى على أحد أن أهم ثمار حملة "بونابرت" على مصر تتمثل في اكتشاف "حجر رشيد" الشهير. ففي شهر يوليو ١٧٩٩ عثر أحد الجنود الفرنسيين خلال قيامه بتدعيم حصن رشيد على [نصوص تبدو ذات أهمية]. وقد نُقل "حجر رشيد" إلى المجمع العلمي المصري، وكانت تغطيه نصوص مدونة بثلاث لغات: الهيروغليفية والديموطيقية واليونانية. وسرعان ما أدرك العلماء في الحال أن هذا الحجر من البزلت يمكن أن يفضي إلى فك طلاسم اللغة المصرية القديمة.

ومن ثم فقد رفض العلماء الفرنسيون عند استسلام فرنسا في عام ١٨٠١ اعطاء الإنجليز ثمرة أعمالهم. بل هددوا بحرق كل شيء. وقد صرح "جيوفروا سانت-هيلار" "الناطق بلسانهم" قائلاً: [لولانا نحن الفرنسيين لاستعصى عليكم أنتم وذويكم (الإنجليز) فهم هذا الحجر. ولكي لا نسمح بوقوع هذا الظلم والاغتصاب سندمر كل ما في حوذتنا من وثائق، وسنذروها في رمال الصحراء الليبية، ونلقي بها في أعماق البحر، وسنحرق كافة هذه الثروات بدلاً من أن نسلمها لكم كما تشتهون. حسناً، ولكن لتعلموا أن التاريخ لا ينسى ولن يغفر لكم هذة الجريمة الشنعاء التي تضاهي حرق مكتبة الإسكندرية !]. وأمام هذه العبارات الشديدة اللهجة تراجع الإنجليز عن موقفهم. بيد أنهم احتفظوا بحجر رشيد المعروض حالياً في المتحف البريطاني، بعد أن قام العلماء الفرنسيون بعمل نسخ عديدة له، استعان "شامبليون" بإحداها في عمله.

وقد قدّم هذا الأخير -ولم يكن قد تعدى بعد سن السادسة عشرة- بحثاً إلى أكاديمية مدينة "جرونبل Grenoble" حول علم الجغرافيا والديانة واللغة والكتابات والتاريخ في مصر القديمة. كانت تدفعه الرغبة منذ ذلك الحين في تفسير لغة سكان وادي النيل القدماء.

وحينما أمر الامبراطور "جيستينيان Justinien" في عام ٥٣٥م بتحريم عبادة "إيزيس" واغلاق معبدها في جزيرة "فيله"، لم يعد هناك أحد يستطيع فهم نصوص الطقوس المسهبة التي تغطي جدران المعابد المصرية. ومن ثم احتفظت هذه المعابد بأسرارها على الرغم من انحدار اللغة القبطية التي يستخدمها الفلاحون من اللغة

المصرية القديمة، وإن كانت تُكتب بأحرف الهجاء اليونانية التي أضيفت إليها بعض الاشارات لنطق بعض الأصوات التي لم تكن موجودة في اللغة اليونانية.

وقد ظلت الكتابة الهيروغليفية الغامضة حتى عصر النهضة تثير المخيلة دون أن توقظ جهوداً حقيقية لإماطة اللثام عن أسرارها. ثم شهد القرن السادس عشر عودة إلى تذوق وقراءة الكتّاب اللاتينيين واليونانيين، ومن بينهم "هيرودوت Hérodote". وعلى هذا النحو تفتقت بعض المواهب والإبداعات؛ غير أن الباحثين استمروا على الاستناد في أبحاثهم على كُتيب "هيروغليفيكا Hieroglyphica" الذي وضعه "هورابلونHorapollon" في القرن الرابع والذي يحتوي على معلومات جزئية جداً. وخلال نفس هذة الحقبة التاريخية دأب الأوروبيون على الاستشفاء باستخدام عقاقير مصنوعة من مسحوق المومياوات ! ونظراً لرغبة بعض التجار في مضاعفة المكاسب الكبيرة التي كان يدرها عليهم تهريب المومياوات والاتجار فيها، راحوا يبيعون برديات مدونة باللغة القبطية التي اقتصر استخدامها في مصر على إقامة القداسات فقط.

تزايد الإقبال على هذه البرديات بسبب احتوائها على كم هائل من المعلومات اللازمة لدراسة كتاب التوراة. وقد عني "كيرشار Kircher"، أحد أعضاء الجمعية اليسوعية، بدراسة اللغة القبطية بشغف. كما يرجع إليه الفضل في اكتشاف العلاقة التي تربط بينها وبين اللغة المصرية القديمة : إذ صرح بأن اللغتين القبطية والهيروغليفية ليستا في الواقع إلا لغة واحدة، ولكن تُستخدم في كتابتهما طريقتان مختلفتان. ومن دواعي الأسف أن "كيرشار" كان يعتقد أيضاً ـ استناداً إلى كتاب "هيروغليفيكا" لـ"هورابلون"ـ أن الكتابة الهيروغليفية رمزية تماماً. كما أدى ضعف منهجه العلمي، وافتقاده لروح النقد إلى ترك العنان لخياله الجامح. فبدلاً من قراءة اسم الفرعون "ابريس Apriès"، ترجمه على النحو التالي : [ينبغي استدرار خيرات الإله "أوزوريس" عن طريق إقامة الطقوس المقدسة، وتقييد المردة حتى يجود النيل بخيراته] !

وبخلاف هذه التخاريف، لم يتطرق أي عقل جاد لبحث هذا الموضوع. إذ أجمع الكل على النقص الشديد في عدد النسخ الأمينة. ولن يختفي هذا العجز إلا عقب عودة العلماء الفرنسيين من مصر

عام ١٨٠١. حينئذ زادت فرصة النجاح بعد أن توفرت أخيراً النسخ الدقيقة. وعلى الرغم من ذلك ظلت النظرية التي وضعها "هورابلون" دليلاً للدارسين، ومن ثم عائقاً أمام فهم اللغة الهيروغليفية، فقد كان الباحثون يؤمنون بأن الاشارات الهيروغليفية تُعبر مباشرة عن الأفكار، وليست حروفاً صوتية، أو بمعنى آخر كانوا يعتقدين في كون هذه الاشارات رمزية بحتة وليست هجائية. لذلك فإن إحدى دلائل نبوغ شامبليون تتمثل في تمكنه من عدم الانصياع لهذه الفكرة. وفي اللحظة التي شرع فيها شامبليون في حل هذا اللغز المستعصي، كان الوحيد الذي تتجمع فيه كافة الشروط الواجب توافرها من أجل نجاح فك الرموز. إذ كان يجيد اللغة القبطية إجادة تامة، علاوة على إلمامه باللغات السامية والسريانية والعربية والعبرية على وجه الخصوص. بل راح يدرس اللغة الصينية لاعتقاده في أن كتابة هذه اللغة ربما تكون قد أثرت على الطريقة التي اتبعها المصريون القدماء في الكتابة. وفضلاً عن ذلك كان في حوزته نتائج الأعمال التي توصل إليها علماء الحملة الفرنسية، ونسخة من حجر رشيد. غير أن شامبليون لم يكن في الحلبة بدون أي غريم ينافسه. فقد كان هناك عالم الفيزياء الإنجليزي "توماس يونج Thomas Young" الذي راح يحاول قراءة اللغة الهيروغليفية. كما اهتدى إلى التعرف على الأسماء الملكية المدونة في حجر رشيد داخل الخراطيش كما هو معروف للجميع منذ القرن الثامن عشر. كذلك نجح في ترجمة اسم "بطليموس Ptolémée"... ولكنه أخطأ في ترجمة النعت الروماني "Autocrator" بمعنى "المستبد"، وظنه اسم أحد البطالمة "بطليموس يورجتيس Ptolémée Evergète". كما أخطأ في قراءة اسم "قيصرCésar" وترجمه إلى "ارسنويArsinoé". لذلك فقد تحتم على "يونج" أن يفشل لجهله باللغات السامية وإلمامه الضعيف جداً باللغة القبطية، فضلاً عن أن عمله اقتصر على عدد محدود من النصوص. بيد أنه مع تسليمنا بإخفاق "يونج" فإنه يرجع إليه رغم ذلك شرف [اكتشاف أن الكتابة الهيروغليفية ليست هجائية، وأن الكتابتين الهيراطيقية والديموطيقية اللتين تشتقان منها تخضعان أيضاً لنفس المبادىء] (دريوتون وفانديه، مصر L'Egypte، طبعة ١٩٧٢، ص٩).

وقد هيأت تلك النتائج لـ"يوغ" أنه يستطيع أن ينكر أية أهمية لأعمال شامبليون، بل ذهب به الأمر إلى حد اتهامه بالانتحال والسرقة الأدبية!

ولكن لننحي جانباً هذا الجدل المؤسف، ولنعد إلى شامبليون في بداية جهوده. ولكي نلمس وندرك مراحل النجاح التي مر بها يتعين علينا الوقوف أولاً على أسس الكتابة الهيروغليفية التي كانت في نشأتها رمزية. وفي هذا الصدد يذكر لنا "فرانسوا دوما François Daumas" : [لقد بدأ كل شيء بالرسم] فلكتابة كلمة "أوزة" على سبيل المثال كان المصري القديم يستخدم الاشارة التي تمثل صورة هذا الطائر. ولكن [الالتزام بصرامة بهذا الرأي يجعل كتابة كلمات أخرى شائعة مثل "أب" أو "ابن" ...الخ، أمراً مستعصياً. عندئذ تم الاستعانة بطريقة في غاية اليسر والسهولة : ألا وهي إحلال الصورة المراد كتابتها بصورة أخرى تنطوي على نفس اللفظ أو الصوت. فعلى هذا النحو تُستخدم صورة الأوزة التي تنطوي على نفس الحروف الصوامت التي تدخل في تركيب كلمة "ابن" في كتابة هذة الكلمة الأخيرة. أو يتم إضافة صور إلى علامة يمكن قراءتها بطرق عديدة ينبغي فقط أن تُقرأ وتُستخدم كلفظ]. (فرانسوا دوما، اركيولوجيا ٥٢، ١٩٧٢، ص١٢). لذلك يدخل في تركيب نظام الكتابة الهيروغليفية ثلاثة أنواع من الإشارات : إشارات تصويرية (أو رمزية) تمثل الأشياء على حقيقتها مباشرة، وإشارات لفظية (أو صوتية)، وأخيراً إشارات متممة أي غير صوتية تُستعمل في أواخر الكلمات لتحديد معناها.

وفي عام ١٨١٠ كتب شامبليون، ولم يكن قد تعدى بعد العشرين ربيعاً، أن الكتابة الهيروغليفية [لها خاصية إصدار أصوات] نظراً لاستخدامها في كتابة أسماء الأعلام. وهكذا يتجلى لنا كيف مزج هذا العالِم عبقرية الحدس بدقة وصرامة المنهجية في بوتقة واحدة. فلنستمع إليه وهو يشرح بنفسه القاعدة التي اتبعها : [لقد ألزمت نفسي بعدم الإقدام على أي شيء دون إثباته بالبراهين المتعددة والواضحة والبديهية التي تمت ملاحظتها بعناية ومقارنتها بصرامة. ومن شأن هذا النهج أن يضفي قيمة على استنتاجاتي وعلى الأفكار التي ينبغي عليّ تقديمها].

وفيما بين عامي ١٨١٠ و ١٨٢٠ انكب شامبليون على جمع كم هائل من المراجع سمحت له بقراءة اسم أحد الملوك البطالمة مدوناً على المسلة المصرية المنتصبة فوق جزيرة "فيله" الواقعة على مقربة من أسوان. كما أثبت أن اسم هذا الفرعون يتبعه نعتان : "الذي يحي إلى الأبد" و"محبوب بتاح". وفضلاً عن ذلك نجح في التعرف في نفس النص على كلمات "محبوب إيزيس" و"الإلهة الأم" و"الشمس" و"أوزوريس" و"حورس" و"ابن أوزوريس". ومن ثم يمكننا أن نعتبر ذلك بمثابة الخطوة الأولى الكبيرة التي قطعها شامبليون على درب كشف أسرار الكتابة الهيروغليفية.

وبعد ذلك بقليل تمكن من التعرف على اسم "كليوباترا Cléopatre" في نفس النص. عندئذ واتته الفكرة في مقارنة الأشكال التي يتخذها هذا الاسم في اللغتين المصرية واليونانية. وهكذا راح شامبليون يزيد رويداً رويداً من رصيده من الأحرف وعلى الأخص بدأ يدرك طبيعة نظام الكتابة الهيروغليفية. كما توصل بالفعل إلى اكتشاف استخدام الإشارات المتممة، مما جعله قادراً على ترجمة أسماء جميع الأباطرة الرومانيين. وبينما أخذ شامبليون يتقدم بخطى حثيثة ظل هناك تساؤل يتسلط على ذهنه وتفكيره : ترى هل أدخلت الإشارات الصوتية في مصر بتحريض من اليونانيين لكتابة الأسماء الأجنبية الدخيلة على اللغة المصرية ؟ وإذا صح ذلك فإن الإشارات الهيروغليفية المستخدمة قبل التواجد اليوناني في مصر تكون إشارات معنوية بحتة.

وفي الرابع عشر من شهر سبتمبر ١٨٢٢ انبثقت كل الأنوار عندما تسلم شامبليون وثائق أرسلها إليه "هييو Huyot" من مصر، وتحتوي على خرطوش يحمل اسماً ينتهي باشارتين يعرفهما : حرفي S. أما الاشارة الأولى في هذا الاسم فتصور الشمس التي تُقرأ في اللغة القبطية "رع Ra". أما عن الاشارة الوسطى فقد سبق أن طالعته في نصوص حجر رشيد في تعبير يترجم كلمة "ميلاد" أو "يوم الميلاد"في اللغة اليونانية. وبدون تردد اعزاه شامبليون إلى إشارة M التي حينما تُتبع باشارة S تعني بالقبطية "مس mice" أي "خلقه". وعلى هذا النحو توصل شامبليون إلى قراءة اسم أشهر الفراعنة على الإطلاق "رمسيس Ramsès" [الإله رع هو الذي

خلفه]. ويذكر لنا "فرانسوا دوما" في هذا الصدد أن شامبليون [لم يكن يقرأ فحسب، وإنما كان يترجم في نفس الوقت ! وعلى نفس المنوال توصل إلى ترجمة اسم "تحتمس Thoutmosis "] (اركيولوجيا ٥٢، ١٩٧٢، ص١٦).

وبعد أن زف شامبليون هذا النبأ العظيم لأخيه الأكبر سقط مغشياً عليه من فرط التعب وشدة الانفعال ! وبعد أن أفاق من الغيبوبة التي لازمته طيلة خمسة أيام كاملة، شرع في صياغة رسالته الشهيرة بعنوان : "رسالة إلى السيد داسيبيه، أمين سر مدى الحياة لأكاديمية العلوم والفنون، تتعلق بأبجدية الحروف الهيروغليفية الصوتية التي كان يستخدمها المصريون القدماء لتدوين ألقاب وأسماء الحكام اليونانيين والرومانيين على جدران آثارهم". وقد تناول شامبليون في هذة الرسالة شرح وتحليل أسس الكتابة الهيروغليفية مشيراً إلى كونها [تصويرية ورمزية وصوتية في نفس الوقت، وكل إشارة يمكن أن تمثل إما صوتاً بسيطاً أو حرفين صامتين أو فكرة]. وبمجرد الإعلان الرسمي عن هذا الاكتشاف أخذ الجدل والهجوم يتسعان بصورة بالغة. وإذا جاز لنا تفهم موقف "توماس يوغ" وسلوكه الذي كان يتسم بالغيرة والمرارة إزاء شامبليون، فعلى النقيض من ذلك يتعذر علينا تفهم موقف "جومار Jomard" أحد علماء الحملة الفرنسية و"المدير" المسؤول عن نشر موسوعة "وصف مصر". وقد كان يعتقد في استحالة إدخال أي تعديل أو إضافة على مضمون هذا العمل... وباختصار شديد فإن مصر هي "جومار" وليس هذا الشاب الوقح (شامبليون) ! ولم يتراجع عن اللجوء إلى شتى الطرق والوسائل للإساءة إلى شامبليون والنيل منه : التشهير السياسي، ومساندة "يوغ"... وحتى كتابة رسائل كيدية بدون توقيع. وهكذا واصل شامبليون مشواره وتابع تقدمه في ملاحة محفوفة بالمخاطر وسط العقبات التي وضعها المثقفون في ذلك الوقت في طريقه.

وعلى الرغم من ذلك فقد أصبح الطريق من الآن فصاعداً ممهداً بلا شك لفهم تاريخ وحضارة مصر القديمة فهماً عميقاً وشاملاً. كما كان شامبليون متشوقاً للتحقق من قيمة اكتشافه على أرض الواقع، أي في مصر نفسها. بيد أنه آثر خوض فترة "تدريبية" في ايطاليا قبل أن يخطو هذة الخطوة، نظراً لاحتوائها على أغنى مجموعة من

الآثار الفرعونية -بعد مصر. وفي السابع من شهر يونيو ١٨٢٤ نزل شامبليون في مدينة "تورينو" حيث كان يعتزم الإقامة بها بضعة أيام فقط. غير أن غزارة البرديات وكثرة التماثيل أطالت فترة إقامته حتى الأول من شهر مارس ١٨٢٥. وهناك حقق أعمالاً ضخمة : إذ أتقن قراءة الكتابتين الهيراطيقية والديموطيقية، وأعاد ترتيب قائمة الفراعنة وتسلسلهم الزمني، وجمع المعلومات الخاصة بعلم الجغرافية والديانة ...الخ. بيد أنه تحتم عليه الاقتناع بمبدأ جديد : ألا وهو استقلال الفن المصري بالنسبة للفن اليوناني. وقد ورد شرح هذه النتائج في "رسالتين إلى الدوق "دي بلاكاس دولب" خاصتين بمتحف مدينة تورينو" تم نشرهما في عامي ١٨٢٤ و١٨٢٦.

وعقب عودته إلى "باريس" وجد شامبليون أن الأوضاع قد تبدلت تماماً عما كانت عليه عشية رحيله إلى ايطاليا. إذ أصبح نظام حكم "شارل العاشر Charles X" أقل قسوة وخشونة مع انصار "بونابرت" القدماء من أمثال شامبليون. كما أجبرت أصداء النجاح الذي أحرزه هذا الأخير في ايطاليا خصومه من أمثال "جومار" على الالتزام بمزيد من اللياقة والتروي. وأخيراً عهدت الحكومة الفرنسية إلى شامبليون بمهمة هامة بعد أن نجح في انتزاع موافقتها على شراء مجموعة الآثار المصرية الرائعة التي يملكها السيد "سالت Salt" قنصل انجلترا لحساب متحف "اللوفر" ونقلها إلى "باريس". وخلال رحلته الثانية إلى ايطاليا، علم شامبليون بنبأ تعيينه في الرابع عشر من شهر مايو ١٨٢٧ مديراً لقسم الآثار المصرية في متحف "اللوفر". ثم انشغل حتى شهر يوليو ١٨٢٨ في اعداد هذا القسم، وترتيب عرض مجموعة آثار "سالت" ومجموعة ثانية كان قد جمعها القنصل "دروفيتي Drovetti". أما الآن وبعد أن فرغ من هذه المهمة، فقد أصبح شامبليون مهيأ للرحيل إلى مصر.

وتُعد هذه الرحلة تتويجاً لكل ما بذله من جهود حتى الآن. كما وضع برنامجاً تفصيلياً لها كما يتضح لنا من المذكرة التي أرسلها إلى الملك : [لقد كان علماء الحملة الفرنسية ومعظم الرحالة الذين حذوا حذوهم يؤمنون باستحالة التوصل إلى فهم العلامات الهيروغليفية. ومن ثم لم يعلقوا أهمية كبيرة ولم يتوخوا الدقة في نسخ النصوص المسهبة المدونة بالأحرف المقدسة التي تصاحب النقوش البارزة التاريخية. بل لقد اهملوها دائماً تقريباً لدرجة

أنهم كثيراً ما كانوا يلجأون عند نسخ بعض تلك المناظر إلى الاكتفاء بمجرد تحديد الأماكن التي تشغلها النصوص التفسيرية المصاحبة... لذلك فما أشد حاجتنا اليوم إلى نسخ مجموع هذة اللوحات التاريخية الضخمة التي يشرح بعضها البعض، وعلى وجه الخصوص عمل نسخ دقيقة للنصوص الهيروغليفية العديدة المصاحبة لها. ومن شأن هذه النسخ أن تحقق مجموع، أو على الأقل جزءاً كبيراً من الآمال العظيمة التي تراود العلوم التاريخية]. لم يكن تصويب الأعمال التي احرزها علماء الحملة الفرنسية يمثل شاغله الأوحد فقط. إذ كان هدفه الأساسي هو : [جمع... تاريخ غزوات العديد من الملوك، وعلى الأرجح تاريخ تحرير مصر من نير الرعاه الهكسوس نظراً لارتباط ذلك الحدث بقدوم العبرانيين إلى مصر وأسْرهم؛ ....، اللوحات التي تصور الغزوات التي شنها "رمسيس الأكبر" (رمسيس الثاني) في قلب القارة الإفريقية؛ ....؛ الحملات العسكرية التي قادها "رمسيس-ميآمون Rhamsès-Méiamoun" (رمسيس الثالث) ضد الشعوب الأسيوية؛ ...؛ مآثر الفراعنة "موريس Moeris" (امنمحات الثالث) و(سيزوستريس الأول) و"امينوفيس الثاني Aménophis II"؛ ...وأخيراً... أدق التفاصيل حول الغزوات التي شنها "سيزوستريس" العظيم في قارتي آسيا وإفريقية]. كما كان شامبليون يرغب في اقتناء [قطع أثرية رائعة من شأنها أن تثري مجموعاتنا الملكية، وتسليط الضوء على الأعمال التاريخية التي يجريها علماؤنا]. وقد قام بتنفيذ خطة العمل هذه بحذافيرها. وفي الثامن عشر من شهر أغسطس ١٨٢٨ وطأت قدماه أرض مصر.

تعتبر رحلة شامبليون إلى بلاد الفراعنة رحلة علمية في المقام الأول، ولكن ذلك لا يعني أن مصر الحديثة والمعاصرة لم تسترع انتباهه. فغالباً ما تضم رسائله ملاحظات صائبة جداً عن الحياة في مدينة القاهرة، ووصفاً لأهم آثارها الرئيسية. إذ كان [يعشق تأمل مدينة "الألف مئذنة" في غمرة الشمس الغاربة من أعلي جبل المقطم والتي سحرته من أول نظرة، والتي يكمن في ثراء أشكالها العجيبة وعوداً باكتشافات عظيمة]. (هارتلبن Hartleben، شامبليون، ص٤١٥). [لقد حازت مدينة القاهرة على إعجابي بالرغم من الانتقادات العديدة التي وُجهت إليها. ويبدو لي عرض شوارعها

ذات الثمانية أو العشرة أقدام محسوباً بدقة للاحتماء من الحرارة المرتفعة جداً. إن القاهرة مدينة هائلة مترامية الأطراف... ولاتزال مدينة "ألف ليلة وليلة"، بالرغم من أن الهمجية التركية قد وأدت قدراً كبيراً من ثمار الفنون والحضارة العربية العظيمة]. لم يقنع هذا "المصري" -وهو اللقب الذي أطلق على شامبليون- بمجرد الهيام في شوارع القاهرة، بل راح يتذوق سحر وجمال المزارات الإسلامية المقدسة : [قمت بالتعبد لأول مرة في مسجد "ابن طولون" المشيد في القرن التاسع والذي يُعد نموذجاً رائعاً للأناقة والرفعة والسمو. إلا أنني لم أتمكن من مشاهدته ملياً في إعجاب على الرغم من تهدم نصفه. فبينما كنت أتأمل الباب إذا بشيخ مسن يدعوني للدخول؛ فقبلت بلطف. إلا أنه بعد أن اجتزت الباب الأول في خفة ورشاقة، اذا بهم يستوقفونني أمام الباب الثاني : فلا يجوز دخول المكان المقدس بالحذاء. عندئذ خلعت حذائي، ولما كنت بدون جورب فقد استعرت منديلاً من الجندي الانكشاري المصاحب لي ووضعته حول قدمي اليمنى. ثم استعرت منديلاً آخراً من خادمي النوبي محمد لأضعه حول قدمي اليسرى. وهاأنا ذا أجد نفسي على الأرضية الرخامية للحرم المقدس. ويُعتبر هذا المسجد بلا مراء من أروع الآثار الإسلامية المتبقية في مصر، إذ ما أعجب رقة نقوشه وما أروع تسلسل أروقته المقنطرة !...].

لم تكن مدينة القاهرة بالنسبة لـ"شامبليون" مجرد حشد من الآثار الفرعونية والقبطية والإسلامية. فلقد شعر بالتعاطف مع سكانها وبأنه مشدود إليهم، وكذلك الأعياد والاحتفالات التي كانوا يقيمونها والتي ترك لنا لوحة عنها تفيض بالحياة. ويسوق لنا في إحدى رسائله على سبيل المثال الوصف الدقيق التالي لذكرى الاحتفال بالمولد النبوي : [...اكتظ ميدان الأزبكية الكبير والهام -والذي كانت تتوسطه مياه الفيضان- بالناس الملتفين حول المهرجين والراقصات والمغنيات، بالإضافة إلى سرادقات غاية في الجمال نُصبت لإقامة الشعائر الدينية. فهنا نرى بعض المسلمين جالسين يرتلون آيات قرآنية، وهناك نجد ثلاثمائة من الناسكين جالسين في صفوف متوازية يتمايلون دون توقف بأعلى أجسامهم إلى الأمام ثم إلى الخلف مثل دُمى ذات مفصلات ويرددون في نفس واحد "لا إله إلا الله" ! وعلى مبعدة من ذلك كان هناك خمسمائة

من الرجال الممسوسين الرعناء واقفين جنباً إلى جنب يقفزون في إيقاع ويهتفون باسم الله من أعماق صدورهم المنهكة ويرددون ذلك الآف المرات في صوت بهيم أجش، حتى أنني لم أسمع في حياتي كلها كورس شيطاني مثل ذلك! ولقد انتابنا الخوف فعلاً من ذلك الطنين المرعب. وإلى جانب جنون تلك المناسك الدينية كان هنالك العازفون وبنات الهوى وألعاب الأطواق والأراجيح المختلفة في أوج نشاطها. إن هذا المزيج من الألعاب والملذات الدنيوية والشعائر الدينية، بالإضافة إلى غرابة الوجوه والتنوع الشديد في الثياب قد شكل منظراً مثيراً للغاية لن يبارح ذاكرتي ابداً].

وإذا كانت الآثار الإسلامية في مدينة القاهرة قد أخذت بمجامع قلب شامبليون، فإن الجو الذي كان سائداً حينئذ في "الصالونات" أو "المجالس" لم يكن، على النقيض من ذلك، محبباً إلى نفسه. فبمجرد وصوله إلى مصر اعتبره تجار العاديات ورجال السلك الدبلوماسي عائقاً امام أعمال النهب والسرقة وتهريب الآثار التي كانوا يمارسونها: [...ارتعد كل تجار العاديات لنبأ قدومي إلى مصر بغرض التنقيب عن الآثار، وأخذوا يتآمرون لمنعي من الحصول على الفرمانات اللازمة، ونجحوا في خداع الوزير "بوغوص" والباشا الذي أفصح عن عدم رغبته في منح فرمانات إلا لصديقيه "دروفتي" و"انستازي"، ونصحوني بصرف النظر عن ذلك الأمر. إلا أنني كتبت مذكرة إلى موثق العقود في القنصلية الفرنسية موضحاً فيها حقيقة أنني جئت مصر للتنقيب عن الآثار لحساب متاحف الملك، وعليه فإنني مضطر أن أحيط وزراءه علماً بالأسباب التي منعتني من تنفيذ ما أسند إليّ من مهام؛ كما أن مؤامرة مادية دنيئة هي التي حالت دون حصولي على تلك الفرمانات... وإذا كان الباشا ووزيره يرغبان حقاً في الحفاظ على سمعتهما في أوروبا كحماة للعلوم والفنون فهاهي الفرصة الوحيدة -بإعطائي فرمانات للتنقيب- لتشجيع وحماية العلم فعلاً، خلافاً لما دأبا عليه حتى الآن من تسهيل وخدمة المصالح الفردية والمضاربات التجارية عن طريق منحهم فرمانات مماثلة لمن لايستحقونها. إن لي هدفاً آخر أبتغيه من وراء الحفائر، هدفاً أسمى وأرفع من تلك المضاربات... ولقد بلغت هذه المذكرة الوزير "بوغوص". إن هذا الإجراء -علاوة على "الرأي العام" السائد في الإسكندرية- قد حسم القضية لصالحي. إذ

خشي المعارضون أن أندد بهم في جرائد أوروبا. لذلك فقد تسلمت اليوم الفرمانات، حتى أن السيدين "دروفتي" و"انستازي" تنازلا لي عن حقيهما في التنقيب في بعض المناطق المقصورة عليهما]. إن ممارسات رجال السلك الدبلوماسي العاملين في مصر وكذلك المبادىء السياسية للحزب الجمهوري الذي كان ينتمي إليه شامبليون في شبابه جعلته يتأثر بشكل ملموس ببؤس وشقاء الفلاح المصري من ناحية، وبظلم وطغيان نظام الحكم من ناحية أخرى. وقد ذكر في إحدى رسائله تعليقاً على هدية منحها له الوالي: [ولما كان محمد علي يعلم بأن أسلافه الأقدمين كانوا يصورون مصر على هيئة بقرة، فإنه لايتورع عن حلبها وإنهاكها ليل نهار... إن مصر تثير في النفوس الرعب والشفقة في آن واحد. ولا مناص من الاعتراف بتلك الحقيقة بالرغم من السيف الرائع والمُطَعّم بالذهب الذي أهداه لي الباشا تعبيراً عن اغتباطه الشديد].

ولا يليق بنا اطلاقاً أن نغفل أن هذه البعثة الأثرية كانت كذلك رحلة استكشافية تمت في ظروف غير سياحية بالمرة. وفيما يلي نسوق على سبيل المثال الوصف الذي أورده لنا "المصري" عن زيارته لمعابد "أبو سمبل": [...أما معبد "أبو سمبل" الكبير فيستحق بمفرده مشقة القدوم حتى النوبة. إنه لؤلؤة براقة لن تفقد شيئاً من رونقها حتى لو وضعناها في قلب "طيبه". وتملأنا الرهبة لمجرد تخيل ما تطلبه ذلك من أعمال جسيمة وجهود مضنية. وتزدان واجهته بأربعة تماثيل ضخمة منحوتة بإتقان تصور "رمسيس الأكبر" جالساً، ولا يقل ارتفاع كل منها عن واحد وستين قدماً... إن مدخل المعبد يخطف الألباب، وكذلك حاله من الداخل على الرغم من صعوبة زيارته. فعند وصولنا كان المدخل مغموراً بالرمال التي يحرص النوبيون على سده بها. ثم قمنا بإزاحتها بحيث نهيؤ ممراً ضيقاً يُفضي إلى الداخل، متخذين كافة الاحتياطات الممكنة لدرء خطر تدفق تلك الرمال اللعينة من جديد والتي تهدد بالتهام كل شيء في مصر والنوبة. ثم خلعت كل ملابسي تقريباً، ولم أحتفظ إلا بقميصي العربي وبسروال صغير من الكتان. وتقدمت منبطحاً نحو فتحة صغيرة لباب لا يقل ارتفاعه عن خمسة وعشرين قدماً بعد إزاحة الرمال من حوله. عندئذ أحسست وكأنني في فوهة فرن. ثم انزلقت داخل المعبد حيث كانت الحرارة تبلغ واحداً وخمسين درجة

مئوية. وشرعت أطوف فيه أنا و"روزليني" و"ريتشي" وواحد من العربان، وقد أمسك كل منا بشمعة في يده. وبعد ساعتين ونصف من الإعجاب والانبهار، وبعد أن أتينا على كافة النقوش البارزة، شعرنا بالحاجة إلى استنشاق الهواء النقي. لذلك تعين علينا التوجه إلى مدخل ذلك الأتون المستعر متخذين حيطتنا للخروج منه. وبمجرد خروجي إلى النور سارعت بارتداء صدريتين من القطن الناعم وبرنس من الصوف ومعطف كبير. وبقيت جالساً على هذه الحال لمدة نصف ساعة حتى يجف عرقي بالقرب من أحد التماثيل العملاقة الخارجية. وكانت ساق التمثال تحجب عني عصف الرياح الشمالية].

وبعد هذه التجربة مباشرة قرر شامبليون العمل في [هذا الآتون المستعر] ساعتين في الصباح وساعتين بعد الظهر هو وثلاثة من أعضاء البعثة فقط [لكي لا تؤدي عملية التنفس إلى استنفاذ كل كمية الأكسجين الموجودة بالداخل]. [...إن كل شيء هنا عملاق، بما في ذلك ما قمنا به من أعمال ستسترعى نتائجها اهتمام الجميع. فكل من يعرفون تلك الناحية يلمون تماماً بكافة العقبات التي ينبغي التغلب عليها وتذليلها في سبيل نسخ علامة هيروغليفية واحدة من نص المعبد الكبير... وإذا علمنا مدى الارتفاع الشديد في درجة الحرارة داخل هذا المعبد المدفون حالياً تحت الأرض... وإذا علمنا بحتمية دخوله شبه عراة وكمية العرق الذي يتصبب بلا انقطاع من جميع أعضاء الجسم ويسيل على العينين ويتقاطر على الورق المبلل بسبب رطوبة ذلك الطقس الملتهب، إذا علمنا كل ذلك فستتملكنا الدهشة والإعجاب بشجاعة رفاقي الشبان الذين راحوا يجابهون ذلك الأتون المستعر طوال ثلاث أو أربع ساعات يومياً، ولا يخرجون من المعبد إلا من فرط الإنهاك، ولا يتوقفون عن العمل إلا بعد أن تعجز أرجلهم عن حملهم].

وعلاوة على قسوة وصعوبة الحفائر وما تنطوي عليه من مشاق، ينبغي علينا أن نضيف العقبات التي واجهت أعضاء البعثة في العثور على أماكن لإقامتهم في وادي النيل. إذ اضطروا خلال إقامتهم في البر الغربي لـ"طيبه" إلى النوم داخل إحدى المقابر في وادي الملوك! (مقبرة رمسيس الرابع). [...ويبلغ طول الحجرات الثلاث الأولى التي نزلنا بها خمسة وستين قدماً؛ بينما تغطي كل

جدرانها التي يتراوح ارتفاعها بين خمسة عشر وعشرين قدماً وأسقفها بالنقوش التي لاتزال تحتفظ برونق ألوانها الزاهية. ويُعد ذلك مسكناً ملكياً حقيقياً، تغطي أرضيته كلها الحصير والبوص... وينام الجنديان المكلفان بحراستنا مع الخدم في خيمتين منصوبتين أمام مدخل المقبرة. ويُعتبر وادي الملوك بحق مملكة للموتى، إذ ينعدم فيه الماء والنبات، ولا يطرقه أي كائن حي باستثناء حيوانات ابن آوي والضباع التي افترست أول أمس على بُعْد مائة قدم من "قصرنا" الحمار التابع لخادمي البربري محمد الذي كان يقضي في ذلك الوقت ليلة رمضان في المطبخ الذي أقمناه داخل إحدى المقابر الملكية المتهدمة تماماً].

لم يكن وادي الملوك مجرد مكان للنوم وتخزين المعدات، وإنما كان أعضاء البعثة يستقبلون فيه أيضاً سكان القرية المجاورة. وعلى هذا النحو تم الاحتفال بميلاد ابنة شامبليون في مقبرة "سيتي الأول Séhti I" : [وسأكلل هذه المفاجأة التي أعددتها بطبق من لحم التمساح بالصلصة الحرّاقة. وأنا أعتمد كثيراً على هذه الأكلة لإبهارهم.لقد حمض لحم التمساح أثناء الليل وتعفن. يا للمصيبة!]. وطوال فترة إقامة البعثة الفرنسية التوسكانية بقرية "القرنة" الواقعة على مقربة من وادي الملوك، دأب أهل هذه القرية على التردد يومياً لزيارة العلماء. ويشرح لنا شامبليون في إحدى رسائله الطريقة التي كان يتبعها من أجل تنحيتهم جانباً وبالتالي تأمين الهدوء والسكينة اللازمة لمتابعة أعماله : [...كنت أقدم لهم النرجيلة والقهوة بين الفينة والفينة. كما كلفت الترجمان التابع لي بتسليتهم بينما انخرطت أنا في الكتابة. كما كنت أدعوهم بالمناوبة لتناول وجبة الغداء معنا. وكانوا يغمروننا بالهدايا حتى أصبح لدينا قطيع من الخراف ونحو خمسين دجاجة أخذت ترعى في هذه اللحظة وتُنقب حول رواق قصر "القرنة"، وفي مقابل ذلك كنا نهديهم باروداً وأشياء زهيدة أخرى].

أخيراً، وبفضل شامبليون لم تعد مصر القديمة بكماء خرساء، إذ جعل الأحجار العريقة تتكلم. ويذكر لنا "جان ماري كاريه" :... [أينما يظهر على الضفة اليسرى أو على الضفة اليمنى للنيل، متسلحاً بمفتاحه الذي يحل ألغاز الماضي ويبدد خفاياه، كان شامبليون يبدد ظلمات الجهل وعتمته، ويفجر من حلكة ليل الآف

السنين وجوهاً جديدة وفراعنة منتصبين فوق عجلات حربية، وأسرى عبرانيين وسوريين ونوبيين مقيدين في الأغلال، وكهنة يرتدون فرو الفهد ويحملون المركب المقدسة، وكل مواكب وجميع أعياد واحتفالات مصر القديمة المسالمة والمحبة للحروب. كما كان يبعث نبض الحياة في النصوص المدونة على أسوار المعابد وجدران السراديب المنحوتة في أحشاء الجبل : فتنبعث أناشيد تذكارية للحرب ضد الحيثيين ومعركة "قادش"، وأغنية دِراس الحبوب، ونصوص طقسية وكتاب الموتى ...الخ] (رحالة وكُتّاب فرنسيون في مصر Voyageurs et écrivains français en Egypte، مجلد ١، ص٢٤١). فجأة أصبحت الحضارة المصرية ناطقة ومطنبة نظراً لأن كل أثر من الآثار وكل بردية من البرديات كانت تؤكد صحة اكتشاف "المصري". نعم لقد تحقق شامبليون من صلاحية أعماله، وأفضى إلى السيد "داسييه Dacier" بذلك في إحدى رسائله قائلاً : [...الآن وبعد أن تتبعت مجرى النيل من مصبه وحتى الشلال الثاني، أعلن لكم بكل زهو وفخر بأن "رسالتنا حول الأبجدية الهيروغليفية" صحيحة تماماً ولا تتطلب أي تعديل. إذ يمكن تطبيق تلك الأبجدية الصائبة التي وضعناها بنفس النجاح على الآثار المصرية التي ترجع إلى العصرين الروماني والبطلمي. وكذلك -وهو ما يمثل أهمية أعظم- على نصوص كافة معابد وقصور ومقابر مختلف العصور الفرعونية. لذلك فكم كنتم على حق في التأييد والتشجيع اللذين أوليتموهما لأبحاثي الهيروغليفية في وقت لم تكن تحظيه إطلاقاً بأي اهتمام أو تأييد من أحد].

ويشير "برجيه P. Barguet" إلى حقيقة أن الإسهامات العلمية الرئيسية بالنسبة لعِلم وليد مثل عِلم المصريات تتمثل في نسخ عدد لا يحصى من النصوص واللوحات والخرائط. [لقد اجتذبت النقوش البارزة انتباه شامبليون على وجه الخصوص نظراً لوفرتها التي لا تُعد ولا تحصى. وتتجلى لنا بوضوح عبقريته الخارقة وتبحره في العِلم والمعرفة من خلال الوصف الذي يسوقه لها حيث يتعرف بيقين على أسماء الفراعنة والمدن والشعوب العديدة التي كانت خاضعة لمصر آنذاك. وكان شامبليون يعي تماماً أنه يفتح على هذا النحو "مجالاً جديداً لأبحاث الجغرافية المقارنة" بسبب "الترادف بين هذه الأسماء المصرية للشعوب وتلك التي أوردها الجغرافيون اليونانيون وعلى

الأخص تلك التي جاء ذكرها في النصوص العبرانية وحوليات الشعوب الأسيوية". ولما كانت جدران الآثار المصرية مغطاه دائماً باللوحات الدينية والتاريخية، فإن ذلك يخدم علم التاريخ أيما خدمة: [تُعيننا الآثار المصرية على تأكيد الشواهد التاريخية المستقاه من كتابات اليونانيين، فضلاً عن إلقائها الضوء وتنسيقها للمفاهيم الغامضة وغير المتماسكة التي نقلها لنا اليونانيون حول تاريخ مصر عامة، وحول عصوره القديمة على وجه الخصوص]. بيد أن هذه النتائج الهامة كانت تثير بعض القلق والمخاوف في نفس شامبليون بشأن مستقبل اكتشافاته: [...أما آن للدكتور "يوغ" المسكين أن ينصلح حاله ؟ ...ولايزال هذا العلامة الإنجليزي يتجادل ويتبادل الرأي في الأبجدية الهيروغليفية التي وضعها هو، بينما انغمست أنا وسط الآثار المصرية القديمة منذ ستة أشهر، ورحت لدهشتي الشديدة أقرأ نصوصها بيسر وسهولة أكثر مما كنت أتخيل. وقد توصلت إلى نتائج محيرة للغاية (لتحتفظ بهذا السر بيننا) من العديد من النواحي؛ بيد أنه يتعين علينا تكتمها في الوقت الراهن. لم يخب انتظاري، واتضحت لي العديد من الأمور التي كنت أتشكك فيها بغير وضوح، واكتسبت يقيناً لا يتزعزع]. ترى ماذا كانت [هذه النتائج المحيرة للغاية] ؟ لقد كانت تتعلق على الأخص بالتسلسل الزمني: [فعلى الرغم من اعتراض روما ومعارضة رجال الدين البروتستانتي، فإن الأسرات الخمسة عشرة الأولى قد بُعثت من جديد، وتؤكدها الآثار والأنقاض الأثرية، وراحت تطالب باسترداد مكانتها في حوليات تاريخ البشرية مهما كانت مغبة ذلك على التسلسل الزمني كما ورد في التوراة. إن الاكتشافات التي أحرزها شامبليون في مجال علم الفلك عند القدماء أبرزت خطأ وبطلان التسلسل الزمني المصري الذي كان يبدأ فقط الف عام قبل الميلاد، والذي كان متبعاً حتى ذلك الحين. لقد كانت مصر القديمة تمتلك خلف مظاهر عبادة الأوثان وفي خبايا أركان عقائدها، بعيداً عن عمد عن أعين عامة الناس لدرجة تجعلها ضائعة المعالم، مفهوماً للألوهية لا يقل نقاوة وطهارة عن الديانة المسيحية نفسها، مترسخاً على الأخص في مبادىء الثالوث المقدس. وفي هذة النقطة يكمن ... مصدر الخطر الحقيقي الذي كان يهدد عِلم المصريات الوليد] (هارتلبن، شامبليون، ص٤٨١). كان شامبليون هو الوحيد الذي

تغلغل في أصول الديانة المصرية القديمة ! إذ قام في شتى المواقع الأثرية التي زارها بعمل مسح لكافة صور آلهة المعابد المختلفة والنصوص الدينية واللوحات الميثولوجية والأدوات المستخدمة في إقامة الطقوس والشعائر ...الخ بغية "الإلمام عن ظهر قلب بمجمل أركان العقيدة المصرية التي تُعتبر ينبوعاً لكل الديانات الوثنية في الغرب"... بما في ذلك الديانة المسيحية ايضاً !

وقد أدرك شامبليون طبيعة النظام الديني الفرعوني خلال إقامته في "طيبه"، وعلى الأخص أثناء نزوله في مقبرة "رمسيس الرابع". وتعكس لنا زخارف مقابر وادي الملوك تأليه الملك كالشمس ودمجه بها [في المرحلتين اللتين تجتازهما خلال جزئي اليوم] : إذ يُبعث الملك كل صباح مع بزوغ قرص الشمس، ويموت مع مغيبه كل مساء. كان شامبليون أول من اثبت أن [هاتين المجموعتين من اللوحات تجسد نظرية علم النفس المصري في أكثر المبادىء الأخلاقية أهمية : ألا وهما مبدأي الثواب والعقاب]. كذلك كان أول من أدرك أن اللوحات التي تزين الحجرة الجنائزية في مقبرة "رمسيس الرابع" تُعد تمثيلاً [لكل] نظام نشأة الكون ومبادىء علم الفيزياء والطبيعة عند المصريين]. [وينضم علماء المصريات المحدثون اليوم إلى شامبليون ويعتنقون هذا الرأي وإن كانوا يشيرون إلى ذلك بمصطلحات مثل "الديناميكا" أو "علم الطبيعة اللاهوتية"] (برجيه، اركيولوجيا ٥٢، ص٣٥).

وقد عكف شامبليون أثناء "زياراته" على تسجيل عمليات اغتصاب وطمس وتشويه الأسماء الملكية، وجمع حتى التدوينات والخربشات التي تركها المصريون القدماء وكذلك تلك التي تركها الرومانيون واليونانيون والأقباط والفرنسيون خلال الحملة التي شنوها على مصر اعتقاداً منه في [أهمية بعضها سواء من حيث المضمون أو سواء من الناحية الباليوغرافية، فضلاً عن أنها تُعد من المعلومات التي ستجد موقعها وسط الرسوم التي أنجزتها]. إن النهج الذي اتبعه شامبليون في جمع المعلومات يثبت لنا أنه كان يعمل كعالِم حقيقي وليس كمجرد هاو مستنير، ويُعد هذا الأمر جديداً في ذلك العصر. ولم تكن عمليات المسح التي أجراها مجرد ذكريات رحلة نظراً لأنه [لإيجاد ترتيب دقيق وصارم في جمع مثل هذه الكنوز العديدة وتفادي التكرارات العقيمة عند تفحص آثار جديدة

أخرى، كان شامبليون يواظب كل مساء علي تحليل وترتيب النسخ والرسوم التي تم تنفيذها خلال النهار ترتيباً أبجدياً، وبالتالي كان ذلك ضماناً لتوافر كل الوضوح والجلاء المستحب لمجموعة رسوم تأخذ باستطراد أبعاداً ضخمة. وقد قسم ذلك إلى ثلاثة عشر باباً مقسمة بدورها إلى العديد من الفروع وتحمل العناوين التالية: [١) الزراعة، ٢) الفنون والحرف، ٣) طبقة العسكريين، ٤) الغناء والموسيقى والرقص، ...الخ] (هارتلبن، شامبليون، ص٤٢٧). غير أن هذه الرسوم لم تُنشر إلا بعد وفاته. وفيما بين عامي ١٨٣٥ و١٨٤٥ تم نشر "آثار مصر والنوبة وفقاً للرسوم التي تم عملها على الطبيعة تحت إشراف شامبليون الصغير، والنصوص الأصلية التي حررها". وفي عام ١٨٤٤ تم نشر "آثار مصر والنوبة. مذكرات تفسيرية مطابقة للمخطوطات الأصلية التي دونها شامبليون الصغير على الطبيعة". أما عن مضمون هذين الكتابين بالنسبة لعلم المصريات الحديث فلم تنضب بعد أهميته نظراً لاندثار عدد من الآثار التي قام بوصفها. وقد تحسر شامبليون لرؤية دمار أربعة عشر معبداً عريقاً خلال فترة إقامته في مصر، فراح يناشد محمد علي لوقف هذه العمليات التخريبية: [ما أمس الحاجة لوضع حد لتلك العمليات التخريبية الهمجية! ولتحقيق ذلك الهدف المنشود، يمكن لجلالة الملك أن يأمر بعدم اقتلاع -بأي حال من الأحوال- أية أحجار أو قوالب طوب من الآثار العريقة التي لاتزال قائمة]. ويذكر لنا "كاريه": [تتملكنا الدهشة والأسف عند قراءة المذكرة التي سلمها شامبليون للباشا حول حماية الآثار المصرية للسرعة الفائقة التي تم بها تدمير وحدات معمارية ضخمة مثل "انتينوبوليس Antinoupolis" (الشيخ عباده) و"هرموبوليس Hermopolis" (الأشمونين) و"انتيبوليس Antaepolis" (قاو الكبير) و"كنترالاتوبوليس Contralatopolis" (بالقرب من إسنا) في بداية عهد محمد علي]. وقد اقترح شامبليون بتقنين وتنظيم عمليات التنقيب عن الآثار بغية التصدي للأعمال التخريبية التي كان يمارسها الفلاحون والمضاربون والذين يعملون في تهريب المومياوات، وغيرهم من تجار العاديات. بيد أن صرخة شامبليون لتقنين الحفائر لن تبلغ مداها إلا عقب ذلك بنحو ثلاثين عاماً على يد "اوجيست مارييت Auguste Mariette" الذي قام بتأسيس

"مصلحة الآثار المصرية Service des Antiquités" في عام ١٨٥٨.

غادر شامبليون أرض مصر سعيداً قرير العين كما جاء على لسانه لحظة الإبحار صوب فرنسا : [أخيراً سمح لي "آمون" العظيم بتوديع أرضه المقدسة. وسأغادر مصر بعد أن غمرني أهلها القدامى والمعاصرون بكل جميل ومعروف]. بيد أنه لم يكن قد بلغ بعد منتهى أعماله.

فلدى وصوله إلى "باريس" لم يعد باستطاعة السلطات مواصلة الوقوف عائقاً في طريقه كما بدر منها عام ١٨١٦ لأسباب سياسية. فقد بدأت شهرته تتسع ونجمه يتألق: إذ تم انتخابه عضواً (في أكاديمية العلوم والفنون) وأستاذاً في جامعة "السوربون" عام ١٨٣٠. ثم حصل على كرسي في الكلية الفرنسية عام ١٨٣١ ... حيث ألقى القليل من المحاضرات قبل أن يرحل عن عالمنا في الرابع من شهر مارس عام ١٨٣٢ وهو في سن الثانية والأربعين. وينبغي علينا انتظار عام ١٨٤١ قبل أن ينجح أخوه "شامبليون فيجاك" في نشر "المعجم المصري في الكتابة الهيروغليفية المنشور وفقاً للمخطوطات الأصلية... التي دونها السيد شامبليون فيجاك".

لقد أضنى شامبليون شبابه وأوهن صحته البدنية والذهنية في سبيل اكتشاف الحضارة المصرية القديمة. [وهكذا نجح خلال عشر سنوات، ابتداء من تاريخ اكتشافه وحتى موته، في حل اللغز المستحكم وإعادة وضع واحدة من أعظم الحضارات العريقة في النسق التاريخي والمكانة التي تستحقها. ولم يكن رائداً ومؤسساً لعِلم المصريات فحسب، وإنما ابتكر فضلاً عن ذلك عِلم الآثار المصرية وأرسى دعائمه على أسس علمية] (بارجيه، اركيولوجيا ٥٢، ص٣٦). ويمكننا أن نحفر على شاهد قبره هذا النص الملكي المصري : [هؤلاء الكتبة العلماء منذ عهد خلفاء الآلهة، تظل أسماؤهم خالدة إلى الأبد حتى بعد رحيلهم عن الدنيا ونسيان الأجيال التي تعاقبت من بعدهم] (ترجمة سيلفيو كورتو).

وفي هذا الكتاب نعيد نشر النص الكامل لرسائل ومذكرات شامبليون. أما الرسائل التي كانت موجهة كلها إلى أخيه الذي كان مراسله وسنده في نفس الوقت، فقد سبق نشرها في بادىء الأمر أولاً بأول بمجرد وصولها إلى فرنسا في جريدة "المرشد Le

"Moniteur". ثم ظهرت الطبعة الأولى الكاملة لهذه الرسائل بعد ذلك في عام ١٨٦٨ بفضل عناية "شامبليون فيجاك". أما النص الذي نسوقه في هذا الكتاب فقد سبق نشره في المجلد الواحد والثلاثين من سلسلة " Bibliothèque égyptologique"تحت إشراف "ماسبيرو G. Maspero". كما قام "هارتلبن" بجمع هذه "الرسائل والمذكرات" والتعليق عليها. وتنبع أهمية هذا العمل قبل كل شيء في قيام هذا المتخصص في دراسة شامبليون بمضاهاة ومطابقة الرسائل والمذكرات بصورة منهجية. وأخيراً ننوه إلى أن هذه الطبعة التي تعود إلى عام ١٩٠٩ والتي شارك فيها "ماسبيرو" أحد الأباء المؤسسين لعلم المصريات ظلت منذ زمن بعيد غير متوفرة.

ريشار لوبو

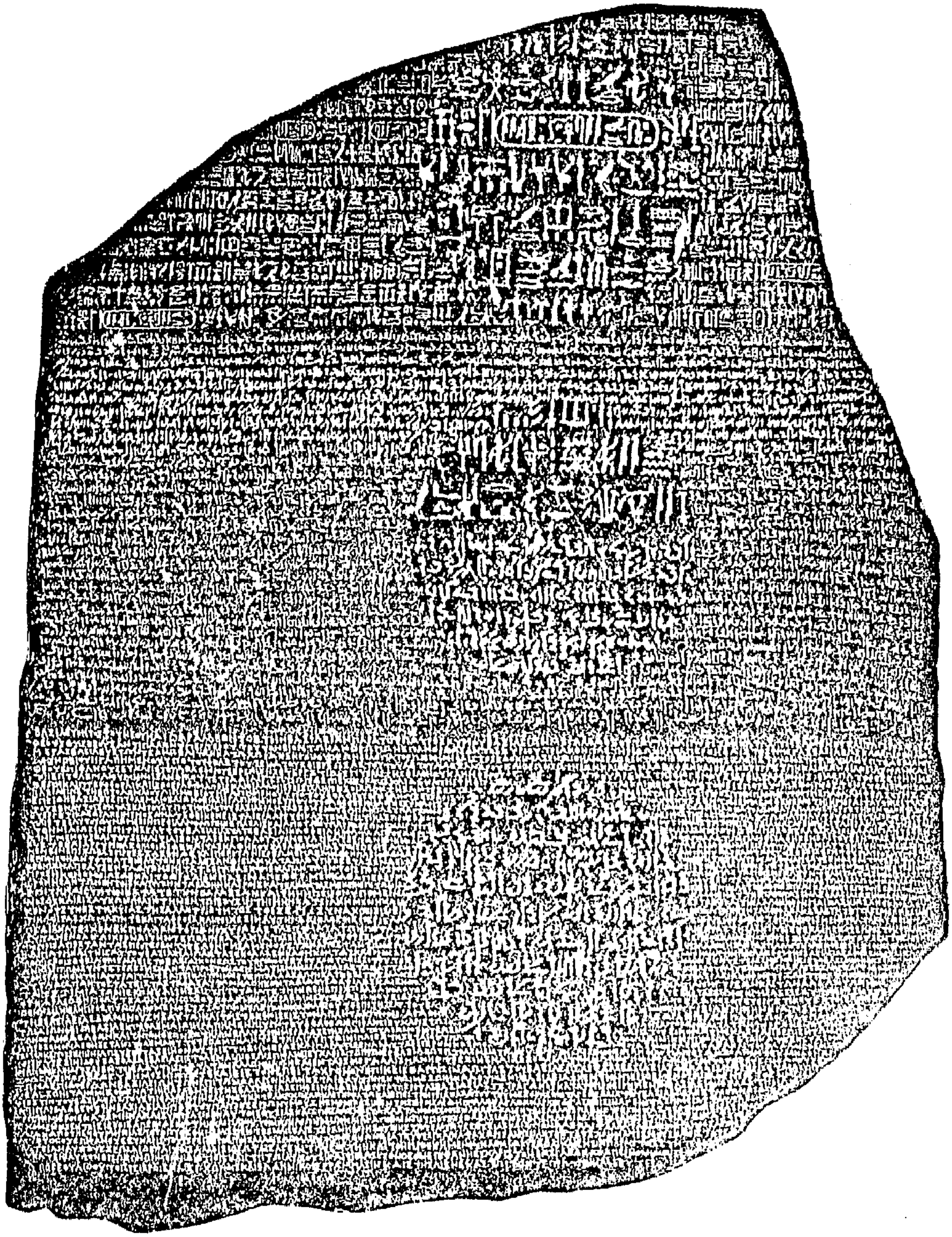

حجر رشيد

ترجمة حياة شامبليون

وُلِد "جان فرانسوا شامبليون" الشهير بـ"شامبليون الصغير Champollion le Jeune" للتمييز بينه وبين أخيه الأكبر سناً، في "فيجاك Figeac" في يوم الثالث والعشرين من شهر ديسمبر عام ١٧٩٠. ومنذ نعومة أظافره وحتى بلوغه سن الرابعة عشرة في عام ١٨٠٤، راح يتسلح للاضطلاع برسالته المستقبلية : ألا وهي فك رموز الكتابة الهيروغليفية المنقوشة على جدران الآثار المصرية خلال قيام "نابليون بونابرت" بحملته على مصر. لذا فقد عكف على دراسة اللغات الشرقية المعروفة ومن بينها اللغة القبطية لاقتناعه باحتوائها على الاصطلاحات التعبيرية التي كان يستخدمها المصريون القدماء. وفي عام ١٨٠٩ عُين أستاذاً لمادة التاريخ بمدرسة "جرينوبل Grenoble". ثم اضطر شامبليون إلى الاعتزال في "فيجاك" بين عامي ١٨١٦ و١٨١٨ بسبب مساندته لـ"نابليون" أثناء أزمة "المائة يوم Cent jours".

انكب شامبليون في الفترة الممتدة بين عامي ١٨١٢ و١٨٢١ على جمع العناصر اللازمة لدراسة الحضارة الفرعونية، بينما كان يعمل استاذاً لمادة التاريخ بجامعة "جرينوبل". [وقد سمح له الفحص الدقيق لحجر رشيد الذي يمثل مرسوماً كهنوتياً تمجيداً لـ"بطليموس الخامس"، عن طريق تمييزه وعزله لأسماء الأشخاص التي وردت به، سمح له بوضع أسس راسخة للانطلاق في فك طلاسمها] (المعجم الشامل الكبير، لاروس Larousse، ص٢٠٠٣).

وفي السابع عشر من شهر سبتمبر عام ١٨٢٢ ألقى شامبليون أخيراً على منصة أكاديمية العلوم والفنون رسالته الشهيرة "رسالة إلى السيد داسييهLettre à Mr Dacier" [التي تُعد قاعدة قراءة] لغة سكان وادي النيل القدماء. ثم توجه بعد ذلك في عام ١٨٢٤ إلى ايطاليا لدراسة المجموعات الأثرية المصرية التي يحويها متحف مدينة "تورينو". ثم عُين بعد ذلك في عام ١٨٢٦ أميناً لمتحف "اللوفر"، قبل أن يتمكن بصعوبة بالغة من تكوين بعثة للتوجه إلى بلاد الفراعنة.

وعقب عودته إلى فرنسا تبوأ كرسي علم المصريات في "الكلية الفرنسية Collège de France" الذي تم تأسيسه حديثاً في عام ١٨٣١. وأخيراً توفى "شامبليون" في عام ١٨٣٢، عن عمر يناهز اثنين وأربعين عاماً.

* * *

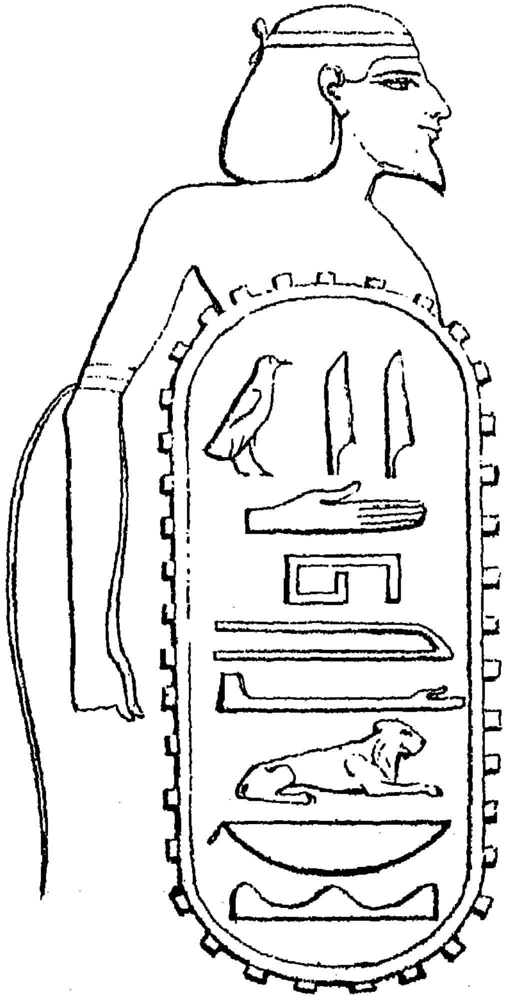

مؤلفات جان فرانسوا شامبليون

١٨١٤: "مصر في عهد الفراعنة L'Egypte sous les Pharaons"، باريس.

١٨٢٤: "المختصر في نظام الكتابة الهيروغليفية عند قدماء المصريين Précis du système hiéroglyphique des anciens Egyptiens"، باريس.

١٨٢٧: "مذكرة وصفية للآثار المصرية الموجودة في متحف شارل التاسع Notice descriptive des monuments égyptiens du Musée Charles IX"، باريس.

١٨٣٣: "رسائل من مصر والنوبة Lettres écrites d'Egypte et de Nubie".

١٨٤٥/٣٥: "آثار مصر والنوبة Monuments de l'Egypte et de Nubie".

١٨٤١/٣٥: "قواعد اللغة المصرية القديمة Grammaire égyptienne".

١٨٤٣/٤١: "المعجم المصري للكتابة الهيروغليفية Dictionnaire égyptien en écriture hiéroglyphique"

قام "شامبليون فيجاك" بنشر الأعمال الأربعة الأخيرة عقب وفاة أخيه.

* * *

مؤلفات عن شامبليون وعن علم المصريات بصورة عامة

- "شامبليون، حياته وأعماله (١٧٩٠-١٨٣٢) Champollion, Sa vie et son oeuvre" بقلم "هرمين هارتلبن Hermine HARTLEBEN". مقدمة بقلم "ديروش نبلوكور C. DESROCHES-NOBLECOURT. مترجم إلى الفرنسية - دار نشر "بيجماليون Pygmalion" - ١٩٨٣، باريس (مرجع هام عن حياة العالِم شامبليون).

- "شامبليون واللغز المصري Champollion et l'énigme égyptienne" بقلم "مادلين بوربوان Madeleine POURPOINT"، ١٩٦٣، باريس.

- "جلسة أكاديمية الفنون والآداب بتاريخ ٢٠ أكتوبر ١٩٧٢ Séance de l'Académie des Inscriptions et Belles-Lettres du 20 octobre 1972" بقلم "ديبون سومار DUPONT-SOMMER" و"جان ليكلان J. LECLANT" و"جورج بوزنير G. POSENER". (وهي عبارة عن ثلاث محاضرات حول المنهج الذي اتبعه شامبليون في فك رموز الكتابة الهيروغليفية).

- مجلة "اركيولوجيا Archeologia" عدد رقم ٥٢ الصادر في نوفمبر ١٩٧٢ في "ديجون Dijon". (وهو عدد خاص كرسته هذة المجلة لاستعراض حياة شامبليون وأهم أعماله، وتتضمن مقالات بقلم "كيرتو S. CURTO" و"بارجيه P. BARGUET" و"فرانسوا دوما F. DAUMAS" وغيرهم...).

- "إيزيس أو البحث عن مصر المندثرة Isis ou la recherche de l'Egypte ensevelie" بقلم "بيار مونتيه Pierre MONTET"، ١٩٥٦، باريس.

- "علم المصريات L'Egyptologie" بقلم "سارج سونرون Serge SAUNERON"، ١٩٦٨، مطبوعات P.U.F.، باريس.

- "قرن من الحفائر الفرنسية في مصر Un siècle de fouilles françaises en Egypte"، كتالوج معرض، تحت إشراف "ديروش نبلوكور" و"جان فركوتير J. VERCOUTER"، ١٩٨٠، منشورات المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية I.F.A.O.، القاهرة.

- "الحضارة المصرية القديمة La Civilisation égyptienne" بقلم "ارمان A. ERMAN" و"رانك P. RANKE"، مترجم إلى الفرنسية، ١٩٥٢، دار نشر "بايو Payot"، باريس.

- "مصر، من أقدم العصور وحتى غزو الإسكندر L'Egypte-Des origines à la conquête d'Alexandre" بقلم "دريوتون E. DRIOTON" و"فانديه J. VANDIER"، ١٩٧٥، مطبوعات P.U.F.، باريس.

- "معجم الحضارة المصرية القديمة Dictionnaire de la civilisation égyptienne" بقلم "جورج بوزنير" و"سارج سونرون" و"جان يويوت J. YOYOTTE"، ١٩٨٦، (الطبعة الثانية)، منشورات "هازان Hazan"، باريس.

(تُعتَبَر المؤلفات الثلاثة الأخيرة من المراجع الكلاسيكية لدراسة الحضارة المصرية القديمة).

* * *

ملحق رقم ١

يرجع تاريخ اللغة المصرية القديمة إلى خمسة آلاف عام، وهي تُعد بحق معجزة لغوية حققت رقماً قياسياً من حيث الاستمرارية. وقد ظهرت النصوص الأولى نحو عام ٣١٠٠/٣٢٠٠ قبل الميلاد، في حين أصبحت اللغة القبطية التي تُعد آخر مراحل تطور هذة اللغة القديمة، لغة ميتة اقتصر استخدامها على إقامة القُداس خلال القرن الثامن عشر.

وإذا كان التطور المطرد للغة المصرية القديمة على مر القرون أمراً ثابتاً، مثل تطور اللغة الفرنسية منذ عهد "شارلمان Charlemagne" وحتى يومنا هذا، فإن اسلوب كتابة وتدوين هذة اللغة قد تم بطريقة غير منتظمة وعلى طفرات ماراً بخمس مراحل. وقد تعرفنا على اللغة المصرية القديمة (٣١٠٠/٢٠٠٠ ق.م.) من خلال النصوص الدينية المنقوشة على جدران الحجرات الجنائزية في الأهرامات، وكذا بعض السيَر الذاتية التي دونها سراة القوم على جدران مقابرهم. ثم تبعها بعد ذلك اللغة المصرية الوسيطة والمعروفة أيضاً باللغة المصرية الكلاسيكية، وهي تعادل اللغة الفرنسية التي كانت سائدة في القرن السابع عشر. وقد ظلت هذة اللغة المتوازنة اللغة الرسمية المستخدمة في صياغة النصوص الرسمية والدينية حتى أفول نجم الحضارة الفرعونية. ومنذ القرن السادس عشر قبل الميلاد، ابتعدت "اللهجة العامية" كثيراً عن اللغة المكتوبة (اللغة المصرية الوسيطة)، وقد استدعى ذلك استحداث اللغة المصرية الحديثة التي كانت تُدون بها الوثائق الادارية والمراسلات والأساطير والحِكم والأمثال.

أما عن "الطور" التالي من أطوار التطور فيتمثل في اللغة الديموطيقية التي فرضت نفسها منذ القرن السابع قبل الميلاد وعلى امتداد قرابة الف عام. ثم جاءت اللغة القبطية في القرن الثالث قبل الميلاد لتحل محل اللغة الديموطيقية.

وقد لجأت اللغة القبطية إلى استخدام الأبجدية اليونانية مضافاً إليها بعض العلامات الخاصة بدلاً من الأحرف الهيروغليفية.

تميزت لغة الفراعنة بشكلين مختلفين حسب نوعية النص المراد كتابته، وكذلك وفقاً لطبيعة المادة التي يُكتب عليها. فلتدوين نص ديني، أي مقدس، كان الكاتب ينقش العلامات الهيروغليفية (التي كانت تتراوح حسب كل عهد من العهود بين ٧٥٠ و٥٠٠٠ رمز) على جدران المعابد والمقابر التي كانت تصبح مقدسة بدورها. أما الكتابة الهيراطيقية التي تُعتبر صورة مختصرة للكتابة الهيروغليفية فقد كان استخدامها يقتصر على تدوين الرسائل وغيرها من الوثائق الادارية والأدبية.

* * *

ملحق رقم ٢

برناردينو دروفيتي (١٧٧٦-١٨٥٢) DROVETTI, Bernardino

دبلوماسي إيطالي، رجل سياسة يهوى جمع الآثار، اتخذ فيما بعد الجنسية الفرنسية، كما شارك في الحملة الفرنسية على مصر عام ١٧٩٨. وشغل منصب قنصل عام فرنسا في مصر حتى عام ١٨١٤ ثم من جديد بين عامي ١٨٢٠ و١٨٢٩. وقد كان شغوفاً بجمع الآثار حتى أنه لعب دوراً هاماً في تكوين ثلاث مجموعات أثرية ضخمة. وقد قام ملك "سردينيا" باقتناء المجموعة الأثرية الأولى التي أهداها إلى فرنسا ورفضتها، وهي الآن معروضة في متحف مدينة "تورينو" الإيطالية. أما عن مجموعته الأثرية الثانية فقد بيعت إلى فرنسا، وهي تحتل اليوم مكانة متميزة في متحف اللوفر Musée du Louvre. وفي عام ١٨٣٦ قام "لبسيوس Lepsius" بشراء مجموعته الأثرية الثالثة لحساب متحف مدينة "برلين".

جيوفاني أنستازي (١٧٨٠-١٨٥٧) ANASTASI, Giovanni

قنصل عام السويد والنرويج في مصر بين عامي ١٨٢٨ و١٨٥٧. اقترن نشاطه الدبلوماسي بمشاريع تجارية إذ كان واحداً من أهم تجار العاديات المشهورين في ذلك الحين. وقد ظل اسمه حتى يومنا

هذا مرتبطاً بمجموعة هامة من البرديات المعروفة باسم "برديات انستازي papyrus Anastasi" والتي تفرقت بين كل من "لندن" و"ليدن" و"باريس" و"برلين".

أيديميه فرنسوا جومار (١٧٧٧-١٨٦٢) JOMARD, Edmée, François

أحد الأعضاء المؤسسين لمدرسة البوليتكنيك Ecole Polytechnique (المتعددة الفنون) في فرنسا، وأحد أعضاء البعثة العلمية التي صاحبت الحملة الفرنسية على مصر. قام بدور كبير في نشر موسوعة "وصف مصر Description de l'Egypte" وكتابة العديد من المقالات بها. انتُخِب في عام ١٨١٨ عضواً في أكاديمية الفنون والآداب، ثم عيِّن أميناً للمكتبة الوطنية Bibliothèque nationale في عام ١٨٢٨. وقد اتسمت علاقته بـ"شامبليون" بالعداءالشديد والضغينة مما دفعه لمحاولة الإساءة إليه بشتى الطرق والوسائل.

توماس يوغ (١٧٧٣-١٨٢٩) YOUNG, Thomas

طبيب وعالِم فيزياء انجليزي، يرجع إليه الفضل في [اكتشاف أن الكتابة الهيروغليفية ليست أبجدية، وأن الكتابتين الهيراطيقية والديموطيقية اللتين اشتُقتا منها تخضعان كذلك لنفس المباديء] (دريوتون-فنديه Drioton-Vandier، مصر l'Egypte ص ٩). لم يُعر أدنى اهتمام لأعمال شامبليون فيما بعد، بل راح يتهمه باستغلال اكتشافاته دون أن يعترف بذلك وبأنه مُشَعْوذ ودَجّال!

محمد علي (١٧٦٩-١٨٤٩)

أوفده السلطان لقتال "بونابرت" في مصر فتقلد السلطة عام ١٨٠٤ وظل والياً على مصر حتى عام ١٨٤٩. وإليه يرجع الفضل في تحرير مصر من نير الاحتلال التركي. كما يُعَد المؤسس الحقيقي لمصر الحديثة... ولكن ما أفدح الثمن! وقد استدر وابلاً من

الانتقادات بسبب حيله في التخلص من أعدائه، وقسوته على الشعب الذي استنزفه وأضناه من فرط الضرائب. أصلح من نظام الري وأدخل زراعة محاصيل جديدة. شهدت الصناعة والتجارة في عهده ازدهاراً وانتعاشاً كبيرين. أحاط نفسه بمستشارين أوروبيين ومن بينهم العديد من الفرنسيين في سبيل تحديث مصر.

ابراهيم باشا (١٧٨٩-١٨٦٨)

ابن محمد علي وخليفته على العرش في عام ١٨٤٨.

إيبوليتو روزليني (١٨٠٠-١٨٤٣) ROSELLINI, Ippolito

مؤسس علم المصريات في ايطاليا، وأحد الأعضاء المشاركين مع شامبليون في البعثة الفرنسية التوسكانية إلى مصر. عقب فترة الإقامة التي قضاها في وادي النيل عيّن استاذاً للغات الشرقية في جامعة "بيز" الايطالية. وقد اثمرت بعثته إلى بلاد الفراعنة عن كتاب "آثار مصر والنوبة Monumenti dell'Egitto della Nubia" (٩ مجلدات، ١٨٣٢-١٨٤٤).

هنري سالت (١٧٨٠-١٨٢٧) SALT, Henry

دبلوماسي انجليزي ورحالة ومن هواة جمع الآثار. قام بزيارات عديدة إلى الهند والحبشة ووادي النيل حيث عيّن قنصلاً عاماً في سنة ١٨١٥. وقد استغل منصبه للقيام بالحفائر حتى أصبح من أكبر الجامعين للآثار المصرية. وتحتل القطع الأثرية التي قام بالتنقيب عنها مكانة بارزة في المتحف البريطاني، كما قام متحف "اللوفر" باقتناء مجموعته الأثرية.

* * *

جدول التسلسل الزمني

الأسرتان الأولى والثانية
نحو ٢٩٥٠-٢٦٤٠ ق.م.

الدولة القديمة
الأسرة الثالثة وحتى الأسرة السادسة
نحو ٢٦٤٠-٢١٦٠ ق.م.

عصر الانتقال الأول
الأسرة السابعة وحتى الأسرة العاشرة
نحو ٢١٥٥-٢٠٤٠ ق.م.

الدولة الوسطى
الأسرة الحادية عشرة
نحو ٢١٣٤-١٩٩١ ق.م.
الأسرة الثانية عشرة (سيزوستريس وأمنمحات)
نحو ١٩٩١-١٧٨٥ ق.م.

عصر الانتقال الثاني
الأسرة الثالثة عشرة وحتى السادسة عشرة
نحو ١٧٨٥-١٥٤٠ ق.م.
الأسرة السابعة عشرة
نحو ١٦٥٠-١٥٥١ ق.م.

الدولة الحديثة
الأسرة الثامنة عشرة (تحتمس وأمينوفيس)
١٥٥١-١٣٠٦ ق.م.
الأسرة التاسعة عشرة (رمسيس الثاني)
١٣٠٦-١١٨٦ ق.م.

الأسرة العشرون (رمسيس الثالث)
١١٨٦-١٠٧٠ ق.م.

عصر الانتقال الثالث
الأسرة الحادية والعشرون
١٠٧٠-٩٤٥ ق.م.
الأسرة الثانية والعشرون
٩٤٥-٧٢٢ ق.م.

الأسرة الثالثة والعشرون
٨٠٨-٧١٥ ق.م.
الأسرة الرابعة والعشرون
٧٢٥-٧١٢ ق.م.

العصر المتأخر
الأسرة الخامسة والعشرون
٧٤٠-٦٥٦ ق.م.
الأسرة السادسة والعشرون
٦٧٢-٥٢٥ ق.م.
الأسرة السابعة والعشرون وحتى الأسرة الثلاثون
٥٢٥-٣٤٣ ق.م.

العصر البطلمي
مختلف البطالمة
٣٠٥-٥١ ق.م.
كليوباترا
٥١-٣٠ ق.م.

مصر ولاية رومانية:
الأباطرة الرومانيون
٣٠ ق.م.-٦٤٢ ب.م.

من "برنار دروفيتي" إلى شامبليون

الجمالية في ٣ مايو ١٨٢٨

لقد تلقيت خطابك الثاني الذي شرفتني بكتابته في الثامن عشر من فبراير. أرجو أن تكون على يقين من أنه ما من أحد بعدك أكثر مني اهتماماً بتلك الرحلة الهامة التي تعتزم القيام بها إلى مصر. لذا فإنني في غاية الأسف بسبب الظروف الراهنة التي لا تُمكنني من تشجيعك على تنفيذ هذا المشروع خلال العام الحالي، إلا إذا أسفرت الإجراءات التي اتخذتها السلطات الموقعة على معاهدة لندن ضد الأتراك عن النتائج المأمولة قبل شهر أغسطس القادم. ذلك أنه يسود في مصر ـ كما في بقية ولايات الإمبراطورية العثمانية ـ نوع من الروح العدائية للأوروبيين، والتي قد يتمخض عنها من الاضطرابات والتمرد ما يهدد الأمن الشخصي للأوروبيين الزائرين لتلك البلاد أو المقيمين فيها. وإذا كان القضاء على هذا السخط والاستياء متوقفاً على إرادة محمد علي وحده لما كانت هناك صعوبة في الحصول على ما كلفتني بطلبه منه. ولكن محمد علي نفسه ضحية لهذا العداء بسبب مبادئه وميوله الأوروبية؛ لذلك فإنه لم يجرؤ على منحي ما التمسته من ضمانات لتأمينك أنت ورفاق رحلتك.

فإذا استجد أي تغيير في سياسة الدول المناهضة لتركيا في الفترة القادمة، فسيصبح بوسعك أن تبدأ رحلتك في الحال ودون انتظار أية مشورة، فرحلتك لن يعوقها عندئذ أي مصاعب، بل ستؤمنها الحكومة المصرية تأميناً كاملاً. ولتعلم أن "روزاليني" قدم نفس الطلب ولاقى نفس الرد.

وأخيراً أرجو أن تكون واثقاً من شدة أسفي لعدم قدرتي على تلبية رغباتك، والتي هي في نهاية الأمر نفس رغبات كل أهل العلم الذي تعمل على إثرائه إثراء عظيماً.

باريس في ٢٦ مايو ١٨٢٨

صديقي الحميم ،

لقد عولت على صداقتك وتسامحك، وآملت أن تغفر لي صمتي الطويل تجاهك. فإن ما سببه لي متحفي ـ حيث كل شيء كان ينبغي عمله بنفسي ـ من قلق وإزعاج حال دون انتظام مراسلتي لك بالحيوية المأمولة. لكن هأناذا أخيراً قد تفرغت من جديد تقريباً، وأخذت أرى بعين الرضا أن عاماً طويلاً من المتعة والدراسة يلوح أمامي وأمامك ايضاً إذا أردت.

فقد تقرر نهائياً أن تتم رحلتي إلى مصر خلال هذا العام ١٨٢٨. وقد ارصد لذلك المسؤولون الأموال اللازمة، وسأستوفي كل أوراقي خلال أيام معدودة بعد التوقيع عليها. ولسوف أبحر من ميناء "تولون" في مطلع شهر أغسطس القادم لأصل إلى مصر في أوائل شهر سبتمبر، وستستغرق الرحلة عاماً واحداً على الأكثر.

لقد حسبت دائماً أنك ستكون بصحبتنا. وبالرغم من أن الموارد المحدودة التي تحت تصرفي لا تسمح لي بأن أضمن لك تعويضاً مالياً عقب عودتك، إلا أنني قد رتبت أوضاعي بحيث يمكنك المجيء معي والعودة إلى أوروبا بعد ذلك دون أن تتكبد أية نفقات. فما عليك إلا القدوم من "تورينو" إلى "تولون" ـ وهو أمر يسير ـ وسأتكفل أنا بالباقي. وسنبلغ الإسكندرية على متن باخرة حربية كبيرة، ثم نستبدلها هناك بمركب نيلي كبير ومتين. ولسوف نعيش هناك كأخوة في رعاية الله ورسوله.

لقد حان وقت ذهابنا إلى كاتدرائية "طيبه" تلمساً للورع والهداية. وإنني أهيب بك أن تُبقي هذا القرار في طي الكتمان ـ إن رأيت ذلك ملائماً ـ وأن تشرع في اتخاذ الإجراءات للحصول على إجازة لمدة سنة ابتداء من شهر يوليو القادم مع الاحتفاظ براتبك لتجده عند العودة. وسأكتب لك خلال الأيام القليلة القادمة لتحديد موعد مؤكد للقائنا في "تولون". فلتأت إلى هناك وسأتكفل أنا بالباقي.

وأنا أميل إلى الاعتقاد بأنهم لن يكونوا ظالمين لدرجة رفض منحك إجازة مادام ذلك هو غاية ما تبتغيه؛ فإن كان من الضروري أن أبعث إليهم برسالة فأخبرني بذلك وسأكتب ما تشاء لمن تريد.

وحسبك أن تأخذ الضروري من الملابس، أما المؤن وكل المستلزمات الأخرى فأنا كفيل بها. وأخيراً كيف حال صديقنا "كوستا" ؟ أما بوسعه أن يحيطني علماً بأخباره من وقت لآخر! لعله الكسل أو الحكمة التي تثنيه عن ذلك !

أبلغ ودي لكل من "بوشيرون" و"بلانتا" و"باولي". وقل لـ"بيرون" أن ما عليه سوى التوجه لـ"لترون" إذا كان يرغب في بعض نسخ من بردياتنا: فليس عندي أي مانع. وإذا كلفتك الأكاديمية الملكية بشراء بعض القطع الأثرية من مصر فسيكون ذلك أمراً عظيماً حتى وإن لم يعطوك سوى ألف ومائتي فرنك فقط؛ فسيبدو ذلك مبرراً لدى البعض لمنحك إجازة طواعية منهم وحتى آخر عام ١٨٢٩. فلترى إذن إن أمكنك استغلال هذة الفكرة. وفي انتظار الرد على كل ذلك لك مني أطيب المشاعر وأصدقها.

ج.ف.شامبليون

- بلغ تحياتي وصداقتي وإحترامي لآل "بالب" و"سكلوبيس".

* * *

من شامبليون إلى بوهة توسكانيا

باريس في ١١ يونيو ١٨٢٨

حضرة صاحب السمو والجلالة الملكية ،

تغمرني سعادة حقيقية وأنا أرى الظروف مواتية أخيراً لتنفيذ مشروع طالما علق عليه العلم من الأماني الشيء الكثير. وأغتنم هذة الفرصة لأبلغ أميرنا بقرب قيام هذة الرحلة الأدبية التي ستلقى النجاح بفضل رعايته الكريمة وعنايته الحكيمة.

لقد أصدر الملك أمراً برصد الأموال اللازمة ووضعها تحت تصرفي لاستكشاف المناطق الأثرية المصرية استكشافاً دقيقاً. كما أذن لي باصطحاب لفيف من الفنانين والرسامين والمعماريين بهدف عمل مسح دقيق لكافة النصوص والنقوش البارزة التي ينبغي دراستها وحمايتها من الدمار المؤكد الذي يتهددها من جراء الهمجية السائدة.

وقد تحدد آخر شهر يوليو القادم أو أوائل شهر أغسطس موعداً للرحيل إلى مصر. لذلك فمن المحتم أن تُبحر البعثة التوسكانية التي تفضل سمو جلالتكم بتشكيلها في نفس الميعاد وعلى نفس السفينة المخصصة للبعثة الفرنسية. وسيقوم وزير البحرية الفرنسية بنقل أعضاء هذه البعثة الأدبية والسلمية على متن سفينة ملكية وسط المناورات الحربية التي اتخذت من البحر الأبيض المتوسط ومن الشرق مسرحاً لها. وكلنا أمل في أن يتمكن محمد علي باشا من تأمين ما سنجريه من أبحاث في مصر وبلاد النوبة تأميناً تاماً. وأخيراً فلتسمح لي سمو جلالتكم في هذه المناسبة بتجديد التعبير عن أعمق مشاعري (...الخ).

* * *

من شامبليون إلى القس "جازيرا"

باريس في ٩ يوليو ١٨٢٨

لا يسعني أن أصف لك مقدار سعادتي لرؤيتك في "تولون" إذا تمكنت من المجيء. فلتأت إذن إن لم يكن ذلك بالأمر العسير. بلغ تحياتي ووداعي للصديق "كوستا"، وكذلك إلى "بلانا" و"بيرون" و"بوشرون" و"بولي" وكل آل "سكولبيس"... إن التفكير في إمكانية تقبيلك قبل الرحيل يملأني سعادة وغبطة. فإلى اللقاء ولك مني أطيب المشاعر.

ج.ف.شامبليون

ملحوظة: إذا كان لـ"بيرون" رغبة في إعطائي بعض الأوراق الخاصة بأبحاثه لإتمامها في مصر فإنني أرحب بذلك. قبلاتي له. وداعاً يا عزيزي وداعاً.

* * *

من شامبليون إلى "اوجيستان تفنيه"

باريس في ١٠ يوليو ١٨٢٨

لا أرغب في مغادرة أوروبا دون أن أودعك أنت يا أقدم صديق استحوذ دائماً على مكانة خاصة في قلبي. وأنا موقن أنك لست بجاحد وأن قلبك لايزال يكن لي نفس المودة كما كان في الماضي. لقد تعدينا سوياً السن الذي يسمح لنا بإقامة صداقات جديدة على حساب تلك التي نمت وترعرعت معنا، وإذا كان صمتي تجاهك قد هيأ لك أن تعلقي بك قد فتر بفعل الزمان والفراق فإنك تكون مخطئاً لأنني قد قاسمتك دائماً كل ما حل بك من فرح وشاطرتك كل ما ألم بك من حزن وغم. ولقد كنت أرغب في توديعك عند مروري بمدينة "جرينوبل"، إلا أنني سأكون في عجلة من الأمر ولن أجد أمامي متسعاً من الوقت لتحقيق هذا الرجاء. إذ يتحتم علي أن أبلغ "تولون" في الخامس والعشرين من هذا الشهر لأن السفينة الحربية "الإجليهعشط" التي ستقلني أنا ورفاقي الأربعة عشر إلى الإسكندرية ستُبحر نهائياً يوم ٣٠.

...سأصل إلى مدينة "ليون" يوم الجمعة الثامن عشر، وسأمكث بها حتى مساء يوم الأحد العشرين، ثم أمضي إلى مدينة "إكس" حيث أقضي يوماً واحداً. فإذا أمكنك المجيء لرؤيتي وقضاء يومين معي في "ليون" فسيكون ذلك مدهشاً. سأقوم برحلة تنطوي على الكثير من المخاطر؛ لذلك أتلهف إلى وداع أعز الناس إلى قلبي. وبوسعك أن تدرك مدى سعادتي لرؤيتك قبل أن ألقي بنفسي وسط الوجوه السمراء التي تنتظرني على ضفاف إفريقية.

حاول إذن أن تأتي فقصيرة جداً هي المسافة التي تفصل بيننا وعظيمة جداً هي الفرحة بلقيالك. وسوف تجدني في فندق "الشمال" بالقرب من ميدان "تيروا"، أو لمزيد من التأكد ستجد عنواني لدى السيد "أرتو" أمين متحف "ليون" في قصر "سان بيار". وأخيراً لن أقول لك وداعاً لثقتي في أنك ستبذل قصارى جهدك لكي نلتقي. فلك مني أحر القبلات.

ج.ف.شامبليون

* * *

من شامبليون إلى شامبليون فيجاك

ليون في ١٨ يوليو ١٨٢٨

هأناذا أبلغ "ليون" في كامل الصحة وتمام العافية. ولقد وجدت صديقي "أرتو" مستعداً لاستضافتي فنزلت عنده أنا و"روزليني". ثم نمت الليلة الماضية في فراش مريح مما رد لي صحتي تماماً، ولم يعاودني مرض النقرس والآمه...ولقد بدأت آمل في تجنبه حتى "تولون" حيث يمكن له أن يعاودني كما يحلو له فسأتمكن من علاجه خلال الرحلة إلى أن ينجح طقس إفريقية الحار في القضاء عليه..لقد عثرت بين القطع النادرة في متحف "ليون" على تمثال صغير من البرونز يبلغ ارتفاعه سبع بوصات ويمثل آلهه النيل؛ وقد قمت برسم هذة القطعة المتقنة الصنع لإضافتها إلى كتابي عن مجمع الأرباب. ولا أخفي عليك أن العثور على هذة القطعة الفريدة يغمرني بالسعادة.

لقد أرسل صديقنا "أرتو" اليوم رسالة إلى السيد "ساليبه" في "إكس" ليخبره بمروري قريباً بتلك المدينة. لذلك أتوقع أن أجني الكثير من وراء مجموعته الثرية حتى وإن تطلب مني الأمر تكريس يومين لتفحصها...ولا تنس عند كتابة المقال للإعلان عن إبحار البعثة إلى مصر أن تضم "سالفادور شاروبيني" إلى قائمة الرسامين التابعين للبعثة الفرنسية. فعلى الرغم من أن "روزليني"

سوف يتحمل نفقات سفره إلا أنه من المفيد إلحاق "سالفادور" بالرسامين الفرنسيين التابعين لي...إلى اللقاء إذن وسوف أكتب إليك من "إكس" بكل تأكيد.

* * *

من "سلفادور شاروبيني" إلى شامبليون فيجاك

إكس في ٢٣ يوليو ١٨٢٨

بعد عشاء عائلي طويل تفضل السيد أخوك بانتدابي كسكرتير له... يحتوي معرض السيد "ساليه" على كمية كبيرة من الآثار النفيسة بالإضافة إلى عدد من اللوحات الرائعة...إلا أن ما استحوذ على إعجاب الجميع هو بردية في حالة جيدة من الحفظ ترجع إلى السنة الثامنة من حكم الملك "سنوسرت". وبما أن السيد "ساليه" -الذي لم يكن يعي أهمية هذة البردية- قد نسى أن يعرضها على شامبليون بالأمس، ولم يضعها بين يديه سوى اليوم فقط، فقد عزم السيد شامبليون على تكريس زيارة أطول لدراسة هذة القطعة الثمينة عقب عودته.

أما الآن وقد اهتدى شامبليون إلى هذا الكنز فإنه يكاد يفقد رشده على ما أعتقد. إلا أن ذلك لن يمنعه من الاهتمام بنصك المتعلق بالإمبراطور "دقلديانوس".

صديقك المخلص
سالفادور شاروبيني

* * *

من شامبليون إلى شامبليون فيجاك

تولون في ٢٥ يوليو ١٨٢٨

صديقي العزيز ،

لقد بلغت "تولون" ليلة أمس في صحة جيدة، بعد سفر غير شاق بالرغم من حرارة الصيف وسماء "البروفانس". وقد غادرنا "إكس" في الساعة الثالثة صباحاً لنصل إلى "تولون" في حوالي السادسة مساء. لم أعان مطلقاً من حرارة الطريق بفضل الملابس الصوفية التي تدثرت بها، مما يحدو بي إلى الاعتقاد بأن المثل الشعبي القائل "ما يقي من القرّ يقي من الحرّ كذلك" إنما هو نابع -كبقية الأمثال- من حكمة الشعوب.

لم أتمكن من الكتابة إليك من "إكس" كما كنت أعتزم لأن معرض السيد "ساليبه" استغرقني خلال اليومين اللذين قضيتهما في هذه المدينة العريقة؛ إذ قمت بنسخ ورسم بعض القطع الأثرية الهامة التي وجدتها في حوزته. لكن السيد "ساليبه" انتظر حتى عشية اليوم الثاني قبل أن يضع بين يدي عدداً كبيراً من البرديات الفرعونية غير الجنائزية. وقد عثرت من بينها على بردية طويلة في حالة سيئة جداً تحتوي على ما أعتقد على ملاحظات متعلقة بعلم التنجيم ومكتوبة بالخط الهيراطيقي؛ بالإضافة إلى برديتين تحتويان على نوع من القصائد الغنائية والابتهالات في مديح الفرعون "امنمحات" ابن "سنوسرت"، ولفافة تنقصها الصفحات الأولى تحتوي على مديح وتعداد مآثر "رمسيس الثاني" بأسلوب يشبه أسلوب التوراة : أي على شكل نشيد وحوار بين الآلهة والملك.

وتُعتبر هذه البرديات غاية في الأهمية. ولقد تيقنت بعد فحصها سريعاً من أنها تمثل كنزاً تاريخياً حقيقياً. كما تعرفت على أسماء نحو خمس عشرة دولة منهزمة من بينها على وجه الخصوص الأيونيين (بلاد أيونية في آسيا الصغرى) والليبيين والأثيوبيين والعرب وغيرهم... وتحكي البردية عن أسر زعمائهم، وعن الضرائب والجزية التي فُرضت عليهم. لقد أكد هذا المخطوط تماماً صحة اعتقادي في وجود علامة هيروغليفية تشير إلى أسماء البلاد

الأجنبية والأشخاص الذين ينطقون بلغات تلك البلاد. وقد سُجلت بعناية كل أسماء الشعوب المنهزمة والمكتوبة بالخط الهيراطيقي السهل القراءة؛ مما سيساعدني فيما بعد على التعرف على نفس هذه الأسماء مدونة بالخط الهيروغليفي على آثار "طيبه" وتكملتها إن كانت ممسوحة جزئياً.

ما أعظم هذا الاكتشاف! ومما يزيد من دهشتي هو ذلك التاريخ المدون في آخر صفحة. فقد حُرر هذا المخطوط الهيراطيقي (كما جاء في النص) في شهر "بؤونه" من العام التاسع لحكم "رمسيس الأكبر". لذا فقد عقدت العزم على دراسته دراسة وافية عقب عودتي من مصر. فكن حريصاً ولا تحدث عنه إلا من تأمنهم كي لا تثير مشاكل نحن في غنى عنها. وقد وعدني السيد "ساليه" بإخفاء هذا المخطوط لحين زيارتي القادمة له. لقد نسيت أن أخبرك بأن صديقنا "أرتو" قد غمرنا بكرمه، فعليك برد الجميل له في أول مناسبة.

كما وعدني السيد "ساليه" بإعطائي نسخة من الأحجار الثلاثة التي تحمل أجزاء من مرسوم روماني يتعلق بأسعار السلع الغذائية والبضائع. إلا أنه كان من الحماقة بحيث ملأ أحرف النص بالجبس؛ لذلك فسيقوم الآن بغسلها وتنظيفها. فلتعاود الكتابة إليه قريباً لتذكيره بوعده، فهو رجل كريم وفاضل... أخطر كذلك وزير البحرية بأن أفراد البعثة التوسكانية سيُبحرون ايضاً على متن السفينة التي هيأها لنا، وأن بوسعه -بل من واجبه- أن يفتخر بذلك أمام وزير توسكانيا الذي قد يتصل به. فعجل إذن لأن الأمر لا يحتمل أدنى تأخير...

* * *

تولون في ٢٩ يوليو ١٨٢٨

صديقي العزيز،

لقد وصلني خطابك الأول بعد تلهف كبير. أما عن رسائلي أنا فلن تبدأ بالفعل إلا بعد الإقلاع، وسأرسلها إليك كما آمل عن طريق السفن العائدة إلى أوروبا والتي ستقابلنا في الطريق. أما

إذا تعذر ذلك فلن تصلك أخباري إلا بعد شهرين على أحسن تقدير لندرة السفن التي تربط بين الإسكندرية وفرنسا. إن باخرتنا الحربية المخصصة لتأمين السفن التجارية لا تجد الآن ما تحرسه. ولا يرجع السبب في ذلك إلى ما يتهدد أموال وأرواح المسافرين من مخاطر، ولكن إلى فتور الحركة التجارية مع مصر فتوراً شديداً لأنها لم تعد ترسل قطناً. ومع ذلك فقد أكد لي أمير الأسطول بأن علاقاتنا مع الباشا في غاية الود. وسوف أمر بالحجر الصحي لمقابلة السيد "ليون دي لابورد" الذي وصل إلى الإسكندرية بعد ثلاثة وثلاثين يوماً حاملاً أخباراً سارة عن العلاقات بين مصر وفرنسا. وسيُفصح لي بكل تأكيد عن مخاوفه وآماله؛ علماً بأن رسالته مطمئنه للغاية ولا تبشر إلا بالأخبار السارة. لذلك فلن أختم هذة الرسالة إلا بعد لقائه. لقد تعرفنا على قبطان سفينة "الإجليه" ومعاونيه، ولا يسعنا الآن إلا أن نشكر الأقدار التي وضعت مصائرنا بين أيديهم الأمينة. فالسيد "كوسماو" قبطان سفينتنا رجل في العقد الرابع من العمر، لطيف جداً، عف اللسان وحسن السلوك. وقد ألح علي في مشاركته حجرته حتي قبلت لإرضائه. وقد قدّمت له كل أفراد البعثة واحتفلنا بذلك أمس احتفالاً عظيماً.

وقد وصل رفاقنا الباريسيون في صباح اليوم والتسكانيون في المساء بعد سفر استغرق خمسة عشر يوماً بسبب ما لاقوه من صعوبات جمة في اختراق النطاق الصحي الذي فرضه ملك سردينيا على حدود "البيامون". إن هذا الرجل الطيب قد صدق الأكاذيب والمبالغات التي أذاعها قبطان سفينة تجارية قدم من "مارسيليا" إلى "جنوا" حتي خُيّل إليه أن وباء الطاعون قد تفشي في "البروفانس"؛ لذلك أمر فيالق الجيش بسد جميع المنافذ المؤدية إلى جبال "الألب"، وتمزيق كافة الرسائل القادمة من فرنسا ونقعها في الخل، حتى أن الجرائد نفسها لاقت نفس مصير الخيار المخلل! وحسناً فعلوا بجريدتي" لاجازيت" و"لاكوتديين"! يعتقد الإيطاليون أننا نموت هنا وفي "مرسيليا" بالمئات في حين أن الطقس بديع بفضل الرياح الغربية التي تلطف الجو والتي ستساعدنا على الإقلاع في أقل من ساعة.

إنني اعتقد أن سمو ملك سردينيا قد اختلط عليه الأمر ولم يعد يُميّز بين الطاعون الحقيقي والطاعون الأخلاقي الذي يفتك بفرنسا

كما يظن البعض. فلنحمد الله على أن العقول يتعذر تمزيقها ونقعها هي الأخرى في الخل!

إن حالة البحر تبعث على التفاؤل. وقد قمت بنزهة قصيرة في قارب لتدريب معدتي على الإبحار، وكذلك فعل "شاروبيني" و"ديشين" و"برتان". كما قمت بالسباحة ثلاث مرات مما عاد على صحتي بالنفع الكبير، وسأستغل فرصة تواجدي في هذه المياه المالحة لمعاودة هذا التمرين الناجع.

* * *

٣٠ يوليو ١٨٢٨

لم أنجح في مقابلة السيد "دي لابورد" بسبب الرياح العاصفة التي حالت دون أن استقل زورقاً صغيراً للذهاب إلى الحجر الصحي. ولقد حدد لي ميعاداً آخر في الساعة الواحدة من بعد ظهر الغد، إلا أن سفينتنا ستقلع بين الساعة التاسعة والعاشرة صباحاً. ونحن الآن على أهبة الاستعداد لمغادرة اليابسة بعد أن نقلنا كل حقائبنا وأمتعتنا على متن السفينة. وقد أعطوني الأمل في التوقف قليلاً بجزيرة صقلية، كما وافق الأميرال بناء على طلبي بالسماح للقبطان بالرسو في "أجريجنت" لبضع ساعات إذا سمحت لنا الرياح بذلك. ولسوف أكتب لك عندئذ في ظل أعمدة معبد "جوبيتار" الدورية.

وداعاً يا صديقي العزيز، ودع عنك القلق فآلهة مصر تحفظنا وترعانا. قبلاتي وأشواقي.

ج.ف.شامبليون

* * *

في البحر بين سردينيا وصقلية في ٣ أغسطس

صديقي العزيز ،

سأحاول الكتابة إليك برغم اهتزاز الباخرة التي تدفعها الرياح سريعاً صوب الساحل الغربي لصقلية والذي سيصبح في مرمى أنظارنا على الأرجح هذا المساء. تمضي رحلتنا على خير مايرام حتى الآن، كما أنني أشعر بتحسن شديد بعد أن اجتازت معدتي كافة الاختبارات... فما ننعم به على متن السفينة من راحة وتفرغ جعلاني في حالة ممتازة، وكذلك حال رفاقي الشباب الذين تركتهم فوق سطح السفينة بعد أن لقنتهم درساً في اللغة العربية التي يتعلمونها بحماس شديد. كما أنني أدربهم على كيفية رسم الأحرف الهيروغليفية المبسطة. تلك هي أخبارنا بإيجاز شديد. ولن أحدثك عن اليومين الماضيين اللذين لم نر فيهما سوى السماء والبحر وخنازير البحر وأسماك العنبر التي تقطع رتابة هذا المشهد من حين لآخر، وكذلك سواحل "سردينيا" الكئيبة والتي لا تحتوي على شيء ذي بال.

بل دعني أحدثك عن الأمل الجذاب في الرسو مساء الغد وسط معابد "أجريجنت" العتيقة كما وعدنا القبطان إذا سمحت لنا الرياح بذلك. ولا يسعني في هذا الصدد إلا أن أعدد مآثر السيد "كوسماو" الذي ألح عليّ أن أشاركه حجرته وفراشه؛ بينما افترش "روزليني" و"راضي" والأب "بيبان" المراتب. إن بلادة هذا الأخير المضحكة وعفويته تسريان عن النفس. فهو يقضي يومه إما مستلقياً على سطح أو مؤخرة السفينة أو جاثماً فوق كابل الأعمدة ...

* * *

٤ أغسطس ١٨٢٨

لقد درنا ليلاً حول الطرف الغربي لـ"سردينيا" بمحاذاة الساحل الجنوبي. وحتى هذا الصباح لم نر غير السماء والماء، وعند حلول المساء لمحنا جزيرة "ماريتيمو" في أقصى غرب "صقلية". عندئذ ركدت الرياح وحالت دون تقدمنا.

* * *

٥ أغسطس ١٨٢٨

لقد أمضينا الليل بطوله في التقدم عكس الريح، وفي الصباح الباكر رأينا جزيرة "ماريتيمو" مرة أخرى على بعد فرسخين أو ثلاثة. وأخيراً هبت الرياح من جديد ودفعت بسفينتنا أمام جزيرتي "فافيجنانا" و"ليفانزو"، وتراءت لنا في الأفق "ترابانى" ترسانة صقلية القديمة، وكذلك جبل "إريكس" العظيم الذي كثيراً ما ورد ذكره في "الإلياذة". وفي العصر مررنا أمام "مارسالا" المشهورة بكرماتها الممتازة. وغمرتني مشاعر الاحترام العميق عندما اجتزنا مدينة "ليليبيه" العريقة والتي كانت مقراً رئيسياً للقرطاجيين في صقلية. حقاً ما أبدع هذا الساحل الجنوبي!

* * *

٦ أغسطس ١٨٢٨

لم أتمكن من رؤية أطلال "سيليمونت" التي اجتزناها ليلاً. ففي هذا المكان يبدو الساحل أشد قحطاً بالرغم من جاذبيته ومظهره الإفريقي الجميل. ثم رسونا في "أجريجنت" حيث العديد من الآثار الاغريقية التي نطمع في زيارتها ودراستها. وفي أغلب الظن فإننا لن نتمكن من رؤيتها حتى ولو من بعيد برغم المسافة التي قطعناها في سبيل ذلك. وهكذا كُتب علينا أن ندفع الثمن غالياً بسبب حماقة القبطان الفرنسي الذي أشاع في "جنوا" أكذوبة وباء الطاعون الذي يفتك بـ"مرسيليا". فعند ذهابي مع "روزليني" وقبطان السفينة إلى الحجر الصحي في "أجريجنت"، أسروا إلينا بأن التعليمات التي وردت البارحة من "بالرمو" تنص بوضوح على عدم استضافة أية باخرة قادمة من موانيء جنوب فرنسا. عندئذ أكدت للضابط الصقلي بأن ميناء "تولون" يقع في شمال فرنسا وليس في جنوبها! لكنه بادرني قائلاً بأنه يعلم ذلك علم اليقين، ولكن بما أنه لم يتلق أية تعليمات بشأن الموانيء الشمالية فليس باستطاعته أن يسمح لنا بمغادرة السفينة دون موافقة رئيس مقاطعة "أجريجنت". ثم أعطونا وعداً بالرد في الساعة الثامنة من صباح

الغد. وبعد ذلك عدنا إلى سفينتنا نجر أذيال الخيبة فاقدين الأمل في زيارة معبد "الكونكورد". وهاأناذا أتجرع عذاب من لا يستطيع بلوغ ما يشتهيه.

* * *

٧ أغسطس ١٨٢٨

لقد بدأت أفقد الأمل في تلقي أى أخبار من الحجر الصحي. لذلك فسأختم هذا الخطاب لإرساله بالبريد بعد ساعة ونصف. عجباً لهؤلاء الذين يصرون على معاملتنا كموبوئين بالطاعون بالرغم من أننا جميعاً في كامل الصحة وتمام العافية! أما إذا سمحوا لنا بزيارة "أجريجنت" عن قرب فسأفتح الخطاب من جديد. كم سأكون سعيداً بزيارة هذة الأطلال العريقة! ... قدم احترامي وتحياتي للسيد "داسييه" الذي كثيراً ما يرد ذكره في الأحاديث التي نتجاذب أطرافها كل مساء فوق مؤخرة السفينة، وفي ظل السماء الصافية التي لا مثيل لها في العالم كله. قل لصديقي القديم بأن بمقدوره المجيء لقطع الوقت معنا في لعب الشطرنج.

أما إذا لم يُؤذن لنا بمغادرة السفينة في الساعة الثامنة فسنقلع على الفور صوب جزيرة "مالطة".

وداعاً ياصديقي العزيز، وقبلاتي الحارة لك ولكل ذوينا.

ج.ف.شامبليون

* * *

نبذة عن الرحلة

١٨ أغسطس ١٨٢٨

في الصباح الباكر لاح لنا على الساحل الإفريقي المائل إلى البياض وفي نقطة قاحلة تماماً موقع مدينة "أبو صير" المعروفة عند اليونان باسم "بوزيريس" القديمة، والمعروفة اليوم باسم "أبوقير". ثم أخذنا نميز من خلال المنظار أولاً، ثم بالعين المجردة أطلال تلك المدينة الصغيرة حيث يبرز على هذا التل بناء مربع الشكل يبدو أنه تم تشييده خلال العصر البطلمي أو الإمبراطوري نظراً لصغر حجم أحجاره. وإلى جانب تلك الأطلال وبالقرب من شاطيء البحر يوجد بناء مرتفع وحديث يُطلق عليه الملاحون اسم "برج العرب".

وعند الظهيرة تمكننا من رؤية "عمود السواري" وميناء الإسكندرية بالمنظار. وكلما اقتربنا من تلك المدينة تزايد إحساسنا بالهيبة. فمن خلال غابة الصواري الكثيرة التي تغطي كل مساحة الميناء القديم تبرز أمامنا المدينة الحديثة بمبانيها المائلة إلى البياض والقليلة الارتفاع والمشيدة بدون أي نظام. وإلى اليسار يوجد منزل ابراهيم باشا الذي يطل على البحر، وبيت صغير آخر يشغله الوزير "بوغوص"، ثم بيت ثالث أكبر بكثير من البيتين السابقين مطلي باللون الأبيض. كان هذا البيت في الماضي مقراً لإقامة الباشا قبل أن يتم توسيعه وتحويله إلى مكان لانعقاد الديوان ومقر اجتماعات جلالة الملك وتسيير شؤون الحكم. أما الحرملك فقد تم نقله إلى البيت الخشبي الجديد المزود بنوافذ لا تحصى والذي لم يفرغ العمال بعد من طلائه. ويعيش في هذا الحرملك ما يقرب من عشرين امرأة قدمن من القاهرة عقب وصول الباشا بيومين.

لقد تم رسم وتخطيط الميناء القديم تخطيطاً رائعاً بحيث يوفر أكبر قدر من الأمان لكل البواخر على اختلاف أحجامها وأنواعها. إلا أن أرجاءه في غاية الخطورة كما يتضح من الصخور البارزة التي تحيطه من جميع الجهات. وكلما اقتربنا من الميناء ازدادت دهشتنا لعدم رؤية أي بوارج فرنسية أو إنجليزية لمراقبة ميناء

الإسكندرية الذي تصوره جرائد أوروبا في حالة حصار. ثم جاءنا "ريس" عربي من البر ليقتادنا إلى داخل الميناء القديم حيث وجدنا تلك البوارج الفرنسية والإنجليزية المكلفة بفرض الحصار راسية في سلام وسط السفن التركية، تكاد تلامس سفينتين جزائريتين وقد تلقت الأمر بمهاجمتهما إذا هممنا بمغادرة الميناء أو تجاوز المضيق البحري. وعلى مقربة من الحراقات والسفن الأوروبية المتعددة القلاع كانت هناك بواخر مصرية وتركية من كل الأنواع جاءت للترميم بعد الهزيمة الفادحة التي نزلت بها في ميناء "نافارين" اليوناني. كم هو فريد هذا الخليط من البواخر التابعة لكل الدول الصديقة والمعدية في نفس الوقت! مشهد غريب يكفي لإعطاء صورة عن الوضع السياسي الذي يسود تلك الحقبة التاريخية. وبمجرد ولوجنا الميناء جاء إلينا القادة الفرنسيون المسؤولون عن فرض الحصار لإخبارنا بمعاهدة وقف القتال في "المورة". فمنذ ثمانية أيام قدم الأميرال "كودرينجتون" على رأس أسطول صغير للوقوف على نوايا الباشا الذي وافق على كل البنود الأساسية ووقع على المعاهدة، ثم بعث في الحال بعدد كبير من السفن المصرية إلى "المورة" لنقل المؤن والذخائر للقلاع التي تركتها الاتفاقية تحت سيطرة الجيش المصري. كما أقلعت سفن أوروبية صوب "المورة" لإحضار ابراهيم باشا والجزء الأعظم من قواته إلى مصر خلال عشرين يوماً. وقد عزمت الحكومة المصرية على احتجازهم في الحجر الصحي كما فعلت بالسفن القادمة من سوريا وبلاد المشرق. وقد ساعد كل ذلك -بالإضافة إلى النطاق الصحي المفروض على الحدود السورية- على إنقاذ مصر من وباء الطاعون الذي اختفى تماماً من الإسكندرية منذ خمس سنوات.

ولقد جاءني على متن باخرتي السيد "كاردان" موثق العقود في القنصلية الفرنسية للترحيب بقدومي نيابة عن السيد "دروفتي" الذي كان في الإسكندرية هو والباشا والسيد "انستازي". وقد اتفقنا على أن أذهب لزيارة السيد "دروفتي" هذا المساء مع القبطان "كوسماو" الذي رغب في مصاحبتي. وقد أرسل لنا السيد "روزتي" قنصل توسكانيا بجندي انكشاري يُدعى "مصطفى" في حوالي السادسة مساء. وبعد أن اقتادنا الزورق بين السفن والبواخر المختلفة على مدى نصف ساعة نظراً لاتساع الميناء القديم، رسونا بالقرب من

ديوان الجمرك حيث كان في انتظارنا جندي انكشاري آخر تابع للقنصلية الفرنسية. ثم توجهنا صوب بوابة المدينة، يتقدمنا الجنديان التابعان لقنصلتي فرنسا وتوسكانيا اللذان كانا يرتديان كل منهما عمامة بيضاء وثوباً أحمر فضفاض، ويمسكان بعصا ذات مقبض كروي من الفضة. وماكدنا نجتاز ديوان الجمرك حتى أحاط بنا حشد من الصبية الصغار الذين يرتدون ثياباً ممزقة ويسوقون حميراً جميلة، وأرغمونا على ركوب تلك الحمير ذات السروج النظيفة والمزركشة بمختلف الألوان. وهكذا دخلنا لأول مرة مدينة البطالمة العريقة في موكب يتقدمه الجنديان اللذان امتطيا هما ايضاً حمارين. ويجدر بنا في هذا المقام أن نعترف باستحقاق حمير مصر لكل ثناء وإطراء الرحالة؛ فما من دابة أكثر هدوءاً وطواعية من كل النواحي مثل الحمير، لدرجة أننا نضطر إلى كبح عنانها لمنعها من العدو والركض. كما تتميز الحمير في مصر -وهي أكبر حجماً بقليل من تلك الموجودة في أوروبا وأكثر حيوية- بآذان منتصبة بشيء من الإنفة. ويرجع السر في ذلك إلى ثقب أذني الجحش وضمهما سوياً باستخدام حبل رفيع من شعر الحصان، ثم ربطهما مرة ثانية بحبل صغير آخر بحيث تبقيان دائماً في وضع رأسي. وفضلاً عن ذلك فإن لهذة الحيوانات شعر ناعم جداً أسمر أو أسود في بعض الأحيان، وأشهب محمر اللون في أغلب الأحيان.

وبعد أن أجبنا على صيحة جندي "النظام الجديد" الذي يحرس بوابة المدينة دخلنا شوارع الإسكندرية، إذا حق لنا أن نطلق هذا اللفظ على تلك البيوت القليلة الارتفاع والنادرة النوافذ والمشيدة في معظمها من الطين بدون مراعاة لأي نظام أو تخطيط. وعلى الرغم من حلول الليل كانت الشوارع المزدحمة بالمارة تبدو في غاية الغرابة بالنسبة للسائح القادم لتوه من أوروبا لدرجة لا تسمح لنا بالتعبير عن انطباع الدهشة والذهول الذي استحوذ علينا. خليط عجيب من مصريين ببشرتهم السمراء، وبرابرة أكثر سمرة، وبدو سود يرتدون ملابس بيضاء، وزنوج وحبشيين يملاؤن الشوارع الضيقة ويتدافعون لتجنب الحمير والجياد والجمال البطيئة والمنتظمة في صفوف طويلة وحزينة والمربوطة الواحد منها في ذيل الآخر. كل ذلك كان طريفاً للغاية حتى أعطاني الانطباع برؤية مشهد من مشاهد الأوبرا، وأفقدني الشعور بواقع تلك اللوحة

الفريدة المنبسطة أمام عيني والتي تضيؤها بصورة غريبة الأنوار المنبعثة من الحوانيت التي كانت لاتزال مفتوحة. كذلك كان لآذاننا نصيبها من الدهشة من الأصوات الحنجرية والصيحات العالية المدوية من جميع الأنحاء.

وبعد أن نجحنا في شق طريقنا وسط هذا العالم الجديد والمتغير بلغنا منزل السيد "روزتي" قنصل توسكانيا. وعلى مقربة من الباب فوجئنا برجل أوروبي يندفع وسط موكبنا ليوقف الحمير ويعانقني بحرارة. إنه "بيترينو سانتوني" الذي قدم من ميناء "ليفورن" الإيطالي منذ ثمانية أيام. عندئذ أخذت الفرحة بلقاء هذا الصديق العزيز تنتشلني شيئاً فشيئاً من فتنتي بعبور الإسكندرية، وأخذت أستعيد جلاء أفكاري.

صعدت لأستريح بضع لحظات عند السيد "روزتي" قبل أن أتوجه إلى السيد "دروفتي" بصحبه قبطان السفينة والسيد "لونرمون". وقد استقبلنا القنصل العام بالترحيب، وصرح لي بأنه لم يكن ينتظر قدومي إلى مصر. وبعد بضع دقائق من الحديث علمت بأنه كان قد أرسل لي خطاباً في شهر مايو من معسكر الدلتا حيث كان يتواجد الباشا ليخبرني بأن سموه يرى أنه من المفضل أن أرجيء زيارتي لمصر بسبب سوء العلاقات السياسية بين الباب العالي وفرنسا، علاوة على ما تلقاه الباشا من تهديدات باتخاذ اجراءات قمعية ضده. وعليه فقد كان محمد علي يخشى من أن يؤدي كل ذلك إلى إثارة الشعب المصري ضد الأوروبيين. كما أضاف سموه بأن قدوم عدد كبير من الأشخاص إلى مصر بأمر من حكومة تكاد تكون في حالة حرب ضد السلطان من شأنه أن يضعه شخصياً في موقف حرج أمام الباب العالي، وأنه يرحب بقدومي إلى مصر ترحيباً شديداً لولا أن ذلك سيُساء فهمه وتأويله من طرف وزرائه وقادته الأتراك. بيد أن السيد "دروفتي" أخبرني بأن الأوضاع قد تغيرت بعض الشيء في الآونة الأخيرة، وأن التوقيع على معاهدة الجلاء عن "المورة" قد أزال الكثير من العقبات. وبما أنني وصلت الآن إلى مصر فلم يعد هناك مناص من استقبالي، وأن الباشا لن يعترض على مواصلة رحلتي بل سيمنحني كافة الفرمانات والتسهيلات اللازمة. ثم اتفقنا على أن أنزل عند السيد "دروفتي" على أن نستأجر منزلاً مجاوراً لإقامة رفاقي بسبب ازدحام كل وكالات الإسكندرية بالنزلاء الأوروبيين.

عندئذ استأذنت في الانصراف ومضيت في صحبة جندي انكشاري و"سايس" يحمل مشعلاً لأقضي ليلتي على متن باخرة "الإجليه".

* * *

١٩ أغسطس ١٨٢٨

قضيت النهار كله على متن الباخرة للتأهب لمغادرتها نهائياً هذا المساء، وقدم السيد "روزتي" قنصل توسكانيا لتناول وجبة الغداء معنا. وفي الساعة السادسة مساء غادرت الباخرة في زورق القبطان حيث كان الجندي الإنكشاري قابعاً في المؤخرة. ثم نزلت في مسكن صغير وجميل يتكون من حجرتين مزدانتين بورق حائط جميل جيء به من "باريس" يصور بساطاً غنياً بالألوان في حجرة النوم، ومنظراً طبيعياً من "سويسرا" في الحجرة الأخرى. وفي جانب الحجرة أمام المخدع، وأسفل النافذة، كانت هناك أريكة كبيرة وصوان ومنضدة مزخرفة، ومرآة متحركة، وساعة حائط، ومزهريات ثمينة، ومقاعد وثيرة وأريكة أخرى. ما من شيء ينقص أثاث تلك الحجرة التي لا تمت للذوق الإفريقي بصلة. إلا أنه من بين كل ذلك الترف والبذخ الأوروبي كان هناك إناءان من الفخار المائل إلى الزرقة والرديء الصنع. ولقد أعجبت جداً بهذين الإناءين المملوءين بماء النيل الذي يظل رطباً بسبب ارتشاحه المستمر. وإنك إذا سألت رجلاً قادماً من سفر طويل عن أطيب شيء في الدنيا لبادرك قائلاً : المياه الباردة. ولقد كنت مثل هذا الرجل فارتويت من ماء النيل! وقبل أن نتناول طعام العشاء في الساعة التاسعة مساء كنت قد أفرغت "القلتين" تماماً.

وعلى العشاء كان هناك السيد "ميشان" قنصل فرنسا في "لارناكا" وابن أحد علماء الحملة الفرنسية الفلكيين. وقد نزل هذا الرجل في ضيافة صديقه السيد "دروفتي" حتى تهدأ الأحوال في "قبرص" كي يتمكن من استئناف مهام منصبه بدون أخطار وسط الاضطرابات التي تمزق تلك الجزيرة.

* * *

٢٠ أغسطس ١٨٢٨

قضيت ليلتي في نفس الحجرة التي نام فيها منذ ثلاثين عاماً القائد "كليبر" الذي فتح مصر في يوم واحد بفضل شجاعته الحربية، ثم أضاعها بعد ذلك بسبب ضعفه المدني. ثم استيقظت في الساعة التاسعة صباحاً لتناول وجبة الإفطار التي تتكون من قدح من القهوة بالحليب وقطع صغيرة من الخبز. إلا أنني لم أستسغ مذاق الحليب الخالص لما يتركه في الفم من طعم كريه ورائحة حادة كرائحة الماعز.

ثم ذهبت في العاشرة والنصف لزيارة السيد "انستازي" قنصل السويد في مصر. كان ذلك الرجل بشوش الوجه وصريحاً ومعروفاً بالنزاهة والاستقامة، كما كان تاجراً كبيراً إلى حد أن من بين كل اثنتي عشرة باخرة تغادر الإسكندرية كان هناك من بينها على الأقل ست تابعة له. كان السيد "انستازي" الأرمني الأصل يحظى بثقة الباشا، كما كان يتمتع بصفة خاصة بثقة الوزير "بوغوص" الذي كان أرمنياً مثله. ولقد استقبلنا جالساً على أريكته، وقدم لنا القهوة والنرجيلة حسب أصول الضيافة الشرقية التي يقلدها الأوروبيون؛ وهؤلاء يجارون المسلمين طواعية كلما تعلق الأمر بالملذات والرخاوة دون أن يعنوا باعتناق فضائلهم وخصالهم الكريمة الأساسية. ثم تناولنا وجبة الغداء عند السيد "دروفتي" في صحبة ضيوفه المعتادين : السيد "ميشان" وابن أخته السيد "برناردينو دروفتي"، وكذلك السيد "لافيزون" المولود في "مرسيليا" والذي كان يعمل موثقاً للعقود في قنصلية روسيا قبل أن يُعين مؤخراً مستشاراً من طرف الامبراطور "نيقولا". وكان يقيم عند السيد "دروفتي" ويعاون السيد "كاردان" منذ أن اضطر قنصل روسيا إلى الرضوخ لأوامر الباشا المتكررة بشأن تنكيس علمه الذي كان يخفق بالرغم من إعلان روسيا الحرب على الباب العالي. وكان السيد "لافيزون" رجلاً فاضلاً وضيفاً كريماً. وعقب الانتهاء من الغداء تناولنا القهوة ودخنا النرجيلة ثم استسلمنا لنوم القيلولة، ولكن لم تغمض لي عين. وعند حلول الساعة الخامسة توجهنا لزيارة "مسلتي كليوباترا" التي يطلق عليهما العرب إسم "مسلتي فرعون"، وهم في ذلك أكثر اقتراباً إلى الحقيقة من الأوروبيين. يوجد هذا الأثر خارج مدينة

الإسكندرية الحالية في نطاق العرب ناحية لسان "لوكياس". وبعد أن اجتزنا بوابة ذلك النطاق اتجهنا شرقاً عبر العديد من التلال والكثبان الرملية القاحلة الناتجة عن تراكم أنقاض الفخار والزجاج والرخام وغيرها من المواد المسحوقة والمخلوطة بالرمال التي تغمرها أطلال المباني الإغريقية والرومانية التي كانت تكون مدينة الإسكندرية العتيقة. لذلك نرى في أماكن كثيرة وسط الرمال أطلالاً غير ذات أهمية . ولاتزال بعض أروقة هذة الأبنية القديمة المشيدة في معظمها من الطوب والمدفونة تحت الرمال ماثلة للعيان على مستوى الأرض وتشبه في ذلك فوهة الأفران. ويقطن الآن تلك الجحور التي يتعذر دخولها إلا زحفاً على البطون عائلات من الفلاحين المعدمين الذين يعيشون وسط الحشرات السامة والعظاية وأم أربع وأربعين. ويطلق سكان الإسكندرية اسم "قرى" على تلك الأوكار المتجاورة والتي تغرقها المياة الكريهة المتسربة من خزان قريب طوال ثمانية أشهر في السنة! كما رأيت رجالاً ونساء وأطفالاً عراة تماماً يخرجون من جحور أخرى تتكون من أغصان النخيل المثبتة فوق شقوق الجدران العتيقة. والأدهى من ذلك أنهم يُسَمون تلك الجحور "بيوتاً" ! وفي المساء نرى بعض القطط الجاثمة فوق الأسقف تشارك هؤلاء الآدميين بؤسهم وشقاءهم.

أما عن الكلاب فإنها تعيش في حرية مطلقة في مصر. وفي طريقنا إلى المسلتين تبعتنا مجموعة من هذة الكلاب الجاثمة على قمم التلال، وصاحبتنا بعيداً بنباحها الأجش. وتنتمي كل هذة الكلاب على اختلاف أحجامها إلى فصيلة واحدة، وتشبه بشكل عجيب ابن آوي ولا تختلف عنه إلا من حيث لون شعر الجلد الأصفر الأشهب. وقد تلاشت دهشتي الآن من شدة صعوبة التمييز بين الكلب وابن آوي في النقوش الهيروغليفية لتطابق العلامات التي تعبر عنهما. إذ لا يميز الكلب في النقوش إلا ذيله المرفوع على شكل بوق. فكل الكلاب في مصر لها بالفعل أذيال منتصبة بهذا الشكل. ثم واصلت السير وسط الرمال، مما أتاح لي فرصة التأكد بأم عيني من صحة مارواه "هيرودوت" عن طريقة المصريين في التبول! عندئذ اقترب مني رجل عجوز يقوده طفل صغير نصف عار. كان هذا الرجل المسكين الكفيف يقترب في ثقة واطمئنان، ثم بادرني قائلاً : "سلام عليك يا أخي المواطن، أحسن علي بشيء فأنا

جائع ولم أذق طعاماً حتى الآن". وفي غمرة دهشتي أخرجت كل النقود الفرنسية المتبقية في جيبي ووضعتها في يد العربي الذي صاح قائلاً بعد أن تحسسها بين أصابعه : "إن هذة العملة لم تعد متداولة الآن يا صديقي!". عندئذ ناولته قرشاً تركياً فقال : "هذة العملة أفضل يا صديقي ! شكراً لك يا أخي المواطن !". وهكذا تلاحقنا في كل لحظة في الإسكندرية ذكريات قديمة لحملتنا على مصر. ثم وصلت أخيراً إلى المسلتين القائمتين أمام سور النطاق الجديد الذي يفصلهما عن البحر الذي يبعد بضعة أقدام فقط. ولاتزال مسلة واحدة منهما منتصبة في مكانها في حين تهاوت المسلة الأخرى على الأرض منذ زمن بعيد. ويبلغ ارتفاع كل منهما نحو ستين قدماً بما في ذلك القمة الهرمية، وهما من الجرانيت الوردي مثل المسلات الموجودة في "روما". ونظرة سريعة على الأعمدة الهيروغليفية الثلاثة المنقوشة على كل جانب من الجوانب هدتني إلى أن الملك "تحتمس الثالث" هو الذي أمر بتكريس هاتين المسلتين المنحوتتين من كتلة حجرية واحدة ونصبهما أمام معبد الشمس في "هليوبوليس". ثم أضيفت النقوش الجانبية بعد ذلك في عهد "رمسيس السادس". أما الكتابة الملكية التي أضافها خليفته المباشر "رمسيس السابع" فقد نُقشت بأحرف هيروغليفية صغيرة على الجانبين الشمالي والشرقي بين النقوش الجانبية وحافة المسلة. وهكذا يتضح لنا أن مسلتي الإسكندرية ترجعان إلى العصر الفرعوني كما تشهد على ذلك روعة صنعهما. وقد نُحتتا على ثلاث فترات متعاقبة خلال الأسرة الثامنة عشرة. وقد أطلق عليهما الأوروبيون الأوائل من الرحالة والمقيمين في الإسكندرية اسم "مسلتي كليوباترا" خطأ تماماً كاسم "عمود بومبي" الذي أطلقوه على أثر يعود إلى العصور الرومانية المتأخرة.

* * *

من شامبليون إلى شامبليون فيجاك

الإسكندرية في ٢٢ أغسطس ١٨٢٨

لقد جازفت بإرسال هذا الخطاب على سفينة توسكانية ستقلع غداً صوب "ليفورن". وبما أنه من المستبعد أن يصلك هذا الخطاب بعد تلك الرسالة التي سأعطيها لقبطان "الإجليه" الذي سيقلع صوب أوروبا يوم الثلاثاء القادم فسأضع إذن رقم ١ على هذة الرسالة تاركاً كل التفاصيل للرسالة التالية التي ستكون بحق أولى رسائلي.

لقد وطأت أرض مصر التي طالما تاقت نفسي إليها في الثامن عشر من أغسطس، وقد استقبلتني كأم حنون. وسأحتفظ على الأرجح بصحة جيدة. كذلك رويت ظمأي من ماء النيل الرطب الذي يأتي عبر ترعة المحمودية التي أمر الباشا بشقها.

كما قمت بزيارة السيد "دروفتي" مساء وصولي حيث أخبرني بأنه كان قد كتب لي ليثنيني عن القيام برحلتي هذا العام. ومن حسن الطالع أن تلك الرسالة لم تصلني في حينها. بيد أن الأوضاع قد تغيرت منذ ذلك الحين. لقد بلغك حتماً نبأ معاهدة الجلاء عن "المورة" التي صدّق عليها ابراهيم باشا في السادس من يوليو، ووقعها نائب الملك محمد علي منذ مايقرب من أسبوعين. وعليه لن تعوق رحلتي أية عقبات. كما علم الباشا بقدومي ورحب بذلك ترحيباً كبيراً، وسأقابله غداً أو بعد غد على أبعد تقدير. إن الأمور مهيأة للغاية، كما أن أهل الإسكندرية في منتهى الطيبة على عكس ما أشاعه علماء الحملة الفرنسية الذين سبقونا إلى مصر.

ولم أشأ أن أرفض ضيافة السيد "دروفتي" فنزلت عنده يوم التاسع عشر، وخصص لي في قصر القنصلية الفرنسية مسكناً صغيراً وجميلاً يطل على شاطيء البحر. وقد وضعت برنامجاً لما نعتزم زيارته من أماكن أثرية في مدينة الإسكندرية وضواحيها، وسنبدأ بالمسلتين المعروفتين "بمسلتي كليوباترا" حيث سنتمكن أخيراً من عمل مسح دقيق لهما. ثم نزور بعد ذلك "عمود السواري" للتأكد مما إذا كانت نقوشه تحمل اسم الامبراطور "دقلديانوس" أم لا.

إن رفاقي الشبان في حالة ذهول وإعجاب بكل ما رأوه حتى الآن. وسأبعث لك بالمزيد من التفاصيل والملاحظات في رسالتي القادمة.

٢٣ أغسطس ١٨٢٨

صديقي الحميم ،،

لقد أرسلت إليك خطاباً من "أجريجنت" بجزيرة صقلية. وعلى الأرجح فإنه يجب أن يكون قد وصلك، إلا أنني أخشى أن يكون ما اشتهر به أهل "صقلية" من تكاسل مستحكم مبعثه المناخ المعتدل الذي يتمتعون به قد أنسى السلطات إرساله إلى "بالرمو"... وقد وصفت لك في تلك الرسالة ما كان يداعبني من آمال حلوة في زيارة أجمل المعابد الإغريقية في "صقلية". ولكنهم للأسف الشديد لم يسمحوا لنا بمغادرة السفينة بعد أن جعلونا ننتظر طوال أربع وعشرين ساعة كاملة. واللوم في ذلك يرجع إلى نائب قنصل فرنسا أو هكذا زعم الضباط الصقليون المسؤولون عن الصحة العامة والذين كانوا يرتعدون خوفاً وهم يخاطبوننا عن بعد لاعتقادهم بأننا جئنا بعدوى الطاعون الذي يفتك بـ"مرسيليا". وبعد أن أعيتنا الحيلة أقلعنا صوب جزيرة "مالطة". ثم تجاوزناها في صباح اليوم التالي الثامن من أغسطس، وحاذينا جزر "جوزو" و"كيمينو" و"سيتيه فاليت" التي تمتعنا برؤية كافة معالمها الخارجية.

ثم لاحت لنا هضبة "قورنية" ولسان "روزيت"، وحاذينا من حين لآخر مدينة "بوزيريس" العتيقة. عندئذ غمرتنا البهجة والسعادة لاقتراب وصولنا، وكذلك اللهفة في معرفة ماتدخره لنا أرض مصر من استقبال طيب. وأخذنا نحدق بأعيننا ونصوب المنظار لرؤية السفن الإنجليزية والفرنسية المكلفة بفرض الحصار الشهير الذي تسهب الجرائد في سرد أخباره. إلا أننا لم نر شيئاً من هذا القبيل. فقط لاح لنا من خلال المنظار "عمود السواري" والميناء القديم.

وكلما اقتربنا من مدينة الإسكندرية كلما ازدادت هيبتنا برؤية منازلها البيضاء المنبسطة أمامنا من خلال غابة من الصواري. وعند

مدخل المضيق البحري أطلق قبطان سفينتنا طلقة مدفعية جاءنا على أثرها ملاح عربي ليقتادنا عبر الصخور البارزة ويرسو بنا وسط الميناء القديم.

وهنا يصعب علينا التعبير عن دهشتنا بمشاهدة البوارج الفرنسية والإنجليزية المكلفة بفرض الحصار راسية في سلام على مقربة من السفن المصرية والتركية، تكاد تلامس بارجتين جزائريتين وقد تلقت الأمر بمهاجمتهما إذا همتا بالخروج أو الإبتعاد عن الميناء. وتظهر في خلفية هذه اللوحة الفريدة هياكل السفن المصرية والتركية التي نجت من الهزيمة الفادحة التي نزلت بها في ميناء "نافارين"! ذلك هو الدليل -على ما أعتقد- على ما للباشا من سطوة كبيرة على أذهان المصريين، وما تنطوي عليه نفوسهم من حقد وضغينة. كما يُبرز هذا المشهد ضعف وتناقض السياسة الأوروبية.

وما كدنا نبلغ الميناء في الثامن عشر من أغسطس حتى جاءنا في الساعة الخامسة ضباط فرنسيون ليزفوا إلينا نبأ اللقاء الذي عُقد في السادس من يوليو بين قادة القوات المتحالفة في "المورة" وبين ابراهيم باشا، وإرساء أسس معاهدة جلاء القوات المصرية عن "المورة". كما أخبرونا بقدوم الأميرال "كودرينجتون" الأسبوع الماضي لكي يوقع الباشا على تلك المعاهدة التي جهد السيد "دروفتي" في إعدادها. وكان الأميرال الإنجليزي يرغب في الإستئثار بشرف الاضطلاع بتلك الاتفاقية الهامة لاستعادة حظوته في "لندن". لذلك سلك كل الطرق الملتوية منذ شهر لتفادي مقابلة الأميرال "مالكولم" الذي عُيّن في منصبه.

إلا أن السيدين "دي ريجني" و"دروفتي" هما اللذين اضطلعا في حقيقة الأمر بتلك القضية. وقد اقلعت العديد من السفن الفرنسية والإنجليزية بالإضافة إلى عدد كبير جداً من البوارج المصرية -لأن الباشا لايزال في حوذته أسطول حربي كبير- من الإسكندرية لإحضار ابراهيم باشا والفرقة العسكرية الأولى في بحر اسبوعين.

ثم جاءني على متن السفينة موثق العقود في القنصلية الفرنسية للترحيب بقدومنا نيابة عن السيد "دروفتي" الذي كان في الإسكندرية هو ونائب الملك. وفي الساعة السادسة من مساء نفس اليوم غادرت السفينة بصحبة القبطان و"روزليني" و"بيبان"

و"ريتشي" وآخرين لأتبرك بتراب مصر الذي تطأه قدماى لأول مرة. وسرعان ما التف حولنا سائقي الحمير. ثم دخلنا بزهو مدينة الإسكندرية على ظهر تلك الحمير الجميلة ذات الشعر الناعم والتي كانت تعدو برفق. إن كل ما كتب عن هذة المدينة يعجز عن إعطاء صورة حقيقية عنها. إذ نجد أنفسنا ـأمام كل متناقضاتهاـ في عالم آخر يختلف جذرياً عن كل ما نعرفه حتي الآن. أروقة ضيقة مزدحمة بالحوانيت الصغيرة وتغص برجال من كل الأجناس وبكلاب مستلقية وجمال منتظمة في صفوف، وصيحات خشنة تتداخل مع أصوات النساء الثاقبة، وأطفال شبه عراة، وغبار خانق، ومن هنا وهناك بعض السادة يرتدون أفخم الملابس ويمتطون الجياد الأصيلة. تلك هي شوارع الإسكندرية! وبعد نصف ساعة من اللف والدوران بلغنا منزل السيد "دروفتي" الذي استقبلنا على الرحب والسعة. وقد أسر لي بأن قدومي إلى مصر يدهشه بعض الشيء. إلا أنه سعيد لأن الخطاب الذي كان قد أرسله في شهر مايو الماضي ليثنيني عن المجيء إلى مصر لم يصلني في حينه. فقد تغيرت الأمور منذ ذلك الوقت، وما من شيء يعوق رحلتي الآن. وفضلاً عن ذلك فقد هيأ لي مسكناً في بيته. ولقد قبلت ذلك المعروف الجميل ونزلت يوم التاسع عشر في قصر القنصلية الفرنسية الذي كان مقر قيادة جيشنا في الماضي، حيث خصص لي مسكناً صغيراً وجميلاً كان قد نزل فيه الجنرال "كليبر". وقد غمرتني مشاعر الهيبة حين اضطجعت في الفراش الذي نام فيه فاتح "هليوبوليس".

ويشهد كل شيء في هذة المدينة بذكريات ما كان لفرنسا من سطوة في الماضي وتأثير واضح على الشعب المصري. وعند وصولي دق جنود الباشا الطبول، وترنمت المزامير بنفس الألحان والنغمات الفرنسية. فقد قلد "النظام الجديد" كافة ألحان السير (المارشات) الفرنسية. ويطيب لي في هذا الصدد أن أسرد واقعة حدثت لي منذ ثلاثة أيام حين ذهبت لمشاهدة "مسلتي كليوباترا". فعند خروجي من المدينة، ووسط الكثبان الرملية التي تغمر أنقاض مدينة الإسكندرية العتيقة، تقدم نحوي رجل عربي عجوز وضرير يقوده طفل صغير. ثم قال لي محيياً : "صباح الخير يا أخي المواطن ! أحسن علي بشيء فأنا جائع ولم أذق طعاماً حتى الآن". وأمام فصاحة هذا العربي أخرجت كل النقود الفرنسية المتبقية في جيبي ووضعتها في يده.

إلا أنه بعد أن تحسس قطع النقود بين أصابعه صاح قائلاً: "إن هذة العملة لم تعد متداولة يا صديقي !". عندئذ أعطيته قرشاً مصرياً فقال: "ما أروع ذلك يا صديقي. شكراً لك يا أخي المواطن !".

إنني أقاوم الحر على أحسن ما يكون كما لو كنت مولوداً في هذا البلد. لدرجة أن الأوروبيين يرون أن ملامحي تشبه ملامح الأقباط تماماً. زد على ذلك شاربي الأسود المهيب الذي يضفي على وجهي طابعاً شرقياً لا بأس به. وفضلاً عن ذلك فقد تطبعت بالعادات والتقاليد المصرية، وأخذت أحتسي الكثير من القهوة، وأدخن النرجيلة ثلاث مرات يومياً. ما أطيب نكهة التبغ عندما تُخلط كل نفحة بجرعة من القهوة اليمنية التي يُصنع منها كذلك نوع من الحلوى ! أضف إلى ذلك نوم القيلولة من الساعة الثانية إلى الساعة الرابعة من بعد الظهر.

كل رفاقي الشبان يشاركونني مأدبة السيد "دروفتي" العامرة، إلا أنهم يقتدون بي جميعاً في الميل إلى الاعتدال، والقناعة وكبح جماح شهيتهم...

لقد قمت بزيارة "عمود السواري" وجمع بعض المعلومات عنه. كما عثرت بين الأنقاض العتيقة المتناثرة التي تغمر قاعدته على حجر رملي متبلور، أو نوع من الرخام الملحي الذي يحمل نقوشاً هيروغليفية ترجع إلى عهد الملك "بسماتيك الثاني".

كذلك أكثرت من الذهاب فوق ظهر الدواب إلى "مسلتي كليوباترا". ويمتلك الملك المسلة المنتصبة، بينما يمتلك الإنجليز المسلة الأخرى الراقدة فوق الرمال. وقد قمت بنسخ ورسم أغلب نقوشهما، وسيصبح في حوزتي لأول مرة رسماً دقيقاً أفضل من اللوحة التي وضعها علماء الحملة الفرنسية. وقد قام الملك "تحتمس الثالث" بتكريس هاتين المسلتين بأعمدتهما الهيروغليفية الثلاثة ونصبهما أمام معبد الشمس الكبير في "عين شمس" المعروفة عند اليونان باسم "هليوبوليس". وقد قام "رمسيس السادس" بإضافة النقوش الجانبية، بينما أضاف "رمسيس السابع" نقشين هيروغليفيين صغيرين بين الأعمدة الجانبية للواجهة الشرقية وحافة المسلة. وهكذا تعود نقوشهما إلى ثلاث أحقاب تاريخية. كما عثرت على القاعدتين المربعتين من الجرانيت الوردي اللتين كانت المسلتان ترتكزان عليهما. وبعد أن أمر الأب "بيبان" المسؤول عن الحفائر بعض

العربان بالتنقيب حول قاعدة المسلة المتهاوية، اكتشف أن الرومانيين بما عُرف عنهم من ذوق ركيك قد وضعوا هاتين المسلتين فوق قاعدة ذات ثلاث درجات. ويُعد ذلك أقدم مثال لأثر فرعوني يُفسده ما أضفي عليه من تحسينات ركيكة. وبالطبع فإن هذا الكشف الأول يملأ "بيبان" فخراً وزهواً.

* * *

٢٤ أغسطس ١٨٢٨

قابلت الباشا في الساعة الثامنة من صباح اليوم. ويمتلك سموه العديد من المنازل الخشبية الجميلة المشيدة بذوق وإتقان على شاكلة قصور "القسطنطينية"، وتقع هذه العمائر الجميلة في جزيرة "المنار" القديمة. وقد قام السيد "دروفتي" باصطحابي أنا والقبطان و"لونرمون" إلى القصر لتقديمنا إلى الباشا في حنطور يجره حصانان مطهمان انطلقا بسهولة عجيبة وسط شوارع الإسكندرية الضيقة والمتعرجة بفضل مهارة السايس الكبيرة.

كما ارتدى رفاقي الشبان أبهى ملابسهم، وأخذوا يركضون خلفنا على ظهر جياد جموحة.

صعدنا السلم الكبير المؤدي إلى قاعة الديوان، واجتزنا قاعة فسيحة تكتظ بالموظفين، ثم دخلنا على الفور حجرة أخرى حيث كان يجلس محمد علي في زاويتها بين نافذتين مرتدياً ثياباً بسيطة، وممسكاً في يده بنرجيلة مُطعمة بالماس. كان محمد علي قصير القامة، ترتسم على ملامحه من البهجة والبشاشة مالا ننتظر أن نجده عند رجل ينوء تحت وطأة الأمور الجسام وتثقل كاهله الأعباء الكثيرة. ومن بين قسمات وجهه تبرز عينان متوقدتان تتناقضان بشكل فريد مع لحيته البيضاء الطويلة المسترسلة على صدره.

وقد استقبلنا سموه على الرحب والسعة، وسألنا عن أخبارنا وعن برنامج الرحلة. فأخبرته برغبتي في الذهاب حتى الشلال الثاني، والتمست من سموه الفرمانات اللازمة فمنحني إياها في الحال، وخصص جنديين لمرافقتنا وحمايتنا أينما ذهبنا.

ثم استطرقنا في الحديث عن الوضع في اليونان، وأخبرنا سموه بنبأ اغتيال أحمد باشا على أيدي اليونانيين الذين تمكنوا من التسلل إلى حجرته بالتواطؤ مع بعض الجنود الألبانيين. ولقد استبسل هذا الرجل التركي في الدفاع عن نفسه بالرغم من شيخوخته حتى قتل بيديه سبعة من هؤلاء اليونانيين قبل أن تغلبه كثرتهم. ويبدو أن هذا الحدث قد أثر على الباشا تأثيراً شديداً.

وبعد أن تناولنا معه قدحاً من القهوة بدون سكر، هممنا بالانصراف وودعنا سموه بأطيب التحيات. وبمجرد حصولي على الفرمانات سأشرع في التوجه إلى القاهرة ثم إلى صعيد مصر بعد ذلك. وسأمكث في الإسكندرية حتى الثاني عشر من سبتمبر لتفادي قيظ شهر أغسطس، مستغلاً كل ذلك الوقت في ترتيب أموري كي لا أطيل التوقف في القاهرة.

من ناحية أخرى فإنني أعيش هنا منعماً مدللاً من كل الناس وخاصة من السيد "دروفتي" بالرغم من تدهور حالته الصحية، فهو في أمس الحاجة للرجوع إلى أوروبا للعلاج من حمى الضنك التي تفتك به. كما وجدت في شخص السيد "ميشان" قنصل "لارناكا" في "قبرص" رجلاً لطيفاً للغاية. وبالرغم من مشاركته في بعثة الحملة الفرنسية فإن ذلك لا يمنعه من الحديث عن "جومار" بدون مجاملة. أما السيد "انستازي" قنصل عام السويد فهو رجل وقور يغمرني بأدبه ولياقته. كما يجدر بي أن أثني على السيد "روزيتي" قنصل توسكانيا، وأن أمتدح السيد "أسربي" قنصل النمسا. أما عن السيد "بيديمونت" قنصل سردينيا وصهر السيد "دروفتي" فيُعتبر من أفضل أصدقائي في "تورينو"، وقد تركني أنزل في ضيافة حميه بعد معارضة شديدة. ومساء دخولنا الإسكندرية في موكب كبير اعترض طريقنا "بيترينو سانتوني" وعانقني بحرارة في لحظة لم أكن أتوقع أن أراه فيها. هكذا يا صديقي العزيز فإنني على خير حال، وبوسعك بل عليك ألا تقلق بشأني.

* * *

الإسكندرية في ٢٥ أغسطس ١٨٢٨

صديقي الحميم،،

أكتب إليك هذه الرسالة لأكلفك بموضوع شخصي على جانب كبير من الأهمية. إن الأمر يتعلق بالسيد "بوبل"، نقيب بحري ومعاون قبطان سفينة "الإجليه" التي قمنا برحلة ممتعة على متنها بفضل كرم وطيبة رؤسائها. أسألك أن ترد له الجميل بالتماس منحة دراسية لابنه "لويس تيودور بوبل" الذي يبلغ من العمر أحد عشر عاماً. وهو تلميذ في مدرسة "شاربور"... إن والده الحائز على وسام "سان لويس" يخدم في البحرية منذ خمسة وعشرين عاماً؛ كما أن جده السيد "اوجيستان بوبل" الحائز على وسام الشرف قد خدم في البحرية لمدة أربعة وأربعين عاماً. لذلك أوصيك بصورة ملحة باسداء هذه الخدمة للسيد "بوبل" الذي يستحق كل معروف. وداعاً يا صديقي العزيز. قبلاتي لك. كلنا في صحة جيدة.
ج.ف.شامبليون

* * *

من "هيبوليت روزليني" إلى شامبليون فيجاك

الإسكندرية في ٢٦ أغسطس ١٨٢٨

في اليوم الذي أعقب مقابلة "صغير" والباشا قام قنصل توسكانيا -وهو من أصدقاء الباشا المقربين- بتقديم أعضاء بعثتنا إليه، وسلمته في هذه المناسبة رسالة البوهة. ولقد كان هذا التركي الطيب لطيفاً جداً، كما كلفني بوجه خاص بتوصيل شكره وامتنانه لما أظهره البوهة من ثقة في شخصه بإرسالنا إلى مصر، وقال لي إن علينا أن نعتبر أنفسنا في وطننا، علماً بأنه قد اتخذ كافة التدابير لتأميننا تأميناً تاماً. ثم أطال الحديث وسألنا عن رأينا في الوضع السياسي الراهن.

وقد بدا لنا واضحاً مدى سعادته للجلاء عن "المورة". كما قدم لنا القهوة بدون سكر إلا أننا احتسينا في هذة المرة ـعلى عكس "صغير"ـ فنجاناً من القهوة الطيبة المذاق.

ذهبنا بعد ذلك لزيارة محافظ الإسكندرية الذي استقبلنا خير استقبال وقدم لنا النرجيلة. ثم حدثنا عن وباء الطاعون مُعرباً عن أمله في ألا تُسفر رحلة "باريزيت" عن أي عواقب وخيمة، فقد اختفى هذا الوباء من مصر منذ ثلاثة أعوام حتى أيقنا في إمكانية درء هذا المرض الخارجي عن طريق مجرد فرض الحجر الصحي. اللهم آمين!

ولقد أحاطنا كل قناصل الدول الأجنبية برعايتهم وخاصة "انستازي". إن منظر "صغير" بشاربه ممسكاً بتلك النرجيلة التي اعتادها كرجل تركي محنك ليثير الدهشة! كذلك سنرتدي الملابس العربية في القاهرة. وإنني أهيب بك عند نشر مقال آخر في الجرائد أن تشير إلى لقائنا بالباشا وإلى كل ماتراه جديراً بالذكر. إن السفن الكثيرة التي تجوب البحر الأبيض المتوسط لابد أن تهيء لكم فرصاً متكررة لإرسال أخباركم وأشياء أخرى قد تهمنا.

هل تراك تذكر "كافيجليا"، ذلك الرجل الذي نشر منذ مايقرب من عشرة شهور "رسالة عجيبة عن سحر الكتابة الهيروغليفية"؟ لقد قابلته هنا في مصر، وقد حمّلني هدية لتقديمها إلى البوهة وهي عبارة عن تمثال ضخم للملك "سنوسرت" من الرخام الصنعي يبلغ ارتفاعه ثلاثة وثلاثين قدماً. وكان قد عثر عليه أثناء عمليات تنقيب في "منف". بيد أنني أعتقد أنه تنازل عنه في حقيقة الأمر لعدم استطاعته نقله بنفسه. وسأتولى أنا هذة المهمة إذا تمكنت من تقطيعه بالمنشار.

...إن صحتنا تتحسن بفضل ارتفاع درجة الحرارة التي تكاد تُذيبنا مثل الشموع؛ إلا أن أعجب ما في الأمر أننا نأخذ في السمنة بدلاً من أن يُصيبنا الضعف والهزال.

وأخيراً أتمنى لك صحة جيدة، ولك مني أصدق المشاعر.

روزليني

* * *

من شامبليون إلى شامبليون فيجاك

الإسكندرية في ٢٩ أغسطس ١٨٢٨

صديقي العزيز ،،

أنتهز فرصة تأجيل رحيل قبطان سفينتنا الهمام إلى يوم ثلاثين أغسطس بسبب تدهور الأحوال السياسية لأخط إليك بعض السطور. لقد حدثتك عن معاهدة الجلاء عن "المورة" التي وافق عليها ابراهيم وصدق عليها الباشا. وقد بلغت أخبار التحضير لهذة المعاهدة باريس أواخر شهر يوليو عن طريق السفينتين "لوتريدان" و"لوهيسار" اللتين كانتا محجوزتين في الحجر الصحي لدى وصولنا إلى "تولون". لذلك يصعب على المصريين إدراك المغزى من وراء اقلاع الحملة الفرنسية من "تولون" في الخامس عشر من أغسطس، كما ذكر لنا قبطان سفينة "لونيزوس" الذي بلغ مصر بعد رحلة استغرقت أحد عشر يوماً. وقد كان بصحبته السيد "جرو"، مسؤول من وزارة الخارجية قدم إلى مصر يتبعه السيد "سان ليجيه" ابن أخت وزيرالبحرية لشرح وإيضاح بنود الاتفاقية التي تم التوقيع عليها ووضعها موضع التنفيذ. كما علمنا بوصول أسطول تابع لتركيا وللحلفاء إلى ميناء "نافارين" لنقل ابراهيم باشا وجزء من قواته إلى مصر. لذلك كان لنبأ اقلاع جيشنا من "تولون" صوب "المورة" تأثيراً سيئاً على الباشا الذي استغل ذلك لتعليل سحب قواته المتبقية في "بيلوبينيز"، وإنقاذ ما يقرب من أربعة عشر ألف جندي ماكانوا ليصمدوا أمام القوات الفرنسية التي ستصل "نافارين".

وفي الواقع فإن أمر هذة الحملة الفرنسية قد أزعج الباشا كثيراً، ووضع حكومتنا في موقف حرج إزاء الباب العالي، كما وضع محمد علي نفسه في موقف صعب تجاهنا. وقد علمت من بعض المصادر المطلعة خشيتهم من أن تكون الحكومة الإنجليزية قد ضللت الحكومة الفرنسية في هذة المناسبة، ودفعتها دفعاً لشن تلك الحملة واعدة إياها بدعم ومساعدات لم ولن تأتي؛ كل ذلك لكي تهاجم فرنسا علانية الباب العالي في نفس الوقت الذي يوقع فيه الإنجليز معاهدة

تحالف مع السلطان محمود الذي بلغ قمة بأسه وقوته. كما يُقال أن الروس قد تجمعوا في "فيليبابولي" على بعد ما يقرب من عشرة فراسخ من "اندرينوبل"، وأن حريقاً هائلاً قد شب في مدينة "القسطنطينية" حتى أتى على نصفها. إلا أن هذة الشائعات ينبغي أن تبقى في طي الكتمان حتى نأتي بمزيد من التفاصيل. وعلى كل حال بوسع السلطات الفرنسية أن "تتباهى" بأنهم زجوا بعشرة آلاف من الجنود في البحر، وبعثوا بهم في بلد معدم يفتقر إلى كل شيء، وفي فصل من فصول السنة تنتشر فيه الأمراض! ليكن الإله "آمون" العظيم معنا! لقد بلغني خطابك بتاريخ الثامن والعشرين من شهر يوليو عن طريق سفينة "لونيزوس"، بالإضافة إلى نسخة من الرسالة التي بعثها لي السيد "دروفتي" من الدلتا في الثالث من مايو. لابد أن تكون تلك الرسالة قد أزعجتك. وأصارحك القول بأنها لو كانت قد وصلتني في حينها لكنت أرجأت سفري إلى مصر. ولكنها يد "آمون" التي حالت -لحسن الحظ- دون ذلك. أما الباشا فكان يُحَبذ ألا أتسرع في المجيء إلى مصر، بيد أنه الآن، وقد سبق السيف العزل، فلا مفر من استقبالي؛ فضلاً عن أن الشعب المصري متعاطف جداً مع الأوروبيين عامة ومع الفرنسيين خاصة لاسيما وأنه عند انتشار نبأ إقلاع أسطولنا من "تولون" بين أهل الإسكندرية أول أمس سأل العديد من الناس المسؤولين في القنصلية عما إذا كان الفرنسيون سيبلغون الإسكندرية في اليوم التالي، وكانوا سعداء بذلك الأمر. والسبب في ذلك هو أن محمد علي لايحظى بدعم الضباط العثمانيين الذين يحيطون به، فهؤلاء يزدرون ويضطهدون الشعب المصري الذي يبادلهم مقتاً بمقت. لذا فعندما يقارن المصريون البؤساء ما آل إليه حالهم في ظل حكم الباشا وبين ما يمكن أن يكون عليه تحت سيطرة الجيش الفرنسي فسرعان ما يميلون إلى الوضع الثاني. ولا يعني ذلك أنهم يتحرقون شوقاً لمجيئنا، فدينهم يحول دون ذلك. إلا أنه من المؤكد أنهم ينتظرون ذلك دون امتعاض لتخليصهم مما يعانونه. لذلك سيحسن الشعب استقبالي في شمال مصر وجنوبها. وقد ابتهج السيد "دروفتي" بقدومي، وأخذ يرسم لي صورة رائعة لما ستكون عليه رحلتي. أعتزم البقاء في الإسكندرية حتى الثاني عشر من سبتمبر لتفادى حرارة الصيف في القاهرة حيث ينتشر الآن نوع من أنواع حمى التيفوس

الحميدة الناشئة عن انخفاض درجة الحرارة وارتفاع منسوب النيل. لقد تسبب انخفاض منسوب النهر المقدس خلال الأيام الماضية في إثارة المخاوف بشأن المحصول الزراعي، حتى بات ذلك الأمر الهم الشاغل لكل المصريين بدءاً بقصر الباشا وإنتهاء بالجحور التي تأوي عائلات بأكملها من الفلاحين المعدمين وسط أنقاض مدينة الإسكندرية العريقة. لقد وفى النيل بوعده وجاء بالفيضان في شمال مصر، وارتفاع منسوب المياه بمقدار ذراعين من شأنه أن يفي بحاجة أهل الجنوب. إننا جميعاً في تمام الصحة والعافية.

لقد فرغ "بيبان" من عمل مسح للدرجات الثلاث للمسلة التي قام علماء الحملة الفرنسية بنسخها دون الالتفات إلى نقوشها الهيروغليفية كما اتضح لي. إنني أتقدم في رسوماتي وسأتطرق بعد ذلك إلى نقوش "عمود السواري" لاختلافنا حول الكثير منها. وسنحسم ذلك الأمر عن طريق نسخها جيداً على الورق.

لقد وقع السيد "دروفتي" فريسة للمرض، ولكن أسوأ ما في الأمر أن عقله بدأ يختل. من المستحسن أن يسمح له الوزير بالعودة سريعاً إلى فرنسا للاستشفاء لأنه إذا بقي في مصر عاماً آخراً فسيكون الموت مصيره. لقد عاصر ذلك الرجل موت واختفاء كل الذين قدموا معه إلى مصر منذ ستة وعشرين عاماً، وذلك يؤثر فيه تأثيراً شديداً.

بلغ تحياتي الحارة إلى السيد "دي فيريساك" العزيز وحرمه، واحترامي وحبي إلى "كولبير". قبلاتي إلى "ديبوا" وأخبره أنني سأكتب إليه عندما أملك أخباراً سارة أزفها إليه.

وداعاً مع حبي وأشواقي.

* * *

الإسكندرية في ١٠ سبتمبر ١٨٢٨

صديقي العزيز ،،

آمل أن يكون قد وصلك منذ بضعة أيام خطابي الأول بتاريخ الرابع والعشرين من شهر أغسطس والذي أرسلته إلى فرنسا عن طريق سفينة "الإجليه". لقد وعدني السيد "كوسماو" قبطاننا العظيم -والذي أوصيك بتزكيته لدى وزير البحرية عن طريق السيد "دي فيريساك"- وعدني بالإسراع في تعقيم رسائلي بمجرد وصوله إلى "تولون" ووضعها في البريد. ستجد في تلك الرسالة ما يطمئنك علينا في حاضرنا ومستقبلنا، وذلك بعد ما أثاره خطاب السيد "دروفتي" من قلق، وما أقدمت عليه الحكومة من إرسال برقية تلغرافية لتمنعني من الرحيل إلى مصر كما جاء في إحدى الجرائد الباريسية. فحمداً لله ألف مرة على أن الرسالة والبرقية لم تصلاني في حينهما. فلقد كان مقدراً لي أن أرى "مصري" الحبيبة هذا العام بالرغم من تكتل الغيوم السياسية في سماء الشرق والتي تدفعها رياح شمالية، وخاصة رياح غربية يستعصي علينا أن ندرك لها اتجاهاً. ستمضي رحلتي في يسر ودون أي مخاطر. وإذا حق لي أن أستطلع المستقبل استناداً إلى تجارب الماضي فإنني أعتقد أن المتاعب والعقبات لن تأتي من طرف المسلمين وإنما سيتسبب فيها الأوروبيون، أي المسيحيون، وهم في مصر كما في سائر بلاد المشرق من أحط الناس.

لم يُحْدِث نبأ إقلاع الحملة العسكرية من ميناء "تولون" وبلوغها "المورة" أي تأثير على الشعب المصري. فقط كان الباشا مستاء في باديء الأمر لرؤية الفرنسيين يحتلون "المورة" فجأة بعد أن قبل هو الجلاء عنها تاركاً عدداً قليلاً جداً من الجنود في خمسة حصون. كان الباشا يخشى من أن يبدو خائناً في نظر الباب العالي، ولكنه سرعان ما استغل الموقف لصالحه مبرزاً أمام الباب العالي الحكمة من وراء سحب ابنه وقواته الذين أعيتهم الأمراض لدرجة لاتسمح لهم بمواجهة القوات الفرنسية. إلا أن الأمر الوحيد الذي يقلق محمد علي هو خوفه من رد فعل ابراهيم الذي يتحرق رغبة منذ وقت طويل لاختبار جنوده في خضم معركة ضد الكتائب الأوروبية،

وأن يتم ذلك قبل جلاء قواته. ويعتقد المصريون أن فرنسا قد أقدمت على ذلك الأمر كعادتها بدون لياقة أو تقدير للعواقب. ولن يؤدي ذلك إلا إلى إحراجها أمام الباب العالي مما سيتهلل له الروس والإنجليز المكره. لقد غادر الجنرال "ميزون" باريس متجهاً إلى اليونان حاملاً تعليمات في منتهى الحماقة مفادها الرسو في جزر "سابيانس" حيث لا توجد جرعة ماء للشرب أو مكان كاف لاحتواء ثلاث سرايا عسكرية. ويمكننا أن نتخيل مغبة ذلك الأمر. وستكشف لنا الأيام القادمة كيف سيستطيع ابراهيم احترام وتنفيذ معاهدة لانلتزم نحن بتطبيقها. فعساه أن يخضع للأحداث! كما أمر السلطان القوات المصرية بالقدوم إلى "روميليا" وهي في طريق عودتها إلى مصر. وهكذا قام الباشا بخطوة حساسة وشائكة! حسبنا الآن كلاماً عن السياسة الدولية، ولنرجع إلى أحوالي أنا ورفاقي.

لقد وجدت نفسي مضطراً للاستعانة بكافة الحيل الدبلوماسية (كل ما سأذكره سري للغاية). فقد أدركت بنفسك من خلال قراءة الرسالة التي بعثها لي السيد "دروفتي" من معسكر "الجماليه" مدى المبالغة في تهويل الأسباب التي تقضي بتأجيل قدومي إلى مصر؛ وكل ذلك طبعاً لخدمة المصالح الشخصية لبعض الأفراد. فقد ارتعد كل تجار العاديات لنبأ قدومي إلى مصر بغرض التنقيب عن الآثار، وأخذوا يتآمرون لمنعي من الحصول على الفرمانات اللازمة، ونجحوا في خداع الوزير "بوغوص" والباشا الذي أفصح عن عدم رغبته في منح فرمانات إلا لصديقيه "دروفتي" و"انستازي"، ونصحوني بصرف النظر عن ذلك الأمر. إلا أنني كتبت مذكرة إلى موثق العقود في القنصلية الفرنسية موضحاً فيها حقيقة أنني جئت مصر للتنقيب عن الآثار لحساب متاحف الملك، وعليه فإنني مضطر أن أحيط وزراءه علماً بالأسباب التي منعتني من تنفيذ ما أسند إليّ من مهام؛ كما أن مؤامرة مادية دنيئة هي التي حالت دون حصولي على تلك الفرمانات. وبما أنني جئت مبعوثاً من الملك ومن حكومته فإن حرماني من حق قد حصل عليه أشخاص آخرون مثل "بلزوني" و"باسالاك" و"لابورد" و"ريفو" وغيرهم يمثل إهانة لشخص الملك الذي أحمل اسمه. وإذا كان الباشا ووزيره يرغبان حقاً في الحفاظ على سمعتهما في أوروبا كحماة للعلوم والفنون فهاهي الفرصة الوحيدة -بإعطائي فرمانات للتنقيب- لتشجيع وحماية العلم فعلاً،

خلافاً لما دأبنا عليه حتى الآن من تسهيل وخدمة المصالح الفردية والمضاربات التجارية عن طريق منحهم فرمانات مماثلة لمن لايستحقونها. إن لي هدفاً آخر أبتغيه من وراء الحفائر، هدف أسمى وأرفع من تلك المضاربات ألا وهو حصر محتويات المقابر التي ستودع بعد ذلك في متحف الملك الذي تفضل الباشا نفسه بإثرائه وذلك بإهدائه أربعين حلية ذهبية. ولقد بلغت هذة المذكرة التي أضفت إليها بعض الملاحظات الأخرى الوزير "بوغوص". إن هذا الإجراء -علاوة على الرأي العام السائد في الإسكندرية- قد حسم القضية لصالحي. إذ خشي المعارضون أن أندد بهم -دون ذكر أسماء- في جرائد أوروبا. لذلك فقد تسلمت اليوم الفرمانات، حتى أن السيدين "دروفتي" و"انستازي" تنازلا لي عن حقيهما في التنقيب في بعض المناطق المقصورة عليهما.

وقد تسببت كل تلك الأحداث في تأخير رحيلنا إلى القاهرة حتى يوم الأحد ...

* * *

الإسكندرية في ١٣ سبتمبر ١٨٢٨

لقد عزمت على الإقلاع نهائياً صوب القاهرة في تمام الثامنة من صباح الغد على متن مركبين سيسلكان ترعة السلطان محمود المعروفة بترعة "المحمودية" التي شارك "كوستا" و"مازي" الفلورانسي في شقها. ما هي إلا يومان وترى عيناي النيل، ذلك النهر المقدس الذي ارتويت بمائه، وسأطأ أرض القاهرة التي طالما تاقت نفسي لرؤياها. ما أكثر أوجه التشابه بين الإسكندرية وليبيا ! لذلك سأغادرها دون أسف بعد أن استوعبت كل محاسنها، وخصني أهلها من مسلمين وأقباط بأصدق المشاعر.

ذهبت لتوديع الباشا وعدت لتوي في الثامنة مساء، وقد شكرته على ما أنعم علينا به من دعم وحماية. وأجابني سموه في لطف بأن الأمراء المسيحيين يحسنون معاملة رعاياه، لذا فإن واجبه يحتم عليه أن ينهج نهجهم. ثم تطرق بنا الحديث إلى الكتابة الهيروغليفية، وعندئذ طالبني سموه بنسخة مترجمة إلى التركية

لنصوص مسلتي الإسكندرية، فوعدته بإرسالها غداً عن طريق موثق العقود في القنصلية الفرنسية.

وقد أراد محمد علي معرفة إلى أي نقطة ستمتد رحلتي في بلاد النوبة، مؤكداً لي أننا سنُقابل في كل مكان بالكرم والترحيب. ثم ودعته بعد أن غمرته بعبارات الشكر والثناء التي أخذ يردها بتواضع شديد.

سأتولى غداً إدارة الأمور وتسييرها على متن مركبي. لقد قمت بتنظيم كل شيء وتحديد مهام كل فرد على المركب وتوزيع الأعباء والسلطات، إذ كونت ما يشبه بحكومة صغيرة غاية في التنسيق والترتيب، لها جدول أعمال يلتزم به كل الأفراد لثقتهم بأن كل شيء يستهدف الصالح العام، وستجري الأمور على خير مايرام. وقد أسندت إلى "ريتشي" كل مايتعلق بالصحة والطعام، و"بيبان" أصبح مسؤولاً عن الحفائر والمعدات والأجهزة. وعُهِدَ إلى "لوت" بالميزانية، بينما اختص "جايتانو روزليني" بالأمتعة والمنقولات ...الخ. كما اصطحبنا معنا خادمين وطاهياً عربياً، بالإضافة إلى خادمين نوبيين آخرين. أما خادمي أنا فيُدعى "سليمان"، وهو عربي حسن الوجه ويتقن عمله إتقاناً كبيراً.

سنمخر عباب النيل في مركبين شراعيين. وقد أطلقت اسم "إيزيس" على الأولى، وهي أكبر مركب معاش في مصر صُنعت خصيصاً لسمو محمد علي. أما الثانية فهي مركب دهبية سميتها "حتحور"، تتسع بسهولة لإقامة خمسة أفراد، وقد وضعتها تحت قيادة "ديشان" خلفاً للدكتور "راضي" الذي تركنا ليذهب لاصطياد الفراشات في الصحراء الليبية. وهكذا سنمضي في رعاية "إيزيس" و"حتحور"، أكثر الآلهة المصرية مرحاً وسعادة، ولن نتوقف في الطريق من الإسكندرية إلى القاهرة إلا في "الكيروان" و"صا الحجر" المعروفة عند اليونان باسم "سايس" (...)

مازلت أنعم بصحة جيدة بالرغم من المناخ السيء الذي يسود الإسكندرية. كل رفاقي سعداء بقدومهم إلى مصر. وأما فيما يتعلق بي فأنا أحمد الله على أن الرسائل والبرقيات التي أرسلت لتثنيني عن القدوم إلى مصر لم تصلني في حينها. أوصيك باغتنام أول فرصة لتصويب الأخطاء التي وردت في نبأ رحيلنا إلى مصر المنشور في الجرائد.

"فاغـوليـلي" لـيس مـعلـماً وإنمـا هـو رسّام قـديـر، وكـذلك الـسيد "راضي"، فهو أسـتاذ اشتهـر في كافة أرجـاء أوروبا بأبـحاثه الـقيـمة في مجـال التـاريـخ الطـبيـعي في الـبرازيل. اجـتهـد إذاً في تصـويـب تـلك الأخطاء. بـدأ يشق عليّ طول انـتظار أخباركـم؛ فمـا من شيء يصلنا من فرنسا. و"باريزيت"، أما كان جديـراً به أن يلحق بنا فقد أعددنا لـه فراشاً عـلى مـركـب المـعاش؟ فـلتقـنـعه بـالمجيء، ولـتقل لـه أنـنـا سنـسـتقبلـه بحفاوة كبيرة. وإذا كان يرغـب في دراسة وباء الـطاعون فغالـب الظن أن جيـش ابراهيـم سيـجلبه إلى مـصر أو شيئاً من هذا القبيل !

وداعاً يـا صديـقي العـزيز. سـأعاود الـكتابـة إليك مـن الـقـاهرة. مشاعري الفياضة لك ولذوينا.

ج.ف.شامبليون

لائحة بما يتعين الالتزام به من تعليمات أثناء الرحلة

الـبنـد الأول : يتـولـى الـسيد شـامـبلـيون رئـاسـة البـعثـة وإدارة شؤونـهـا، كـمـا ترجع إلـيه سلطة اختيـار الأمـاكـن التي يتعين الوقوف فيها ومـدة التوقف. وبصورة إجـمـالية فهو المـسؤول عن كل مايـتعلق بسير الرحلة وتوزيع الأعباء.

البنـد الثـانـي : يتولـى السيـد "هيبـوليت روزليـني" رئـاسة البعثة في المرتبة الثانية والاضطلاع بكافة التفاصيل التنفيذية.

الـبنـد الثـالـث : تم انـتداب الـسيـد "لونـرمون" مـفتشاً عـامـاً وهـو يمـارس -تحت سلطة المديـر ووكيله- رقـابة على جميع الخدمـات. كـمـا تُعهد إليـه أمور النظافة على وجه خاص، وإعطاء التعليـمات للأفراد المتناوبين على الحراسة على متن كل مركب.

البنـد الرابع : لايحق لأي عضو من أعـضاء البعثة مغادرة المركب أو التغيب عن المخيم إلا بعد استشارة المدير العام أو وكيله.

البند الخامس : ينبغي على كل عضو الالتزام بالموقع المخصص له ولحاجياته سواء على المركب أو في المخيم.

البند السادس : تُعهد الأسلحة والبارود عند الإقلاع إلى مندوب يتولى مهمة تشوينها وصيانتها. ولايحق لهذا المندوب إعادة الأسلحة إلى أي عضو من الأعضاء إلا بعد تصريح من المدير.

البند السابع : لايجوز إطلاق أي أعيرة نارية إلا بعد إنذار مسبق.

البند الثامن : يلتزم كل فرد من أفراد البعثة بالتناوب على حراسة المركب الذي ينزل عليه بالصورة الموضحة أدناه.

البند التاسع : يلتزم الجميع بالاستيقاظ والنهوض في الموعد المحدد وفقاً لكل فصل من فصول السنة. ويقف الكل بعد ذلك بنصف ساعة في وضع استعداد تحت إشراف الحارس بالتناوب. ثم تُخصص النصف ساعة التالية للاغتسال.

البند العاشر : يتولى الحارس بالتناوب على مركب "إيزيس" مهمة الإشراف على إعداد وجبتي الغداء والعشاء، لذلك عليه بالتواجد على متن المركب قبل ميعاد كل وجبة بثلاثين دقيقة.

البند الحادي عشر : يُحظر فرش المراتب أثناء النهار لأي سبب من الأسباب إلا بناء على تصريح من رئيس الخدمة الصحية.

البند الثاني عشر : يقف الجميع في وضع استعداد كل مساء قبل الموعد المحدد للنوم بثلاثين دقيقة تحت إشراف الحارس بالتناوب.

البند الثالث عشر : يتولى الحارس بالتناوب مهمة الإشراف على الخدم بحيث تظل كل أواني المطبخ والمائدة والاغتسال نظيفة ومرتبة في أماكنها المحددة. كما يقوم الحارس بتنفيذ تعليمات المدير أثناء النهار كله واضعاً وشاحاً أحمراً على ذراعه الأيسر للإعلان عن نفسه.

البند الرابع عشر : تم تحديد ورديات الحراسة كل أربع ساعات ابتدأ من يوم الإبحار كالآتي :

المركب "إيزيس"	المركب "حتحور"
- السيد/ ريتشي	- السيد/ برتان
- السيد/ اغليلي	- السيد/ ديشلن
- السيد/ بيبان	- السيد/ لوشو
- السيد/ شاروبيني	- السيد/ راضي
- السيد/ جايتنو روزليني	
- السيد/ لوت	

البند الخامس عشر : يقوم رئيس الخدمات الصحية بتحديد النظام الغذائي المتبع سواء على المركب أو في المخيم. كما يضع كل صباح للطاهي قائمة الطعام لليوم نفسه، كما ترجع إليه مهمة الإشراف على كافة المؤن الغذائية.

البند السادس عشر : يقوم مهندس البعثة بالتعاون مع رئيس الخدمة الصحية باختيار المكان المناسب للنزول أو التخييم. وفضلاً عن ذلك يتولى إدارة الحفائر والمحافظة على كل العدد والأجهزة والآلآت المخصصة لذلك، وتُسلم إليه قائمة بكل هذة الأشياء.

البند السابع عشر : يتسلم المسؤول عن المنقولات قائمة تفصيلية بكل الخزائن والطرود...الخ. التابعة للبعثة باستثناء الحاجيات الشخصية وأواني المائدة والمطبخ والمؤن الغذائية ومعدات التنقيب. ويحرص على إبقاء كل الأشياء المعهودة إليه في حالة جيدة، وفي نفس المكان المخصص لكل منها، وأن يُسلمها على حسب الحاجة للأشخاص القائمين بالخدمات الأخرى. وترجع إليه مسؤولية نقل وتشوين وصيانة كل الأشياء السابق ذكرها عندما تحط البعثة أرضاً.

جدول أعمال يوم ١١ سبتمبر ١٨٢٨
تم تعيين :

(١) الأستاذ "راضي" مندوباً عن المدير على متن المركب "حتحور".
(٢) الدكتور "ريتشي" مسؤولاً عن الصحة.
(٣) السيد "بيبان" مهندساً للبعثة ومديراً للحفائر.
(٤) السيد "ديشان" مسؤولاً عن الأسلحة على المركبين.
(٥) السيد "جايتانو روزليني" مسؤولاً عن المنقولات.
(٦) السيد "شاروبيني" سكرتيراً عاماً مكلفاً بإذاعة جدول الأعمال.

* * *

نبذة عن الرحلة

١٤ سبتمبر ١٨٢٨

استنفذنا كل الفترة الصباحية في التأهب للإبحار في الساعة الثامنة، إلا أن ضرورة التزود بمؤن طازجة، وترك الخبز المعد ليلاً كي يبرد قد أخرتنا بضع ساعات. وبعد أن قمت أخيراً بتوديع السادة "انستازي" و"ميشان" و"روزيتي" و"لافيزون"، غادرت مقر القنصلية العامة في تمام العاشرة في صحبة أعضاء البعثة التوسكانية. ثم أضعنا ربع ساعة في محاولة الخروج من الوكالة بسبب سائقي الحمير الذين تجمهروا أسفل نوافذنا وسدوا أبواب الوكالة بعد أن تسرب إلى مسامعهم نبأ رحيلنا. يالها من معركة حقيقية : فهذا يجذبني يميناً، وذاك يدفعني يساراً، وفي خضم هذا العراك ألفيت نفسي محشوراً بين حمارين أكاد أختنق ! وأخيراً نجح الجنديان الإنكشاريان التابعان لقنصلتي فرنسا وتوسكانيا في شق طريق لنا باستخدام العصا، وتمكن كل واحد منا من اختيار دابته. ثم مضينا في موكب يتقدمه الجنديان اللذان كان كل منهما يرتدي جلباباً أحمراً وعمامة بيضاء ويضعان عصاهما على مقدمة السرج. وعندما بلغنا ميدان "القناصل" توجه الركب كله إلى بيت السيد "اسربي" وزير النمسا الذي رغبت في توديعه قبل الرحيل. ثم سلكنا الطريق المؤدية إلى "برج العرب"، وبعد لحظات معدودة بلغنا ترعة المحمودية حيث كان في انتظارنا المعاش "إيزيس" والذهبية "حتحور". ونزلت على متن "إيزيس" حيث جاءني الرسول "تود" الذي لازمنا حتى لحظة الرحيل برغم المتاعب التي واجهتنا. وأخيراً أقلعنا في منتصف النهار، بعد أن تناولنا غداء سريعاً أعده خادمي سليمان الذي سيقوم بإعداد الطعام طوال الطريق من الإسكندرية إلى القاهرة بدلاً من الطاهي مصطفى الذي سقط مريضاً عشية رحيلنا. أما عن ترعة المحمودية التي أمر محمد علي بشقها منذ بضع سنوات، والتي سَخّر من أجلها مائة ألف رجل من الأقاليم المجاورة حفروها بأيديهم

وأظافرهم لعدم وجود الأدوات والمعدات اللازمة لذلك، فإن الملاحة فيها يسيرة جداً في وقت الفيضان. وتكمن الصعوبة الوحيدة في تلاقي أكثر من مركب معاش مع مراكب أخرى عابرة أو راسية على ضفاف الترعة. كما تلعب قناة المحمودية دوراً هاماً جداً في امداد الإسكندرية بماء الشرب، وتنمية النشاط التجاري لعاصمة مصر الثانية والتي يرغب الباشا في الاستقرار فيها تاركاً القاهرة لابراهيم باشا. إلا أن هذة الترعة تفتقر إلى أي دعائم أو جدران ساندة باستثناء بعض الأسوار التي تدعم مصبها.

إن هذا الموقع محزن وكئيب بالرغم من قطعة الأرض المزروعة بالنخيل والتي يسمونها "حديقة"! وكذلك الركن الذي شيد فيه "محرم بك عاطفة" صهر الباشا ومحافظ الإسكندرية بيتاً له. وتخترق القناة لساناً من الأرض يقع بين المعدية (أو بحيرة إدكو) وبحيرة "مريوط". ويكاد مجرى هذة البحيرة يخلو تماماً من المياه، وهو أشبه ما يكون بحوض هائل مملوء بالرمال. وقد كانت مياه الفيضان تغطي أطرافه الجنوبية الغربية حين مرورنا حتى بدت لنا الجزر المتناثرة هنا وهناك وكأنها معلقة في الهواء تحت تأثير الضوء أو السراب. ثم لمحنا شمالاً في الأفق منارة "أبو قير"، وقضينا ليلتنا في "الكيروان" .

وقد نزل الأستاذ "راضي" و"بيبان" و"ديشان" و"برتان" على متن الدهبية "حتحور" التي تقرر أن تتبع المعاش "إيزيس" على الدوام. إلا أن هذة الأخيرة قد سبقتها بكثير أثناء الليل، ولم نتنبه إلى ذلك إلا لحظة دخولنا النيل في الساعة السابعة صباحاً. عندئذ أمرت "ريس" المعاش بالرسو انتظاراً للدهبية قبل أن ننطلق في النيل بالرغم من تلهفي لرؤية هذا النهر الشهير. ثم نزلنا على بعد ثلاثمائة قدم من منبع ترعة المحمودية حيث تنتشر على حافتها الشرقية حوانيت مقامة من أعواد البوص لبيع مختلف أنواع الأطعمة والمأكولات. وعدوت أنا و"روزليني" و"لونرمون" لمشاهدة منبع ترعة المحمودية، وإمتاع أنظارنا بخضرة الدلتا الرائعة والتي لم نر مثلها منذ زمن طويل. ومن خلال نباتات الصبار والنخيل وأشجار الجميز لاحت لنا يساراً مآذن مساجد "سنديون" ويميناً مآذن "فوه" التي تشغل خلفية اللوحة وتعلوا فوق أعواد البوص التي تزين

شاطيء النيل. ثم عدنا إلى المعاش بعد أن تشبعنا بهذا المنظر الذي أعاد إلى ذاكرة "لونرمون" أماكن كثيرة في هولندا.

ثم أمرت ريس المعاش بالولوج في النيل والتوجه إلى "فوه" بعد أن أعياني انتظار الدهبية بدون فائدة. تصب ترعة المحمودية في النيل أمام جزيرة منخفضة مما يجعل هذا الذراع ضيقاً بعض الشيء. لذلك كان دخولنا النيل صعباً بسبب ضيق ترعة المحمودية وضخامة المركب. ولكي أعطي قسطاً من الراحة للبحارة أمرت بإيقاف المعاش على البر الغربي على بعد ستمائة قامة من جنوب شرق المحمودية، أمام قرية صغيرة تُدعى "سناباده" قد أدرجتها خريطة علماء الحملة الفرنسية بعد قرية أخرى تُدعى "كفر شرقاوي" لم أعثر لها على أثر.

وبعد انتظار دام ساعتين لحقت بنا الدهبية "حتحور" فأقلعنا صوب "فوه" لبلغناها في منتصف النهار. وعقب تناول الغداء ذهبت للطواف في تلك المدينة التي تكاد تتشابه جميع منازلها المشيدة من الطوب الأسمر. كما استرعى انتباهي بعض المساجد الجميلة وبقايا بعض الأسوار المشيدة من الطوب ايضاً. وفي الرابعة بعد الظهر غادرنا "فوه" بعد أن انتظرنا طويلاً ريّس المعاش الذي انتهز فرصة توقفنا بالمدينة للذهاب لرؤية الراقصات والعوالم ! وفي الرابعة والنصف كنا بين قرية "الشرافه" على البر الشرقي وقرية "سرنباى" على البر الغربي. وكانت الرياح تدفع المعاش دفعاً فينزلق بخفة على سطح الماء بالرغم من سرعة التيار وشدته. ثم لاحت لنا بعد ذلك قرية "قبريط" المسماه "جباريس" على خريطة علماء الحملة الفرنسية.

وفي الساعة الخامسة مررنا أمام بلدة "ساليه" التي كان قائد الجيش الفرنسي في مصر قد أمر بإضرام النيران فيها. وأمام تلك البلدة توجد قرية "لويه" التي أغفل ذكرها على خريطة علماء الحملة. وفي السادسة والربع لحنا في الدلتا بلدة "محلة ملج" حيث يوجد "كوم شباس" في الشمال الشرقي منها على بعد أربع الآف قامة داخل الأرض. وأمام "محلة ملج" رأينا قرية "كفر الشيخ حسن" الصغيرة والمسماه "كفر الشيخ حسين" على خريطة علماء الحملة الفرنسية.

ويبدو شاطيء النيل في هذا الفصل من العام كبساط ممتد يانع الخضرة. ويعنى الفلاحون عناية فائقة بزراعة التربة التي تفيض بمختلف أنواع الأشجار وعلى وجه الخصوص : النخيل وأشجار التمر

الهندي والتوت والسنط كما يسميها الفلاحون الذين احتفظوا بالاسم المصري القديم لتلك الأشجار الجميلة ذات الأوراق الصغيرة والرقيقة والتي تكثر فيها الأشواك الجارحة، وأشجار الجميز والصفصاف المستح والمتدلي الأغصان النادرة، وكذلك أشجار الصفصاف العادية والمنتشرة بكثرة.

وبينما كنت مستغرقاً في تأمل تلك الحقول الرائعة استرعى انتباهي على الضفة الغربية للنيل ما يقرب من اثنتي عشرة بقرة منتظمة في خط مستقيم، تأكل كل منها في معلف منفصل مصنوع من الطمي، وهي تشبه تماماً تلك الموضوعة فوق المذابح أمام صور الثيران المقدسة "أبيس" و"مينيفيس".

وفي الساعة السادسة والربع مررنا أمام قرية "صموكرات" المسماه "كورات" على خريطة علماء الحملة الفرنسية؛ بينما يقترب اسم "صموخرات" كما ينطقه ريس المعاش كثيراً من "نوخراتيس"، وهو اسم تلك المدينة الإغريقية التي نعتقد في وجودها في نفس هذا الموقع في الماضي.

وفي الساعة السادسة والنصف لمحنا على الضفة الشرقية أطلال بيت كبير مشيد بعناية مقارنة بكل ما رأيناه حتى الآن حتى خال لنا أنه مِلك لبعض الأوروبيين. وفي الواقع كان صاحب هذا البيت "طوسون" باشا أكبر أبناء محمد علي، وقد تم هدمه عقب وفاة صاحبه. وعلى مقربة من تلك الأطلال يوجد بستان نخيل. والريف المجاور كان خلاباً للغاية.

وفي السابعة والنصف أدركنا الدهبية "حتحور" التي كانت قد سبقتنا بعد الإقلاع من "فوه". عندئذ ألفينا أنفسنا أمام قرية "دسوق" حيث تلقيت ببالغ الحزن نبأ وفاة السيد "سالت"، قنصل عام انجلترا منذ عدة أشهر في بيت يقع على مقربة من هذة البلدة على الضفة الشرقية للنيل. كم كنت أود مقابلة ذلك الرجل المثقف المولع بدراسة النقوش الهيروغليفية !

وفي حوالي الساعة العاشرة مررنا بين "محلة أبو علي" شرقاً و"منية سلامه" غرباً. وكان الجيش الفرنسي قد قام في يوليو ١٧٩٨ بشن معركة في جنوب تلك القرية بُعَيْد معركة الرحمانية التي دارت رحاها في بلدة تبعد الفين وأربعمائة متر شمالاً عن "منية سلامه"، والتي حالت الجزر الواقعة أمام "دسوق" دون رؤيتها. ثم اجتزنا

ليلاً قرية "الصافه" المشيدة على أنقاض مدينة عريقة ذكرها "هيرودوت" كمقر للفرعون "أحمس" الذي دَوَّن اسمه بين ملوك الأسرة السادسة والعشرين الصاوية، بعد أن نجح في اغتصاب الحكم من الملك الشرعي "ابريس" (واح ايب رع).

.وعندما استيقظت في السادسة والنصف من صباح السادس عشر من سبتمبر وجدت المعاش "إيزيس" والدهبية "حتحور" التي قمنا بقطرها في "دسوق" راسيتين على الضفة الشرقية للنيل بالقرب من قرية "المنية جناج" والتي ذكرتها خريطة علماء الحملة الفرنسية خطأً تحت اسم "المنية" فقط. ويرجع هذا اللقب "جناج" إلى البلدة التي تحمل نفس هذا الاسم والتي تبعد الفين فرسخ إلى الجنوب الشرقي والمسماه خطأً "جنان" على خريطة الحملة.

وفي انتظار هبوب الرياح ذهبت مع "روزليني" للنزهة في هذة القرية، حيث وجدنا الدكتور "ريتشي" -الذي كان قد سبقنا لتسوق بعض المأكولات- محاطاً بجمع من النساء شبه العاريات. وقد استرعى انتباهي وسط هذا الحشد امرأة جميلة طويلة القامة تختلف ملامحها عن باقي المصريات. وقد أخبرتني بأنها قدمت من بلاد الشام، وتزوجت مارشال من "المنيه جناج". ثم أخرجت من صدرها كيساً صغيراً للنقود، وبعد أن أشارت للعرب الذين يحيطون بنا بالابتعاد، أرتني في سرية وتكتم صليباً صغيراً سارعت في اخفائه عن أعين الفلاحين الذين عاودوا الاقتراب. ثم أفهمتني أنها نصرانية، وناشدتني أن أريها بدوري الصليب الذي أحمله. ولما أجبتها بالنفي نظرت إليّ في استنكار. عندئذ طلبت من الدكتور "ريتشي" اعطاءها دواء لعلاج الرمد الذي بدأت تعاني الآمه.

وبعد تناول وجبة الغداء أمرت ريس المركب بانتهاز فرصة هبوب الرياح للإقلاع صوب "صا الحجر". عظيمة كانت لهفتي لزيارة أطلال تلك المدينة العريقة التي كانت فيما مضى واحدة من أكبر وأشهر مدن الدلتا! ولاحت لنا من "منية جناج" أنقاض الحرم الهائل الذي كان يضم في سالف الزمان آثار تلك المدينة الضخمة والتي استحالت اليوم إلى تلال ممتدة. وفي الساعة الحادية عشرة مررنا أمام "كفر الدوار"، ثم اجتزنا بعد ذلك بنصف ساعة "محلة صا" الواقعة على الضفة الغربية للنيل أمام حرم "صا الحجر" الكبير شرقاً. وقام الريس بشد المركبين بالحبال والرسو في منتصف النهار أمام

قرية "صا الحجر" التي احتفظت بنفس اسم وموقع عاصمة الملكين "نخا" و"بسماتيك".

وفي الساعة الثانية من بعد الظهر حمل كل منا سلاحه، وذهبنا لزيارة "صان الحجر" في صحبة محمد وخليل، وهما اثنان من الخدم، انضم إليهما صبي مولود في تلك المدينة ويعمل على مركب المعاش. وسلكنا طريقاً بين الحقول حيث استمتع رفاقي بصيد ومطاردة ابن آوي بصوت أعيرتهم النارية المدوية. وبدلاً من دخول القرية الواقعة على ذروة التل، تقدمنا بمحاذاة الجبانة التي قام أهل "صا الحجر" بتشييدها حديثاً وطلاء العديد من مدافنها. ثم اتجهنا شمالاً صوب الأطلال التي تبدو من بعيد وكأنها قرية من قري العرب المتهدمة حديثاً. إلا أننا عثرنا على كمية مذهلة من حطام الفخار على اختلاف أنواعه، مماثلة لما يغمر كل أطلال الإسكندرية ناحية المسلتين و"حرم العرب". ويرجع أغلب حطام فخار "صا الحجر" إلى العصور المتأخرة، وخير دليل على ذلك ما جمعته من فخار قديم من الطين المزخرف باللون الأخضر والأزرق، وكذلك شقفة منقوش عليها زهرة اللوتس، والجزء السفلي لتمثال جنائزي صغير من الطين الملون والمنقوش بالأحرف الهيروغليفية، علاوة على قطعة فخارية ملونة غاية في الجمال تمثل رأس أسد. وعلى مساحة ممتدة من الأرض (ا) نجد أنقاضاً من الرديم أو الطوب الذي يندر فيه القش والتي تبدو كحجرات أو أبنية صغيرة الأبعاد تصلح لاحتواء المومياوات والأثاث الجنائزي. وكانت على الأرجح إحدى جبانات "صا الحجر" (لوحة رقم ١). وقد نُقبت هذه المقابر تنقيباً دقيقاً، وبُعثرت محتوياتها لدرجة تحول دون الوقوف على شكلها العام. فما أشد الاختلاف بين هذه الأنقاض وبين مقابر "طيبه" وسراديبها وآبار "سقارة"!

وبعد أن اجتزنا بعناء ومشقة تلك الأرض الواسعة والمتعرجة اقتربنا شرقاً من الجبانة الحديثة، حيث أذهلنا ما ينبعث منها من رائحة عفنة كريهة، أعطتنا برهاناً دامغاً على صحة نظرية "باريزيت" حول انتشار وباء الطاعون. وقد اتضح لنا بما لا يدع مجالاً للشك أن مياه الفيضان تتسرب عن طريق الرشح إلى الجثث المدفونة في المقابر، وينتج عن ذلك تلك الرائحة العفنة التي لا تطاق والمنتشرة على مسافة كبيرة. ثم قطعنا ما يقرب من أربعمائة قدم

في اتجاه الشمال الشرقي، وبعد أن اجتزنا عدة مرات مياه الفيضان وكذلك جسراً صغيراً جداً، بلغنا أخيراً الزاوية الجنوبية الشرقية (ا) للحرم الكبير الذي كنا قد لمحناه من قرية "المنية جناج" (لوحة رقم٢). وبقياس أبعاد هذا الحرم الشاسع يتضح لنا أن طول أحد أضلاعه الصغيرة (ب) لايقل عن الف وأربعمائة وأربعين قدماً، بينما يبلغ طول الضلعين الكبيرين الفين ومائة وستين قدماً. كما يُقدر المحيط العام لهذا الحرم المتوازي الأضلاع بسبعة الاف ومائتي قدم.

ويُقدر سُمْك السور الخارجي المشيد من الطوب اللبن بحوالي أربعة وخمسين سنتيمتراً، كما يبلغ ارتفاعه نحو ثمانين قدماً. وقد استُخدمت في تشييد هذا البناء الضخم قوالب مصنوعة من طمي النيل الممزوج بالقش المهروس والتي تبلغ أبعادها ١٦×٧×٥ بوصة. وفي العديد من النقاط يبدو هذا السور وكأنه مشيد من الردم بسبب تأثير الأمطار التي أدت إلى نحر وتفتيت سطح الحائط وطمس عراميسه. كما تهاوت أطرافه العلوية، وشكلت منحدراً كبيراً من الأنقاض المتراكمة على جانبي السور. ويبلغ هذا المنحدر من الخارج مائة وعشرين قدماً.

كانت مياه الفيضان تغطي مساحة كبيرة جداً من هذا الحرم حين زيارتي. وقد تم عمل مدخل حديث (د)، وهدم السور لتمرير قناة صغيرة للري. وتبدو لنا من خلال هذا المقطع قوالب الطوب القديم الممزوجة بالقش في حالة جيدة جداً. وقد دخلت الحرم عبر هذة الفتحة، وهنا يستعصي عليّ وصف ما اعتراني من انطباع. فلقد لمحت إلى اليسار وعلى امتداد كبير كمية هائلة من الأنقاض ذات الأشكال الغريبة، والتي تبدو من حيث أراها وكأنها أطلال قصر عملاق. بيد أن الفوضى التي تعم المكان تحول دون تكوين فكرة واضحة عن تخطيطه العام.

وتبينا وسط تلك الأطلال أنقاض بناء شاسع مقسم إلى عدد لايحصى من حجرات صغيرة للغاية موزعة على عدة طوابق متجاورة، تفصل بينها جدران داخلية سميكة. ويبلغ ارتفاع ذلك البناء -شأنه في ذلك شأن الأسوار الخارجية- ما لايقل عن ثمانين قدماً. وقد استُخدمت في تشييده قوالب من الطوب اللبن في نصف حجم تلك التي استُعملت في بناء الحرم. وتغطي قطع الشقف كل مساحة هذة الأطلال. وقد التقط خادمي محمد من تحت قدمي تمثالاً

صغيراً من الطين الملون للإلهة "نيت" التي مُثِلّت على هيئة امرأة برأس لبؤة وقرص الشمس منقوش على قلادتها. ويأتي كل هذا الكم الهائل من الشقف سواء من الأجزاء المخلوطة بالطوب والمستعملة في ملء كتل الجدران الداخلية، أو من حطام الآنية الكبيرة المثبتة في جدران كل غرفة. وقد لاحظت وجود ما يقرب من ثمان من هذة الآنية التي لاتزال في مكانها في الحجرات الصغيرة.

وفي طرفي أطلال هذا المبنى الكبير نجد رابيتين لا يقل ارتفاعهما عن حائط السور الخارجي، وتتكون كلاهما من مرتفعين متوازيين نشأ عن تراكم الطوب اللبن المفتت.

ويبلغ مجموع كتلة هذة الحجرات التي لا تحصى والمكدسة في بناء واحد نحو ألف قدم طولاً. وتشير كل الدلائل إلى أن هذا البناء كان يُستخدم في سالف الزمان كجبانة أو "ميمنيوم‌وضفـقغزند"، أي مكان مخصص لدفن وحفظ مياوات أهل "صا الحجر". كذلك كانت الرابيتان الواقعتان على أطرافه تكونان صرحين كبيرين يربط بينهما سور خارجي صغير بداخله بناء هائل على شكل متوازي أضلاع يتكون من عدد لا يحصى من حجرات الدفن، كما كانت الآنية المثبتة في الجدران الداخلية تُستعمل كآنية كانوبية لحفظ أحشاء الموتى. وقد عثرنا في قاع إحدى هذة الجرار على كمية من صمغ البلسم (جايتانو روزليني).

ولهذا الحرم الكبير باب قديم يقع في منتصف الضلع الجنوبي الكبير باتجاه "صان الحجر". وكانت مواكب الدفن تجتاز ذلك الباب المسمى بـ"باب الموتى" المجاور للجبانة الأخرى (ا). كما توجد أنقاض "ميمنيوم" آخر يستحيل علينا تحديد شكله العام. وتشير بقايا النقوش الجنائزية التي عثرنا عليها إلى أن تلك الأبنية كانت مخصصة لتكون قبوراً. وفي الطرف الغربي للـ"ميمنيوم" الكبير داخل الحرم نفسه نجد كومتين من الأنقاض شمالاً وجنوباً. وتشكل الكومة الجنوبية الأكبر حجماً تلاً صناعياً، حيث نجد بعض بقايا الرخام الأبيض المعروف برخام "طيبه"، والجرانيت الوردي والرمادي، وكذلك الحجر الرملي الأحمر الجميل. إلا أنه لم يتسن لنا زيارة الربوة الشمالية الأكثر انخفاضاً في مستواها بسبب مياه الفيضان. ومن المحتمل أن تشغل هاتان الربوتان موقع مقابر ملوك

العصر الصاوي والتي وصفها "هيرودوت" في كتابه الثاني في الفصل ١٦٩.

ونجد في الشمال مقبرة الملك "ابريس"، وكذا مقابر أجداده الصاويين على يسار معبد "نيت". أما التل الجنوبي فيشغل موقع مقبرة مغتصب العرش "أحمس". وقد وصف "هيرودوت" ذلك البناء الفخم الذي يقع على يمين معبد "نيت". وبالرجوع إلى كتابات "هيرودوت" يمكننا رسم التصميم التالي للمباني القديمة الموجودة داخل حرم "صا الحجر الكبير". فعلى مساحة ما يقرب من مائتي قدم من الزاوية الشمالية الشرقية للحرم نجد العديد من التلال القليلة الارتفاع (م في الخريطة العامة) والمكونة من الأرض الرملية المخلوطة ببقايا الطوب اللبن. وقد اقتادني أنا و"لونرمون" إلى هذا المكان عربي عجوز سألناه عن تابوت يملكه السيد "روزيتي" في أطلال "صا الحجر". وقد عثرنا عليه بالفعل، وكان لا يزال نصفه مدفوناً في الرمال وسط حفرة كبيرة حيث درجة الحرارة لا تطاق. ويبلغ طول الناووس نحو تسعة أو عشرة أقدام، ويتكون من كتلة رائعة من حجر البازلت الأخضر، ولا يحمل من الخارج إلا سطراً واحداً من الكتابة الهيروغليفية مقسماً إلى جزئين متقابلين من النقوش : [كلمات حارس المعبد (الذي يحفظه سيده... : هلموا يا منقذين ! يا آلهة العدل ...الخ].

وقد اشتُق اسم هذا المسؤول الكبير في السلك الكهنوتي من اسم الملك الصاوي "بسماتيك الثاني" مما يعطينا في نفس الوقت تأريخاً تقريبياً للناووس. وسيُسفر تنقيب هذة التلال بكل تأكيد (م) عن اكتشاف آثار جنائزية على قدر كبير من الأهمية. فمن المعتقد أن هذا الموقع كان جبانة للعائلات الثرية، وكان الجزء السفلي لغطاء هذا الناووس ما يزال على شفا الحفرة، أما جزؤه العلوي فقد أهداه السيد "روزيتي" إلى المتحف الامبراطوري في "فيينا".

وفي أعقاب زيارتنا لحرم الإله "حورون" شرعنا في اصطياد البوم الذي لمحناه بمحض الصدفة على أطلال "سايس" أم "اثينا"، هاتان المدينتان اللتان خلدتا طيور البوم على أوسمتهما وعملاتهما النقدية. ثم عدنا بعد ذلك إلى قرية "صا الحجر" حيث صعدنا للتأكد من وجود الأعمدة القديمة التي ذكرها "نيبور".

إلا أننا جبنا شوارع تلك القرية الفقيرة بحثاً بدون أي فائدة. عندئذ أمرنا أحد الخدم أن يصرخ معلناً عن استعدادنا لشراء ما في حوزة أهل القرية من قطع أثرية. ولكن ما من أحد اقترب منا، بل سارعت النساء والأطفال في الاختباء بمجرد دخولنا أي شارع. وعندما أخذت أنا و"روزليني" في توزيع النقود من فئة العشر بارات، داهمتنا أفواج هؤلاء القوم الطيبين البسطاء الذين ولوا خائفين في بادىء الأمر لاعتقادهم أننا من الجنود الأتراك. أما الآن فقد أحاطوا بنا بما لا يدع لنا أي سبيل للفكاك منهم، وعرضوا علينا بعض العملات والأوسمة الرديئة. ثم عدنا بعد ذلك إلى مركب المعاش في صحبة عدد كبير من أهل القرية، وقد لازمنا الصبية والفتيات العراة تماماً حتى آخر لحظة.

أقلعنا في الساعة السادسة والربع مساء لنمر بين قريتي "نخله" و"غوادبي" في السابعة، ثم أمام "إبييه" الواقعة على الضفة الشرقية في الثامنة والنصف.

وعندما استيقظنا في صباح السابع عشر من سبتمبر كانت المركب راسية أمام قرية كبيرة تسمى "الضاهرية" بسبب الرياح الجنوبية المعاكسة التي يسميها الريس "مريسي" : وهو اسم مشتق من "ماريس" أي صعيد مصر في اللغة المصرية القديمة. وقد اغتنمنا فرصة توقفنا للتنزه في الريف الغني بالمحاصيل حيث تكثر زراعة القنب والقطن والأشجار على اختلاف أنواعها. ثم هبت الرياح فأقلعنا في الساعة الرابعة لنبلغ قرية "شنيسه" بعد بضع دقائق. وفي الرابعة والنصف اجتزنا "ميت شهاله" ثم "بنوفار"، ثم بلغنا "كفر الزيات" في الخامسة حيث كان الريس يرغب في التوقف لشراء بعض من القمح لنوتية المركب. وتتميز بيوت هذه القرية المشيدة من طمي النيل مثل سائر القرى بأشكالها التي تشبه آثار مصر القديمة بأسوارها المنحدرة. وقد جبنا تلك القرية بحثاً عن خروف نشتريه ولكن بلا جدوى؛ كما رأينا مستودعاً كبيراً لتخزين القمح والقطن تابعاً للباشا. ثم غادرنا "كفر الزيات" في تمام الساعة السادسة، وعندما اخترقنا شوارع القرية كنت قد أسرعت في رسم ما تتحلى به النساء من نقوش مختلفة على الذقن والذراعين :

وتُستخدم في عمل هذا الوشم الذي غالباً ما يكون أزرق اللون

ثلاث أو أربع إبر تُربط بخيط وتُغط في الحبر أو في مسحوق الفحم المذاب في الماء، ثم تُغرز في البشرة حتى تدمي تبعاً لشكل النقوش المرغوب عملها. وباستطاعة المرأة المصرية أن تُزين ذقنها دون أن يكلفها ذلك أكثر من خمس بارات فقط. ولقد احترفت بعض النسوة هذا الفن حتى أصبح حكراً عليهن. كما تشم المرأة المصرية كذلك يديها وذراعيها بنقوش أخرى أكثرها ذيعاً وانتشاراً.

ثم لاحت لنا قرية "ابيار" بنخيلها ومآذنها إلى الشمال الشرقي من قرية "زيات"، وكذلك مدينة "طنطا" جنوباً حيث يُقام في شهر رجب من كل عام مولد عظيم تأتيه الناس من كل حدب وصوب لزيارة قبر شيخ يدعى السيد أحمد البدوي.

وفي الساعة السابعة إلا خمس دقائق مررنا أمام قرية "شابور" الواقعة على الضفة الغربية للنيل، وقد جرفت مياهه جزءاً منها. كما أذهلتنا الرائحة العفنة الكريهة المنبعثة من مدافنها، مما يؤكد صحة نظرية صديقنا "باريزيت" عن انتشار وباء الطاعون. وفي العاشرة والربع رسا المعاش في "الزعيلة" على الضفة الشرقية للنيل انتظاراً لمركب الدهبية التي خلفناها وراءنا. وفي غضون الليل اجتزنا قري "طنّوب" و"عمروس" و"كوم شريك" التي تعيد إلى الأذهان ذكرى إحدى معارك الجيش الفرنسي. ووجدنا أنفسنا في السادسة صباحا أمام "زاوية البغلي".

وفي الساعة السادسة والربع من صباح يوم الثامن عشر من سبتمبر ألفينا أنفسنا أمام قرية "عطارية" التي أسقط ذكرها على خريطة علماء الحملة الفرنسية. وعندما حاذينا "دنسور" لاحت لنا من بعيد وعلى نفس الضفة مدينتا "سرسني" و"ابشادي" التي استحالت اليوم إلى ضيعة صغيرة بعد أن كانت تلعب دوراً هاماً جداً فيما مضى. ثم قضينا ساعة كاملة في قرية "أبو الخواس" حيث قمنا بشراء خروف. وفي التاسعة وعشر دقائق بلغنا قرية "علقام" الشهيرة بالمعركة التي دارت رحاها بين القوات الفرنسية وجيش المماليك في السادس عشر من يوليو ١٧٩٨.

ثم اقتربنا في التاسعة والنصف من قرية "نادر" حيث جلست بعض النسوة بمحاذاة الشاطيء لبيع الفواكة والتمر والرمّان في قفف. وتوقفنا أمام أرض مسورة ومزروعة بصفوف من الأشجار وسياج من الخضرة تختبيء القرية من خلفها؛ وسرعان ما هرولت النساء

والأطفال صوبنا عارضين علينا الأطعمة والمأكولات. ومن بين حشد المتفرجين كان هناك ثلاثة مهرجين تتبعهما راقصتان أو اثنتان من العوالم استضفناهم جميعاً على المركب. وكانت إحداهما فاتنة الوجه رشيقة القوام تمسك بصنج من النحاس بين أصابع يديها. ثم أخذتا تشدوان لمدة نصف ساعة بأشعار عربية على هيئة حوار بين عاشق ومحبوبته. وقد أعجبنا جميعاً بتلك الأغاني الشعبية، وأخذ أحمد الرشيدي مساعد ريس المعاش -وكان رجلاً بشوشاً مرح الطباع- يجمع القروش ويبللها بلعابه ثم يلصقها على خدي الراقصتين مشفعاً إياها بقبلة حارة طويلة. وكان هذا المشهد المسلي يبعث البهجة في قلوب المسلمين والأوروبيين. وعقب انتهاء وصلة الرقص والطرب والغناء شرع المهرجون والبهلوانات في المزاح والقفز تماماً كما لو كانوا يحيون عيداً للكبش "مندس".

وبعد انتهاء هذا العرض عاد الدكتور "ريتشي" الذي كان قد ذهب لتسوق بعض المأكولات محملاً بقفة مملوءة بالرمّان اللذيذ. ثم أقلعنا في الساعة العاشرة والربع.

واجتزنا قرية "دميشلي" التي احتفظت باسمها المصري القديم، مثل قرية "شبشير" الواقعة إلى الغرب منها والتي تشبه المدن العتيقة في تصميمها ومنازلها المربعة الشكل.

وفي الثانية عشرة إلا الربع اجتزنا قرية "جزايه" الواقعة على الضفة الشرقية للنيل، ثم تعدينا بعد ذلك بربع ساعة قرية "طرانه" التي اشتهرت منذ أقدم العصور بتجارة ملح النطرون المستخرج من البحيرات الموجودة في الصحراء على مقربة من تلك القرية، حيث شاهدنا أكواماً من تلك المادة الملحية ذات اللون الرمادي المائل إلى الاحمرار. وفي الواحدة من بعد الظهر توقفنا في قرية "زاوية رزن" لرغبة الريس في شراء بعض من القمح. عندئذ ذهبت أنا و"لونرمون" و"روزليني" لمشاهدة الفلاحين في الحقول. وكان الكثيرون منهم مشغولين بهرس وتقطيع القش مستخدمين في ذلك آلة أشبه بزحافة تُستعمل عوارضها الأربعة كمحور لسكاكين دائرية أو على الأصح لدواليب حديدية مسنونة. وتشبه هذه الزحافة تماماً العلامة الهيروغليفية التي نجدها في النقوش كما في اسم الإله "حورون" على سبيل المثال، مع اختلاف وحيد يتمثل في غياب الدواليب القاطعة. ويُثبت الفلاحون مقعداً خشبياً على تلك الزحافة،

ويجلسون عليه إما للضغط بثقل أجسامهم على السكاكين أو لسهولة توجيه الأبقار التي تجر الزحافة في حركة دائرية. عندئذ ترك أحد الفلاحين مقعده الخشبي وجاءنا محيياً في لطف، وانطلق في حديث طويل كله شكوى من حكومة الباشا قائلاً : "إنه يستحوذ على كل شيء -مشيراً إلى الحقل وأكوام الشعير التي تحيطنا- ويتركنا صفر اليدين !". وأخذ ينفض الثوب الرث الذي يكشف من جسده أكثر مما يستر. وقد تصدقنا ببعض القروش على هؤلاء البؤساء، ثم قمنا في صحبة اثنين منهم بالدوران حول القرية خارج الأبواب. وأمام المسجد رأينا القائمقام التركي مستلقياً على حصيرة يدخن في الظل. وقد ألقى هذا الرجل القبض على اثنين من نوتية مركب الدهبية مولودين في "زاوية رزن" وذلك بالرغم من معارضتنا الشديدة واحتجاجاتنا وما ملكته أيدينا من فرمانات. ولم نتمكن من إطلاق سراح هذين التعيسين اللذين لم يسددا ما عليهما لبيت المال. وكلنا نعرف أن الباشا وأعوانه لا يتهاونون في البطش، ولا تعرف الشفقة سبيلاً إلى قلوبهم كلما تعلق الأمر بجباية الضرائب. وفي طريق عودتنا إلى المركب قابلت في شوارع القرية رجلاً يحمل مغزلاً في يديه يشبه تماماً ما نجده في النقوش الهيروغليفية. ولا تختلف مدافن هذة القرية عن غيرها من القرى من حيث الرائحة الكريهة العفنة التي تنبعث منها. ثم غادرنا "زاوية رزن" في الثالثة والنصف لنبلغ "أبو نشابه" في الخامسة إلا عشر دقائق. وتطغى الصحراء الليبية على الأطراف الغربية للنيل، وتشن عليها حرباً شعواء كتلك التي دارت بلا هوادة بين "حورس" و"تيفون". وتغشى الرمال الصفراء المزروعات المحرومة من الطمي الذي هو هبة النيل. ومن الخليط بين الخضرة اليانعة والأرض الجافة اليابسة ينبعث إحساس غريب ومحزن، إذ تحاول النباتات مقاومة غزو الصحراء ولكن بصعوبة ومشقة. فكلما هبت الرياح الليبية حملت في طياتها سيولاً رملية صغيرة تصب في مجرى النيل دون انقطاع.

ثم اجتزنا قرية "ميت سلامه" الحزينة القابعة في الصحراء بأكواخها الصغيرة القاتمة اللون. وعند سدول الليل استطعنا بالكاد أن نلمح قرية "واردان"، وأمامها موقع مدينة "ليتوبوليس" العريقة (أوسيم). وفي الساعة الحادية عشرة مساء أجبرتنا الرياح العكسية على الرسو أمام قرية "اشمون" لقضاء الليل. وبمجرد استيقاظنا في

صباح التاسع عشر من سبتمبر خرجنا من المعاش لنرى إن كان بمقدورنا مشاهدة الأهرامات أم لا. إلا أننا لم نتبين أي شيء بسبب الضباب والسحب التي كانت تغشى السماء. وبعد أن تبددت الغيوم في الساعة السابعة لاحت لنا تلك الأهرامات الشامخة على اليمين، وتجلت لنا ضخمة عملاقة بالرغم من بعدها عنا بمقدار ثمانية فراسخ. لم نميز في باديء الأمر سوي الهرمين الكبيرين، ولكن بعد أن تعدينا "اشمون" في الساعة الثامنة تمكننا من رؤية الهرم الثالث. وقبل أن نبلغ قرية "القطاه" في التاسعة والربع طلبت برسم منظر طبيعي للأهرامات. ثم رسونا هنيهة أمام قرية "منيل العروس" في التاسعة والربع. عندئذ جاءني أحد البحارة بجعران كبير له ثلاثة زبان : واحد على الكوسل واثنان على الجانبين الأماميين، علاوة على اثنين آخرين على شكل هلال فوق الرأس.

وفي الساعة الثانية إلا الربع من بعد الظهر بلغنا "بطن البقرة" أي رأس الدلتا حيث ينقسم النيل إلى ذراعين : فرع رشيد وفرع دمياط. ياله من منظر خلاب ! ففي الغرب نلمح الأهرامات شامخة وسط النخيل، والعديد من القوارب ومراكب المعاش تمخر عباب النيل العريض المتسع فيتجه بعضها يميناً إلى فرع دمياط، بينما يعرج البعض الآخر يساراً إلى فرع رشيد، في حين تتجه القوارب الأخرى صوب القاهرة. وفي ناحية الشرق نرى قرية "الشرفة" الرائعة الجذابة. وفي منتصف النهار شغلت خلفية هذة اللوحة الساحرة بجبل المقطم وقلعة مدينة القاهرة الكبيرة ومآذنها. وفي الثالثة من بعد الظهر بدت لنا القاهرة بوضوح وجلاء بمساحتها الشاسعة ومنازلها ومساجدها الداكنة اللون والتي تقلل من روعة شكلها العام. ثم قدم إلينا ثلاثة من نوتية مركب المعاش يطالبوننا "بالبقشيش"، وكانوا يرتدون ثياباً غريبة : قلانس من قوالب السكر، ولحي مثلثة الشكل من الكتان الأبيض، وشوارب طويلة وأذيال منتصبة من القماش الأبيض. وقد ذكرتنا ملابسهم الضيقة وشاراتهم وهيئتهم المضحكة بآلهة الريف القديمة المرسومة على الآنية الإغريقية. إن ريس المعاش أحمد المصري رجل فاضل وحكيم، لم يصدر عنه حتى اليوم أي فِعْل يُلام عليه، إلا أنه غفل في الساعة الثالثة وأربعين دقيقة من فرط التعب فجنح المعاش ليرتطم بجزيرة مغمورة بالمياه. حدث ذلك بالقرب من قرية "طناش" أسفل

"شبرا الخيمة"، حيث كان الباشا يمتلك منزلاً جميلاً تحوطه الحدائق الرائعة، ويربطه بالقاهرة ممر جميل تتراص على جانبيه أشجار لا يعتني بها أحد كان الفرنسيون قد زرعوها منذ ثلاثين عاماً. عندئذ قفز البحارة في النيل لتخليص المركب مستعينين باسم الله وبعضلاتهم القوية وأكتافهم العريضة. ما أروع هؤلاء الرجال الأشداء، وما أشبههم بتماثيل من البرونز صُبت لتوها عندما خرجوا من النيل وقفزوا على شاطئه لشد المركب! وبعد نصف ساعة من العمل الشاق والجهود المضنية تمكنوا من تعويم المعاش مرة ثانية. ثم أقلعنا في الساعة الرابعة مستخدمين الشراع الكبير بعد أن تسببت الرياح الشمالية في تمزيق شراع الصاري الأمامي.

وفي الرابعة والنصف حاذينا "امبابه"، وشاهدنا ملياً ساحة معركة الأهرام المنبسطة أمامنا. وفي تمام الساعة الخامسة نزلنا في مرفأ "بولاق"، وربطنا المعاش والدهبية على يسار مباني الجمرك بالقرب من قصر اسماعيل باشا سابقاً والذي تحول اليوم إلى مدرسة، وكانت هناك مراكب عديدة راسية مثلنا على طول الشاطيء. وتُسهم أشجار السنط في تجميل بولاق واعطائها مظهراً بديعاً. عندئذ سارعت في إرسال الدكتور "ريتشي" إلى القاهرة حاملاً رسائلي إلى السيد "درشيه" الذي يقوم بمهام القنصل الفرنسي في تلك العاصمة، ومستفسراً عما إذا كانوا قد أعدوا لنا مكاناً ننزل فيه. وبعد ذلك بساعة ونصف قدم إلينا السيد "يوسف مسرة" ترجمان القنصلية وبصحبته جندي انكشاري، وأخبرني بأن السيد "درشيه" طريح الفراش منذ عدة أيام إلا أنهم قد استأجروا لنا مسكناً.فقررت أن نغادر المركب جميعاً في اليوم التالي.

وفي صباح يوم العشرين من شهر سبتمبر اتخذنا كافة التدابير لنقل أمتعتنا على ظهور الحمير والجمال. وبقيت أنا على متن المركب للإشراف على كل شيء مؤجلاً دخولي القاهرة لطراوة المساء. ولحسن الحظ فقد عثرت في فناء الجمرك الكبير على مقربة من المعاش على ناووس رائع من حجر البازلت الأخضر يمتلكه محمود بك وزير الحربية. ويحمل هذا التابوت أغلب الرسوم المنقوشة على تابوت "رمسيس ميآمون"، علاوة على غيرها من النقوش الفريدة التي قمت بنسخها. وتُصور إحدى هذة النقوش الهامة تناسخ روح آثمة ومسخها في صورة خنزير. ويُعد هذا المشهد المفصّل نسخة

مصغرة من مشهد مماثل منقوش في إحدى مقابر "طيبه"، وقد نشره علماء الحملة الفرنسية وبه العديد من الأخطاء.

ثم جاء لزيارتنا أخو السيد "باشو". وفي الساعة الخامسة حضر الترجمان والجندي الانكشاري بالحمير، فتوجهت صوب القاهرة في صحبة جميع أعضاء البعثة الذين أخذوا يتبخترون في الطريق. وفي الواقع فإن حمير القاهرة أكبر حجماً وأشد قوة من حمير الإسكندرية، ولها إلى حد ما نفس حيوية الجياد العربية.

ثم اخترقنا شوارع "بولاق" الضيقة مثل شوارع الإسكندرية. وقد استُخدمت الأحجار في تشييد أغلب منازلها ذات الأبواب والنوافذ المنقوشة والمشغولة على الطراز العربي القديم. كذلك كانت مساجدها الجميلة والمتعددة الأشكال. وبعد أن اجتزنا "بولاق" وجدنا حقولاً مزروعة بمختلف أنواع الأشجار. لم يكن هنالك سوى الكثبان الرملية المتناثرة هنا وهنالك لتذكرنا بأننا في قارة إفريقية. ثم دخلنا القاهرة عن طريق "باب الأمراء". وعندما نتأمل من بعيد تلك العاصمة التي احتفظت بجزء كبير من السور الذي شيده مؤسسها الخليفة "المعز لدين الله" تسري الهيبة في نفوسنا بسبب مآذنها الأنيقة التي لا تحصى والتي يبرز من خلفها جبل المقطم المقفر بلونه الفاتح.

وما كدنا نجتاز البوابة حتى ألفينا أنفسنا أمام أكبر ميادين القاهرة المعروف بميدان "الأزبكية"، وهو على شكل متوازي أضلاع كبير جداً تحوطه المنازل المرتفعة والمشيدة بإتقان. ومن بين المنازل الجديدة رأينا منزل محمد بك الدفتردار صهر الباشا الذي شُيد في نفس المكان الذي كان مقراً لقيادة الجيش الفرنسي في الماضي.

كانت مياه الفيضان تتجمع وسط ذلك الميدان الجميل وتحيله إلى حوض شاسع تنتشر على أطرافه الأشجار الكثيفة. وكان ميدان الأزبكية مكتظاً بالمارة المترجلين والممتطين الجياد والجمال والحمير، بالإضافة إلى الراقصات والمهرجين الذين كانوا يُسَرّون عن الناس. وكانت صيحات الفرح والسعادة تدوي في جميع أرجائه، كما كانت الملابس المختلفة الأشكال والألوان تُضفي على كل ذلك حياة وانطباعاً عجيباً بالنسبة لنا نحن الأوروبيين. كانت القاهرة لحظة وصولنا مزدانة بكامل أبهتها وفخفختها الشرقية احتفالاً باليوم الثاني لذكرى المولد النبوي. ومما يزيد من غرابة وأهمية هذا الاحتفال

هو الخليط من المتع والملذات الدنيوية والطقوس والفرائض الدينية. فعلى مقربة من فرقة من المغنيات اللآتي كن يشدين بالأشعار الغزلية، والعوالم اللآتي كن يرقصن في خلاعة، كانت هناك جماعات من المسلمين جالسين القرفصاء يتغنون في مدح النبي ويرددون دون انقطاع اسم الله في ورع وخشوع. ومن حول هؤلاء الناسكين الأتقياء كان هناك مسلمون آخرون من كافة الأعمار مشغولين بأمور الحياة الدنيا. ثم مررنا أمام سرادق اكتظ الناس من حوله حيث رأيت العديد من الدراويش المسنين بلحاهم الوقورة يدورون حول أنفسهم غارقين في نشوة عارمة مبعثها حركتهم الدائرية.

ثم تركنا ميدان الأزبكية وسلكنا شوارع القاهرة التي طالما أعطونا فكرة سيئة عنها. وباستثناء الشوارع الرئيسية الكبيرة حيث توجد المتاجر العامة فإن عرض الشوارع الأخرى لا يتعدى عشرة أقدام، كما أن مشربياتها تكاد تحجب أشعة الشمس. إلا أننا إذا أمعنا التفكير أدركنا أن تلك الشوارع الضيقة والمعتمة إلى حد ما تظل دائماً محتفظة بالبرودة بالرغم من الارتفاع الكبير في درجة الحرارة. وهكذا تتجلى لنا حماقة الرحالة الأوروبيين الذين يعيبون على القاهرة ضيق شوارعها دون أن يتنبهوا إلى أن شوارع عريضة واسعة مثل تلك الموجودة في "باريس" و"لندن" ستكون آتوناً وسعيراً طوال أغلب شهور السنة. ومن ناحية أخرى فإن شوارع القاهرة نظيفة وتخلوا من أي نوع من الأقذار بالرغم من كونها غير مرصوفة.

تُعتبر القاهرة بحق مدينة عملاقة هائلة. وأغلب منازلها (أو على الأقل الطابق الأرضي منها) مشيدة من الأحجار المقصوبة، وتزدان أبوابها بالنقوش والتماثيل، كما تكثر فيها المساجد التي تتميز بعضها عن بعض سواء من حيث التصميم العام أو تنوع النقوش والزخارف العربية التي تزينها.

وقد نزلنا في بيت يقع في حي "حوش الطين" على مقربة من جامعي الموسكي والخازندار، ويبعد عن الحي الذي يقطنه الأوروبيون. وبعد أن رتبنا أمتعتنا واستقبلنا كل مسؤولي القنصلية الذين قدموا لمساعدتنا، ذهبنا لتناول العشاء في الحي الفرنسي في

خمارة "مونييه"، حيث تقرر أن نتناول كل وجباتنا طوال فترة إقامتنات في القاهرة.

وبعد العشاء ذهبت لزيارة السيدة "روزيتي" زوجة قنصل توسكانيا، وكانت تقطن عند والدها السيد "ماكاردل" نائب قنصل توسكانيا ووالدتها المشرقية الأصل... وفي الساعة التاسعة مساء ذهبنا لمشاهدة الأنوار والاحتفالات المقامة في ميدان الأزبكية. وقد أمرت الجندي الانكشاري الذي كان يتقدمنا ليوسع لنا الطريق بعصاه ذات الكرة الفضية بألا يكون فظاً غليظاً مع الناس. وفي وسط الميدان كان هناك ما يشبه رواق أو واجهة هندسية مزدانة بالأنوار يصعب علينا أن ندرك لها شكلاً محدداً. إلا أن انعكاس الأضواء على سطح مياه الفيضان التي تغمر المكان كان له وقع جميل ومحبب. وأخذت أقترب من السرادقات المختلفة ذات الأبسطة الوثيرة والتي نصبها الباشا وأشخاص آخرون من أموالهم الخاصة. ورأيت في السرادق الأول ما يقرب من مائة مسلم جالسين في صفين وجه لوجه يترنحون ويتمايلون في إيقاع إلى الأمام وإلى الخلف وهم يرددون: "لا إله إلا الله محمد رسول الله". ولم يتوقف هذا المشهد لحظة واحدة منذ الصباح، بل كان المنشدون يتناوبون ويبقى كل منهم من الوقت على قدر ما أوتي من ورع وتقوى.

أما السرادق الثاني فكان يضم حشداً من المسلمين جالسين في أيديهم مصاحف يقرأون في صوت واحد سوراً من هذا الكتاب المقدس، وكانوا يرتلون آيات نثرية على ما نعتقد. وفي السرادق الثالث كان بانتظارنا مشهد غريب وغير متوقع. إذ رأينا نحو ثلاثمائة من الرجال الممسوسين الرعناء واقفين جنباً إلى جنب يقفزون في إيقاع منتظم مرددين اسم الله بصوت بهيم ينطلق من أعماق حناجرهم. لم أر في حياتي كلها كورس شيطاني ومرعب مثل ذلك. وكان لعابهم يسيل على لحاهم، ومن وقت لآخر يسقط بعض هؤلاء المجذوبين من التعب والإعياء، وقد بُح صوتهم بالرغم من إسراع النديم في بل وترطيب حناجرهم الجافة. ولقد لفت نظري أدب المسلمين وسلوكهم المهذب، وإسراعهم في افساح الطريق أمامنا، وتركهم الأماكن الأمامية لنا كي نتمكن من رؤية ما يدور في السرادقات. وما كان لأوروبي أن يتجاسر في الماضي القريب ويبرز وسط مثل هذة الاحتفالات الدينية. لذلك فإنه إذا ما جاءت

حكومة مصرية رشيدة لتوجيه الأمور المتردية فسرعان ما ستتحسن الأوضاع ويُحرز التحضر قُدُماً إلى الأمام. بيد أنها روح الاحتكار والاستئثار التي تأتي على الأخضر واليابس.

وفي الساعة التاسعة والنصف ذهبنا لقضاء السهرة عند السيد "بوتزاري" الأرمني الأصل، وهو طبيب الباشا الشخصي ومسؤول عن الصحة العامة في مصر، وكان يقطن منزلاً جميلاً مشيداً على الطراز الشرقي. ولقد أحسن ابن ذلك الرجل استقبالنا، وقادنا إلى الديوان الكبير حيث جعلنا ندخن ونحتسي القهوة لمدة ساعتين مستمعين إلى مطربات عربيات جميلات كن ينشدن خلف ستائر تحجبهن عن الأنظار. وكان لهذا الحجاب وقع جميل علينا إذ بدت أصواتهن وكأنها تنزل من السماء. وكانت المطربات تشدين بأغنيات شعبية تعجز أذاننا الأوروبية عن الإحساس بمدى جمالها. إلا أن المسلمين كانوا يسارعون في التصفيق قائلين للمطربة الرئيسية والتي كانت تدعى "نفيسة" : "ربنا يخلي صوتك".

وبالطبع لم يشاركهم أي منا في هذة الأمنية ! فبعد أن أحط الأتراك بالحضارة الشرقية ونزلوا بها إلى هذا الدرك ابتعدت كافة الفنون عن الفطرة والبساطة، ونزعت إلى المغالاة في كل شيء إرضاء لهؤلاء الغزاة الحمقى. ولقد شق علينا كثيراً سماع صوت زوج "نفيسة" البشع قاطعاً غناء تلك المرأة الفاتنة مصفقاً ومشجعاً إياها تماماً كما كان يفعل الملك "ذو اللحية الزرقاء" المتوحش عندما كان ينادي امرأته ليقطع رقبتها! وتشبه بعض فقرات من أغنيات تلك العوالم إلى حد كبير ألحاننا الفرنسية القديمة. ثم عدنا في منتصف الليل.

ولما كان يوم الواحد والعشرين من سبتمبر جاء السيد "لينان" لزيارتي مبكراً، وهو رحالة ورسّام قدير. وقد تطبع هذا الرجل بالعادات والتقاليد الإسلامية، وأخذ يرتدي على الدوام ملابس "النظام الجديد"، ويقطن وسط العرب بعيداً عن الأوروبيين، كما تزوج امرأة حبشية وأنجب منها أطفالاً كثيرين. وكان بصحبته السيد "برتييه" الذي كان يعمل في قنصلية "تارز" قبل أن يلجأ إلى مصر فراراً من قبضة الباشا الذي كان يرغب في قتله بمجرد اندلاع أزمة "نافارينو".

إنني أتلهف للطواف في شوارع القاهرة في وضح النهار كي أكون بنفسي فكرة واضحة ودقيقة عن هذة المدينة التي كثيراً ما انتقدها الرحالة في كتاباتهم. وسنمتطي الحمير الجميلة ويتقدمنا الجندي الانكشاري "عمر" الذي أمرته بإصطحابنا إلى حيث مساجد ابن طولون والسلطان حسن والأزهر...

* * *

من شامبليون إلى شامبليون فيجاك

القاهرة في ٢٧ سبتمبر ١٨٢٨

صديقي الحميم ،،

لقد غادرت مدينة الإسكندرية في الرابع عشر من هذا الشهر رافعاً راية فرنسا على رأس أسطولي الصغير. وسلكت ترعة المحمودية التي تتبع نفس الاتجاه العام لترعة الإسكندرية القديمة، بيد أنها أقل منها تعرجاً وتصب مباشرة في نهر النيل مارة بين بحيرة "مريوط" يميناً وبحيرة "ادكو" يساراً. ولما بلغنا نهر النيل في باكورة يوم الخامس عشر شعرت بنشوة الفرح التي تغشى المسافر حين يترك الصحراء الغربية في الإسكندرية ويرتمي في أحضان النيل حيث تدهشه رؤية خضرة الدلتا اليانعة المغطاه بمختلف أنواع الأشجار، والتي تعلوها مئات من مآذن القرى العديدة المنتشرة على تلك الأرض المباركة. ما أروع ذلك المنظر الخلاب ! وما أشد خصوبة الريف المصري!

إن نهر النيل شاسع للغاية ورائعة ضفافه. وقد قمنا باستراحة قصيرة في "فوه" التي بلغناها في منتصف النهار. وفي الساعة السابعة والنصف مساء اجتزنا قرية "دسوق" حيث توفى السيد "سالت" منذ عدة أشهر. وعندما استيقظت في السادسة من صباح يوم السادس عشر وجدت المعاش راسياً على مقربة من "صا الحجر" حيث كنت أمرت بالتوقف لزيارة أنقاضها والتي لم أكن لأجتازها دون تحيتها.

ثم حمل كل منا سلاحه على كتفه وتوجهنا إلى القرية التي كانت على مسيرة نصف ساعة من النهر. وفي الطريق انشغل رفاقي بالصيد ومطاردة ابن آوي بأعيرتهم النارية. ثم قصدنا الحرم الكبير الذي لاح لنا في السهل منذ الصباح. وقد اضطررنا لسلك بعض المنعطفات لتفادي مياه الفيضان التي كانت تغمر مساحة من الأرض (ا). ومررنا أمام جبانة مصرية (ا) مشيدة من الطوب اللبن حيث التقطت من بين حطام الفخار الذي يغمر مساحتها بعض أجزاء تماثيل جنائزية صغيرة. ولم يكن هناك سوى باب حديث (ب) يفضي

إلى داخل الحرم الكبير. ولا يسعني وصف ما اعتراني من انطباع بعد أن تخطيت ذلك الباب ووقعت عيناي على كتل ضخمة بارتفاع ثمانين قدم تشبه صخوراً حطمتها الصواعق أو الزلازل. وعدوت وسط هذا الخندق المحصن الضخم حيث تعرفت على أنقاض بعض الأبنية المشيدة من الطوب بأبعاد ١٦×٧×٥ بوصة. إن تلك الجبانة قد أوضحت لي ما غاب عني حتى الآن: ألا وهو أين تذهب مومياوات سكان المدن الواقعة في مصر العليا بعيدا عن الجبال. أما الجبانة الثانية والتي مازلنا نتبين وسط أنقاضها العملاقة طوابق كثيرة مقسمة إلى عدد لا يحصى من حجرات الدفن الصغيرة، فلا تقل أبعادها عن الف وأربعمائة قدم طولاً ونحو خمسمائة قدم عرضاً. كما نجد حتى الآن داخل جدران بعض تلك الحجرات آنية فخارية كبيرة كانت تستخدم في حفظ أحشاء الموتى وتقوم مقام الآنية الكانوبية. واستدللنا على وجود مادة القطران داخل إناء منها.

كما يوجد تلان صغيران (د و هـ) على جانبي تلك الجبانة. وقد عثرنا في التل الثاني على بقايا أحجار من الجرانيت الوردي والرمادي، والحجر الرملي الأحمر الجميل، والرخام الأبيض المعروف برخام "طيبه". وبوسعك أن تخبر "ديبوا" بأنني رأيت نقوشاً فرعونية منحوتة في هذا الرخام الأبيض الذي سآتي له بعينة منه لثقتي في أن ذلك سيهمه كثيراً. والحرم عبارة عن متوازي أضلاع لا يقل طول ضلعيه الصغيرين عن الف وأربعمائة وأربعين قدماً، وضلعيه الكبيرين عن الفين ومائة وستين قدماً، ويناهز محيطه سبعة الآف قدم، وسُمْكه أربعة وخمسين قدماً. وإنني أترك "لشارل ديبان" متعة إحصاء عدد قوالب الطوب المستخدمة بالملايين في تشييد تلك الأبنية الضخمة، وعدد "الدقائق" اللازمة لرفعها بآلاته البخارية!

ويبدو لي أن ذلك الخندق المحصن العملاق كان يضم العمائر المقدسة الرئيسية في "صا الحجر".

أما باقي الأنقاض فترجع لجبانات أخرى. وتبعاً للإشارات التي أوردها "هيرودوت" يمكننا اعزاء الأنقاض (د) إلى مقابر الملك "ابريس" واجداده من ملوك الأسرة الصاوية. بينما ترجع الأنقاض (هـ) للبناء الجنائزي لمغتصب العرش "أحمس". أما الجزء (و) الواقع ناحية النيل فكان يضم معبد "نيت" الكبير وعمائر مقدسة أخرى.

وقد حالت مياه الفيضان دون تأكدنا من وجود بعض الأنقاض به. وكان الباب (ج) يُفضي إلى قطاع الجبانات، بينما يُفضي باب آخر كان يقع ناحية النيل في النقطة (هـ) إلى حرم المعبد.

وكان طرفا الجبانة الكبيرة (ج) مزدانين بصرحين تحولا اليوم إلى تلين كبيرين. وقد التقطت بسعادة غامرة وسط تلك الأنقاض تمثالاً صغيراً مطلياً بالمينا ويمثل "نيت" إلهة "صا الحجر" العظيمة. وقام رفاقي باصطياد البوم الذي كان يُعتبر الطائر المقدس لـ"نيت"، والذي قامت كل من "صا الحجر" و"اثينا" بسكه على أوسمتهما. وعلى بعد بضع مئات من الأقدام من الزاوية المجاورة للباب الوهمي (ب) تغطي التلال جبانة ثالثة تضم مقابر سراة القوم، كان قد سبق تنقيبها. وقد عثرت فيها على تابوت ضخم من البازلت الأخضر لحارس المعبد في ظل حكم "بسماتيك الثاني". وقد سمح لي السيد "روزيتي" صاحب ذلك التابوت بنقله إلى فرنسا، بيد أن ذلك سيكون باهظ التكاليف، علاوة على أن التابوت نفسه ليس ذو قيمة كبيرة. وفي طريق عودتي سأجري بعض الحفائر في هذة المنطقة وفي أماكن أخرى.

تلك هي نتائج أولى زياراتي لـ"صا الحجر". ثم أقلعنا في الساعة السادسة مساء ومررنا أمام قرية "شابور" في اليوم التالي. وفي الساعة التاسعة من صباح الثامن عشر من سبتمبر توقفنا أمام قرية "نادر" حيث أمتعتنا العوالم بوصلة غناء وطرب، تبعتها قفزات المهرجين وأغنياتهم المضحكة. وفي الساعة الثانية عشرة والنصف ألفينا أنفسنا أمام قرية "طرانه" حيث شاهدت تلالاً من ملح النطرون المتراكم بعد نقله من البحيرات التي يُستخرج منها. وفي المساء اجتزنا قرية "ميت سلامه" الحزينة القابعة في الصحراء الغربية. ثم قضينا جزءاً من الليل على ضفاف الدلتا الخضراء بالقرب من قرية "اشمون" بسبب ركود الرياح. وعقب استيقاظنا في صباح التاسع عشر من سبتمبر لحنا أخيراً الأهرامات، وتجلت لنا ضخامتها على الرغم من بعدها عنا بمقدار ثمانية فراسخ. وفي الثانية إلا الربع بلغنا رأس الدلتا (بطن البقرة) عند نقطة انقسام النيل إلى ذراعين : فرع رشيد وفرع دمياط. ياله من منظر خلاب! وما أشد عرض النيل واتساعه ! ففي الغرب نرى الأهرامات شامخة وسط النخيل، وحشد من المراكب والسفن تتقاطع وتتلاقى في جميع

الإتجاهات. وفي الشرق تبرز لنا قرية "الشرفة" الجذابة في اتجاه "عين شمس". ويشغل خلفية اللوحة جبل المقطم الذي تتوجه قلعة القاهرة، وتختفي قاعدته خلف غابة من مآذن تلك العاصمة الكبيرة. ثم تبدت لنا القاهرة في وضوح وجلاء في الساعة الثالثة من بعد الظهر. عندئذ قدم ثلاثة من نوتية المركب يهنؤننا بسلامة الوصول ويطالبوننا "بالبقشيش". وكانوا يرتدون ثياباً عجيبة جداً : قلانس من قوالب السكر المخططة بألوان صارخة، وشوارب كبيرة من الكتان الأبيض، وثياب ضيقة تفضح كل معالم أجسادهم، وأذيال منتصبة من القماش الأبيض. وتشبه ملابسهم وشاراتهم وهيأتهم المضحكة آلهة الريف المرسومة على الآنية الإغريقية القديمة. وبعد ذلك ببضع دقائق ارتطم مركب المعاش في جرف رملي مما أدى إلى توقفه في الحال. عندئذ قفز النوتية في النيل لتخليصه مستعينين باسم الله وبعضلاتهم القوية وأكتافهم العريضة. فأغلب هؤلاء البحارة أشداء يتمتعون بقوة خارقة، وكانوا أشبه بتماثيل من البرونز المصبوبة لتوها عندما خرجوا من النيل وقفزوا فوق شاطئه لشد المركب بالحبال. وبعد نصف ساعة من العمل الشاق نجحوا في تعويم المركب من جديد. ثم مررنا أمام "امبابة"، وبعد أن رأينا موقع معركة الأهرامات رسونا في مرفأ "بولاق" في تمام الساعة الخامسة. وقد استنفذنا نهار يوم العشرين في التأهب لدخول القاهرة، ونقل أمتعتنا وحاجياتنا على ظهور الحمير والجمال لفرش المنزل الذي قمت بتأجيره سلفاً. ثم توجهت في الخامسة مساء صوب القاهرة في صحبة رفاقي ممتطين حميراً أجمل من حمير الإسكندرية. وأخذ الجندي الانكشاري التابع للقنصلية يُفسح الطريق أمامنا، وكان الترجمان على يميني وكل الشباب يقفزون ويتبخترون من خلفي. وقد لاحظت أن ذلك لم يكن يزعج المصريين الذين أخذوا يهتفون "فرنساوي" في شيء من الغبطة والسرور !

دخلنا القاهرة في الوقت المناسب إذ كان المسلمون يحتفلون في ذلك اليوم وفي اليوم التالي بذكرى المولد النبوي. وقد اكتظ ميدان الأزبكية الكبير والهام -والذي كانت تتوسطه مياه الفيضان- بالناس الملتفين حول المهرجين والراقصات والمغنيات، بالإضافة إلى سرادقات غاية في الجمال نُصبت لإقامة الشعائر الدينية. فمن هنا نرى بعض المسلمين جالسين يرتلون آيات قرآنية، ومن هناك نجد

ثلاثمائة من الناسكين جالسين في صفوف متوازية يتمايلون دون توقف بأعلى أجسامهم إلى الأمام ثم إلى الخلف مثل دُمى ذات مفصلات ويرددون في نفس واحد "لا إله إلا الله". وأبعد من ذلك كان هناك أربعمائة من الرجال الممسوسين الرعناء واقفين جنباً إلى جنب يقفزون في إيقاع ويهتفون باسم الله من أعماق صدورهم المنهكة. وأخذوا يرددون ذلك الآف المرات في صوت بهيم أجش، حتى إنني لم أسمع في حياتي كلها كورس شيطاني مثل ذلك ! ولقد انتابنا الخوف فعلاً من ذلك الطنين المرعب. وإلى جانب جنون تلك المناسك الدينية كان هناك العازفون وبنات الهَوى وألعاب الأطواق والأراجيح المختلفة في أوج نشاطها. إن هذا المزيج من الألعاب والملذات الدنيوية والشعائر الدينية، بالإضافة إلى غرابة الوجوه والتنوع الشديد في الثياب قد شكل منظراً مثيراً للغاية لن يبارح ذاكرتي ابداً. ثم تركنا الميدان واخترقنا المدينة في طريق عودتنا إلى المنزل.

وقد حازت مدينة القاهرة على اعجابي بالرغم من الانتقادات العديدة التي وُجهت إليها. ويبدو لي عرض شوارعها ذات الثمانية أو العشرة أقدام محسوباً بدقة للاحتماء من الحرارة المرتفعة جداً. وبالرغم من أن هذة الشوراع غير مرصوفة إلا أنها نظيفة بصورة تلفت الأنظار، حتى تمنيت أن تبدو "باريس" في مثل تلك النظافة في أبهى أيامها. إن القاهرة مدينة هائلة مترامية الأطراف. وقد شُيدت أغلب منازلها من الأحجار، وفي كل لحظة نلمح أبواباً مزخرفة على الطراز العربي. ومما يعطي تلك العاصمة طابعاً مهيباً ومتنوعاً جداً هو مساجدها العديدة الأنيقة والمزينة بزخارف إسلامية ذات ذوق رفيع، والمحلآه بمآذن رائعة وغنية. وقد قطعت القاهرة جيئة وذهاباً ومازلت اكتشف كل يوم أبنية جديدة لم تخطر لي على بال. ولاتزال القاهرة مدينة ألف ليلة وليلة، ويرجع الفضل في ذلك إلى الأسرة الطولونية والخلفاء الفاطميين والسلاطين الأيوبيين والمماليك، بالرغم من أن الهمجية التركية قد وأدت جزءاً كبيراً من ثمار الفنون والحضارة العربية العظيمة. كما قمت بالتعبد لأول مرة في مسجد ابن طولون المشيد في القرن التاسع والذي يُعد نموذجاً رائعاً للأناقة والرفعة والسمو. إلا أنني لم أتمكن من مشاهدته ملياً في إعجاب على الرغم من تهدم نصفه. فبينما كنت أتأمل الباب إذا

بشيخ مسن يدعوني للدخول؛ فقبلت بلطف. إلا أنه بعد أن اجتزت الباب الأول في خفة ورشاقة، اذا بهم يستوقفونني أمام الباب الثاني : فلا يجوز دخول المكان المقدس بالحذاء. عندئذ خلعت حذائي، ولما كنت بدون جورب فقد استعرت منديلاً من الجندي الانكشاري المصاحب لي ووضعته حول قدمي اليمنى، ثم استعرت منديلاً آخراً من خادمي النوبي محمد لأضعه حول قدمي اليسرى. وهأنـاذا أجد نفسي على الأرضية الرخامية للحرم المقدس. ويُعتبر هذا المسجد بلا مراء من أروع الآثار الإسلامية المتبقية في مصر، إذ ما أعجب رقة نقوشه وما أروع تسلسل أروقته المقنطرة! ولن أحدثك عن المساجد الاخرى ولا عن مقابر الخلفاء والسلاطين المماليك التي تكوِّن -حول القاهرة- مدينة أخرى أبهى وأروع. لن أحدثك عن كل ذلك كي لا يذهب بنا الحديث بعيداً. بل كفاني إذاً كلاماً عن مصر القديمة ولنعد إلى مصر الحديثة والمعاصرة.

فلما كان يوم الإثنين الثاني والعشرين من سبتمبر صعدت إلى القلعة لمقابلة حبيب أفندي محافظ القاهرة. ولقد أحسن استقبالي، وأطال الحديث معي عن آثار مصر العليا، وحباني بنصائحه لدراستها بحيوية. ثم طفت في القلعة بعد أن ودعت سموه حيث وجدت أولاً كتلة ضخمة من الحجر الرملي تحمل نقشاً يصور الملك "بسماتيك الثاني" يُكرس باباً. وقد قمت بنسخه بدقة وإتقان. كما أظهرت لي الكتل الحجرية الاخرى التي تنتمي إلى نفس الأثر في "منف" خاصية طريفة، إذ تحمل كل منها علامة تشير إلى اسم الملك الذي تم اقتلاع الكتلة من المحجر في عهده. وقد نُحِت الاسم الملكي في مساحة مربعة ومجوفة مصحوباً بلقب يشير إلى مكان وصول الكتلة في "منف". وقد جمعت من الكتل المختلفة علامات تشير إلى ثلاثة ملوك : "بسماتيك الثاني" وابنه "ابريس" وخليفته "أحمس". كما تدلنا تلك النقوش على زمن تشييد البناء الذي اقتلعت منه تلك الكتل الحجرية. وأبعد من ذلك نجد أطلال قصر صلاح الدين مؤسس الأسرة الأيوبية، وقد التهمت النيران أسقفه منذ أربع سنوات، وأمر الباشا منذ بضعة أشهر بتدمير ما تبقى من ذلك الأثر الكبير الرائع حيث اكتشفت قاعته الرئيسية المربعة الشكل، وما ينيف عن ثلاثين عموداً من الجرانيت الوردي لا تزال تحمل بقايا الطبقة الذهبية السميكة التي كانت تغطي جذوعها، ولا تزال منتصبة بتيجانها العربية الضخمة

المنحوتة بغير إتقان على شاكلة التيجان الفرعونية القديمة المكدسة فوق الأنقاض. وقد نُحتت تلك التيجان التي أضافها العرب إلى الأعمدة اليونانية والرومانية من كتل الجرانيت التي اقتلعت من أطلال "منف". ويحمل معظمها بقايا نقوش هيروغليفية، حتى أنني عثرت في الجزء الذي يصل الجذع بأحد الأعمدة على نقش بارز يمثل الملك "نختنبو" يقدم القرابين إلى الآلهة. وخلال إحدى زياراتي المتكررة إلى القلعة لرسم الأنقاض الفرعونية زرت "بئر يوسف" الشهيرة التي قام صلاح الدين يوسف بحفرها في القلعة على مقربة من قصره. ياله من عمل عظيم !

كما زرت حديقة الحيوانات التي يملكها الباشا، والتي كانت تضم أسداً ونمرين وفيلاً. إلا أنني وصلت بعد فوات الآوان فلم أتمكن من مشاهدة فرس النهر حياً. إذ أن ذلك الحيوان كان قد نفق على أثر لفحة شمس أصابته وهو نائم بدون احتراس؛ بيد أنني رأيت جلده مسلوخاً ومعلقاً فوق البوابة الرئيسية للقلعة. كما زرت أول أمس محمد بك الدفتردار وأمين خزانة الباشا، وأراني المنزل الذي يقوم ببنائه على النيل في بولاق. وقد استخدم في تزيينه قطعاً فرعونية جميلة أتى بها من "سقارة". ويُعد ذلك خطوة كبيرة من قِبَل أكثر وزراء الباشا اشتهاراً بمعارضته للإصلاح.

ووجدت هنا السيد "درشيه" الذي كان مصاباً بمرض خطير، واللورد "بريدهو"، والسيد "بيرتون"، والنقيب الإنجليزي "فيليكس". وقد أحاطني هذا الأخير الذي كان شغوفاً بالكتابة الهيروغليفية بلطفه ورعايته. وقد سعيت إلى اقتناء بعض القطع الأثرية، إلا أن الأسعار كانت باهظة للغاية. وسأعاود المحاولة مرة ثانية عند عودتي من صعيد مصر، لثقتي بأن المجاعة ستُجبرهم حينئذ على أن يكونوا أقل مغالاة في أسعارهم. وعليك أنت و"فريساك" ببذل قصارى جهودكما لحث البلاط الملكي على منحي اعتمادات مالية للشراء والتنقيب عن الآثار. فحسبي قليل من المال لكي أقوم بأشياء عظيمة. وإذا لم تغتنم الحكومة فرصة تواجدي في مصر لإثراء متاحفها فستكون تلك هي الطامة الكبرى.

سأتوجه غداً أو بعد غد إلى "منف"، ولن أرجع إلى القاهرة هذا العام، وسأنزل بالقرب من "ميت رهينة". ومن تلك النقطة سأستطلع "سقارة" و"دهشور" وكل سهل منف حتى أهرامات الجيزة،

حيث أود كتابة خطابي القادم من هناك. وبعد أن أجوب أرض العاصمة الثانية لمصر، سأقلع صوب "طيبه" لأبلغها في أواخر شهر أكتوبر بعد أن أتوقف بضع ساعات في كل من "العرابة المدفونة" (أبيدوس) و"دندره".

مازلت في كامل الصحة وتمام العافية، أحسن بكثير مما كنت عليه في أوروبا، ودليلي على ذلك هو نجاحي في كتابة تلك الصفحات السبعة بدون توقف؛ وما كنت أقوى على عمل ذلك في "باريس" دون أن أشعر بإنقباض وتقلص في عضلات المخ. أشعر حقاً وكأنني إنسان آخر وُلِدَ من جديد! فقد قمت بحلق شعر رأسي ووضع عمامة كبيرة، كما ارتديت الزي التركي تماماً بشاربي الجميل الذي يغطي فمي وسيف عريض ومعقوق معلق في جانبي. ويتناسب ذلك الثوب الثقيل مع حرارة الطقس في مصر، إذ يجعلك تعرق كثيراً ومن ثم تشعر بالراحة.

ويُقسم رفاقي على أنني أبدو وكأنني مولود في هذا البلد. وسأتمكن خلال الأسابيع القادمة من إتقان اللغة العربية حتى لا أبدو كمبتديء.

وفي ختام رسالتي أبلغ احترامي وعبارات الود إلى السيد "داسيه"، وصداقتي الحارة مثل سماء مصر إلى ابنه وإلى أصدقائنا الذين يقطنون في شارع "كولبير".

لم أنس قواقع وأصداف صديقنا "فريساك"، وقد جمعت تفاصيل مثيرة ستهمه بكل تأكيد. وبما أن الأمر يتعلق بالنساء المصريات، فسأنتظر لأصف له الحفل الذي أقمته لرفاقي الشبان عقب بلوغنا القاهرة بيومين، حيث استحضرت ست عوالم أو فتيات عالمات (ويالهن من عالمات!) جعلن يرقصن ويشدون من الساعة السادسة مساء وحتى الثانية من صباح اليوم التالي.

وداعاً يا صديقي العزيز. قبلاتي لك ولزوجتي ولكل ذوينا. بلغ ودي للسيد "ديبوا" الذي سأكتب له على الفور. ويا ليته كان بصحبتي ليستمتع بكل ذلك!

ج.ف.شامبليون

* * *

نبذة عن الرحلة

٣٠ سبتمبر ١٨٢٨

لقد استنفذنا النهار كله في التأهب لمغادرة القاهرة نهائياً بعد أن بدأ رفاقي الشباب في اكتساب بعض العادات التي قد يصعب الإقلاع عنها بعد ذلك. فقد سحرتهم تلك المدينة التي لم تُعجب كثيرين من قبلهم. وأنا أدرك تماماً ما لتلك العاصمة الكبيرة الفريدة، والتي تجمع كل ما يمكن أن يستمتع به شعب شرقي من مباهج في ظل حكومة الباشا، من تأثير على عقول شابة خالية من الأفكار المسبقة، والتي تحس بعمق بروعة الأشياء والأشخاص الذين يحيطون بها. وقد قام الدكتور "ريتشي" -بما له من خبرة ناتجة عن تردده على مصر من قبل- بتدبير كافة المؤن اللازمة لرحلتنا إلى صعيد مصر.

وفي انتظار ذلك ذهبت لزيارة السيد "لينان" الذي يقطن منزلاً شرقياً يقع خلف الأسوار، وقد تزوج هذا الرجل بإمرأة حبشية، وتطبع تماماً بالعادات والتقاليد الشرقية. وقد أطلعني على رسومه الرائعة، وكانت تلك هي المرة الأولى التي أرى فيها رسوماً متقنة لآثار "بترا" الرومانية. وتعرفت على النقوش الهيروغليفية لـ"سرابيط الخادم" منسوخة بمهارة فائقة بالإضافة إلى معظم آثار"نجا" و"برقل" ومواقع أخرى عديدة في بلاد النوبة والحبشة. وقد وجدت في تلك الرسوم تأكيداً لفكرة كنت قد كونتها عن آثار الحبشة التي يمكننا تقسيمها إلى ثلاث حقب تاريخية متميزة وإلى ثلاثة أنماط متعاقبة :

(١) الطراز الأثيوبي الفرعوني : أي النمط الأثيوبي البدائي الذي يشبه النمط الفرعوني الجميل الخالص. وخير مثال على ذلك معابد "برقل" التي تحمل نقوشاً ملكية لـ"طهرقا" وحتى "أمينوفيس ممنون". مما يبرهن على قيام هذا الملك بشن غزوات على الحبشة.

(٢) الطراز الأثيوبي الهندوسي بأشكاله الضخمة الجسيمة المزودة أحياناً بالتفاصيل والزخارف الغنية وأشكال ذات أربعة أذرع، كتلك التي نجدها في المعابد الهندوسية. وقد كان التأثير المباشر أو غير المباشر لبعض الشعوب الهندوسية خلف ظهور ذلك النمط. كما يتجلى ايضاً ذلك التأثير بصورة قوية في أحرف الهجاء الأثيوبية المنقولة بكل تأكيد عن الأبجدية الهندوسية.

(٣) الطراز الأثيوبي العربي بأشكاله النحيفة الممدودة والفقيرة وغير الصحيحة. وقد نشأ ذلك النمط عقب اجتياح العرب وغزوهم للحبشة وقضائهم على العرق الأثيوبي الحقيقي، وتطبعهم بعاداته وتبنيهم لأبجديته. وترجع الآثار التي تشهد بذلك النمط إلى القرن الأول الميلادي.

كما وجدت عند السيد "لينان" رسماً لنقش كبير يرجع إلى عهد الملك "تحتمس الرابع" منحوتاً على صخرة تقع على حدود "دنقلة"، وقد وعدني بنسخة منه.

وفي الساعة السادسة مساء غادرنا القاهرة بعد أن وضعنا أمتعتنا فوق ظهور الجمال والحمير، وتوجهنا إلى المركبين اللتين كانتا راسيتين في "بولاق" حيث تناولنا وجبة العشاء وقضينا الليل.

* * *

١ اكتوبر ١٨٢٨

أرجأنا الرحيل حتى الساعة الثالثة من بعد الظهر، للتزود ببعض المؤن وتسوق بعض المشتريات التي كنا قد نسيناها. ثم أقلع المعاش "إيزيس" دون انتظار الدهبية "حتحور" التي تقرر أن ينزل على متنها جنديان من حرس الباشا لمرافقتنا. ثم حاذينا جزيرة "الروضة" الساحرة، واجتزنا مقياس النيل المشيد على طرفها الجنوبي. وبعد أن تسببت القوارب الشراعية التابعة لرجال جمارك القاهرة في مضايقتنا بعض الشيء، بلغنا الجيزة في الساعة الرابعة إلا الربع. وبعد ذلك بنصف ساعة مر المعاش أمام قرية "دير التين" الواقعة على الضفة الشرقية للنيل عند سفح تل قد انفصل عن جبل المقطم. ويذكر لنا التاريخ أن الملك "سنوسرت" كان قد أباح لأسرى

بابليين الإقامة في تلك الرقعة وبناء مدينة صغيرة، كما قام الباشا بدوره بتشييد قلعة صغيرة بها.

وعند غروب الشمس ألفينا أنفسنا أمام "طره" حيث توجد مخازن الحكومة. وتنتشر المحاجر في الجبل المجاور الواقع على الضفة اليمنى للنهر. وكانت "منف" تقع في سالف الزمان على الضفة المقابلة حيث توجد الآن غابة كثيفة من النخيل تعلوها قمم أهرامات "سقارة" العديدة. وفي السابعة مساء وصلنا "مسره" حيث أمرت الريس بالرسو لرغبتي في زيارة محاجر الصحراء الشرقية التي استمر استغلالها خلال مختلف العصور في المنطقة الواقعة بين هذه القرية وقرية "طره" إلى الشمال. ثم لحقت بنا الدهبية "حتحور" بعد ذلك بقليل. عندئذ شرعنا في ربط المركبين في أشجار النخيل التي أخذت تُمطر على رؤوسنا بلحاً شهياً.

* * *

٢ اكتوبر ١٨٢٨

وفي الساعة السادسة صباحاً امتطينا حميراً بدون سرج أو لجام، وولينا وجهتنا صوب سفح الجبل. وسلكنا طريقاً يمر عبر أراضي منزرعة وأخرى قاحلة جرداء تغمرها طبقة من الرمال لحرمانها من فيضان النيل منذ عدة سنوات. وقد قطعت الطريق كله سيراً على الأقدام، متدثراً ببرنس ومستظلاً بشمسية عندما تقسو حرارة الشمس. وبعد مسيرة ساعة بلغنا سفح سلسلة جبال الصحراء الشرقية التي تخفها الكثبان الرملية وأكوام الحجارة المتخلفة عن أنقاض المحاجر. وبعد أن تسلقنا تلك التلال الرملية وأكوام الحجارة الحادة المدببة، وصلنا إلى محجر كبير يراه الناظر من بعيد من خلال مدخله وبابه الشاهق الارتفاع. وقد أطلقت عليه اسم "المحجر الرئيسي"، ثم حددت لكل عضو من أعضاء البعثة اتجاهاً مختلفاً بغية استكشاف الكهوف العديدة المنتشرة يميناً ويساراً استكشافاً دقيقاً. وبمجرد العثور على أي نصوص أو نقوش يشرع كل عضو في إطلاق صفير أتوجه على أثره إلى المكان لتقدير قيمة هذا الكشف. فإن بدا لي النقش مهماً وواضحة خطوطه رسمته أو طالبت برسمه.

وقد قادنا ذلك الاستكشاف المضني في درجة حرارة مرتفعة جداً وسط صخور جيرية بيضاء تعكس الضوء والحرارة بشدة إلى النتائج الآتية : جمع العديد من النصوص المدونة بالخط الديموطيقي وبالمداد الأحمر في المحاجر المتتالية الواقعة إلى يسار المحجر الرئيسي، وقد دُونت تلك النقوش على سقف المحجر وفي الأماكن المرئية. كذلك فإن تكرار العديد منها بكثرة في نفس الكهف يشير بالطبع إلى استغلال تلك المحاجر. في حين تمثل بعض النقوش الأخرى أهمية خاصة لاحتوائها على تواريخ وأسماء ملكية. وخير مثال على ذلك تلك النقوش التي ترجع إلى العام الثاني من حكم الملك "هكر"، وإلى العام السابع من حكم أحد البطالمة وهو "سوتير الأول"، ونقش ثالث يرجع إلى العام الرابع من حكم الامبراطور "أغسطس" :

[شهر "بابه" من العام الرابع لحكم الامبراطور "كايزرهن‌زرخ‌ضـتج]

أما المحاجر الواقعة إلى اليمين من المحجر الرئيسي فهي أكثر وفرة وغزارة من حيث النصوص الديموطيقية، علاوة على ما بها من نحت ونصوص هيروغليفية. وتزدان أجمل محاجر تلك الناحية بلوح رائع على شكل براح العمودين يحمل في صفه العلوي ثلاثة خراطيش ملكية. وقد نُحت هذا اللوح في الصخر على يسار الداخل، ولا يحمل الإفريز المضلع أية زخارف. وقد سُبق الخرطوش الأوسط بلقب [ملك] وتُبع بنعت [المحيي] وهو يحمل اسم الملك "أحمس" مؤسس الأسرة الثامنة عشرة. أما الخرطوش الثاني فهو لزوجته الملكة "أحمس نفرتاري" كما يتبين لنا من ألقاب [الزوجة الملكية العظيمة]، و[الأم الملكية]، و[سيدة العالم إلى أبد الآبدين]. وأخيراً يرجع الخرطوش الثالث ناحية اليسار إلى امرأة من أسرة الملك "أحمس" قد تكون إحدى شقيقاته أو على الأحرى إحدى بناته، كما يدل عليه لقبي [بنت الملك] و[أخت الملك]. إن هذا اللقب الأخير يحسم القضية. فبما أن ذلك الأثر قد نُحت في حياة "أحمس" في حين لم يكن هناك ملك آخر غيره (فـ"أمنحتب الأول" لم يكن قد تبوأ العرش بعد) فإن الأميرة المسماه "أحمس نفرتاري" كانت إذن أخت الملك "أحمس". وكان هذا الملك يُنعت بـ[أثير الإله بتاح] لاقتراب "منف" من تلك النقطة، وكذلك بـ[أثير الإله أتوم] الذي كان راعياً وحامياً للمحاجر. ويتكون الصف السفلي للوح من ثمانية أسطر

مدونة بالخط الهيروغليفي. وقد نُحت هذا الأثر الفريد تخليداً لذكرى افتتاح المحجر. وهذا ما يُعبر عنه حرفياً السطران الأولان اللذان لا يزالان في حالة جيدة من الحفظ مقارنة بالأسطر الستة الأخرى غير المصقولة :

[تم افتتاح المحاجر في العام الثاني والعشرين
في ظل كهنوت الملك "أحمس" ابن الشمس]

ونتبين من فحص الأحرف المتبقية أن الأحجار التي اقتلعت من تلك المحاجر قد استُخدمت في تشييد معبدي "بتاح" و"أبيس" في "منف" اللذين يقعان في مواجهة تلك المحاجر، وقد نُحتت على القاعدة المربعة -المفروض أنها تسند اللوح- مشاهد من العمل في المحجر. إذ نرى ثلاثة رجال يقودون ست أبقار تشد زحافة ثُبتت عليها كتلة حجرية مربعة قد تم نحتها.

وعلى جدران نفس ذلك المحجر ناحية السقف نجد ثلاثة ألواح منحوتة ومرسوم عليها بغير إتقان صوراً لـ"بتاح" إله "منف" العظيم وللأسود التي ترمز اليه.

كما نجد محجراً آخراً بجوار المحجر السابق يرجع كذلك إلى العام الثاني والعشرين لنفس الفرعون. وإلى يسار الداخل يوجد لوح منحوت في الصخر مباشرة، وقد زُين الإفريز بصورة الشمس المجنحة، وبنصوص لا تزال تحتفظ بلونها الأزرق بالرغم من كونها في حالة سيئة من الحفظ مقارنة بسابقتها. ويحمل صفها العلوي نفس الخراطيش غير أن الأميرة "أحمس نفرتاري" قد جمعت بين لقبي [الأخت الملكية] و[الأم الملكية] بينما لُقبت زوجة الفرعون بـ[الزوجة الإلهية]. ويُعد هذا اللوح نسخة طبق الأصل من اللوح الأول.

وفي واد صغير كونه جبل "طره" إلى الجنوب من هذين الكهفين نجد العديد من المحاجر الأخرى التي تحمل نصوصاً ديموطيقية محدودة الأهمية. إلا أننا نرى في أحدها نقشاً جميلاً يصور ملكاً فرعونياً واقفاً يقدم القرابين للمعبودة "حتحور" والمعبود "تحوت". وقد خُط الخرطوش الملكي باللون الأحمر فقط دون أن يُنحت أي اسم داخله. كما تحمل المعبودة "حتحور" لقب [راعية منطقة "سيبي" أو "تيمسيبي"]، وحامية موقع العمل على الأرجح، أي المحاجر الواقعة بين "طره" و"مسره". كما اتخذ المعبود "تحوت" لقب [حارس] نفس

هذا الموقع. وقد نُحت هذا النقش في لوح على شكل براح العمودين مثل اللوحين السابقين.

وقد رُسم على جدران كهف مجاور بالمداد الأحمر وبمهارة يد فائقة وبدقة في الخطوط مشهد تكريس ناووس صغير منحوت من كتلة حجر واحدة. ونرى خراطيش الملك "بسماتيك الأول" على الإفريز المخدد، محاطاً بالحيتين المقدستين اللتين ترمزان إلى القطرين. وقد رُسم ناووس مماثل على جدران كهف آخر يقع على مقربة من الكهف السابق. كما نجد بقايا نقش لايزال واضحاً يحمل نصاً لأحد البطالمة، بالإضافة إلى العديد من النصوص الديموطيقية المخطوطة بالمداد الأحمر.

وإلى الجنوب من ذلك الواد الصغير وعلى منحدر سلسلة الجبال الرئيسية توجد محاجر ضخمة عثرنا فيها على نقش كبير يصور ملكاً يتقدم بالقرابين إلى الإله "آمون رع" وإلى الإلهة "موت" (الأم العظيمة) وأخيراً إلى الإله "خنسو" ذي الهيئة الآدمية. ويشير شرح النقوش إلى الملك على الرغم من خلو الخرطوش من أي اسم. ونقرأ في الكهف العتيق وكذلك على جدران مغارة مجاورة أسماء الملك "هكر" مدونة أفقياً ورأسياً. وقصاري القول أنه قد جرى استغلال تلك المحاجر التي تمتد بين "طره" وحتى ما وراء "مسره" خلال كل الحقب التاريخية. كما أن وقوعها على مقربة من عواصم مصر المتعاقبة (منف ثم الفسطاط ثم القاهرة) قد أطال تقريباً من فترة استغلالها. وحتى يومنا هذا لاتزال تُقطع منها الأحجار المربعة المستخدمة في تبليط منازل القاهرة. وقد استُعملت أحجارها في بادىء الأمر في تشييد "منف" والمدن الأخرى المجاورة. ثم استمر ذلك خلال الحقبة الفرعونية الممتدة بين حكمي "أحمس" و"بسماتيك الأول"، وكذا الحقبة الفارسية لحكم الملك "هكر"، وأخيراً طوال الحقبة الرومانية، كما يشهد على ذلك إسمي ملكين من البطالمة، والنقش الراجع إلى العام السابع من حكم الامبراطور "أغسطس".

وفضلاً عن ذلك يسهل علينا التمييز بين المحاجر العتيقة وغيرها من المحاجر الحديثة. إذ أن أسقف النوع الأول مسطحة وتحمل الملايين من الحزوز والنتوءات الناشئة عن استعمال الأزميل في قطع ونحت أحجارها، ولاتزال هناك أحجار شبه منفصلة. كما تحمل تلك الأسقف في بعض الأحيان خطوطاً كبيرة حمراء مصحوبة بكتابات

ديموطيقية لتقسيمها وإرشاد العمال وتحديد ما ينبغي مباشرته من أعمال. أما المحاجر الحديثة فقد استغلت على العكس من ذلك بدون انتظام، كما تنتشر التعاريج والتجاويف في أقبيتها.

وقد شاركنا السيد "لينان" وشاب انجليزي يُدعى "نيومان" في تناول وجبة طعام متواضعة في المحجر الأول للملك "أحمس". وبعد أن نعمنا بقسط من الراحة في محجر "هكر" حيث تجمعت كل قافلتنا أخيراً، توجهنا إلى المركبين الراسيتين في "مسره" حيث تناولنا عشاء شهياً بعد انقضاء يوم من العمل المرهق للغاية. ثم استودعنا هذين السيدين بعد احتساء القهوة، وسرعان ما اختفيا عن أنظارنا في اتجاه القاهرة. ولما لم يعد هناك ما نزوره في تلك الأنحاء أمرت الريس بالإقلاع في الساعة السادسة والربع صوب "البدرشين" والتي بلغناها في الثامنة والنصف.

* * *

٣ أكتوبر ١٨٢٨

بعد أن استيقظت في صباح اليوم شرعت في فحص تابوت من الرخام السماقي يملكه الترجمان "يوسف مسره" الذي قام بنقله من "سقارة" إلى ضفاف النيل، ويرجع هذا التابوت إلى شخص يُدعى "بيتيسي". ولم يكن غاية في الجمال، بل تصور زخارفه ونقوشه آلهة ثانوية. وقد صرحت للترجمان بأن هذا التابوت لا يهمني إطلاقاً مما كدر من مزاجه إذ كان يعتمد عليّ في التخلص منه. وفي الساعة السادسة صباحاً امتطينا الحمير للذهاب إلى قرية "البدرشين" الواقعة داخل الأراضي. ولا يشعر الزائر بأنه يطأ أرضاً كانت في سالف الزمان لمدينة كبيرة إلا بعد أن يجتاز تلك القرية، إذ نجد أنفسنا بالفعل فوق موقع مدينة "منف" حيث تشهد كتل الجرانيت المتناثرة هنا وهنالك والتي تبدو من كل النواحي من خلال الرمال التي تغمرها شيئاً فشيئاً، تشهد جيداً بفخامة عمائر تلك العاصمة. وقد عثرنا بين قريتي "البدرشين" و"ميت رهينه" على التمثال الضخم الذي اكتشفه السيد "كافاجليا" وأهداه إلى بوهة توسكانيا. وكان هذا التمثال الرائع من الحجر الجيري المتبلور الجميل والذي

قمت برسم رأسه وتفاصيله بعناية، كان يمثل "رمسيس الأكبر". كما يرقد التمثال على وجهه وقد فقد القدمين وجزءاً من الساقين. وتلك هي أبعاده الرئيسية :

	قدم	بوصة	سطر
الارتفاع الحالي	٣٤م٠		
من طرف (تسريحة الشعر؟) إلى منبت اللحية	٤	٥	
طول العنق	١	٥	
من الترقوة إلى السره	٧	١	
طول الأنف	١	٩	
من أسفل الأنف إلى طرف الشفة	-	٥	٤
من طرف الشفة السفلية إلى أسفل الذقن	-	٨	
طول اللحية	٢	٦	
عرض أسفل اللحية	١	٦	
عرض الأكتاف	٤	٢	
الأذن	١	٨	
عرض الأذن	-	١١	
فتحة الفم	١	٦	٦
طول العين	-	١٠	٥
العرض	-	٤	

طول الذراع من الكتف إلى المعصم	١٢	٦	
طول اليد حتى السلامي الأول	١	٨	
السلامي الأول	١	٣	٦
طول الإبهام	٢	٤	٦
ظفر الإبهام	-	٤	٦
عرض اليد	٢	٧	

ويضع الفرعون غطاء رأس مخطط ومن فوقه لباس "النمس" الذي تهدم نصفه. أما القلادة فتتكون من سبعة صفوف تنتهي بصف من الدرر واللآليء. كما يحمل شريطان صدرية غنية يعلو إفريزها صف من الحيات المقدسة يُزين رؤوسها قرص الشمس. ويتوسط الصدرية نقش ضئيل البروز يصور اسم "رمسيس الأكبر" ترعاه وتحميه آلهة "منف" الرئيسية : "بتاح" وزوجته "سخمت" الممثلة على هيئة امرأة برأس لبؤة. كما نُحت محل مشبك الحزام خرطوش أفقي كبير يحمل اسم الملك في كنف الزوجين الإلهيين المنفيين. كما يتدلى من الحزام في وضع مائل جداً خنجر كبير وجميل أو سيف قصير زُين مقبضه برأس صقر، ويبدو النصل في غمد مزخرف بالأزرار.

وعلى جانبي خرطوش الحزام نجد خرطوشين آخرين على مسافة بعيدة سنتناولهما بالحديث في وقت لاحق. كما نُحت خرطوش آخر على الكتف الأيمن. أما أساور اليد فهي غاية في البساطة، وتقبض اليد اليسرى على قرطاس من أوراق البردي يحمل هو الآخر خرطوشاً. وعلى دعامة التمثال، ولكن من

الداخل ناحية الساق اليسرى، نلمح رأس أمير صغير وجزء من جسمه ولايزال لقبه واضحاً. كما نرى على دعامة الساق الأيمن من الخارج ذراع الملكة يستند إلى منتصف ربلة ساق التمثال، ولاتزال ألقابها مقروؤة حتى الآن. كما لاحظت وجود بقايا ألوان في أجزاء مختلفة من التمثال وخاصة في زاوية الفم.

وتُعتبر الرأس نسخة طبق الأصل، ولكن أكبر حجماً، من رأس تمثال "رمسيس الأكبر" الذي يُعد من أجمل القطع الأثرية التي يضمها متحف "تورينو" في ايطاليا. ويُبرهن هذا التشابه التام في الملامح على كون هذين التمثالين صورة حقيقية لذلك الفاتح المصري. ومن المرجح أن هذا التمثال الضخم المحاط بكتل كبيرة من الحجر الجيري كان منتصباً أمام بوابة كبيرة، يجاوره تمثال مماثل على الجانب الآخر من البوابة. وقد أمرت بإجراء بعض الحفائر للتحقق من ذلك، بيد أننا قد لا نملك من الوقت ما يمكننا من حصد ثمار تلك المبادرة. ومما يزيد من همية ذلك الموقع هو احتمال كونه الحرم نفسه الذي كان يضم العمائر المقدسة الرئيسية لمدينة "منف". ويمتد ردفان طويلان متوازيان من التلال من الجنوب إلى الشمال: إذ يقع التل الأول إلى الغرب من النيل ومن قرية "البدرشين"، بينما يقع التل الثاني في موقع قرية "ميت رهينه" إلى أقصى الغرب. وإنني أعتبر هذين التلين بمثابة ما تبقى من الحرم الكبير المشيد من الطوب اللبن بعد انهياره وتآكله وذوبانه تحت تأثير الأمطار ومياه الفيضان التي لا تزال حتى يومنا هذا تغمر جزءاً كبيراً من المساحة الفاصلة بين الجدران المتوازية التي تغطيها النخيل. وتدلنا الشواهد المتبقية على أن هذا التمثال الضخم، بالإضافة إلى التمثال الآخر المماثل له، كانا على الأرجح منتصبين على جانبي بوابة أو فناء معبد. وكان السيد "كافيجليا" قد عثر في موازاتهما إلى الجنوب على تمثالين صغيرين من الجرانيت الوردي، أحدهما شبه كامل بينما الآخر مُهشم إلى عدة أجزاء. أما شرح الرسوم التي قمت بنسخها فتعود كذلك إلى "رمسيس الأكبر". وقد صُور الملك

واقفاً يُمسك في يده بصولجان وتحمل عصاه نصوصاً هيروغليفية.

وقد أمدتني الحفائر في نقطتي (ا) و(ج) بحطام تماثيل عديمة الأهمية، ونقطتي (ب) و(د) بأحجار جيرية منحوتة ومستخدمة في بناء جدار، مما يعطينا عناصر الترميم المشار إليها بنقاط متقطعة على الخريطة التقريبية التالية :

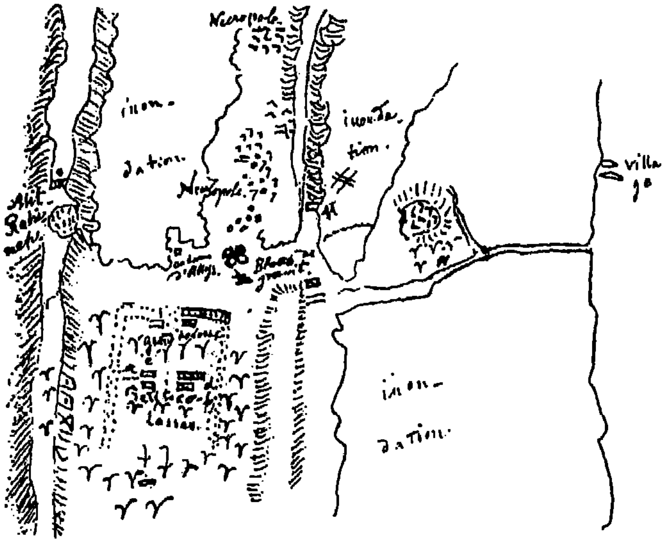

وقد جُبت التل الشرقي باهتمام إلى شمال التمثال الضخم. كما قمت بمعاينة أنقاض الأبنية الصغيرة أو الغرف الضيقة والأروقة المشيدة من اللبنات الصغيرة مثل جبانات "صا الحجر". وتدلنا كمية الشقف الهائلة المشابهة لحطام فخار "صا الحجر" على الغرض الأصلي من وراء تشييد تلك العمائر. وفضلاً عن ذلك فإن ما نجده من حطام التماثيل الجنائزية الصغيرة والآنية التي تحتوي على مادة القار يقطع الشك باليقين في هذا الشأن. وقد قمت في طريقي إلى "سقارة" بزيارة جبانة أخرى تقع في أقصى الشمال وتُعد امتداداً لتلك الجبانة. كما تكثر في الجدران المشيدة من الطوب اللبن كتل الجرانيت الوردي والحجر الرملي والحجر الجيري الأبيض التي يمكن أن تعود إلى عمائر كانت قد شُيدت باتقان كبير

وازدانت بالتماثيل. ثم جلسنا في ظل أكواخ مُقامة من أعواد البوص وجريد النخيل لتناول وجبة غداء تتكون من الخبز المصري والبلح الرطب والماء. وفي المساء عدنا إلى المركبين حيث تناولنا وجبة عشاء دسمة قبل أن نخلد إلى النوم.

* * *

٤ أكتوبر ١٨٢٨

توجهت في الصباح الباكر إلى "البدرشين" و"ميت رهينه" أثناء انشغال الآخرين بشحن الخيام وباقي الأشياء اللازمة تأهباً للقيام بجولة لن تستغرق أقل من ثمانية أيام. وجعلت أتطلع من جديد بإعجاب إلى ذلك التمثال العملاق، حيث أنه من الطبيعي أن أتأثر بشكل ملموس برؤية أول تمثال فرعوني ضخم تقع عليه عيناي.

تمددت أمام ذلك الوجه الهائل والمتناسق تناسقاً عظيماً بتقاطيعه الحلوة والعذبة، وأخذت أشبع ناظري بعظمة ذلك التمثال البطولي. عندئذ ابتسمت بإشفاق حينما تذكرت الآراء الدنيئة والأفكار الهزيلة التي لا تزال تملأ أذهاننا النابهة في الفنون بشأن فنون قدماء المصريين. فليسترجع كل منصف ونزيه في ذاكرته شعور الرعب الممزوج بالاشمئزاز الذي لا بد أن يكون قد أحس به مثلي في "روما" أمام بعض تلك الرؤوس الإمبراطورية الضخمة المحفوظة في "الكابيتول". وليُقارن هذا الشعور بالإحساس المنبعث من رؤية رأس فرعوني ضخم. عندئذ لن يساوره أدنى شك في براعة قدماء المصريين في تشكيل قطع فنية كبيرة، أي في أعمال النحت الضخمة التي تشكل الجانب الأساسي لفن العمارة عندهم. إن بروز أصغر التفاصيل وأدقها على مقياس رسم كبير يُعتبر خطأً فادحاً. لذلك فإن الفنان الذي يقوم بنحت تمثال ضخم دون أن يقتاد بحكمة المصريين القدماء، والتي تقضي بالتعبير عن الضروري فقط دون أن يتنافى ذلك مطلقاً مع مفهوم الدقة، لن تخرج من بين أنامله إلا وجوه ممسوخة، وتشويه مُغالى فيه مثل الرؤوس الإمبراطورية آنفة الذكر. ولم تراع نفس الدقة في نحت التمثالين الصغيرين من الجرانيت الوردي، مقارنة بذلك التمثال العملاق المنحوت من الحجر الجيري. وقد كانا يُزينان باباً أو صرحاً صغيراً. وهما يصوران الملك ممسكاً بصولجان ينتهي برأس للإله "بتاح سوكر". كما تحمل العصا النص التالي : ["حورس" القوي. الشمس المنعمة. سيد المحافل الدينية مثل أباه "بتاح" ...الخ] ويلي ذلك اسم "رمسيس الأكبر". وكان أحد هذين التمثالين لايزال في حالة جيدة من الحفظ،

بينما تلف التمثال الآخر الواقع إلى أقصى الغرب، وتحول إلى كتل منفصلة تكاد تكون ضائعة المعالم، ولم يتبق سوى ثلثي الركيزة قائماً بنصوصها الهيروغليفية التي تحمل كذلك اسم "رمسيس الأكبر".

وعثرت إلى الشمال من التمثال الضخم، فوق ما يشبه لسان من الأرض ممتد وسط مياه الفيضان، على عمود حتحوري صغير منحوت من الحجر الجيري. وهو عمل بسيط خال من الزخارف وقد غاص ثلثا جذع هذا العمود تقريباً في الأرض. كما أنني أجهل ما إذا كان منتصباً في موضعه الأصلي فعلاً، أم أن أحد تجار العاديات قد نقله وتركه في هذا المكان. ولم يفلح أهالي تلك المنطقة في اعطائي إجابة شافية على هذا التساؤل. وبخلاف معبد "أفروديت"، فقد كُرست لـ"حتحور" زوجة المعبود "بتاح" العديد من الهياكل في مدينة "منف". وقد تيقنت تماماً من وجود أثر على جانب من الأهمية تم تكريسه للمعبود "بتاح" والمعبودة "حتحور" وذلك على السفح الشرقي للتل الناشيء عن تراكم أنقاض الحرم المقدس في النقطة (م). وخلال يومين استأنفت عمليات التنقيب التي كان السيد "كافيجليا" قد بدأها، مما أسفر عن اكتشاف كتل من الجرانيت الوردي لعمود مستطيل كبير على هيئة عمودين مزدوجين تغطيهما نصوص وألقاب "رمسيس الأكبر"، وتنتهيان بصيغتي [محبوب بتاح] و[أثير حتحور]. وأنا مقتنع بإمكانية التوصل إلى اكتشافات هامة ورائعة في تلك النقطة في حالة إجراء حفائر مكثفة في أي وقت من السنة فيما عدا شهر أكتوبر بسبب مياه الفيضان. ويتسم كل ما لاحظته هنا بطراز معماري فريد.

وفي الساعة الثالثة كان يتعين علينا التوجه إلى "سقارة"، حيث لابد أن تكون قافلتنا المكونة من سبعة جمال مُحملة بالخيام والأمتعة قد وصلت. وقد عهدت إلى الدكتور "ريتشي" بقيادة القافلة، واختيار مكان مناسب لضرب الخيام. وتسببت مياه الفيضان في إعاقة طريقنا مما اضطرنا إلى دفع الحمير في اتجاه "البدرشين" وسط بستان النخيل الذي يغطي الحرم المتهدم، والتقدم لمدة ساعة في اتجاه الشمال. وقد اجتزت مرة أخرى الجبانة المشيدة من الطوب اللبن والممتدة إلى أقصى الشمال والتي تحوي جدرانها الصغيرة المبنية بالطوب على أنقاض أبنية من الحجر الجيري ومن شتى أنواع الجرانيت.

وأخيراً تركنا بستان النخيل، ودرنا إلى الغرب بعد أن عبرنا جسراً لنسلك طريقاً مُعَبدة أفضت بنا إلى مقربة من "سقارة" بعد ساعة أخرى من التقدم في طرق ملتوية ومتعرجة لتفادي مياه الفيضان التي كانت تغمر جانبي الطريق. ونصبنا خيمتين لأعضاء البعثة وخيمة ثالثة للخدم في نقطة التقاء ذلك الطريق بالصحراء وسط بستان صغير من النخيل المحاط بأجمة عطرة من أشجار السنط، ثم استنفذنا ما تبقى من وقت في إعداد بعض الترتيبات. وقد كلفنا صاحب الحقل الذي نزلنا فيه وأولاده الثلاثة بالسهر علينا، وتأمين حراستنا أثناء الليل نظراً لما اشتهر به جيراننا أهل "سقارة" من سمعة "طيبة" تعلل ذلك الإجراء الليلي !

* * *

٥ أكتوبر ١٨٢٨

ذهبت عشية أمس لاستكشاف الهرم المدرج ذي الخمس مصاطب والمشيد على التلال إلى الشمال الغربي من المخيم على أطراف الأراضي الزراعية والصحراء الإفريقية. وكنت أتلهف لتفحص الجبانة الفسيحة حيث توارت رُفات أجيال متعاقبة من سكان مدينة "منف" والتي يُطلق عليها اسم "سهل المومياوات". واتخذنا من بين أهل تلك المنطقة مرشداً يُدعى "منصور". وعند خروجنا من المخيم دخلنا الصحراء وتوجهنا صوب سفح الجبل الغربي الذي تغطيه الرمال من جميع الأنحاء. وقد عانت حميرنا الأمرين في ارتقاء المنحدر المؤدي إلى هضبة الصحراء المترامية، إذ كانت أرجلها تغوص في الرمال مما يُعرض الدابة وراكبها في كل لحظة لخطر السقوط والتدحرج. ثم استوقفنا أخيراً المرشد في أعلى الجبل تقريباً ليُرينا مقبرة عتيقة، فزحفت خلف "منصور" الذي كان يمسك بشمعة لأجد نفسي وسط غرفة مربعة تكسوها الأحجار المقصوبة الجميلة التي لم تحتفظ نقوشها بأي أثر للألوان تقريباً. وترجع تلك المقبرة لكاتب ملكي يُدعى "امينيموف"، ويغلب الطابع الديني البحت على كافة نقوشها إذ نرى المتوفي في وضع المتعبد أمام الآلهة

"أوزوريس" و"سكر" وخصوصاً "بتاح" و"حتحور" آلهة "منف". وعبثاً بحثت عن أسماء ملكية ترشدني إلى تاريخ نحت تلك المقبرة فلم أعثر إلا على تدوين باللغة اليونانية مغزاه أن [شتائم العدو وإهاناته كثيراً ما تساوي نصائح الصديق]. ولابد أن تكون تلك الحكمة المدونة على النقوش الفرعونية قد خُطت في عهد حديث نسبياً، كما أن نقوش تلك المقبرة جيدة بالرغم من افتقادها إلى الرقة والبساطة مما يُعد إحدى خصائص الطراز المنفي.

وبعد أن انتهينا من تسلق الجبل وبلغنا قمة الهضبة استطعنا أن نُكون فكرة واضحة عما تعرضت له مقابر "منف" من إتلاف وتخريب على مدى قرون عديدة. ولنا أن نتخيل سهلاً شاسعاً تتخلله الأهرامات، وتحفه الكثبان الرملية الصغيرة المغطاه بأنقاض الفخار العتيق ولفافات المومياوات وعظام الرفات والجماجم المبيضة من أثر ندى الصحراء ومختلف أنواع البقايا الأخرى لدرجة أن أقدامنا كانت تصطدم في كل لحظة إما بأنقاض سور من الطوب اللبن، أو بفتحة بئر مربعة مكسية بالأحجار المقصوبة الجميلة ومردومة إلى حد ما بالرمال التي كان العرب قد أزاحوها بغية استغلالها. وقد تسببت عمليات التنقيب بحثاً عن المومياوات والآثار في تراكم كل تلك التلال. ولا بد أن يكون هناك عدد لا يحصى من الآثار والمقابر في "سقارة"، إذا أخذنا في اعتبارنا أن تحت الكثبان الرملية التي تم إزاحتها للكشف عن بئر ما تتوارى العديد من الآبار الأخرى.

وفضلاً عن ذلك سيكون من الخطأ الاعتقاد أن جميع تلك الآبار تُفضي إلى حجرات دفن حيث أن هذا أمر نادر جداً إذ يبدو أن العادة قد جرت على تشييد حجرة أو عدد من الحجرات المزدانة بالنقوش والزخارف فوق فتحة البئر نفسه أو على مقربة منه لتُستخدم كمقاصير للآبار والسراديب التي تحوي مومياوات أسرة بأكملها. وقد أتيحت لي فرصة التأكد من ذلك عن طريق زيارة العديد من المقابر التي لاتزال في حالة جيدة من الحفظ.

ولقد عثرت على واحدة من أهم تلك المقابر على مقربة من الزاوية الشمالية الشرقية للهرم المدرج إلى الجنوب بالقرب من

هرم صغير آخر متهدم، ويُعطينا الرسم التخطيطي التالي فكرة عن توزيع الحجرات التي تتألف منها هذة المقبرة :

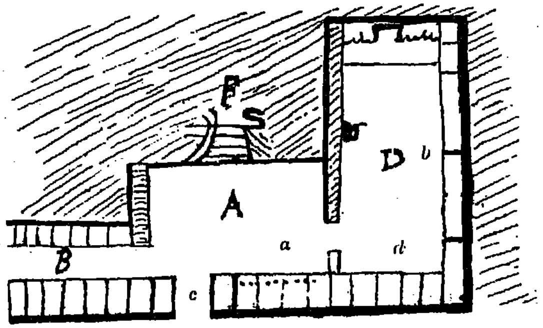

وقد شُيدت هذة المقبرة أو هذا البهو من المقابر باتقان كبير على ما يبدو وكذلك نقوشها بالرغم من أنها ليست في غاية الجمال. بيد أنها لا تحمل إلا اسم رب الأسرة الذي تكبد تكاليف إنشائها ويُدعي "مينوفيه" أو "مينوفريه" وكان يحمل لقب [ضابط مسؤول عن بعض أجزاء التسريحة الملكية]، كما نُعت بـ[المحب لسيده] و[المتعلق بمولاه]. ويُذكرنا ذلك بلقب [في عداد أصحاب (الملك)] الذي كان يحمله الضباط البطالمة، مما يبرهن على قِدم هذا النوع من الروابط. وفضلاً عن ذلك كان المتوفي ينتمي إلى السلك الكهنوتي بصفته كاهناً ملكياً يُسبق اسمه دائماً برموز الكهنوت.

وقد حالفني الحظ في العثور بين النقوش على الاسم الكامل للفرعون الذي عاش "مينوفريه" في بلاطه. بيد أن اسم ذلك الأمير"اوسيه"، "اوسو"، "اسيسوه" يرجع إلى إحدى الأسر التي لم ير مختصرو "مانيتون" ضرورة لاعطائنا أسماؤهم المتتالية بحيث يظل عصر تشييد الأثر واسم مؤسسه غير مؤكد بالضرورة بالرغم من حصولنا على البيانات اللازمة لتحديد ذلك. أما الخرطوش الثاني الذي لم يلتفت إليه النقيب "فيليكس" أثناء تنقيبه في "سقارة" فهو حديث للغاية.

ثم نزلنا داخل مقبرة "مينوفريه" عبر حائط متهدم (ف). أما الحجرة الأولى (ا) فهي متوسطه الأبعاد وغير مسقوفة، وقد نُهبت ودُمرت أغلب التماثيل التي كانت تُزينها. لازال الجدار (ا) فقط

يحتفظ ببعض النقوش التي تصور رجالاً ونساء يسيرون باتجاه باب الحجرة (د) حاملين القرابين، أو على الأصح منتجات الأراضي الزراعية التي يمتلكها سيدهم "مينوفريه". كما يقود العديد من الخدم أبقار جميلة بيضاء وحمراء وسوداء. وقد خُطت على الفخذ الأيسر لاثنين من تلك الحيوانات علامات سوداء كبيرة ومربعة بأحرف [البيت الملكي] ورقمي ٤٣ و٩٦. ويدلنا ذلك على عادة ترقيم رؤوس الماشية المملوكة للعائلات المصرية الرفيعة. ويمكننا التخمين بأن هذين الرقمين ٤٣ و٩٦ يشيران إلى مجموع أعداد الحيوانات من كلا اللونين.

كما خُطت على ظهورها كلمة "بقرة"، ولكل منها زمام تُساق منه، وقلادة تنتهي بحلية على شكل زهرة اللوتس. ونرى على نفس هذا الجدار وجوهاً لاثنتي عشر امرأة تسرن حاملات فوق رؤوسهن سلالاً وآنية كبيرة تمتلىء بأقراط الموز والبلح والتين وغير ذلك من الفاكهة والأطعمة. وترتدي تلك النساء ذوات القوام الرشيق نفس الملابس، ويمسكن في اليد اليسرى بأغصان اللوتس وأوز ممسوك من أجنحته وعجول محمولة على الذراعين أو مشدودة بزمام وزهور، وتسندن السلة باليد اليمنى. كما نرى امرأة أخرى تقود غزالة صغيرة وقد قيدت رجلها اليسرى الأمامية.

ونجد تنوعاً كبيراً في نقوش جدران الحجرة (د) والتي لا يزال سقفها المشيد من الأحجار الكبيرة في حالة جيدة من الحفظ، ويُعتبر الجدار (ب) المقسم إلى ثلاثة صفوف أفقية بمثابة متحف صغير للتاريخ الطبيعي. ولن أسهب في وصف بعض الأبقار المنقوشة ببراعة والتي يقودها شاب يحمل بين يديه غذاءها من التبن، وكذلك كلمة [البقرة الجميلة] المدونة فوق ظهر إحدى تلك الأضحية، بل سأتوقف أولاً أمام مجموعة من فصائل الماعز والغزلان المنحوتة بإتقان إلى جانب اسم كل نوع منها بالأحرف الهيروغليفية.

أما عن أولى تلك الفصائل فهي كبيرة الحجم لها ذيل طويل ومتدل، وتشبه إلى حد ما الحمير ولها قرون طويلة وملفوفة إلى الخلف.

وللنوع الثاني ذيل قصير جداً وقرون طويلة جداً أكثر التواء من النوع السابق. كما تتميز بنوع من الزائدة الفطرية أو اللحم الذي ينبت أعلى الأنف ويتدلى تحت العنق.

ويبدو النوع الثالث بقرنيه المعوجين أقل حجماً من النوعين السابقين.

وللنوع الرابع قرون غليظة وملتوية.

أما النوع الخامس المعروف فله قرون مقوسة ومدببة الأطراف وذيل قصير جداً.

كما تنتهي هذة المجموعة من ذوات الأربع الصحراوية بمنظر لرجل يمسك في كل يد بأرنب بري من أذنيه الطويلتين الشائعتين في النقوش. ومن دواعي الأسف أن النحات قد أغفل ذكر اسم ذلك النوع من الحيوانات. كما تشغل مجموعة أخرى لا تقل أهمية الصف الثاني للجدار حيث نرى سرباً من الطير تترأسه الطيور المائية طويلة الساق من نوع "مالك الحزين" و"اللقلق" و"الكركي"، تتبعها أنواع مختلفة من الأوز ونوع من طيور "البطريق" و"ترغلة" قد خُط سمها بوضوح. وقد كنت أعتقد حتى الآن أن ذلك الاسم لا يُطلق إلا على نوع من طيور "السنونو". وعقب عودتي إلى "باريس" سيصبح من اليسير تحديد فصائل تلك الطيور التي تحمل أسماءها مدونة بالهيروغليفية.

أما الجدار (ج) فمغطي كله بنقش بارز طويل يُصور رجالاً يقومون بذبح الأبقار وتقصيبها، كما نرى إلى أعلى عدداً من حاملي القرابين. وقد دفعني التنوع في الأشكال والحركات إلى نسخ ذلك النقش بدقة. كما غُطي جزء من الجدار(هـ) برسوم نصف منحوتة تُصور رجالاً آخرين منهمكين في حلب الأبقار كما تُشير إلى ذلك مجموعة الأحرف الهيروغليفية حيث يمكننا التعرف على كلمة [لبن] متبوعة بما يحددها في حين يرمز الخط الذي يعلو الإناء إلى عملية تساقط قطرات اللبن في فتحته. كما رُسم على الجزء الأعلى من نفس الجدار رجال منهمكون في إعداد الطعام، إذ نرى أحد هؤلاء الطهاه يُخرج من داخل إناء عميق أنواع من الكريات ويضعها فوق النار، بينما انكب طاه آخر على رص ذلك الطعام فوق الجمر وإلهاب النار والنفخ فيها بواسطة مروحة كبيرة يقبض عليها بيده اليسرى.

وأخيراً تحتوي الحجرة (د) على مصطبة مزينة بلوح على هيئة أبواب متتالية ومتداخلة بعضها في بعض تحمل كل ألقاب المتوفي "مينوفريه". وقد عثرت على جانبي ذلك اللوح على التدوينين اللذين يشيران إلى الاسم الملكي آنف الذكر.

* * *

من شامبليون إلى شامبليون فيجاك

مخيم سقارة في ٥ أكتوبر ١٨٢٨

صديقي الحميم ،،

كتبت إليك من القاهرة لأخبرك باعتزامي المبيت ليلة الثلاثين من سبتمبر على متن المعاش مع كل أتباعي بغية الإبحار في باكورة اليوم التالي صوب موقع مدينة "منف" العريقة. وبالفعل قضينا ليلة الأول من أكتوبر أمام قرية "مسره" الواقعة على الضفة الشرقية للنيل. وفي الساعة السادسة من صباح اليوم التالي اجتزنا السهل لبلوغ المحاجر الكبيرة التي كنت أود زيارتها. ولا مراء في أن مدينة "منف" الواقعة على الضفة المقابلة، وبالتحديد في مواجهة تلك المحاجر، لابد أن تكون قد شُيدت من أحجارها الضخمة. كان ذلك اليوم عصيباً وشاقاً للغاية، إلا أن ذلك لم يمنعني من زيارة كافة الكهوف المنتشرة على منحدر جبل "طره" واحداً تلو الآخر. كما تأكدت من أن تلك المحاجر الجيرية البيضاء الجميلة قد جرى استغلالها خلال كل العصور التاريخية. كذلك عثرت على : (١) تدوين ديموطيقي يرجع إلى شهر "بابه" من العام الرابع لحكم الامبراطور "أغسطس". (٢) تدوين آخر يرجع إلى نفس الشهر من العام السابع لحكم أحد البطالمة الذي لابد أن يكون "سوتير الأول". (٣) تدوين ديموطيقي ثالث يرجع إلى العام الثاني من حكم "هكر"، أحد الملوك الذين ثاروا ضد الفرس. وأخيراً افتُتح اثنان من أكبر تلك المحاجر في العام الثاني والعشرين من حكم الملك "أحمس" مؤسس الأسرة الثامنة

عشرة، ويتضح لنا هذا من نقوش ونصوص لوحين جميلين منحوتين مباشرة في الصخر على جانب المدخلين. وعلى الرغم مما لحق بهذين اللوحين من تشويه إلا أنني تحققت من أن أحجار ذلك المحجر قد استُخدمت في بناء معابد كل من "بتاح" و"أبيس" و"آمون" في "منف" مما يدلنا على تاريخ تشييد تلك المعابد المعروفة لنا جيداً منذ أقدم العصور. كما عثرت داخل محجر آخر يرجع إلى العصر الفرعوني على لوحين منحوتين من كتلة حجر واحدة بإتقان وبراعة متناهيين. ويحمل إفريز أحد اللوحين اللذين تُركا قبل أن يشرع في تنفيذهما اسم "بسماتيك الأول". وهكذا فقد استمر استغلال محاجر جبال الصحراء الشرقية فيما بين "طره" و"مسره" خلال العصور الفرعونية والفارسية والبطلمية والرومانية وكذا في العصر الحديث. ويعود ذلك إلى وقوعها على مقربة من عواصم مصر المتتالية "منف" ثم الفسطاط ثم القاهرة. وفي المساء استقلينا المركبين عائدين مثل اليونانيين بعد إغارتهم على مدينة "طروادة"، ولكن كنا أسعد حالاً منهم بفضل ما جمعناه من غنائم. ثم أبحرنا صوب قرية "البدرشين" القريبة الواقعة على الضفة الغربية للنيل. وتوجهنا مبكرين في صباح اليوم التالي إلى غابة النخيل الواسعة التي تغطي موقع مدينة "منف". وبعد مسيرة استغرقت ربع ساعة اجتزنا قرية "البدرشين"، ووطأت أقدامنا التراب العتيق لمدينة كبيرة حيث كانت كتل الجرانيت متناثرة في السهل لازال بعضها يبرز من خلال الرمال التي لن تلبث أن تغمرها إلى الأبد. وبين قريتي "البدرشين" و"ميت رهينه" يوجد تلان كبيران متوازيان يبدوان كأنقاض حرم هائل مشيد من الطوب اللبن مثل حرم "صا الحجر"، كان يضم قديماً العمائر المقدسة الرئيسية في "منف". وقد رأينا داخل هذا الحرم التمثال العملاق الذي قام السيد "كافيجليا" بالتنقيب عنه. وكم كنت أتلهف لتفحص هذا الأثر الذي كثيراً ما حدثوني عنه! وقد تملكني السرور والدهشة للعثور على تلك القطعة الرائعة لفن النحت المصري. ولا يقل طول التمثال الضخم الذي فقد جزءاً من الساقين عن خمسة وثلاثين قدم ونصف. وهو يرقد على بطنه مما ساعد على حفظ الوجه في حالة جيدة جداً. وتكفيني سحنة ذلك التمثال لكي أعزوه إلى الملك "سنوسرت"، إذ يُعتبر صورة كبيرة طبق الأصل لتمثال "سنوسرت" الرائع المعروض في متحف "تورينو" بايطاليا.

كما تأتي النصوص المدونة على الذراعين والصدرية والحزام لتؤكد هذا الاعتقاد. فلا مراء إذن من وجود تمثالين لأعظم الفراعنة: واحد في متحف "تورينو" والآخر في "منف". وقد قمت برسم تلك الرأس بعناية فائقة (انظر لوحة ٣) ورفع كافة النقوش والنصوص. وبالطبع لم يُنصب هذا التمثال العملاق بمفرده في ذلك المكان. وإذا نجحت في الحصول على اعتمادات مالية خاصة لإجراء حفائر واسعة في "منف" فأنا أتعهد بملء متحف "اللوفر" بتماثيل على قدر عظيم من الروعة والأهمية في أقل من ثلاثة أشهر. عليك إذن بتزكية هذا المطلب وإثارة الجميع حتى يتحرك أولو الأمر. ومن المرجح أن يكون هذا التمثال الضخم قد نُصب أمام بوابة كبيرة إلى جوار تماثيل أخرى مماثلة. وقد شرعت في إجراء بعض الحفائر للتأكد من ذلك بيد أن الوقت سيعوزني. كما نجد أبعد من ذلك بقليل، وعلى نفس المحور، تمثالين صغيرين آخرين من الجرانيت الوردي لنفس الملك ولكن في حالة سيئة جداً من الحفظ ويُشير ذلك بالطبع إلى وجود باب آخر في هذا المكان.

وإلى الشمال من التمثال العملاق كان هناك معبد للإلهة "حتحور" مشيد من الحجر الجيري الأبيض خارج نطاق الحرم الكبير ناحية الشرق. وقد استأنفت الحفائر التي كان "كافيجليا" قد بدأها، مما أسفر عن التعرف في نفس تلك النقطة على وجود معبد مزين بأعمدة مستطيلة ومترابطة من الجرانيت الوردي. وقد قام "رمسيس الأكبر" بتكريس ذلك المعبد إلى "بتاح" و"حتحور"، آلهة منف العظيمة. كما يضم الحرم الرئيسي من ناحية الشرق جبانة شاسعة مشابهة لتلك الموجودة في "صا الحجر".

وفي الرابع من أكتوبر نصبت خيمتين لأعضاء البعثة وخيمة ثالثة للخدم في "سقارة"، كما كلفت نحو ثمانية من البدو بحراستنا ليلاً وتسوق مشترياتنا نهاراً، وهم قوم طيبون وخدومون عندما نحسن معاملتهم كرجال.

ثم قمت بزيارة جبانة "منف" العريقة والمعروفة بـ"سهل المومياوات" حيث تتناثر الأهرامات والمقابر المنهوبة. وقد تسبب جشع وشراهة تجار العاديات في القضاء تماماً على أهمية تلك المنطقة للدراسة، إذ دُمرت أغلب المقابر المزدانة بالنقوش ورُدمت بعد سرقة محتوياتها. ما أبشع تلك الصحراء التي تتكون من سلسلة من

الكثبان الرملية الصغيرة الناتجة عن الحفائر والاضطرابات، حيث تتناثر عظام الرفات والجماجم وبقايا الأجيال السحيقة ! ولم يسترع انتباهي سوى مقبرتان فقط كانتا بمثابة مكافأة لي على حلولي وسط هذا الخراب والدمار. إذ عثرت في إحداهما على مجموعة من الطيور المنحوتة بروعة على الجدران مصحوبة بأسمائها مكتوبة بالخط الهيروغليفي، وكذلك خمسة أنواع من الغزلان بأسمائها، وأخيراً بعض المناظر المنزلية مثل عملية حلب اللبن وطاهيين يقومان باعداد الطعام.

* * *

نبذة عن الرحلة

٦ أكتوبر ١٨٢٨

ذهبت في باكورة هذا الصباح إلى "سهل المومياوات" لتوزيع العمل داخل مقبرة "مينوفريه" على الرسامين. ثم توجهت بعد ذلك لزيارة مقبرة على جانب كبير من الأهمية تقع إلى شمال الهرم المدرج، قبل أن تُحيلها الهمجية المعاصرة إلى أثر بعد عين. وقد نُقب هذا الأثر لحساب محمد بك الدفتردار صهر الباشا، وكان رجلاً معروفاً في القطر المصري بجشعه وشراسته. وترجع تلك المقبرة إلى شخص يُدعى "راعزاس"، ولا تحوي نقوشاً إلا على العتب والأعمدة التي تسند الحجرة الرئيسية. وتغطي النقوش التي تصور المناظر الريفية والعادات المدنية كل جدران تلك الحجرة، بيد أنه يستحيل علينا اليوم تمييز أجزاء كاملة من تلك الموضوعات المتنوعة تمييزاً واضحاً. كما تزدان حجرة ثانية من نفس المقبرة بنقوش ملونة تصور أشخاصاً يحملون القرابين ولوحات أخرى. وقد سبق أن رأيت أغلب تلك النقوش البارزة الهامة تزين بهو بيت يُنفق محمد بك أموالاً طائلة لتشييده بين "بولاق" وحي مصر القديمة.

وعند رجوعي إلى المخيم تلقيت زيارة الشيخ محمد الذي كان مندوباً للباشا في "سقارة" ومكلفاً بجباية الضرائب واستثمار المنطقة لحساب سموه. فدعوته لتناول العشاء معنا وقبل عن طيب خاطر.

* * *

٧ أكتوبر ١٨٢٨

قضيت كل صبيحة هذا اليوم في خيمتي للكتابة إلى اوروبا. وفي الساعة الثالثة من بعد الظهر أوفد إلينا "منصور"، الذي كنا قد وعدناه "ببقشيش" كبير في مقابل إرشادنا إلى بئر سليمة لم تطلها أيدي العابثين، رسولاً ليخبرنا بأنه تم الاستدلال على البئر، وأنه لا ينتظر سوى قدومنا لفتحها، فامتطينا الحمير وتوجهنا مسرعين صوب الصحراء. ولكن ما إن وصلنا ذلك البئر حتى أدركت بنظرة خاطفة أننا على أرض منعزلة سبق تنقيبها منذ عهد بعيد. ولما تيقنت من رغبة ذلك الرجل في الاستهزاء بنا، هزئت أنا به بدوري وعنفته وطردته عاتباً عليه معاملتنا كأطفال سذج. ثم توجهت بعدها إلى مقبرة كبيرة كان السيد "جيمال" قد قام باكتشافها وتنقيبها. ويتكون ذلك الأثر الرائع من عدة حجرات متصلة بحفر كبيرة تحوي الكثير من الآبار، كما اقتصرت زخارفه على نصوص تمثل فصولاً كاملة من كتاب الطقوس الجنائزية، مما يقلل من أهمية دراسته. كانت قبة الحجرة الكبيرة هي وحدها التي تثير بعض الاهتمام إذ كانت مغطاة قديماً بنقوش بارزة تصور ساعات النهار الإثنتي عشر وساعات الليل الإثنتي عشر على هيئة نساء تعلو رأس كل منهن نجمة. وتشغل ساعات النهار الجانب الأيسر من القبة، بينما تشغل ساعات الليل الجانب الأيمن منها، وتُحدد النجمة تقسيم الوقت. وقد أطلق المصريون القدماء اسماً خاصاً على كل ساعة من الساعات. إلا أن مقبرة "جيمال" لم تحتفظ لنا إلا ببعض تلك الأسماء التي قمت بجمعها على أمل تكملة ذلك الجدول فيما بعد بالاستعانة بنقوش مقابر "طيبه".

أما عن النقوش البارزة التي تُصور المتوفي يتعبد ساعات الليل والنهار فقد لحقها الدمار والنهب منذ سنوات قليلة. وقمت برسم إحدى قائمتي القرابين الكبيرة اللتين تغطيان جدارين كاملين من جدران الحجرة الثانية. ويزدان الجزء العلوي من تلك القائمة بمناظر صغيرة تصور الإله "أوزيريس" جالساً يتقبل صلوات المتوفي وتضرعاته تحت مختلف الألقاب التي تُتلى في الأدعية. كما قمت برسم نقش بارز خال من النصوص يقع إلى يسار الباب الرئيسي،

ويصور البقرة "حتحور" متربعة تحمل طفلاً صغيراً جالساً فوق قرنيها.

وعند حلول الليل عدت أدراجي إلى المخيم حيث وجدت الشيخ محمد الذي شرفنا بتناول العشاء معنا مثل البارحة.

* * *

٨ أكتوبر ١٨٢٨

طوينا الخيام صباح هذا اليوم، وجئنا بنحو ثمانية جمال من "سقارة" لحمل الأمتعة، وعشرين حماراً لنقل أعضاء البعثة والخدم. وفي الساعة السابعة صباحاً ولينا وجهتنا شطر أهرامات الجيزة الكبيرة التي كنا نود رؤيتها قبل رحيلنا إلى مصر العليا. ثم ارتقينا هضبة أهرام "سقارة"، واخترقنا "سهل المومياوات" تاركين الهرم المدرج ومقبرة "مينوفريه" إلى اليسار. ثم نزلنا الهضبة على مقربة من قرية "أبو صير" المعروفة عند اليونان قديماً باسم "بوسيريس" حيث يقطن رجال دأبوا على تسلق الأهرامات. وبالقرب من تلك القرية التي تركناها على اليمين وعلى مرتفعات الهضبة الغربية تُوجد أهرامات ضخمة مهدمة. فإذا نظرنا إليها من خلال زاوية معينة تراءت لنا كثلاثة جبال صخرية سامقة ومتقاربة تُحلق سباع الطير بشتى أنواعها بدون انقطاع حول قممها الشاهقة. وكان الهرم المتاخم للسهل المنزرع لايزال يحتفظ بممر مرتفع تكسوه الأحجار الجيرية الكبيرة ويمتد على مسافة طويلة. وقد سرنا ببطء خلال ثلاث ساعات، وسلكنا الكثير من المنحنيات والتعاريج لتفادي مياه الفيضان التي كانت تتقدم تدريجياً باتجاه الصحراء الليبية.

كانت الأرض مغطاه ببعض النباتات الكثيفة الأوراق، وبأعشاب تعج بجحافل من الضفادع الصغيرة. وبعد أن اجتزنا قرية مهجورة يُرجح أن تكون قرية "الحرانية" المدونة على خريطة علماء الحملة الفرنسية، وصلنا في قمة التعب والإرهاق نحن وحميرنا إلى ظل بعض أشجار الجميز الواقعة على مقربة من أبي الهول. ثم استعدنا أنفاسنا بعد استراحة قصيرة، وعدوت بعد ذلك إلى التمثال الذي

لايزال يعطي صورة مشرقة لفن النحت، بالرغم مما اعتراه من التلف والتدمير الذي أدى إلى تشويه الرقبة تشويهاً تاماً. إلا أن "دينون" كان صائباً فيما لاحظه من رخاوة في الشفة السفلية للتمثال. وكنت أود إزالة الرمال التي تغطي لوحة "تحتمس الرابع" المنحوتة على صدره لولا أن العربان الذين هرعوا إلينا من المرتفعات المحيطة بالأهرامات أكدوا لي أن تنفيذ ذلك المشروع يستلزم عمل أربعين رجل لمدة ثمانية أيام. مما اضطرني للعدول عن تلك الفكرة والتوجه إلى الهرم الأكبر.

من دواعي الدهشة حقاً أن الأثر الذي يتركه ذلك البناء الهائل في النفس يتناقص كلما دنونا منه. وقد شعرت بشيء من الضآلة وأنا أتطلع من على بعد خمسين قدم إلى ذلك البناء الذي لا نستشعر ضخامته إلا بعد حساب أبعاده، والذي يأخذ في التصاغر كلما اقتربنا منه حتى تبدو أحجاره وكأنها من الدبش الصغير جداً. عندئذ يتحتم علينا ملامسته كي ندرك أخيراً مدى جسامة وضخامة المواد التي يتكون منها. إلا أن الهلوسة سرعان ما تسيطر على الناظر من جديد، فيبدو الهرم الأكبر من على بعد عشرة أقدام فقط كبناء عادي مبتذل لدرجة تجعلنا نأسف حقاً على اقترابنا منه. كما أن منظر أحجاره الجديدة تعطي انطباعاً برؤية بناء لايزال تحت التشطيب، وليس واحداً من أقدم الآثار التي شيدتها يد الإنسان.

ثم دلفنا إلى مدخل السرداب المفضي إلى داخل الهرم. عندئذ قدم لنا بدو الصحراء وجبة غداء بسيطة تتكون من التمر والماء والخبز الأبيض الخفيف. إلا أنه بمجرد وصول قافلتنا سرعان ما تحولت تلك الوجبة المتواضعة إلى وليمة فاخرة، إذ أضفنا بعضاً من اللحم الضأن المشوي والعرق الذي يتحول بإضافته إلى الماء إلى مشروب منعش ومغذ كنا جميعاً في أمس الحاجة اليه. وبمجرد الانتهاء من الطعام قادني أحد العرب إلى مقبرة ذات نقوش ملونة تقع في محاذاة الواجهة الغربية للهرم الثاني وإلى جنوب الهرم الأول. وقد عثرت بداخلها بالفعل على نقوش فريدة جداً عزمت على نسخها كلها كي تكون أساساً لمصنف عن العادات والآداب. وفي مساء نفس هذا اليوم شرعنا في نسخها بإتقان شديد.

وأقمنا معسكرنا على السفح الشرقي لهضبة الأهرامات في الناحية المطلة على مدينة القاهرة. إلا أننا لم ننصب سوى خيمة

واحدة لي، بينما فضل معظم رفاقي الشبان فرش سرائرهم داخل مجموعة من المقابر العتيقة المنحوتة في منحدر الجبل أو في مقبرة كان السيد "كافيجليا" قد حولها إلى مسكن.

* * *

٩ و١٠ أكتوبر ١٨٢٨

عقب الإستماع إلى ملاحظات شامبليون حول تمثال أبي الهول، قام "نستور لوت" بما عُرف عنه من نشاط وحيوية بكتابة المذكرة التالية، والتي لم يُعثر عليها كاملة للأسف الشديد :

" ... قبراً خاصاً له أو كمقصورة مجاورة لتلك المقبرة ومتصلة بها حيث يقصدها الناس في بعض المناسبات لتلاوة الصلوات ترحماً على ذكرى المتوفي. ومن الجائز أن يكون قد أقيم فيها هيكل ثابت، أو نوع من الحجرات الجنائزية التي عفا عليها الزمان فيما بعد.

"وإذا صعدنا فوق رأس أبي الهول لرأينا ثقباً يبلغ قطره نحو قدم، يُرجح أن يكون القصد منه تثبيت ساق تحمل تاجاً رمزياً... مماثلاً للتاج الذي يزين رأس "أوزيريس"، إله "الأمنتي" أو جحيم الآخرة عند قدماء المصريين. كما نجد ثقباً آخراً أكبر قطراً على ظهر التمثال كان يُستخدم -على حد قول العديد من المعنيين بدراسة الآثار المصرية- كمخبأ للكهنة الذين يزعمون استطلاع الغيب والإتيان بالمعجزات. بيد أننا نعتقد أن هذا الثقب -في حالة رجوعه إلى نفس زمن نحت التمثال- كان يُستخدم في تثبيت أجنحة مشابهة لتلك التي تزين تمثال أبي الهول المعروض في متحف "تورينو"، والذي تعرض له السيد شامبليون الصغير بالذكر في رسالته إلى السيد "دي بلاكاس". إلا أن تلك المقولة لا تعدو أن تكون مجرد احتمال يفتقر إلى اليقين الراسخ الذي نستند اليه في تفسير ثقب الرأس.

"وقد احتفظ وجه أبي الهول في الأجزاء الملاصقة للأذنين باللون الأحمر الداكن الذي كان قدماء المصريون يستخدمونه في تلوين بشرة الرجال من بني وطنهم. وقد ثار بيننا جدل بشأن الطابع الزنجي الذي يغلب على قسمات ذلك الوجه. إذ يتميز بالفعل بطابع

إفريقي ولكنه يختلف كثيراً عن سمات الزنوج إذا أخذنا بعين الإعتبار جدع الأنف وتشويهه مما يُسهم في اعطائه تلك الهيئة.

"ثم ذهبنا مرة ثانية لزيارة تمثال أبي الهول الذي يمثل كائناً أسطورياً له جسم أسد ورأس إنسان. وكان مدفوناً حتى كتفيه في الرمال التي نتابع من خلالها شكل الظهر والعجز، أما الرقبة وجزء من أعلى الصدر فقد كانا ظاهرين للعيان من أثر الحفائر التي أجراها رجل انجليزي منذ بضعة أعوام، ويُقال أنه عثر أسفل التمثال على واجهة ومدخل معبد صغير أو مقصورة على شكل تجويف منحوت من كتلة حجرية واحدة. وإن صح هذا الأمر الذي أسوقه في هذا الصدد تحت مسؤولية الآخرين فهاك إذن الشكل العام الذي ينبغي أن يكون عليه الأثر، والذي يتطابق بالفعل مع الشكل الذي كان القدامى يعطونه لمثل ذلك النوع من الآثار التي نراها ممثلة بين النقوش البارزة في "طيبه" وفي المجموعات الأثرية الأخرى. ويرمز أبو الهول إلى اقتران الحكمة بالقوة وهي كما نعلم الصفات الجوهرية الخاصة بالآلهة، والتي كان الفراعنة ينتحلونها بصفتهم التجسيد الحي للمعبودات على الأرض. لذا فقد اتخذ وجه التمثال ملامح الإله، أي ملامح الملك المؤله الذي أمر بنحته، لذلك فلابد أن يكون هذا التمثال قد كُرس لأحد ملوك "منف"..."

إن "الإنجليزي" الذي ذكره "نستور لوت" هو على الأرجح الإيطالي "كافيجليا" (راجع مجلد ١، ص٣٩٣) الذي كان قد ذهب لملاقاة شامبليون في الإسكندرية بهدف مرافقته طوال رحلته. إلا أنه مالبث أن شعر بسخرية أعضاء البعثة من هيئته الغامضة مما حدا به إلى الإسراع في ترك القافلة للاعتصام من جديد داخل بيته الصغير المنعزل الواقع في حي مصر القديمة، علماً بأنه كان متفرغاً في تلك الفترة، ولا يقوم بأية حفائر. وقد اغتنم "المصري" فرصة لقائه خلوة بـ"كافيجليا" على مقربة من أبي الهول ليلومه على قيامه ببيع أحد الأسود الأربعة التي عثر عليها [مصفوفة بانسجام إلى جانب قدمي التمثال المهيب] للإنجليز. وكان "كافيجليا" قد أحرز هذا الكشف عام ١٨١٧ عند قيامه بإزاحة كميات هائلة من الرمال التي كانت تغطي التمثال.

* * *

من شامبليون إلى شامبليون فيجاك

سفح أهرامات الجيزة في ٨ أكتوبر ١٨٢٨

نزلت أنا ورفاقي في ظلال الأهرامات الشامخة بعد أن غادرنا "سقارة" بالأمس لزيارة إحدى عجائب الدنيا السبع. وقد استعنت بسبعة جمال وعشرين حماراً لنقلنا وأمتعتنا عبر الصحراء التي تفصل بين الأهرامات الجنوبية وأهرامات الجيزة التي تفوقها شهرة، والتي كنت حريصاً على رؤيتها قبل الرحيل إلى مصر العليا. ويتعين علينا دراسة هذة الأهرامات العظيمة عن كثب لكي نقدرها حق قدرها. وكلما اقتربنا منها كلما أخذ حجمها في التناقص، ووجب علينا ملامسة الكتل الحجرية المشيدة منها للوقوف على مدى ضخامتها. لا أجد أمامي الكثير لأفعله في هذا المكان، لذلك فبمجرد الانتهاء من نسخ بعض المناظر التي تصور الحياة المنزلية والتي عثرنا عليها داخل مقبرة مجاورة للهرم الثاني سنستقل المركبين مقلعين صوب مصر العليا التي ستكون بمثابة مقراً عاماً لي.

أما عن الأب "بيبان" الذي لم أجن من ورائه سوى إشاعة الفوضى بيننا، فقد هجر البعثة ليعود إلى اوروبا. فليذهب في رعاية الله!

إنني في تمام الصحة والعافية ولكني مرهق بعض الشيء من عمل البارحة. كما أتمنى أن تكونوا جميعاً بخير بالرغم من أنني لم أتلق حتى الآن أية رسائل من اوروبا للاطمئنان عليكم.

وداعاً يا صديقي العزيز.

* * *

نبذة عن الرحلة

٢٠ أكتوبر ١٨٢٨

استيقظت في صباح اليوم لأجد مركب المعاش راسياً أمام قرية "منية أبي قاسم" التي بلغناها في منتصف ليلة أمس. ولما كنت أرغب في التزود ببعض المؤن توجهت للحاق ببعض رفاقي الذين راحوا يطوفون بالأسواق. لم تكن تلك القرية تتميز عن غيرها من القرى في أي شيء... وقد اصطحبنا "حسن أغا" أحد الجنديين الملازمين لنا والذي كان يعرف تلك الناحية جيداً لزيارة مصنع كبير لغزل القطن كان الباشا قد أقامه في مبنى يتكون من قاعات واسعة مشيدة على طراز "لويس الخامس عشر". وكان هذا المصنع مجهزاً بالآلات الأوروبية التي تدفعها الأبقار ويديرها الرجال والأطفال والنساء والفتيات. وقد عرضوا علينا عينات من القطن المغزول بعناية وجودة.

وعقب عودة الجميع إلى المركب وشراء كل المؤن الغذائية، أمرت بالإقلاع في الساعة الحادية عشرة والنصف صوب قرية "سواده" حيث أشارت موسوعة "وصف مصر" بوجود بعض الآثار. رسونا في منتصف النهار، وبعد أن اتخذنا رجلاً من أهل تلك القرية مرشداً لنا، سرنا عبر الحقول في اتجاه صحراء العرب. وهناك وجدنا نوعاً من التلال الجيرية حيث أشار إلينا المرشد بالولوج من خلال باب صغير يشبه باب قبر منحوت في الصخر. وسرعان مارأينا النور من جديد، وألفينا أنفسنا وسط فناء صغير منحوت في الصخر ومحاط بإفريز دوري ثلاثي الأخاديد، وبتيجان أعمدة لاتزال مثبتة في العوارض بينما تكسرت واختفت كل جذوعها المنحوتة في الصخر مباشرة. وقد استوحى الطراز اليوناني الروماني الجميل في زخرفة تلك المقبرة.

كما نجد أسفل الرواق الجنوبي العديد من الفجوات المربعة الشكل والمنحوتة في الصخر والتي تبدو قد استُغلت كتوابيت. أما الناحية الشرقية التي يقسمها حائط من الطوب اللبن إلى حجرتين فقد تحولت اليوم إلى كنيسة. وقد أحسن راهب تلك الكنيسة

استقبالنا وكانت تحوطه النساء والأطفال الأقباط، إذ تضم بلدة "سواده" جبانة لكل الأقباط الذين يقطنون في ضواحيها. ولقد أهدينا القس ثمانية قروش قبل أن نتوجه مباشرة إلى ضفاف النيل حيث كنت قد أمرت ريس المعاش بالمجيء لأخذنا. وبينما كنا جالسين في ظل نخلة انتظاراً لرسو المركب، لحق بنا الراهب ومعه مساعده ليشكرنا على حسن صنيعنا، ويهدينا بلحاً مجففاً لذيذاً قبلناه بسرور عظيم.

ثم أبحرنا صوب قرية "زاوية الميتين" حيث كنا نعلم بوجود مقابر عتيقة. تناولنا وجبة الغداء أثناء الطريق، وبعد احتساء القهوة غادرنا القرية متجهين جنوباً صوب سفح جبال الصحراء الشرقية. وقد جعلنا المرشد نخترق الجبانة التي لا يزال مسلمو "المنيا" يُدفنون فيها حتى الآن. ومن المرجح أن "زاوية الميتين" قد استُغلت منذ قديم الزمان لدفن جثث سكان المدن العتيقة الواقعة على الضفة اليمنى للنهر مثل "المنيا". أما الضفة اليسرى فهي مهجورة في أغلبها وتصعب زراعتها؛ لذلك تم تخصيصها لدفن الموتى مما يفسر لنا وجود مجموعة من المقابر العتيقة الممتدة على مساحة واسعة فيما بين "سواده" وأسفل قرية "تونا الجبل". وكانت الأرض شديدة الجدب والقحط لدرجة أنه يبدو وكأنها قد أجبرت المصريين القدماء على مخالفة المبدأ العام الذي كانوا ينتهجونه في إقامة مقابرهم على الضفة الغربية للنيل لتطابق فكرتي الآخرة (مثوى الأموات) والغرب (الأمنت).

* * *

٢١ أكتوبر ١٨٢٨

متابعة فحص المقابر ونسخ نقوشها.

* * *

٢٢ أكتوبر ١٨٢٨

لم يعد أمامي من شيء أستخلصه من تلك المقابر العتيقة بعد أن فرغت من تفحص المقبرة التي كنت بصددها. لذلك توجهنا إلى المعاش الذي تركناه راسياً أسفل قرية "كوم الأحمر" التي تستمد اسمها من حطام الفخار الذي لا يعد ولا يحصى والذي يغمر كل منحدر الجبل إلى النيل وحتى موقع المقابر المهجورة. وتحمل تلك الأرض آثاراً لأبنية صغيرة مكعبة من الطوب اللبن كانت جبانة لفقراء القوم. بينما كان سراة القوم ينحتون مقابرهم داخل الصخور الجيرية التي تتوج الجبل.

وأثناء تناول وجبة العشاء أمرت بالإقلاع صوب قرية "بني حسن القديم" التي بلغناها في منتصف الليل بفضل زوبعة أخذت تدفع المركب بسرعة عظيمة ضد التيار.

* * *

٢٣ أكتوبر ١٨٢٨

في الصباح الباكر تسلق بعض رفاقي إلى الكهوف الجبلية التي كانت على مسيرة عشرين دقيقة من المكان الذي رسونا فيه. وصف مقابر "بني حسن القديم" ونقوشها.

* * *

٢٤ أكتوبر ١٨٢٨

وأثناء الإقامة في مقابر "بني حسن القديم"، كان اليوم مقسماً كالآتي : الصعود إلى المقابر عند شروق الشمس بعد تناول وجبة طعام خفيفة. وعند الظهيرة يأتينا البحارة بطعام الغداء. وقد حولنا مقابر "روتيي" و"مينوتيف" و"نيبوتيف" على التوالي إلى غرفة طعام. وكانت المقبرة الأخيرة رائعة على وجه الخصوص. إذ كنا نلمح من

خلال أعمدة رواقها الأنيق السهل البديع وقد كست الخضرة نصفه، بينما غطت مياه الفيضان نصفه الآخر. وقد جمعنا هنا الكثير من المناظر التي لا تُقدر بثمن، والتي تُصور مشاهد من الحياة المدنية والمنزلية والفنون والحرف ومختلف أنواع الحيوانات وأزياء طبقة العسكريين وتدريباتهم. كما قمت بنسخ تلك النقوش في مكانها متدلياً أعلى السلم، أو متخذاً أوضاعاً شاقة للغاية، ولهذا السبب جاءت الخطوط سيئة والتفاصيل غير دقيقة. وبعد أن فرغنا من العمل في مقابر "بني حسن القديم" أبحرنا صوب قرية "بني حسن العمار" لنبلغها في الساعة الحادية عشرة مساء. وقد رسونا وسط شطآن تغطيها أشجار النخيل مما يجعل تلك الناحية تبدو كبحيرة تحفها المزروعات. وتختبيء القرية خلف أغصان النخيل، وقد سُميت "بني حسن العمار" أي الجديدة لحداثة إنشائها، بعد أن التهمت النيران قرية "بني حسن" المعروفة اليوم بـ"بني حسن القديم". وقد أمر ابراهيم باشا بتشييد تلك القرية رغبة منه في اجتثاث أوكار اللصوص وقُطاع الطرق التي كانت منتشرة في هذا المكان. أما اليوم فيعم تلك القرية الأمن والأمان مثل سائر أنحاء القطر المصري.

* * *

٦ نوفمبر ١٨٢٨

أمرت بالرسو أمام تلك القرية لرغبتي في زيارة الآثار النادرة التي تحويها الجبال كما يقال. لذلك توجهنا في الصباح الباكر سيراً على الأقدام نحو الصحراء الشرقية قاصدين الوادي المنفرج الذي كان يلوح أمام أعيننا. وسرعان ما تركنا الأرض الزراعية لنغوص في الصحراء حيث رأينا بعد مسيرة استغرقت عشرين دقيقة إلى يمين الوادي موضعين يذخران بكمية مذهلة من القطط المحنطة. وقد لُفت كل واحدة على حدة أو الكثير منها معاً في حصير منسوج من القصب. ثم عرجنا إلى الطريق مرة أخرى لنصل بعد ذلك بقليل إلى مدخل الضفة اليسرى للوادي. كان هذا المكان رائعاً وخلاباً على الرغم من قحطه وجفافه. وتراءت لنا الصحراء بمرتفعاتها الصخرية الشاهقة،

حيث نُحت على اليمين العديد من المقابر والآبار التي لم تكن مخصصة لاحتواء مومياوات بني البشر، ولكن لحفظ مومياوات القطط وغيرها من ذوات الأربع.

ويضم الجبل الواقع إلى يسار الوادي بعض كهوف عديمة الأهمية. ولا تحمل المغارات الواقعة على اليمين أية نصوص أو نقوش إذا استثنينا باب مقبرة كبيرة للقطط تم زخرفته في عهد "الإسكندر الأكبر" أي فيما بين عامي ٣١٧ و٢٩٧ قبل الميلاد.

كما نجد بالقرب من تلك المقابر وعلى نفس تلك الناحية من الجبل تجويفاً كبيراً مدعوماً بثمان ركائز متهدمة جزئياً ومزدانة بنقوش ملونة ونصوص هيروغليفية كبيرة. وقد شرع "تحتمس الرابع" في تزيين ذلك المعبد المكرس للإلهة "باستت"، ثم جاء خليفته "امنحتب الثالث" ليُتم ذلك العمل. وقد خصصت تلك المقبرة للمعبودة "باستت"، حتى أن الجغرافيين القدماء أطلقوا ذلك الاسم (بوباستيس أو تل بسطة) على الموقع الذي تشغله اليوم إحدى قريتي "بني حسن". وقد قضينا اليوم بطوله في نسخ النقوش البارزة ونصوص ذلك المكان المقدس، وفي نزع أقمطة العديد من مومياوات القطط والكلاب. ولا مراء في أن كل الثقوب والتجاويف المنحوتة في ذلك الجبل لم يكن الهدف من ورائها سوى حفظ مومياوات الحيوان المقدس في "تل بسطة" وهو القط الذي نجده بكثرة. وكانت المساحة الممتدة بين الوادي ومغارة "باستت" تضم ايضاً جبانة لقطط موزعة في صفوف وملفوف أغلبها في الحصر. وقد حُفظت القطط ذات المكانة الرفيعة داخل المقابر العديدة المنحوتة في الجبل وخاصة داخل معبد "الإسكندر" الذي كانت أروقته تعج عن آخرها ببقايا مومياوات ذلك الحيوان. ولم نعد إلى المعاش إلا بعد سدول الليل. وعقب تناول وجبة العشاء أقلعنا صوب "الشيخ عبادة" لنبلغها في غضون الليل.

* * *

من شامبليون إلى شامبليون فيجاك

بني حسن في مساء ٥ نوفمبر ١٨٢٨

صديقي العزيز ،،

ما أصدق الحكمة القائلة : "العبد في التفكير والرب في التدبير" ! إذ كنت أنوي بلوغ "طيبه" في الأول من نوفمبر، وها نحن في الخامس من هذا الشهر وأنا مازلت في "بني حسن". ويرجع السبب في ذلك إلى "جومار" الذي أعطانا فكرة هزيلة جداً عن مقابر تلك القرية، ورسوماً صغيرة غير دقيقة، ووصفاً ملتبساً هيأ لي إمكانية الإتيان عليها في يوم واحد فقط، إلا أنها شغلتني طيلة خمسة عشر يوماً كاملة.

لقد كتبت لك رسالتي الأخيرة من أهرامات الجيزة حيث مكثت ثلاثة أيام ليس بغرض مطالعة تلك الكتل الضخمة التي تفقد تأثيرها في النفوس بمجرد الاقتراب منها، ولكن لمعاينة وتفحص المقابر المنحوتة في الصخر الواقعة حولها. وقد أمدتنا مقبرة من بينها لشخص يُدعى "آيماي" بمجموعة من النقوش البارزة الفريدة المتعلقة بالفنون والحرف في مصر القديمة. ويتعين عليّ أن أولي اهتماماً خاصاً للبحث عن هذا النوع من الآثار التاريخية التي لا تقل أهمية عن لوحات المعارك الكبيرة المنقوشة على جدران معابد "طيبه"، والتي تملأ أحلامي كل ليلة بالرغم من أنني لم أر شيئاً منها حتى الآن. كما عثرت حول الأهرامات على مقابر عديدة لبعض الأمراء ووجهاء القوم لا تحوي إلا على النزر اليسير من النصوص الهامة.

ثم غادرت أهرامات الجيزة في الحادي عشر من أكتوبر لأعود أدراجي عبر الصحراء إلى مخيم "سقارة". ومن هناك بلغنا المركبين الراسيتين في "البدرشين" في مساء نفس اليوم بفضل حميرنا التي لا تكل ولا تتعب، وجمالنا المحملة بكل أمتعتنا في أناة وصبر. ثم أقلعنا صوب مصر العليا، وبعد أن عانينا كثيراً من ركود الرياح

الشمالية، بلغنا "المنيا" في العشرين من أكتوبر. وهناك قمنا بزيارة مصنع لحلج وغزل القطن مجهز بالآلات الأوروبية، وشراء بعض المؤن الضرورية. ثم اتجهنا بعد ذلك إلى قرية "سواده" لرؤية معبد يوناني دوري كان قد وصفه صديقنا "جومار". ثم أقلعنا صوب "زاوية الميتين" لنصلها في مساء ذلك اليوم. وهناك وجدت بعض المقابر المنحوتة في الصخر والمزدانة بنقوش بارزة تتعلق بالحياة المدنية والمنزلية. وبعد أن قمنا بنسخ الهام من تلك المناظر، غادرنا "زاوية الميتين" في مساء الثالث والعشرين لنبلغ "بني حسن" في منتصف الليل بفضل زوبعة دفعتنا دفعاً إلى الأمام.

وفي فجر اليوم التالي ذهب بعض رفاقي لاستطلاع الكهوف المجاورة، وعادوا ليخبروني بأن كل النقوش التي عثروا عليها كانت مطموسة تقريباً. ومع ذلك صعدت عند بزوغ الشمس لرؤية تلك المقابر حيث عثرت في سرور ودهشة على مجموعة مدهشة من الرسوم التي تظهر أدق تفاصيلها في منتهى الوضوح بمجرد تمرير إسفنجة مبللة عليها وإزالة طبقة الغبار الرفيعة التي تغطيها. وشرعنا على الفور في العمل مستعينين بالسلالم المتنقلة والإسفنجة المدهشة ـ وهما أعظم اختراع تفتق عنه ذهن الإنسان على وجه الإطلاق ! عندئذ أخذت تتجلى تدريجياً أمام أعيننا أغرب مجموعة من الرسوم يمكن تخيلها تتعلق كلها بالحياة المدنية والفنون والحرف والأدهى من ذلك بطبقة العسكريين. وقد أمدتني المقبرتان الأولتان بمعلومات غزيرة، بينما لم يدر بخلدي أن المقبرتين الواقعتين إلى أقصى الشمال كانتا تدخران لنا حصاد أكثر ثراء وأهمية، إذ كانتا تتميزان ـ مثل بعض المقابر المجاورة ـ باحتوائهما على رواق أمام بابيهما منحوت في الصخر يتكون من أعمدة تشبه للوهلة الأولى ـ حتى يكاد يلتبس علينا الأمر ـ الأعمدة الدورية اليونانية الموجودة في صقلية وايطاليا. وكانت تلك الأعمدة مخددة متناسقة الأبعاد ذات قاعدة مستديرة الشكل. ولاتزال المقبرتان الأخيرتان ترتكزان من الداخل على أعمدة مماثلة تنتمي إلى الطراز الدوري اليوناني الحقيقي. ومما يزيد من ثقتي وتمسكي بذلك الرأي هو العثور داخل هاتين المقبرتين اللتين تفوقان سائر المقابر الأخرى جمالاً وروعة على تاريخ يرجع إلى عهد "وسركون" ثاني ملوك الأسرة الثالثة والعشرين، ومن ثم إلى القرن التاسع قبل الميلاد. كما تحتوي مقبرة

[المشرف على الأراضي الشرقية] المدعو "نيبوتيف" على أجمل هذين الرواقين الذي لايزال في حالة جيدة جداً، ويتكون من أعمدة دورية بدون قاعدة مثل تلك الموجودة في كافة المعابد اليونانية الدورية الرائعة (انظر لوحة رقم ٤).

كما تزدان مقبرة "نيبوتيف" بنقوش بالغة الدقة والجمال تفوق كل ما رأيته في مصر حتى الآن، حيث رُسمت على جدرانها الحيوانات والطيور والأسماك بدقة وصدق جعلا النسخة الملونة التي قمت بعملها تضاهي ما نجده في كتب التاريخ الطبيعي الجميلة من صور ملونة. لذلك سأحتاج إلى شهادة رفاقي الأربعة عشر الذين رأوا تلك النقوش بأعينهم لإقناع الأوروبيين بأمانة رسوماتنا التي تطابق الأصل بدقة متناهية.

كما عثرت في نفس تلك المقبرة على لوحة في غاية الأهمية تُصور كاتباً ملكياً يقوم باستعراض خمسة عشر أسيراً من الرجال والنساء والأطفال أوقع بهم أحد أبناء "نيبوتيف". ويقدم الكاتب لسيده في ذات الوقت قرطاساً بردياً دون فيه بالتفصيل تاريخ القبض على هؤلاء الأسرى وعددهم سبعة وثلاثين أسيراً. وقد كانوا طوالاً ومعظمهم له سحنة غريبة وأنف أقنى، واستُخدم اللون الأصفر الفاتح في تلوين أجسادهم، لذلك كان لون بشرتهم أفتح بالمقارنة بلون بشرة المصريين. وقد ارتدى الرجال والنساء الثياب الفاخرة المزركشة (خاصة ثياب النساء وتسريحاتهن ونعالهن) والتي تشبه ملابس نساء الإغريق المصورة على الآنية الإغريقية القديمة. كما زين فستان واحدة منهن بحلية مجدولة ومرسومة رأسياً ومطلية باللون الأحمر والأزرق والأسود. وستعمل تلك التفاصيل على إثارة فضول الأثريين في فرنسا والاستحواذ على اهتمامهم وخاصة صديقنا "ديبوا" الذي وددت لو كان بجانبي في هذا المكان الذي يذخر بالأدلة الدامغة على تقدم الفنون في مصر القديمة. أما الأسرى من الرجال ذوي اللحي المدببة فكانوا يتسلحون بالأقواس والرماح، كما أمسك أحدهم في يده بقيثارة إغريقية على الطراز القديم. وأنا على يقين من أن هؤلاء القوم إغريقيون آيونيون أو من بلاد آسيا الصغرى المجاورة للمستعمرات الأيونية والتي تشاركها عاداتها وتقاليدها. هؤلاء حقاً إغريقيون من القرن التاسع قبل الميلاد رسمتهم بأمانة أيدي المصريين. وقد توخيت الدقة

والصرامة في نسخ تلك اللوحة الكبيرة نسخاً مطابقاً للأصل.

لقد كانت الخمسة عشر يوماً التي قضيتها في "بني حسن" مثمرة للغاية على الرغم من رتابتها. فعند بزوغ شمس كل صباح كنا نصعد إلى المقابر لمباشرة نسخ النصوص والنقوش وتلوينها، ثم نخصص ساعة على الأكثر لتناول وجبة خفيفة مفترشين أرض القاعة الكبيرة للمقبرة، حيث كانت تتراءى لنا من خلال أعمدتها الدورية السهول والوديان التي تسحر الألباب. ويستمر العمل على هذا المنوال حتى تغيب الشمس في الأفق منذرة بحلول وقت الراحة. عندئذ نعود إلى المركب لتناول وجبة العشاء والخلود للنوم لإعادة الكرة من جديد في اليوم التالي.

وقد أسفرت حياة المقابر تلك عن إنجاز ما ينيف عن ثلاثمائة رسم في منتهى الدقة والإتقان. وإنني أجرأ بالقول بأن ما أحرزته من نتائج هنا يكفي وحده لجعل رحلتي إلى مصر أكثر نفعاً وفائدة من كل ما دونه علماء الحملة الفرنسية، باستثناء ما يتعلق بفن العمارة الذي لا أتطرق اليه إلا في الأماكن المجهولة التي لم يقم أحد بزيارتها من قبل. وإنني أسوق فيما يلي بياناً بما جمعته من معطيات سأقسمها إلى عناصر مرتبة ترتيباً أبجدياً حتى تصبح تلك الرسوم في متناول يدي ليسهل علي مقارنتها أولاً بأول بما سأراه بعد ذلك من نقوش.

(١) الزراعة : وتتألف من مجموعة من الرسوم تصور حرث الأرض باستخدام الأبقار أو بأيدي الفلاحين، وبذر الحبوب وسير الأغنام -وليس الخنازير كما يزعم "هيرودوت"- على الأرض لغرس الحبوب فيها، ونحو ستة عشر نوعاً من المحاريث، وتقليب الأرض بالفؤوس، وحصد القمح والكتان، وربط نوعين من النباتات على هيئة حزم وطحنها، وفصل الحب عن السنابل وكيلها وإيداعها في الصوامع. ورسمين لمخزنين كبيرين للغلال، ونقل الكتان فوق ظهور الحمير، والعديد من الأعمال الزراعية الأخرى من بينها جني أزهار اللوتس وزراعة الكروم وقطف العنب ونقله وفرط عناقيده، ومعصار يدوي وآخر آلي، وتعبئة الزجاجات والجرار ونقلها إلى القبو وتحضير النبيذ الناضج...الخ، وزراعة الحدائق وقطف البامية وجني ثمار التين...الخ، وزراعة البصل وريّه...الخ. ويصحب ذلك

مثل كل المناظر التالية شرح تفسيري بالهيروغليفية وصور [للمشرف على بيت الحقول] ومعاونيه.

(٢) الفنون والحرف : وتتألف من مجموعة مناظر ملونة في معظمها بغية تحديد نوع الأشياء المرسومة والمادة التي تتكون منها. ونرى المثّال والحفّار ومزوق التماثيل والقطع المعمارية، والأثاث والمصنوعات الخشبية، ورسام يُثبت لوحته فوق حمالة، وكتبة وموظفين من كل نوع، وعمال المحاجر يقومون بنقل الكتل الحجرية، والفاخوري ومراحل عمله المختلفة من جَبْل الطين بدعكه بالأيدي والأرجل، وتقطيعه إلى خرطات ووضعها فوق الدولاب وتشكيل بطن وعنق إناء...الخ. ثم أول حرقة في الفرن وثاني حرقة في المنشر...الخ، وتقطيع الأخشاب وصناعة العصي والمجاديف، والنجار وصانع الأثاث وعملية نشر الخشب، وتطرية الجلود بعد دباغتها وتلوينها. والإسكافي، وغزل ونسج الأقمشة باستخدام الأنوال المختلفة، وصانع الأواني الزجاجية وكل مراحل عمله والصائغ والحداد ...الخ.

(٣) طبقة العسكريين : إذ نرى تنشئة طبقة العسكريين وكل تمارينها الرياضية، علاوة على ما ينيف عن مائتي لوحة تصور كافة الأوضاع والهيئات البدنية التي يمكن أن يتخذها شخصان يتصارعان بحذق ومهارة من هجوم ودفاع وتقدم وتقهقر...الخ. مما يدحض مزاعم القائلين بأن الفن المصري ينحصر في رسم وجوه جانبية وسيقان مضمومة وأذرع ملتصقة على جانبي الجسم. لقد قمت بنسخ كل تلك المجموعة الفريدة من العسكريين العرايا الذين يتصارعون، بالإضافة إلى نحو ستين منظراً يصور جنوداً من كل الرتب ومن كل فرق الجيش، وحرباً صغيرة وحصاراً وسلاحي "القفعة" و"المنجنيق" والعقوبات العسكرية، وساحة حرب والاستعدادت لتحضير وجبة طعام عسكرية. وأخيراً صناعة الرماح والحراب والأقواس والسهام ودبابيس القتال والفؤوس...الخ.

(٤) الغناء والموسيقى والرقص : لوحة تصور حفلة موسيقية وغنائية حيث نرى عازف قيثارة ومغني يصحبه كورس يتألف من أربعة رجال وخمس نساء يصفقن في إيقاع. ويُشكل هذا المنظر أوبرا كاملة، إذ نرى عازفين على القيثار من كلا الجنسين ونافخي الناي والمزمار ونوع من البوق الصدفي...الخ. وراقصين يؤدون

مختلف الرقصات بالإضافة إلى أسمائها، وأخيراً تشكيلة عجيبة من الرسوم التي تصور الراقصات (أو عاهرات مصر القديمة) يرقصن ويشدون ويلعبن الراحية، ويقمن بالعديد من الحركات البهلوانية.

(٥) تربية الحيوانات : وتتألف من عدد هائل من الرسوم التي تصور الأبقار والثيران بكافة أنواعها والعجول، وحلب اللبن وتحضير الجبن والزبد، ورعاة الماعز وحراس الحمير ورعاة الغنم وأغنامهم، ومناظر متعلقة بالطب البيطري. وأخيراً الدواجن وتربية العديد من أنواع الأوز والبط، ونوع من طيور "اللقلق" التي كانت مستأنثة في مصر القديمة.

(٦) مجموعة ايقونات تشمل صور الملوك المصريين ووجهاء القوم. وسأكمل تلك الرسوم الأولية في "طيبه".

(٧) الألعاب والرياضات والتسلية : ونشاهد في هذة المجموعة العديد من الألعاب والتمارين مثل لعبة المطرقة والقش وغرس الأوتاد في الأرض، وصيد الحيوانات المتوحشة. ولوحة تصور لنا رحلة صيد كبيرة في الصحراء تضم خمسة عشر إلى عشرين نوعاً من ذوات الأربع، ومناظر أخرى تصور العودة من الصيد، والقنائص الميتة المحمولة والحية المسوقة، والعديد من مناظر اصطياد الطيور بالشباك من بينها لوحة كبيرة زاهية الألوان. وأخيراً مختلف الفخاخ المستخدمة في صيد الطيور مرسومة على حدة في بعض المقابر، بالإضافة إلى العديد من اللوحات التي تصور صيد الأسماك باستعمال الخيط فقط، والخيط والصنارة، وشوكة أو رفش ذو سنين، والشباك علاوة على تحضير الأسماك ...الخ.

(٨) العدل المنزلي : وقد جمعت تحت هذا العنوان نحو خمسة عشر رسماً لنقوش بارزة تصور جرائم اقترفها الخدم، والقبض على المتهم وتوجيه الاتهام اليه، ودفاعه عن نفسه، والحكم عليه من قِبَل المشرفين على المنزل، وإدانته، وتنفيذ العقوبة التي كانت تنحصر في القرع بالعصا، وقيام المشرف على المنزل برفع مضبطة بوقائع القضية إلى سيد المنزل.

* * *

ها هي المذكرات التي دونتها على الطبيعة. إلا أن الخط سيء والنصوص منسوخة بغير اتقان من حيث الشكل ولكنها مع ذلك مطابقة للأصل لأنها خُطت من أعلى السلم وفي أوضاع شاقة للغاية. وعندما فرغنا من العمل في المساء أمرت بالإقلاع صوب قرية "بني حسن العمار" التي بلغناها في منتصف الليل.

* * *

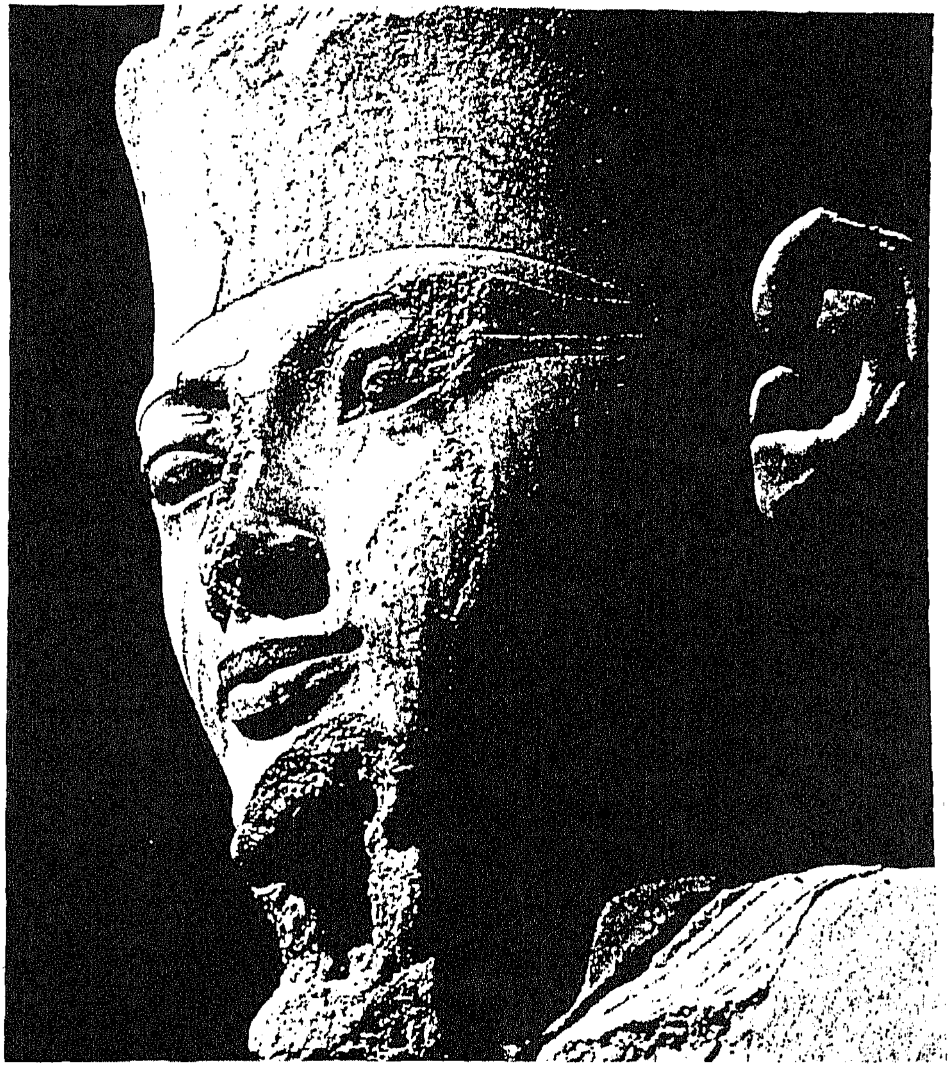

(٩) ادارة وتنظيم البيت : لقد أضفت إلى تلك المجموعة الغزيرة كل ما يتعلق بالحياة الخاصة أو المنزلية. إذ تصور لنا تلك الرسوم العجيبة : ١) مختلف أشكال البيوت المصرية الفخمة إلى حد ما. ٢) الآنية والأدوات المنزلية والأثاث شتى أشكالها الملونة نظراً لأن اللون يعمل دائماً على تحديد نوع المادة المستخدمة. ٣) هودج وثير. ٤) مقاصير ذات أبواب صفاق محمولة على زحافة كان سراة القوم في مصر القديمة يستخدمونها في التنقل كعربات. ٥) القرود والقطط والكلاب التي كانت تُربى في المنازل، وكذا الأقزام وغيرهم من الأشخاص ذوي العاهات والتكوين الجسماني الشاذ، والذين كانوا منذ ماينيف عن ألف وخمسمائة سنة قبل الميلاد يسرون عن نفوس الأعيان المصريين، مثلما كانوا يشرحون صدور بارونات أوروبا المسنين بعد ذلك بألف وخمسمائة عام. ٦) موظفو منزل رفيع من ملاحظين وكتبة...الخ. ٧) خدم يحملون مختلف أنواع المؤن الغذائية، وجاريات تحضرن شتى أنواع الأطعمة والمأكولات. ٨) طريقة ذبح الأبقار وتقصيبها. ٩) سلسلة من الرسوم تمثل انشغال الطهاه في إعداد أصناف متنوعة من الطعام. ١٠) وأخيراً خدم يحملون تلك المأكولات والأطعمة المجهزة إلى مائدة سيدهم.

(١٠) آثار تاريخية : تضم تلك المجموعة كل ما رأيته حتى الآن من نصوص ونقوش بارزة وآثار مختلفة تحمل أسماء ملكية وتواريخ.

(١١) آثار دينية : وتشمل صور المعبودات المختلفة مرسومة وملونة نقلاً عن أجمل النقوش البارزة. وستزداد تلك المجموعة بشكل مدهش كلما تقدمت إلى "طيبه".

(١٢) الملاحة : وتتكون من مجموعة رسوم تصور صناعة شتى أنواع السفن والقوارب، وألعاب البحارة التي تشبه تماماً التدافع على الماء والألعاب التي تقام على صفحة نهر "السين" في أيام الأعياد الكبرى.

(١٣) علم الحيوان : وتتكون من سلسلة من ذوات الأربع والطيور والزواحف والحشرات والأسماك منسوخة وملونة بكل صدق وأمانة وفق النقوش البارزة والرسوم التي في أفضل حالة من الحفظ. وتُعتبر هذة المجموعة التي تحوي قرابة مائتي حيوان من الأهمية بمكان. فالطيور تسحر الألباب، والأسماك ملونة في غاية الإتقان. وقد قمنا بجمع رسوم لما ينيف عن أربعة عشر سلالة مختلفة من كلاب الصيد والحراسة، بدأ بسلالة "السلاقي" وانتهاء "بالزئني المعوج"، وهو كلب صيد قصير القوائم ومعوجها. وأنا آمل بذلك أن أحظى بامتنان السيدين "كيفييه" و"جيوفري سانت هيلار" على هذة الرسوم المرتبة للتاريخ الطبيعي في مصر القديمة.

ها هو ما أحرزته حتى الآن من فتوحات وغنائم. وهي بلا شك بداية طيبة لا بأس بها. وأنا أعتزم تكملة هذة المجموعة المتنوعة من الرسوم والاستفاضة فيها كما ينبغي في الفترة القادمة علماً بأنني لم أر حتى الآن تقريباً أي أثر فرعوني كبير. فالعمائر الكبيرة لا تبدأ بالفعل إلا في "العرابة المدفونة" (أبيدوس) التي سأبلغها في غضون عشرة أيام.

لقد انفطر قلبي عند مروري أمام قرية "الأشمونين" حزناً على رواقها الرائع الذي قامت الأيدي الهمجية بتقويضه مؤخراً. وبالأمس لم نر في "الشيخ عبادة" إلا أنقاضاً بعد أن دُمر كل ما فيها منذ عهد قريب، ولم يعد يبقى سوى بعض الأعمدة الجرانيتية التي لم يقو العابثون على مجرد زحزحتها.

ومما يُعزيني بعض الشيء عن اندثار تلك الآثار هو العثور على حصن رائع لم يذكره أحد، ولا حتى "جومار" الذي أقام طويلاً على مقربة منه. كما تعرفنا في وادي مقفر من وديان صحراء العرب في مواجهة قرية "بني حسن العمار" على معبد صغير منحوت في الصخر، بدأت زخرفته في عهد "تحتمس الرابع" وواصلها من بعده "مندوي Mandouéi" أحد ملوك الأسرة الثامنة عشرة. وقد كُرس هذا المعبد المزدان بالنقوش البارزة الملونة للإلهة "باستت" التي اتخذت من مدينة "بوباستيس" (تل بسطه) مركزاً لعبادتها. ويتفق الجغرافيون و"جومار" نفسه على وجود مغارة المعبودة "باستت" في "بني حسن". ويأتي عثوري على المعبد المنحوت في الصخر تأكيداً على صحة ذلك الاعتقاد. وقد أحيط هذا المعبد الذي لا تحمل نقوشه إلا صوراً

للمعبودة "باستت" بالعديد من مقابر القطط المقدسة، بعضها منحوت في الصخور. وقد شُيدت واحدة من بينها في عهد "الإسكندر" ابن "الإسكندر الأكبر". كما نجد أمام المعبد مصطبة كبيرة مدفونة تحت الرمال تذخر بمومياوات القطط الملفوفة في الحصر وببعض الكلاب. وعلى مبعدة من ذلك المكان نجد في السهل المقفر المحصور بين الوادي والنيل مستودعين هائلين يعجان بلفائف القطط المحنطة التي تغمرها الرمال بارتفاع قدمين.

سأبلغ بلدة "أسيوط" المعروفة عند اليونان باسم "ليكونبوليس" هذه الليلة. وسأقدم هذه الرسالة إلى السلطات المحلية لإرسالها إلى القاهرة ثم إلى الإسكندرية ومن هناك إلى أوروبا. فعساها أن تصلك دون أن تضل في الطريق مثل رسائلك أنت! فما أشد شعوري بالحسرة والمرارة لعدم حصولي حتى الآن على أي خطاب منك أو من زوجتي منذ رحيلي من "تولون"! ولك أن تتخيل مبلغ إحساسي بالخيبة والإخفاق بعد أن تلقى "روزليني" الكثير من الرسائل منذ بضعة أيام، بينما لم يصلني أنا أي شيء البتة. ويحار عقلي في معرفة اليد الآثمة التي تعبث برسائلي، وإدراك أسباب ذلك التأخير. إنني أنعم بصحة جيدة، وأتمنى أن يحفظ لي طقس "طيبه" الجميل نفس حالتي الطيبة. بلغ تحياتي للسيد "داسييه" الجليل ولذويه ولكل من يذكرني. قبلاتي لكل من "ديبوا" و"ديجيه" و"توبيه". ولك مني أطيب المشاعر وأصدقها.

ج.ف.شامبليون

* * *

نبذة عن الرحلة

٧ نوفمبر ١٨٢٨

أسرعنا فور استيقاظنا بالنزول أرضاً، واخترقنا قرية "الشيخ عباده" حيث تنتشر أشجار النخيل، للطواف بأطلالها التي تحولت اليوم إلى سلسلة من الأطلال المغطاة بقطع الشقف من كل الأنواع. ولم يسلم أي أثر من الآثار المذكورة في موسوعة "وصف مصر" من عبث السكان وهمجيتهم. حيث قاموا بالتواطؤ مع حكومتهم بتدمير كل شيء حتى الأساسات ليستخرجوا الجير من أحجار أقواس النصر...الخ. ولم يتركوا إلا الأعمدة الجرانيتية لضخامتها وصلابتها. وقد اشتريت رأس تمثال لـ"رمسيس الأكبر" دون أن يكلفني ذلك أكثر من قرش واحد، وهو سعر بخس يشمل ايضاً نقل تلك الكتلة حتى مركب المعاش. وقد قام الترجمان بعقد تلك الصفقة الشائنة التي ما كانت نفسي لتطاوعني على اقترافها، ولذلك أضفت إلى سعر القطعة مبلغاً آخر مقابل تكاليف النقل.

ثم أبحرنا في حوالي الساعة التاسعة صباحا لنمر أمام قرية "الريرامون" المطلة على شاطيء النيل باتجاه أطلال قرية "الأشمونين" المعروفة عند اليونان باسم "هرموبوليس ماجنا". وقد دُمر رواقها الرائع المزدان بنقوش ترجع إلى عهد "فيلادلفوس أريديوس" (أو على الأحري "سوتير الأول" الذي كان يمسك بمقاليد الحكم بدلاً منه) وقد تم هذا التدمير بعِلم ورضا الباشا، وبالرغم مما أبداه "سالت" و"لينان" من احتجاج واعتراض. ثم اجتزنا بعد ذلك "ملوي العريش" ومغارة "اسطبل عنتر" التي كان "جومار" قد أعطانا وصفاً لها. وعند غروب الشمس أمرت بالرسو في "التل" وهي مدينة متهدمة قام علماء الحملة الفرنسية بوصفها وإعطاء تخطيط لها، بينما كان الإنجليزي "ويلكنسون" يعتقد أنه أول من اكتشفها ورسمها. ويعتقد السيد "جومار" أن هذا الموقع كان يُلقب بمدينة "بسينولا"، وأنا أشاركه تماماً هذا الاعتقاد. أما اسم

"الباسترونبوليس" الذي أطلقه "ويلكنسون" على نفس المكان فهو خاطيء ويصعب إثباته.

بعد ذلك جبنا كل أنحاء المدينة التي تتميز بشوارعها الرئيسية الفسيحة والممتدة. أما البناء الذي ظنه "جومار" مخزناً للغلال فقد بدا لي كمداميك الختم التي يسهل التعرف عليها لبناء ديني، وأساسات معبد يتكون من صرح وفناءين من الطوب اللبن، وأخيراً المعبد نفسه المشيد من الحجر الرملي. وتغطي أنقاض تلك الأحجار المخلوطة بالجرانيت الأسود والوردي مساحة كبيرة جداً ومربعة الشكل بمحاذاة صرحين. وقد عثرت بنفسي وسط حتات الصخور على جزء من ركبة تمثال فرعوني من الحجر الجيري المتبلور الأملس.

وفي مساء نفس اليوم غادرنا التل لنجد أنفسنا في مواجهة "ديروط الشريف" في باكورة الثامن من نوفمبر. وأثناء النهار اجتزنا الجبل الطويل والخطير المسمى بجبل "أبو الفدا"، وقد أرجأت زيارة الكهوف والمغارات المنحوتة فيه لحين عودتنا من الشلال الثاني حتى لا يفوتنا الفصل المناسب لصعود النيل. وأمام هذا الجبل اللعين اصطدم المعاش "إيزيس" بالدهبية "حتحور" في أقصى سرعة، لحظة انتقال السادة "ديشان" و"لوت" و"برتان" من متن المركب الأولى لتناول وجبة العشاء على متن المركب الثانية. وأسفر ذلك عن سقوط السيد "برتان" في النهر الذي كان يجري بسرعة فظيعة في هذا المكان. إلا أن حضور بديهته واتقانه السباحة كتبا له النجاة: إذ أسرع بالتقاط الحبل الذي قذفه إليه أحد الجنديين المصاحبين لنا. إن تلك المغامرة التي وقعت تحت ناظري أصابتني بالغم من فرط الانفعال. إذ أن فقد أحد رفاق رحلتي في حادث مؤسف كهذا لو كان قد حدث، ورجوعي إلى فرنسا بدونه كان سيُعتبَر كارثة مروعة بالنسبة لي.

ثم اجتزنا منفلوط (التي كان قدماء المصريون يرمزون إليها بالحمار الوحشي) بعد الظهر، وجنحت منا المركب أمام "منقباد". وبعد أن بذلنا جهوداً مضنية لتخليصها قطعنا مسافة عدة أميال لنقضي الليل على مقربة من "أسيوط".

* * *

عندما استيقظنا في صباح اليوم ألفينا أنفسنا أمام مرفأ مدينة "أسيوط" الصغيرة والمعروفة عند اليونان "بليكونبوليس". ولما كانت بي رغبة في زيارة كهوف ومقابر تلك المدينة العريقة، قررنا أن نقضي فيها اليوم بطوله. ثم امتطينا الحمير لبلوغ المدينة التي كانت على مسيرة عشرين دقيقة من شاطيء النيل، وتوجهت مباشرة في صحبة السادة "ديشان" و"لوت" و"برتان" إلى المقابر المنحوتة في منحدر الجبل وحتى قمته وكان الرحالان الفرنسيان "ديفيلييه" و"جولوا" قد قدما عنها وصفاً صائباً. إلا أن التخريب قد بلغ شأواً كبيراً منذ ذلك الحين. وقد اهتديت إلى بعض المقابر التي كانا قد ذكراها، بيد أنه بدا لي من العبث التوقف في مثل هذا الموقع القليل الأهمية بعد أن قضينا خمسة عشر يوماً كاملة في "بني حسن".

ويبدو أن كهوف "ليكونبوليس" كانت عظيمة الروعة وضخمة الأبعاد. إلا أن كل ذلك قد أصبح في خبر كان لدرجة لا تسمح لنا بالتعرف حالياً إلا على هياكل مقابر نُهبت ودُمرت جميع نقوشها. واكتفيت بنسخ منظر يصور صفاً من الجنود منحوت على الجدار الجنوبي للمقبرة الرئيسية. وفي طريق عودتنا من المقابر مررنا بجبانة "أسيوط" الحديثة الممتدة على المنحدر الأخير للجبل الذي تضم جباناته مومياوات المصريين القدماء. إن هذه الجبانة بأبنيتها الصغيرة والجميلة والمبيضة بعناية تشبه مدينة ساحرة غاية في الصغر. ثم اخترقنا المدينة في طريق عودتنا للذهاب إلى الحمام العام حيث أخذنا قسطاً من الراحة التي كنا في أمس الحاجة إليها بعد أن ذرعنا الجبل جيئة وذهاباً سيراً على الأقدام، مرتدين الثياب الطويلة والزي المملوكي. وهناك قدموا لنا وجبة غداء تتكون من قطع صغيرة من اللحم الضأن المجهز على شكل كريات مستطيلة، وصحفة لبن حامض لغمس اللحم وبطيخ لذيذ. كانت كريات اللحم شهية لدرجة جعلتنا نستزيد منها. وعقب العشاء قمنا بزيارة البك المشرف على بيت "شريف كيايا"، وتسليم الرسائل التي كان حبيب أفندي قد كلفنا بتوصيلها إليه. وبعد ذلك عدنا أدراجنا إلى المركب لقضاء الليل.

* * *

١٠ نوفمبر ١٨٢٨

غادرنا أسيوط في صباح اليوم لنمر في الساعة الحادية عشرة أمام بلدة "القطوي" المسماه "ماتيا" على خريطة علماء الحملة، حيث اضطررنا للرسو بسبب ركود الرياح فجأة. وقد التقى خادمي محمد في تلك البلدة بوالده الذي كان يشتغل في اعداد الجعة، وقد حثني على تذوق ذلك الشراب إلا أنني رفضت شاكراً. وأقلعنا في الساعة الواحدة لكي نتوقف ليلاً على مقربة من "قاو الكبير". ومررنا أمام موقع "أنتيوبوليس Antaeopolis" العتيق دون أن نلامس الشاطيء بعد أن أدركنا بسهولة عدم بقاء أي أثر للرواق الرائع الذي قام علماء الحملة الفرنسية بوصفه، فقد طواه النيل في جوفه منذ ثلاث سنوات. ثم اجتزنا قرية "شيخ الهريدي" الشهيرة. وعند سدول الليل هبت العاصفة التي حالت دون بلوغنا "أخميم" بدون مخاطر. عندئذ رسونا أمام قرية نجهل اسمها لقضاء الليل، وإصلاح المعاش "إيزيس" من ثقب كبير ينفذ منه الماء بشدة. وعقب العشاء ذهب "لونرمون" و"لوت" و"روزليني" والآخرون لحضور حفل موسيقي يقيمه محمد بك مأمور الصعيد، الذي اضطرته حالته الصحية السيئة إلى تشييد منزل بالقرب من قرية "سوهاج" نظراً لطقسها الجميل. وقد اعتذرت عن تلبية دعوة مضيفنا متذرعاً بالتعب والإرهاق، زد على ذلك أنني كنت أجهل اسمه ومنزلته. ثم عاد كل من حضر ذلك الحفل مفتونين مسحورين ببشاشة ولطف هذا السيد التركي. وفي صباح اليوم التالي أرسل إلينا البك هدية قوامها ستة خراف ومائة وخمسين دجاجة ومائتي بطيخة وشمامة...الخ. عندئذ بعثت إليه من جانبنا بصندوق نبيذ "سان جورج" لثقتي في أن الهدية ستحظى بإعجابه إذ أن رفاقي كانوا مندهشين لكثرة ما تجرعه من خمر وعرق أثناء الوليمة التي دعاهم اليها في الساعة الواحدة صباحاً. ثم علمت باعتزامه المجيء لزيارتنا فأرجأت اقلاعنا ساعة من الزمن ولكنه لم يأت. ولما كنت أجهل من ناحية أخرى منزلة هذا الرجل الذي لا نعرف عنه سوى بشاشته وافراطه في شرب الخمر، أبحرنا في الثاني عشر من نوفمبر صوب "أخميم" لنبلغها بعد ذلك بساعة. وقد انقسم البحارة إلى مجموعتين: فريق يقود

المركب وفريق آخر يفرغ الماء الذي كان يتجمع في جوف المركب. إذ أنني لم أجد في "سوهاج" من يستطيع سد الثقب الموجود فيها. وبمجرد بلوغنا "أخميم" المعروفة قديماً عند اليونانيين "بانوبوليس" عدونا إلى المدينة لاختراقها ورؤية المسجدين الجميلين، والتوجه شرقاً حيث أشار علماء الحملة الفرنسية إلى وجود بعض أطلال المعابد. وقد وجدت كل شيء تقريباً على نفس الحال التي كانت عليها حين زيارة السيد "سان جيني".

ونجد إلى الشمال في منخفض تملأه مياه الفيضان كتلاً جيرية ضخمة غير منقوشة، باستثناء كتلة واحدة في وسط البركة يُصور أحد جوانبها منظراً لملك في وضع المتعبد. عندئذ أرسلت في احضار أربعة ألواح خشبية كبيرة من المركب لعمل جسر للعبور عليه من كتلة لأخرى للوصول إلى الحجر المنقوش بغية تفحص النص الملكي واسم الإله المعبود. عندئذ قفز ثلاثة من البحارة العرايا في الماء لمد الألواح على هيئة جسر متحرك. وقد انتشر جمع غفير من السكان على حافة المستنقع المحفوف بالنخيل والأشجار الكثيفة مما كان يُشكل منظراً مثيراً. وقد وصلت بسهولة إلى الحجر المنقوش الذي يُصور الملك "بطليموس الرابع" المعروف باسم "فيلوباتور" يتعبد الإله "آمون خالق الكون" (مين Min) الذي كان اليونانيون يعتبرونه مثل الإله "بان"، والذي قدم "إتيين دي بيزانس" وصفاً دقيقاً لتمثاله. ويكفي هذا النقش البارز لاستكمال معلوماتنا عن إله تلك المدينة، ومنزلته والصور التي يتجلى فيها. كما يعطينا في ذات الوقت تأريخاً لزمن بناء معبد "آمون-مين" في "بانوبوليس". وإذا كانت باقي النقوش البارزة لهذا المعبد ترجع إلى نفس العصر، فإن تلك الأطلال لا تمت بأية صلة إلى المعبدين العتيقين اللذين ذكرهما "هيرودوت" في نفس هذا الموقع. وإلى الشمال الشرقي نجد كتلتين هائلتين تحمل إحداهما تدويناً يونانياً قام السيد "لوترون" بنشره. وهي أنقاض باب شُيد في عهد الامبراطور "تراجان".

وعند عودتي إلى المركب وجدت محمد بك قد أرسل إلينا إبنه وصرافه وعازفيه ومعهم رسالة مهذبة تُعرب عن أسفه وحسرته لرحيلنا دون انتظار زيارته. إذ كان قد اتفق بالفعل مع رفاقي البارحة على أن يأتي لزيارتنا صباحاً ثم نذهب لتناول وجبة الغداء وقضاء اليوم عنده، على ألا نفترق إلا بعد العشاء. وقد ألح علينا

رسله في الرجوع إلى "سوهاج" إرضاء لسيدهم. وبعد لحظات طويلة من التشاور والتردد والحيرة قررت أن أذعن لإلحاحهم، وأمرت الريس -وكان المعاش قد تم اصلاحه حينذاك- بالتوجه من جديد إلى تلك القرية، وارتدينا الزي العسكري المملوكي أثناء الطريق بينما سبقتنا مركب البك للإعلان عن قدومنا. وعندما نزلت على شاطيء النهر جاء المشرف على المنزل لاستقبالي، وقادني إلى منزل البك. ثم دعونا إلى الجلوس في الديوان انتظاراً للبك الذي كان في الحرملك، مقدمين لنا في سخاء النرجيلة والقهوة بالسكر. وقد كان لتلك الضيافة وقعاً عظيماً في نفوس معظمنا.

ثم دخل علينا محمد بك، فتبادلنا التحيات الحارة. وسرعان ما بدأ يعتب علينا في لهجته المازحة وبلطف رحيلنا دون انتظار زيارته. ولما كنت قد علمت في غضون ذلك أننا في حضرة واحد من أكبر رؤساء مصر العليا، قمت باطلاعه على ما نملكه من فرمانات. وبعد ذلك بقليل أحضر أحد الخدم التابعين لي خزانة تحتوي على آنية شراب من البلور، دعونا محمد بك لقبولها على سبيل التذكار عرفاناً منا بلطفه وأدبه.

وما لبث أن سيطرت على الحديث روح المرح والدعابة. وأثناء الساعات الثلاثة التي سبقت الغداء كانت النرجيلة وقنينات العرق تدور علينا بدون انقطاع، إلا أنني آثرت الإكتفاء بترطيب شفتي بذلك الشراب الروحي الذي يخطف العقول. أما مضيفنا فكان يشرب كأساً دهاقاً كرجل دأب على السكر منذ أربعين عاما. فقد كان البك طاعناً في السن ولكن لايزال متين البنية بالرغم من معاناته من نوع من أمراض الربو المزمن الناتج عن اسرافه في تعاطي الخمور. وقد استقدم عازفين يونانيين أخذا يشدوان بأغنيات تركية، ويعزفان على نوع من العود ذي ثمانية أوتار وعلى كمان ذي أربعة عشر وتراً. وبوسعك أن تتخيل الصوت الجميل الذي شنف به آذاننا المغني الأول الذي كان يبلغ من العمر سبعين ربيعاً ! وأعقب هذا المغني "الشاب" مطرب عربي ذو لحية بيضاء في العقد الثامن من العمر ! ثم أخذ هذا الكروان يصدح بعزم قوته بأغنيات عربية. عندئذ أبدى الترجمان الأرمني الأصل المصاحب لي والذي قدم لتوه إلى مصر بعد أن عاش طويلاً في القسطنطينية، رغبته في استعراض مواهبه، فشرع ينفخ في الناي بمهارة جعلت البك وأتباعه في قمة

الإنتشاء لسماع بعض الأنغام الأوروبية الجميلة وخاصة عندما عزف لحناً تركياً بطيئاً وحزيناً للغاية. وبعد ذلك انضم الناي والعود والكمان ليشكلوا جوقة موسيقية ممتعة. وترنم العازفان اليونانيان بلحن أغنية "Malborough s'en vat-en guerre" التي قام رفاقي بترديدها البارحة أثناء العشاء، والتي أسعدت جميع الحاضرين من أتراك وعرب. حيث أخذ هذا اللحن بألباب الجميع من مسلمين وأقباط. كما أعجبهم لحن "La Marseillaise" وكذا " Amis, la matinée est belle !" لـ"مازانيللو".

وأخيراً حان وقت الغداء، فشرعت أنا ورفاقي في غسل اليدين ومسحهما في منشفة مطرزة من الحرير الملون. ثم جلسنا على حافة الأريكة مدلين أرجلنا لإفساح المكان. وقد نُصبت مائدتان صغيرتان، ورُص عليهما على التوالي نحو عشرين صنف مختلف من أصناف الطعام، علاوة على الأنشوقة والسلطات وغيرها من المشهيات التي بقيت باستمرار على المائدتين، بينما وُضعت في وسطها الأطباق الرئيسية الأخرى. وقد كانت تلك الأطباق صغيرة ماعدا الطبق الأول الذي كان به خروف صغير محشو كله ذو مذاق طيب. وقد تلذذنا جميعاً بهذا الطعام الشهي والمعد بإتقان كبير. ثم ختمنا تلك الوليمة بفاكهة الشمام والبطيخ التي لم أذق أطيب منها في حياتي كلها. وكان النبيذ يدور بكميات قليلة ولكن دون انقطاع. كما كان البك بما يتحلى به من حكمة يقبل دائماً كل الكؤوس الممدودة إليه ويشربها حتى الثمالة.

وقد شربنا نخب كل من ملك فرنسا ومحمد علي وابراهيم باشا. وكان محمد بك يتقبل كل ذلك بحماس، مُقسماً بسيفه البتار على عمق وشائج الصداقة الخالدة التي تربط بين فرنسا وسلطان مصر. ثم تواصل الحفل الساهر بالموسيقى والغناء، وقام البحارة بألعاب بهلوانية، وقدم الراقصون رقصات عربية مقلدين في ذلك العوالم، ثم رقصات تركية ويونانية. وقد أعجبتنا تلك الرقصات الأخيرة للغاية. وأخيراً استأذنا البك في الانصراف في الساعة الواحدة صباحاً. وكان قد أهداني أول أمس خاتماً مُطعماً بحجر كريم أحمر محفور عليه بغير إتقان صورتان نصفيتان لـ"هيليوس" و"سيلينة".

غادرنا "سوهاج" في الصباح الباكر لنمر أمام "أخميم" حيث توقفنا ربع ساعة لأخذ هدايا أخرى جديدة أرسل بها محمد أغا. ثم اتجهنا إلى "منشية النيدة" التي تشغل موقع مدينة "بتوليمايوس" العريقة. وبعد الظهر حاذينا جبلاً وعراً تنتشر فيه الكهوف والمغارات يُسمى "جبل العسرات". وعندما مررنا بينه وبين مجموعة الجزر الصغيرة المسماه بجزيرة "بنو قاص"، رأينا للمرة الأولى أربعة تماسيح، كان من بينها ثلاثة تماسيح ضخمة ممددة على الرمال وحولها طيور "الزقزاق" بلونيها الأبيض والأسود. وبعد ذلك بقليل نزلنا في قرية "جرجا" التي كانت منذ عهد قريب عاصمة مصر العليا قبل أن تفقد كل أهميتها وتصبح نصف مهجورة. وجاء السيد "بيتشينيني" و"ليكوا" المسؤول عن حفائر السيد "انستازي" لاستقبالنا على شاطيء النهر وتقديم العون لنا بإيعاز من سيده. وقمنا بزيارة الأب "دافيلي دي برسيدا" في دير مجمع التبشير، وكان هذا الصقلي يشغل منصب رئيس عام أديرة "طهطا" و"أخميم" و"جرجا" و"فرسوط" و"نقادة"، حيث يوجد في كل منها راهب أو إثنان على الأكثر. أما "جرجا" فلم يكن فيها سوى راهب قبطي واحد من تلاميذ مجمع التبشير. ولما كنت متعطشاً لمعرفة كيفية قراءة اللغة القبطية في مصر، سألت الأب أن يتلو علينا صفحة من كتابه المقدس، فذهب لإحضاره بكل رضى. ولكن سرعان ما تبينت تردده، بل وخلطه في نطق بعض الأحرف. ثم غادرنا الرهبان في ساعة متأخرة للذهاب لتناول وجبة عشاء، أعقبها غناء ورقص عوالم "جرجا".

* * *

من شامبليون إلى شامبليون فيجاك

طيبه في ٢٤ نوفمبر ١٨٢٨

صديقي العزيز ،،

لقد كتبت آخر رسالة إليك من "بني حسن" فيما بين العاشر والثاني عشر من هذا الشهر، وهي تنتهي بصعود النيل وبلوغ "أسيوط"... أسأل الله أن تصلك أسرع من تلك التي أرسلتها لي منذ مغادرتي فرنسا أنت وأهلي وكل الذين لايزالون يذكرونني. كيف لا وأنا لم تصلني حتى الآن أية رسائل على الإطلاق ! ولا حتى تلك التي جاء بها "باريزيت"، والتي يرجح أن يكون قد سلمها إلى قنصلية فرنسا. لقد علمت بالأمس فقط عن طريق قبطان انجليزي بنبأ وصول "باريزيت" إلى مصر وتواجده حالياً في القاهرة. ولقد كرست نفسي تماماً لمصر حتى أصبحت كل شيء بالنسبة لي. لذلك أنشد لديها السلوى والمواساة بما أنه ما من شيء يصلني من أوروبا. وبالطبع فأنا لا أتهمكم أنتم بالتقصير، ولا أشك إطلاقاً في أنكم تفكرون في وتكتبون لي كثيراً... لكن رسائلكم لا تصلني قط. ولو أنني اطمأننت على صحة الجميع لأصبحت أسعد إنسان في الدنيا. هاأناذا أبلغ أخيراً قلب مصر القديمة، ولم يعد يفصلني عن عجائبها سوى بضعة أقدام.

لقد غادرت "أسيوط" في العاشر من نوفمبر بعد زيارة مقابرها التي قام "جولوا" و"ديفيلييه" بوصفها -مثل سائر آثار "طيبه"- على أكمل وجه. وفي صباح اليوم التالي مررنا أمام "قاو الكبير"، واجتاز مركبي ناشراً جميع القلوع موقع المعبد الذي طواه النيل في جوفه دون أن يترك له أدنى أثر. ثم زرت بعض أطلال "أخميم". وقد حالفني الحظ في العثور على كتلة حجرية منقوشة هدتني إلى تاريخ تشييد ذلك المعبد الذي يرجع إلى عهد "بطليموس الرابع"، وكذلك على صورة المعبود "مين" الذي هو إلا الإله "آمون خالق الكون" كما أثبت آنفاً في "مجمع أربابي".

وفي اليوم التالي قضينا فترة المساء والسهرة في حفل موسيقي وغنائي أقامه محمد أغا، أحد رؤساء مصر العليا، بعد أن أرسل إلينا برسله لإعادتنا إلى قرية "سوهاج" التي كنا قد تركناها في الصباح. وقد تحتم علينا تلبية الدعوة طوعاً أو كُرهاً، حتى لا نُحزن ذلك الرجل الطيب الكريم، الذي يُفرط في شرب الخمر، والذي يشيع المرح والبهجة من حوله. وقد انتشى كثيراً لما غنى له رفاقي أغنية "Malborough"، وأعطى عازفيه الأمر بتعلمها في الحال.

ثم أقلعنا في صباح الثالث عشر بعد أن أسبغ علينا هذا العثماني الطيب جزيل العطايا والهبات. وفي منتصف النهار اجتزنا موقع "بتوليمايس" حيث لم يعد يبقى أي شيء جدير بالملاحظة. وفي حوالي الساعة الرابعة، بينما كنا نتقدم في محاذاة "جبل العسرات"، رأينا للمرة الأولى أربعة تماسيح ممددة على رمال جزيرة صغيرة وأسراب من الطيور تحوم من حولها. ثم رسونا بعد ذلك بقليل في "جرجا". ولم نتقدم كثيراً في الخامس عشر نظراً لضعف الرياح. إلا أننا وجدنا السلوان في رفاقنا الجدد التماسيح، إذ تجمع واحد وعشرون منهم فوق جزيرة صغيرة. وما لبثت الأعيرة النارية التي أطلقناها عن كثب أن شتتت شمل ذلك الجمع الشيطاني إذ أخذوا يقفزون في النهر. وفقدنا نحو ربع ساعة لتخليص المعاش الذي كان قد جنح على أثر ذلك مقترباً من الجزيرة.

وأخيراً بلغنا "دندره" في مساء السادس عشر من نوفمبر. وكان ضوء القمر ساحراً، والمعابد على مسيرة ساعة من الزمن. فيا ترى هل كان باستطاعتنا مقاومة ذلك الإغراء؟ إنني أتوجه بهذا السؤال إلى أكثر البشر فتوراً وأشدهم بروداً! وتناولنا عشاءنا في لحظات معدودات، ثم مضينا على الفور بمفردنا وبدون مرشد ولكن مدججين بالسلاح. وسلكنا طريقاً وسط الحقول ظانين أن المعابد تقع على خط متعامد مع النهر. وأخذنا نتقدم على هذا النحو منشدين ألحان أوبرالية حديثة على مدى ساعة ونصف دون أن نعثر على أي شيء. وأخيراً لمحنا رجلاً من بعيد إلا أنه سارع بالفرار بمجرد أن ناديناه إذ ظننا من البدو، فلقد كنا نبدو بالفعل بالنسبة للمصريين وبسبب ملابسنا الشرقية وبرانسنا الكبيرة البيضاء، كقبيلة من البدو. بينما يمكن للأوروبي أن يعتقد بدون تردد أننا عصابة من الرهاب الشارتريين المسلحين بالبنادق والسيوف والطبنجات. وبعد أن

أمسكنا بذلك الرجل الهارب، وضعته بين أربعة من أعضاء البعثة وأمرته بأن يقودنا إلى المعابد. وقد أرشدنا هذا المسكين إلى الطريق الصحيحة. كان قلقاً في باديء الأمر، ثم انتهى به الحال إلى السير عن طيب خاطر. كان نحيفاً وضامراً وأسوداً، يرتدي ثيابا رثة أشبه ما يكون بمومياء متنقلة. بيد أنه أحسن إرشادنا ولذلك عاملناه بالحسنى. وأخيراً بدت لنا المعابد. ولا أستطيع في هذا الصدد أن أعبر عن عمق الانطباع الذي استحوذ علينا عند مشاهدة الباب الكبير وخاصة إيوان المعبد الكبير. وإذا كان باستطاعتنا قياس أبعاده، فإنه يستحيل علينا في المقابل اعطاء فكرة محددة عنه. إنه الروعة والعظمة في أعلى درجاتهما. وبقينا ساعتين مشدوهين مفتونين، نجوب قاعاته الفسيحة على ضوء فانوس صغير، ونحاول قراءة النصوص الخارجية على ضوء القمر. ولم نعد أدراجنا إلى المركب إلا في الساعة الثالثة صباحاً، لنرجع مرة أخرى إلى المعابد في الساعة السابعة حيث قضينا اليوم بطوله. وما بدا لنا رائعاً في ضوء القمر ازداد فتنة وجمالاً في وضح النهار، إذ مكنتنا أشعة الشمس من تبين كافة التفاصيل الدقيقة. عندئذ أدركت -خلافاً للرأي الذي أبداه علماء الحملة الفرنسية- أنني بصدد تحفة معمارية عظيمة مغطاه بنقوش في غاية الركاكة. فما أردأ النقوش البارزة في "دندره" ! وكيف لا وهي ترجع إلى عصر اضمحلال. فقد انحط فن النحت بينما صمدت العمارة وهي فن محسوب بالأرقام، وبالتالي أقل خضوعاً للتغيرات، وحافظت على مكانتها الرفيعة التي تليق بآلهة مصر القديمة وعظمتها على امتداد القرون. وترجع زخارف المعبد إلى العصور الآتية : إذ يحمل السور الخارجي على طرف المعبد، وهو أكثر الأجزاء قدماً، نقوشاً ضخمة تصور "كليوباترا" وإبنها "بطليموس-قيصر". كما ترجع النقوش البارزة العلوية إلى عهد الإمبراطور "أغسطس"، وكذا الأسوار الخارجية على جانبي قدس الأقداس، عدا بعض الأجزاء الصغيرة التي ترجع إلى عهد "نيرون". بينما غطيت مقدمة الهيكل كلياً بنصوص للأباطرة "تيبريوس" و"كلود" و"نيرون". بيد أنه لا يوجد أي خرطوش منقوش داخل قدس الأقداس أو في الحجرات والعمائر المشيدة فوق سطح المعبد: فكل الخراطيش تُركت فارغة. وأعجب ما في الأمر أن جزء الأبراج السماوية المستديرة الذي يحمل الخرطوش لا يزال في

موضعه، وأن هذا الخرطوش فارغ مثل جميع الخراطيش الداخلية الأخرى، ولم يطاله إزميل النحات أبداً. إن علماء الحملة الفرنسية هم الذين أضافوا إلى رسومهم كلمة "autocrator" ظانين أنهم أسقطوا نسخ نص غير موجود أصلاً، وهم بفعلتهم تلك قد سهلوا لخصومهم الهجوم عليهم وانتقادهم. وفضلاً عن ذلك فليتأنى "جومار" في إعلان انتصاره، إذ أن خرطوش أبراج الزودياك فارغ ولا يحمل أي اسم. فنقوش هذه الحجرة مثل سائر نقوش المعبد الداخلية رديئة جداً وركيكة ولا يمكن بأي حال من الأحوال أن تكون سابقة لعهدي "تراجان" و"انتونينوس بيوس". وهي تشبه النقوش الغربية للباب الجنوبي الذي يرجع لعهد هذا الامبراطور الأخير، والتي كانت تُفضي إلى معبد الإلهة "إيزيس" الواقع خلف المعبد الكبير. وقد كُرس هذا المعبد الأخير للمعبودة "حتحور" وليس للمعبودة "إيزيس" خلافاً لماذكره علماء الحملة. وتغطي الباب الكبير نقوش تصور الامبراطوريين "دوميشيانوس" و"تراجان" . أما الـ"تيفونيوم typhonium" فقد تمت زخرفته في عهد "تراجان" و"هادريان" و"انتونينوس بيوس".

* * *

وفيما يلي نُورد نص الرسالة الهامة التي أرسلها شامبليون في شهر أكتوبر من عام ١٨٢١، بتشجيع من "دينون" إلى مجلة "La Revue Encyclopédique" التي كانت ستزف إلى الباريسيين نبأ وصول الأبراج السماوية لمعبد "دندره" إلى فرنسا. وقد اتفق شامبليون فيجاك مع رئيس تحرير تلك المجلة الذي كان صديقاً للأخوين على عدم نشر اسم كاتب هذه الرسالة (راجع La Revue encyclopédique عدد نوفمبر ١٨٢١) :

"إننا نحيي مشاعر النخوة الوطنية التي حثت اثنين من أبناء وطننا على القيام بهذا المشروع الجريء بمهارة ونجاح. فبعد كل مابذلته فرنسا من جهود تهدف إلى التنقيب عن الآثار المصرية واستكشافها، أصبح من حقها اليوم أن تحظى ببعض تلك الآثار النفيسة. كما أصبح من حقها أن تبتهج لإمكانية اقتناء قطعة فريدة تعوضها عن فقد حجر رشيد وباقي القطع الفريدة الأخرى التي اجتهد

علماء الحملة الفرنسية في جمعها. ونحن إذ نهنيء السيدين "سولنييه" و"لولوران" لما بذلاه من عناية وجهد سيُكللان بنقل الأبراج السماوية لمعبد "دندره" من ضفاف النيل إلى شواطيء نهر "السين" وليس إلى ضفاف نهر "التايمز"، لا يسعنا في ذات الوقت إلا الإعراب عن بعض الأسف لتجريد ذلك المعبد من أجمل القطع التي تزينه. بل يساورنا التساؤل حول ما إذا كان أخوانا في الوطن قد أخطا بفعلتهم تلك تحت تأثير شعور سام ونبيل ؟ فهل ياترى تدبرا كل نتائج وتبعات هذا المشروع، وهما مندفعان بتأثير الرغبة في رفع رأس الوطن ؟ هل فكرا في القدوة السيئة التي أعطياها الآن لكافة الشعوب ؟ فالأمر لا يتعلق هنا بتماثيل وأحجار منفصلة، ولا حتى بالمسلات والعديد من الكتل الحجرية التي نهبها الغزاة والرحالة من مصر على امتداد ثلاثة وعشرين قرناً من الزمان. بل إننا بصدد بناء رائع في حالة جيدة جداً من الحفظ، وقد بدأ التخريب، إذا صح القول، يزحف عليه. وإذا كنا لا نغفر أبداً للفرس واليونانيين والرومانيين والعرب ما أنزلوه بمعابد مصر من تخريب ودمار، بينما يمكننا أن نشير بإصبع الاتهام إما إلى التعصب الديني أو إلى ويلات الحروب التي عاصروها. فلماذا نقلدهم الآن ونحن في أوج السلام؟ ضاربين عرض الحائط بقول الشاعر :

وإذا كنا بأعدائنا نود الإقتداء
فعلينا أن نحاكيهم في خصالهم الحميدة

"إن مجرد سرقة أبراج الزودياك تجعل تلك الحجرة غير مسقوفة، كما تهدد باقي أجزاء السقف بالتدمير الكلي. تماماً كما لو أن الحلفاء قاموا بانتزاع جزء من سقف الرواق الكبير في قصر "فرساي"، لا لشيء إلا للاحتفاظ ببعض نقوشه. فماذا يكون مصير باقي السقف والرواق نفسه في هذة الحالة ؟

"إن احتفاظ عمائر مصر القديمة بأسقفها كان العامل الرئيسي في حمايتها والحفاظ عليها بهذة الصورة المدهشة. إذ أنه بمجرد خلع ذلك السقف الواقي ما من شيء يحفظ الجدران والأعمدة وكل الدعائم.

وما الذي سيحول عندئذ دون سرقة تاج عمود من هنا ونهب عمود كامل من هناك...الخ ! وفضلاً عن ذلك فإن قادة مصر وشعبها ليسوا همجيين ومتخلفين بقدر ما نعتقد عامة، وهم اليوم أقل تخلفاً من أي وقت مضى، إذ يبدو أن المصلحة ـذلك الباعث الفعّال ـ بدأت توقظ هذا الشعب من سباته العميق. فهل لنا أن نخشاه الآن في هذة الحقبة من الحضارة والتمدين أكثر من ذي قبل عندما كان يرزح في ظلمات التخلف والرجعية ؟ لقد قاوم معبد "دندره" والعديد من الآثار الأخرى في الوقت نفسه عوامل الزمن وعبث العابثين، كما صمد في وجه الثورات الأهلية والحروب الدينية. وربما يعتقد بعض الأشخاص أن الأبراج السماوية لمعبد "دندره" هي عبارة عن حجر قائم بذاته، أو جزء منفصل مثل سائر الأجزاء الأخرى. إلا أننا نكون قد كونا فكرة خاطئة عن الآثار المصرية لو ظننا أنها تتكون من قطع منفصلة حيث لا ينبع حكمنا عليها إلا من خلال مجموعات التماثيل الصغيرة والمعبودات والتمائم المنتشرة في أوروبا. بيد أن كل ذلك يختلف تماماً عن فن العمارة المصرية. فهل نفلح من خلال صور القديسين التي تُباع في الأعياد في اعطاء الأجانب فكرة دقيقة عن كنيسة "سانت جينيفياف" أو قصر "اللوفر"؟ بالطبع لا. وعلى كل حال فإن آثار وادي النيل تتكون من أحجار لن يتعذر علينا نقلها واحدة تلو الأخري إلى فرنسا أو انجلترا مهما بلغت أحجامها. ولكن ماذا سنكسب من وراء ذلك ؟ ينبغي علينا الاعتراف بأن الرومانيين قد قدروا الآثار المصرية حق قدرها أكثر منا بالرغم من جهلهم بالعلوم وتخلفهم في العديد من النواحي. وعندما رغبوا في الاغتراف منها لتكليل انتصاراتهم وتزيين مدينتهم، اختاروا المسلات. ها هي تذكارات نصر نبيلة، ها هي الزينة الحقيقية لعاصمة كبيرة. كما أن انجلترا فاقت في تقدير تلك الآثار فرنسا التي كانت ولاتزال تستطيع الاحتذاء بروما القديمة والمعاصرة. أما قطعة أبراج الزودياك التي ستصل إلى فرنسا فلا يمكن استخدامها كزينة، بل تقتصر أهميتها على الناحية العلمية فقط. لذلك كان بمقدورنا بلوغ غايتنا بدون فصل ذلك الحجر عن باقي المبني الذي يُشكل جزءاً لا يتجزأ منه منذ العديد من القرون. وقد نجحنا بالفعل في سلبه إلا أنه سيفقد قدراً عظيماً من قيمته وأهميته. ومن يُدرينا لعل العلماء سيتجادلون في المستقبل حول المكان الذي كان يشغله في الأثر

الكبير قبل اقتلاعه منه، أو حول زاوية اتجاهه، أو حول النقوش التي كانت تحيط به...الخ ؟ وإذا كنا لا نقتنع بالألفي نسخة المصغرة المنتشرة في جميع أرجاء أوروبا (علماً بأنه بمقدورنا مضاعفة ذلك العدد) وإذا كانت النقوش غير متقنة النسخ، فما الذي كان سيمنعنا من صب تلك القطعة الأصلية بعناية في قوالب من الجبس أو الشمع أو الكبريت ؟ على أية حال فإن كان هناك ثمة ما يُرضي محبي الفنون فسيكون ذلك هو رؤية هذا الأثر الجليل مخصصاً لمتحف فرنسا. أما في حالة خروجه من وطننا فلن يكون هناك ما يعزينا عن تشويه معبد "دندره" على هذا النحو".

* * *

في صباح الثامن عشر من نوفمبر تركت المعاش مهرولاً لزيارة أطلال "قفط" المعروفة عند اليونان بـ"كوبتوس". ولم يعد يبقى شيء سليم بعد أن قام الأقباط بهدم المعابد لاستخدام أحجارها في تشييد كنيسة كبيرة نعثر في أنقاضها على العديد من الأحجار الفرعونية المنقوشة. وقد تعرفت على أسماء الملوك "نختنبو" و"أغسطس" و"كلود" و"تراجان". وعلى مسافة قصيرة نجد بعض أحجار بناء صغير شُيد في عهد البطالمة. ونستنتج من ذلك أن مدينة "قفط" لا تحتوي إلا على النزر اليسير من عمائر العصور الفرعونية القديمة.

إن أنقاض "ابوللينوبوليس بارفا" التي بلغتها في صباح اليوم التالي تكتسب أهمية أكبر على الرغم من اندثار عمائرها العتيقة، فيما عدا أعلي باب مدفون نصفه في الرمال، وقد كُرس للمعبود "حورس". وأما نقوشه المحفورة على الجانب المواجه للنيل، أي على الواجهة الرئيسية التي تُعتبر أقدم الأجزاء المنحوتة، فتُصور لنا الملكة "كليوباترا كوكسيه" وقد انتحلت لقب إلهة "فيلوماتور Philométor" وابنها "بطليموس سوتر الأول" وقد اتخذ كذلك نفس اللقب وهما يتعبدان هذا الإله. أما الواجهة الخلفية للباب المواجهة للمعبد والمغطاه بالنقوش المتقنة فتحمل النص الكامل

لاسم "بطليموس الإسكندر الأول" مما يُبرهن على أن العمر قد امتد به بعد فترة طويلة من وفاة والدته، وهو ينتحل كذلك لقب "فيلوميتور". أما عن التدوين اليوناني الموجود في بداية السطر الثاني والذي ترجمه السيد "لوترون" فهو أكيد لا ريب فيه، إذ مازلنا نقرأه بوضوح على الواجهة الرئيسية التي تحمل صور وإهداء "كليوباترا Cocce" وابنها "بطليموس فيلوميتور سوتر الثاني".

كما عثرت بين الأنقاض على نصف لوح يرجع إلى اليوم الأول من شهر "بؤونه" من العام السادس عشر لحكم "رمسيس ميآمون"، ويتعلق بعودته ظافراً من حملة عسكرية. وسأقوم بعمل نسخة جيدة لهذا اللوح الذي يصعب التفكير في نقله نظراً لثقله الشديد. وفي صبيحة العشرين من نوفمبر سمحت لنا الرياح بالرسو أخيراً في "طيبه"، بعد أن عاكستنا لمدة يومين وحالت دون بلوغنا المعبد! كان اسم "طيبه" كبيراً جداً في مخيلتي، ولكنه أصبح اليوم عملاقاً بعد أن ج بت أنقاض تلك العاصمة القديمة التي تُعد أم المدن في جميع أنحاء العالم. وأخذت أطوف بين عجائبها خلال أربعة أيام كاملة.

ففي اليوم الأول قمت بزيارة قصر "القرنة" وتمثالي "ممنون" ومقبرة "اوسيمندياس Osymandyas" المزعوم والتي لا تحمل سوى نصوص لـ"رمسيس الأكبر" ولاثنين من خلفائه. ويُطلق عليه المصريون إسم "الرامسيوم"، تماماً مثلما يسمون "امنفيون Aménophion" "الممنيوم" و"منديون Mandouéion" "قصر القرنة". كما أن التمثال الضخم المزعوم لـ"اوسيمندياس" إنما هو في حقيقة الأمر لـ"رمسيس الأكبر".

قضينا اليوم الثاني بأكمله في مدينة "هابو" التي تضم العديد من العمائر من بينها أروقة فخمة ترجع إلى عصر "انتونينوس بيوس" والامبراطور "هادريان" وغيرهما من البطالمة، وكذلك بناء لـ"نختنبو" وآخر لـ"طهرقا" الأثوبي، وقصر صغير لـ"تحتمس الثالث"، وأخيراً قصر ضخم لـ"رمسيس ميآمون" تغطيه النقوش البارزة التاريخية.

ولما كان اليوم الثالث ذهبت لزيارة ملوك "طيبه" القدماء في مقابرهم أو على الأحرى في قصورهم المنحوتة في جبل وادي الملوك. وبين الغداة والعشي أخذت أطوف على ضوء المشاعل داخل حجرات متتالية مغطاه بالرسوم والنقوش التي تتسم أغلبها بنضارة

مذهلة، كما جمعت على عجلة معلومات تاريخية في غاية الأهمية. ورأيت مقبرة ملكية مشوهة من أولها إلي آخرها، عدا الأجزاء التي نُقشت عليها صور وأسماء والدة وزوجة ذلك الملك فقد تُركت ورُوعي احترامها في خشوع. ولا مراء في أن تلك المقبرة كانت لملك أدين ونُبذ بعد مماته. كما رأيت مقبرة أخرى لملك طيبي قديم اغتصبها أحد ملوك الأسرة التاسعة عشرة، وغطى كل الخراطيش القديمة بالجص ليستبدلها بخرطوشه مستولياً بذلك على النقوش والنصوص التي دونها أحد أجداده. إلا أنه يتعين علينا أن ننوه بإنصاف هذا المغتصب الذي دفعه لحفر حجرة جنائزية ثانية لوضع تابوته فيها متحاشياً بذلك نقل تابوت سلفه من مكانه الأصلي. وباستثناء تلك المقبرة فإن جميع المقابر الأخرى ترجع إلى ملوك الأسر الثامنة عشرة والتاسعة عشرة والعشرين. بيد أننا لم نعثر على مقبرتي "سنوسرت" و"تحتمس الثالث". ولن أحدثك في هذا الصدد عن العديد من المعابد الصغيرة والعمائر المتناثرة هنا وهناك وسط تلك المباني الكبيرة. بل سأكتفي بالإشارة إلى معبد صغير كرسه "بطليموس الخامس" لعبادة "حتحور"، ومعبد آخر كرسه "بطليموس الثامن" (يورجتيس الثاني) وزوجتاه لعبادة "تحوت" بالقرب من مدينة "هابو". وتُصور لنا النقوش البارزة لهذا المعبد الأخير "بطليموس الثامن" يقدم القرابين لكل أجداده الأقدمين من رجال ونساء : "بطليموس الخامس" و"كليوباترا" و"بطليموس الرابع" (فيلوباتور) و"أرسنوي" و"بطليموس الثالث" (يورجتيس الأول) و"برنكي" وكذا "بطليموس الثاني" (فيلادلفوس) و"أرسنوي". وقد رُسمت صور هؤلاء البطالمة كاملة مصحوبة بألقابهم اليونانية مُترجمة إلى اللغة المصرية القديمة خارج الخراطيش. وفضلاً عن ذلك تتسم نقوش هذا المعبد بالركاكة نظراً لاضمحلال الفنون وانحطاطها خلال تلك الحقبة التاريخية.

وفي اليوم الرابع تركت البر الغربي للنيل لزيارة الجزء الشرقي لـ"طيبه". وفي بادئ الأمر رأيت قصر الأقصر العملاق، تنتصب أمامه مسلتان يبلغ ارتفاع كل منهما قرابة ثمانين قدماً، وقد نُحتتا بإتقان من كتلة واحدة من الجرانيت الوردي، بالإضافة إلى أربعة تماثيل ضخمة لـ"رمسيس الأكبر" من الجرانيت الوردي كذلك، يبلغ ارتفاع كل منهما نحو ثلاثين قدماً وكانت الرمال تغطيها حتى الصدر. أما باقي أجزاء القصر فإنها ترجع إلى عهد الملوك "مندوي" و"حورس" و"أمينوفيس ممنون"، علاوة على بعض الترميمات والإضافات التي أدخلها الملك الأثيوبي "ساباكون" وبعض البطالمة، وكذا مقصورة من الجرانيت ترجع إلى "الإسكندر" ابن البطل الفاتح "الإسكندر الأكبر". وأخيراً توجهت إلى قصر، أو بالأحرى إلى مدينة آثار الكرنك. وهناك تجلت لي عظمة الفراعنة وجلالهم وكل ما تفتقت عنه مخيلة الإنسان وأتته يداه من عظيم الإنجازات. وقد بدا لي كل ما رأيته في "طيبه" وكل ما أعجبني بشدة في البر الغربي حقيراً تافهاً مقارنة بما يحوطني الآن من تصميمات عملاقة أمسك عن وصفها كي لا أقع في أحد المحظورين: فإما أن يعجز لساني عن وصف واحد من ألف مما يجب التفوه به عند التعرض لمثل تلك الأشياء، وإما أن يظنني الناس مفعماً بالحماسة أو معتوهاً مجنوناً إذا نجحت في اعطاء صورة ولو شاحبة وهزيلة عنها. لذلك سأكتفي ختاماً لكلامي بالاعتراف بأننا في أوروبا لسنا سوى أقزام، وأنه ما من شعب قديماً كان أو حديثاً بلغ في فهم وتصور فن العمارة بمثل هذه الدرجة الرفيعة والعظيمة التي بلغها المصريون القدماء. لقد كانوا عمالقة يتجاوزون المائة قدم في تصميماتهم بينما نحن لا نكاد نتجاوز خمسة أقدام وثمان بوصات. فإن الإبداع الأوروبي الذي يحلق خفاقاً فوق أروقتنا ينقلب خاسئاً وهو حسير أسفل المائة وأربعين عموداً التي يتكون منها بهو أساطين الكرنك.

في هذا القصر العجيب استغرقت في تأمل الصور الجانبية الحقيقية لأغلب الفراعنة القدماء المشهورين بعظيم أعمالهم، وقد صُوروا مئات المرات في النقوش البارزة على الجدران الداخلية والخارجية، ومع ذلك احتفظ كل واحد منهم بهيئته الخاصة التي تختلف اختلافاً تاماً عن هيئة أسلافه وخلفائه. فنرى لوحات ضخمة منحوتة بإتقان وكمال يستعصي تخيله في أوروبا تصور الملك "مندوي" يقاتل الشعوب المعادية لمصر، ويعود إلى وطنه منتصراً. وعلى مبعدة من ذلك نشاهد غزوات "رمسيس سيزوستريس"، وفي موضع آخر نرى "شاشنق" يُمَرغ تحت أقدام ثالوث "طيبه" المقدس ("آمون" و"موت" و"خنسو") زعماء أكثر من ثلاثين أمة مقهورة، عثرت من بينها على الإسم الكامل لمملكة اليهود أو "يهوذا Jouduhamalek". ويمكننا إضافة هذا التعليق إلى الفصل الرابع عشر من "كتاب الملوك الأول" الذي يسرد وقائع الغزوة التي شنها "شاشنق" على "اورشليم"ا وما أحرزه من انتصارات. وهكذا نتأكد بما لا يدع مجالاً للشك من تطابق شخص الملك "شاشنق" و"Sésonchis" الذي ذكره "مانيتون" في قائمته و"Sésac" أو "Schéschâk" الذي ورد ذكره في الكتاب المقدس (انظر لوحة رقم ٥). كما عثرت حول قصر الكرنك على العديد من العمائر التي ترجع إلى مختلف العصور. وسأقلع غداً صوب الشلال الثاني، وفي طريق عودتي سأستقر في "طيبه" لمدة خمسة أو ستة أشهر، أتوقع أن أجمع خلالها معلومات تاريخية فريدة، ولما لا وقد نجحت في جمع وثائق هامة جداً خلال الأيام الأربعة التي ذرعت فيها "طيبه" جيئة وذهاباً دون أن أرى ولو مقبرة واحدة فقط من آلاف المقابر المنحوتة في جبال الصحراء الغربية.

ويحدوني اليقين في ضرورة إعادة ترتيب تسلسل ملوك الأسرة الثامنة عشرة إبتدأ من خرطوش"أوزيري Ousiréi" أو "مندوي Mandouéi". وقد عثرت على لوحين ملكيين، واحداً في قصر "رمسيس الأكبر" المعروف بمقبرة "اوسيمندياس" والآخر في قصر مدينة "هابو"، وهما يحملان قائمة بتسلسل الملوك بدأ من "أمينوفيس ممنون" وإنتهاء بسادس خلفاء "رمسيس الأكبر".

ويتضح لنا منهما ترتيب الملوك ابتدأ من "سنوسرت" على النحو الآتي :

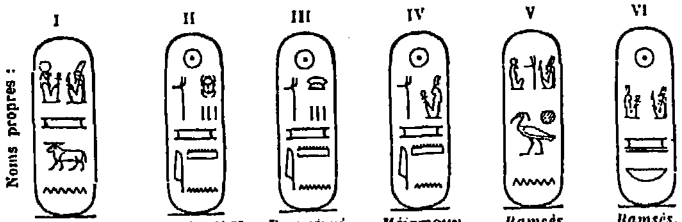

Phthahôthph Ier, Mandouéi II, Ra-ouerri, Méiamoun-Ramsès, Ramsès, Ramsès.

وبالإضافة إلى ذلك جمعت العديد من أسماء رعامسة الأسرة العشرين. وهكذا اتضح لي أن "هيوو" قام بتضليلي وإيهامي بالقِدَم الشديد لبعض الآثار التي تحمل الخرطوش رقم ٢، بينما هي ترجع في حقيقة الأمر لوقت لاحق لعهد "سنوسرت". كما اتضح لي أن "رمسيس ميآمون" هو رابع خلفاء "رمسيس الأكبر" وليس جده.

وعلى هذا النحو فقد خطوت خطوات حثيثة على ضرب الحقيقة، وتصحيح تواريخ كل تلك العهود وتحديد تسلسل ملوكها. وما كنت لأخطيء في أسماء ملوك الأسرة الثامنة عشرة لو كان علماء الحملة الفرنسية قد أضافوا النصوص الهيروغليفية إلى النقوش البارزة التي نسخوها في مدينة "هابو". وهكذا يتضح لنا قِصَر فترة حكم الأسرة الثامنة عشرة على نحو غريب، وإسقاط أسماء ثلاثة من ملوكها على الأقل، إذا كان هذا الخرطوش لـ"سنوسرت" كما تؤيد ذلك كل الشواهد. وربما عثرت في الكرنك على أسماء بعض الملوك الذين أغفل ذكرهم في قائمة "أبيدوس" بين "تحتمس الثالث" و"أمينوفيس ممنون". وريثما أتحقق من ذلك أرسل إليك ترجمة لجزء من لوح عثرت عليه في الإسكندرية. وهو على جانب كبير من الأهمية إذ يتعلق بتسلسل آخر ملوك الأسرة السادسة والعشرين الصاوية. ونقرأ فيه أن الكاهن "بسماتيك" (وليس الملك الذي يحمل نفس هذا الاسم) قد وُلد في الأول من شهر "بؤونه" من العام الثالث لحكم الملك "نيكاو". وقد امتد به الأجل واحداً وسبعين عاماً وأربعة أشهر وخمسة أيام، وتوفي في السادس من شهر "بابه" من العام الخامس والثلاثين لحكم الملك "أحمس".

وبوسعك أن تحسب ذلك لتستنتج اعتلاء "بسماتيك الثاني" و"ابريس" [واح-ايب-رع] العرش لفترة أطول مما جاء في ملخص

قائمة "مانيتون". وفضلاً عن ذلك فقد أصبح في حوذتي نسخ من نصوص هيروغليفية منحوتة في الصخور على طريق "القصير" وتعطينا فكرة عن المدة القصيرة لحكم الملوك الفارسيين :

"قمبيز"	"دادرا الأول"	"اكسركسيس"
٦ سنوات	٣٦ سنة	١٢ سنة

كما عثرت على نص يرجع إلى العام السادس عشر من حكم "ارتاكسركسيس الأول"، علاوة على نص أخير يرجع إلى شهر "هاتور" من العام السادس والعشرين لحكم "اوكس Ochus".

ها هي سلسلة ملوك الأسرة الفارسية. وقد أغفلت بالطبع ذكر العديد من النتائج الطريفة الأخرى، مكتفياً بإرسال ذلك إليك حي لا تتضور جوعاً ! ولتعلم أنني لو تركت العنان لنفسي لسرد كافة تفاصيل اكتشافاتي لتعين عليّ أن أكرس كل وقتي للكتابة إليك. فلتقنع إذاً بفتات ما أرسله إليك في اللحظات التي تسمح لي فيها أطلال مصر بالتقاط أنفاسي في غمرة كل هذة الأعمال والمتع التي ستكون بحق عارمة وفياضة لو تكررت كثيراً في الأماكن الأخرى مثلما تكررت في "طيبه".

إنني في تمام الصحة والعافية، ومناخ مصر يلائمني ويُشعرني بتحسن عما كنت عليه في "باريس". كما أن المصريين يغمروننا بأدبهم ومجاملاتهم. وقد احتشد في حجرتي الصغيرة في هذة اللحظة: ١) أغا تركي قائد عام "القرنة" في قصر "سندوي". ٢) شيخ بلد مدينة "هابو" الذي يُشرف على الرمسيوم وقصر "رمسيس ميآمون". ٣) شيخ الكرنك الذي يَخّر له كل الناس ساجدين. وأخذت أقدم لهم النرجيلة والقهوة بين الفينة والفينة. كما كلفت الترجمان التابع لي بتسليتهم بينما انخرطت أنا في الكتابة. ولم أكن أكلف نفسي سوى مشقة الإجابة من وقت لآخر بكلمة "طيبين" على السؤال "إنت طيب ؟" الذي كان يُوجهه لي كل عشر دقائق هؤلاء القوم الطيبون الذين كنت أدعوهم بالمناوبة لتناول وجبة الغداء معنا. وكانوا يغمروننا بالهدايا حتى أصبح لدينا قطيع من الخراف ونحو خمسين دجاجة أخذت ترعى في هذة اللحظة وتُنقب حول رواق قصر "القرنة"، وفي مقابل ذلك كنا نهديهم باروداً وأشياء زهيدة أخرى.

لقد علمنا من القبطان الإنجليزي الذي وصل بالأمس أن ابراهيم باشا غادر القاهرة ليقيم خط دفاع بين "العريش" و"طرابلس" على الحدود السورية، تأهباً لمواجهة الباب العالي إذا ما تعرض له. ولا أخفي عليك أن ذلك يخدم مشاريع رحلتي أيما خدمة. وإنني أجهل آخر تطورات الموقف في شؤون الشرق وذلك لأنه ما من أنباء تأتيني من أوروبا ولا حتى من الإسكندرية. فلأتذرع بالصبر ! ولكن الأمر شاق وعسير ! ولو كان "باريزيت" قدم للحاق بي على الأقل لكنا تجاذبنا أطراف الحديث عن أوروبا، إلا أنه لم يخط لي ولو سطراً واحداً. وداعاً يا صديقي العزيز. سأعاود الكتابة إليك من أسوان قبل عبور الشلال الأول إن سنحت لي الفرصة. أخبر السيد "دي فريساك" بعثوري في "بني حسن" و"طيبه" على الآف مؤلفة من الأحفوريات، وقد جمعت بعضاً منها خصيصاً له.
ملاحظة : أسألك أن توصل رسالتي للكونت "دوتريف"، وأن تعبر له عن ولائي واحترامي. أخبره ايضاً بأن مجموعة الأيقونات وصور الفراعنة هي في منتهى الروعة.

* * *

جزيرة فيله في ٨ ديسمبر ١٨٢٨

صديقي الحميم ،،

هأناذا منذ مساء الخامس من ديسمبر في جزيرة "أوزيريس" المقدسة الواقعة على أقصى حدود مصر الجنوبية، وسط الحبشيين السود كما يمكن أن يقول روماني من حامية أسوان ذهب للصيد في أنحاء الشلالات.
لقد كتبت إليك آخر رسالة من "طيبه"، ذلك العالم الساحر الذي غادرته في السادس والعشرين من نوفمبر. وقد أمسكت عن الإسهاب في وصف عاصمة الفراعنة العريقة: إذ كيف يتسنى لي وصف تلك الأشياء في بضعة أسطر في حين أنني مررت بها مرور الكرام دون أن أتفحصها في تأن ! ولكن عند رجوعي إلى تلك الأرض العريقة سأشرع في دراسة كل شبر فيها لأتمكن عندئذ من

وصفها عن معرفة ودراية، متسلحاً بأفكار راسخة ونتائج حصيفة. ولاتزال "طيبه" بالنسبة لي -على الرغم من طوافي بها طيلة أربعة أو خمسة أيام كاملة- كومة من صفوف الأعمدة والمسلات والتماثيل الضخمة. ويتعين عليّ تفحص كل جزء من أجزائها المتناثرة على حده لأتمكن من تكوين فكرة محددة عنها. أسأل الله أن يمنحني الصبر حتى يأتي الوقت الذي أضرب فيه خيامي في بهو أساطين معبد الكرنك.

وفي مساء السادس والعشرين رسونا في "أرمنت". وهرولنا في صباح اليوم التالي إلى المعبد الذي كان يُثير فضولي، لا سيما وأنني كنت أجهل تاريخ تشييده، وقد أمضيت اليوم كله في نسخ نصوصه ونقوشه، وهو عمل لم يُقْدم عليه أحد من قبل. وقد أسفرت تلك المعاينة الطويلة عن تأكدي من أنه قد شُيد في عهد آخر "كليوباترا" ابنة "بطليموس الثاني عشر" احتفاء بذكرى حملها وولادتها "بطليموس قيصرون".

وقد قُسمت مقصورة المعبد بالفعل إلى جزئين : حجرة رئيسية فسيحة (أ) وحجرة أخرى ضيقة (ب) تمثل قدس الأقداس، لا يفضي إليها سوى باب صغير في الزاوية اليمنى. (وقد سُميت تلك الحجرة في النصوص الهيروغليفية "بمكان الولادة"). ويشغل مساحة كل الجدار الخلفي نقش بارز يصور المعبودة "ريتو" زوجة الإله "منتو" وهي تضع المعبود "حربقراط". وقد اصطفت من حولها مختلف المعبودات الرئيسية لمآزرتها وتقديم العون لها. إذ نرى القابلة الإلهية تجذب الطفل من رحم أمه، والمرضعة الإلهية تمد يديها لاستقباله، ومعبودة أخرى لهدهدته. وقد وقف "آمون رع" رب الأرباب للإشراف على ما يجري، تصاحبه المعبودة "سوفان ايليتيا Sovan-Ilithya" وهي حامية ومساعدة النساء أثناء الولادة. وأخيراً نرى الملكة "كليوباترا" تشاهد تلك الولادة الإلهية التي تُعد تجسيداً لولادتها هي. وتُصور لنا نقوش الجدار (ج) لحجرة النفساء مناظر إرضاع وتنشئة الإله الوليد. كما تظهر لنا على الجدارين (أ) و(ب) ساعات النهار الاثنتى عشرة وساعات الليل الاثنتى عشرة على هيئة نساء يحملن نجوماً فوق رؤوسهن. وهكذا تُعبر اللوحة الفلكية للسقف التي قام علماء الحملة الفرنسية بنسخها عن مولد الإله "حربقراط"، أو بالأحرى عن مولد "قيصرون" الذي سيصبح

"حربقراط" جديداً. لذلك لا يتعلق الأمر اطلاقاً بمدار الشمس الصيفي، ولا بزمن تأسيس معبد "أرمنت" كما ذكر لنا "جومار" المسكين، الذي لم يفقه شيئاً من أمر هذة اللوحة مثل سائر اللوحات الأخرى.

وعندما نترك الحجرة الصغيرة (ب) للدخول في الحجرة الفسيحة الأخرى يُطالعنا نقش بارز كبير منحوت على الجدار (د) للحجرة الرئيسية (ا)، وهو يُصور المعبودة "ريتو" تنهض من ولادتها مستندة إلى المعبودة "سوفان" التي تقدمها إلى محفل الأرباب. ونرى "آمون رع" رب الأرباب يأخذ بيدها في حنو ومحبة لتهنئتها على ولادتها السعيدة، وكذا الآلهة الأخرى تشاركهما الفرحة. وقد زُينت باقي الحجرة بمناظر تصور تقديم "حربقراط" على التوالي إلى "آمون" وأبيه "منتو" والإله "رع حور آختي" و"بتاح" و"هو"...الخ. وقد استقبلته تلك الآلهة مقدمين له شاراتهم المميزة كما لو كانوا يتنازلون لصالح الطفل عن كل نفوذهم وصلاحياتهم الخاصة. كما صُور "بطليموس قيصرون" بوجه طفولي مُجسداً في شخص المعبود "حربقراط". ويُعد كل ذلك بالطبع تملقاً كهنوتياً يتمشى تماماً مع روح ومعتقدات مصر القديمة التي كانت تعتبر ملوكها تجسيداً لآلهتها على الأرض. وفضلاً عن ذلك تحمل كافة النصوص الداخلية والخارجية لمعبد "أرمنت" اسم "بطليموس قيصرون" ووالدته "كليوباترا". لذلك لا يساورنا أدنى شك حول الغرض من تشييده. ولم يتم نحت كل أعمدة مقدمة الهيكل حيث بقي العمل ناقصاً، ولعل السبب في ذلك يرجع إلى الغاية نفسها من وراء تشييد هذا المعبد. إذ لم يسمح القيصر "أغسطس" وخلفاؤه الذين أكملوا العديد من المعابد التي بدأها البطالمة بإتمام معبد "أرمنت" الذي كان مجرد أثر شاهد على ميلاد "قيصرون" ابن "يوليوس قيصر" الذي قلما احترموا حقوقه. وفضلاً عن ذلك وجد حارس مصري ذلك المكان مناسباً لبناء بيت له وفناء لتربية الدواجن وبرج للحمام. وقام بحجب المعبد وتقسيمه عن طريق تشييد جدران حقيرة من طمي النيل المبيضة بالجير.

ثم بلغنا "إسنا" في مساء الثامن والعشرين من نوفمبر. ولما لم يكن في نيتي التوقف بها تقدمت بعض الشيء ناحية الجنوب، ورسوت على الضفة الشرقية للنيل لزيارة معبد "كونترا لاتو Contra-lato". بيد أنني وصلت بعد فوات الأوان؛ فقد تم هدمه

منذ ما يقرب من اثنتي عشر يوماً لاستخدام أحجاره في تدعيم رصيف "إسنا" من خطر مياه الفيضان التي ستجرفه في نهاية المطاف.

وعند عودتي وجدت المعاش مملؤ عن آخره بالمياه. ومن حسن الحظ أننا رسونا في مكان قليل العمق، وإلا لكان غرق تماماً. عندئذ اضطررنا لتفريغه من المياه والرجوع إلى "إسنا" في مساء نفس اليوم لترميم هيكله وسد ما به من ثقوب. غير أن ذلك تسبب في بلل وإفساد كل المؤن الغذائية من ملح وأرز ودقيق...الخ. إلا أن كل ذلك يهون أمام الخطر الذي كنا سنتعرض له في حالة وقوع ذلك الحادث المؤسف أثناء الملاحة في عرض النهر؛ مما كان سيؤدي حتماً إلى غرقنا جميعا. فحمداً وشكراً "لآمون" العظيم! وبينما شرعنا في تجفيف نكبتنا في صبيحة اليوم التالي، توجهت لزيارة معبد "إسنا" الذي كُتبت له النجاة لحين من الوقت من عبث الأيدي الهمجية بعد تحويله إلى مخزن للقطن. وقد رأيت كما كنت أتوقع عمارة جيدة تزينها نقوش ركيكة. ويعتبر الباب والجزء الداخلي للمقصورة التي أسند اليها الرواق من أقدم الأجزاء المشيدة في عهد "بطليموس الخامس". كما يحمل إفريز واجهة مقدمة الهيكل نصوصاً للامبراطور "كلود"، وأفاريز القواعد الجانبية نصوصاً "لتيتوس Titus". أما الجدران الداخلية وأعمدة مقدمة الهيكل فتغطيها نصوص ترجع إلى عهد "دوميشيانوس" و"تراجان" وخصوصاً "انتونينوس بيوس" وأخيراً "سبتيم سفيروس Septime-Sévère" الذي عثرت على اسمه للمرة الأولي هنا. وقد كُرس هذا المعبد للإله "خنوم". ويشير نص هيروغليفي محفور على أحد أعمدة مقدمة الهيكل إلى أن قدس الأقداس يرجع إلى عهد "تحتمس الثالث". إلا أن كل ما بقي ظاهراً للعيان في "إسنا" يرجع إلى العصور المتأخرة.

وفي مساء التاسع والعشرين من نوفمبر رسونا في "الكاب" المعروفة عند اليونان باسم "باليثيا سبوليس". وقد جُبت الحرم والأطلال على ضوء في يدي، إلا أنني لم أعثر على أي شيء فقد اندثرت أنقاض المعبدين اللذين تم هدمهما منذ عهد قريب لاستخدام أحجارهما في تدعيم رصيف أو بناء من أبنية الباشا. فهل تراني أخطأت في الإسراع بالقدوم إلى مصر!

وفي عصر اليوم التالي زرت معبد مدينة "إدفو" المعروفة عند اليونان "بأبوللينوبوليس ماجنا". وهو في حالة جيدة جداً من الحفظ بالرغم من ركاكة نقوشه. ويرجع أقدم أجزائه وأفضلها إلى عهد "بطليموس الخامس"، ثم يأتي من بعده "بطليموس السادس" و"بطليموس الثامن" (يورجتيس الثاني) وأخيراً "بطليموس التاسع" وأخوه "الإسكندر"، وقد قام هذان الأخيران بأعمال مدهشة. كما عثرت على صورة لـ"برنكي" زوجة "بطليموس الإسكندر" والتي كنت أعرفها من قبل من خلال عقد مكتوب بالخط الديموطيقي. وقد كُرس هذا المعبد للإله "حورس". وسأقوم بدراسته دراسة مستفيضة مثل بقية المعابد الأخري في طريق عودتي من بلاد النوبة.

ثم رسونا في الأول من ديسمبر بالقرب من محاجر جبل "السلسلة". وهناك متعت عيناي برؤية نقوش فرعونية، بعد أن سئمت من كثرة ما شاهدته مؤخراً من نقوش بطلمية ورومانية. وتنطوي تلك المحاجر على العديد من نصوص الأسرة الثامنة عشرة. كما نجد مقاصير صغيرة منحوتة في الصخر ترجع إلى عهد كل من "أمينوفيس ممنون" و"حورس" و"رمسيس الأكبر" و"رمسيس ميآمون" و"مندوي"...الخ. كما تُوجد نصوص هيراطيقية جميلة أرجؤ دراستها لحين عودتي من الشلال الثاني آملاً في جمع نتائج هامة في ذلك الموقع.

ثم بلغنا "كوم أمبو" في مساء الأول من ديسمبر. وفي صباح اليوم التالي هرولت إلى المعبد الذي ترجع أقدم أجزائه إلى عهد "بطليموس السادس" و"بطليموس الثامن" (يورجتيس الثاني). وأغرب ما في الأمر هو لقب (Dropion أو Tryhaene أو كل الألقاب اليونانية المشابهه) الذي تنتحله دوماً "كليوباترا" زوجة "بطليموس السادس" سواء في الإهداء الهيروغليفي أو في النقوش البارزة الداخلية. وقد سبق أن صادفني هذا اللقب في نص عقد من العقود الديموطيقية المحفوظة في متحف "اللوفر". وقد كُرس معبد "كوم أمبو" لمعبودين في ذات الوقت. إذ كُرس الجزء الأيمن والأكثر روعة إلى المعبود "سبك" ذو رأس التمساح والمعبودة "حتحور" والمعبود الشاب "خنسو". بينما كُرس الجزء الأيسر لثالوث آخر أقل أهمية ويتكون من المعبود "Aroéris" والمعبودة "Tsonénofré" وابنهما "Pnéυthυ". كما عثرت في أسوار حرم معابد "كوم أمبو"

على باب مشيد بإتقان يرجع إلى عهد "تحتمس الثالث"، ويُعتبر من بقايا أقدم العمائر في ذلك الموقع.

وفي صباح الرابع من ديسمبر سمحت لنا الرياح أخيراً ببلوغ أسوان، آخر مدن مصر الجنوبية. وقد شعرت بحسرة شديدة لتدمير معبدى "إلفنتين" اللذين كنت أعتزم زيارتهما بمجرد أن يخف أوار الشمس. وأصبح عليّ أن أقنع بأنقاض باب من الجرانيت كرسه "الإسكندر" (ابن الإسكندر الأكبر) لـ"خنوم" إله ألفنتين، وبنحو اثنتي عشر نقشاً هيروغليفياً منحوتاً في سور قديم، وأخيراً ببعض الأنقاض الفرعونية المتناثرة والتي أعيد استخدامها مرة أخرى في تشييد عمائر رومانية. وقد تعرفت هذا الصباح على كل ما تبقى من معبد أسوان ويتمثل في نقوش ركيكة للغاية. إلا أنني عثرت بينها وللمرة الأولى على اسم "نرفا Nerva" الذي لا يوجد في أي مكان آخر على حد علمي. وقد كُرس هذا المعبد الصغير والرديء إلى معبودات تلك الناحية والشلال الأول وهي "خنوم" و"ساتت" و"عنقت".

أفرغنا مراكبنا في أسوان، ونقلنا كل أمتعتنا على ظهور الجمال إلى جزيرة "فيله". وفي مساء الخامس من ديسمبر امتطيت حماراً وتوجهت إلى "فيله" مستنداً إلى رجل عربي متين البنية بسبب آلام الروماتيزم التي كنت أعاني منها في القدم اليسرى. ثم اخترقت كل محاجر الجرانيت الوردي التي تغص بالنصوص الهيروغليفية القديمة. ولما كنت عاجزاً عن السير بعد عبوري النيل في مركب والرسو في الجزيرة المقدسة، قام أربعة رجال يعاونهم ستة آخرون -نظراً لشدة انحدار الجبل- بحملي فوق أكتافهم ورفعي حتى المعبد الصغير. وقد هيأت لي حجرة في أبنية رومانية عتيقة تشبه السجن إلى حد بعيد، ولكنها صحية وفي منأى عن الرياح. وفي صباح السادس من ديسمبر استندت إلى خادمي محمد البربري وسليمان العربي وتوجهت في عناء ومشقة لزيارة المعبد الكبير. وعند عودتي لازمت الفراش ولم أبارحه حتى الآن بسبب نوبات النقرس التي أخذت تعاودني وتتربص بي من جديد، وإن كانت غير خطيرة، وسأشفى منها غداً أو بعد غد. وفي انتظار ذلك شرعنا في إعداد المراكب التي ستقلنا إلى بلاد النوبة. وسأكتب لك من هناك إذا

سنحت لي الفرصة. كل شيء يجري على أحسن ما يرام. لا تقلق بشأني فالآلهة ترعانا.

تسلمت أخيراً في "فيله" خطابات من أوروبا : واحداً من زوجتي بتاريخ الخامس عشر من أغسطس، واثنين منك بتاريخ الخامس والعشرين من أغسطس والثالث من سبتمبر. أما باقي الرسائل الأخرى فلا يعلم مصيرها إلا الله ! على أية حال هذا أفضل من لا شيء ! وقد تعودت القناعة والرضى بالقليل.

* * *

وادي حلفا، الشلال الثاني في ١ يناير ١٩٢٩

صديقي العزيز،،

هاأناذا أنجح في بلوغ منتهى رحلتي، إذ أصبح الشلال الثاني أمامي، ذلك السد الجرانيتي الذي تمكن النيل من التغلب عليه والذي لن أتجاوزه أنا. فأبعد من ذلك تُوجد بالطبع العديد من الآثار، ولكنها في حقيقة الأمر قليلة الأهمية. وحتى لو رغبنا في مواصلة التقدم فسيتعين علينا من جهة أخرى التخلي عن مراكبنا، والجثوم فوق ظهور الجمال التي يصعب توفيرها، واختراق الصحراوات، ومواجهة مخاطر الموت جوعاً. إن أربعة وعشرين فرداً ينبغي إطعامهم على الأقل مثل عشرة أفراد، والطعام نادر جداً في تلك الناحية، وقد كُتبت لنا النجاة بفضل المؤن الغذائية التي أتينا بها من أسوان. كل تلك الأسباب تُحتم عليّ التوقف عند هذا الحد، وتغيير اتجاهي للبدء حقاً في استكشاف النوبة ومصر اللتين كونت فكرة عامة عنهما عند صعودي النهر. إن عملي يبدأ اليوم بالفعل. وبالرغم من أنني جمعت حتى الآن ما ينيف عن ستمائة رسم فإن مجرد التفكير فيما يتبقى من عمل يملأني رهبة. بيد أنني أعتقد أن ثمانية أشهر ستكون كافية لإتمام ما تبقى على أكمل وجه. وسأكرس شهر يناير لاستكشاف النوبة، وسأستقر في "طيبه" من منتصف فبراير وحتى منتصف أغسطس. وبعد ذلك سأنزل النيل سريعاً دون أن أتوقف إلا في "دندره" و"العرابة المدفونة" (أبيدوس). أما باقي

الآثار فقد فرغت منها. وبعد ذلك سنزور القاهرة والإسكندرية مرة أخرى. وسنستريح بضعة أيام في القاهرة لنعود إلى الإسكندرية في أواخر شهر سبتمبر. وأنا أعتمد عليك لحث وزير البحرية على تدبر أموره بحيث نجد سفينة مناسبة جاهزة للإقلاع من الإسكندرية إلى أوروبا في الأيام الأوائل من شهر أكتوبر ١٩٢٩.

لقد كتبت إليك آخر رسالة من "فيله". وما كان المرض ليطول بي في جزيرة "إيزيس" و"أوزيريس" المقدسة. فسرعان ما شفيت من النقرس والآمه، وشرعت في استكشاف الآثار. وكل ما رأته عيناي حديث، أي يرجع إلى العصرين اليوناني والروماني، ما عدا معبد صغير مُكرس للمعبودة "حتحور" وباب ملتحم بالصرح الأول لمعبد "إيزيس"، وقد شيدا في عهد "نختنبو الأول". ويُعد ذلك من أجمل ما رأيت. أما نقوش المعبد الكبير التي بدأها "بطليموس الثاني" (فيلادلفوس) وتابعها من بعده "بطليموس الثالث" (يورجتيس الأول) و"بطليموس الخامس"، ثم أتمها "بطليموس السادس" و"بطليموس الثامن" (يورجتيس الثاني) فهي تتمشى تماماً مع روح تلك الحقبة من الانحطاط في الفنون. إذ نشهد أجزاء العمائر التي قام الرومانيون بتشيدها وزخرفتها بالذوق الركيك. وعندما غادرت تلك الجزيرة كنت في غاية السأم من تلك النقوش. ومع ذلك فقد قررت التوقف بها بضعة أيام في طريق عودتي لتكملة الجزء المتعلق بالميثولوجيا والأساطير. وسأستعيض عن ذلك بالطواف بصخور الشلال الأول المغطاه بالنصوص التاريخية الفرعونية.

لقد تركت مركبي المعاش والدهبية في أسوان نظراً لكبر حجمهما الذي يحول دون اجتياز الشلال. واستبدلناهما في السادس عشر من ديسمبر بأسطول جديد يتكون من مركب دهبية صغيرة تحمل راية فرنسا وتوسكانيا، وقاربين يحملان راية فرنسا وقاربين آخرين يحملان راية توسكانيا، وقارب لنقل المؤن الغذائية واعداد الطعام يحمل راية زرقاء، وقارب أخير يقل قواتنا المسلحة التي تتشكل من جنديين من الحرس الشخصي للباشا بعصيهم ذات المقابض الفضية. وكانت الدهبية مسلحة بمدفع كبير أعاره لنا صديقنا الجديد ابراهيم مأمور "إسنا" عند مروره "بفيله"، لذلك لم نتوان في إطلاق المدفعية ابتهاجاً ببلوغنا الشلال الثاني.

ثم أقلعنا من "فيله" صوب النوبة تدفعنا الرياح المواتية دفعاً. واجتزنا "دابود" دون أن نتوقف بها لرغبتنا في الوصول بأسرع ما يمكن إلى منتهى رحلتنا. وفي الساعة الرابعة من مساء السابع عشر من ديسمبر ألفينا أنفسنا أمام آثار "قرطاسة" الصغيرة التي لم تمدنا بأية معلومات جديدة. ثم اجتزنا في اليوم التالي "تفاح Taffah" و"كلابشة" دون أن نرسو. ودخلنا بعد ذلك في منطقة خط الاستواء المحرقة. ثم قضينا الليل أسفل "دندور" التي اكتفينا بتحية معبدها من بعيد. وكذلك فعلنا في اليوم التالي بآثار "جرف حسين" ومعبد "الدكة" الكبير الذي يرجع إلى عهد البطالمة. وفي المساء رسونا في معبد "المحرقة" الذي يرجع إلى عصر متأخر، وقد تحول قديماً إلى كنيسة قبطية. وفي العشرين من ديسمبر قضينا ساعة في "وادي السبوع" الذي أطلق عليه هذا الاسم لوجود تماثيل أبي الهول التي تزين حرم معبد شُيد في عهد "سنوسرت" من الأحجار والملاط. وقد جمعت عينات من هذا الملاط وكذا من ملاط الأهرامات...الخ خصيصاً لصديقنا "فيكا" الذي سيسعد كثيراً بها. وعلى الرغم من ركود الرياح في يومي الواحد والعشرين والثاني والعشرين جعلنا ندور حول "عمدا" التي أعتزم دراسة معبدها الهام في طريق عودتي من الشلال الثاني. وفي باكورة الثالث والعشرين بلغنا "الدر" حيث وجدت معبداً رائعاً منحوتاً في الصخر لايزال يحتفظ ببعض النقوش البارزة التي تصور غزوات "رمسيس الأكبر"، وكذلك أسماء سبعة من أبنائه وثمانية من بناته.

وقد قمنا بزيارة رئيس "الدر" الذي أخبرنا بمنتهى الصراحة أنه لا يملك ما يقدمه لنا، لذلك سيأتي هو للعشاء عندنا. إن ذلك يُعطيك فكرة بسيطة عن "فخامة" وثروات عاصمة النوبة ! كما لم نفلح في عمل خبز لعدم وجود فرن أو خبّاز في تلك الناحية. وعند شروق شمس اليوم التالي غادرنا "الدر" مارين بحصن "إبريم" المنهار. ثم توجهنا للمبيت على الضفة الشرقية للنيل في جبل "Mesnès"، وهو مكان ساحر ومزروع بعناية. وأخذنا نتقدم في الخامس والعشرين من ديسمبر تدفعنا الرياح تارة وتشدنا الحبال تارة أخرى. ولكننا كان يعزينا عن عدم بلوغ "أبو سمبل" في ذلك اليوم رؤية تمساح جميل يرتع ويلهو فوق جزيرة رملية صغيرة بالقرب من مكان مبيتنا.

ثم رسونا أخيراً في الساعة التاسعة من صباح السادس والعشرين في "أبو سمبل"، حيث أصبح بوسعي الاستمتاع بأروع آثار النوبة حيث يوجد معبدان منحوتان كلياً في الصخر ومغطيان بالنقوش. أما أصغرهما فقد كرسته "نفرتاري" زوجة "رمسيس الأكبر" للمعبودة "حتحور". وتزدان واجهته الخارجية بستة تماثيل ضخمة منحوتة في الصخر يبلغ ارتفاع كل منها نحو خمسة وثلاثين قدماً، وتُصور الفرعون وزوجته وأسفل أقدامهما نرى أولادهما وبناتهما على التوالي بأسمائهم وألقابهم. وتبدو تلك التماثيل العملاقة المنحوتة بمهارة في قمة الرشاقة والتناسق، على نقيض ما نشره "جو" لها من صور قبيحة وممسوخة. وإنني أحنق عليه كثيراً لتلك الفعلة. وقد قمت بنسخ أهم النقوش البارزة الجميلة التي تُزين هذا المعبد.

أما معبد "أبو سمبل" الكبير فيستحق بمفرده مشقة القدوم حتى النوبة. إنه لؤلؤة براقة لن تفقد شيئاً من رونقها حتى لو وضعناها في قلب "طيبه". وتملأنا الرهبة لمجرد تخيل ما تطلبه ذلك من أعمال جسيمة وجهود مضنية. وتزدان واجهته بأربعة تماثيل ضخمة منحوتة بإتقان تصور "رمسيس الأكبر" جالساً، ولا يقل ارتفاع كل منها عن واحد وستين قدماً، وتتشابه وجوهها تماماً مع وجوه هذا الفرعون الموجودة في "منف" و"طيبه" وباقي الأماكن الأخرى. إن مدخل المعبد يخطف الألباب، وكذلك حاله من الداخل على الرغم من صعوبة زيارته. فعند وصولنا كان المدخل مغموراً بالرمال التي يحرص النوبيون على سده بها. ثم قمنا بإزاحتها بحيث نهيؤ ممراً ضيقاً يُفضي إلى الداخل، متخذين كافة الاحتياطات الممكنة لدرء خطر تدفق تلك الرمال اللعينة من جديد والتي تهدد بالتهام كل شيء في مصر والنوبة. ثم خلعت كل ملابسي تقريباً، ولم أحتفظ إلا بقميصي العربي وبسروال صغير من الكتان. وتقدمت منبطحاً نحو فتحة صغيرة لباب لا يقل ارتفاعه عن خمسة وعشرين قدماً بعد إزاحة الرمال من حوله. عندئذ أحسست وكأنني في فوهة فرن. ثم إنزلقت داخل المعبد حيث كانت الحرارة تبلغ اثنين وخمسين درجة مئوية. وشرعت أطوف فيه أنا و"روزليني" و"ريتشي" وواحد من العربان، وقد أمسك كل منا بشمعة في يده. كانت القاعة الأولى تستند على ثمان دعائم يتكيء على كل منها تمثال ضخم لـ"رمسيس الأكبر"

يبلغ ارتفاعه ثلاثين قدماً. كما تحمل جدارن تلك القاعة الفسيحة صفاً من النقوش البارزة التاريخية الكبيرة التي تتعلق بما شنه هذا الفرعون من غزوات في إفريقية. ونرى على وجه الخصوص نقشاً بالحجم الطبيعي يُصور عجلته الحربية تجر جماعات من الأسرى النوبيين والزنوج...الخ. وهو تكوين رائع الجمال عظيم التأثير في النفس. كما تزخر القاعات الستة عشرة الأخرى بالنقوش الجميلة والفريدة. ويُفضي كل ذلك إلى قدس الأقداس، وقد نُحت في جوفه أربعة تماثيل رائعة أكبر من الحجم الطبيعي تُصور "آمون رع" و"رع حور آختي" و"بتاح" و"رمسيس الأكبر" جالساً في وسطهم. وحتى الآن لم يُقدم لنا أحد رسماً جيداً لتلك المجموعة، إذ جاء رسم "جو" تافهاً مقارنة بالأصل.

وبعد ساعتين ونصف من الإعجاب والانبهار، وبعد أن أتينا على كافة النقوش، شعرنا بالحاجة إلى استنشاق الهواء النقي. لذلك تعين علينا التوجه إلى مدخل ذلك الأتون المستعر متخذين حيطتنا للخروج منه. وبمجرد خروجي إلى النور سارعت بارتداء صدريتين من القطن الناعم وبرنس من الصوف ومعطفي الكبير. وبقيت جالساً على هذة الحال لمدة نصف ساعة حتى يجف عرقي بالقرب من أحد التماثيل العملاقة الخارجية. وكانت ربلة ساق التمثال تحجب عني عصف الرياح الشمالية. ثم رجعت بعد ذلك إلى القارب حيث أخذت أتصبب عرقاً لمدة ساعة أو ساعتين. وقد أثبتت لي تلك الزيارة التجريبية إمكانية المكوث من ساعتين ونصف إلى ثلاث ساعات داخل المعبد دون أن ينتابنا أي ضيق في التنفس، ولكن مجرد وهن في الساقين والمفاصل. وأخلص من ذلك إلى أنه سيكون بمقدورنا عقب الرجوع من الشلال الثاني نسخ النصوص البارزة التاريخية عن طريق العمل لمدة ساعتين صباحاً وساعتين مساء في مجموعات مكونة من أربعة أفراد كي لا نستنفذ سريعاً كمية الهواء الموجودة داخل المعبد. وبالطبع سيكون ذلك أمراً شاقاً وعسيراً، إلا أنني سأقدم على عمل أي شيء في سبيل الحصول على تلك النقوش البارزة والنصوص الكاملة الرائعة.

في صباح الثامن والعشرين من ديسمبر غادرنا "أبو سمبل". وعند الظهيرة توقفنا في جبل "عده Addèh" حيث يوجد معبد صغير منحوت في الصخر. وقد قام الأقباط بتغطية معظم نقوشه البارزة

بطبقة من الملاط، رسموا عليها صوراً للقديسين وخاصة القديس "جورج" فوق حصانه. بيد أنني قدمت لرؤية قديسين أكثر قدماً. وقد وُفقت عن طريق نزع تلك الطبقة من الملاط إلى اكتشاف أن الملك "حورس" ابن "أمينوفيس ممنون" كان قد كرس هذا المعبد للإله "تحوت". كما نجحت في نسخ ثلاثة رسوم بارزة هامة جداً بالنسبة للميثولوجيا والأساطير. ثم ذهبنا للمبيت في "فراس Faras". وفي اليوم التالي لم نتجاوز "سري Serré" بسبب سكون الرياح. ثم وصلنا أخيراً في منتصف نهار الثلاثين من ديسمبر إلى وادي "حلفا" الذي كان على مسيرة نصف ساعة من الشلال الثاني.

وعند غروب الشمس قمت بنزهة إلى الشلال الثاني، ولم أشرع في العمل بجدية إلا أمس. وقد عثرت في الضفة الغربية للنيل على أنقاض ثلاث عمائر لم تحتفظ إلا بأجزاء من النصوص الهيروغليفية. أما عن أولى تلك العمائر التي تقع إلى أقصى الشمال، فكانت صغيرة ومربعة الشكل وخالية من النقوش وقليلة الأهمية. وعلى العكس من ذلك فقد جذبت العمارة الثانية انتباهي كثيراً. وكانت لمعبد شُيدت جدرانه من قوالب كبيرة من الطوب اللبن، ويستند من الداخل على ركائز وأعمدة من الحجر الجيري. وكانت تلك الأعمدة ـ مثل سائر أعمدة العصور القديمة ـ تشبه النوع الدوري. ثم أمرت البحارة العرب بالتنقيب بأيديهم حول بقايا الركائز والأعمدة التي تحمل أثراً لنصوص هيروغليفية. وقد استنتجت من ذلك أن الملك "أمنحتب الثاني" ابن الملك "تحتمس الثالث" وخليفته هو الذي كرس هذا المعبد للإله "آمون-مين". كما حالفني الحظ في العثور على نهاية إهداء المعبد محفورة على أنقاض قوائم الباب الأول. وفضلاً عن ذلك فقد اكتشفت وأزحت الرمال بيدي عن لوح كبير مثبت في سور المعبد المشيد من الطوب ويحمل قائمة بالهبات والعطايا التي أغدقها "رمسيس الأول" على المعبد، بالإضافة إلى ثلاثة أسطر تحمل نفس المعنى أضافها خليفته "راتوريس Rathoris" كما جاء في القوائم الملكية وليس "مندوي" كما كنت أعتقد في البداية. وأخيراً أمرنا كل نوتية المراكب باستخدام المجارف والمعاول في تنقيب المعبد، أو بالأحرى الموضع الذي كان يشغله، بناء على توجيهات الدكتور "ريتشي". وقد عثرنا على لوح كبير وهام كنت أعرفه من خلال رسوم الدكتور "ريتشي"،

وكان يُصور الإله "منتو" وهو واحد من أكبر آلهة النوبة يقود كل قبائل النوبة ويُخضعهم للملك "وسركون Osortasen". وقد صُور كل واحد من تلك الشعوب الخمس على هيئة رجل راكع ومقيد بالأغلال ويحمل ما يشبه درعاً دُون عليه اسمه. وتلك أسماؤهم أو بالأحرى أسماء البقاع التي كانوا يقطنونها : "شاميك Schamik" و"اوساو Osaou" و"شوات Schôat" و"اشاركين Ascharkin" و"كوش"، بالإضافة إلى ثلاثة أسماء أخرى مطموسة.

وعلى مبعدة قليلة نجد معبداً آخراً ولكنه أكبر من المعبد السابق ومتهدماً مثله يرجع إلى عهد "تحتمس الثالث". كما شُيد كذلك من الطوب اللبن بركائز وأعمدة دورية بدائية ودعامات أبواب من الحجر الرملي. وكان هذا المعبد الكبير تابعاً لمدينة فرعونية تسمي "بيحيني" كانت تشغل نفس هذا الموقع. ويبدو لنا من خلال امتداد أنقاض الفخار المتناثرة على طول السهل المقفر أنها كانت مدينة كبيرة، أو على الأرجح حصناً استخدمه المصريون في قمع القبائل التي قطنت الأراضي الواقعة بين الشلالين الأول والثاني. وقد كُرس هذا المعبد -مثل معظم الآثار الكبيرة في النوبة- للمعبودين "آمون رع" و"رع حور آختي"، وهذا هو كل ما تبقى من آثار في وادي "حلفا"، وهو يفوق بكثير ما توقعته من المعاينة الأولى للأطلال. أختم هنا رسالتي التي سينقلها "لونرمون" بنفسه إلى فرنسا. كما سيأتيك بمجموعة كاملة من النصوص اليونانية التي جمعتها في "فيله" و"الدكة"...الخ. بينما أهتم أنا بباقي النصوص الأخرى.

وأخيراً أتمنى لك ولكل ذوينا عاماً سعيداً، وأقبلكم جميعاً في هذه المناسبة.

ج.ف.شامبليون

ملحوظة : بلغ أخباري إلى زوجتي وأعلمها أنني سأكتب اليها من "أبو سمبل"...

* * *

من شامبليون إلى السيد "داسييه"

وادي حلفا في ١ يناير ١٩٢٩

سيدي ،،

بالرغم من الصحراوات الشاسعة والبحار الممتدة التي تفصل بيننا، أشعر بالرغبة المخلصة في الإنضمام ولو عن طريق الفكر ومن صميم القلب إلى كل الذين يتقدمون إليكم بأطيب التمنيات بمناسبة حلول عام جديد. إن أمنياتي حتى ولو جاءت من أعماق النوبة فلن تكون أقل حماسة وإخلاصاً. فلتتفضلوا بقبولها عرفاناً مني بمكارمكم، وبتلك العاطفة الأبوية التي أسبغتموها عليّ وعلى أخي.

الآن وبعد أن تتبعت مجرى النيل من مصبه وحتى الشلال الثاني، أعلن لكم بكل زهو وفخر بأن "رسالتنا حول الأبجدية الهيروغليفية" صحيحة تماماً ولا تتطلب أي تعديل. إذ يمكن تطبيق تلك الأبجدية الصائبة التي وضعناها بنفس النجاح على الآثار المصرية التي ترجع إلى العصرين الروماني والبطلمي. وكذلك ـوهو ما يمثل أهمية أعظمـ على نصوص كافة معابد وقصور ومقابر مختلف العصور الفرعونية. لذلك فكم كنتم على حق في التأييد والتشجيع اللذين أوليتموهما لأبحاثي الهيروغليفية في وقت لم تكن تحظي فيه إطلاقاً بأي اهتمام أو تأييد من أحد.

هاأنـاذا أبلغ منتهي رحلتي إلى مصر العليا. فالشلال الثاني يعترضني: أولاً لاستحالة عبوره بأسطولي الذي يتكون من سبع مراكب شراعية، وثانياً لأن المجاعة تتربص بي إذا ذهبت أبعد من ذلك، ولن تلبث أن تُحبط أي محاولة طائشة للتسلل إلى أثيوبيا. وما كنت لأقلد "قمبيز"، إذ أنني متعلق برفاق رحلتي أكثر من تعلقه هو برفاقه على الأرجح. لذلك فاعتباراً من اليوم سأدير دفتي في اتجاه مصر العليا لأنزل النيل لأتعمق في دراسة الآثار الموجوده على

شاطئيه على التوالي، ولأسجل كل التفاصيل التي تحمل أهمية من أي نوع. ووفقاً للفكرة العامة التي كونتها أثناء صعودي النيل فإنني أستبشر بحصاد غني وغزير.

سأبلغ "طيبه" في حوالي منتصف شهر فبراير، إذ ينبغي أن أكرس خمسة عشر يوما على الأقل لدراسة معبد "أبو سمبل" الرائع الذي يُعد إحدى عجائب النوبة. وسيكفيني شهر واحد بعد ذلك لتفحص الآثار الواقعة بين الشلالين الأول والثاني. ولقد فرغت تقريباً من آثار "فيله" خلال العشرة أيام التي قضيتها في تلك الجزيرة في طريق صعودنا النيل. أما معابد "كوم أمبو" و"إدفو" و"إسنا" التي قام علماء الحملة الفرنسية بتعظيمها أكثر من اللازم وعلى حساب معابد "طيبه" التي لم تستحوذ على كل إعجابهم، فإنها لن تُوقفني إلا القليل من الوقت، فقد سبق أن فرغت منها، كما أنني أجد تفاصيلها الأسطورية والدينية التي لا أرغب في نهلها إلا من منابع صافية منقوشة على جدران آثار أخرى أروع وأكثر قِدماً. لذلك سأكتفي بجمع بعض النصوص التاريخية وتفاصيل الثياب التي ترجع إلى عصر الانحطاط والاضمحلال.

وقد قمت حتى الآن بجمع العديد من الرسوم. وإنني أبتهج مقدماً لتلك اللحظة التي سأعرض عليكم فيها رسوماً تتعلق بكافة مظاهر الحياة في مصر القديمة من ديانة وتاريخ وفنون وحرف وعادات وتقاليد، ومعظم تلك الرسوم ملونة. ولا أخشى أن أعلن أنها لا تشبه في شيء رسوم صديقنا "جومار" لأنها تطابق الطراز الحقيقي للنقوش الأصلية مطابقة أمينة ودقيقة. وسيعلم "روشيت" حينئذ إن كان المصريون القدماء [لم يبرعوا -على حد قوله- إلا في تصوير إله وملك وإنسان لم يكن بإنسان أو بملك أو بإله]. وتُعتبر "طيبه" كلها -وهو ليس بالشيء القليل- تكذيباً بليغاً لتلك العبارة الجميلة الزائفة.

وأخيراً تفضلوا سيادتكم بقبول فائق الاحترام.

ج.ف.شامبليون

ملحوظة : لقد كلفني "روزليني" و"ديشان" بأن أعرب لكم عن ولائهما واحترامهما.

* * *

من شامبليون إلى "اوجيستان تفنيه"

وادي حلفا في ١ يناير ١٩٢٩

صديقي العزيز ،،

أخط إليك هذة السطور لأتمنى لك عاماً سعيداً وعمراً مديداً... وأنا حريص على أن أبرهن لك أن الفراق لا يُنسيني أبداً أحبابي. ومهما توغلت في أعماق النوبة وطالت لحيتي وارتديت ملابس بدو الصحراء ونسيت شكل القبعة والسروال، وتناولت الطعام بأصابعي ودخنت النرجيلة ثلاث مرات يومياً وأكثرت من شرب ماء النيل، فإن كل ذلك لم يُغيرني قيد أنملة، فأنا لا أزال في قرارة نفسي كسابق عهدي ذلك "الدوفيني المحموم".

... بلغت الشلال الثاني على رأس أسطول يتكون من ستة قوارب جميلة تتسع كل منها لإقامة ثلاثة أفراد، ومركب ذهبية تتسع لإقامة أربعة أفراد مزودة بمدفع أعاره لنا مأمور إقليم "إسنا".

ويتعين عليّ الآن تغيير اتجاهي كما كنت أنوي حرصاً على أمن وسلامة قافلتي التي تتكون من أربعة وعشرين فماً من خطر الموت جوعاً في أعماق تلك النوبة الحزينة. وسأشرع إذاً في نزول النيل، وجمع كل ما سأجده في طريقي من نصوص هيروغليفية مدونة على الآثار التي سبق أن زرتها أثناء صعودي النيل لتكوين فكرة عامة عما ستطلبه من جهد ووقت... لقد تحسنت صحتي وآمل أن يدوم ذلك. فإن العوز والفضيلة تدفعاني إلى الزهد والإعتدال، ومن ثم إلى تجنب الأمراض المنتشرة. لا بد أنكم ترتعشون برداً في ذلك الفصل من العام... فلتدفأوا جيداً، ولا يفوتنكم أن تكثروا من ذكر صديقكم "النوبي" أو "المصري" ...

* * *

نبذة عن الرحلة

وادي حلفا في ٣٠ ديسمبر ١٨٢٨

لقد بلغ أسطولنا الصغير وادي "حلفا" في ظهيرة الثلاثين من شهر ديسمبر. ويُطلق هذا الإسم على إحدى مناطق النوبة الشاسعة التي تنتشر فيها الأكواخ الصغيرة على امتداد عدة أميال. كما نجد بعض المنازل المشيدة من الطين على حافة الأراضي الزراعية للضفة الشرقية للنيل ويقطنها بعض النوبيين التعساء الذين يضطهدهم أحد الوزراء كما يحلو له باسم حكومة غاشمة. إن جميع موارد وثروات تلك القبائل التعيسة التي لا تمت للعرب بأية صلة سواء من حيث اللغة أو الهيئة تتمثل في بعض أشجار النخيل والجميز الجميلة وبضعة أفدنة مزروعة بالذرة واللوبيا. إنهم على درجة من الفقر المدقع بحيث يبدو لهم مبلغ عشر بارات ثروة طائلة. وفضلاً عن ذلك فهم قوم طيبون، ولهم طبيعة مرحة مثل كل النوبيين الذين يُشبهون قدماء المصريين تماماً في رشاقتهم وقسمات وجوههم الرقيقة والمتفتحة، على عكس الأقباط الذين لم يحتفظوا بأي من تلك السمات.

وعند غروب الشمس ذهبت للتنزه على الضفة اليسرى للشلال، بحثاً عن أنقاض المعابد التي أشار إليها الدكتور "ريتشي" دون أن أعثر على أي شيء.

يتكون الشلال من جزء من مجرى النهر يعترضه عدد لا يحصى من الصخور المدببة، يمتد بعضها على صفحة الماء، بينما يبلغ البعض الآخر ارتفاعات متفاوتة. كما يُكون العديد منها سلسلة من جزر صغيرة تُغطيها الأشواك والأشجار الصغيرة، مما يعطي الشلال طابعاً طريفاً. أما الصخور التي تتسرب مياه النيل من خلالها بمشقة كبيرة

فتتكون من أحجار "السربنتين" الصلدة، وليس من أحجار "البازلت" كما يتراءى لنا لأول وهلة.

ولما كان اليوم الثاني استقلينا المراكب ونزلنا النهر حتى أسفل منازل وادي "حلفا"، ورسونا على الضفة الغربية بالقرب من الأطلال التي كنت أود فحصها.

وتعرفت في باديء الأمر على مداميك الختم لأحد المعابد، ثم مداميك معبد آخر أكبر حجماً، وأخيراً أنقاض بناء صغير مربع الشكل عديم الأهمية.

ولما كان هدفي الأساسي يتمثل في البحث عن لوح يرجع إلى عهد الملك "وسركون" عرفته من خلال رسوم الدكتور "ريتشي"، جعلت أجوب الأنقاض في كل اتجاه أملاً في العثور عليه. كما أشركت في البحث السيدين "لونرمون" و"ديشان"، علاوة على خادمي العربي "سليمان" الذي توغل داخل الأراضي حاملاً بندقيته على كتفه. وعندما لمحت أنقاضاً حديثة من الطوب اللبن تبعته حتى بلغت الصحراء. ولحسن الحظ كان الجو معتدلاً بفضل الرياح الشمالية، فتمكنت بدون مشقة كبيرة من اجتياز ذلك السهل المقفر والذي تغمره الرمال التي تتساقط في النهر. وكثيراً ما يبرز الحجر الرمليالذي تتكون منه التربة ويعكس أشعة الشمس التي تعطيه بريقاً لازوردياً. وعندما اقتربت من التلال المخروطية الشكل التي تفصل بين الصحراء وشاطيء النهر، تبينت أنها تتكون من طبقات من الحجر الرملي المتحلل المحمر والمائل إلى الزرقة. بيد أنه في هذا المكان، كما هو الحال في سائر بلاد النوبة ابتدأ من "إبريم"، يتخذ الشلال والجبال أشكالاً منتظمة جداً حتى لنخالها عن كثب أهرامات حقيقية أو عمائر ضخمة.

ثم رجعت أدراجي إلى المعابد بعد أن أعياني البحث عبثا عن لوح "وسركون". وشرعت في تفحص أنقاض المعبد الثاني المشيد في معظمه من الطوب. وقد كرس لعبادة "حرآمون Harammon"، وتعود أجزاؤه المشيدة من الأحجار إلي عهد "امنحتب الثاني" ابن "تحتمس الثالث". وبعد إزاحة الرمال التي كانت تغطي قواعد ركائزه تبينت بالقرب من الجدار المشيد من الطوب الجزء العلوي لنقش بارز يُصور وجهين. وسرعان ما تأكدت من أنني بصدد لوح؛ فأمرت نوتية المركب الصغير بإزاحة الرمال من حوله بأيديهم. يرجع هذا اللوح إلى عهد "رمسيس الأول" علاوة على إضافات أدخلها خليفته "مرينبتاح". ثم تأكدت بعد ذلك من أن المعبد الكبير المجاور يرجع إلى عهد "تحتمس الثالث"، وقد كُرس للمعبود "تحوت" ملك النوبة كما جاء في نصوص "الدكا".

ثم لحق بنا باقي أعضاء البعثة على متن الدهبية والقوارب الأخرى بعد أن قام السيدان "لونرمون" و"ديشان" بنقش أسماء أعضاء بعثتنا على أحد صخور الشلال. عندئذ تذكر "ريتشي" ـ الذي سبق له زيارة تلك الأنقاض ـ أن اللوح الذي أبحث عنه موجود داخل القاعة الرئيسية الثالثة لحرم المعبد الصغير وعندئذ جمعت كل البحارة، وزودتهم بمجارف ومعاول كنا نحتفظ بها في الدهبية، وسرعان ما عثرت على اللوح الذي أضناني البحث عنه.

كان هذا اللوح في الواقع أثراً تاريخياً طريفاً للغاية، إذ يُسجل خضوع قبائل النوبة لـ"وسركون" أحد ملوك الأسرة السادسة عشرة. ولما تأكدت من إمكانية نقله، أمرت البحارة بالشروع في العمل. وفي أقل من نصف ساعة نجحوا في سحب تلك الكتلة حتى ضفاف النيل مستعينين بحبل واحد. وبعد العشاء انشغلت في الكتابة إلى أخي وإلى السيد "داسييه" والفيكونت "روشفوكو". ولم أخلد للنوم إلا في ساعة متأخرة من الليل.

* * *

١ يناير ١٨٢٩

توجه البحارة في صباح اليوم إلى المعبد الصغير لنقل لوح "رمسيس الأول" إلى شاطيء النهر، وشحنه على متن الدهبية. بينما شُحِن لوح "وسركون" على متن قارب "جايتانو" التوسكاني. وأثناء تلك العملية فرغت من كتابة رسائلي وسلمتها للسيد "لونرمون" قبل توديعه.

وفي حوالي الساعة التاسعة صباحاً أخذنا ننزل النيل مدفوعين بقوة التيار. وشعرت بلذة غامرة لأننا نسير في هذا الاتجاه الشمالي الذي يقربني في كل لحظة من "طيبه" وكذلك من "باريس". وأمسك البحارة النوبيون بمجاديفهم منشدين أغنية الرحيل. وقد انكببت على تدوين ملاحظاتي حول آثار وادي "حلفا" التي ما لبثت أن غابت عن أنظارنا وكذا صخور الشلال السوداء. وقد تسبب هبوب الرياح الشمالية الشديدة في إعاقة تقدمنا.

وعند المغيب رسونا في قرية "غربة سري Gharbi-Serré" الواقعة في مواجهة أنقاض قرية مُحصنة قديمة. ثم وضعنا "القفص" الذي نأكل عليه فوق الشاطيء في مكان مزروع بجانب ساقية تشدها بقرتان وتُحدث ضجيجاً عالياً. وقد تناولنا عشاء لذيذاً، برع الطاهي في إعداده، وأضفنا إليه زجاجتين من نبيذ "سان جورج" أضفتا على تلك الوجبة جواً من المرح والسعادة يتناسب تماماً مع أول أيام السنة.

وعقب العشاء قمنا بتوزيع "البقشيش" وهدايا رأس السنة على الخدم. وتناول كل أعضاء البعثة القهوة على متن الدهبية. ولم يفتنا أن نُفرغ زجاجة من خمر "جرونبل" احتفاء بالنجاح الذي أحرزناه حتى الآن. ثم نمت في الساعة الحادية عشرة مساء.

* * *

٢ يناير ١٨٢٩

في الساعة السادسة والنصف من صباح اليوم غادرنا "غربة سري" وتقدمنا كثيراً بفضل ركود الرياح الشمالية أثناء الليل. وسرعان ما اجتزنا "فراس" وجزيرتها. ثم رسونا في الحادية عشرة والنصف على الضفة الشرقية للنيل للبحث عن مقابر "مساخيط Maschkit" التي كانت تقع أسفل المكان الذي نزلنا فيه بقليل. ثم عدنا إلى المركب لنحاذي الشاطيء حتى أقرب جبل حيث عثرنا على ضالتنا. وتعين علينا التشبث بتعاريج الجبل، وتسلق صخوره الرملية التي تكاد تكون عمودية على مستوى النهر حتى ارتفاع كبير، وهناك وجدت معبداً منحوتاً في الصخر قام الأمير الأثيوبي "بوري Poéri"، صديق "رمسيس الأكبر" بتكريسه إلى الإلهة "عنقت"، علاوة على بعض الألواح والنصوص.

وبينما كنت مشغولاً بنسخ النصوص، والسيدان "لوت" و"ريتشي" يرسمان النقوش البارزة، إذا بالرياح الشمالية التي أخذت تهب قبل بلوغنا سفح الجبل تشتد وتتحول إلى إعصار مفاجيء. ولحسن الحظ كنا قد فرغنا من العمل فعدنا إلى المركب. وعلى مدى نصف ساعة أخذنا نتقدم على أمل أن يتغلب التيار على شدة الرياح العكسية. بيد أن الرياح الشمالية ازدادت عنفاً، وأخذ النيل يرغي ويزبد كالبحر، كما أخذت الأمواج العاتية تتقاذف مركب الدهبية بصورة جعلتني أشعر بدوار البحر. وأخيراً أرغمتنا الزوبعة على الرسو على الضفة الشرقية للنهر، حيث لحقنا قواربنا الصغيرة الأخرى راسية أبعد من ذلك بقليل بعد أن عجزت عن مواصلة طريقها إلى "أبو سمبل".

رسونا أمام جبل "عده" الذي كان على مسيرة نصف ساعة من "مساخيط" ويفصلهما تل كبير ثالث تقع على قمته أطلال "عده" الحديثة التي كانت على مايبدو مدينة كبيرة. كما كانت تقع في ذلك المكان على الأرجح الضيعة الفرعونية المسماه "أمنهيري"، إذ نجد هذا الاسم محفوراً على جدران معبد "تحوت" بجبل "عده" الذي يقع إلى الشمال من تلك الأنقاض، وكذلك في مقبرة "مساخيط" الواقعة إلى الجنوب.

استمرت الرياح الشمالية تعصف بشدة طوال اليوم، وغربت الشمس دون أن تقلل حدتها. ثم قضينا ليلة عاصفة أكثر كآبة من النهار، إذ أنه عندما كانت الشمس في الأفق كنا نستمتع على الأقل بلذة تأمل منظر مهيب : هيجان النيل وارتطام أمواجه بالشاطئين، وقرص الشمس تحجبه السحب الرملية المائلة إلى البياض التي كانت الرياح تذريها، والجبال المنعزلة الخلابة على الضفة الشرقية، وهضبة "أبو سمبل" الشامخة في الشمال تسبح وسط الرمال الذهبية التي تصب في النيل مثل شلال هائل.

* * *

٣ يناير ١٨٢٩

تحركنا في الساعة السادسة من صباح اليوم بعد أن هدأت الرياح بعض الشيء. ثم رسونا بعد ساعة وربع أمام معبد "حتحور" في "أبو سمبل". وقد قضيت ليلة عصيبة، واستيقظت لحظة الإقلاع وقد انتابتني نوبة نقرس في ركبتي اليمنى. وقد أزعجني ذلك كثيراً، لا سيما وأن هناك العديد من الأشياء الرائعة التي ينبغي عملها في "أبو سمبل" !

كان الجنديان المصاحبان لنا قد وصلا مساء الأمس بالرغم من الزوبعة. ثم شرعنا في تثبيت الألواح الخشبية والعوارض لتدعيم الفتحة التي تُفضي إلى داخل المعبد الكبير. ومنذ زيارتنا الأولى لم يقم النوبيون بردم تلك الفتحة كعادتهم ليتسنى لهم الحصول على "بقشيش" مقابل إزاحة الرمال من جديد عند قدوم كل رحالة. حتى أنهم أرادوا فرض ضريبة تُقدر بعشرين قرش على القبطان "رينيه" من سلاح البحرية البريطانية الذي زار "أبو سمبل" قبلنا ببضعة أيام.

وفي منتصف النهار فرغنا من تدعيم الفتحة المفضية إلى داخل المعبد وأصبحت آمنة. ودخلت أول مجموعة من الرسامين المعبد لنسخ النقوش البارزة في الساعة الثالثة من بعد الظهر. وعند قياس الضغط الجوي لم يتعد ترمومتر "ريومور" ثمانية وعشرين درجة

أمام دهشة الجميع. علماً بأن القبطان "رينيه" وحتى "ريتشي" قد حدثانا عن اثنين وخمسين درجة "ريومور"، وعن ما ينيف عن مائة درجة فهرنهايتية على التوالي. وعندما دخلت المعبد للمرة الأولى في طريق صعودي النيل بدت لي الحرارة مرتفعة جداً، وأخذت أتصبب عرقاً لدرجة هيأت لي أن الاثنين وخمسين درجة معقولة جداً. ومع ذلك يتعين علينا تصديق ترمومتر "ريومور" الذي لم يتعد في هذة المرة ثمانية وعشرين درجة. وبالتالي يمكننا أن نعزو الشعور المستمر بالقيظ الشديد الذي يسيطر علينا داخل هذا المعبد الرائع إلى الاختلاف الملحوظ بين حالة الجو في الخارج وحالته في الداخل، حيث تنعدم تيارات الهواء التي تخفف من وطأة الحر كما يحدث عادة في الهواء الطلق.

وأثناء انشغال رفاقي بالعمل داخل المعبد، شرعت في معالجة الآم النقرس، وترتيب ما دونته من ملاحظات عن الآثار منذ أن غادرنا وادي "حلفا". عندئذ تشتت ذهني بسبب مشاجرة نشبت بين أحد نوتية مركب إعداد الطعام ورئيسه الأحمق الذي لا يعرف كيف يسيطر على مساعديه، فأرسلت الترجمان "بطرس" للاستفسار عما يحدث. وقام أحد الجنديين المصاحبين لنا بقرع المتمرد بالعصا، وتهديده بالطرد عند تقديم أية شكوى منه.

وبعد ذلك خرج رفاقي من المعبد الكبير غارقين في عرقهم، ولكنهم كانوا يحملون أولى رسوم النقوش التاريخية الرائعة للقاعة الرئيسية.

* * *

٤ يناير ١٨٢٩

في الساعة التاسعة والنصف من صباح اليوم دخلت المجموعة الثانية المكونة من السادة "ديشان" و"برتان" و"لوت" المعبد لتخرج منه بعد ذلك بساعتين. كانت الآم النقرس لا تزال تعوقني عن الحركة. وقد أشار الترمومتر إلى انخفاض في الحرارة يُقدّر بنحو درجة أو درجتين عن البارحة. وبعد الظهر دخلت المجموعة الأولى المعبد من جديد لتواصل عمل الأمس. وقد كرست وقتي في

استخلاص ملاحظات لإضافتها إلى قاموسي الهيروغليفي، والاستماع إلى شكوى البروفيسور "راضي" الذي راح ضحية حيلة خبيثة بالرغم من كونه عَالِم كبير بالطبيعيات. فقد طاف في جميع أرجاء الشلال الثاني عندما كنا في وادي "حلفا" لجمع عينات جميلة وكبيرة لكل الصخور التي يتكون منها، ودفعه الحماس إلى ملء "قفة" كبيرة بتلك المقتنيات النفيسة والثقيلة وحملها بنفسه. ثم عهد إلى أحد البحارة بتوصيلها إلى المركب. بيد أن ذلك النوبي المشاكس وجد أن الحِمل ثقيل للغاية فشرع في تخفيفه كثيراً عن طريق إلقاء أكبر العينات الصخرية وأروعها، تلك التي تكبد الدكتور "راضي" عناء شديداً في سبيل جمعها، والتي أدخلت على نفسه شعوراً بالزهو. ولم يكتشف ذلك النقص الكبير في عدد العينات إلا اليوم فقط عند شروعه في ترتيبها. أما النوبي فلا يزال يؤكد بعد توبيخه وتعنيفه أن النوبة تزخر بالأحجار وأن الأمر لا يستدعي كل ذلك الصراخ والغضب!

* * *

٥ يناير ١٨٢٩

استيقظت في صباح اليوم ولازلت أشعر بالآم النقرس في المفاصل، وبوجع غريب في القدم اليسرى من الخارج، لذلك لازمت الفراش. ولأقطع الوقت طلبت بعمل نسخة جيدة على قدر المستطاع للوح الكبير المنحوت على كتلة مرتفعة بين التمثالين الثالث والرابع في الصف الأيمن. وقد قمت بنسخ الأسطر السبعة الأولى التي أحضروها لي تاركاً كل الأحرف الملتبسة لمضاهاتها بنفسي على النص الأصلي حينما أقوى على مغادرة الفراش ودخول المعبد. إن هذا الأثر نادر لا سيما وأنه يشمل مرسوماً للإله "بتاح" تمجيداً لابنه المحبوب "رمسيس الأكبر". وقد تابع رفاقي رسم النقوش البارزة التاريخية.

* * *

٦ يناير ١٨٢٩

اعتزمت أخيراً دخول المعبد الكبير بعد أن خفت الآم النقرس كثيراً. إذ كان يتعين علينا على وجه الخصوص نسخ النصوص الهيروغليفية التفسيرية للنقوش التاريخية التي نقوم برسمها وتلوينها. وفي الساعة الثانية من بعد الظهر قطعت المسافة الشاقة التي تمتد بين مركب الدهبية ومدخل المعبد متكأً على كتفي خادمي محمد وعلى الجندي أحمد أغا. ثم جلست بضع لحظات لأستريح ولأجفف عرقي تحت قدمي التمثال العملاق الأيسر. وبعد ذلك تجردت من كل ملابسي تقريباً ولم أحتفظ إلا بسروال صغير وقميص وجورب من الصوف، ثم ألقيت بنفسي داخل ذلك الأتون المستعر الذي نُصدم دائماً بقيظه من اللحظات الأولى قبل أن يتقاطر العرق من كل أعضاء الجسم ويُشعرنا بالراحة. وقد بدأت بمراجعة وتصحيح نصوص النقوش البارزة التي تقع إلى اليمين والتي نسخها "روزليني". ثم تطرقت إلى تلك التي تقع إلى اليسار مستعيناً بسلم متنقل في أغلب الأحيان، ومستهلاً بالنص الكبير الذي يُعلن لـ"رمسيس" أن الأعداء تهاجم صفوفه، وأن عربته الحربية مهيأة للقتال. وأخيراً راجعت العديد من النقاط الملتبسة في رسوم النقوش البارزة الأخرى، وغادرت المعبد في الساعة الرابعة والربع وقد تدثرت بقميص وصدريتين وسترة طويلة وبرنس ومعطف صوفي فضفاض بالإضافة إلى حزام وسروال صوفي. لذلك قطعت الطريق حتى المركب دون أن أشعر إطلاقاً بالرياح الشمالية العاتية والقارسة التي أخذت تعصف في تلك اللحظة، وبقيت ممدداً على الفراش لمدة ساعتين أتصبب عرقاً مما سيخلصني لبعض الوقت من الآم النقرس كما آمل.

* * *

واصلت نسخ مرسوم الإله "بتاح". وبعد غروب الشمس توجهت لنسخ نصوص المسلات العديدة المنحوتة تخليداً لـ"رمسيس الأكبر" في الصخور التي تقع إلى شمال معبد "حتحور".

وبينما كنت ألعب الشطرنج في المساء دخل خيمتنا رجل نوبي ذو وجه جميل وشعر مصفوف ومجدول إلى عدد لا يحصى من الضفائر الملولبة، التي تشبه تماماً تسريحات فراعنة مصر القديمة. أما قسمات وجهه التي تغلب عليها العذوبة والنبل والأصالة فكانت تُذكرنا بقسمات وجه "رمسيس الأكبر" المنحوتة على الآثار المجاورة. كان هذا النوبي المولود في جزيرة "أرجو" القريبة من "دنقلة" يرتدي ثوب أزرق طويل فوقه معطف أبيض، وقد بدا لنا صغيراً في السن. كان هذا الراوي يمسك في يده بقيثارة ذات شكل عتيق تشبه درع السلحفاة التي يُقال أن الإله "تحوت هرمس" استخدمه في عمل أول قيثارة في التاريخ. وقد أفسحنا له مكاناً في وسطنا، ودعوناه لاستعراض مواهبه. وبمجرد أن شد أوتار آلته الموسيقية عزف عليها بعض نغمات بدائية سريعة الإيقاع. ثم شرع في إنشاد قصيدة طويلة تمجيداً لغزوات اسماعيل باشا وابراهيم باشا في "السنار" و"شاجي" و"الكردفان". وتصف لنا العديد من المقاطع قيام الزوارق المسلحة "للنظام الجديد" باختراق الشلال الثاني، وهو يُعتبر عملاً خارقاً. ثم يأتي ذكر أسماء القادة وجميع ضباط الباشا، دون أن يفوته ذكر أسماء الضباط الأوروبيين على وجه الخصوص. كما كرس مقطعاً كاملاً لمحمد بك الدفتردار العنيف الذي أطاح بألف ومائتين من أعدائه في "سنار" انتقاماً لمقتل اسماعيل. وأخيراً ختم الراوي وصلته الغنائية بارتجال أنشودة طويلة تكريماً لي حيث ذكر أنني جئت من بلاد الروم (أوروبا):

جاي من الشلال الكبير
من بلادنا البعيدة
جوه غليون كبير
تحت الجبيل الكبير

جنرالنا الكبير
وكيل سلطان كبير
راسي تحت جبيل أبو سمبل
لابس فرو السمور
لافف شال الكشمير
جنرالنا الكبير
وكيل سلطان كبير

ولما رأى الراوي أثناء ارتجاله الدكتور "ريتشي" طبيب البعثة بالقرب منه متكأ على صندوق أخضر، وجه إليه في الحال هذا المقطع الغنائي :

يا حكيم الكبير
جنب الصندوق الكبير !
امسك المفتاح الكبير
افتح الصندوق الكبير
وطلع لي منه بقشيش كتير

وأخيراً عندما أمرت الترجمان بفتح صندوق النقود لإخراج "البقشيش "الذي كنا نود إعطاءه للشاعر، إذا بهذا الأخير يهتف :

يا ترجمان الكبير
يا ماسك مفتاح الكبير
افتح الصندوق الكبير
وبحياه راس الكبير
اعطني بقشيش كتير

بعد ذلك انسحب الشاعر النوبي فرحاً ومسروراً بوصلته الغنائية. ثم خلدنا للنوم بعد أن تشبعنا بالمديح وبالروائح العطرة الزكية التي كانت تفوح من تسريحة شعره.

* * *

٨ يناير ١٨٢٩

تابعت نسخ مرسوم الإله "بتاح". وقد جاءنا رجل نوبي بغزالة صغيرة قام باصطيادها في الجبال المجاورة لوادي "حلفا"، فاشتريتها منه بعشرين قرشاً. ولن يلبث ذلك الحيوان الرقيق أن يأنس صوت الدهبية وارتجاجها.

* * *

٩ يناير ١٨٢٩

فرغت أخيراً من نسخ مرسوم الإله "بتاح"، تاركاً العديد من الثغرات بسبب رداءة النسخة التي أتاني بها نوبي بارع يُدعى "عبد الواحد" من جزيرة "فيله". وفي الساعة الواحدة والنصف من بعد الظهر انزلقت إلى داخل المعبد الكبير متخذاً كافة الاحتياطات المعتادة. لم يكن الجو خانقاً أكثر من العادة. ويحدوني الاعتقاد أن حجرات المعبد المدفونة حالياً تحت هذا الكم الهائل من الرمال تظل تحتفظ على الدوام بدرجة حرارة ثابتة تقريباً، وأن حالة الجو داخل المعبد لا تتأثر بالشموع والمصابيح التي نشعلها. وقد عكفت على العمل حتى الساعة الرابعة والربع حيث اضطررت إلى الإسراع بالخروج من فرط الإعياء. وقد نسخت خمسة عشر عموداً لنص النقش الكبير المنحوت على الجدار الأيمن، كما قارنت الأسطر الستة الأولى لمرسوم "بتاح" التي أتممت نسخها بالنص الأصلي الذي كان لا يزال في حالة جيدة من الحفظ. ثم عدت أدراجي إلى المركب مثقلاً بالملابس، وجعلت أتصبب عرقاً لمدة ساعتين، وقد بارحتني آلام النقرس التي كنت أعاني منها في الركبة اليمنى وفي القدم اليسرى. ثم واصلنا نسخ رسوم الجدار الأيمن.

* * *

١٠ يناير ١٨٢٩

في صبيحة هذا اليوم استقليت مركب الجنديين المصاحبين لنا وأمرت الريس بأن يقودنا حتى سفح جبل "أبو سمبل" بغية فحص الصخور التي تغمرها مياه النيل وتنحر قاعدتها. وقد سبق أن لاحظت عند قدومنا من وادي "حلفا" العديد من المسلات المنحوتة في ذلك الجزء من الجبل، بيد أنها كانت على ارتفاع شاهق يستعصي علينا بلوغه لأن الصخور كانت عمودية على سطح النهر ولا تحمل أية تجاويف تُعين على تسلقها. أوقفت المركب في مواجهة تلك المسلات تماماً مما أتاح لي رسم نصوصها الطريفة بدون مشقة كبيرة مستعيناً بمنظار كبير وبآخر صغير. وتشير تلك المسلات إلى تمجيد الأمراء الأثوبيين والقادة النوبيين لـ"رمسيس الأكبر" ولأحد خلفائه "مرنبتاح الرابع". وفي حوالي الساعة الثالثة من بعد الظهر توجهت إلى المعبد الكبير لتسجيل كل واجهته الخارجية ونسخ نصوصها.

* * *

١١ يناير ١٨٢٩

انشغلت طوال اليوم في تبييض نصوص اللوحات التاريخية بغرض دمجها بالنقوش التابعة لها دون ارتكاب كل الأخطاء والتلفيقات المتعددة الموجودة في الرسوم المعروفة لنا حتى الآن.

كما واصلت تسجيل واجهة المعبد الكبير. وكانت الرياح الشمالية تعصف بشدة اليوم. وقد جاءنا ساع البريد من القاهرة برسائل لرفاقي التوسكانيين، ولا شيء لي. وفي المساء قمنا بالتنزه على ضفاف النيل.

* * *

١٢ يناير ١٨٢٩

كرست صبيحة هذا اليوم للكتابة إلى أخي وإلى "فيولي" وكذلك لمواصلة نسخ الجزء الثاني لنصوص الجدار الأيمن للمعبد.

* * *

١٣ يناير ١٨٢٩

عقب تناول وجبة الإفطار بساعة دخلت المعبد الكبير حيث أخذ العرق يتصبب مني بشكل عجيب، دون أن ينتابني أي ضيق في التنفس أو ألم شديد في المفاصل. وقد قارنت جزءاً صغيراً من نصوص الجدار الأيمن وستة وعشرين سطراً من اللوح الكبير الذي يحمل مرسوم الإله "بتاح" بالنص الأصلي. وعندما فرغت من ذلك عدت إلى المركب بعد ما ينيف عن ثلاث ساعات من العمل الشاق في جو محرق، إلا أنني شعرت بتحسن عقب خروجي من المعبد عما كنت عليه قبل الدخول. وقد لفحتني الرياح الشمالية العاتية التي أخذت تهب في تلك اللحظة، وأحدثت لي ألماً شديداً في الأسنان والعينين، فسارعت على الفور بتغطية وجهي بالمعطف، وقادني سليمان إلى المركب بينما كانت قدماي تتعثران في كل خطوة على ذلك المنحدر الرملي الممتد بين المعبد وضفاف النيل. وبعد تناول وجبة الغداء والخلود لنوم القيلولة شرعت في ترتيب ما دونته من ملاحظات حول آثار النوبة.

* * *

١٤ يناير ١٨٢٩

استيقظت في باكورة هذا الصباح لتسلق الجبل الرملي الذي يقع إلى شمال معبد "حتحور" لتفحص النصوص المنحوتة على ارتفاع شاهق في الصخر بناء على ارشادات "اغيليلي" و"سالفادور شاروبيني". ونسخت تدوينين لا يحملان سوى أسماء وألقاب كاتبين ملكيين قاما عند مرورهما بتلك الصخور بنقش هذين التدوينين اللذين يبدأن بعبارة تعني [قام به] التي نجدها في مثل هذا النوع من التدوينات. وقد حدست من خلال اتجاه الصخور وتفاصيل أخرى أن الرمال المتراكمة على ذلك السطح ربما تخفي بعض المقابر، فكلفت ستة نوبيين بالتنقيب في تلك النقطة، وأخذوا ينشدون "دايم الله دايم الله". إلا أننا لم نعثر على أي شيء البتة. ثم عدت لتناول وجبة الغداء على المركب. وبعد ذلك توجهت إلى المعبد الكبير لتسجيل كافة النقوش البارزة التي تُزين أعمدة الصالة الرئيسية الثانية. وبعد ساعتين ونصف من العمل غادرت المعبد دون أن أشعر بأي شيء نظراً لركود الرياح الشمالية في تلك اللحظة. وعقب تناول وجبة العشاء كتبت إلى السادة "دروفيتي" و"لافيزان" و"أسربي".

* * *

١٥ يناير ١٨٢٩

في صباح اليوم جاءنا النوبي الذي باع لنا الغزالة منذ عدة أيام بتمساح اصطاده بطلق ناري في الرقبة، ولكننا رفضنا شراءه لأنه قد أفرغ أحشاء الحيوان وألقى لحمه وعظامه. ويبلغ طول ذلك التمساح نحو ستة أقدام وكان لونه أخضر باهتاً، وتبدو كل قشرة من قشوره محاطه بخطوط سوداء، كما كان أسفل بطنه يميل إلى اللون الأصفر. ويعطينا ذلك التمساح تماماً كل درجات الألوان التي استخدمها قدماء المصريين في تلوين صوره في النصوص الهيروغليفية. وبعد ذلك ذهبت إلى المعبد الكبير حيث قمت بتسجيل النقوش البارزة

التي تزين الحجرتين الجانبيتين الجنوبيتين وكذا ركائز الحجرة الثانية. ولم تبد لي الحرارة أكثر حدة من الأيام السابقة، على الرغم من الشموع والمصابيح التي أشعلناها باستمرار، فضلاً عن الحرارة المنبعثة من تنفس نحو اثني عشر من الرسامين والخدم. بل لاحظت فقط أننا نتصبب عرقاً في الحجرات الجانبية أكثر بكثير من الصالة الرئيسية والحجرتين الواقعتين على محور المعبد. وعقب تناول وجبة الغداء قمت بمراجعة ونسخ نصوص بعض اللوحات الواقعة إلى الشمال من معبد "حتحور". وفي المساء ذهبنا للنزهة ناحية المعبد الكبير، وكانت التماثيل العملاقة التي تسبح في ضوء القمر تسحر الألباب وتأخذ بمجامع القلوب.

* * *

١٦ يناير ١٨٢٩

استيقظت في باكورة اليوم للانتهاء من كتابة بعض الرسائل. ثم شرعنا في التأهب للرحيل بمجرد عودة السيد "برتان" الذي كان قد دخل المعبد الكبير لإتمام تسجيل آخر نقوش الجدار الأيمن إذ أصبح بقاؤنا في "أبو سمبل" لا طائل تحته بعد أن فرغنا من نسخ كافة اللوحات التاريخية بفضل شجاعة رفاقي الشبان وحماسهم، وبعد أن قمت بنفسي بجمع كل الملاحظات اللازمة حول باقي زخارف المعبد. لذلك قمنا بتقويض كل الدعائم الخشبية التي نصبناها لحجز الرمال حتى لا تنهال علينا وتدفننا أثناء العمل داخل المعبد. وسرعان ما انهمر ذلك الكم الهائل من الرمال ليغمر باب المعبد على ارتفاع يربو على ستة أقدام أعلى الإفريز. كما تدفقت كميات أخرى من الأحجار لتسد مدخل المعبد والتي سيتطلب إزاحتها بعد ذلك نحو خمسة أيام من العمل. سيزعج هذا بالطبع أولئك الفضوليين الذين سيأتون من بعدنا، بيد أن ذلك الأمر لا يعنينا في شيء.

وفي حوالي الساعة الواحدة من بعد الظهر أخذت القوارب تفارق الشاطيء وسط صيحات النوبيين الذين راحوا ينشدون في نفس واحد أغنية الرحيل. ولما أصبحنا في وسط النهر ألقيت نظرة أخيرة نحو معبد "حتحور" الذي يبدو من بعيد أكثر روعة: إذ نُلم بكل كتلة

التماثيل العملاقة الستة المنحوتة بإتقان عظيم. ثم ودعت التماثيل العملاقة المنتصبة أمام واجهة المعبد الكبير، والتي تزداد حجماً كلما ابتعدنا عنها. وقد انتابني شعور بالحزن وأنا أغادر هكذا وربما إلى الأبد ذلك الأثر الرائع.

نزلنا النهر بسرعة نظراً لضعف الرياح الشمالية اليوم. وتبدو لنا ضفتا النيل أسفل "أبو سمبل" قاحلتين كئيبتين : إذ نلمح هنا وهناك بعض الأراضي الصغيرة المزروعة بالذرة والفاصولية والخروع، تزحف عليها الرمال الصفراء من جميع الأنحاء، بعد أن غمرت تلالاً من الأحجار الرملية تلوح لنا من بعيد قممها السوداء منذرة بالصحراء في كامل هولها وفظاعتها.

ثم حاذينا تمساحاً كبيراً نائماً فوق جزيرة صغيرة، سدد له الدكتور "ريتشي" عياراً ناريا في اللحظة التي قفز فيها في النهر. وقد أصابت الطلقة هدفها بكل تأكيد نظراً للحركات التشنجية التي صدرت عن التمساح قبل أن يتوارى عن أنظارنا. ولكنها لم تأت عليه تماماً، ومن ثم لم يطف من جديد على صفحة الماء.

وبعد ذلك بقليل أخبروني بوصول رسائل لنا، فأرسلت زورقاً لإحضارها من الضفة الشرقية. وقد وجدت خطاباً من أخي أتى به ابن السيد "دارسيت" وتركه "باريزيت" لي في أسوان، وكذا خطابين آخرين من "مسره" و"لونرمون". وعند حلول الليل توقفنا في "نيريه Néré" على الضفة اليمنى حيث تناولنا طعام العشاء في ضوء القمر.

ثم تابعنا الطريق حتى الساعة الواحدة صباحاً في أجمل ضوء قمر يمكن تخيله.

* * *

١٧ يناير ١٨٢٩

عند شروق الشمس ألفينا أنفسنا في مواجهة "إبريم" التي كان الجغرافيون القدماء يعتبرونها أبعد نقطة في بلاد النوبة امتدت إليها هيمنة البطالمة والأباطرة وسيادتهم. وتنبع أهمية "إبريم" من هيئتها المهجورة وغير المتمدينة، إذ تتكون من جبل شاهق شبه متعامد على مستوى النهر الذي ينحدر قاعدته. ومازلنا نرى فوق قمته أطلال حصن كبير شيده السلطان سليم عقب غزو تلك الناحية

وتوطين جالية بها. وكان هذا الحصن ملاذاً أخيراً وملجأً للمماليك قبل أن يقوم الباشا الحالي بمحاصرتهم والتغلب عليهم، إلا أنه هُجر وأُهمل منذ ذلك الحين وتحول إلى كومات من الأنقاض.

كما نجد أربع مقابر هامة ومنحوتة في منحدر جبل "إبريم"، ترجع إلى عهد كل من "تحتمس الثاني" و"تحتمس الثالث" وابنه "امنحتب الثاني" و"رمسيس الأكبر". وقد قام الأمراء حكام تلك الناحية -ومن بينهم أمير أثيوبي- بنحتها في الصخر تخليداً لأمجاد هؤلاء الفراعنة، وتكريماً لهم بمناسبة مرورهم بـ"إبريم". وكانت أولى تلك المقابر، التي لا نبلغها الا عن طريق النهر ولا ندخل في أغلبها الا باستخدام السلالم المتنقلة، من أقدم ما رأته عيناي في النوبة. وبعد أن انتهيت من زيارتها بعناية تناولنا وجبة الغداء ثم أقلعنا في الحال لمواصلة الطريق.

وفي حوالي الساعة الرابعة من بعد الظهر، وقبل أن نبلغ جزيرة "ارتيجا"، لمحنا تمساحاً كبيراً مستلقياً في الشمس فوق جزيرة رملية كبيرة. عندئذ تقدمنا ضد التيار لإنزال الدكتور "ريتشي" والسيد "لوت" اللذين توجها في خفة وحذر نحو الحيوان متسلحين بالبنادق. بيد أن هذا الأخير قفز سريعاً في النهر بعد أن استرعى انتباهه صيحات الأوز المحيطة به والتي أخذت تفر هاربة عند اقتراب الصيادين. وقد أكد لي النوبيون أن تلك الطيور تتولى حراسة التماسيح وتنبيهها عند الخطر.

وبعد أن خاب أملنا للمرة العشرين في تذوق لحم التمساح المشوي تابعنا طريقنا، وقد علق نوتية مركبنا أهمية كبيرة على اللحاق بالمراكب الأخرى التي سبقتنا أثناء انشغالنا بصيد التمساح. وسرعان ما نشأ سباق بين الدهبية وبين المراكب الأخرى، وقد تحولت ضربات المجاديف وصيحات النوتية وعبارات السخرية التي راحوا يتقاذفونها باللغتين العربية والبربرية إلى ضوضاء ولغط يقض مضجع كل سكان الصحراء البعيدة. إلا أننا تمكنا من التقدم بسرعة بفضل ذلك الصياح ومواصلة الطريق على ضوء القمر لرغبتي في بلوغ "الدر". واستمر النوتية في التجديف بنشاط وهمة، وأخذ الريس "دوشي" يشجعهم، ويُنشد أغنيات مختلفة راحوا

يرددونها في نفس واحد من بعده. وأسوق هنا إحدى تلك الأغنيات ذات الإيقاع السريع والتي لا تخلو من الفرح والبهجة:

قوم ينا بولاق
ما حاجه بولاق
دي بلاد العشاق
قوم منها ياخي

قوم بنا أسيوط
ما حاجه أسيوط
دي بلد البرغوت
قوم منها ياخي

....

قوم بنا جرجا
ما حاجه جرجا
دي حله وفرجه
فاتتنا ياخي

....

قوم بنا اسنا
ما حاجه اسنا
جا فضي باسنا
قوم منها ياخي

....

قوم بنا دراو
ما حاجه دراو
دي بلد القبقاب
قوم منها ياخي

....

قوم بنا أسوان
ما حاجه أسوان
دي بلد نسوان
قوم منها ياخي

....

قوم بنا فرسكو

....

ويتوقف عدد مقاطع هذه الأغنية الشائعة بين بحارة مصر والنوبة على إبداع الذين يرددونها وقدرتهم على تأليف مقطع عن كل المدن والقرى. وعادة ما تنتهي تلك الأغنية ذات الألف مقطع بمقطع غنائي حول مسقط رأس "ريس" المركب، ومدحه بلباقة شديدة.

بلغنا "الدر" في حوالي الساعة السابعة والنصف مساء، ونصبنا مائدة الطعام على الشاطيء تحت أشجار النخيل الرائعة التي يتراوح ارتفاعها بين خمسين وستين قدماً، والتي تُعتبر من أجمل ما رأته عيناي حتى الآن. كان ضوء القمر ساطعاً فتناولنا وجبة العشاء في جو من المرح، وسط سكان "الدر" الذين دفعهم الفضول إلى الالتفاف حولنا في تلك الساعة المتأخرة من الليل. وبعد أن احتسيت القهوة، ذهبت للنزهة في "شوارع" المدينة الخالية من المارة، إذا صح لنا أن نطلق هذا اللفظ على تلك المساحات المزروعة في معظمها، والتي

تفصل بين المنازل ! ومن هنا وهناك نرى أشجار الجميز الرائعة والكثيفة الأوراق والوارفة الظلال خاصة في قيظ النهار. كما يزدان الميدان الكبير بمجموعة من تلك الأشجار، وقد شُيد على أحد جوانبه مسجد من الطُوب المزركش. وفي الجهة المقابلة يوجد "سبيل" مخصص لاستقبال قوافل التجار الآتية من "سنار" والسودان، وهو عبارة عن بناء مربع الشكل مطلي بالجير الأبيض، ذي أروقة مقنطرة مما يعطيه هيئة فرن له فوهتان. وقد لمحت خلال نزهتي الليلية وعلى ضوء النار الموقدة داخل السبيل العديد من التجار يفترشون الأرض بلا نظام مع العبيد السود من كلا الجنسين الذين أتوا بهم من "بورنو" و"كردفان". ويعجز لساني عن وصف هذا المنظر.

ثم عدت أدراجي إلى المركب، وجلست وحيداً على ضفاف النيل أسفل نخلة. عندئذ اقترب مني ثلاثة من أهل "الدر" يرتدون ثياباً فضفاضة من القماش الأبيض، وكانت شعورهم مجدولة، ويضعون عصي بيضاء على أكتافهم. ثم جلسوا حولي ولاذوا بالصمت المطبق خلال ربع ساعة كاملة من باب اللياقة والمجاملة. وأخيراً بادرني أكثرهم رفعة وأعلاهم منزلة بالسؤال إذا كنت أرغب في شراء مشروب العرق. وقد أجبته بالنفي عندما أدركت أن ذلك العرق مصنوع من التمر. وبعد أن تجاذبنا أطراف الحديث سألت النوبي عن عدد أشجار النخيل المزروعة في تلك الناحية، فأكد لي أن هناك سبعمائة ألف نخلة يُدفع عن كل واحدة منها سواء كانت مثمرة أم لا، صفراء أو يابسة، ضريبة سنوية للباشا تُقدر بخمسة وعشرين بارة. ولما كنت أعلم أن تلك الضريبة ترتفع في مصر إلى خمسة وستين بارة بالنسبة لأشجار النخيل الصغيرة، وإلى ثمانين بارة للأشجار الكبيرة سواء كانت مثمرة أم لا، سألت النوبي عن سبب هذا التفاوت المذهل في قيمة الضريبة، في حين أن نخيل النوبة يبدو لي أروع وأكبر من نخيل مصر وثماره أفضل بكثير. فأجابني بأن السر في ذلك إنما يرجع إلى أن أغلب نخيل النوبة يتكون من الذكور، بينما النخيل الإناث أقل مقارنة بما نجده أسفل الشلالات، وقد قامت الحكومة بمراعاة ذلك الأمر عند تقدير قيمة الضريبة. بيد أن الخمس وعشرين بارة المقررة عن كل نخلة مغالى

فيها، وتتسبب في بؤس الفلاحين وشقائهم إذ أنه بعد جباية الضرائب يقوم رجال الحكومة في مصر كما في النوبة بتحديد أسعار بيع البلح.

* * *

١٨ يناير ١٨٢٩

توجهنا في باكورة هذا الصباح لزيارة المعبد المنحوت في الجبل شرقاً على بعد بضعة أقدام من منازل المدينة. وقد قام "رمسيس الأكبر" بتكريسه إلى كل من "آمون رع" و"رع حور آختي". وبالطبع فإن زخارفه لا تضارع زخارف معبد "أبو سمبل"، كما أن بعض نقوشه البارزة لا تبدو منها سوى خطوطها الأولية. ويرجع السبب في ذلك إلى سقوط طبقة الجص التي تغطي الجدران والتي نحتت عليها النقوش، ومن ثم لم تحتفظ الأحجار الا بالأجزاء التي امتد إليها إزميل النحات.

وفي حوالي الساعة الرابعة والنصف تناولنا وجبة الغداء داخل صالة المعبد الكبيرة، ثم عدنا أدراجنا إلى المراكب بعد أن فرغنا من العمل، وودعنا عاصمة النوبة، تلك القرية الكبيرة التي تتكون من مائتي منزل ولكنها تفوق العديد من المدن المصرية روعة ونظافة نظراً لشوارعها الفسيحة وخاصة بساتين النخيل والسنط والجميز الصغيرة التي تحيط بمنازلها. ثم رسونا في الساعة الثامنة على الضفة اليسرى بالقرب من معبد "عمدا".

* * *

١٩ يناير ١٨٢٩

استنفذنا هذا اليوم في رسم ونسخ نقوش معبد "عمدا" الرائع، الذي أسسه "تحتمس الثالث"، وواصل بناءه ابنه "امنحتب الثاني"، وأتمه "تحتمس الرابع". ويتميز هذا المعبد بطراز معماري جميل وبإتقان عظيم وخاصة نص الإهداء المنحوت على العتب. وقد احتفظت نقوشه البارزة بألوانها على الرغم من قيام الأقباط بتغطيتها كلها بطبقة من الجص لتحويل المعبد إلى كنيسة، مما

اضطرني في سبيل الحصول على نسخ كاملة للعديد من النقوش البارزة إلى استخدام المطرقة في نزع طبقة الجص التي تحمل نقوشاً رديئة لبعض القديسيين.

* * *

٢٠ يناير ١٨٢٩

فرغت من نسخ أهم النقوش البارزة في معبد "عمدا". ثم أقلعنا في الساعة الثانية من بعد الظهر ونزلنا النيل، وكان الطقس بديعاً. وفي الساعة الخامسة لحنا أمامنا قارباً شراعياً كبيراً ترفرف عليه راية انجلترا كان يُقل اللورد "بريدو" الذي اجتاز الشلال الأول متجهاً إلى "سنار" كما تقول الشائعات المنتشرة في "الدر". وعند رؤية أسطولي، قام اللورد "بريدو" بالرسو في "كوروسكو" في انتظار وصولي، اعتقاداً منه بأننا سنكون سعداء بقضاء بضع ساعات سوياً.

وبعد أن رسونا بالقرب منه جاء لاستقبالنا بصحبة رفيق سفره النقيب "فيليكس"، ثم استضافنا على متن قاربه حيث طال بنا الحديث عن الآثار وعن آخر تطورات الموقف حتى بعد منتصف الليل. وقد أعجب برسوماتنا أيما اعجاب، وأعطانا رفاقه نصائح مفيدة لزيارة العديد من الأماكن في "طيبه".

وقد غمرتني مشاعر الحزن لحظة وداع ذلك الرجل النبيل الذي يزج بنفسه في مشروع محفوف بالمخاطر ولكن سيعود على العلم بالنفع العظيم، ألا وهو استكشاف "السنار" والحبشة في هذا الفصل من العام.

* * *

٢١ يناير ١٨٢٩

في باكورة هذا الصباح غادرنا اللورد "بريدو" متجهاً إلى الجنوب، ونحن إلى الشمال. ومن يدرينا لعلنا لن نلتق بعد ذلك أبداً ! كانت السماء ملبدة بسحب بيضاء وكان الطقس محرقاً وخانقاً، لذلك

التقينا على التوالي بستة تماسيح مستلقية على الشاطيء في دعة وسلام. كانت التماسيح الخمسة الأوائل صغيرة الحجم، بينما يتراوح طول سادسهم بين اثنتي عشر وخمسة عشر قدماً، وكان ممدداً فوق جزيرة رملية صغيرة في وسط النهر. وقد رأيته عن كثب مما ألقى في نفسي الرعب والفزع عندما انتصب على أرجله رافعاً رأسه ومحدباً ظهره، وغطس في النهر. وقد سددنا إليه أعيرة نارية ارتطمت بجلده لترتد الينا من جديد، وتختفي على بعد عشرين قدم. وفي المساء رسونا في "بريده" حيث تناولنا وجبة العشاء وخلدنا للنوم. وكان البرد قارساً تلك الليلة.

* * *

٢٢ يناير ١٨٢٩

أقلعنا في باكورة هذا الصباح وتقدمنا كثيراً حتى حوالي الساعة العاشرة والنصف. عندئذ هبت الرياح الشمالية العاتية فجأة لتحول النهر الهاديء إلى بحر هائج مضطرب، وتضطرنا إلى الرسو على الضفة اليسرى في مواجهة أكواخ صغيرة يُطلق عليها اسم "سياليه". ثم جلست على الشاطيء مستظلاً ببستان صغير من أشجار السنط للتأكد من أن كل قواربنا قد رست بأمان. وقد لمحت في اتجاه الشمال الشرقي ناحية جبال "المحرقة" إعصاراً مفاجئاً يجتاح الصحراء ويدفع بسحابة رملية هائلة.

* * *

من شامبليون إلى شامبليون فيجاك

أبو سمبل في ١٢ يناير ١٨٢٩

رأيت من جديد التماثيل العملاقة التي تُشير في هيبة ووقار إلى أعظم معابد النوبة، وقد بدت لي على نفس القدر من الجمال والروعة عندما رأيتها للمرة الأولى. وكم كنت أود أن أنقلها على بساط سحري لأنصبها وسط ميدان "لويس الخامس عشر" في فرنسا، كي أدحض بها تماماً مزاعم الذين لا يُقدرون فن قدماء المصريين

حق قدره. إن كل شيء هنا عملاق، بما في ذلك ما قمنا به من أعمال ستسترعي نتائجها اهتمام الجميع. فكل من يعرفون تلك الناحية يلمون تماماً بكافة العقبات التي ينبغي التغلب عليها وتذليلها في سبيل نسخ علامة هيروغليفية واحدة من نص المعبد الكبير.

كنا قد غادرنا وادي "حلفا" والشلال الثاني في مطلع هذا الشهر. وقضينا ليلتنا في "غربة سري"، ثم رسونا في ظهيرة اليوم التالي على الضفة اليمنى للنهر لدراسة مقابر "مساخيط" الواقعة إلى جنوب معبد "تحوت" في جبل "عده" الذي سبق أن حدثتك عنه في رسالتي الأخيرة. وقد تعين علينا تسلق صخور شبه عمودية على سطح الماء لبلوغ حجرة صغيرة منحوتة في الجبل ومزدانة بزخارف في حالة سيئة من الحفظ. وعلى الرغم من ذلك فقد تأكدت من أن أميراً إثيوبياً يُدعى "بوري"، كان حاكماً للنوبة في عهد "رمسيس الأكبر"، قد كرس ذلك الهيكل للإلهة "عنقت" ولآلهة النوبة الأخرى. كما نرى ذلك الأمير يتضرع إلى الآلهة أن تعين "رمسيس الأكبر" {على سحق الليبيين والبدو الرحل إلى الأبد}.

وفي صباح الثالث من يناير رسونا أمام معبد "حتحور" في "أبو سمبل" الذي سبق أن حدثتك عنه. وإلى اليمين من ذلك المعبد يوجد لوح كبير منحوت في الصخر يُصور أميراً إثيوبياً آخر يُدعى "ساتمي" يقدم لـ"رمسيس الأكبر" شارة النصر مصحوبة بالنص التالي مدوناً بالأحرف الهيروغليفية الجميلة :

[يقول الابن الملكي الأثيوبي لـ"رمسيس الأكبر" : لقد حباك والدك "آمون رع" حياة مستقرة وطاهرة، فليمنحك عمراً مديداً لتحكم العالم وتسحق الليبيين إلى الأبد}.

ومن هنا يتضح لنا قيام البدو الرحل الإفريقيين بالإغارة من حين لآخر على المزارعين المسالمين في وادى النيل. ومن الجدير بالملاحظة أنني لم أعثر حتى الآن في آثار النوبة إلا على أسماء أمراء أثيوبيين ونوبيين ممن حكموا تلك الأنحاء في عهد "رمسيس الأكبر" وأسرته. كما يبدو لنا أن النوبة كانت خاضعة خضوعاً تاماً لمصر لدرجة أن الملوك كانوا يعتمدون كلياً على أهلها في كل شيء حتى في قيادة الجيش. وبوسعي الاستشهاد في هذا الصدد بلوح منحوت في صخور "أبو سمبل"، نرى فيه أحد قادة الجيوش الملكية في النوبة والمولود في مقاطعة "اوواو" ويُدعى "مايي" يتغنى بمديح الفرعون "اتوتي الثاني Athothéi II"، وهو رابع خلفاء "رمسيس الأكبر". كما نستنتج من العديد من اللوحات الأخرى أن العديد من الأمراء الأثيوبيين كانوا يعملون في النوبة في خدمة "رمسيس الأكبر".

في مساء ذلك اليوم شرعنا في استكشاف معبد "أبو سمبل" الكبير، نظراً لأن الرسوم القليلة التي نشرها "بلزوني" و"جو" للنقوش البارزة الداخلية جاءت ضائعة المعالم، ولا تطابق الأصل في شيء سواء من حيث الرسوم أو من حيث الألوان. وقد عقدنا العزم على عمل نسخ كبيرة وملونة للنقوش البارزة التي تُزين الصالة الرئيسية للمعبد فقط، إذ لا تحتوي الحجرات الأخرى الا على رسوم دينية. وإذا علمنا مدى الارتفاع الشديد في درجة الحرارة داخل هذا المعبد المدفون حالياً تحت الأرض (بعد أن غمرت الرمال كل واجهته تقريباً)، وإذا علمنا بحتمية دخوله شبه عراة وكمية العرق الذي يتصبب بلا انقطاع من كل أعضاء الجسم ويسيل على العينين ويتقاطر على الورق المبلل بسبب رطوبة ذلك الطقس الملتهب، إذا علمنا كل ذلك فستتملكنا الدهشة والإعجاب بشجاعة رفاقي الشبان الذين راحوا يجابهون ذلك الأتون المستعر طوال ثلاث أو أربع ساعات يومياً، ولا يخرجون من المعبد إلا من فرط الإنهاك، ولا يتوقفون عن العمل إلا بعد أن تعجز أرجلهم عن حملهم.

لقد أنجزنا تقريباً خطة العمل التي وضعناها لأنفسنا في الثاني عشر من يناير. وأصبح بحوذتنا ست لوحات كبيرة تصور :

(١) "رمسيس الأكبر" راكباً عجلته الحربية التي تجرها الخيول وهو يطارد جيشاً آشورياً ويحاصر قلعة محصنة، ومن خلفه ثلاثة من أبنائه فوق عجلات حربية كذلك.

(٢) الملك مترجلاً يصرع أحد خصومه ويطعن آخراً بالرمح. وتتميز تلك المجموعة برسم دقيق وتكوين رائع لم يفلح "جو" إلا في اعطائنا صورة هزلية عنها.

(٣) الملك جالساً وسط قادة جيشه يتلقى نبأ إغارة الأعداء على مقدمة صفوفه. ويقوم الخدم بتجهيز عجلته الحربية، والتخفيف من هوج جياده المرسومة بإتقان متناه. وأبعد من ذلك نرى الأعداء فوق عجلاتهم الحربية يهاجمون بدون نظام صفاً من العجلات الحربية المصرية المتراصة في تناسق وإحكام. ويزخر ذلك الجزء من اللوحة بالحركة التي تجعلها تضاهي أجمل المعارك المرسومة على الآنية اليونانية، وتُذكرنا بها لا إرادياً.

(٤) لوحة رائعة تصور انتصار الملك ودخوله "طيبه" بعظمة وأبهة، منتصباً فوق عجلة حربية بديعة تجرها خيول مطهمة. وأمام العجلة نرى صفين من الأسرى الإفريقيين، ينتسب بعضهم إلى العرق الزنجي، بينما ينتسب الآخرون إلى العرق النوبي. ويكونون مجموعات مليئة بالحركة، ومرسومة بإتقان شديد التأثير في النفوس.

(٥) و(٦) لوحتان كبيرتان تصوران الملك يصرع الأسرى من مختلف الجنسيات تقرباً لآلهة "طيبه" و"أبو سمبل".

لم يبق أمامنا سوى الانتهاء من نسخ نقش بارز كبير يشغل كل الجدار الأيمن للمعبد تقريباً، وهو تكوين هائل يصور معركة ومعسكراً بأكمله، بما في ذلك خيمة الملك وحراسه وخيوله وعجلاته الحربية وأمتعة الجيش والألعاب والعقوبات الحربية...الخ. وخلال ثلاثة أيام على أكثر تقدير سنفرغ من نسخ تلك اللوحة الكبيرة ولكن بدون ألوان، بعد أن تسببت الرطوبة في طمس ألوانها. أما اللوحات الستة التي سبق الإشارة إليها فقد تم نسخ أدق تفاصيلها وتلوينها بعناية صارمة، مما سيعطينا فكرة عن أناقة ملابس الفراعنة القدماء وروعة عجلاتهم الحربية. كم أود أن أجمع داخل معبد "أبو

سمبل" كل الذين يأبون الاعتراف بما تضفيه النقوش البارزة الملونة إلى فن العمارة من عظمة وجمال ! وإنني لكفيل بأنهم سيتخلصون من أفكارهم المسبقة في أقل من ربع ساعة !

اضطلعت أنا و"روزليني" بمهمة نسخ النصوص الهيروغليفية العديدة المصاحبة لكافة النقوش البارزة التاريخية. وكنا نقوم بنسخها في أماكنها، أو نلجأ إلى صبها على الورق عندما تكون على ارتفاع كبير. ثم أضاهيها مرات عديدة بالنصوص الأصلية، وأراجعها قبل أن أسلمها للرسامين الذين قاموا مسبقاً بخط الأعمدة التي ستُكتب فيها. وقد قمت بنسخ لوح كبير لا يقل عن اثنين وثلاثين سطراً بين التمثالين العملاقين الأخيرين الواقعين إلى اليسار داخل المعبد الكبير. وقد سبق أن حدثني "هيوو" عن ذلك اللوح الذي يمثل مرسوماً للإله "بتاح" يمتدح فيه "رمسيس الأكبر" لما قام به من أعمال، وما أتاه من نعم تستهدف الخير لمصر. ثم يتبع ذلك إجابة الملك على الإله "بتاح" بعبارات مهذبة. وإنه لأثر نادر وعجيب.

تلك هي أخبار زيارتنا لـ"أبو سمبل"، والتي تمثل أشق وأعظم مرحلة من مراحل رحلتنا. ولقد تبارى الفرنسيون والتوسكانيون في إثبات حماسهم وتفانيهم في العمل. لذلك آمل أن نستأنف رحلتنا في الخامس عشر من هذا الشهر باتجاه مصر السفلى مكللين بالنصر. وداعاً يا صديقي العزيز. قبلاتي لك ولكل ذوينا. لقد أصبت بنوبة نقرس عند وصولي هنا لازمتني ثلاثة أيام. بيد أن حمامات البخار التي أخذتها داخل المعبد قد خلصتني من تلك الآلام لمدة طويلة كما آمل.

ج.ف.شامبليون

ملحوظة : أبلغ تحياتي للسيد "اراجو" الذي بدأت أغفر له معارضته لرحلتنا بعد أن تركت الشلال الثاني فقط. كذلك أبلغ الكونت "دوتريف" بكل أعمالنا الباهرة، وكذلك السيد "دي لابويري".

* * *

من شامبليون إلى الدكتور "باريزيت"

أبو سمبل في ١٦ يناير ١٨٢٩

صديقي العزيز ،،

لقد شاءت المقادير إذن أن تزور "طيبه" مرتين دون أن أكون بصحبتك ! فإن صدقت الشائعات الكثيرة التي تسري بين الشلالين -وما أدراك ما شائعات النوبة !- فإنك لابد أتيت إلى "طيبه" وصعدت النيل حتى أسوان، وبدلاً من أن تجتاز الشلال الأول وتأتي للحاق بي في أيام قلائل، فإنك -كما يُقال- رجعت إلى "طيبه" لتمكث بها بضعة أيام. وبما أنني لن أبلغ "طيبه" إلا في الخامس عشر من فبراير، فقد تبدد أملي في لقائك هناك، وفي متعة مرافقتك أثناء تفقد أعرق المدن الملكية، وتبادل أحاسيسنا وانطباعاتنا، ولكي نترك العنان لأنفسنا أمام عظمتها لنتشبع بذلك الحماس المتأجج الذي لايشعر به إلا من له عين تبصر وقلب يشعر.

كما أنني آسف لأنك لم تزر "أبو سمبل"، فقد حَوّل "رمسيس الأكبر" الجبل إلى قصر كبير، ونصب أمام بوابته أربعة تماثيل عملاقة جالسة لا يقل ارتفاع كل منها عن اثنين وستين قدماً. كما زُخرفت الصالة الرئيسية التي تستند على ثمانية تماثيل عملاقة يتراوح ارتفاعها بين خمسة وعشرين وثلاثين قدماً، بنقوش بارزة هائلة تصور معارك ذلك البطل وغزواته وانتصاراته. وقد عملت نسخ كبيرة وملونة لتلك اللوحات.

أستحلفك بالله أينما كنت أن تخط لي ولو كلمة من "طيبه"، وأن تبلغني بمشاريعك وأعمالك. ولعلك لم تتسلم الرسالة التي كنت قد كتبتها لك في مطلع شهر ديسمبر من "فيله". وكلما أفكر في عدم استطاعتنا الحديث سوياً عن مصر ونحن متواجدان فيها يتملكني الغيظ وألعن الظروف التي تدفع بك إلى الشمال، في حين أن أعمالي كلها في الجنوب. فلتسارع بالكتابة إليّ وإلا سلّطت عليك كل تماسيح النوبة. وداعاً.

ميامون

(وصلتني هذة الرسالة في الساعة الحادية عشرة من صباح يوم الإثنين الموافق السادس والعشرين من يناير عام ١٨٢٩)
باريزيت

* * *

من شامبليون إلى شامبليون فيجاك

المليسة (بين أسوان وكوم أمبو) في ١٠ فبراير ١٨٢٩

صديقي الحميم،،

لقد لازمنا النحس منذ مغادرتنا أسوان في الثامن من هذا الشهر. إذ قضينا يومين دون أن نقطع المسافة التي تفصلنا عن "كوم أمبو"، والتي لا تتطلب عادة أكثر من تسع ساعات. بيد أنها الرياح الشمالية العاتية التي تهب دون انقطاع منذ ثلاثة أيام، وتجعلنا ندور حول أنفسنا وسط أمواج هائجة. وقد رسونا بمشقة شديدة على مقربة من قرية "المليسة" حيث يوجد محجر للأحجار الرملية عديم الأهمية. وفضلاً عن ذلك فإننا في تمام الصحة والعافية، وعلى أتم الاستعداد لالتهام "طيبه" وهضمها إن لم يكن ذلك فوق طاقتنا. ومن ناحية أخرى فقد انشرحت صدورنا بالأمس عندما جاءنا البريد أخيراً برسائلك التي أرسلتها في السادس والعشرين من سبتمبر، والثاني عشر والخامس والعشرين من أكتوبر، والخامس عشر من نوفمبر. وبالإضافة إلى الرسالتين السابقتين يصبح مجموع ما وصلني حتى الآن ست رسائل فقط لا غير. ولقد سعدت كثيراً أنا ورفاقي بالأخبار السارة التي سُقتها لي عن وطننا فرنسا. إذ أن مظاهر البؤس المنتشرة هنا أمام أعيننا تجعلنا نرقص فرحاً لمجرد التفكير في أن شيئاً من هذا القبيل لا يحدث في فرنسا.

ولتشكر السيد "داسييه" المهيب نيابة عني للكلمات الرقيقة التي تفضل بكتابتها لي في السادس والعشرين من سبتمبر. كما آمل أن يكون قد بلغه خطاب التهنئة بالعام الجديد الذي أرسلته إليه من وادي "حلفا"، والذي لا بد أن يكون قد وصله بعد إنقضاء تلك

المناسبة بوقت طويل. فليغفر لي إذن هذا التأخير: فما أبعد المسافة بين النوبة وخاصة الشلال الثاني و"باريس"! وإن القلوب فقط لقادرة على اجتياز تلك المسافات الشاسعة في غمضة عين!

لقد حزنت كثيراً لنبأ وفاة زوجة أخ صديقنا "ديبوا"، وكانت امرأة فاضلة، وإنني أشاطره أحزانه من صميم القلب. وسأكتب إليه من "طيبه" بعد أن أفرغ من تفحص النوبة ومصر. وبوسعك أن تخبره أنني سأعود بمجموعة رسومات عظيمة من شأنها إعلاء مرتبة المصريين القدماء فيما يتعلق بتاريخ الفن، وإظهارهم بمظهر لائق عما هو معروف حتى الآن. تُرى هل حان الوقت الذي نرى فيه أخيراً مسلة فرعونية تُزين أحد ميادين "باريس"؟ إن ذلك سيكون مدهشاً! وإنني مغتبط لعدم تراجعنا أمام ذلك المشروع الذي يمكن تنفيذه. وسأوصل إلي السيد "دروفتي" الرسالة التي كتبها لي السيد "ميربل" لثقتي في امكانية تحقيق ذلك بالتعاون مع سمو محمد علي باشا الذي لا ينكص أبداً عن تحقيق الأشياء النافعة والمفيدة. وبمجرد أن أتلقي رداً من السيد "دروفتي" الذي يتعين عليه بالطبع الاضطلاع بهذا الأمر، سأكتب إلى السيد "ميربل". وفي انتظار ذلك أحملك السلام والتحية للسيد "ميربل" وللسيدة قرينته.

لقد كتبت آخر رسالة إليك من "أبو سمبل" الذي غادرناه في السادس عشر من يناير. وفي باكورة اليوم التالي رسونا في سفح صخور "إبريم" لزيارة بعض المقابر التي نراها أسفل تلك الكتل الهائلة من الأحجار الرملية.

أما تلك الكهوف الأربعة المنحوتة في الصخر فإنها ترجع إلى عصور فرعونية مختلفة، كما يرجع أقدمها إلى عهد "تحتمس الأول"، وهي مربعة الشكل من الداخل مثل باقي الكهوف، وتحتوي على أربعة تماثيل تُصور الملك جالساً يتوسط "إله وسيد إبريم" الذي يتجلي في إحدى صور المعبود "تحوت" ذي رأس صقر، والمعبودة "ساتت" سيدة "إلفنتين" والنوبة. وقد كُرس هذا الهيكل إلى هذين المعبودين، كما تُركت الجدران بدون أية نقوش أو ألوان.

ويختلف الأمر بالنسبة للهيكل الثاني الذي يرجع لعهد "تحتمس الثالث". إذ نجد في المشكاة الداخلية تمثالاً لذلك الفرعون جالساً يتوسط الإله سيد "إبريم" والمعبودة "ساتت" سيدة النوبة. وقد قام أمير يُدعى "ناهي" بنحت ذلك الهيكل وتكريسه لمعبودات تلك

الناحية، وكان من وجهاء القوم، وينتحل في كافة النصوص لقب [حاكم الأراضي الجنوبية] التي كانت تشمل النوبة الواقعة بين الشلالين الأول والثاني. ومن خلال بقايا لوح كبير منحوت على الجدار الأيمن، نرى ذلك الأمير واقفاً وبصحبته لفيف من الموظفين يقدم للملك جالساً فوق العرش -كما هو مدون في النصوص الهيروغليفية غير المصقولة- الجزية من ذهب وفضة وحبوب...الخ، وعائدات الأراضي الجنوبية التي يُشرف عليها. وأخيراً يحمل باب الهيكل كلمات الإهداء التي دونها ذلك الأمير.

ثم نأتي إلى الهيكل الثالث الذي يرجع إلى عهد "امنحتب الثاني"، خليفة "تحتمس الثالث". وكان يدير الأراضي الجنوبية حينئذ أمير آخر يُدعى "اوزورزاتيه". وتُصور لنا نقوش الجدار الأيمن "امنحتب الثاني" جالساً وأمامه أميران من بينهما "اوزورزاتيه" يقدمان له الجزية المفروضة على تلك الأراضي ومنتجاتها الطبيعية، ومن بينها الأسود وسلالة كلاب "السلاقي" وابن آوي كما هو واضح من التدوين المنحوت أعلى اللوحة، والذي يحدد كذلك عدد كل نوع من تلك الهدايا. بيد أن التلف الشديد الذي لحق بهذا النص حال دون استنتاج أي شيء سوى خطوطه العريضة. وأخيراً نرى في الداخل تمثال "امنحتب الثاني" جالساً وسط معبودات "إبريم".

أما رابع تلك الهياكل وأحدثها فإنه يرجع لعهد "رمسيس الأكبر". وقد قام حاكم النوبة في ذلك الحين بنحته في الصخر تكريماً لمعبودات "إبريم": أي الإله "تحوت" ذو رأس الصقر، والإلهة "ساتت"، وكذا تمجيداً للفرعون الذي نجد تمثاله في قلب الهيكل يتوسط هذين المعبودين المحليين. وقد كانت ادارة الأراضي الجنوبية في ذلك الحين في يد أمير أثيوبي وجدت له آثاراً في "أبو سمبل" و"جرف حسين"، وصورته نقوش الهيكل يقدم فروض الطاعة والولاء لـ"رمسيس الأكبر" على رأس كل موظفي حكومته، ومن بينهم كاتبان دينيان علاوة على كاتب قوات الجيش وكاتب الأراضي والمشرف على الأملاك الملكية وغيرهم من الكتبة.

ومن الجدير بالملاحظة أن زوجة الأمير الأثيوبي "ساتمي Satémi" تُقَدَّم لـ"سيزوستريس" بعد زوجها مباشرة، وقبل باقي الموظفين. ويبرهن ذلك بالإضافة إلى الآف الأمثلة الأخرى، على مدى اختلاف الحضارة المصرية القديمة اختلافاً جذرياً عن باقي

الحضارات الشرقية الأخرى، واقترابها من حضارتنا نحن الأوروبيين. نظراً لأنه يمكننا تقييم درجة ارتقاء الشعوب وتمدينها تبعاً للمكانة التي تحتلها المرأة في البنية الاجتماعية.

وفي مساء السابع عشر من يناير بلغنا "الدر" وهي العاصمة الحالية للنوبة، حيث تناولنا وجبة العشاء في ضوء القمر، تحت أشجار النخيل السامقة التي لم نر لها مثيلاً حتى الآن. ثم انزويت وحيداً على شاطيء النيل، فجاءني نوبي من أهل تلك البلدة ليجالسني ويعرض علي شراء عرق مصنوع من التمر. وبعد أن تجاذبنا أطراف الحديث، سألته عن إسم "السلطان" الذي أمر بتشييد معبد "الدر". فبادرني قائلاً بأنه يجهل ذلك نظراً لحداثة سنه، بيد أن شيوخ البلدة يتفقون على أن ذلك المعبد قد تم تشييده منذ نحو ثلاثمائة ألف عام قبل حلول الإسلام، وإن كانوا يختلفون حول ما إذا كان الفرنسيون أو الإنجليز أو الروس هم الذين شيدوا ذلك العمل الضخم. هكذا يكتبون التاريخ في النوبة ! وأخيراً فإن نظام التسلسل التاريخي الذي ينتهجه نوبيو "الدر" سيلائم صديقنا "جومار" وسيسعده كثيراً، إذ سيترك له براحاً كبيراً لتطبيق نظرياته عن انقلاب الشمس الصيفي والشتائي واعتدال الربيع والخريف.

أما معبد "الدر" -وعلى الرغم من حداثته مقارنة بالتاريخ الذي أعطاه لنا هذا النابغة النوبي !- فإنه يرجع لعهد "رمسيس الأكبر". وقد دخلناه في صباح يوم الثامن عشر، ولم نغادره إلا في ساعة متأخرة، بعد أن قمنا بنسخ أهم نقوشه البارزة، وعمل وصف تفصيلي لباقي النقوش التي لم ننسخها. وقد عثرت على قائمة بأسماء أبناء وبنات "رمسيس الأكبر" مُرتبة حسب أعمارهم، ستساعدني على تكملة القائمة الأخرى التي وجدتها في "أبو سمبل". كما قمنا بنسخ بعض أجزاء من النقوش البارزة التاريخية، وهي كلها تقريباً مطموسة مهشمة. وقد وجدت في ذلك تأكيداً لما ساورني من اعتقاد بشأن الأسد الذي يصاحب دائماً ذلك البطل الفاتح في نقوش "أبو سمبل" و"الدر". فهل كان هذا الحيوان رمزياً، ويُرسم فقط للتعبير عن قوة وشجاعة "رمسيس الأكبر"؛ أم أن هذا الأخير كان يمتلك فعلاً -مثل حسن باشا ومحمد علي باشا- أسداً مستأنساً يرافقه بإخلاص في الغزوات الحربية ؟ لقد وجدت في معبد "الدر" الإجابة على هذا السؤال، إذ نرى نقشاً يُصور هجوم الأسد على

البرابرة الذين أطاح بهم "رمسيس الأكبر" ومن فوقه النص التالي : [الأسد - خادم جلالة الملك - يُقطع أعداءه إرباً]. إن ذلك يبرهن على حقيقة وجود الأسد، ومرافقته لـ"رمسيس الأكبر" في المعارك.

وفضلاً عن ذلك فقد نُحت هذا المعبد في الصخور الرملية على مقياس كبير. كما كرسه "سيزوستريس" لـ"آمون رع"، سيد الآلهة، ولـ"رع حور آختي"، روح الشمس التي يُتضرع إليها باسم "رمسيس".

و هذا يوضح لنا المغزى من وراء تصوير الملك "رمسيس" على آثار "أبو سمبل" و"جرف حسين" و"الدر" و"وادي السبوع"...الخ، يقدم القرابين والابتهالات إلى إله يحمل كذلك نفس الإسم "رمسيس". وإذا اعتقدنا أن هذا الملك قد نَصّب نفسه إلهاً نكون قد أخطأنا خطأً فاحشاً. فلم يكن "رمسيس" إلا واحداً من الأسماء العديدة التي تُطلق على الإله "رع". لذلك لاتعدو تلك النقوش البارزة مجرد كونها نوعاً من التملق الكهنوتي للفرعون عن طريق إعطاء إله المعبد نفس اسم الملك، وأحياناً نفس تقاسيم وجهه . وقد لاحظت أنه عادة ما يُصور النحاتون الآلهة الرئيسية للمعبد بنفس ملامح وجه الملك أو الملكة التي قامت بتأسيسه. ويتضح لنا ذلك حتى في الجزء الخاص بمعبد "إيزيس" الكبير في "فيله" الذي شيده "بطليموس الثاني" (فيلادلفوس) إذ صُورت "إيزيس" برأس الملكة "أرسنوي" التي كانت بالطبع إغريقية الملامح. ويتجلى ذلك الأمر أكثر وضوحاً على الآثار الفرعونية القديمة.

وفي مساء الثامن عشر نزلنا حتى "عمدا"، ومكثنا فيها حتى عصر يوم العشرين، حيث أُتيحت لي فرصة دراسة معبدها بحرية، بعيداً عن تطفل الفضوليين نظراً لأننا كنا في قلب الصحراء. ويتكون ذلك المعبد الذي تغمره الرمال من مقدمة هيكل، وهي حجرة تستند على اثنتي عشرة ركيزة مربعة ومغطاه بالنقوش، وبأربعة أعمدة من الطراز الدوري البدائي الذي لم أجده للغرابة الشديدة إلا في الآثار الفرعونية القديمة، أي مقابر "بني حسن" و"عمدا" و"الكرنك" وأخيراً في "بيت الوالي"، والتي ترجع إلى عهد "سيزوستريس" أو على الأحرى إلى عهد والده.

وقد قام "تحتمس الثاني" بتأسيس معبد "عمدا" كما تشير إلي ذلك معظم النقوش البارزة، وخاصة الإهداء التالي والمنحوت على

القائمتين الداخليتين للباب. وفيما يلي نسوق ترجمة حرفية لهذا الإهداء لإعطاء فكرة عن إهداءات المعابد الأخرى التي جمعتها بعناية :

[الإله المنعم، سيد العالم، الملك (الشمس المرسخة للكون)، إبن الشمس (تحتمس)، القائم بالعدل يتضرع إلى والده الإله "رع حور آختي"، إله الجبلين السماويين، ويُكرس له هذا المعبد المشيد من الحجر الصلد لكي يُذكر فيه اسمه ويحيا إلى الأبد"].

وقد توفي "تحتمس الثالث" أثناء تشييد ذلك المعبد، فواصل العمل فيه من بعده خليفته "أمنحتب الثاني"، وأمر بنحت الحجرات الأربع على جانبي قدس الأقداس، علاوة على جزء من تلك التي تتقدمها. وقد سجل هذا الملك أعماله على لوح هائل يحمل نصاً يتألف من عشرين سطراً نسختها كلها بجهد مضن.

ثم جاء خليفته "تحتمس الرابع" ليتم بناء المعبد، مضيفاً إليه مقدمة الهيكل، والركائز التي غطيت كل عتباتها بنصوص الإهداء والمدح. وفيما يلي نُورد ترجمة لأحد تلك النصوص الغريبة التي أدهشتني :

[هذا ما يقوله الإله "تحوت"، سيد الكلمات الإلهية، للمعبودات الأخرى التي تسكن "تيري Thyri": هلموا ! وشاهدوا ملياً تلك القرابين العظيمة والطاهرة التي يقدمها الملك "تحتمس الرابع" لبناء هذا المعبد إلى والده الإله "رع حور آختي"، الإله العظيم الذي يتجلى في السماء !]

وتنتسب نقوش معبد "عمدا" إلى أزهى عصور الفن المصري، وتفوق بكثير نقوش "الدر"، وحتى لوحات "أبو سمبل" الدينية.

ثم غادرنا "عمدا" في عصر يوم العشرين، بعد أن فرغنا من العمل بها، ونزلنا النيل حتى قرية نوبية تُسمى "كرسكو" حيث قابلنا اللورد "بريدهو" الفاضل والنقيب "فيليكس" في طريق صعودهما النيل حتى "سنار" لبلوغ الهند مروراً بالحبشة وبلاد الفرس. وقد رسونا بأسطولنا الصغير، وقطعنا شوطاً من الليل في الحديث عن أعمال الماضي ومشاريع المستقبل. وأخيراً ودعت هذين الرحالين الباسلين اللذين لن يبلغا "سنار" إلا في فصل تنتشر فيه الأوبئة الخطيرة وخاصة بالنسبة للأوروبيين. فليرعاهما الله من كل سوء !

وفي يوم الواحد والعشرين بلغنا "وادي السبوع" الذي يستمد اسمه من طريق الكباش الممتد أمام حرم معبد نُحت نصفه في الصخر، بينما شُيد النصف الآخر من الحجر المقصوب، وهو يُعتبر بلا مراء من أردأ ما شُيد في عهد "رمسيس الأكبر": فقد قطعت أحجاره بغير إتقان، وأخفيت العراميس بطبقة من الملاط نُحتت عليها زخارف ونقوش ركيكة. وقد كرس "سيزوستريس" هذا المعبد لكل من الإلهين "رع حور آختي" و"بتاح"، سيد العدالة والإنصاف. ونُصبت أربعة تماثيل عملاقة تصور "سيزوستريس" واقفاً في بداية ونهاية صفي الكباش. كما تزدان واجهة الصرح الخارجية بلوحتين تاريخيتين تُصوران الملك يفتك بقبائل الشمال والجنوب. بيد أن أغلب تلك النقوش ضاعت معالمها بعد سقوط طبقة الملاط التي كانت تحمل قدراً كبيراً من النقوش، مما يترك ثغرات عديدة في اللوحة ولاسيما في النصوص. وقد دُفن كل ذلك المعبد تقريباً تحت الرمال التي تغمره من جميع الأنحاء.

وفي اليوم الثاني والعشرين هبت الرياح الشمالية العاتية؛ فاضطررنا للرسو على الشاطيء حتى مغيب الشمس. ثم انتهزنا فرصة ركود الرياح بعد ذلك لبلوغ "المحرقة" التي سبق أن رأينا معبدها في طريق صعودنا النيل. ولا يحمل هذا المعبد أية نقوش، وبالتالي فهو عديم الأهمية بالنسبة لي، نظراً لأنني كنت أبحث عن الأحجار المنقوشة فقط.

وعند بزوغ شمس اليوم التالي، ألفينا أنفسنا أمام "الدكا". ثم هرولت إلى معبدها الذي كُرس -كما تشير إليه النصوص الهيروغليفية- للإله "تحوت"، سيد مدينة "بسلك Pselk"، وهو اسم هيروغليفي جديد أضيفه إلى خريطة النوبة التي رسمتها والتي تضم كل الأسماء العتيقة مدونة باللغة الهيروغليفية المقدسة.

ولمعبد "الدكا" أهميتان : فهو يمدنا من الناحية الميثولوجية بمعلومات قيمة للغاية تعيننا على فهم طبيعة وصفات الذات الإلهية التي كان يعبدها المصريون تحت اسم "تحوت". وقد هدتني مجموعة من النقوش البارزة إلى كافة الصور التي يتجلى فيها هذا الإله. إذ اكتشفت أولاً صلته بـ"حرحات Har-Hat" (الإله "هرمس" العظيم) الكيان الجوهري، مقارنة بـ"تحوت" الذي يمثل آخر مرحلة من مراحل تحوله، أي تجسيده على الأرض على إثر تجسيد "آمون رع" و"موت"

في "أوزوريس" و"إيزيس". لذلك فإن "تحوت" ينتسب إلى "هرمس السماوي" (حورس)، الحكمة الإلهية وروح الله مارًا بالأشكال التالية: (١) "باحيتنوفي Pahitnoufi " (طاهر القلب). (٢) "اريحوسنوفري Arihosnofri" أو "اريحوسنوفي Arihosnoufi" (الذي يؤلف القصائد المتناغمة). (٣) "ميري Méri " (الفكر أو العقل . وتحت كل اسم من تلك الأسماء يتخذ "تحوت" شكلاً وشارات معينة. وتغطي صوره المختلفة جدران معبد "الدكا". ولقد فاتني أن أذكر عثوري هنا على صورة لـ"تحوت" ممسكًا بصولجان الآلهة الذي تلتف عليه حيتان وعقرب.

أما من الناحية التاريخية فقد اهتديت إلى أن أشهر الملوك الأثيوبيين "إرجامنErgamènes" هو الذي قام ببناء وزخرفة الصالة قبل الأخيرة والتي تُعتبر أقدم جزء في المعبد. ويروي لنا "ديودور الصقلي" أن هذا الملك قد لجأ إلى حيلة بشعة لتحرير أثيوبيا من حكومتها التيوقراطية عن طريق ذبح واغتيال جميع كهنتها. بيد أنه أسس معبدًا في النوبة، مما يدل على انفصال النوبة عن مصر منذ سقوط الأسرة السادسة والعشرين الصاوية على يد "قمبيز"، وخضوعها عندئذ للأثيوبيين حتى عهد "بطليموس الثالث" الذي نجح في غزوها من جديد وضمها إلى مصر. لذلك قام الأثيوبي "إرجامن" بتأسيس معبد "الدكا"، وواصله من بعده "يورجتيس الأول"، ثم ابنه "بطليموس الرابع" (فيلوباتور)، ثم حفيده "يورجتيس الثاني". بينما واصل الامبراطور "أغسطس" الزخرفة الداخلية للمعبد دون أن يتمها.

وبالقرب من صرح معبد "الدكا" عثرت على أنقاض بناء مازالت بعض أحجاره الكبيرة تحتفظ بجزء من الإهداء. وقد قام "تحتمس الرابع" بتشييده وتكريسه للمعبود "تحوت". هاهو دليل آخر، بالإضافة إلى الأدلة العديدة المماثلة، على أن البطالمة والملك الأثيوبي "إرجامن" نفسه لم يقوموا إلا بإعادة بناء معابد العصور الفرعونية المتهدمة في نفس أماكنها، وتكريسها لنفس الآلهة التي كانت تُعبد فيها من قبل. إن هذه النقطة في غاية الأهمية، إذ تُثبت لنا أن آخر ما شيده المصريون من آثار لم تتضمن أي أشكال لآلهة جديدة، فالمذهب الديني الذي اعتنقه ذلك الشعب ظل متماسكًا وراسخًا منذ زمن سحيق بصورة مطلقة ودقيقة، لدرجة أن سيطرة

اليونانيين بعد ذلك لم يتمخض عنها أية بدعة أو ابتكار. بل اقتصر عمل البطالمة والرومانيين على إصلاح ما دمره الفرس في النوبة ومصر، وعلى إعادة بناء المعابد التي دُمرت وفي نفس أماكنها، بل وتكريسها لعبادة نفس الآلهة.

وتُعتبر "الدكا" أقصى نقطة في الجنوب نجد فيها أعمالاً قام بها البطالمة والأباطرة. ويحدوني اليقين في أن الهيمنة اليونانية والرومانية لم تتعد "إبريم"، لذلك عثرت على مجموعة شبه متواصلة من العمائر التي ترجع إلى هذين العصرين على امتداد الطريق بين "الدكا" و"طيبه". كما نلاحظ ندرة الآثار الفرعونية، وكثرة تلك التي ترجع إلى عهد البطالمة والأباطرة وعدم اكتمالها كلها تقريباً. ونستنتج من ذلك أن تدمير المعابد الفرعونية التي كانت موجودة في الأصل بين "طيبه" و"الدكا" يجب اعزاؤه إلى الفرس الذين سلكوا وادي النيل حتى "وادي السبوع" ليأخذوا بعد ذلك طريق الصحراء للذهاب إلى إثيوبيا والعودة منها، وهو أقصر جداً من طريق النهر، حيث تقف شلالاته العديدة عقبة طبيعية أمام مرور الجيوش. وحتى يومنا هذا لاتزال معظم القوافل والجيوش والرحالة يسلكون طريق الصحراء. ولهذا السبب نجا معبد "الدكا" من بطش الفرس على الرغم من صغر حجمه وسهولة تدميره. ولنفس السبب ايضاً لانرى على طول الطريق بين "الدكا" و"طيبه" سوى معابد أعيد بناؤها.

ولنا أن نستثني معبدي "جرف حسين" و"بيت الوالي" اللذين لم يتمكن الفرس من تدميرهما لأنهما منحوتان في باطن الجبل. بيد أن التلف قد أصابهما وخاصة معبد "جرف حسين".

ثم بلغنا "جرف حسين" في الخامس والعشرين من يناير. وقد ترك لنا "رمسيس الأكبر" هنا أثراً عظيماً مثلما فعل في "أبو سمبل" و"الدر" و"وادي السبوع"، وكرسه للإله "بتاح" الذي وهب اسمه إلى "جرف حسين" التي تُسمى باللغة المصرية القديمة "بتاحيي Phthahéi" أو "تيبتاح Thyphtha" أي "موطن بتاح". وهكذا كانت تلك الضيعة النوبية تحمل في سالف الزمان نفس الاسم المقدس الذي كان يُطلق على "منف". ويبدو أن تلك الأسماء (الفخمة) كانت مطابقة لذوق العصر في النوبة، إذ علمت من النصوص الهيروغليفية أن "الدر" كانت على سبيل المثال تحمل نفس اسم "هليوبوليس"، أي

"مدينة الشمس"؛ وحتى القرية المعدمة التي يُطلق عليها اليوم اسم "وادي السبوع" كانت تتحلى في الماضي باسم "امونيي Amoneï" أي نفس اسم "طيبه" "ذات المائة باب".

وقد تهدم نصف معبد "جرف حسين" المشيد من الأحجار، بينما لحق التلف بالنصف الآخر المنحوت في الصخر. ومع ذلك فقد تمكنت من نسخ كافة النقوش البارزة وجزء كبير من النصوص. وتستند الصالة الرئيسية على ست أعمدة عملاقة نُحتت فيها ستة تماثيل ضخمة ورديئة تتناقض مع النقوش البارزة المتقنة. وعلى الجدران الجانبية نجد ثمان مشكاة مربعة الشكل تحتوي كل منها على ثلاثة تماثيل جالسة. أما التمثال الأول الذي يتوسط تلك (المشكاة) أو الهياكل الصغيرة، فهو إله الشمس "رمسيس" الذي يُوّجّه إليه الدعاء باسم الإله الكبير الذي يقطن "بتاحيي" و"امونيي" و"تيري" أي "جرف حسين"، كابن "بتاح" و"حتحور" إلهي ذلك المعبد العظيم. إن دراسة لوحات "جرف حسين" الدينية تلقي مزيداً من الضوء على أسطورة تلك الآلهة الثلاثة.

ولقد كرسنا جزءاً من نهار السادس والعشرين لزيارة معبد "دندور" الصغير الذي يرجع إلى عهد الامبراطور "أغسطس". وعلى الرغم من صغره وعدم اكتماله، إلا أنه يتعلق بتجسيد الإله "أوزوريس" في هيئة آدمية على الأرض، ومن هنا تنبع أهميته. وقد قضينا مساء الخامس والعشرين في الترفيه عن أنفسنا في مكان اكتشفناه بمحض الصدفة في مواجهة "دندور" حيث رسونا، يُرجع صدى الصوت بوضوح شديد وبصوت رنان حتى أحد عشر مقطعاً لفظياً. وقد تلذذ رفاقنا الإيطاليون في إلقاء أبيات شعرية لـ"تاس" تمتزج بها طلقات نارية يطلقونها من جميع الجهات، ثم ترتد إلينا عن طريق صدى الصوت كطلقات المدافع وقصف الرعد.

ثم انطلقنا إلى معبد "كلابشة" في السابع والعشرين، حيث اكتشفنا جيلاً جديداً من الآلهة يُكمل سلسلة الصور التي يتجلى فيها "آمون" الذي يمثل منبع ومصب كل الذوات الإلهية. فـ"آمون رع"، الخالق الأزلي، هو أباه ويُنعت بزوج أمه (الإلهة موت) التي تمثل جانبه الأنثوي الموجود في ذاته التي هي ذكر وأنثى في نفس الوقت. وما بقي من الآلهة المصرية ليس إلا أشكالاً وصوراً لهذين المكونين الأساسيين، وتجردات بحتة للكائن الأعظم. لذلك فإن تلك الأشكال

الفرعية تُكون سلسلة متواصلة تهبط من السماوات، وتتجسد على الأرض فى هيئات آدمية، ويُعتبر "حورس" آخر تلك التجسيدات وآخر حلقة في السلسلة الإلهية. وتتمثل نقطة انطلاق الميثولوجيا المصرية في ثالوث يتكون من عناصر "آمون رع" الثلاث: أى "آمون" (الذكر والأب) و"موت" (الأنثى والأم) و"خنسو" (الإبن). وعندما تجلى ذلك الثالوث على الأرض تحول إلى "أوزوريس" و"إيزيس" و"حورس". إلا أن هذا التناظر ليس تاما لأن "أوزوريس" و"إيزيس" أخوان. ولقد عثرت أخيرا فى "كلابشة" على الثالوث النهائى الذى يمتزج أعضاؤه الثلاثة تماما فى أعضاء الثالوث الجوهرى: فـ"حورس" ينتحل بالفعل لقب زوج أمه. أما الطفل الذى رزق به من أمه "إيزيس" والذى يدعى "ملولى **Maloulé**" هو معبود "كلابشة" الرئيسى كما تعطينا العديد من النقوش البارزة سلسلة نسبه. وهكذا يتكون الثالوث النهائى من "حورس" وأمه "إيزيس" وابنهما "ملولى"، وهم يطابقون تماما الثالوث الجوهرى الذى يتكون من "آمون" وأمه "موت" وابنهما "خنسو". لذلك فقد عُبد "ملولى" فى "كلابشة" فى صورة مشابهة لصورة "خنسو"، إذ يرتدى نفس الثياب ويحمل نفس الشارات. فقط ينتحل هنا الإله الشاب علاوة على ذلك لقب سيد "تلميس **Talmis**" أى "كلابشة" وهو الاسم الذى أطلقه الجغرافيون القدماء على "كلابشة"، وهو اسم نجده فى نصوص المعابد اليونانية.

وفضلا عن ذلك فقد تيقنت من أن معبد "ملولى" فى "كلابشة" قد مر بثلاث مراحل مختلفة: الأولى فى عهد "امنحتب الثانى"، خليفة "تحتمس الثالث"؛ والثانية فى عهد البطالمة؛ أما الثالثة والأخيرة والتى تركت المعبد على حالته الراهنة، دون أن يكتمل، فقد كانت فى عهد الأباطرة "أغسطس" و"كاليجولا **Caius-Caligula**" وتراجان. كما أن نصوص الإله "ملولى" المنحوتة فى قطعة من نقوش المعبد الأول، والتى أعيد استخدامها فى ثالث مراحل بناء المعبد، لا تختلف في شيء عن أكثر النصوص حداثة. وهكذا يتضح لنا أن العقائد الدينية المحلية التى كانت سائدة فى كل مدن وضياع النوبة ومصر لم تطرأ عليها أبدا أية تعديلات. فما من شيء قد استُحدث، لدرجة أن الآلهة القديمة ظلت تُعبّد حتى لحظة قيام الديانة المسيحية بإغلاق المعابد الوثنية. ومن ناحية أخرى فقد تقاسمت تلك

الآلهة على نحو ما مصر والنوبة، مكونة بذلك نوعا من التقسيم الإقطاعي. فلكل مدينة رب يحميها: "خنوم" و"ساتت" يحكمان "إلفنتين" و"أسوان"، وسلطتهما تشمل النوبة كلها؛ و"رع حور آختي" يحكم "ابو سمبل" و"الدر" و"عمدا"؛ و"بتاح" يهيمن على "جرف حسين"؛ و"عنقت" على "المساخيط"؛ و"تحوت" على كل النوبة بالإضافة إلى مناطق نفوذه الرئيسية في جبل "عدة" و"الدكا"؛ و"أوزوريس" كان سيد "دندور"؛ و"إيزيس" أميرة "فيله"؛ و"حتحور" تحكم "ابو سمبل"؛ وأخيراً "ملولي" يهيمن على "كلابشة". إلا أن "آمون رع" كان يُعبد في طول البلاد وعرضها، ويحتل عادة يمين قدس الأقداس.

هكذا كان الحال في مصر، مع إدراكنا أن هذة العبادات المحلية لم يكن من الممكن أن تتغير نظراً لأنها كانت متغلغلة في البلاد بكل قوة المعتقدات الدينية. وفضلاً عن ذلك فإن عبادة كل إقليم لإله واحد دون سواه لم تكن تثير أي كره أو عداوة بين المدن المتجاورة؛ نظراً لأن كل واحدة من تلك المدن كانت تضع في معبدها -من باب المجاملة المحسوبة جيداً- تماثيل الآلهة المعبودة في المناطق المتاخمة لها. لذلك عثرت في معبد "كلابشة" على آلهة "جرف حسين" و"الدكا" و"دابود" تشغل مكاناً مرموقاً. كما عثرت في "دابود" على آلهة "الدكا" و"فيله". وفي "فيله" وجدت آلهة "دابود" و"الدكا" و"إلفنتين" و"أسوان". وأخيراً عثرت في "أسوان" على آلهة "فيلة" و"كوم امبو".

كما لاحظت في "كلابشة" وللمرة الأولى استخدام اللون البنفسجي في تلوين النقوش البارزة. وهداني البحث إلى اكتشاف أن ذلك اللون يأتي من المادة الكيميائية (المُرَسِخ) المدهونة على أجزاء تلك اللوحات لتثبيت اللون الذهبي الذي ستُطلى به. ويشير ذلك إلى تذهيب قدس الأقداس في "كلابشة" والحجرة التي تسبقه، وكذا قدس الأقداس في "الدكا".

وعلى مقربة من "كلابشة" يقع "بيت الوالي". وهو أثر هام استغرق عملنا فيه من يوم الثامن والعشرين وحتى ظهر الواحد والثلاثين من يناير. وبعد أن سأمت عيناي مرأى نقوش معبد "كلابشة" الرديئة على الرغم من ثرائها، عزيت نفسي بتأمل النقوش التاريخية الرائعة التي تزين هذة المقبرة، والتي نملك نسخاً كاملة لها. وتصور لنا هذة اللوحات الغزوات التي شنها الملك ضد العرب، وبعض الشعوب الإفريقية، والكوشيين Kouschi (الأثيوبيين)، وقبائل "شاري Schari" المعروفة اليوم بإسم "بشاري Bischari". ويذكر لنا "ديودور الصقلي" بوضوح أن "سيزوستريس" قاد تلك الحملات العسكرية في ريعان شبابه وأثناء حياة والده، كما أخضع بالفعل العرب وكل الأراضي الليبية تقريباً.

ونرى الملك "رمسيس" متربعاً فوق العرش داخل ناووس، وأمامه ابنه "سيزوستريس" يرتدي زي الأمراء، ويقدم له مجموعة من الأسرى العرب الأسيويين. وعلى مبعدة تطالعنا صورة الملك ظافراً يصرع بيديه أحد هؤلاء الأسرى؛ وفي نفس الوقت يقدم له الأمير (سيزوستريس) القادة العسكريين وحشداً من الأسرى. وينطلق الملك فوق عجلته الحربية لملاحقة أعدائه العرب، وينهال ابنه بالفأس على بوابة مدينة مُحاصَرة. ويسحق الملك العرب المهزومين الذين يسوقهم ابنه الأمير في طابور طويل. وبهذا نكون قد فرغنا من وصف اللوحات التاريخية التي تزين الجدار الأيسر للحجرة الرئيسية في هذا الأثر.

أما الجدار الأيمن فيصور لنا تفاصيل الحملة العسكرية ضد الأثيوبيين و"البشاريين" والزنوج. ففي اللوحة الأولى الكبيرة نرى الهمجيين، في غمرة الهزيمة والفرار، يلوذون بالغابات والجبال والمستنقعات. وتصور لنا اللوحة الثانية التي تغطي بقية الجدار الملك جالساً داخل ناووس يستقبل بحركة من يده أكبر أولاده (سيزوستريس) الذي يقدم له: (١) أميراً اثيوبياً يُدعى "امينموف Aménémoph" بن "بوري Poeri" يستند على اثنين من أولاده، يقدم له أحدهما قدحاً لكي يشرب ويستعيد قوته للوصول أمام عرش والد الملك المنتصر. (٢) قادة عسكريين مصريين. (٣) مناضد وموائد تغطيها السلاسل الذهبية، وفرو الفهد، وأكياس التِبْر،

وجذوع أشجار الأبنوس، وسن الفيل، وريش النعام، وحزم من الأقواس والسهام، والأثاث الوثير، وكافة أنواع الغنائم المسلوبة من العدو، أو المفروضة عليه. (٤) ويتبع هذه الثروات عدد من "البشاريين" الأسرى من الرجال والنساء؛ تحمل إحداهن طفلين فوق كتفيها داخل ما يشبه القفة. كما يتبعهم أشخاص آخرون يقودون إلى الملك حيوانات حيّة وعجيبة تأتي من قلب إفريقية مثل الأسد والفهد والنعامة، والقردة، والزرافة مرسومين باتقان بالغ، ...الخ، ...الخ. وأخيراً تصور لنا تلك النقوش الغزوة التي شنها "سيزوستريس" ضد الإثيوبيين الذين أجبرهم -كما يذكر لنا "ديودور الصقلي"- على دفع جزية سنوية لمصر من الذهب وأخشاب الأبنوس وسن الفيل.

ويغلب الطابع الديني على بقية نقوش هذا المعبد الذي كُرس لعبادة الإله "آمون رع" العظيم، والإله "خنوم"، الصورة الثانوية التي يتجلى فيها. ويُصرح الإله الأول مرات عديدة في نصوصه بأنه وهب العالم كله براً وبحراً إلى ابنه المحبوب [سيد الكون، الشمس التي تحرس العدالة، "رمسيس" (الثاني)]. ويصور لنا قدس الأقداس هذا الفرعون يرضع من ثدي المعبودتين "عنقت" و"إيزيس". وتقول له الأولى: [أنا والدتك، سيدة "إلفنتين"، أضعك فوق ركبتي، وأعطيك ثديي لترضع، يا "رمسيس" !]. وتخاطبه الأخرى قائلة: [أنا أمك "إيزيس"، سيدة النوبة، أهبك فترات أعياد (تُقدر كل منها بثلاثين عام) ترشفها مع لبني، وتنعم بها خلال حياة طاهرة]. وقد قمت بنسخ هاتين اللوحتين، والعديد من المناظر الأخرى من بينها نقشين بارزين يصوران انتصار الملك على شعوب الجنوب وعلى شعوب الشمال. ولا يخفى علينا أن المصريين القدماء كانوا يطلقون على السوريين والآشوريين والأيونيين واليونانيين اسم "الشعوب الشمالية".

وقد أحزنني مغادرة أثر "بيت الوالي" الذي يُعد آخر الآثار الرائعة الموجودة بين "كلابشة" و"طيبه".

وعند مغيب شمس يوم الواحد والثلاثين بلغت "كرداسي Kardassi" أو "كورتا Kortha" حيث توجهت لزيارة أنقاض معبد صغير كُرس لعبادة "إيزيس"، يخلو من الزخارف فيما عدا نقش بارز منحوت على جذع عمود. وقبل ذلك بساعتين كنت قد رأيت

معابد "تفاح Tofah" ("تافيس Taphis" العريقة) الخالية ايضاً من النقوش والنصوص الهيروغليفية. إلا أننا نستنتج بسهولة من خلال طابعها المعماري أنها ترجع إلى عصر الاحتلال الروماني.

وفي الأول من فبراير رأينا قارباً شراعياً ترفرف عليه راية النمسا يتقدم نحونا، وعلى متنه السيد "اسربي Acerbi"، قنصل عام النمسا في مصر الذي راح يناديني، ويلقي علينا التحية بحركة من يده. عندئذ توقفنا بضع ساعات للحديث عن أعمالنا مع هذا الرجل الفاضل؛ وهو صحفي شهير، ومُحِب للآداب، وكان قد استقبلنا بكرم وحفاوة شديدة خلال فترة إقامتنا بمدينة الإسكندرية. ثم غادرنا السيد "اسربي" صاعداً النيل صوب الشلال الثاني، بينما سلكت أنا الاتجاه المضاد، بعد أن تواعدنا على اللقاء مرة أخرى في "طيبه" التي تُعد ملتقى الرحالة، وأهم مدينة في مصر على الرغم من مدينة القاهرة العملاقة، ومدينة الإسكندرية الحزينة.

وفي الساعة الثانية من بعد الظهر بلغنا "دابود Déboud" أو "دابودةDéboudé". ثم اجتزنا ثلاث بوابات صغيرة خالية من النقوش لنصل إلى المعبد المشيد في معظمه في عهد ملك اثيوبي يُدعى "اتارامونAtharramon"، الذي ينبغي أن يكون قد سبق أو خلف الملك "ارجامنسErgamènes" مباشرة على العرش. وقد كُرس هذا المعبد لـ"آمون رع"، رب "دابود"، و"حتحور"، علاوة على "أوزيريس" و"إيزيس". وقد قام الإمبراطوران "أغسطس" و"تيبروس Tibère" باستكمال تشييده وزخرفته، دون الانتهاء منه تماماً. ونجد داخل قدس الأقداس الخالي من الزخارف أنقاض ناووس رديء منحوت من كتلة واحدة من الجرانيت الوردي يرجع إلى عهد البطالمة.

وبعد أن فرغنا من العمل في تلك الناحية سارعنا بالرحيل والاستفادة من بقية النهار للوصول إلى "فيله"، والدخول في مصر وتوديع أرض النوبة الجافة التي أضجرت وأعيت كل رفاقي. وفضلاً عن ذلك فعندما تطأ أقدامنا تراب مصر، سيمكننا أن نأمل في تذوق خبز أفضل من ذلك الذي يُعده لنا يومياً بدون خميرة كبير خبازينا الذي يضارع من حيث المهارة الطاهي القذر الذي ألحقوه بخدمتنا في القاهرة باعتباره خبيراً في فن الطهي.

وفي الساعة التاسعة مساء رسونا في جزيرة "فيله"، ورحنا نُسَبِّح بحمد الآلهة "أوزوريس" و"إيزيس" و"حورس" على نجاتنا من الموت جوعاً بين الشلالين.

وامتدت بنا الإقامة في هذة الجزيرة المقدسة حتى السابع من فبراير لإتمام الأعمال التي كنا قد بدأناها في شهر ديسمبر الماضي؛ وجمع كافة اللوحات الميثولوجية العديدة المتعلقة بأسطورة "إيزيس" و"أوزوريس"، الإلهين الرئيسيين في "فيله". لذلك فسأكتفي في هذا الصدد بتحديد تاريخ الأبنية الرئيسية المشيدة في هذة الجزيرة.

فقد قام الملك "نختنبو"، آخر سلالة الملوك المصريين الذين حكموا البلاد قبل الاحتلال الفارسي الثاني، بتشييد المعبد الجنوبي الصغير، وتكريسه لعبادة الإلهة "حتحور". كما قام الأباطرة بتشييد الرواق الكبير، أو الممر المسقوف الذي يربط بين هذا البناء الصغير الجميل والمعبد الكبير؛ بينما ترجع زخارفه إلى كل من "أغسطس" و"تيبروس" و"كلود".

كما قام "بطليموس السادس فيلوماتور" بتشييد الصرح الأول، وحشوه بأنقاض باب قام الفرعون "نختنبو" بتكريسه لـ "إيزيس". ويتضح لنا مما تقدم أن معبد "إيزيس" الكبير الحالي قد شُيد في نفس مكان معبد قديم دمره الفرس في عهد "داريوس-اوكيس Darius-Ochus". كما يفسر لنا ذلك السر في إعادة استخدام أنقاضه في تشييد أعمدة مقدمة الناووس الحالية في المعبد الكبير.

ويرجع تشييد قدس الأقداس والحجرات الملاصقة له إلى الملك "بطليموس فيلادلفوس". في حين شُيدت مقدمة الناووس في عهد "يورجتيس الثاني"؛ والصرح الثاني في عهد "بطليموس فيلوماتور". كما قام كل من "أغسطس" و"تيبروس" بتنفيذ كافة النقوش البارزة الخارجية للمعبد.

كما نجد بين صرحي معبد "إيزيس" الكبير بناءين رائعين يتميزان بأسلوب خاص. إذ يطالعنا على اليسار معبد تحيط به أعمدة منفردة مُكرس إلى "حتحور"، وولادة "إيزيس" لـ"حورس". وتعود أقدم أجزاء هذا المعبد إلى "بطليموس ابيفانس" وإلى ابنه "يورجتيس الثاني"؛ بينما ترجع النقوش البارزة الخارجية إلى عهد

"أغسطس" و"تيبروس". وينسب "يورجتيس الثاني" لنفسه شرف بناء هذا المعبد في نصوص الإهداءات الطويلة المدونة على الإفريز الخارجي.

كما ينسب هذا الملك لنفسه كذباً -من خلال نص إهداء مماثل- شرف تشييد البناء الأيمن الذي اضطلع به كله تقريباً أخوه "فيلوماتور"، باستثناء حجرة واحدة قام بزخرفتها "تيبروس".

وقد كرست يوماً كاملاً لدراسة جزيرة "بيجيه Béghé" الصغيرة المجاورة لـ"فيله"، حيث أشار علماء الحملة الفرنسية إلى وجود أنقاض بناء مصري صغير. وقد عثرت بالفعل على عدد من الأعمدة لمعبد صغير جداً وركيك يرجع إلى عهد "فيلوماتور". وتشير النصوص إلى أننا في جزيرة "سنام Snèm". وقد سبقت لي قراءة هذا الإسم كثيراً في الآثار الممتدة بين "كوم امبو" و"الدكا"، في نصوص الآلهة بشكل عام، وفي نصوص كل من الإله "خنوم" والإلهة "حتحور" بشكل خاص. وقد كانت هذه الجزيرة المقدسة قِبْلة للحج زمناً طويلاً قبل جزيرة "فيله" المجاورة التي كان يُطلق عليها اسم "منلك Manlak" في اللغة المصرية القديمة. وقد اشتُق من هذا الاسم أسماء "بيلاش Pilach" في اللغة القبطية، و"بيلاكBilaq" في اللغة العربية، و"فيليه Philai" في اللغة اليونانية؛ دون أن يتعلق ذلك إطلاقاً باسم "فيل Fil" (الفيل) الذي أطلقه "جومار Jomard".

وقد شُيد معبد "سنام" الحالي في نفس موقع المعبد القديم والكبير الذي قام الفرعون "امنحتب الثاني"، خليفة "تحتمس الثالث"، بتشييده وتكريسه لعبادة "خنوم" و"حتحور". وقد عثرت على أنقاض هذا المعبد، وبقايا تمثال ضخم لنفس هذا الفرعون كان ينتصب أمام أحد صروح البناء القديم. كما تفقدت الصخور الجرانيتية الوردية لجزيرة "سنام" المقدسة، وجمعت نحو عشرين نص فرعوني خاص بمشاهد التعبد والزيارات التي قام بها أشخاص بارزون في مصر القديمة، ومن بينهم: (١) كاتب ملكي، قائد قوات الجيش في عهد الفرعون "امنحتب الثالث" (ممنون) يُدعى "امنموف Aménémoph". (٢) نص يشير إلى حج أحد كبار كهنة "آمون"، أمير من عائلة "رمسيس". (٣) أمير اثيوبي يُدعى "ميموزيس Mémosis" في عهد الفرعون "امنحتب الثالث". (٤) أمير اثيوبي آخر يُدعى "ميسي Méssi" في عهد "رمسيس الأكبر". (٥) "امينوتف

Amenothph"، كبير كهنة الإلهة "عنقت". (٦) النص التالي: [لقد قَدِمْت إليكم، أنا عبدكم وخادمكم، إليكم جميعاً، يا أيتها الآلهة العظيمة، التي تسكن "سنام"! أنعموا عليّ بكافة الخيرات التي بين أيديكم، (عليّ أنا) المشرف على أراضي الملك، سيد العالم "امنحتب" (الثالث). ـأحمس] وقد صُور "أحمس" هذا إلى جانب النص رافعاً يديه في وضع المتعبد. (٧) وأخيراً فقد نسخت نصاً جميلاً منقوشاً في أعلى جبل من الصخور الجرانيتية الهائلة، يشهد بأنه في الأعوام الثلاثين، والرابع والثلاثين، والتاسع والثلاثين من حكم "رمسيس الأكبر" (سيزوستريس) حضر أحد أولاده الأمراء العيد الديني لـ"سنام"، وشارك في هذا الاحتفال بتقديم الأضحية. ولن أتحدث عن العديد من التدوينات الخاصة بأسماء الأعلام فقط، وعن تلك التي تحمل الأسماء الملكية المنقوشة بالأحرف الكبيرة لكل من الفراعنة "بسماتيك الأول"، و"بسماتيك الثاني"، و"ابريس"، و"أمازيس". إذ يبدو أن الغرض من ورائها كان يقتصر على مجرد تخليد ذكرى مرور هؤلاء الفراعنة بجزيرة "سنام"، وعمليات اقتلاع الأحجار الجرانيتية الرائعة من جبالها.

وقبل مغادرة "فيله" توجهت بصحبة السادة "ديشان"، و"لوت"، و"لوهو"، و"برتان" للنزهة في الشلال. وجلسنا نتذوق فَخذ الخروف اللذيذ والسلطة التي أخذناها معنا في ظل شجرة السنط (نوع من شجر "الميموزا" الكثير الأشواك) الوحيدة الموجودة في هذا المكان في مواجهة الصخور البارزة الممتدة على شاطيء النيل. وقد ذكرني خرير الماء بسيول جبال "الألب" الفرنسية. وفي طريق العودة نزلت على الضفة اليمنى للنهر في مواجهة "فيله" لجمع النصوص المدونة على الصخور الجرانيتية التي تغطيها. وقد عثرت من بينها على صخرة منحوتة على شكل كرسي العرش، تحمل نصوصاً عجيبة لا تتعلق من قريب أو من بعيد بآلهة "فيله". ونسوق فيما يلي ترجمة لأبرز هذة النصوص:

(١) لوحة منحوتة في الصخر نصفها مطموس، تذكرنا بالانتصار الذي أحرزه الفرعون "تحتمس الرابع" على الليبيين في اليوم الثامن من شهر "بَرَمْهات" من العام السابع لحكمه.

(٢) لوحة في حالة جيدة من الحفظ تتكون من أربعة عشر سطراً تذكرنا بقيام "امنحتب الثالث" (ممنون) بإخضاع الإثيوبيين في العام الخامس من حكمه، ومروره بهذا المكان، وقيامه بعمل احتفال ديني كبير.

(٣) دعاء موجه إلى المعبودين "نيت" و"منتو" لصالح "مندواوتف Mandouothph" (سمندس Smendès)، أحد ملوك الأسرة الواحدة والعشرين.

(٤) دعاء موجه إلى الآلهة "هورامون Horammon" و"ساتت" و"منتو" لصالح "نفيروتف Néphérothph" (نفرتيس Néphérites)، أحد ملوك الأسرة التاسعة والعشرين.

ولن أتطرق إلى الحديث عن الدعوات العديدة التي يوجهها عامة الناس إلى "خنوم" و"ساتت"، إلهي الشلال.

كما عثرت في السابع من فبراير على عدد كبير من تلك الدعوات موجهة إلى نفس هذين الإلهين، ومنحوتة في الصخور التي تمتد على طول الطريق بين "فيله" وأسوان. وقمت كذلك بنسخ نصوص ونقوش تُصور الأمراء الإثيوبيين يقدمون فروض الطاعة والولاء إلى "رمسيس الأكبر" وجده "اتوتي Athothéi" (مندوي Mandouéi).

وأخيراً عدت إلى "سيان Syène" (أسوان) التي سبق أن غادرتها في شهر ديسمبر الماضي. ثم توجهت لزيارة أنقاض معبدها الذي قام الامبراطور "نرفا Nerva" بتكريسه إلى "خنوم" و"ساتت"؛ في انتظار قدوم أمتعتنا من "فيله" على ظهور الجمال، وتجهيز أسطول صغير لنا (نظراً لأننا تركنا القوارب النوبية أمام الشلال الذي لا يمكن اجتيازه). ويعود هذا الأثر إلى ذروة انحطاط الفن واضمحلاله في مصر؛ إلا أن أهميته ترجع إلى الأسباب التالية: (١) لأنه الأثر الوحيد الذي يحتوي على الاسم الهيروغليفي للإمبراطور "نرفا". (٢) ولأنه أمدني بالاسم الهيروغليفي-الصوتي لـ"سيان" أي "سوان Souan" الذي يتطابق مع اسم "سوان Souan" في اللغة القبطية، والذي اشتُق منه اسم "سينه Syéné" في اللغة اليونانية،

و"أسوان Osouan" في اللغة العربية. (٣) وأخيراً لأن الاسم الرمزي لهذة المدينة الذي يصور الميزان العمودي الذي يستخدمه المعماريون والبناؤن يشير بكل تأكيد إلى موقع مدينة "سيان" العريقة تحت مدار السرطان، وإلى البئر الشهيرة التي تسقط فيها أشعة الشمس عمودياً يوم انقلاب الشمس الصيفي. وكثيراً ما أشار المؤلفون اليونانيون إلى هذة الأسطورة التي ربما كانت ترتكز بالفعل على حدث حقيقي، وإن كان غارقاً في القِدَم.

ثم استقليت زورقاً لتفقد الصخور الجرانيتية التي تقع في أنحاء أسوان باتجاه الشلال. فعثرت على نقوش تصور أميراً اثيوبياً يقدم فروض الطاعة والولاء إلى "امنحتب الثالث" وزوجته الملكة "تي"؛ ولوحة تعبدية لـ"خنوم"، الإله المحلي، لصالح "رمسيس الأكبر" وابنتيه "ايزينوفريه Isénofré" و"باتيانتي Bathianthi"، وأخويهما "شا_حم_كامي Scha-hem-kamé" و"مرينبتاح Mérenphtha"؛ ومنظر يصور الأمير الإثيوبي "ميموزيس Mémosis" (الذي سبق أن عثرت له على نص في جزيرة "سنام") راكعاً في ابتهال أمام اسم الملك "امنحتب الثالث"؛ وأخيراً دعوات عديدة يوجهها عامة الناس والموظفون إلى آلهة أسوان والشلال: "خنوم" و"ساتت" و"عنقت".

كما توجهت للمرة الثانية لزيارة جزيرة "إلفنتين" التي لا تزيد مساحتها كلها عن مساحة إحدى حدائق أثرياء باريس؛ في حين يصورها بعض المؤرخين المحدثين على أنها مملكة شاسعة. وقد تم هدم معبديها مؤخراً لإعادة استخدام أحجارهما في بناء ثكنات عسكرية ومخازن في أسوان. وهكذا فقد اندثر المعبد الصغير الذي كرسه "امنحتب الثالث" لعبادة "خنوم". ولم يعد هناك أي شيء منتصب سوى ركيزتي باب من الجرانيت ينتسب إلى معبد آخر كرسه "الإسكندر" بن "الإسكندر الأكبر" لعبادة كل من "خنوم" و"ساتت" و"عنقت". بيد أنني عثرت داخل جدار رصيف روماني على أنقاض العديد من أبنية "إلفنتين" القديمة المشيدة في عهد الملوك "تحتمس الثالث" و"اتوتي" و"رمسيس الأكبر". كما قمت بنسخ العديد من التدوينات الهيروغليفية العجيبة، ونص للوحة مهشمة ترجع إلى الفرعون "اتوتي" (مندوي) داخل أنقاض حجرة تقع أسفل سلم الرصيف الروماني.

وبعد أن فرغت تماماً من تفحص (نقطة حدود الإمبراطورية الرومانية) ودعنا الصخور الجرانيتية في أسوان و"إلفنتين"، وتوجهنا صوب "كوم امبو". إلا أن الرياح الشمالية المعاكسة حالت دون وصولنا حتى هذة اللحظة التي أكتب لك فيها هذا الخطاب في الساعة السابعة من صباح يوم الثاني عشر من فبراير. أسمع صوت هدير أمواج النيل على بعد عدة سنتيمترات أسفل السرير الذي أجلس عليه.

* * *

كوم امبو في ١٤ فبراير، الساعة الثانية

أخيراً بلغت "كوم امبو" في منتصف نهار أول أمس. ثم استأنفنا الأعمال التي كنا قد بدأناها في شهر ديسمبر الماضي، وفرغنا منها تماماً الآن. وعلى الرغم من أن كل شيء هنا يرجع إلى العهد اليوناني، إلا أن المعبد الكبير رائع من الناحية المعمارية. وقد شرع في تشييده "بطليموس ابيفانس"، وتابعه من بعده "فيلوماتور" و"يورجتيس الثاني"؛ كما ترجع بعض نقوشه البارزة إلى عهد "كليوباترا-كوكسيهCléopatre-Coccé" و"سوتير الثاني". وقد كُرس هذا البناء الضخم المهيب لعبادة ثالوثين مقدسين يتقاسمان المعبد المقسّم طولياً بالفعل إلى جزءين متميزين تماماً على جانبي المحور الرئيسي. ويتكون الثالوث الأول من "سوبك-رعSéυek-Ra " ذي رأس تمساح، و"حتحور"، وابنهما "خونسو-حر Khons-Hor". بينما يتكون الثالوث الثاني من "حورس Aroéri"، والإلهة "تسونينوفريه Tsonénofré"، وابنهما "بنفتو Pneυtho". ويمثل هذان الثالوثان آلهة "كوم امبو"؛ أما التمساح المرسوم على الأوسمة الرومانية فيُعتبر الحيوان المقدس للإله "سوبك-رع".

وتنتحل "كليوباترا"، زوجة "فيلوباتور"، في نصوص الإهداء والخراطيش المدونة على إفريز مقدمة الناووس اسم "تريفان Tryphaene" أو "دروبيون Dropion". وقد تكرر هذا الاسم ثلاثين مرة مما لا يدع لنا أي مجال للشك.

وقد كان معبد "كوم امبو" الصغير -مثل أحد معابد "فيله" ومعبد "أرمنت"- "اميزي Eimisi" أو "ماميزي Mammisi"، أي بناءً مقدساً يرمز إلى مكان ولادة الإله الصغير الذي يمثل ثالث أفراد الثالوث المقدس؛ أو بمعنى آخر، صورة أرضية للمكان الذي شهد ولادة الإلهتين "حتحور" و"تسونينوفريه" لابنيهما "خنسو-حر" و"بنفتو" اللذين يكملان ثالوثي "كوم امبو".

وقد انزلقت بين الأحجار المتساقطة لهذا البناء الصغير، وتفحصت كل واحدة من الأحجار الأخرى التي سيطويها النيل في جوفه قريباً، بعد أن هدم أساساته والجزء الأعظم منه. وقد عثرت على كتل حجرية ترجع إلى بناء أقدم، أي إلى معبد كرسه الملك "تحتمس الثالث" لعبادة الإله "سوبك-رع"، واستُخدِمت أنقاضه فيما بعد لبناء جزء من الـ"ماميزي" في عهد كل من "يورجتيس الثاني"، و"كوكسيه"، و"سوتير الثاني".

ويتضح لنا مما تقدم أن معبد "كوم امبو" الكبير الحالي قد شُيد فوق أنقاض معبد قديم كُرس لعبادة الإله "سوبك-رع". وقد عثرت على كتفي باب صغير لهذا المعبد القديم محشورين داخل الواجهة الخارجية لسور الحرم الذي يحيط بالمعابد من الناحية الجنوبية-الشرقية. وترجع زخارف هذا الباب إلى عهد "تحتمس الثالث". كما نقرأ النص التالي مدوناً بالأحرف الهيروغليفية أسفل كتفي الباب: [باب الملكة "امنسي"، الذي يفضي إلى معبد "سوبك-رع"]. ولعلك تذكر أن الملكة "امنسي"، والدة "تحتمس الثالث"، قد اعتلت العرش مثل الفراعنة الملوك. ويرجع الباب الكبير الذي يقع على مقربة من شاطيء النيل إلى عهد "فيلوماتور"، وكان يفضي إلى المعبد الصغير الحالي.

مازالت الرياح تعصف بقوة. وفي حالة ركودها أثناء الليل سنغتنم الفرصة للذهاب إلى جبل "سلسلة" حيث تنتظرنا العديد من الأنقاض التي ترجع إلى مختلف العصور الفرعونية.

* * *

لتذكرني عند جميع هؤلاء الذين لم ينسوني بعد. وأخبر السيد "دي سان بري de Saint-Prix" أنني عثرت في مصر على نصوص إجراءات قانونية خاصة لا مثيل لها منذ المُشرع المصري الأول "منيفيس Menévis" وحتى "برتول Barthole"، و"كيجاس Cujas".

أبلغ تحياتي إلى "كرلوتو Carlotto" وإلى كل الذين اعتادوا التردد كل يوم خميس على صالون البارون "دي فريساك de Férussac"؛ وعلى وجه الخصوص الأب "جويليو Giulio" الذي اشتريت له كرابيج مصنوعة من جلد وحيد القرن وفرس النهر، كما اشتريت للسيد "دي فريساك" بعض الأحجار والأصداف.

ينشرح صدري لمجرد التفكير في احتمال أن أجد رسالة جديدة منك في انتظاري في "طيبه" التي سأبلغها في آخر هذا الشهر. وداعاً يا صديقي العزيز. اسمح لي أن أخبرك بأنني أجد رسائلك قصيرة بعض الشيء، وأن أذكِرك بأن الآف الأميال تفصل بيننا، وأن أتفه الأخبار وأصغرها تُدخل في نفوسنا البهجة والسرور. فما أطول الأمسيات! وقد انتهى بنا الأمر إلى السأم والضجر من التدخين ولعب الورق. وربما تجدني متشدداً في هذة الرسالة؛ بيد أنه يحق لي ذلك بعد الرسالة القصيرة التي تتكون من سبع وعشرين صفحة التي كتبتها إليك، والتي أختمها بأسرع ما يمكن خوفاً من أن تعتقد أن أكثر الناس حباً للثرثرة في العالم هم هؤلاء الذين يعودون من الشلال الثاني.

وداعاً يا صديقي، قبلاتي لك ولكل ذويك.

ج.ف. شامبليون

بما أن ساع البريد الذي نرسله إلى القاهرة يسلك طريق البر، ومن ثم لا تقف الرياح العاصفة عائقاً في طريقه، فسنبعث به هذا المساء أو في فجر الغد. أبلغ تحياتي إلى السيد "لوترون"، وأخبره أن السطح الذي حُفر عليه نص "كوم امبو" كان مُذهباً، وأن الأحرف قد احتفظت بلون أحمر فاقع لايزال واضحاً جداً. لم أتمكن من التحقق من نص "سيرابيس Sérapis" في معبد "تفاح"، نظراً لاختفاء الكتلة

الحجرية التي كان مدوناً عليها.

طيبه في ١٢ مارس ١٨٢٩

صديقي الحميم ،،

لقد وجدت الفرصة سانحة لإعطائك آخر أخبارنا. إذ بلغت "طيبه" مع جميع أعضاء البعثة في صباح اليوم الثامن من هذا الشهر، بعد أن كُلِلَت رحلتي إلى النوبة و"طيبه" العليا بالنجاح والتوفيق. ونعتزم الإقامة في قواربنا الشراعية نظراً لسهولة دراسة قصر الأقصر الذي رسونا أمامه. وقد رأيت المسلتين الرائعتين من جديد. قل لي بالله عليك لماذا ننقل إلى فرنسا مسلة الإسكندرية، في حين أنه يمكننا نقل إحدى هاتين المسلتين دون أن يكلفنا ذلك أكثر من أربعمائة ألف فرنك ؟ إن الوزير الذي سينجح في نصب إحداهما في أحد ميادين باريس سيُخلد اسمه دون جهد أو مشقة.
سنذهب بعد بضعة أيام للإقامة في بيت مريح بـ"القرنة". وهناك سنقطع سهل "طيبه" جيئة وذهاباً كما يحلو لنا. وسأعاود الكتابة إليك طويلاً بعد أيام معدودة. فلتقنع الآن بهذة الرسالة الموجزة. كل شيء يجري على خير ما يرام. قبلاتي لكم جميعاً.

* * *

وادي الملوك في ٢٥ مارس ١٨٢٩

صديقي الحميم ،،

لابد أن يكون قد وصلك الخطاب القصير الذي كتبته لك في الحادي عشر من شهر مارس، وسلمته إلى السيد "اسربي"، قنصل عام النمسا، لدى مغادرته "طيبه"، المدينة الملكية. وقد وعدني هذا الأخير بإرساله من الإسكندرية على متن أول سفينة تُقلع صوب اوروبا. وقد ذكرت لك في هذا الخطاب وصولنا جميعاً إلى "طيبه" في تمام الصحة والعافية في صباح الثامن من مارس، بعد أن انتهينا من

زيارة النوبة و"طيبه" العليا بنجاح. ثم رسونا أمام صفوف أعمدة قصر الأقصر الذي انكببنا على دراسته حتى الثالث والعشرين من الشهر الجاري. وقد انتُهكت حرمة هذا القصر الرائع أكثر من جميع الآثار المصرية الأخرى: إذ تسد أكواخ الفلاحين الصغيرة وتخفي وتشوه أروقته الجميلة، وكذلك البيت الحقير الذي شيده "البمباشي" التركي الذي يلقي بقمامته أمام قدس أقداس رائع تمت زخرفته في عهد ابن "الإسكندر الأكبر". وبما أنني لم أجد في هذا القصر العظيم أي حجرة نظيفة تصلح لإقامتنا فقد حرصت على الاستفادة من سكن القوارب الشراعية خلال فترة عملنا به. ومن ثم فقد تعين علينا الاحتفاظ بمركبي المعاش والدهبية وباقي الزوارق الأخرى لحين الانتهاء من العمل في قصر الأقصر.

وفي يوم الثالث والعشرين انتقلنا إلى الضفة اليسرى للنيل. وبعد أن أرسلنا أمتعتنا الثقيلة إلى بيت في "القرنة" خصصه لنا رجل فاضل وكريم يُدعى "بتشينيني Piccinini"، أحد أعوان السيد "انستازي" في "طيبه"، توجهنا إلى وادي الملوك الذي يضم مقابر ملوك الأسرتين الثامنة عشرة والتاسعة عشرة. وفي هذا الوادي الحجري الضيق المنحصر وسط جبال شاهقة لا زرع فيها ولا ماء، ترتفع الحرارة لدرجة لا تُحتَمل خلال أشهر مايو ويونيو ويوليو. لذلك فقد كان يتعين علينا استكشاف هذه المنطقة الغنية في فصل يسمح لنا فيه الطقس -على الرغم من سخونته- بمباشرة أعمالنا. وهكذا فقد نزلت قافلتنا التي تتكون من الحمير والعلماء في هذا الوادي في اليوم نفسه، واستولينا على أفضل وأعظم مسكن يمكن العثور عليه في مصر. إذ حللنا في ضيافة "رمسيس الرابع"، أحد ملوك الأسرة التاسعة عشرة، وأقمنا جميعاً في مقبرته الرائعة، وهي ثاني مقبرة تقابلنا على اليمين عند دخولنا وادي الملوك. وهي في حالة عظيمة من الحفظ، ويدخلها النور والهواء على أكمل وجه. ويبلغ طول الحجرات الثلاثة الأولى التي نزلنا بها خمسة وستين قدماً، بينما تغطي كل جدرانها التي يتراوح ارتفاعها بين خمسة عشر وعشرين قدماً وأسقفها بالنقوش التي لاتزال تحتفظ برونق ألوانها الزاهية. ويُعد ذلك مسكناً ملكياً حقيقياً، تغطي أرضيته كلها الحصير والبوص. وسيعطيك الرسم التخطيطي التالي فكرة عنه.

وينام الجنديان المكلفان بحراستنا مع الخدم في خيمتين منصوبتين أمام مدخل المقبرة. ويُعتبر وادي الملوك بحق مملكة للموتى، إذ ينعدم فيه الماء والنبات، ولا يطرقه أي كائن حي باستثناء حيوانات إبن آوي والضباع التي افترست أول أمس على بُعْد مائة قدم من "قصرنا" الحمار التابع لخادمي البربري محمد الذي كان يقضي في ذلك الوقت ليلة رمضان في المطبخ الذي أقمناه داخل إحدى المقابر الملكية المتهدمة تماماً. أكتب لك كل ذلك لاعتقادي بأن هذه التفاصيل ستسلي العائلة.

لقد جاءني ساع البريد في "طيبه" بالخطاب الذي أرسلته لي في العشرين من شهر ديسمبر... آمل أن تكون صحة السيد "داسييه" الموقر قد تحسنت، وأن تتحقق الأمنيات التي بعثتها له في الأول من يناير الماضي من الشلال الثاني لهذا العام، ولجميع الأعوام القادمة.

لقد شعرت بسرور بالغ لنبأ قيام "ديبوا" ببعثة أثرية إلى بلاد "المورة"؛ نظراً لأنه كان يتوق إلى تحقيق هذه الأمنية منذ زمن بعيد. كما آمل أن يكون قد انطلق بالفعل، وسأنتظر للكتابة إليه حين عودته إلى "باريس" أو "أثينا". كم أود أن أراه وسط صفوف الأعمدة، أو داخل معبد "التيس" نفسه على رأس أربعمائة من المنقبين! وبما أننا بصدد الحديث عن التنقيب، أخبرك بأنني شرعت في إجراء حفائر في "الكرنك" و"القرنة". وقد أصبح في حوزتي ثمان عشرة مومياء ترجع إلى مختلف الأحقاب التاريخية. بيد أنني لن أحضر معي إلى فرنسا سوى أفضلها، وخاصة المومياوات اليونانية-الفرعونية التي تحمل نصوصاً يونانية وديموطيقية وهيراطيقية في نفس الوقت. وأنا أمتلك مومياوات عديدة من هذا النوع، بالإضافة إلى عدد من مومياوات الأطفال في حالة رائعة من الحفظ، وهو أمر نادر حتى الآن. أما جميع القطع البرونزية التي أسفرت عنها حفائر الكرنك، وتنقيب بعض منازل مدينة "طيبه" العريقة بعمق يتراوح بين خمسة عشر وعشرين قدماً تحت مستوى سطح الوادي الحالي، جميع هذه القطع في حالة من التأكسد الكامل الذي يحول دون الانتفاع بها. لقد عهدت بقيادة الحفائر التي أجريها على الضفة الشرقية إلى رجل يُدعى "تمساح"، كان يقود حفائر السيد "دروفيتي" في الماضي. وهو يبدو لي رجلاً ماهراً، وضعت فيه آمالاً

كثيرة. بيد أن إمكانياتي المالية المحدودة لا تسمح لي بإجراء حفائر واسعة. وكان ينبغي أن تصلني الاعتمادات المالية الإضافية التي طالبت بها. إلا أن الوقت ينقضي على عجل، وسأحصل على الأرجح على رد نهائي حينما يكون عليّ أن أغادر "طيبه" التي تُعد المكان الوحيد الذي يمكننا بكل تأكيد اكتشاف أشياء عظيمة ورائعة فيه... فإذا أتيت ببعض القطع الجميلة فسيكون ذلك من قبيل الصدفة من ناحية، وبمثابة سخاء وكرم مني من ناحية أخرى: لأنني لست مجبراً على إحضار مجموعة أثرية لمتحف "اللوفر" بعد أن رفض المسؤولون عن قصد منحي الأموال اللازمة لتحقيق هذه الغاية. وعلى الرغم من ذلك فسأحرص على تنشيط عمليات التنقيب خلال أشهر يونيو ويوليو وأغسطس التي سأقضيها في الموقع سواء في "الكرنك" أو في "القرنة". وسأرى بنفسي إذا ما كانت أجور الأربعين عاملاً الذين أستخدمهم ستؤتي ثمارها، وإذا كانت ميزانيتي ستتحمل هذه النفقات أم لا. كما أن عندي ستة وثلاثين عاملاً آخرين ينقبون في "القرنة"، أدفع أجورهم مناصفة مع "روزليني". ومن البديهي أنه لا يمكنني التفكير في إحضار القطع الأثرية الضخمة التي تنقص المتحف الملكي على وجه الخصوص؛ لأن نفقات نقلها فقط حتى مدينة الإسكندرية ستستنفد كل أموالي.

وأكرر مرة أخرى أن الحكومة الفرنسية إذا كانت ترغب في تزيين "باريس" بمسلة مصرية، فإن شرف الوطن وعزته يحتم علينا اختيار إحدى مسلتي الأقصر (المسلة التي تقع على يمين الداخل على الأخص). وترجع هاتان المسلتان الرائعتان، وهما في حالة مدهشة من الحفظ، إلى "سيزوستريس" الذي أمر بنحتهما من كتلة حجرية واحدة يبلغ ارتفاع كل منهما سبعين قدماً. أوصيك بالإلحاح في هذا الأمر، والعثور على وزير يرغب في تخليد اسمه عن طريق تزيين "باريس" بمثل هذه الجوهرة: ثلاثمائة ألف فرنك ستكفي لتغطية نفقات هذه العملية. ينبغي عليهم التفكير بجدية في هذا الأمر. وليرسلوا في حالة تنفيذه بمهندس معماري أو أحد الملمين بصنع وقيادة الآلات (وليتجنبوا إرسال علماء!) ومعهم الأموال اللازمة، وسيأتون بالمسلة بكل تأكيد. علماً بأن اليد العاملة في مصر رخيصة جداً. أدفع لكل عامل من العمال الذين ينقبون لحسابي عشرين بارة فقط، وهو أجر مُجز بالنسبة لهم يأكلون ويشربون بجزء منه.

أما آن للدكتور "يوغ Young" المسكين أن ينصلح حاله ؟ لماذا يؤجج من جديد نار الخصومة التي كانت قد خبت ؟ أبلغ شكري للسيد "اراجو Arago" لاستبساله في الدفاع عن الأبجدية الهيروغليفية التي وضعتها. إن كل محاولات الدكتور "يوغ" ستذهب أدراج الرياح؛ وستلقن فرنسا الشابة انجلترا العجوز درساً في كيفية قراءة اللغة الهيروغليفية باستخدام طريقة تختلف تماماً عن منهج "لنكستر Lancaster". ولايزال هذا العلامة الإنجليزي يتجادل ويتبادل الرأي في الأبجدية الهيروغليفية التي وضعها هو، بينما انغمست أنا وسط الآثار المصرية القديمة منذ ستة أشهر، ورحت لدهشتي الشديدة أقرأ نصوصها بيسر وسهولة أكثر مما كنت أتخيل. وقد توصلت إلى نتائج محيرة للغاية (لتحتفظ بهذا السر بيننا !) من العديد من النواحي؛ بيد أنه يتعين علينا تكتمها في الوقت الراهن. لم يخب انتظاري، واتضحت لي العديد من الأمور التي كنت أتشكك فيها بغير وضوح، واكتسبت يقيناً لا يتزعزع.

والآن أعود إلى الحديث عن خط سير رحلتي، ووصف الآثار التي زرتها ابتداء من "كوم امبو" حيث كتبت لك آخر رسالة تفصيلية.

فقد غادرنا "كوم امبو" في السابع عشر من فبراير، ولم نبلغ جبل "سلسلة" إلا في مساء اليوم التالي بسبب إهمال ريّس المركب الكبير ورخاوة الجدافين. وقد استغرق عملنا في هذة المحاجر الشاسعة خمسة أيام كاملة، حصدت خلالها معلومات وفيرة كما كنت آمل.

وقد قام قدماء المصريين باستغلال محاجر الجبل المنتشرة على ضفتي النيل لدرجة تجعل الدهشة تسري في نفوس الرحالة لرؤية كميات الأحجار الهائلة التي تم اقتلاعها لتشييد الأروقة المكشوفة، والمساحات المترامية التي تم تنقيبها. أما عن أروع الآثار الجديرة بالملاحظة، فنجدها على الضفة اليسرى.

إذ تطالعنا أولاً عندما نأتي من ناحية أسوان ثلاثة مقاصير منحوتة في الصخر ومتلاصقة تقريباً. ترجع جميعها إلى العصر الفرعوني، وتتشابه سواء من حيث تخطيطها وتوزيع حجراتها، أو من حيث زخارفها الداخلية والخارجية. كما ينتصب في مدخل كل

منها عمودان على هيئة براعم زهرة اللوتس.
وقد قام الفرعون "أوزيري"، أحد ملوك الأسرة الثامنة عشرة بنحت المقصورة الأولى (التي تقع في أقصى الجنوب). وقد تهدم معظمها، ولم يبق منها سوى نقشين بارزين تتمثل أهميتهما فقط في دقة تنفيذهما التي تعكس كل إتقان وعظمة هذه الحقبة التاريخية.
ويرجع تشييد المقصورة الثانية إلى عهد "رمسيس الثاني". وتصور لنا اللوحات التي تزين الجدارين الأيمن والأيسر هذا الفرعون يتعبد أولاً ثالوث "طيبه" المقدس: "آمون رع" و"موت" و"خنسو"؛ وهم من أكبر الآلهة المصرية التي كانت تُعبد في جميع المعابد، لأنها كانت نموذجاً لكافة الآلهة الأخرى. وعلى مبعدة من ذلك نرى الفرعون يقدم النبيذ إلى الإله "رع حور آختي"، و"بتاح" رب العدالة، وإله النيل الذي يُطلق عليه في النص الهيروغليفي اسم "حابي-موو Hapi-moou"، أي الأب الذي يحي كافة الكائنات. وقد كُرست مقصورة "رمسيس الثاني" وكذا المقصورتان الأخرتان لعبادة هذا الإله بصورة خاصة، كما نستدل على ذلك من النص الهيروغليفي الطويل جداً الذي قمت بنسخه، والذي يرجع إلى [العام الرابع، اليوم العاشر من شهر "مِسْرَي"، في عهد جلالة "حورس" القوي، صديق الحقيقة وابن الشمس، "رمسيس"، محبوب "حابي-موو"، والد الآلهة]. ويشتمل هذا النص على مديح الإله النيل (أو "حابي-موو")؛ ومطابقته بالنيل السماوي "ننموو Nenmoou"، المياه الأزلية، الإله "نيلوس Nilus" العظيم الذي يعتبره "سيسرون Cicéron" في بحثه حول طبيعة الآلهة، بمثابة والد الآلهة المصرية الرئيسية، بما فيهم "آمون رع". ويدعم ذلك بقية النصوص التي عثرت عليها في أماكن أخرى. أما المقصورة الثالثة والأخيرة فترجع إلى عهد ابن "رمسيس الأكبر". كما أن تكريس مقاصير جبل "سلسلة" لعبادة الإله "حابي-موو" (النيل الأرضي) يُعتبر أمراً طبيعياً جداً نظراً لأن مجرى النيل يضيق إلى أقصى حد في هذه النقطة التي تُعد بمثابة انطلاق جديد له بعد أن حطم أمواجه جبال الحجر الرملي التي تعوق تقدمها؛ تماماً مثلما حطمت من قبل صخور الشلال الأول الجرانيتية.
ونجد إلى الشمال من هذه المقاصير سلسلة من المقابر المنحوتة

في الصخر تتسع لاحتواء اثنين أو ثلاثة مومياوات، ويرجع تاريخها إلى أوائل فراعنة الأسرة الثامنة عشرة. ويمتلك بعضها رؤساء أعمال، وكبار مفتشي محاجر جبل "سلسلة". كما قمنا ايضاً بنسخ بعض اللوحات التي ترجع لعهود مختلف رعامسة الأسرتين الثامنة عشرة والتاسعة عشرة، فضلاً عن نقش كبير يرجع للعام الثاني والعشرين من حكم "شاشنق".

ويُعد الـ"سبيوس spéos" من أهم آثار جبل "سلسلة": وهو عبارة عن معبد منحوت في قلب الجبل يتميز بما يُزينه من نقوش بارزة ترجع إلى مختلف الأحقاب التاريخية. وقد شرع "حورس"، أحد ملوك الأسرة الثامنة عشرة، في نحت هذا المعبد الرائع وتكريسه لعبادة "آمون رع" في المقام الأول، ثم إله النيل بعد ذلك، وهو إله محلي، وأخيراً "سوبك" (زحل ذو رأس تمساح) المعبود الرئيسي لإقليم "كوم امبو" الذي يقع في دائرته جبل "سلسلة". ولبلوغ هذة الغاية أمر "حورس" بنحت النقوش والنصوص التي تزين الباب الرئيسي وكافة النقوش البارزة في المعبد، بالإضافة إلى بعض النقوش البارزة الأخرى التي تُزين السرداب الطويل الرائع الذي يفضي إلى داخل المعبد.

ويُشكل هذا الممر البالغ الطول متحفاً تاريخياً حقيقياً. إذ تم توشية إحدى جدرانه بصفين من النقوش البارزة المنحوتة في الصخر والتي يرجع معظمها إلى مختلف الأحقاب التاريخية. كما تزدان الفرجات الفاصلة بين الأبواب الخمسة المؤدية إلى هذا المتحف العجيب بنقوش مماثلة.

وتحتل نقوش الملك "حورس" ـوهي أقدم النقوش جميعاًـ جزءاً من الجدار الغربي. ونرى فيها فرعون واقفاً يحمل بلطة القتال فوق كتفه، ويتلقى من "آمون رع" رمز الحياة الإلهية، وملَكة إخضاع شعوب الشمال، وقهر شعوب الجنوب. كما نرى أسفل النقش جماعة من الإثيوبيين وقد انبطح بعضهم أرضاً، في حين يرفع البعض الآخر الأيدي في توسل أمام قائد مصري يعنفهم ـكما هو مدون في شرح اللوحةـ لأنهم صرفوا أفئدتهم عن الحكمة، وصموا آذانهم عندما كان يُقال لهم: [ها هو الأسد يدنو من أرض إثيوبيا (كوش)]. أما هذا الأسد فقد كان الملك "حورس" الذي قام بغزو إثيوبيا، وتسجيل انتصاراته على النقوش البارزة التالية.

إذ نرى قادة عسكريين يحملون الملك المنتصر فوق محفة وثيرة ومن حوله حاملو المراوح؛ بينما يقوم بعض الخدم بإفساح الطريق أمام الموكب. وفي أعقاب الفرعون يدفع المحاربون المصريون بأسرى من قادة العدو، في حين يحمل جنود آخرون دروعهم فوق أكتافهم ويسيرون خلف الأبواق. كما نرى لفيفاً من الموظفين المصريين والكهنة يستقبلون الملك، ويقدمون له فروض الطاعة والولاء.

ويشير النص الهيروغليفي المصاحب لهذة اللوحة إلى أن: [الإله المنعم يعود (إلى مصر)، محمولاً فوق أكتاف قادة كافة البلاد (الأقاليم)، ممسكاً بقوس يشبه قوس "منتو"، السيد الإلهي لمصر؛ إنه الملك المرشد للمتنبهين، الذي يقود (أسرى) زعماء أرض "كوش" (إثيوبيا)، السلالة الشريرة، الملك الموجه لكل الأكوان، محبوب "رع حور آختي"، ابن الشمس، من سلالة الشمس، خادم "آمون"، "حورس"، الحي. وقد فُرض اسم جلالته في ربوع إثيوبيا التي أنزل بها الملك العقاب وفقاً للكلمات التي وجهها إليه أبوه "آمون"]. ما أعظم التشابه بين هذا النص ونصوص كتاب التوراة المقدس!

ويطالعنا منظر آخر بصورة الجنود المصريين يسوقون أفواجاً من الأسرى العاديين الذي يتوسلون إلى الملك بالعبارات التالية المدونة في النص: [أيها المنتقم! ملك أرض "كيمي **Kémé**" (مصر)، شمس "نيفايات **Niphaiat**" (الشعوب الليبية)، ما أعظم اسمك في أرض "كوش" (إثيوبيا) التي سحقت شاراتها الملكية تحت نعليك!].

وترجع كافة النقوش البارزة الأخرى واللوحات إلى مختلف العصور التالية انتهاء بثالث ملوك الأسرة التاسعة عشرة. ونلاحظ من بين موضوعاتها:

(١) لوحة تصور الكاتب الملكي المُكَلَّف بتشييد قصر الملك "رمسيس ميآمون" في الناحية الغربية لـ"طيبه" (أي قصر مدينة هابو) الذي يُدعى السيد "فوري **Phori**" [الرجل الصادق] وهو يتعبد "آمون رع"، و"سوبك" (إله الإقليم)، و"باستت **Bubastis**."

(٢) ثلاثة نصوص هيروغليفية رائعة تشير إلى قدوم نفس هذا الكاتب إلى جبل "سلسلة" في شهر "بشنس" من العام الخامس لحكم "رمسيس ميآمون" لاقتلاع أحجار لتشييد قصر هذا الفرعون (أي

قصر مدينة هابو).
(٣) نقش بارز كبير يصور الملك "رمسيس ميآمون" يتعبد الإله "بتاح" ورفيقته "باشت Pacht" (باستت).
ويثبت لنا كل ذلك بصورة قاطعة أن جميع كتل الحجر الرملي المستخدمة في تشييد قصر "مدينة هابو" في "طيبه" تأتي من محاجر جبل "سلسلة"؛ وأن هذا البناء الضخم قد شُرع في تشييده في العام الخامس من حكم مؤسسه على أبعد تقدير.
(٤) لوحة كبيرة تصور نفس هذا الفرعون يتعبد آلهة جبل "سلسلة"، قام بإهدائها الكاتب الملكي "حوني Honi"، مراقب سفن "رمسيس ميآمون"، والمشرف على كافة قصور الملك الموجودة في مصر، والمُكلّف من قِبَله بتشييد معبد الشمس في مدينة "منف".

وهكذا تشهد العديد من لوحات التعبد وغيرها من المناظر الأكثر قدماً على قيام "رمسيس الأكبر" (سيزوستريس) باقتلاع الأحجار التي استخدمها في تشييد العديد من الأبنية الضخمة من محاجر جبل "سلسلة".
وقد توصلت إلى تفاصيل فريدة حول عائلة هذا البطل الفاغ من خلال العديد من هذة اللوحات التي قام بنقشها المشرفون على أعمال البناء، والأمراء الذين قدموا إلى مصر العليا لإحياء أعياد دينية في الأعوام الثلاثين، والرابع والثلاثين، والسابع والثلاثين، والأربعين، والأربع وأربعين من عهد "رمسيس الأكبر". كما نستدل من إحدى اللوحات على أن هذا الفرعون كانت له زوجتان شرعيتان. إذ اقترن في سنوات الصبا بزوجته الأولى "نفرتاري" التي صُورت هي وأطفالها على جدران معابد "أبو سمبل" والنوبة. أما "ايزينوفريه Isénofré" زوجته الثانية (والأخيرة حتى الآن) فكانت أم : (١) الأميرة "باتيانتي"، أصغر بنات "سيزوستريس" وأقربهن إلى قلبه خلال شيخوخته. (٢) الأمير "شاحمكيمي Schahemkémé" الذي كان يرأس الاحتفالات الدينية التي كانت تُقام في اواخر حكم والده، كما تشهد بذلك ثلاث لوحات كبيرة في جبل "سلسلة". ومن المرجح أن هذا الأمير قد خلف أباه على العرش، وانتحل اسم "تميوتف Thméiothph" (أي الذي يملك الحقيقة، أو الذي تملكه الحقيقة). وقد أطلق "ديودور الصقلي" على

هذا الأمير اسم "سيزوستريس الثاني"؛ بينما خلع عليه "هيرودوت" لقب "فيرون Phéron". وقد قام مثل أبيه بتشييد أبنية ضخمة وعديدة لم يتبق منها اليوم سوى أنقاض ضئيلة. كما نجد في جبل "سلسلة":

(١) مقصورة صغيرة كرسها له "بناحاسي Pnahasi"، المشرف على الأراضي التابعة لإقليم " Ombite" (كوم امبو).

(٢) لوحة (مطموسة التاريخ) أهداها "بناحاسي" تشهد باقتلاع الأحجار المستخدمة في تشييد قصر هذا الملك في "طيبه" من محاجر جبل "سلسلة"، وقد اندثر هذا القصر تماماً ولم يعد له على حد علمي أي أثر. كما ترشدنا هذة اللوحة إلى أن زوجة هذا الفرعون كانت تُدعى "ايزينوفريه Isénofré" تماماً مثل والدته؛ وكان ابنه يُدعى "فتامن Phthamèn".

(٣) لوحة ترجع إلى العام الثاني، اليوم الخامس من شهر "مِسْرَى"، وتذكرنا باقتلاع الأحجار من محاجر "سلسلة" لتشييد قصر الملك "تميوتف" في "طيبه"، وترميم وتوسيع قصر والده "الرامسيوم"؛ ذلك البناء الذي أطلق عليه بصورة خاطئة اسم "مقبرة اوسيمندياس" و"الممنيوم".

وأخيراً توجد في جبل "سلسلة" لوحات أخرى مماثلة تتعلق ببعض ملوك الأسرتين الثامنة عشرة والتاسعة عشرة. كما نرى لوحتين لـ"امينوفيس ممنون"، والد الملك "حورس"، على الضفة الشرقية للنيل حيث تنتشر أكبر المحاجر. وتمدنا هاتان اللوحتان بصورة مؤكدة بأقدم تاريخ لاستغلال محاجر جبل "سلسلة" التي ظلت تُستخدم أحجارها حتى بعد الأسرة التاسعة عشرة في تشييد آثار "طيبه". وتُعد لوحة "شاشنق الأول" برهاناً على ذلك؛ إذ تشير إلى عمليات اقتلاع الأحجار في العام الثاني عشر من حكم هذا الأمير لتشييد أبنية في [منزل "آمون" الكبير] : أي تلك التي تقع في الناحية اليمنى للفناء الأول في "الكرنك" بالقرب من الصرح الثاني، وترجع إلى عهد "شاشنق" وخلفائه من ملوك الأسرة البوباستية. وأخيراً يحق لنا الاعتقاد بأن أحجار معابد "إدفو" و"إسنا" تأتي في معظمها من نفس هذه المحاجر.

وفي صباح الرابع والعشرين من شهر فبراير قمنا بالطواف بين

صفوف أعمدة معبد "إدفو" (ابولونوبوليس ماجنا Apollonopolis magna). ويحمل هذا البناء الضخم المهيب مسحة انحطاط الفن المصري واضمحلاله في ظل حكم البطالمة. إذ يخلو هذا الأثر تماماً من روح البساطة الفرعونية القديمة، ويتميز بالتكلف والإفراط في الزخارف الركيكة. ويمثل ذلك مرحلة انتقالية بين وقار ورفعة الآثار الفرعونية القديمة من ناحية، وبين الانبهار الذي يرهق النظر، والذوق الركيك الذي يميز معبد "إسنا" الذي يرجع إلى عهد الأباطرة من ناحية أخرى.

أما أقدم زخارف معبد "إدفو" الكبير (داخل الناووس والجانب الأيمن الخارجي) فترجع فقط إلى عهد "بطليموس فيلوباتور". ثم واصل العمل من بعده "بطليموس ابيفانس" الذي تغطي نصوصه جزءاً من جذوع الأعمدة واللوحات الداخلية للجدار الأيمن لمقدمة الناووس، والذي أتمه من بعده "يورجتيس الثاني".

كما قام "سوتير الثاني" بزخرفة الإفريز الخارجي، والواجهة الخارجية لجدران مقدمة الناووس، وكذا الرواق الأيمن للفناء الذي يسبقه. أما الرواق الأيسر وكافة نقوش الصرح فترجع إلى عهد "بطليموس فيلوماتور". كما عثرت أسفل الجزء الأيمن للصرح على نقش صغير ورديء يصور الامبراطور "كلود" يتعبد آلهة المعبد.

وقد تم توشية الواجهة الداخلية لسور الحرم الذي يحيط بالناووس بنقوش ترجع إلى عهد كل من "كليوباترا-كوكسيه"، و"سوتير الثاني"، و"كوكسيه"، و"بطليموس الإسكندر الأول". بينما تعود معظم نقوش الواجهة الخارجية إلى "بطليموس الإسكندر الأول"، وزوجته الملكة "برنكي".

ومما تقدم نستنتج بصورة دقيقة زمن تشييد معبد "إدفو" الكبير. ولا يتعلق الأمر هنا بمجرد التخمينات، وإنما بحقائق مدونة في كل أرجاء الأثر بأحرف يبلغ ارتفاعها عشر بوصات وأحياناً قدمين.

وقد كُرس هذا البناء الضخم والرائع لعبادة ثالوث مقدس يتكون من : (١) الإله "حر-حات" (حورس) الذي يُجَسِد العلم والنور السماوي، والذي يُصور في العالم المادي على هيئة الشمس. (٢) الإلهة "حتحور". (٣) ابنيهما "حر-سون-تو Har-Sont-Tho"(حورس، الذي يُحيي العالم) والذي يضارع إله الحب "Eros" في الأساطير اليونانية والرومانية.

إن صفات والقاب ومختلف هيئات هذة الآلهة الثلاثة التي جمعناها بعناية فائقة تسلط الضوء على العديد من النقاط الهامة حول أصل الآلهة المصرية ونَسَبِهم. بيد أن المجال لا يتسع لنا هنا للخوض في مثل هذة التفاصيل.

كما قمت بنسخ أربعة عشر نقشاً بارزاً داخل مقدمة الناووس تصور شروق وغروب الإله "حر-حات Har-Hat" الذي دُمج مع الشمس، وكذا الأشكال الرمزية التي يتجلى فيها في كل ساعة من ساعات النهار الإثنتا عشرة، وأسماء هذة الساعات. وتنطوي هذة المجموعة من النقوش على أهمية بالغة؛ إذ تعيننا على فهم وإدراك جزء من الأساطير المصرية القديمة الخاصة بعلم الفلك.

أما ثاني أبنية "إدفو" المعروفة باسم "تيفونيوم Typhonium"، فيُعد واحداً من تلك المعابد الصغيرة التي يُطلق عليها اسم "ماميزي Mammisi" (بمعنى مكان الولادة)، والتي كانت تُشيد دائماً إلى جانب كافة المعابد الكبرى المكرسة لعبادة ثالوث مقدس. إذ كان يُجسِد المسكن السماوي حيث قامت الإلهة بولادة ثالث أفراد الثالوث المقدس الذي كان يُصَور دائماً على هيئة طفل صغير. وبالفعل يرمز "ماميزي" "إدفو" إلى طفولة ونشأة "حر-سون-تو Har-Sont-Tho" الصغير، ابن "حر-حات" و"حتحور"، الذي قرنه الكهنة المتملقون بـ"يورجتيس الثاني". وقد صُور هذا الأخير على هيئة طفل يتلقى نصيباً من المداعبة التي تغدقها جميع الآلهة على "حر-حات" الوليد. وقد قمت بنسخ عدد كبير من مناظر ذلك الأثر الذي يرجع إلى عهدي "يورجتيس الثاني" و"سوتير الثاني".

وعقب الانتهاء من العمل في "إدفو"، ذهبنا لإراحة أعيننا المتعبة من النصوص الهيروغليفية الرديئة، ومن النقوش البطلمية الركيكة؛ وبلغنا مقابر "اليتياسبوليس Eléthyia" (الكاب) في يوم السبت الموافق الثامن والعشرين من فبراير. وكانت الأمطار في استقبالنا ! إذ تهاطلت سيول الأمطار والبرق والرعد خلال ليلة الأول من مارس. وهكذا يمكننا أن نقول مثل "هيرودوت" نقلاً عن الملك "بسماتيك": [لقد رأينا في شبابنا تساقط الأمطار على مصر العليا].

وقد سارعت في الطواف داخل حرم مدينة "الكاب" العريقة، وكذا داخل الحرم الثاني الذي كان يضم المعابد والأبنية المقدسة. بيد أنني

لم أجد عموداً واحداً منتصباً في مكانه. فقد قام الهمجيون منذ عدة أشهر بتدمير كل ما تبقى من المعبدين الداخليين، وكل المعبد الواقع خارج المدينة. عندئذ تعيّن عليّ الاكتفاء بفحص كل واحدة من الأحجار التي نسيها المفسدون، والتي لاتزال تحتفظ ببعض النقوش.

وكان الأمل يراودني في العثور على بقايا بعض النقوش لترشدني إلى تاريخ تشييد تلك الأبنية، وأسماء الآلهة التي كُرست لعبادتها. وقد وفقني الحظ بالفعل في التيقن من أن معابد "الكاب" قد تم تكريسها إلى كل من "سوبك Sévek" و"سوان Sowan" كما ترجع إلى مختلف الأحقاب الفرعونية. أما المعابد الواقعة داخل المدينة فيرجع تشييدها وزخرفتها إلى عهد كل من الملكة "امنسي"، وابنها "تحتمس الثالث"، و"امينوفيس ممنون" و"رمسيس الأكبر". كما قام الملكان "اميرتايوس Amyrtée" و"هكر Achoris" اللذان يُعتبران من آخر الأمراء المصريين، بترميم هذه الأبنية العريقة، وإضافة بعض العمائر الجديدة. ولا يوجد في "الكاب" ما يذكرنا بالعصرين اليوناني والروماني. إذ يرجع المعبد الواقع خارج المدينة إلى عهد "تحتمس الثالث".

وترجع معظم المقابر المنحوتة في صخور سلسلة الجبال الشرقية التي تقع على مقربة من المدينة، إلى عصور أكثر قدماً. وقد بدأنا بزيارة المقبرة التي قام علماء الحملة الفرنسية بنشر نقوشها الملونة، والتي تتعلق بالأعمال الزراعية والصيد والملاحة. وقد نُحتت هذه المقبرة لحساب عائلة كاتب كهنوتي يُدعى "رابيه Rhapé" كان ملحقاً بمَجْمع كهنة "الكاب". وقد قمت بنسخ العديد من اللوحات التي لم يسبق نشرها لهذه المقبرة، وكذا النصوص التفسيرية المصاحبة للمناظر الريفية، وغيرها من المعطيات التي قام علماء "نابليون" بنشرها بإهمال وتهاون. وترجع هذه المقبرة إلى أقدم العصور التاريخية. كما عثرت على مقبرة أخرى لكبير كهنة الإلهة "اليتياس Ilythia" التي اشتُق اسم مدينة "اليتياسبوليس" من اسمها، إلى عهد "رمسيس ميامون"، مؤسس الأسرة التاسعة عشرة. وهي تحتوي على العديد من التفاصيل لمناظر عائلية وريفية في حالة سيئة جداً من الحفظ: وتصور دهس ودرس أعواد القمح بواسطة الأبقار. وقد دُونت أعلى ذلك المنظر بالأحرف الهيروغليفية الصوتية الأنشودة التي يترنم بها سائق الأبقار. ولا يخفى علينا أن كل شيء في مصر

القديمة ـكما في مصر الحديثةـ كان يتم في جو من المرح والغناء. كما كانت تصاحب كل نوع من أنواع الأنشطة أغنية خاصة ومتميزة.

وفيما يلي نسوق نص أنشودة درس الحبوب، وهي نوع من الخطاب الموجه إلى الأبقار. وقد وجدت نفس هذة الأنشودة بعد ذلك مع بعض الاختلافات الطفيفة في مقابر أخرى أكثر قدماً:

Hi-tenou-neten (sop snau)
ادرسوا الحبوب من أجلكم (أعِدْ)
Né-éhéou
أيتها الأبقار
Hi-tenou-neten (sop snau)
ادرسوا الحبوب من أجلكم (أعِدْ)
Hen-oipe-neten
حزماً من القمح من أجلكم
Hen-oipe-ennetennèu
حزماً من القمح من أجل أسيادكم

لم تكن هذة الأغنية تفيض شاعرية، وربما كان جمال اللحن يُعوض عن ابتذال الكلمات. ومع ذلك فهي تتلاءم تماماً مع المناسبة التي تُرَدَد فيها. كما أنها تثبت لنا قِدَم كلمة [أعِدْ sop snau] المدونة في آخر السطرين الأول والثالث. كنت أود استنباط موسيقى ونغمات هذة الأغنية لإرسالها إلى صديقنا الحميم "موساجيت **Musagète**".

وإلى جانب هذة المقبرة توجد مقبرة أخرى أكثر أهمية من الناحية التاريخية. وهي لشخص بارز يُدعى "أحمس **Ahmosis**" بن "اوبشنيه**Obschné**"، رئيس البحارة أو النوتية. وقد قمت بنسخ بقايا نص يزيد على ثلاثين عموداً، يتوجه فيه "أحمس" إلى كافة البشر في الحاضر والمستقبل، ويسرد عليهم قصته التالية. إذ يبدأ بالإشارة إلى أن أحد أجداده كان يحتل مكانة مرموقة بين خدم أحد ملوك الأسرة السادسة عشرة القدماء. ثم يذكر بعد ذلك انخراطه شخصياً في مهنة الملاحة في عهد الملك "أحمس" (آخر ملوك الأسرة

السابعة عشرة الشرعيين). ثم يخبرنا بانضمامه إلى الملك في "صان الحجر"؛ واشتراكه في المعارك التي نشبت في ذلك الحين؛ وخوضه لحروب أخرى في الجنوب حيث أوقع بالعديد من الأعداء في الأسر؛ وسلب غنائم نفيسة في المعركة التي نشبت في العام السادس من حكم نفس الفرعون؛ وبمرافقته للملك "أحمس" عند صعوده عن طريق البحر حتى بلاد إثيوبيا التي فرض عليها الجزية؛ وبراعته أثناء الحرب التالية؛ وأخيراً بقيادته للسفن الكبيرة في عهد "تحتمس الأول". ولا مراء في أننا بصدد مقبرة أحد المقاتلين الشجعان الذين أتموا تقريباً طرد "الرعاة" (الهكسوس)، وتحرير مصر من قبضة الهمجيين في ظل عهد الفرعون "أحمس".

ولكي لا أطيل الحديث عن "الكاب" أكثر من اللازم، سأشير أخيراً إلى مقبرة متهدمة تقريباً، كشفت لي عن أربعة أجيال من الرجال العظام الذين حكموا ذلك الإقليم تحت لقب "سوتن-سي دي سوانSouten-si de Sowan" (بمعنى أمراء الكاب) في عهد الملوك الخمس الأوائل في الأسرة الثامنة عشرة، وهم: "امنحتب الأول" (امينوفتب Aménoftep)، و"تحتمس الأول"، و"تحتمس الثاني"، و"امنسي"، و"تحتمس الثالث". كما بلغوا منزلة عالية في خدمة هؤلاء الملوك، وكذا الملكتان "أحمس-اتاريه-Ahmosis Ataré"، زوجة "امنحتب الأول"؛ و"أحمس" زوجة "تحتمس الأول"؛ والأميرة "رانوفريه Ranofré" ابنة الملكة "امنسي" وأخت "تحتمس الثالث". وقد ورد ذكر كل هؤلاء الملوك على التوالي في نصوص المقبرة، مما يمثل إضافة وتأكيداً هاماً لقائمة "أبيدوس" الملكية.

ثم بلغنا "إسنا" في صباح يوم الثالث من مارس، حيث قام باستقبالنا إبراهيم بك، مأمور أو حاكم هذا الإقليم بحفاوة شديدة. وبفضل معاونته تمكنا من دراسة معبد "إسنا" الكبير الذي تحول إلى مخزن عام لتشوين محصول القطن، وغطيت واجهته الخارجية كلها بملاط من طمي النيل. كما شُيدت جدران من الطين لسد المسافة التي تفصل بين صف الأعمدة الأول في مقدمة الناووس. لذلك فقد تحتم علينا العمل غالباً على ضوء الشموع، واستخدام السلالم للتمكن من فحص النقوش البارزة عن كثب.

وعلى الرغم من كافة تلك المصاعب والعراقيل، فقد جمعت كل ما يلزم معرفته حول هذا المعبد الكبير من الناحيتين الميثولوجية والتاريخية. ويزعم البعض أنه أقدم أثر موجود في مصر، استناداً إلى مجرد تخمينات، وتفسير فلك الأبراج (الزودياك Zodiaque) المنقوش في السقف تفسيراً خاطئاً. إلا أن دراسة هذا الأثر أثبتت لي بشكل قاطع أنه على النقيض من ذلك أحدثها على الإطلاق؛ إذ نلمح من الوهلة الأولى الأسلوب الركيك والمتكلف للنقوش، وللنصوص الهيروغليفية على الخصوص، التي تعكس ذروة انحطاط الفن واضمحلاله. وقد قام الامبراطور "كايزر-تيبروس-كلوديوس-جرمانيكوس César-Tibérius-Claudius-Germanicus" (الامبراطور كلود Claude) بتشييد مقدمة الناووس، وتدوين نصوص الإهداء بالأحرف الهيروغليفية الكبيرة على إفريزه. كما يرجع إفريز الواجهة، وصف الأعمدة الأول إلى الامبراطوريين "فسباسيان Vespasien" و"تيتوس Titus". ويحمل الجزء الخلفي لمقدمة الناووس نصوص الأباطرة "انتونان Antonin" و"مارك-اوريل Marc-Aurèle" و"كومود Commode". كما زُخرفت بعض الأعمدة الداخلية لمقدمة الناووس في عهد كل من "تراجان" و"هادريان" و"انتونان". وباستثناء بعض النقوش التي ترجع لعهد "دوميسيانوس Domitien"، تطالعنا كافة نقوش الجدارين الأيمن والأيسر لمقدمة الناووس بصور ونصوص "سبتيم-سفروس Septime-Sévère" وابنه "انتونان" و"كاراكلا Caracalla". كما نجد هنا ثلاثة أو أربعة نقوش بارزة على جانب كبير من الأهمية نظراً لأنها تصور "جيتا Géta"، ابن "سبتيم-سفروس" الذي قام أخوه "كاراكلا" باغتياله بوحشية، ومحو اسمه من كافة الآثار الموجودة في جميع أنحاء الإمبراطورية. ويبدو أن تعليمات هذا الطاغية قد نُفذت بحذافيرها حتى في أعماق "طيبه": فقد كُشطت جميع خراطيش الامبراطور "جيتا" بعناية كبيرة، ولكن ليس لدرجة إخفائها تماماً، والحيلولة دون قراءة اسم هذا الأمير سيء الحظ: الامبراطور "قيصر-جيتا"، المرشد.

ويمكننا إضافة هذه النصوص الهيروغليفية إلى بقية النصوص الاتينية واليونانية التي تحتوي على نفس هذا الاسم مطموساً.

وهكذا يتحدد لنا تاريخ تشييد مقدمة ناووس معبد "إسنا" بصورة لا تقبل المنازعة: إذ يرجع إلى عهد الامبراطور "كلود" على أبعد تقدير، بينما ترجع زخارفه ومن بينها لوحة الزودياك الشهيرة إلى عهد "كاراكلا".

أما أنقاض الناووس، أي الجدار الواقع في آخر مقدمة الناووس، فيعود إلى "بطليموس ابيفان Ptolémée-Epiphane". وقد أكدت لنا الحفائر التي أجريناها خلف مقدمة الناووس أن المعبد نفسه قد تهدم حتى مستوى الأساسات.

ولكن مما يعزي محبي الآثار المصرية القديمة هو أن "لاتوبوليس Latopolis" أو على الأحرى "إسنا" (إذ دُون هذا الاسم بالهيروغليفية على جميع الأعمدة، وكافة النقوش البارزة في المعبد) لم تكن قرية فرعونية عريقة، وإنما مدينة هامة تزدان بالآثار الرائعة، كما استدللت على ذلك من نص أعمدة مقدمة الناووس.

وقد عثرت في النصوص الهيروغليفية المُدونة رأسياً على جذعي اثنين من هذة الأعمدة على لمحة تشير إلى الأعياد التي كانت تُقام سنوياً في معبد "إسنا" الكبير. ويتعلق أحدها بذكرى قيام "تحتمس الثالث" بتكريس المعبد القديم. كما عثرت في شارع ضيق بـ"إسنا" في حي الشيخ محمد البدري، على كتف باب منحوت من حجر الجرانيت الوردي الجميل، يحمل إهداء للفرعون "تحتمس الثاني". وقد نسخت هذا الإهداء الذي يرجع على الأرجح إلى أحد الآثار الفرعونية القديمة الموجودة في "إسنا". كما عثرت في "إدفو" على الحجر الوحيد المتبقي من أنقاض المعبد الذي قام "تحتمس الثالث" بتشييده وتكريسه للإله "حر-حت" العظيم، رب "حتفو Hatfouh" (إدفو)؛ قبل أن يقوم البطالمة بتشييد المعبد الحالي وتكريسه لنفس الإله. ويتضح لنا من ذلك أن "تحتمس الثالث" هو الذي شيد معظم العمائر المقدسة في "طيبه" والنوبة عقب غزو الهكسوس لمصر؛ مثلما أعاد البطالمة بناء عمائر "كوم امبو" و"إسنا" و"إدفو" لإحلال المعابد الأصلية التي تهدمت إبان الغزو الفارسي.

وقد كُرس معبد "إسنا" الكبير لعبادة الإله "خنوم Chnouphis" العظيم الذي ينتحل ألقاب [نف-ان-تو-سنه NEU-EN-THO-SNE،

رب إقليم "إسنا"، الخالق، فاطر الكون، الجوهر الحيوي للذات الإلهية، عماد كل الأكوان، ...الخ]. ويقترن بهذا الإله كل من المعبودة "نيت" التي تتجلى في صور وأسماء مختلفة ومتنوعة مثل "منهي Menhi" و"تنيبواو Tnébouaou"، ...الخ؛ وكذا الإله "حاكيه Haké" الصغير الذي صُور على هيئة طفل. وهكذا يكتمل الثالوث المقدس الذي كان يُعبد في "إسنا". كما جمعت العديد من التفاصيل العجيبة حول اختصاصات هذة الآلهة الثلاثة التي كُرست من أجلها الأعياد الرئيسية والاحتفالات الدينية الكبيرة التي كانت تُقام في "إسنا" على مدار العام. إذ كان الثالث والعشرون من شهر "هاتور" يوافق ذكرى الاحتفال بعيد الإلهة "تنيبواو"؛ في حين يقع عيد الإلهة "منهي" في الخامس والعشرين من نفس هذا الشهر؛ ويأتي عيد "إيزيس" بعد ذلك بخمسة أيام. وكان يُقام في الأول من شهر "كيهك" احتفال ديني تكريماً للإله "حاكيه" الشاب، وكذا للإله "خنوم". ونسوق فيما يلي نص التقويم المقدس المدون على أحد أعمدة مقدمة الناووس: [عند حلول عيد القمر الجديد والاحتفالات الدينية والقرابين التي تُقدم في معبد "خنوم"، إله "إسنا"، تُعرض كافة الحلي المقدسة، وتُقدم قرابين الخبز والنبيذ والمشروبات الروحية الأُخرى، والأبقار والأوز؛ وتُقدم الدهون والعطور إلى الإله "خنوم" والإلهة رفيقته، ثم يُقدم اللبن إلى "خنوم"؛ أما باقي آلهة المعبد، فتُقدم أوزة إلى المعبودة "منهي"، وأوزة إلى المعبودة "نيت"، وأوزة إلى "أوزوريس"، وأوزة إلى "ايزيس"، وأوزة إلى "خنسو" و"تحوت"، وأوزة إلى الآلهة "رع حور آختي" و"اتوم" و"توريه Thoré"، وكذا إلى آلهة المعبد الآخرى؛ ثم تُقدم البذور والزهور وسنابل القمح إلى الإله "خنوم"، رب "إسنا"، وتوجه إليه الابتهالات التالية، ...الخ]. ويتبع ذلك الدعوات التي تُردد في هذة المناسبة المهيبة، والتي قمت بنسخها نظراً لأهميتها الميثولوجية الكبيرة.

أما المعبد الذي يقع في شمال "إسنا" وسط سهل بديع كانت تكسوه الخضرة في سالف الزمان، وتنتشر فيه اليوم الأعشاب والأشواك التي أدمت أقدامنا عندما ذهبنا لزيارته في ليلة الخامس من مارس، فقد كُرس لعبادة نفس الإله. وقد تبدل حال هذا المعبد منذ رحيل علماء الحملة الفرنسية، ولم يعد باقياً منه سوى عمود واحد، وجزء صغير من جدار لا يعلو على مستوى سطح الأرض

تقريباً. ويصور لنا أحد النقوش البارزة التي لاتزال موجودة "يورجتيس الأول" وزوجته "برنكي Bérénice". كما تعرفت على نصوص "فيلوباتور" مدونة على العمود. ويحمل جزء من العتبة العلوية نصوصاً لـ"هادريان"؛ بينما دُون على جزء آخر بالأحرف الهيروغليفية الركيكة اسم الامبراطوريين "انتونان" و"فيروس Vérus". وقد اكتشفت بمحض الصدفة في القاعدة الخارجية للجزء الأيسر من المعبد، مجموعة من صور الأسرى الذين يمثلون الشعوب الخاضعة (لـ"يورجتيس الأول" على الأرجح). كما نجحت بفضل العربان الذين يحفرون بأظافرهم بشجاعة بالرغم من الأحجار والنباتات الشائكة، في نسخ نحو عشرة من النصوص الخاصة بأسماء هذه الشعوب مدونة على الدروع المثبتة فوق صدورهم. ومن بين الأمم التي يتباهى البطل الفاتح بإخضاعها، نقرأ أسماء "ارمينيا" و"بلاد فارس" و"مقدونيا". وربما تتعلق هذه النقوش بالانتصارات التي أحرزها أحد الأباطرة الرومانيين، بيد أن الأنقاض المتبقية لا تسمح لنا باستجلاء ذلك الأمر.

وفي صباح يوم السابع من مارس قمنا بنزهة على الأقدام داخل الأراضي لزيارة أنقاض مدينة "تيفيوم Tuphium" العريقة المعروفة اليوم باسم "الطود Taoud"، والتي تقع على الضفة اليمنى للنهر على مقربة من سلسلة الجبال الشرقية، في مواجهة "أرمنت" التي تقع على الضفة المقابلة للنيل. ونجد هنا حجرتين أو ثلاثة لمعبد صغير تسكنها عائلات من الفلاحين وحيواناتهم. وتحتفظ لنا أكبر حجرة ببعض نقوش لآلهة المعبد الذي كُرس لعبادة كل من "منتو" والإلهة "ريتو" وابنهما "حربقراط"؛ وهو نفس الثالوث المقدس في معبد "أرمنت"، عاصمة الإقليم الذي تتبعه مدينة "تيفيوم".

وفي منتصف النهار بلغنا "أرمنت" التي سبق أن حدثتك عنها عقب زيارتها في طريق صعودنا النيل... وقد قضينا بها بضع ساعات لنسخ عدد من النقوش والنصوص الهيروغليفية لتكملة العمل الذي كنا قد بدأناه لدى مرورنا بها في شهر نوفمبر الماضي. ويُعد هذا المعبد مجرد "ماميزي Mammisi" مُكرس لولادة الإلهة "ريتو". وقد تم تشييده وزخرفته ـ كما تشهد بذلك جميع النقوش ـ تخليداً لقيام الملكة "كليوباترا"، ابنة "اوليتيس Aulétès" بإنجاب "قيصرون Césarion"، ابن "يوليوس قيصر" الذي صُور على هيئة الإله

"منتو"؛ مثلما صُور "قيصرون" على هيئة الإله "حربقراط" الصغير. وقد اعتاد هذا الطاغية الروماني محاكاة الثالوث المقدس، لاسيما عندما يلتقي بملكة مثل "كليوباترا" يشع من شخصيتها إحساس إلهي، دون أن يمنعه ذلك من الانغماس في الملذات الدنيوية.

ولما كنا على مسافة قصيرة من "طيبه"، أخذت قلوبنا تتلهف لرؤية أطلالها المهيبة؛ وكذلك بطوننا لنبأ وصول مركب مُحملة بالمؤن الغذائية الطازجة إلى الأقصر خصيصاً من أجلنا... غير أن هبوب الرياح الشمالية العاتية تسبب في توقفنا ليلاً بين "أرمنت" و"طيبه" التي لم نبلغها إلا في صبيحة اليوم التالي الموافق الثامن من مارس.

ثم بلغ اسطولنا الصغير المرسى العتيق الذي تجرفه مياه النيل، والذي لن يصمد طويلاً في الدفاع عن قصر "الأقصر" الذي تلامس أعمدته الأخيرة ضفاف النهر تقريباً. ويرجع هذا المرسى بالطبع إلى عصرين. فقد شُيد المرسى الفرعوني الأصلي من قوالب الطوب المحروق، وطبقة من الملاط الشديد الصلابة؛ وتُكون أنقاضه كتلاً ضخمة يتراوح عرضها بين خمسة عشر وثمانية عشر قدماً، وطولها بين خمسة وعشرين وثلاثين قدماً. وهي تشبه الصخور المنحنية فوق صفحة مياه النيل التي تتخللها. أما المرسى الآخر المشيد من الحجر الرملي فيرجع إلى عصر متأخر جداً. وقد عثرت بداخله على أحجار اقتُلعت من أبنية متهدمة لاتزال تحتفظ ببقايا نقوش قديمة.

وقد سبق أن فرغنا تقريباً من العمل في الأقصر قبل أن نأتي للإقامة هنا في وادي الملوك. ويمكنني أن أورد لك كافة التفاصيل اللازمة حول تاريخ تشييد كل الأجزاء التي يتكون منها هذا البناء الضخم.

وقد قام الفرعون "امينوفيس ممنون" (امنحتب الثالث)، أحد ملوك الأسرة الثامنة عشرة بتأسيس قصر "الأقصر"، أو على الأحرى قصور "الأقصر". كما قام هذا الأمير ببناء مجموعة من العمائر التي تمتد من الجنوب إلى الشمال، من ضفاف النيل وحتى الأعمدة الأربعة عشرة الهائلة التي يبلغ ارتفاع كل منها خمسة وأربعين قدماً. كما تحمل جميع العتبات العلوية لباقي الأعمدة المائة وخمسة التي تزين الأفنية والحجرات الداخلية، وهي في حالة رائعة من الحفظ، نصوص إهداء مدونة بالأحرف الهيروغليفية الكبيرة والمتقنة

باسم الملك "امنحتب". وفيما يلي نسوق ترجمة أحد هذه الإهداءات لإعطاء فكرة عن بقيتها التي لا تختلف إلا من حيث بعض الألقاب الملكية بالزيادة أو النقصان:

[الحياة! "حورس" القوي والحكيم، الذي يحكم بالعدل، المدبر لشؤون بلده، المهيمن على العالم، لأنه بفضل قوته الشديدة أطاح بالهمجيين، الملك سيد العدالة، محبوب الشمس، ابن الشمس، "امنحتب"، الذي يحكم البقعة الطاهرة (مصر)، أمر ببناء هذه العمائر تمجيداً لأبيه "آمون"، الإله سيد المناطق الكونية الثلاثة، في "اوف Oph" (طيبه) الجنوبية؛ وشيدها من الأحجار الصلدة والرائعة، لكي يكون بناء راسخاً ومستديماً؛ هذا ما فعله ابن الشمس، "امنحتب"، محبوب "آمون رع"].

وتحدد لنا هذه النصوص بصورة لا تدع مجالاً للشك تاريخ تشييد وزخرفة هذا الجزء من قصر "الأقصر". ولا تخلو هذة النصوص الإهدائية من الأفعال، على عكس النصوص اليونانية التي قام السيد "لوترون" بتفسيرها، والتي أثارت زوبعة من الهجوم والانتقادات الجائرة. وبوسعك أن تخبره في هذا الصدد بأنني سأحضر له نصوصاً اهدائية مصرية لمعابد "فيله" و"كوم امبو" و"دندره" تحتوي جميعها على فعل "يبني".

وتتعلق النقوش البارزة التي تزين قصر "امنحتب" بصورة عامة بلوحات دينية تصور تعبد هذا الأمير للآلهة العظيمة في هذا الجزء من "طيبه"، ألا وهي: (١) "آمون رع"، الإله الأسمى في مصر، الذي تقتصر عبادته تقريباً على مدينة "طيبه" التي اشتقت اسمها من اسمه. (٢) "آمون رع خالق الكون Amon-Ra-Générateur" "(آمون-مين) الذي يُطلق عليه رمزياً لقب [زوج أمه]، ويُصور على هيئة إله القوة التناسلية عند الذكور. وقد أطلق عليه المؤلفون اليونانيون اسم الإله "بان Pan". (٣) الإلهة "تمون Thamoun" او "تمون Tamoun" بمعنى "آمون" الأنثى، وهي أحد أشكال المعبودة "نيت". وتُعتبر رفيقة "آمون-مين". (٤) الإلهة "موت"، الأم الإلهية العظيمة، رفيقة "آمون رع". (٥) و(٦) الإلهان الشابان "خنسو"

و"حركيه" اللذان يكملان هذين الثالوثين المقدسين المعبودين في "طيبه"، على النحو التالي:

الآباء	الأمهات
الأولاد	
آمون رع	موت
خنسو	
آمون-مين	تمون
حركيه	

كما نرى فرعون يقدم القرابين الثمينة إلى مختلف هذة الآلهة، ويصاحب زوارقها المقدسة التي يحملها الكهنة على أكتافهم في المواكب.

غير أنني عثرت داخل حجرتين على مجموعة من النقوش البارزة أكثر أهمية نظراً لتعلقها بشخص مؤسس القصر. وفيما يلي نسوق لمحة سريعة عن هذة النقوش الرئيسية التي قمت بنسخها:

ففي اللوحة الأولى نرى الإله "تحوت" يبشر الملكة "تموحمفا Tmauhemua"، زوجة الفرعون "تحتمس الرابع"، بأن "آمون-مين" قد أنعم عليها بطفل. عندئذ يقوم "خنوم" و"حتحور" بقيادة الملكة وقد بدت عليها دلائل الحمل بوضوح، إلى حجرة الولادة (ماميزي). ثم تتمدد الملكة على الفراش لتلد الملك "امنحتب". وتقوم بعض النسوة بمساندتها، بينما يصطف المردة الإلهيون حول الفراش، ويقربون رمز الحياة الأبدية من وجه المولود الجديد. ـ الملكة تُرضع الأمير الصغير. ـ إله النيل ملون باللون الأزرق (الذي يرمز إلى أيام التحاريق)، وإله النيل ملون باللون الأحمر (الذي يرمز إلى موسم الفيضان) يقدمان "امنحتب" الصغير، والإله "حركيه" الصغير، وغيرهما من الأطفال الإلهيين، إلى آلهة "طيبه" العظيمة. ـ الطفل الملكي في أحضان "آمون رع" الذي راح يلاطفه ويداعبه. ـ نشأة الملك الصغير في كنف "آمون رع"؛ الإلهات

الحاميات لمصر العليا والسفلى تمنحنه التاجين اللذين يرمزان إلى هيمنته على القطرين؛ وأخيراً الإله "تحوت" يختار له اسماً عظيماً، أي اسمه الملكي [الشمس، إله العدالة والحقيقة] الذي يميزه عن باقي الملوك الذين يحملون اسم "امنحتب".

وتفوق إحدى الحجرات الأخيرة في القصر باقي الحجرات من حيث الطابع الديني الذي يغلب عليها. وقد استُخدمت كمقصورة ملكية أو قدس أقداس، وتقتصر زخارفها على لوحات تصور "امنحتب" يتعبد ثالوثي "طيبه" المقدسين. كما نجد داخل هذه الحجرة التي احتفظت بسقفها قدس أقداس آخر مندمج في الأول يحمل هذا الإهداء الذي يحدد لنا بوضوح تاريخ تشييده الحديث نسبياً: [قام بترميم هذا البناء الملك (محبوب "رع حور آختي"، الذي يؤيده "آمون")، ابن الشمس، سيد التيجان، "الإسكندر"، تمجيداً لأبيه "آمون رع"، الحارس لمناطق "اوبت " (طيبه). أمر بتشييد المعبد الجديد من الأحجار الصلدة الجميلة في نفس موقع المعبد الآخر الذي كان قد شيده جلالة الملك الشمس، إله العدالة، ابن الشمس، "امنحتب"، الذي يحكم البقعة الطاهرة].

وعلى هذا النحو يرجع تشييد هذا المعبد الثاني إلى بداية عصر الاحتلال اليوناني لمصر في عهد "الإسكندر"، ابن "الإسكندر الأكبر"؛ وليس في عهد هذا الأخير كما نستدل على ذلك من وجه الملك الطفولي المرسوم على الجدران الخارجية والداخلية لهذا البناء الصغير وهو يتعبد ثالوثي "طيبه" المقدسين. ويطالعنا أحد هذة النقوش البارزة بصورة مدينة "طيبه" تحتل مكان الإلهة "تحمون" وتتجسد في هيئة إمرأة، ونقرأ إلى جانبها: [هذا ما تقوله "طيبه" (توف Toph)، المُوجِّهة العظيمة للعالم: لقد أخضعنا لك كافة البقاع (الأقاليم)، كما وهبناك أرض "كيمي Kémé" (مصر) المعطاءة]. وتوجه آلهة "طيبة" هذة العبارات إلى الملك الشاب "الإسكندر" الذي يخاطبه "آمون-مين" في نفس الوقت قائلاً: [تقتضي مشيئتنا أن تصبح الأبنية التي شيدتها راسخة، وأن تعمر دائماً مثل السماء].

وتُعتبر هذة الحجرة الجزء الوحيد الحديث في قصر "امنحتب" العريق. كما نجد في حجرة تسبق قدس الأقداس حجر لعتبة علوية قام أحد البطالمة بتجديده وزخرفته بالنصوص، وإعادة تثبيته في مكانه دون الالتفات إلى الأحجار القديمة الأخرى التي تحيط به،

والتي تحتفظ بنص الإهداء القديم. وفيما يلي نسوق ترجمة لهذا الإهداء العجيب:

الحجر الأول الحديث: [قام بترميم البناء الملك "بطليموس"، الحي الذي لا يموت، محبوب "بتاح"]. ـ الحجر الثاني القديم: [العالم، الشمس سيد العدالة، ابن الشمس، "امنحتب"، أمر بتشييد هذة الأبنية تمجيداً لأبيه آمون"، ...الخ].

ويحمل الحجر القديم الذي قام الملك البطلمي بتغييره هذا النص: ["حورس" القوي، ...الخ، سيد العالم، ...الخ]. ومما يدعو للدهشة هو أن أحداً لم يتحر عما إذا كان الإهداءان القديم والحديث يتماشيان معاً وينصهران في كيان واحد أم لا.

أما الأعمال التي تمت في عهد "امنحتب" فتنتهي بتشييد أعمدة "الأقصر" الأربعة عشرة الهائلة، وزخرفة العمودين الثاني والسابع من صفي الأعمدة المتجهين من الجنوب إلى الشمال. أما النقوش البارزة التي تزين الأعمدة الأربعة التالية فترجع إلى عهد الملك "حورس"، ابن "امنحتب"؛ كما ترجع الأعمدة الأربعة الأخيرة إلى عهد خليفته.

ويعود تشييد كل الجزء الشمالي لأبنية "الأقصر" إلى عصر آخر؛ لدرجة أنه يُكون أثراً على حدة، على الرغم من ارتباطه عن طريق صف الأعمدة الكبير بالـ"امينوفيوم Aménophion" أو قصر "امنحتب". لم يكن "رمسيس الأكبر" (سيزوستريس) الذي قام ببناء هذة العمائر يرغب في تجميل قصر "امنحتب"، وإنما كان يعتزم تشييد بناء متميز ومستقل. وقد استدللنا على ذلك بالطبع من الإهداء التالي المدون بالأحرف الهيروغليفية الكبيرة أعلى إفريز الصرح، والذي تم تكريره على العتبات العلوية لكل صفوف الأعمدة التي لم تدفنها تماماً البيوت الحقيرة المشيدة في العصر الحالي:

[الحياة! "حورس"، ابن "آمون"، سيد العالم العلوي والعالم السفلي، المحبوب مرتين، "حورس" المفعم بالقوة، صديق العالم، الملك (الشمس التي تحرس الحقيقة، الذي يؤيده "رع حور آختي")، الإبن المفضل عند ملك الآلهة، الذي يهيمن على الأرض متربعاً فوق عرش والده، أمر بتشييد هذة الأبنية تمجيداً لأبيه "آمون رع"، في

"اوبت" (طيبه) الجنوبية. هذا ما فعله ابن الشمس (محبوب "آمون"، "رمسيس") المحي إلى الأبد].

وهكذا نجد أنفسنا هنا أمام أثر خاص يختلف عن قصر "امنحتب". ويشرح لنا ذلك جيداً السر الكامن وراء عدم انتصاب هذين البناءين الهائلين على نفس المحور. وهو خلل واضح يلاحظه جميع الرحالة الذين يعتقدون عن خطأ في أنهما يرجعان إلى نفس التاريخ، ويمثلان كياناً واحداً.

وأمام الصرح الشمالي لـ"رامسيوم" الأقصر تنتصب المسلتان الشهيرتان المنحوتتان باتقان من الجرانيت الوردي وهما في حالة رائعة من الحفظ. وقد قام "رمسيس الأكبر" بنصب هاتين الكتلتين الهائلتين اللتين يزيد ارتفاع كل منهما على ستين قدماً في هذا المكان لتزيين "الرامسيوم"، كما نقرأ ذلك حرفياً في النص الهيروغليفي المدون في العمود الأوسط للواجهة الشرقية للمسلة اليسرى: [سيد العالم، الشمس التي تحرس الحقيقة (أو العدالة)، الذي يؤيده "رع حور آختي"، أمر بتشييد هذا البناء تمجيداً لأبيه "آمون رع"؛ كما نصب له هاتين المسلتين الهائلتين من الأحجار أمام "رامسيوم" مدينة "آمون"].

وقد قمت بنسخ هاتين المسلتين الرائعتين نسخاً دقيقاً، وتصويب الأخطاء التي وردت في لوحة علماء الحملة الفرنسية، وتكملتها بفضل الحفائر التي أجريناها حتى قاعدتهما. ولكن يستحيل علينا للأسف الشديد نسخ أسفل الواجهة الشرقية للمسلة اليمنى، وكذا الواجهة الغربية للمسلة اليسرى: إذ يتطلب ذلك هدم بعض البيوت المشيدة من الطين، وتشريد العديد من عائلات الفلاحين المعدمين.

لن أتعمق أكثر من ذلك في تفاصيل مضمون نصوص المسلتين. وإنك تعلم جيداً أنهما لا تحتويان -كما ساد الاعتقاد لفترة طويلة- على أسرار دينية خطيرة، أو مضاربات فلسفية ذات قيمة عالية، أو أسرار علوم السحر والتنجيم، أو حتى دروساً في علم الفلك. وإنما تحتويان على مجرد اهداءات للأبنية التي تنتصبان أمامها. لذلك فسأنتقل إلى شرح زخارف الصروح نظراً لاحتوائها على أهمية من نوع آخر.

وتغطي كل مساحة هاتين الكتلتين الشاسعة بلوحات عسكرية رائعة تصور عدة مئات من الأشخاص. ففي الكتلة اليمنى للصرح

نرى "رمسيس الأكبر" جالساً فوق عرش في وسط المعسكر، يستقبل القادة العسكريين ورُسل البلاد الأجنبية. كما نلاحظ تفاصيل الحياة في المعسكر، والأمتعة والخيام، ...الخ. وفي الخارج تصطف القوات المصرية في وضع القتال، وتأتي العجلات الحربية في المقدمة والمؤخرة وعلى الجناحين، بينما يتجمع جنود المشاة في الوسط. وفي الكتلة اليسرى للصرح نرى معركة دامية، وهزيمة الأعداء وملاحقتهم، وعبور نهر، وحصار مدينة واحتلالها، والإيقاع بالأسرى.

وبهذا نكون قد أعطينا فكرة إجمالية عن موضوع هاتين اللوحتين التي تبلغ كل واحدة منهما نحو خمسين قدماً. وقد قمنا بنسخ نقوشهما والنصوص القليلة المدونة بين هذة المناظر العسكرية نسخاً دقيقاً. بيد أن النصوص المسهبة الخاصة بهذة الغزوة التي شنها "سيزوستريس" نجدها أسفل تلك النقوش البارزة. ومن دواعي الأسف أن نسخها يتطلب هدم جزء من قرية الأقصر. لذلك فقد تعيَّن عليَّ الإكتفاء بالأسطر العلوية التي لاتزال واضحة، والتي تشير إلى نشوب هذه الحرب في العام الخامس من حكم البطل الفاتح، وأن هذة المعركة قد دارت رحاها في الخامس من شهر "أبيب". ويثبت لنا هذا التاريخ أننا بصدد نفس الغزوة التي صُورت أحداثها على الجدار الأيمن لمعبد "ابو سمبل" الكبير، والتي ترجع كذلك إلى نفس التاريخ. وترجع المعركة المصورة في هذا المعبد إلى التاسع، وليس الخامس من شهر "أبيب". وبالتالي فإننا بصدد موقعتين لنفس الحملة العسكرية. أما الأعداء الأسيويون، فتوحي لنا ملابسهم بأنهم من أهل "آشور" و"مديس" و"بابل". كما نقرأ بوضوح اسم (نهرينا-كاح Nahraina-Kah، بلاد ما بين النهرين) في نصوص "ابو سمبل"؛ وكذا بقاع "شوت Schot"، و"روبشي Robschi"، و"شاباتون Schabatoun"، و"مرو Marou"، و"باشوا Baschoua"، ...الخ، التي كانت تقع بالضرورة في آسيا الصغرى.

وتمثل المسلتان والأعمدة الأربعة والصرح والباحة المُعَمَّدة كل ما تبقى من "رامسيوم" الضفة اليمنى بـ"طيبه"، والذي نقرأ في جميع أنحائه اهداءات لـ"رمسيس الأكبر". ويبدو أنه في العام الثامن قبل الميلاد كانت الزخارف القديمة للباب الضخم الذي يقع بين كتلتي الصرح في حالة سيئة جداً من الحفظ لسبب ما؛ مما استدعى تجديدها

بالكامل. عندئذ قام الملك الإثيوبي "ساباكو Sabaco" أو "ساباكون Sabacon"، مؤسس الأسرة الخامسة والعشرين، والذي حكم مصر لفترة طويلة، بتغيير نقوش "رمسيس الأكبر"، وإحلالها بمناظر تصوره وهو يقدم القرابين المعتادة إلى الآلهة الحامية للقصر ولمدينة "طيبه". وتتميز هذه النقوش البارزة التي نقرأ فيها بوضوح اسم الملك "شاباك Schabak" على الرغم من طمسها وكشطها خلال العصور الغابرة، تتميز بأسلوب عجيب. إذ تبرز تفاصيل الصور بوضوح، وتبدو عضلات الجسم منتفخة دون أن يعيبها الأسلوب الأخرق الذي يميز النقوش البطلمية والرومانية. وفضلاً عن ذلك تُعتبر هذه هي المرة الأولى التي أرى فيها نقوشاً ترجع إلى تلك الحقبة التاريخية.

كما شهد "رامسيوم" الأقصر ترميماً ثانياً أقل أهمية: إذ قام "بطليموس فيلوباتور" بتجديد ثلاثة أحجار لعتبة علوية، وتاج العمود الأول الذي يقع على يسار الفناء. ولم ينس ذلك الملك تدوين النص التالي على العتبة العلوية: [قام بترميم البناء الملك "بطليموس" الحي الذي لا يموت، محبوب "إيزيس" و"بتاح"؛ والمهيمنة على العالم، "أرسنوي"، الإلهان "فيلوباتور" المحبوبان لدى "آمون رع"، رب الأرباب].

ولن أدخِل في عداد الترميمات بعض النقوش التي أمر بتنفيذها "رمسيس ميآمون"، مؤسس الأسرة التاسعة عشرة، والموجودة خارج "الرامسيوم" باتجاه الشرق؛ نظراً لأنها ربما تنتسب إلى بناء آخر ملاصق، لا تربطه بأثر "سيزوستريس" أي علاقة حقيقية.

وإلى هنا أصل إلى ختام ملاحظاتي حول هذا الأثر. وسأحدثك في رسالتي القادمة عن مقابر ملوك "طيبه" التي نعكف حالياً على دراستها.

أختتم رسالتي اليوم -الثاني من شهر إبريل- لتسليمها إلى ساع البريد الذي سيتجه هذا الصباح إلى القاهرة. ليس هناك ما يستحق الذكر منذ يوم الخامس والعشرين من مارس: لازلنا في تمام الصحة والعافية، نعمل بشجاعة وإقدام.

سأقيم هذا المساء مأدوبة عشاء لرفاقنا الشبان في أروع حجرة بمقبرة "اوزيري" احتفالاً بميلاد ابنتي "زوريدة Zoraide". وكان يجب علينا إحياء هذة المناسبة في الأول من شهر مارس، بيد أننا كنا نعاني حينئذ من ويلات عبور الشلال، ولا نجد ما نأكله سوى الخبز الجاف. لذلك فقد رأينا تأجيلها إلى هذا اليوم. ولن ندخر وسعاً لكي يتماشى الطعام -على قدر المستطاع- مع روعة هذا المكان. وسأكلل هذة المفاجأة التي أعددتها بطبق من لحم التمساح بالصلصة الحرّاقة. إذ قمت بالمصادفة بشراء تمساح صغير طازج تم صيده صباح الأمس. وأنا أعتمد كثيراً على هذة الأكلة لإبهارهم. وسنشرب نخبكم جميعاً، وستكونون حاضرين بيننا. وداعاً يا صديقي العزيز، قبلاتي ومشاعري الفياضة لك.

ج.ف. شامبليون

ملاحظة: لقد حمض لحم التمساح أثناء الليل وتعفن. يا للمصيبة! وربما نجد عزاءنا في التفكير بأننا بهذا نكون قد تلافينا عسر الهضم والتخمة.

* * *

إن ساع البريد الذي كنا قد أرسلناه إلى القاهرة في مطلع شهر إبريل لم يرجع إلينا حتى الآن. ولما كان هذا التأخير غير المألوف يقلقنا، فقد قررنا إرسال ساع آخر هذا المساء للبحث عنه، وإحضاره حياً أو ميتاً. فلو قُدر له الوصول إلى القاهرة فسيسلم هذا الخطاب إلى القنصلية الفرنسية لتتولى بدورها إرساله لك. ولذلك فسأوجز هذا الخطاب، تاركاً كافة التفاصيل الخاصة بالمقابر الملكية للخطاب التالي الذي سأبعثه إليك بمجرد الانتهاء من العمل في وادي الملوك.

لم يكن في حسباني الإقامة طويلاً في هذا الموقع. بيد أن جدران تلك المقابر وأسقفها على وجه الخصوص مغطاه بلوحات طريفة للغاية. لذلك فقد تحتم علينا الإصغاء لصوت الضمير، ونسخ نقوشها ونصوصها الفريدة، التي يستحيل العثور عليها في أي مكان آخر. وقد اضطلعت شخصياً بذلك العمل، بينما انكب الرسامون على اتمام اللوحات التاريخية التي تتعلق مباشرة بتاريخ الفن في مصر القديمة. ومن ثم فلا يمكنني الاعتماد إلا على نفسي لنسخ المناظر الجهنمية التي تتخذ أكثر الأشكال فظاعة وتعقيداً لتصور لنا كل زبانية جهنم، والعادات والتقاليد السائدة في العالم الآخر. كما تعكس لنا دراية كاملة بعلم النفس الخالص. وسأدخر الحديث عن ذلك وعن باقي الأشياء الأخرى للخطاب الذي سأرسله لك قريباً عن وادي الملوك.

لقد علمت من خطابك الأخير بوجوب توجيه رسائلي إلى السيد "فلان" وإلى السيد "علان". ومن غير المجدي أن أذكر أسماء هؤلاء الأشخاص الذين لا يفقهون في الأمر شيئاً. ومن ناحية أخرى فإن رسائلي تحتوي على نتائج متراكمة بدون تحليل، ومجرد ملاحظات وإشارات؛ وليست رسائل مؤثرة كتلك التي ينبغي إرسالها للسادة العظام. وأنا أعتقد أنك تشاركني هذا الرأي؛ وأنك لو كنت تنبهت لوضع اسمك على رسائلي السابقة التي كانت موجهة إليك لما كان لأحد أن يجرؤ على وضع اسمه هو. إن ذلك يُعد خطأ قد وقعت فيه. أما بالنسبة للسيد "دي لابويري" الذي أظهر حماساً شديداً في دعم مشروعي، فمن المنصف أن تُطلعه أولاً بأول على ما أحرزه من

نتائج. كما أن عليك أن تقوم بزيارته من وقت لآخر لتثبت له عرفاننا بجميله، واعتمادنا عليه في نشر ثمار هذه الرحلة. فإذا تطرق بكما الحديث إلى ذلك الأمر، فتجنب أن تتخذ قرارات نهائية في هذا الشأن نظراً لأنه في حالة رواج هذا المؤلَف في المكتبات ـ وهو أمر محتمل ـ فمن العدل أن نجني كسباً هاماً من ورائه. وسيكفينا الاكتتاب ـ على ما أعتقد ـ بمائة وخمسين إلى مئاتي نسخة. وبما أن كل ذلك سابق لأوانه، فعلينا الالتزام بالحكمة القائلة: "لا تبع جلد الدب قبل صيده" !

لقد عادت فترة إقامتي الطويلة في المقابر الملكية بالنفع على رفاقي الشبان الذين راحوا ينسخون رسوم النوبة و"طيبه" العليا تحت إشرافي. أما بقية الرسوم فهي رائعة وهامة للغاية.

تتماسك صحتنا على نحو رائع في غمرة ما نبذله من جهود، باستثناء "سلفادور" الذي شفي الآن من وعكة ألمت به. ولنا أن نعترف بفضل "آمون رع" العظيم ونعمته علينا: إذ أن درجة الحرارة داخل المقبرة التي نسكنها ثابتة على الدوام بين عشرين وواحد وعشرين درجة مئوية. بينما يتأرجح ميزان الحرارة على قاب قوسين من المقبرة بين خمس وثلاثين وست وثلاثين درجة في الظل، وسبع وأربعين وثمان وأربعين درجة في أشعة الشمس. وفضلاً عن ذلك فقد انقضى الشهر السابق مثلما سيمر الشهر الحالي كذلك بدون هبوب رياح الخماسين. وربما تعلم أن تلك الرياح المحرقة والفظيعة تثير زوابع ترابية، وتجفف كل ما يعترض طريقها. سأغادر مصر إذن بدون رؤية تلك الرياح التي تشبه إعصار "التيفون" عندما تعصف في جبال "طيبه" الحزينة.

لن أكتب لـ"روزين Rosine" هذه المرة، إذ ينبغي أن يمضي ساع البريد في الحال: فلتطلعه إذاً على رسالتي. وأخبر أخواتنا في "فيجاك" بأنني في صحة جيدة. ترى هل وصل "ديبوا" إلى الوطن سالماً ؟ أين هو ؟ وماذا يفعل ؟ وهل تتقدم القوات العسكرية الفرنسية بنفس السرعة التي نزلت بها ؟ منذ أكثر من شهرين ونحن نهيم في الصحراء وفي قاع المقابر بدون أية أخبار عما يحدث في العالم. يا له من أمر شاق ! فعلى الرغم من نظرتنا الفلسفية إلى أمور الحياة الدنيا، ومظاهر العدم المدونة حولنا بأحرف بارزة، وصعودنا من وقت لآخر للتأمل فوق قمة الجبل

المجدب الذي يشرف على سهل "طيبه" الممتد؛ إلا أننا لازلنا متعلقين بتلك الأرض البائسة، وبسكانها الضعفاء، وخاصة بأحبابنا الذين يرتعشون من شدة البرد على الضفة الأخرى للبحر الأبيض المتوسط. ويعجز لساني عن وصف مقدار اهتمامنا ببعض الجرائد الفرنسية التي ترجع إلى أشهر نوفمبر وديسمبر ويناير؛ ومدى سعادتنا وابتهاجنا بالأشياء العظيمة التي تجري في وطننا الحبيب. ولكن دعنا من الحديث عن فرنسا لأن قلبي ينشطر لذكرها.

وستستغرقني أطلال "طيبه" عدة أشهر أخرى، ستعرف بعدها الفرحة واللذة الطريق إلى نفسي. وداعاً، وقبلاتي لك ولكل ذوينا.

ج.ف. شامبليون

ملاحظة: تقول شائعات "طيبه" بأن "باريزت" توجه إلى سوريا لدراسة وباء الطاعون الذي ظهر هنالك. ولقد اختفى ذلك المرض تماماً من مصر.

* * *

طيبه (وادي الملوك) في ٢٦ مايو ١٨٢٩

تُعيننا التفاصيل الطوبوغرافية التي أوردها عالم الجغرافيا الإغريقي "سترابون Strabon" على تحديد موقع مقابر الملوك القدماء في وادي الملوك تحديداً دقيقاً. فضلاً عن أن اسم ذلك الوادي نفسه المشتق من اللغة العربية "بيبان الملوك"، وكذا الاسم الذي كان يُطلق عليه في اللغة المصرية القديمة "بيب-ان-اورو-Bib-an Ouroou" (بمعنى مقابر الملوك) كما يشير السيد "سلفستر دي ساسي Sylvestre de Sacy"، يقطع الشك باليقين. ويتميز هذا المكان بكافة المواصفات التي تؤهله جيداً ليكون جبانة ملكية. إذ يقع في وادي مجدب تحاصره صخور عمودية شاهقة، وجبال في طور التحلل تكثر في أغلبها تقريباً شقوق عريضة ناتجة عن الارتفاع الشديد في درجات الحرارة، وتحلل وانهيار الصخور الداخلية؛ كما تنتشر فيها رقع سوداء كما لو كانت بعض أجزاءها تحترق. وهي

منطقة جدباء، لا زرع فيها ولا ماء، سواء على المنحدرات الجبلية أو في الوادي الذي يشبه مجرى أحد سيول جبال "الألب" الفرنسية العملاقة، وقد جف ونضب منذ قرون عديدة. وباستثناء بعض الثعابين والعظايا، لا يطرق ذلك الوادي الموحش أي حيوان؛ بغض النظر عن الذباب والثعالب والذئاب والضباع، لأن اقامتنا في المقابر ورائحة الطبيخ هي التي اجتذبت إلينا هذة الأنواع الأربعة من الحيوانات التي تتضور جوعاً.

وندخل في ذلك المكان النائي من الوادي عن طريق فتحة صغيرة شكلتها يد الإنسان، حيث تطالعنا أنقاض هزيلة لتماثيل مصرية. وسرعان ما نلمح في سفح الجبال وعلى منحدراتها أبواباً مربعة الشكل، ومسدودة في معظمها حتى أنه يتعين علينا الاقتراب منها لتبين زخارفها. وتفضي تلك الأبواب التي تتشابه جميعها إلى المقابر الملكية. وفي سالف الزمان كانت كل مقبرة منعزلة تماماً عن الأخرى، ومن ثم كان لكل واحدة منها بابها الخاص؛ قبل أن يقوم المنقبون عن الكنوز من القدماء والمعاصرين بعمل وصلات بين بعض تلك المقابر للربط بينها.

وقد كنت أحرق شوقاً عند بلوغي وادي الملوك للتأكد من أن هذة المقابر الستة عشر (ولا أتحدث إلا عن تلك التي تحتفظ بنقوشها، وبأسماء الملوك الذين قاموا بنقرها في الصخر) ترجع فقط إلى ملوك الأسر الطيبيه، أي إلى الأمراء الذين تنتسب عائلاتهم إلى إقليم "طيبه"، كما سبق أن استنتجته من العديد من الملاحظات. وقد تأكدت تماماً من خلال المعاينة السريعة لتلك المقابر في طريق صعودي إلى الشلال الثاني، وكذا خلال الأشهر العديدة التي قضيتها هنا عقب عودتي، من احتوائها على مومياوات ملوك الأسرات الطيبيه الثامنة عشر، والتاسعة عشر، والعشرين. وهكذا فقد عثرت أولاً على مقابر كل من: "رمسيس الأول"، و"مرينبتاح الأول" (اوزيري Ousiréi)، و"رمسيس الأكبر"، و"مرينبتاح الثاني"، و"مرينبتاح الثالث"، و"رعميري Rhamerri"، وكلهم من ملوك الأسرة الثامنة عشرة. وأخيراً أقدمهم جميعاً، الملك "امينوفيس-ممنون" الذي دُفن على حده في الوادي الغربي المنعزل. كما عثرت على مقبرة "رمسيس ميآمون" الذي يُعد بكل تأكيد مؤسس الأسرة التاسعة عشرة، وواحداً من أعظم الفاتحين

المصريين. فضلاً عن مقابر ستة من الملوك الرعامسة من خلفاء "ميآمون" الذين ينتسبون إلى الأسرة التاسعة عشرة وبداية الأسرة العشرين.

لم يتم اتباع أي نظام أو تنسيق عند اختيار مواقع تلك المقابر الملكية المختلفة. إذ قام كل ملك من الملوك باختيار النقطة التي يعتقد أنها تحتوي على عرق حجري مناسب لنقوش وضخامة المقبرة التي يعتزم حفرها. وتصعب علينا مقاومة الدهشة التي تتملكنا عقب اجتياز الباب العادي، والولوج في ممرات ودهاليز طويلة تغطيها نقوش متقنة للغاية، تحتفظ في معظمها برونق ألوانها الزاهية، وتقودنا على التوالي داخل حجرات تستند على أعمدة غنية بالزخارف. وأخيراً نبلغ الحجرة الرئيسية أو "الحجرة المُذَهبة" كما كان يسميها المصريون القدماء. وهي أوسع من باقي الحجرات الأخرى، وترقد في وسطها مومياء الملك داخل تابوت ضخم من الجرانيت. وتعطينا خرائط تلك المقابر، التي قام علماء الحملة الفرنسية بنشرها، فكرة دقيقة عن مساحتها، والجهود المضنية التي تكبدها النحاتون في سبيل حفرها باستخدام المعاول والأزاميل. لدرجة أن الوادي كله تقريباً تغطيه تلال من شظايا الأحجار والصخور المتخلفة عن عمليات الحفر المهولة التي تمت في أحشاء الجبل.

ولعلك لا تتوقع بالطبع أن تجد هنا وصفاً تفصيلياً لكل واحدة من تلك المقابر: فقد أنفقت أشهر عديدة في سبيل مجرد صياغة مذكرة مفصلة بعض الشيء عن لوحاتها التي لا تحصى، ونسخ أهم نصوصها. ومع ذلك فسأعطيك فكرة عامة عن تلك الآثار عن طريق وصف سريع وموجز لإحداها، أي مقبرة الفرعون "رمسيس" ابن "ميآمون" وخليفته على العرش، والذي يحمل في قائمة "مانيتون Manéthon" الملكية اسم "امينيفتاس Aménéphthès". ولما كانت زخرفة المقابر الملكية تسير على نهج واحد، فإن ما نجده في إحداها نجده أيضاً في باقي المقابر الأخرى تقريباً؛ فيما عدا بعض الاستثناءات التي سأشير إليها لاحقاً.

ويزدان إفريز الباب الخارجي لكافة المقابر بنقش يُعد في الواقع تمهيداً، أو على الأحرى ملخصاً لكل زخارف المقابر الفرعونية. ويصور الملك جاثياً يتعبد قرصاً أصفر باهت اللون تبرز في وسطه

الشمس برأس كبش، أي الشمس الغاربة التي تدخل في العالم السفلي. وعلى يمين القرص، أي ناحية الشرق تقف الإلهة "نفتيس"، بينما تقف المعبودة "إيزيس" على اليسار (الغرب)؛ وتشغلان طرفي رحلة الإله في العالم العلوي. وإلى جانب الشمس، داخل القرص، رُسم جَعْل كبير يرمز إلى البعث بعد الممات، والإحياء المتجدد والمتعاقب. ويركع الملك فوق الجبل السماوي حيث تقف كذلك المعبودتان.

ويتعلق المغزى العام لذلك التكوين بالملك المتوفي. فأثناء حياته التي تشبه رحلة الشمس من المشرق إلى المغرب، يتعين على الملك أن يكون مصدراً للتنوير والإلهام، وينبوعاً لكافة الأمور المادية والمعنوية اللازمة لسكان مصر. كما يُقارن الملك بعد وفاته بالشمس الغاربة، ورحلتها خلال ملكوت الظلام في العالم السفلي، وميلادها مرة أخرى في الشرق لتعيد النور والحياة إلى العالم العلوي (الذي نقطنه). وعلى نفس المنوال يتعين على الملك المتوفي أن يُولد من جديد، إما لمواصلة عملية التقمص والتناسخ، وإما ليستقر في العالم السماوي ويندمج في كنف "آمون"، الأب الكوني.

وبالطبع لم أختلق ذلك التفسير، ولم يخرج من بنات أفكاري: إذ أن زمن التخمين قد ولى. وإنما نقرأه مدوناً في النصوص التي تغطي المقابر الملكية.

وهكذا فإن مقارنة الملك بالشمس، أو إدماجه بها في الرحلتين النهارية والليلية يُعد محوراً أساسياً، أو على الأحرى الشكل والمضمون الذي تنتظم من حوله كافة النقوش الأخرى.

وفيما يلي نسوق ترجمة للنص المصاحب لذلك المنظر: [هذا ما يقوله "أوزوريس"، سيد الـ"أمنتي Amenti" (العالم الغربي الذي يسكنه الموتى): لقد وهبتك مسكناً في الجبل الغربي المقدس، مثل باقي الآلهة العظام (أجداده الملوك)، إليك أنت، الملك الأوزيري، سيد العالم، "رمسيس"، ...الخ، الذي لايزال على قيد الحياة].

وتبرهن لنا العبارة الأخيرة -إن كانت هناك حاجة إلى ذلك- على شروع الملوك أثناء حياتهم في حفر مقابرهم، نظراً لما يتطلبه ذلك من جهود مضنية ووقت طويل. كما كان الهم الأول والمتواصل لكل فرعون ينصب في تشييد الأثر الجنائزي الذي سيصبح مثواه الأخير.

هذا ما يوضحه بصورة أفضل المنظر الأول المنقوش دائماً على يسار الداخل في جميع تلك المقابر. وكان هذا المنظر يهدف بكل تأكيد إلى طمأنة الملك الحي من نذير الشؤم الذي قد ينطوي عليه حفر قبره قبل الأوان، وهو مايزال في مقتبل العمر، ينعم بالصحة والعافية. وفي الواقع يصور لنا ذلك المنظر فرعون في زيه الملكي يقف بين يدي الإله "رع حور آختي" برأس صقر، أي الشمس في أوج رحلتها (في منتصف النهار)، الذي يوجه إلى من ينوب عنه على الأرض ذلك الكلام المطمئن:

[هذا ما يقوله "رع حور آختي"، الإله العظيم، رب السماء: نهبك عمراً مديداً لتحكم العالم، وتمارس سلطات "حورس" الملكية على الأرض].

كما نقرأ على سقف ذلك الدهليز الأول للمقبرة وعوداً تبشر الملك بالخير الجم في هذا العالم الأرضي، وتفاصيل للهبات والنعم التي تنتظره في العالم الآخر السماوي.

ويتبع هذه اللوحة مباشرة التي تمثل نوعاً من الاحتراس الخطابي الرقيق، لوحة رمزية أخرى تتناول نفس الموضوع بمزيد من الصراحة والوضوح. إذ تصور قرص الشمس يترك الشرق ويتقدم صوب حدود الغرب حيث ينتصب تمساح يرمز إلى الظلمات التي ستغشى كلاً من الإله والملك. كما يأتي بعد ذلك مباشرة نص طويل جداً يحتوي على أسماء رفقاء الشمس الخمسة والسبعين في العالم السفلي، والابتهالات المقدمة إلى تلك الآلهة من الطبقة الثالثة. ويهيمن كل واحد منها على أحد المناطق الخمس والسبعين التي ينقسم إليها العالم السفلي والتي يُطلق عليها اسم ["كيليه Kellé"، المقر الذي يحجب، الحرم، المنطقة].

وعادة ما يؤدي الدهليز الأول إلى حجرة صغيرة تحتوي على صور ملونة للرفقاء، تسبقها أو تتبعها لوحة هائلة تقدم لنا على التوالي صوراً للخمس والسبعين منطقة ولمن يسكنونها. وسأتطرق إلى ذلك الموضوع فيما بعد.

وبعد هذه المناظرَ العامة والشاملة تأتي مناظر أخرى أكثر تفصيلاً. وتغطي جدران الممرات والحجرات التالية (الجدران الأكثر قرباً من الشرق دائماً) سلسلة طويلة من اللوحات تصور رحلة

الشمس خلال العالم العلوي (صورة الملك أثناء حياته). بينما تصور الجدران المقابلة رحلة الشمس خلال العالم السفلي (صورة الملك عقب وفاته).

أما اللوحات العديدة المتعلقة برحلة الإله فوق الأفق في عالم الأنوار الساطعة فتنقسم إلى اثنتي عشر مجموعة، تبدأ كل واحدة منها بصورة مصراع باب غني بالنقوش يحرسه ثعبان ضخم. وتمثل تلك الأبواب الإثنتا عشر ساعة النهارية. كما تحمل كل تلك الزواحف أسماء بليغة مثل "تك-هو TEK-HO" أي "ثعبان يتطاير الشرر من وجهه"، و"سات-مبيفبال SATE-MPEFBAL" بمعنى "ثعبان تقذف عيناه باللهب"، و"تابنتوTAPENTHO" أي "قرن العالم"، ...الخ. وإلى جانب هؤلاء الحراس المرعبين، نقرأ على الدوام النص التالي: [إنه يقبع فوق ذلك الباب الكبير، ويفتحه أمام الإله الشمس].

وإلى جانب مصراع الباب الأول الذي يُمثل شروق الشمس، رُسمت الأربع وعشرون ساعة التي يتكون منها اليوم الفلكي في هيئة آدمية تحمل نجمة فوق رأسها، وتتقدم داخل المقبرة لتحديد اتجاه مسار الإله. كما تحدد لنا في نفس الوقت الاتجاه الواجب اتباعه لدراسة تلك اللوحات الهامة. لاسيما وأن كل ساعة من ساعات النهار الاثنتى عشر تعطينا صورة تفصيلية لزورق الإله يسبح في النهر السماوي، ويمخر عباب المياه الأزلية التي خرجت منها كل الأشياء المادية وفقاً لعقيدة المصريين القدماء. كما تطالعنا صورة طاقم الإله الذي يعاونه على التوالي، علاوة على المساكن السماوية التي يتفقدها، والمشاهد الأسطورية المتعلقة بكل ساعة من ساعات النهار.

ففي الساعة الأولى، يتحرك زورق الإله، ويتقبل ابتهالات وتضرعات أرواح الشرق. وفي إحدى اللوحات التي تصور الساعة الثانية، نرى الإله "اتوم" يراقب الثعبان الضخم "ابوفيس Apophis"، أخا الشمس وعدوها في نفس الوقت. وفي الساعة الثالثة يبلغ إله الشمس المنطقة السماوية التي يتحدد فيها مصير الأرواح بالنسبة للأجساد التي ينبغي أن تتقمصها في تناسخها الجديد. ويطالعنا الإله "اتوم" جالساً في المحكمة، يزن الأرواح الآدمية المتعاقبة في الميزان. ونشاهد إدانة إحدى الأرواح، وإعادتها

إلى الأرض على متن زورق يتقدم صوب الباب الذي يحرسه "انوبيس". ثم تقوم القردة التي ترمز إلى العدالة السماوية بقيادة تلك الروح الآثمة التي تتخذ هيئة أنثى الخنزير، وإشباعها ضرباً بالمقارع. وقد دُونت فوق صورتها بالأحرف الكبيرة كلمة "شراهة" أو "نهم" التي قد تشير إلى المعصية الكبرى التي ارتكبتها أثناء حياتها على الأرض والتي استحقت من أجلها العقاب.

ثم يقوم الإله في الساعة الخامسة بزيارة جنة الصالحين التي تسكنها الأرواح البررة، حيث تستريح من مشقة عمليات التناسخ الأرضية التي مرت بها. كما تزدان رؤوسها بريشة النعام التي ترمز إلى سلوكها القويم والعفيف أثناء الحياة. ونرى تلك الأرواح تقدم القرابين إلى الآلهة، وتقطف فاكهة الأشجار السماوية في جنة الفردوس، تحت إشراف [رب سعادة القلب]. وعلى مبعدة تُمسك الأرواح التي تزرع حقول الحقيقة بالمناجل في أيديها. ونقرأ في النص: [إنها تصب الماء الطهور، وتقدم حبوب حقول المجد قرباناً، وتحمل المناجل وتحصد الحقول التي من نصيبها؛ ويقول لها الإله الشمس: أمسكوا مناجلكم، واحصدوا حبوبكم، وانقلوها إلى مساكنكم، وانعموا بها ثم قدموها قرباناً طاهراً للآلهة]. وأخيراً نراها في موضع آخر تغتسل وتسبح، وتقفز وتلهو، وتمرح داخل حوض كبير تملأه المياه السماوية الأزلية. ويجري كل ذلك تحت إشراف إله النيل السماوي. وتتأهب الآلهة خلال الساعات التالية لقتال الثعبان "ابوفيس"، عدو الشمس اللدود. ونراها تتسلح بالحراب، وتُعد الشباك للايقاع بذلك الوحش الذي يقطن مياه النهر التي يسبح فوقها زورق الشمس. ثم تمد الحبال، تُوقع به. عندئذ تقيد الآلهة ذلك الحيوان الزاحف الضخم بالأغلال، وتخرجه من النهر بواسطة حبل تلفه الإلهة "سرقت Selk" حول عنقه. ويقوم اثنا عشر إله بسحبه مستعينين بآلة معقدة للغاية يُديرها الإله "جب"، تعاونه مردة الجهات الأصلية الأربع. إلا أن كل تلك العدة والعتاد تبدو عقيمة في مواجهة جهود "ابوفيس" لولا بروز يد (آمون) العملاقة من أسفل للإمساك بالحبل، والقضاء على هياج التنين، وشل حركته. وتشهد الساعة الحادية عشرة من النهار خنق الثعبان الأسير. وبعد ذلك مباشرة يبلغ الإله الشمس ذروة الأفق حيث سيختفي. وتنتصب المعبودة "نوتNetphé" على سطح بحر المياه السماوية، وتصعد

فوق رأس ابنها "أوزوريس" -الذي ينتهي جسده على هيئة لولبية مثل جنيات البحر- لاستقبال زورق الشمس الذي يُوضع بعد ذلك بين يدي النيل السماوي العملاق، الذي يمثل المحيط الأزلي في الأساطير المصرية.

أما رحلة الشمس عبر ملكوت الظلمات السفلية خلال الاثنتا عشر ساعة الليلية، أي في الاتجاه المعاكس للمناظر السابقة، فقد نُقشت على الجدران المقابلة للوحات التي قدمت عنها فكرة موجزة جداً للتو. ونرى الإله هنا وقد لُونت صورته على الدوام باللون الأسود من رأسه إلى أخمص قدميه، يجتاز الخمس عشرة دائرة أو منطقة التي يحكمها عدد مماثل من الآلهة يتخذون مختلف الأشكال، ويتسلحون بالسيوف. وتقطن هذة الدوائر الأرواح الآثمة حيث تذوق مختلف ألوان العذاب. ويُعد ذلك في الحقيقة نموذجاً جوهرياً للجحيم كما تخيله الشاعر الإيطالي "دانتي Dante": إذ نجد في تنوع أشكال العقاب ما يكفي لإذهالنا. كما فسر لي ذلك السبب الذي دفع بعض الرحالة إلى الاستدلال من خلال مناظر تلك المذابح التي أفزعتهم على حدوث تضحيات آدمية في مصر القديمة. إلا أن النصوص المصاحبة لتلك المناظر لا تدع لنا مجالاً للشك في هذا الصدد: فما هي إلا أمور خاصة بما يجري في العالم الآخر، ولا ترتبط من قريب أو من بعيد بعادات وتقاليد عالمنا الأرضي.

وتُعاقَب الأرواح الشريرة بطرق مختلفة في معظم أنحاء جهنم التي يزورها الإله الشمس. وقد صُورت تلك الأرواح النجسة التي دأبت على ارتكاب المعاصي والآثام، في هيئة آدمية في معظم الأحيان؛ وفي هيئة رمزية لطائر "الكركي" أو صقر برأس آدمية في بعض الأحيان. كما لُونت كلها باللون الأسود الذي يشير في نفس الوقت إلى طبيعتها الفاسدة والمنحرفة، وإلى إقامتها في بحر الظلمات. وقد قُيدت بعض تلك الأرواح بإحكام إلى أعمدة، بينما راح حراس المنطقة شاهرين سيوفهم يلومونها ويأنبونها على ما ارتكبته من موبقات خلال حياتها على الأرض. وعُلقت أرواح أخرى من أقدامها. كما نرى أرواحاً مقطوعة الرأس، ومكتفة اليدين فوق الصدر، تمشي في طوابير طويلة؛ وغيرها مكتوفة اليدين خلف الظهر، تجر على الأرض قلبها وقد تدلى من صدرها. ونلمح مراجل ضخمة تُغلي بداخلها أرواح حيّة على هيئة آدمية، أو على شكل

الطير، أو رؤوسها وقلوبها فقط. كما تُقذَف أرواح أخرى داخل المراجل ومعها شعار السعادة والراحة السماوية (مروحة) الذي لم يعد من حقها على الإطلاق. ولقد أصبح في حوذتي نُسخ أمينة لتلك السلسلة الهائلة من المناظر والنصوص الطويلة المصاحبة لها.

وتقترن دائماً صور المُعَذّبين في كل منطقة بنص إدانتهم، والعقوبة المفروضة عليهم. [هذة الأرواح العدوة لا ترى إلهها عندما يطلق أشعة شمسه؛ ولم تعد تسكن العالم الأرضي، ولم تعد تسمع صوت الإله العظيم عندما يمر بها]. بينما نقرأ على النقيض من ذلك إلى جانب صور الأرواح السعيدة المرسومة على الجدران المقابلة: [لقد حظيت برعاية الإله العظيم، وتقطن مساكن المجد حيث تنعم بالحياة السماوية؛ وسترقد أجسادهم التي فارقوها داخل مقابرهم إلى الأبد، بينما ستنعم أرواحهم في حضرة الإله الأسمى].

وتُجسد هاتان المجموعتان من المناظر نظرية علم النفس المصري في أكثر المبادىء الأخلاقية أهمية: ألا وهما مبدأي الثواب والعقاب. كما يبرهن ذلك تماماً على كل ما ذكره الأقدمون حول عقيدة المصريين في خلود الروح، والهدف الإيجابي من وراء الحياة الإنسانية. ومن هنا تنبع الفكرة العظيمة في تشبيه المصيرين اللذين ينتظران الأرواح في الآخرة بأشد الظواهر الطبيعية بلاغة: أي برحلتي الشمس الليلية والنهارية.

وتشغل تلك المجموعة من اللوحات النفسية جدران الممرين الكبيرين، والحجرتين الأولتين في مقبرة "رمسيس الخامس" التي قمت بوصفها باعتبارها نموذجاً لباقي المقابر الملكية نظراً لكونها أكثر اكتمالاً. كما نُقش نفس الموضوع على أسقف الدهليز الثاني والحجرتين الأولتين التابعتين، ولكن من خلال منظور فلكي، وبتصميم أكثر انتظاماً نظراً لطابعه العلمي.

فنرى السماء على هيئة امرأة تُرصع النجوم جسدها تغطي ذلك التكوين الضخم من ثلاث جهات. إذ يمتد جذعها على طول اللوحة ليغطي الجزء العلوي. وقد رُسمت رأسها باتجاه الغرب. كما يحدد ذراعاها وساقاها طول اللوحة المقسمة إلى قسمين متساويين. إذ يرمز القسم العلوي إلى العالم العلوي، أو إلى رحلة الشمس خلال ساعات النهار الاثنتا عشر؛ بينما يرمز القسم السفلي إلى العالم السفلي، أو إلى رحلة الشمس خلال ساعات الليل الاثنتا عشر.

وقد رُسم ميلاد الشمس في الشرق، أي ناحية العضو التناسلي لإلهة السماء. وتخرج الشمس من رحم أمها الإلهية "نيت Néith" على هيئة طفل وليد يضع إصبعه في فمه داخل قرص أحمر. وينتصب الإله "هو " (الذي يمثل الحكمة الإلهية) في الزورق المخصص لرحلتي الإله الوليد، ويرفع يديه ليضعه في الزورق بنفسه. وبعد أن تتلقى الشمس الوليدة عناية الإلهتين المرضعتين، ينطلق الزورق سابحاً فوق مياه المحيط السماوي التي تنساب مثل النهر من الشرق إلى الغرب حيث يوجد حوض شاسع يصب فيه كذلك فرع آخر من النهر يخترق العالم السفلي من الغرب إلى الشرق.

وتتحدد كل ساعة من ساعات النهار على جسم السماء بواسطة قرص أحمر، كما تتحدد على اللوحة بواسطة إثنتا عشر زورقاً يستقلها الإله الشمس سابحاً في المحيط السماوي في صحبة طاقم من الآلهة يتغير كل ساعة ويصاحبه إلى الضفتين.

وفي لحظة انطلاق الزورق في الساعة الأولى تقدم أرواح الشرق الابتهالات والتضرعات إلى الإله الوليد المنتصب داخل ناووسه في وسط الزورق. ويتكون طاقم الملاحين من المعبودة "سوري Sori" التي تعطي الدفعة الأولى لمقدمة الزورق، والمعبود "جب " برأس أرنب يحمل عصا طويلة لسبر أعماق النهر، لا يستعملها إلا ابتداء من الساعة الثامنة، أي عند الاقتراب من منابع الغرب. ويمثل المعبود "حورس" ريّس الزورق الذي يرأس المعبود "حاكيه-اواريس Haké-Oéris" الرفيق المخلص للشمس. أما الربّان الذي يمسك بالدفة فهو الإله "هو Hoou"، علاوة على المعبودة "نب-وا Néb-Wa" (سيدة الزورق) التي أجهل الدور الذي تلعبه، وأخيراً الإله الحارس الأعلى للمدار. وعلى ضفتي النهر نرى الآلهة أو الأرواح المهيمنة على كل ساعة من ساعات النهار وهي تتعبد الإله الشمس عند مروره، وتردد أسماءه وصفاته المجازية. وفي الساعة الثانية تظهر أرواح الملوك، وعلى رأسهم "رمسيس الخامس" المتوفي، يتقدمون زورق الإله ليعبدون نوره. وفي الساعات الرابعة والخامسة والسادسة يشترك نفس الفرعون مع الآلهة في قتال الثعبان الضخم "ابوفيس" المختبيء في مياه المحيط. ثم يحاذي الزورق السماوي في الساعتين السابعة والثامنة مساكن السعداء، والحدائق الغنّاء التي تظللها مختلف أنواع الأشجار حيث تتنزه

الآلهة والأرواح الطاهرة. وأخيراً يقترب الإله من الغرب. عندئذ يشرع الإله "جب" في سبر أعماق النهر على الدوام، بينما تقوم الآلهة المنتشرة على الضفة بتوجيه الزورق باحتراس. ويدور الزورق حول الحوض الشاسع في الغرب ليعاود الظهور في القسم العلوي من اللوحة، أي في العالم السفلي، أو في النهر الذي يصعده من الغرب إلى الشرق. ولكن على امتداد الرحلة البحرية التي تستغرق اثنتي عشر ساعة الليلية، ومثلما يحدث بالنسبة للمراكب التي تصعد النيل، يقوم عدد ضخم من المردة المرؤوسين -يختلف عددهم من ساعة إلى أخرى- بشد زورق الشمس دائماً بالحبال. ثم يتفرق موكب الإله الكبير، ولا يبقى من طاقم الزورق سوى الربّان الذي ينتصب جامداً في مدخل ناووس الإله الذي تقوم بتعزيته ومواساته المعبودة "تيمي Thméi" (رمز الحقيقة والعدالة) التي تهيمن على جهنم، أو على العالم السفلي.

وقد دُونت النصوص الهيروغليفية فوق كل شخص، وفي مقدمة كل منظر من المناظر لتحديد أسمائها ومواضيعها، وإلى أي ساعة من ساعات الليل أو النهار تنتسب هذة اللوحات الرمزية. وقد قمت شخصياً بنسخ اللوحات والنصوص.

وعلى نفس تلك الأسقف خارج التكوين الذي قدمت وصفاً إجمالياً له، توجد نصوص هيروغليفية قد تكون أكثر أهمية على الرغم من تعلقها بنفس الموضوع. وهي تمثل قائمة بشروق مجموعة النجوم، وتأثيرها على كل ساعات شهور العام. وقد دُونت على النحو التالي:

- شهر "طوبه"، النصف الثاني. يهيمن "أورانوس "Orion ويؤثر على الأذن اليسرى.

- الساعة الأولى، مجموعة نجوم "أورانوس" (تؤثر) على الذراع الأيسر.

- الساعة الثانية، مجموعة نجوم "الشعرى اليمانية "Sirius (تؤثر) على القلب.

- الساعة الثالثة، بداية مجموعة نجوم "النجمتينdeux étoiles" (برج الجوزاء؟) (تؤثر) على القلب.

- الساعة الرابعة، مجموعة نجوم "النجمتين" (تؤثر) على الأذن اليسرى.

- الساعة الخامسة، نجوم "النهر fleuve" (تؤثر) على القلب.
- الساعة السادسة، رأس أو بداية "الأسد lion" (تؤثر) على القلب.
- الساعة السابعة، "السهم flèche" (يؤثر) على الأذن اليمنى.
- الساعة الثامنة، "النجوم الطويلة longues étoiles" (تؤثر) على القلب.
- الساعة التاسعة، خَدَمه الأجزاء الأمامية (لذوي الأربعة) "منته Menté" (الأسد البحري ؟) (تؤثر) على الذراع الأيسر.
- الساعة العاشرة، ذو الأربعة أرجل "منته" (الأسد البحري ؟) (يؤثر) على العين اليسرى.
- الساعة الحادية عشرة، خَدَمه "منته" (يؤثرون) على الذراع الأيسر.
- الساعة الثانية عشرة، "قدم أنثى الخنزير pied de la truie" (تؤثر) على الذراع الأيسر.

ونحن هنا بصدد "قائمة مؤثرات" مماثلة لتلك المنقوشة في "الدائرة الذهبية" الموجودة في أثر "اوسيمانديـاس"، والتي كانت تحدد لنا -على حد قول "ديودور" الصقلي- ساعات ظهور مجموعات النجوم، وتأثير كل واحدة منها. ويُعد ذلك دليلاً قاطعاً لصديقنا السيد "لوترون" على أن مصر قد عرفت علم التنجيم منذ أقدم العصور، إذ كان هذا الأمر يشغله طويلاً.

إن الترجمة التي أوردتها لتوي لإحدى القوائم الأربعة والعشرين التي تُكون سلسلة شروق النجوم مؤكدة وموثوق فيها، لاسيما الفقرات التي أدخلت عليها أسماء مجموعات النجوم المناظرة المعروفة لنا حالياً. ولما كنت أفتقر إلى مزيد من الوقت للتعمق أكثر في مطابقة بقية الأسماء، فقد اضطررت إلى ترجمة باقي النص الهيروغليفي كله ترجمة حرفية.

وبوسعك أن تتخيل مدى العناية الفائقة التي بذلتها في سبيل جمع هذه البقايا الهامة لعلم الفلك القديم الذي كان يرتبط بالضرورة بعلم التنجيم في بلد مثل مصر حيث كانت الديانة تُشكل قاعدة ثابتة لا تتزعزع ترتكز عليها كل بنية المجتمع. وفي مثل هذا النوع من النظام السياسي ينبغي على كافة العلوم أن تنقسم إلى جزئين متميزين: جزء يتعلق بالأمور المنطقية التي يُمكن رصدها

وتحليلها، ويشكل بمفرده علومنا الحالية؛ وجزء آخر يقوم على التأمل، ويربط بين العلم والمعتقدات الدينية. وهي علاقة ضرورية لا غنى عنها، خاصة في بلد مثل مصر حيث حرصت الديانة على احتواء الكون كله ودراسته داخل ميدان تخصصها لكي تصبح قوية وتحتفظ بنفوذها دائماً. وقد انطوت تلك النظرة على جوانب حسنة وأخرى سيئة مثل كافة المفاهيم الإنسانية.

وتزدان الحجرات والدهاليز التالية في مقبرة "رمسيس الخامس" بلوحات رمزية تتعلق بالمراحل المختلفة التي تمر بها الشمس من الناحية المادية، وخاصة من حيث علاقاتها الأسطورية البحتة. بيد أن تلك اللوحات لا تُشكل وحدة متصلة. لذلك فقد تم اغفالها تماماً، أو نقشها في مواضع أخرى داخل باقي المقابر الملكية. أما الحجرة التي تسبق حجرة الدفن، والتي عادة ما تُكرّس لمردة "الأمنتي" الأربعة، فتحتوي في المقابر الكاملة على مناظر تصور مثول الملك أمام القضاة الأربعة وأربعين في المحكمة الإلهية الذين يناط بهم تحديد مصير روحه. وقد غُطي جدار كامل من جدران هذه الحجرة في مقبرة "رمسيس الخامس" بصور هؤلاء القضاة المُكلفين الذين يعاونون "اوزوريس"، والتبريرات التي من المفترض أن يقدمها الملك، أو يُكلف أحداً بتقديمها نيابة عنه إلى هؤلاء القضاة الصارمين. وقد عُهد إلى كل واحد منهم بتقصي جريمة أو معصية خاصة، وإنزال العقاب بالروح الخاضعة لسلطتهم القضائية. إن هذا النص الطويل المقسم بالتالي إلى اثنتين وأربعين آية أو عمود ليس إلا مجرد "اعتراف سلبي" كما يتضح لنا من الأمثلة التالية:

- أيها الإله (كذا) ! الملك، شمس العدالة، الذي يؤيده "آمون"، لم يرتكب أي أذى قط.
- أيها الإله ! ابن الشمس، "رمسيس"، لم يشتم أو يسب بتاتاً.
- أيها الإله ! الملك، الشمس الحكيمة، ...الخ، لم يسكر قط.
- أيها الإله ! ابن الشمس، "رمسيس"، لم يتكاسل أبداً.
- أيها الإله ! الملك، الشمس الحكيمة، ...الخ، لم يستول على الخيرات المكرسة إلى الآلهة.
- أيها الإله ! ابن الشمس، "رمسيس"، لم ينطق كذباً أو بهتاناً أبداً.
- أيها الإله ! الملك، الشمس، ...الخ، لم يكن فاجراً داعراً أبداً

(النص الحرفي: لم يزن ولم يفسق مع أي امرأة ولا مع أي رجل).
- أيها الإله ! ابن الشمس، "رمسيس"، لم يتدنس بالفسق.
- أيها الإله ! الملك، الشمس، ...الخ، لم يُشح بوجهه عند سماع قول الحق.
- أيها الإله ! ابن الشمس، "رمسيس"، لم يثرثر في الكلام بدون فائدة.
- أيها الإله ! الملك، الشمس، ...الخ، لم تدفعه الحاجة إلى التهام قلبه (بمعنى الندم على ارتكاب فاحشة).

وأخيراً نرى إلى جانب هذا النص العجيب داخل مقبرة "رمسيس ميآمون"، صوراً أكثر غرابة تتعلق بالمعاصي الكبرى. ولم يعد يبقى منها سوى ثلاثة كبائر فقط: الفسق والتكاسل والجشع. وقد صُورت على هيئة آدمية تنتهي برؤوس رمزية لتَيْس وسلحفاة وتمساح.

أما حجرة الدفن التي تُعد آخر وأكبر حجرة في مقبرة "رمسيس الخامس" فتفوق باقي الحجرات من حيث المساحة والعظمة. وقد احتفظ سقفها الرائع المنحوت بعناية على شكل نصف إسطواني بكافة نقوشه وألوانه الزاهية. وينبغي أن يكون المرء معتاداً على معجزات حفظ الآثار المصرية لكي يقتنع بأن تلك الألوان الهشة قد قاومت ما يناهز ثلاثين قرناً من الزمان. وقد كُررت هنا ولكن بحجم أكبر، وبمزيد من التفاصيل في بعض المواضع، المناظر التي تصور رحلة الشمس عبر العالمين العلوي والسفلي على امتداد ساعات اليوم الفلكي. ويزين هذا التكوين أسقف الحجرات الأولى في المقبرة، كما يمثل الموضوع العام لكل زخارف المقابر الملكية.

وتغطي جدران هذه الحجرة الفسيحة من أسفلها إلى أعلاها نقوش ملونة كما في باقي المقبرة، والآف من الأحرف الهيروغليفية التي تُكون النصوص التفسيرية. كما تمثل الشمس موضوع هذه المناظر التي تحتوي على عدد كبير منها في هيئة أشكال رمزية على كل نظرية نشأة الكون، ومباديء الفيزياء العامة عند قدماء المصريين. وستقودنا الدراسة المستفيضة وحدها إلى التوصل إلى المغزى الكامن وراء هذه التكوينات التي توليت بنفسي مهمة نسخها كلها، وإضافة جميع النصوص التفسيرية المصاحبة لها. وهي تمثل التصوف في أعلى درجاته. بيد أنه خلف تلك المظاهر الرمزية

تستتر بكل تأكيد حقائق قديمة قِدَم العالم، نعتقد نحن أنها وليدة عصرنا.

وقد أغفلت في ثنايا ذلك الوصف السريع على قدر الإمكان لواحدة فقط من المقابر الملكية، ذكر النقوش التي تغطي الأعمدة التي تستند عليها الحجرات المختلفة. وهي تصور تقديم الابتهالات والتضرعات إلى آلهة مصر، وعلى وجه الخصوص إلى تلك التي تهيمن على مصائر الأرواح: "بتاح-سكر" و"اتوم" والمعبودة "ميريزوشارMérésochar" و"اوزوريس" و"انوبيس".

أما باقي مقابر ملوك "طيبه" الواقعة في وادي الملوك وفي الوادي الغربي فتزدان إما بمجموع اللوحات التي أشرت إليها آنفاً، وإما بأجزاء منها فقط. ويتوقف ذلك على حجم كل مقبرة وعلى درجة اتمام العمل فيها.

علماً بأن المقابر الملكية التي تم الانتهاء منها تماماً نادرة جداً، وهي: مقبرة "امنحتب الثالث" (ممنون) التي تهدمت كل زخارفها تقريباً، ومقابر "رمسيس ميآمون"، و"رمسيس الخامس"، و"رمسيس الأكبر" على الأرجح، وأخيراً مقبرة الملكة "تاوزر Thaosar". ولم يتسع الوقت لتكملة نقوش باقي المقابر الأخرى: إذ اقتصر بعضها على الحجرة الأولى فقط التي تحولت إلى حجرة دفن كبيرة. بينما امتد بعضها الآخر ليشمل حجرتين. بل ينتهي عدد منها فجأة بمكان ضيق نُحت على جناح السرعة، وزُخرف بخشونة، ووُضع فيه تابوت الملك المنحوت بالكاد. ويُعد ذلك حجة دامغة على ما أشرت إليه في البداية إلى أن هؤلاء الملوك كانوا يشرعون في نحت مقابرهم بمجرد جلوسهم على العرش. أما إذا فاجأتهم المنية قبل اتمام المقبرة فكانت تظل ناقصة بعد توقف العمل بها. وهكذا يمكننا بكل تأكيد استنتاج طول فترة حكم كل ملك من الملوك المدفونين في وادي الملوك من خلال تقييم درجة الانتهاء من أعمال مقبرته. وفي هذا الصدد تجدر بنا ملاحظة أن فترة حكم كل من "امنحتب الثالث" و"رمسيس الأكبر" و"رمسيس الخامس" تتفق بالفعل مع ما ذكره الكاهن المصري "مانيتون Manéthon" في قائمته الملكية من أن كل واحد من هؤلاء الملوك الثلاثة قد تبوأ العرش لمدة تناهز الثلاثين عام.

وأنتقل الآن إلى الحديث عن بعض الخصوصيات التي ينفرد بها عدد من المقابر الملكية الأخرى.

إذ تزدان بعض جدران مقبرة "امنحتب الثالث" (ممنون) بنقوش بسيطة، ولكن تم تنفيذها برقة وعناية فائقة. وماتزال الحجرة الكبيرة تحتفظ بجزء من المناظر التي تصور رحلة الشمس في العالمين العلوي والسفلي، والتي نُقشت على الجدران على هيئة بردية هائلة مفتوحة. وقد خُطت نصوصها بالأحرف الهيروغليفية المُبَسطة التي تشبه تقريباً الخط الهيراطيقي. ويحتوي المتحف الملكي على نصوص طقسية مدونة بنفس هذا الخط الذي يمثل مرحلة انتقالية.

وقد قام أحد علماء الحملة الفرنسية باكتشاف مقبرة هذا الفرعون الشهير في الوادي الغربي. ومن المرجح أن جميع ملوك النصف الأول من الأسرة الثامنة عشرة يرقدون في نفس هذا الوادي، حيث يتعين علينا البحث عن مقابر كل من "امنحتب الأول" و"امنحتب الثاني" والملوك التحامسة الأربعة. ويتطلب اكتشاف تلك المقابر إزاحة الرمال ورفع الأنقاض الهائلة التي تغطي سفح الصخور الضخمة التي نُقرت تلك المقابر في أحشائها. وربما كان هذا الوادي يأوى المثوى الأخير لأقدم ملوك "طيبه". ومما يسمح لي باستنتاج ذلك هو عثوري في أكثر أنحائه النائية على مقبرة ملكية ثانية ذات طابع عريق جداً، تحمل اسم فرعون طيبي يُدعى "سخاي Skhai"، لا ينتسب قط إلى الأسرات الطيبيه الأربعة: السابعة عشرة، والثامنة عشرة، والتاسعة عشرة، والعشرين.

وقد أدهشنا في وادي الملوك، كما أدهش جميع الرحالة الذين سبقونا، نضارة الألوان ورقة نقوش مقبرة "مرينبتاح الأول". وينتحل هذا الملك في نصوصه ألقاب "نوبيي Noubéi"، و"اتوتي Athothéi"، و"اموني Amonéi"، كما يتخذ في مقبرته اسم "اوزيري Ousiréi". بيد أن التلف قد نشب أظافره في تلك المقبرة يوماً بعد يوم: فتصدعت الأعمدة وتفتت، وانهالت الأسقف، وتقشرت النقوش. وقد قمت بنسخ وتلوين أجمل لوحاتها لإعطاء فكرة دقيقة عن عظمتها في اوروبا. كما رسمت مجموعة المناظر التي تصور الشعوب في إحدى نقوش صالة الأعمدة الأولى. وقد كنت أعتقد في باديء الأمر، ومن خلال الصور المشوهة التي نُشرت في انجلترا، أن

هذة الشعوب الأربعة المختلفة الأعراق والتي يقودها الإله "حورس" ممسكاً في يده بعصا الراع، إنما تُجسد الأمم الخاضعة لنفوذ الفرعون "مرينبتاح". بيد أن دراسة النصوص التفسيرية أوضحت لي أن لهذه اللوحة مغزى عام. إذ تنتسب إلى الساعة الثالثة من ساعات النهار، عندما تحتدم أشعة الشمس وتدفيء كافة البقاع المسكونة على وجه الأرض. وتشير النصوص إلى تصوير سكان مصر، وكذا سكان البقاع الأجنبية. وبالتالي تنبسط أمام أعيننا صورة لمختلف الأجناس البشرية المعروفة للمصريين في ذلك الحين، وكذا التوزيعات الجغرافية والإثنوغرافية الكبيرة الشائعة خلال ذلك العهد القديم.

أما الرجال الذين يتبعون راع الشعوب "حورس" فيبلغ عددهم إثني عشر رجلاً، وإن كانوا ينتسبون إلى أربعة أعراق مختلفة. ويتميز الثلاثة الأوائل (الذين يأتون خلف الإله مباشرة) ببشرة حمراء قاتمة، وجسم مُتَّسق، وملامح عذبة، وأنف أقني بعض الشيء، وشعر طويل مُضفر، وملابس بيضاء. كما يُشار إليهم في النص باسم [روت-ان-نرومه ROT-EN-NEROME، سلالة الرجال]، الرجال بمعنى الكلمة، أي المصريين.

وتختلف هيئة الرجال الثلاثة التاليين: بشرة بيضاء تميل إلى الصفرة، وأنف أقني بشدة، ولحية سوداء كثيفة ومدببة الشكل، وملابس قصيرة متعددة الألوان. ويُطلق عليهم اسم "ناموNAMOU".

أما الرجال الثلاثة الذين يلونهم فهم زنوج بكل تأكيد، ويُطلق عليهم بصورة عامة اسم "ناحاسي NAHASI".

ويحمل الرجال الثلاثة الأواخر اسم "تامحو TAMHOU"، ويتميزون ببشرة بيضاء وردية، وأنف مستقيم أو متقوس قليلاً، وعيون زرقاء، ولحية شقراء، وقوام فارع، ويرتدون جلود أبقار تحتفظ بشعورها. وهم قوم همجيون متخلفون، يضعون وشماً على مختلف أعضاء أجسامهم.

وقد سارعت بالبحث عن لوحات مماثلة في المقابر الملكية الأخرى، واهتديت بالفعل إلى العديد منها. وقد تيقنت من خلال الاختلافات التي لاحظتها أن تلك اللوحات كانت تصور [سكان أنحاء العالم الأربعة] وفقاً للتقسيم الجغرافي المتبع في مصر حينئذ، أي: (١) سكان مصر التي تكون بمفردها جزءاً من أجزاء العالم،

وفقاً للتواضع الشديد الذي كانت تتحلى به الشعوب القديمة.
(٢) الأسيويون. (٣) سكان إفريقية، أي الزنوج. (٤) وأخيراً (يغمرني الخجل في البوح بذلك لأن سلالتنا هي الأخيرة والأكثر همجية بين باقي السلالات) الأوروبيون الذين كانوا يظهرون بمظهر غير لائق في العالم خلال تلك الأحقاب القديمة. ونحن نقصد هنا كافة الشعوب ذات العرق والبشرة البيضاء، سواء من سكان اوروبا أو من سكان آسيا التي كانت مسقط رأسهم.

ومما يؤيد صحة هذا التفسير هو العثور في نصوص باقي المقابر على نفس الأسماء النوعية مدونة دائماً بنفس الترتيب. وإذا كان المصريون والإفريقيون يُصَورون بنفس الطريقة، وهو أمر طبيعي جداً، فإن صور الـ"تامو" (الأسيويين) والـ"تامحو" (الأجناس الأوروبية) تحتوي على اختلافات هامة وعجيبة.

وتطالعنا مناظر مقبرة "مرينبتاح الأول" بصورة شخصين أحدهما عربي والآخر عبراني يرتديان ثياباً بسيطة للغاية. بينما يمثل قارة آسيا في مناظر مقبرتي "رمسيس ميآمون" و"مرينبتاح الثاني" ثلاثة أشخاص يتميزون ببشرة سمراء، وأنف أقني، وعيون سوداء، ولحية كثيفة، ويرتدون ثياباً فخمة. ومن البديهي أن المقبرة الأولى تصور لنا "الآشوريين" بملابسهم الوثيرة حتى في أدق تفاصيلها، والتي تشبه تماماً ملابس الأشخاص المرسومين على الاسطوانات الآشورية. بينما تصور لنا المقبرة الثانية أهل "ميدس Mèdes"، أو السكان الأصليين لبعض أجزاء من بلاد فارس، كما نستدل من ملامحهم وملابسهم. وهكذا يُرمز إلى قارة آسيا بصورة أحد الشعوب التي كانت تسكنها على السواء. وينطبق نفس هذا الوضع على أجدادنا الأوروبيين القدماء "تامحو". فقد تختلف أحياناً ثيابهم، وكثافة شعورهم، وزينتهم المتنوعة؛ إلا أن بشرتهم البيضاء، وعيونهم الزرقاء، ولحاهم تجعل منهم سلالة خاصة ومتميزة. وقد قمت بنسخ وتلوين تلك اللوحات الإثنوغرافية الفريدة. ولم أكن أتوقع إطلاقاً عند قدومي إلى وادي الملوك العثور على نقوش تاريخية تصور سكان اوروبا البدائيين. وعلى أية حال ينبعث من تلك النقوش شعور بالإطراء والتعزية، إذ تجعلنا نقيس مدى الخطى الحثيثة التي قطعناها على درب التقدم منذ ذلك الحين.

وقد قمنا برفع الأنقاض المتراكمة فوق مقبرة "رمسيس الأول"،

والد "مرينبتاح الأول" المُسمى "اوزيري Ousiréi". وتتكون من ممرين طويلين خاليين من الزخارف، يفضيان إلى حجرة منقوشة في حالة رائعة من الحفظ تحتوي على تابوت الملك من حجر الجرانيت المزدان بالنقوش فقط. وتُبرز بساطة الأب بذخ ابنه الذي قام بنحت مقبرة فخمة على بعد بضعة أقدام من هذا المكان.

وقد كنت أرغب بشدة في العثور في وادي الملوك على مقبرة "سيزوستريس" الذي يُعد من أشهر الرعامسة. وقد وجدتها بالفعل: فهي ثالث مقبرة على يمين الوادي الرئيسي. وقد تعرضت لتخريب الأيدي الهمجية، وللتأثير المُدَمر لسيول الأمطار التي طمرتها حتى ارتفاع أسقفها تقريباً. وقد قمنا بحفر ممر ضيق وسط شظايا الأحجار التي تملأ هذه المقبرة الهامة، لنتمكن من بلوغ الحجرة الأولى زحفاً على البطون، وسط درجة حرارة عالية جداً. وقد شُيدت هذه المقبرة على مساحة واسعة، وزُخرفت بنقوش رائعة، كما نستنتج من البقايا التي لا تزال قائمة. وقد تقودنا عمليات التنقيب الواسعة إلى اكتشاف تابوت ذلك البطل الفاخ الشهير. ولكننا لا نأمل في العثور على المومياء الملكية بعد أن انتُهكت حرمة هذه المقبرة، وتعرضت للسلب والنهب في سالف الزمان، سواء على أيدي الفرس، أو الباحثين عن الكنوز.

وعلى مقربة من تلك المقبرة الموقرة، يرقد ابن "سيزوستريس" الذي كان ينتحل لقب "مرينبتاح الثاني" في نصوصه الملكية. وهي مقبرة رائعة لم يتسع الوقت لتكملتها. وقد عثرت فيها داخل سُمْك جدار حجرة منفصلة على مقصورة كرسها لروح أبيه "رمسيس الأكبر".

كما تتميز مقبرة "مرينبتاح الثالث" الواقعة في آخر الوادي الرئيسي بعدم اكتمالها. إذ تم الإنتهاء من تنفيذ النقوش الأولى برقة وعناية فائقة، في حين استُخدم المداد الأحمر فقط في تخطيط زخارف باقي المقبرة التي تتكون من ثلاثة دهاليز طويلة وحجرتين. وتطالعنا أخيراً أنقاض تابوت الفرعون من الجرانيت داخل حجرة ضيقة تغطي جدرانها صور ركيكة لبعض الآلهة رُسمت في عجلة وبدون إتقان.

وربما لم يُعر خليفته "رعميري Rhamerri" اهتماماً كبيراً بمثواه الأخير. فبدلاً من أن يقوم بنحت مقبرة له مثل أجداده، رأى

أنه من الأسهل الاستيلاء على المقبرة المجاورة لمقبرة أبيه. وقد هدتني دراسة القبر الذي اغتصبه إلى نتائج على جانب كبير من الأهمية، تتعلق بتسلسل ملوك الأسرة الثامنة عشرة.

إذ تسبب سقوط طبقة الجص التي استخدمها "رعميري" في اخفاء النقوش الأصلية لبعض أجزاء المقبرة التي قام باغتصابها، إلى إبراز نصوص ملكة تُدعى "تاوزر Thaoser" مدونة أعلى الباب الرئيسي. كما أدى سقوط طبقة الطلاء المستخدمة في اخفاء المناظر الأولى الداخلية إلى إزاحة الستار عن لوحات تصور نفس هذة الملكة تقدم القرابين إلى الآلهة، وتتلقى منها نفس الوعود تماماً مثل الملوك الفراعنة. ويصبح من البديهي إذاً أننا بصدد مقبرة كُرست لدفن جثمان ملكة قد مارست بنفسها السلطة العليا؛ نظراً لأن زوجها -على الرغم من انتحاله للقب ملك- لا يظهر إلا خلفها في هذة السلسلة من اللوحات؛ بل تستحوذ الملكة بمفردها على أهمها. وكان هذا الملك الشكلي يُدعى "مينيفتاح-سيفتاحMénephtha-Siphtha".

وقد سبق أن عثرت في جبل "سلسلة" على نقوش لهذا الأمير الذي أكمل بعد الملك "حورس" زخرفة المعبد الكبير الموجود في الحجر. لذلك فقد استنتجت أن الملكة "تاوزر" هي ابنة الملك "حورس" التي خلفته على العرش نظراً لكونها الوريثة الوحيدة في السن الشرعية لممارسة الحكم. وقد احتفظت بالسلطة لمدة طويلة، وظهرت في قائمة "مانيتون" الملكية تحت اسم الملكة "اشنشرساس Achenchersès". وقد أخطأت في "تورينو" عندما اعتقدت أن زوجة "حورس"، الملكة "تموحموت Tmauhmot"، هي ابنة هذا الأمير. وما كنت لأقع في ذلك الخطأ لو كانت نصوص الملكة زوجة "حورس" احتفظت بألقابها الأصلية. ولا يحمل "سيفتاح" لقب الملك إلا بصفته زوجاً للملكة الحاكمة؛ وهو ما حدث من قبل لزوجي الملكة "امنسي"، والدة "تحتمس الثالث".

ويقلل هذا الأمر من بشاعة اغتصاب مقبرة الملكة "تاوزر" وزوجها "سيفتاح" على يد خليفتهما الخامس أو السادس الذي لا يُكِن لهما بالفعل الاحترام الواجب تجاه الأجداد. إذ كان "رعميري" ينحدر مباشرة من نسل "رمسيس الأول"، كما كان وفقاً للقوائم الملكية على أكثر تقدير أخاً للملكة "تاوزر-اشنشراساس"، وامتداداً

مباشراً لذرية الملك "حورس" من الذكور. غير أن ذلك لا يُعد مبرراً لـ"رعميري" لإحلال صورته في كل مكان محل صورة الملكة عن طريق الحذف والإضافة، ولإلباسها خوذة وملابس وشارات خاصة بالملوك فقط دون الملكات. كما لا يُعد أيضاً مبرراً لتغطية كل خراطيش الملكة وزوجها "سيفتاح" بطبقة من الجص، ووضع خراطيشه في نفس المكان. وقد نُفذت هذة العملية على جناح السرعة نظراً لأنه بعد مسخ صورة الملكة "تاوزر" وتحويلها إلى الملك "رعميري"، لم تُتخذ الحيطة في تصحيح نص العبارات التي من المفترض أن توجهها الآلهة إلى الملكة، والتي لا تتناسب إطلاقاً -لا من حيث الشكل أو المضمون- مع الملك.

ولا مراء في أن مقبرة "رمسيس ميآمون"، خليفة "رعميري" على العرش، كانت تُعد من أكبر وأروع المقابر التي لاتزال موجودة في وادي الملوك. أما اليوم فقد بهتت الألوان الزاهية التي تغطي معظم مناظرها بسبب تأثير العوامل الزمنية والدخان والأبخرة. وتتفرع هذة المقبرة إلى ثمان حجرات صغيرة جانبية نُحتت في جدران الدهليزين الأول والثاني، وتزدان بلوحات على قدر عظيم من الأهمية، قمنا بنسخها بعناية فائقة. وتصور لنا مناظر هذه الحجرات الضيقة عملية إعداد الطعام في المطبخ، وأفخم أنواع الأثاث وأغلاها، وترسانة كاملة تضم مختلف أنواع الأسلحة والشارات العسكرية لجحافل الجيش المصري، والمراكب والقوارب الشراعية الملكية بكامل زينتها وزخارفها، وأخيراً تقويم رمزي لأشهر السنة على هيئة ست صور للنيل وست صور أخرى لمصر في هيئة آدمية على التوالي، ترمز كل صورة منها إلى أحد شهور العام وإلى المنتجات الزراعية التي تميزه بصورة خاصة. وفي إحدى هذه الغرف الجميلة، قمت بنسخ صورة العازفين على القيثار الشهيرة بألوانها، والتي لم تُنشر حتى الآن بصورة لائقة.

كفانا حديثاً الآن عن وادي الملوك، فأنا مشتاق للعودة إلى "طيبه". ومع ذلك يتعين عليّ أن أضيف أن العديد من هذه المقابر الملكية قد هُجرت منذ قرون عديدة. ولم تكن مزاراً إلا لكثير من الفضوليين القدماء الذين كانوا يظنون -مثل أمثالهم من الفضوليين المعاصرين- أن أفضل طريقة لتخليد أسمائهم إلى الأبد تتمثل في شخبطتها على النقوش واللوحات التي يشوهونها بهذة

الطريقة. ومن بين هؤلاء الحمقى نجد أولاً مصريين من جميع العصور تركوا أسماء بالخطين الهيراطيقي والديموطيقي؛ والعديد من اليونانيين القدماء نظراً لشكل الحروف التي دونوها؛ ورومانيين قدماء من عصر الجمهورية، وقد دونوا بزهو وكبرياء لقب "Romanos". ثم يأتي بعد ذلك اليونانيون والرومانيون الذين يرجعون إلى عهد الأباطرة الأوائل، ثم جمع غفير من المجهولين الذين ينتسبون إلى العصور المتأخرة سُبقت أسماؤهم وتُبعت بالعديد من أفْعَل التفضيل. علاوة على أسماء قبطية مصحوبة بابتهالات متواضعة. وأخيراً نجد أسماء الرحالة الأوروبيين الذين قادهم حب العلم، أو الحرب أو التجارة، أو
الصدفة أو التفرغ والبطالة إلى هذة المقابر المنعزلة. وقد جمعت أبرز هذه النصوص سواء من حيث الشكل أو المضمون خصيصاً من أجلك.

* * *

طيبه في ١٨ يونيو ١٨٢٩

منذ عودتي وسط أطلال "طيبه" التي تُعتبر من أعرق المدن الملكية، كرست كل وقتي لدراسة أنقاض واحد من أروع أبنيتها استحوذ على إعجابي الشديد منذ الوهلة الأولى. وقد ألممت به الآن إلماماً تاماً يفوق بكثير كل ما علقته عليه من آمال. إن الأمر يتعلق بأثر لم نتوصل بعد إلى تحديد اسمه الحقيقي بدقة؛ مما يفسح المجال أمام العديد من المجادلات والمناقشات الحادة. وقد أطلق عليه أولاً اسم "ممنونيوم Memnonium"، ثم جاء علماء الحملة الفرنسية بعد ذلك ليسموه "مقبرة اوسيمندياس Tombeau d'Osymandyas". ولا يزال بعض الرحالة يصرون على استخدام الاسم الأول الذي لا يتناسب بكل تأكيد مع ذلك الأثر، علاوة على كونه غير صحيح بالمرة. أما أنا فمن الآن وصاعداً لن أشير إلى ذلك القصر إلا باسمه المصري القديم الذي نجده مدوناً في مائة مكان، ومكرراً في نصوص الأفاريز والعتبات والنقوش البارزة التي تزينه. أما اسم

"رامسيوم Rhamesséion" الذي يحمله فيرجع إلى أن "طيبه" تُدين بتشييد ذلك القصر إلى كرم وسخاء الفرعون "رمسيس الأكبر".

تتزعزع مخيلتنا، ويتملكنا إحساس حقيقي بالهيبة عندما نتجول داخل تلك الأروقة المتهدمة وصفوف الأعمدة الرائعة. ولا سيما عندما ندرك أنها كانت مسكناً لواحد من أشهر وأفضل الأمراء الذين أنجبتهم مصر القديمة على امتداد تاريخها الطويل. لذلك فكلما أجوب ذلك القصر لا أتمالك نفسي من ذكر "سيزوستريس" بنفس مشاعر الهيبة الدينية التي كان محاطاً بها خلال العصور القديمة كلها.

لم يحتفظ "الرامسيوم" بأي جزء من أجزائه كاملاً. إلا أن ما نجا منه من همجية "الفرس" وتأثير العوامل الزمنية يكفي لترميم البناء في مجمله، واعطائنا فكرة دقيقة وواضحة عنه. ولننحي جانباً طابعه المعماري لأن ذلك لا يدخل إطلاقاً في دائرة اختصاصي. وسأكتفي بالتصريح بأن "الرامسيوم" يُعد من أرفع وأعظم الآثار الضخمة الموجودة في "طيبه". وسأقتصر على الإشارة بإيجاز إلى مواضيع النقوش البارزة الرئيسية التي تزينه، ومضمون النصوص المصاحبة لها.

وقد تسبب انهيار جزئي الصرح الأول المشيد من الحجر الرملي في اختفاء كافة النقوش التي كانت تغطي واجهتهما الخارجية. ولا يزال كتفا الباب المشيدان من كتل ضخمة من الحجر الجيري الأبيض في مكانهما. ويزدان كتفا الباب، وكذا سُمْك جزئي الصرح الذي ينتصب بينهما بنصوص ملكية ترجع إلى "رمسيس الأكبر"، وبلوحات تصور ذلك الفرعون يقدم القرابين إلى آلهة "طيبه" العظيمة: "آمون رع" و"آمون -مين"، والمعبودة "موت" والإله الشاب "خنسو"، و"بتاح" و"منتو". كما نرى الملك في بعض اللوحات الأخرى يتقبل بدوره الهبات والعطايا التي تغدقها عليه الآلهة. وفيما يلي نسوق تحليلاً للوحة الرئيسية التي قرأت فيها للمرة الأولى الاسم الحقيقي لذلك البناء.

يقدم الإله "آتوم" (الذي يمثل إحدى أشكال الإله "رع حور آختي") إلى الإله "منتو" الفرعون "رمسيس الأكبر" مرتدياً خوذته وثيابه الملكية. ويأخذه الإله "منتو" من يده قائلاً له: [تقدم، تعال إلى الدار الإلهية لرؤية وجه أبيك، رب الأرباب، الذي سيهبك عمراً مديداً لتحكم العالم وتتربع على عرش "حورس"]. وعلى مبعدة من ذلك نرى بالفعل الإله "آمون رع" العظيم جالساً يتوجه إلى فرعون قائلاً: [هذا ما يقوله "آمون رع"، رب الأرباب، الذي يسكن في "الرامسيوم" بـ"طيبه": ولدي الحبيب ونطفتي، سيد الكون، "رمسيس"! يبتهج قلبي لرؤية أعمالك الصالحة؛ لقد كرست لي ذلك البناء، فأنا أنعم عليك بحياة طاهرة تقضيها على عرش الإله "جب" (أي ممارسة السلطة الزمنية)]. لذلك فلم يعد هناك أدنى شك حول الاسم الذي ينبغي إطلاقه على ذلك الأثر.

وتشغل واجهة جزئي الصرح ناحية الفناء الأول للقصر مجموعة من اللوحات العسكرية الخاصة بما شنه الملك من غزوات. ويمكننا رؤية معظمها نظراً لأن انهيار الأجزاء العلوية للصرح قد حدث في الاتجاه المعاكس. وتأتي تلك المشاهد الحربية والنصوص المصاحبة لها مطابقة إلى حد بعيد لتلك التي تزين معبد "أبو سمبل" من الداخل، وصرح معبد الأقصر والتي تتبع "الرامسيوم" الشرقي لـ"طيبه". وبالطبع فإن كافة تلك النقوش البارزة تتعلق بنفس الحملة العسكرية التي شنها فرعون ضد شعوب آسيوية نستدل من خلال ملامحها وثيابها إلى انتمائها إلى تلك البقعة الممتدة بين نهري "دجلة" و"الفرات" من ناحية، وبين نهري "Oxus" و "Indus" من ناحية أخرى؛ أي البقعة التي نسميها اليوم بصورة غير محددة "بلاد الفرس"، والتي كانت معروفة عند قدماء المصريين باسم "شيتا" أو "شيتو". ولا يتسع لي المقام هنا لشرح الأسباب التي تدعم اعتقادي الراسخ في أن الأمر يتعلق بالشعوب التي كانت تقطن شمال-شرقي "بلاد الفرس" على وجه التحديد.

ويحمل الجزء الأيمن للصرح لوحة تصور استقبال سفراء تلك الشعوب في معسكر الملك. إذ نراهم يمثلون في حضرة "رمسيس" الذي يشبعهم تبكيتاً وتعنيفاً. وقد تفرق الجنود في المعسكر، وراحوا يأخذون قسطاً من الراحة، ويعدون أسلحتهم ويعتنون بجيادهم وأمتعتهم. كما نلمح في مقدمة المعسكر اثنين من المصريين ينهالان

بالعصي على اثنين من الأسرى لتأديبهما. ونرى في أسفل اللوحة زحف القوات المصرية، واشتباك عرباتها الحربية مع عربات العدو في أحد أطراف اللوحة.

وإلى يسار ذلك الجزء من الصرح، نرى بعض المصريين يخرجون من سلسلة من الحصون، ويسوقون أمامهم عدداً من الأسرى. وتمدنا النصوص الجدارية بأسماء تلك الحصون التي أخضعها "رمسيس الأكبر" في العام الثامن من حكمه.

وقد تهدم ما يقرب من نصف الجزء الأيمن للصرح. أما الأنقاض المتبقية فتمثل أجزاء من نقش بارز كبير يصور معركة ضارية خاضها فرعون ضد "شيتو". وبما أنه ستتاح لي الفرصة لوصف لوحة أخرى مماثلة تماماً ولكن في حالة أفضل من الحفظ، فسأمر على تلك اللوحة مرور الكرام مكتفياً بالإشارة إلى أنها تصور واحداً من كبار قادة العدو يُدعى "شيروبسيرو Schiropsiro" أو "شيروباسيرو Schiropasiro" مجروحاً وممدداً على شاطئ النهر. كما يتوجه إليه -هرباً أمام فرعون المنتصر- أحد حلفاء العدو، زعيم السلالة الدنيئة لبلاد "شيربيش Schirbèsch" أو "شيلبيش Schilbèsch". وإلى جانب المعركة تطالعنا لوحة الانتصار حيث نرى "رمسيس الأكبر" واقفاً ومعلقاً فأس القتال على كتفه، ويقبض بيده اليسرى على مجموعة من الأسرى من شعورهم. ونقرأ أعلى صورتهم: [حضرة جلالة الملك يلقي في الأسر بزعماء شعوب الجنوب والشمال].

أما صفوف الأعمدة الجانبية التي كانت تغلق الفناء الأول، فلم يعد لها وجود اليوم. وكذلك المكان الواسع الذي كان يمتد قديماً بين تلك الأروقة والصرحين فتغطيه اليوم الأنقاض الهائلة لأضخم وأروع تمثال عملاق شكلته أيدي المصريين القدماء على وجه الإطلاق. ولا تدع لنا النصوص التي تزين ذلك التمثال مجالاً للشك في أنه كان لـ"رمسيس الأكبر". فقد نحت ذلك الفرعون الشهير نصوصه الملكية بالأحرف الهيروغليفية الكبيرة والجميلة أعلى الذراع، وعلى الواجهات الأربعة للقاعدة. ولا يقل ارتفاع ذلك التمثال الجالس عن ثلاثة وخمسين قدماً؛ بخلاف قاعدته المنحوتة من كتلة حجرية أخرى يبلغ طولها نحو ثلاثة وثلاثين قدماً، ويُقدر ارتفاعها بستة أقدام. ولنا أن نتعجب في نفس الوقت من قوة

الشعب الذي نصب ذلك التمثال العملاق الرائع، ومن وحشية الهمجيين الذين هدموه بنفس القدر من العناية والمهارة.

وقد كان ذلك التمثال منتصباً أمام الجزء الأيسر للصرح الثاني أو الجدار المتهدم حتى المستوى الحالي للأرض. وقد أكدت لي الحفائر التي أجريتها أن ذلك الجزء أيضاً كان مزداناً بلوحات حربية. كما عثرت على الجزء السفلي للوحة تصور الملك عقب انتهاء معركة ضارية يتلقى من كبار قادته إحصاء بعدد الأعداء الذين قُتلوا في ساحة الوغى، والذين كُدست أيديهم المبتورة أمام قدمي الملك. وعلى مبعدة من ذلك كان هناك نص خاص بالغزوة التي شنها ضد "شيتو". وقد جعلتني العناصر القليلة المتبقية من الأسطر الأخيرة والتي تعاني العديد من التشققات، أتحسر بشدة على تدمير ذلك الأثر التاريخي الذي كان يعج بأسماء الأشخاص والأعلام. ويتعلق الأمر على وجه الخصوص بالأمجاد التي أغدقها الملك على اثنين من كبار القادة يدعيان "ايروشتوازيرو Iroschtoasiro" و"بشورسنموزيرو Peschorsenmausiro". وقد قام البطل الفاتح على الأرجح بتعيينهما حاكمين لتلك البلاد عقب إخضاعها.

ويحتفظ الجزء الأيمن للصرح الثاني بمعظم نقوشه البارزة على يمين الداخل أسفل رواق الفناء الثاني. وتصور لنا اللوحة معركة تدور رحاها على شاطيء نهر، بالقرب من مدينة يحوطها ذراعا ذلك النهر، وتحمل جدرانها اسم: [مدينة "واتيش Watsch" أو "باتيش Batsch" (الحرف الأول مشكوك فيه)]. كما نرى في الطرف الحالي لتلك اللوحة إلى يسار الناظر، الملك "رمسيس" فوق عجلته الحربية المندفعة وسط ساحة المعركة حيث تتناثر جثث القتلى والمحتضرين. ويتعقب الملك أعداءه الهاربين، ويرميهم بالسهام. وخلف عربة البطل المصري نرى جثث الأعداء المتراكمة؛ وسقوط أحد قادتهم ويدعى "توروكامي Torokami" من فوق عجلته الحربية المهشمة، وقد أصابه سهم في كتفه. وتحت سنابك خيل الملك نرى جثة "توروكاتو Torokato"، قائد جنود بلاد "ناكبيسو Nakbésou"، وكذا جثث العديد من المحاربين المرموقين ممددة في أوضاع مختلفة. وينسحب "شيروبازيرو Schiropasiro"، كبير زعماء العدو إلى شاطيء النهر؛ بينما يسارع كل من "تيوتورو Tiotouro" و"سيماروزي Simairosi" بالفرار ناحية السهل، ويتجهان صوب

المدينة بعد أن أصابتهما سهام الملك. ويلوذ قادة آخرون بالنهر، حيث يسقط كذلك القائد "كروبشاتوزي Krobschatosi" بجياده مجروحاً. وأخيراً يتوجه الكثيرون منهم من أمثال "توتارو Thotaro" و"مافريما Maférima" ليلفظوا أنفاسهم على شاطيء النهر أمام المدينة. في حين ينجح آخرون منهم مثل "سيبافيرو Sipaphéro" في عبور النهر، والاستنجاد بحشد غفير من سكان المدينة الواقعة على الضفة المقابلة، والذين هرولوا لمعرفة نتيجة المعركة. وفي وسط ذلك الجمع الغفير من الناس، نلمح مجموعة منهم يقدمون إسعافات سريعة لقائد انتشلوه من النهر حيث كان مشرفاً على الغرق. ونراهم يعلقونه من قدميه ويدلون برأسه إلى أسفل حتي يتقيأ كمية المياه التي ابتلعها، ويجهدون في إعادته إلى الحياة من جديد. وكان شعره الطويل ينضح بالماء. إلا أن تلك الإسعافات لم تؤد إلى أية نتيجة كما يتضح لنا من ملامح وجوه الملتفين حوله وحركاتهم. ونقرأ في أعلى ذلك الرسم: [زعيم السلالة الدنيئة لبلاد "شيرباش" وقد ترك جنوده، وفر هارباً أمام الملك ناحية النهر].

ثم نلاحظ أخيراً بوادر تغير تدريجي في معنويات الجماهير التي غادرت المدينة عن طريق إلقاء جسر فوق إحدى أذرع النهر القصيرة. إذ نرى شخصاً يخطب في المحيطين به لتشجيعهم على الاستسلام والخضوع لسلطة "رمسيس الأكبر". وفوق ذراع ذلك الخطيب نقرأ بالفعل نصاً يبدأ على النحو التالي: [إنه يمجد عظمة الإله المنعم، لأنه قال...]. وقد اختفى بقية النص.

وقد كنت أرغب عن طريق الخوض في غمار كل تلك التفاصيل في اعطائك فكرة عن النقوش البارزة التاريخية التي تزين آثار مصر الكبيرة، وعن تلك التكوينات الهائلة التي يحلو لي تسميتها "لوحات هوميرية" (نسبة إلى الشاعر هوميروس)، أو "نقوش بطولية" لأنها تفيض بالحماسة وبالمشاعر النبيلة التي تتفجر داخلنا عند قراءة وصف معارك "الإلياذة". علماً بأننا إذا فحصنا كل جزء من مكونات تلك اللوحات على حدة فلابد أن نجده مشوباً بالعيوب: سواء من حيث الرسم المنظوري، أو من حيث أبعاده ونسبه مقارنة بأبعاد الأجزاء الأخرى المجاورة. بيد أن تلك العيوب التفصيلية الطفيفة سرعان ما تتلاشى عند تقييم اللوحة ككل. بل إنني أتجاسر

قائلاً بأن مشاهد المعارك المرسومة على أجمل الآنية اليونانية تعاني كذلك من نفس تلك العيوب بالتحديد (إن صح لنا اعتبار ذلك عيوباً).

وإلى أعلى ذلك الجدار الكبير نجد نقشاً بارزاً طويلاً قد اختفت بدايته ونهايته، يصور احتفال "رمسيس الأكبر" بأعياد إله "طيبه" العظيم، "حورس" المزدوج أو "آمون" خالق الكون. وبما أن الفرصة ستسنح لي فيما بعد بوصف احتفال آخر مماثل موجود في قصر "مدينة هابو" في حالة رائعة من الحفظ، فسأكتفي هنا بالإشارة إلى عثوري على صور مجموعة من تماثيل الملوك المشاركين في موكب الاحتفال، والذين تم ترتيبهم ترتيباً زمنياً حسب تاريخ حكم كل واحد منهم. وهم: (١) نعرمر (أول الملوك المصريين). (٢) اسم مجهول يعود إلى عصر ما قبل الأسرة السابعة عشرة. (٣) أحمس. (٤) أمنحتب الأول. (٥) تحتمس الأول. (٦) تحتمس الثالث. (٧) أمنحتب الثاني. (٨) تحتمس الرابع. (٩) أمنحتب الثالث. (١٠) حورس. (١١) رمسيس الأول. (١٢) مرينبتاح الأول. (١٣) رمسيس الأكبر. وتقتصر تلك السلسلة على أسماء الأجداد الذكور الذي ينحدر "رمسيس الأكبر" من صلبهم مباشرة. لذلك السبب فقد أسقِط اسم "تحتمس الثاني" لأن "تحتمس الثالث" كان ابناً لإحدى بنات "تحتمس الأول".

وتشغل الواجهات الثلاثة للأعمدة التي تشكل الرواق القائم أمام الصرح العديد من النقوش البارزة التي تصور تعبد الملك "رمسيس" لآلهة "طيبه" الرئيسية. أما الواجهة الرابعة لكل عمود فتحمل صورة عملاقة للملك يبلغ ارتفاعها نحو ثلاثين قدماً. وفيما يلي نسوق ترجمة للنصوص التي في حالة جيدة من الحفظ من بين الأربعة التي لا تزال موجودة:

[أنشأ الإله المنعم تلك الأبنية الضخمة، وشيدها بسواعده، هو، الملك الشمس، الحارس للعدالة، الذي اختبره الإله "رع حور آختي"، ابن الشمس، صديق "آمون"، "رمسيس"، محبوب "آمون رع".

[الإله المنعم، المهيمن على عالمه، أسبغ عليه بنعمه وخيراته، هو، الملك الشمس، ...الخ.

[محبوب "آمون رع"، الإله المنعم، أعظم المنتصرين، أخضع كافة الأقطار لسيطرته، هو، الملك الشمس، ...الخ، محبوب الإلهة

"موت"].

وهكذا تُذكرنا تلك النصوص بكل ما كانت العصور القديمة تمتدحه في شخص "سيزوستريس": أي الأعمال الضخمة التي أمر بتنفيذها، والقوانين الحكيمة التي سنها، والتوسعات الحربية التي أحرزها.

وتجدر بنا ملاحظة اللوحات الدينية الغنية التي نُقشت على الركائز المزدانة بتماثيل عملاقة، وكذا الأعمدة التي تشكل الفناء الثاني للقصر من الناحية اليمنى. أما الركائز وصفوف الأعمدة التي تشكل الجزء الأيسر للفناء فقد تهدمت تماماً.

ولن أسترسل في وصف النقوش البارزة الهامة التي تغطي الجزء الأيسر لجدار الباحة المعمدة. بل سأسارع بدخول بهو الأساطين حيث نجد قرابة ثلاثين عموداً سليماً لم يُمس. ومن شأن تلك الأعمدة الأنيقة والمهيبة أن تسحر ألباب أشد الناس تعصباً لفن العمارة اليوناني والروماني. أما عن الغرض من وراء تشييد ذلك البهو الرائع، وتوزيع أعمدته، وأشكال التيجان التي تزينها فسأترك الحديث حول تلك النقاط للإهداء المنحوت بالخط الهيروغليفي الجميل على العتبات اليسرى باسم مؤسس ذلك البهو نفسه:

["حورس" القوي، صديق الحقيقة، سيد العالمين العلوي والسفلي، المدافع عن مصر، المهيمن على الأقطار الأجنبية، "حورس" المتألق، الحائز على الأوسمة، أعظم المنتصرين، الملك سيد الكون (الشمس التي تحرس العدالة، الذي اختبره الإله "رع حور آختي")، ابن الشمس، سيد التيجان، محبوب "آمون"، "رمسيس"، قد أمر بإنشاء تلك الأبنية تمجيداً لوالده "آمون رع"، رب الأرباب؛ واستخدم الحجر الرملي الأبيض الجميل في تشييد "صالة الاجتماعات الفسيحة" التي ترتكز على أعمدة ضخمة ذات تيجان تشبه الأزهار اليانعة، وإلى جوارها أعمدة أخرى أصغر حجماً ذات تيجان تشبه براعم زهرة اللوتس. وهو يكرس ذلك البهو لرب الأرباب للاحتفال بعيده السعيد. هذا ما فعله الملك أثناء حياته].

وعلى هذا النحو يتضح لنا أن بهو الأساطين الذي يُضفي على المعابد المصرية طابعاً خاصاً ومميزاً كان يهدف في الأصل إلى عقد مجالس واجتماعات ضخمة ذات طابع سياسي أو ديني. وقد كنت

مقتنعاً بالفعل بذلك الأمر قبل اكتشاف ذلك الإهداء العجيب: إذ سبق أن لاحظت أن الحرف الهيروغليفي الذي يُعبر عن فكرة "مجلس أو اجتماع" والمنحوت بالحجم الكبير فوق المسلات المصرية التي تزدان بها مدينة "روما" إنما يصور بالفعل بهو أساطين مزود بمقاعد مصفوفة أسفل الأعمدة.

ويطالعنا نقش بارز على يمين الداخل في بهو أساطين "الرامسيوم" يصور "تاوي Taouai"، الأم الملكية، والدة البطل الفاتح. كما يحتوي "الكابيتول" في "روما" على تمثال رائع لتلك الأميرة، كنت قد قمت بنسخ النصوص التي تزينه، والتي كانت تعاني من بعض التشققات جعلت الشك يتسلل إلى نفسي. إلا أن النقش البارز المنبسط الآن أمام عيني قد أزال كل الشكوك تماماً.

وعلى نفس الناحية نجد لوحة تاريخية كبيرة قام كل الرحالة الذين زاروا مصر بوصفها ونسخها. بيد أن الرسم الدقيق الوحيد الذي يمكننا الإشارة إليه هو الذي قام بنشره السيد "كاليو Cailliaud". وقد قمت بدوري برسم تلك اللوحة، ونسخ نصوصها الهامة بيدي على الرغم من عدم اكتمالها في العديد من المواضع. وتنقسم تلك اللوحة الحربية إلى قسمين رئيسيين. إذ نرى الملك "رمسيس" يهزم شعوب "شيتو" ويفرق شملهم في سهل واسع وممتد. كما ينطلق في ملاحقة العدو الابنان الرابع والخامس لـ"رمسيس" وهما: "مندو-حي-شوبش Mandou-hi-schopsch" و"شا-حم-كيميه Scha-hem-kémé". ويتوجه الأعداء المدحورون صوب مدينة تقع على الطرف الأيمن للوحة. عندئذ نرى الأبناء السابع والثامن والتاسع والعاشر للملك -وأسماؤهم: "ميآمون Méiamoun" و"امنحمواAmenhemwal" و"نوبتي Noubtéi" و"ستبنرع Sétpanré"- يرابطون تحت أسوار المدينة المحصنة. ويُظهر الأعداء المحاصَرون مقاومة شديدة. إلا أن المصريين ينجحون في وضع السلالم تمهيداً لتسلق الأسوار. ومن دواعي الأسف أن الجزء الأول من اسم تلك المدينة المحاصَرة قد اختفى، ولا يبقى منه سوى مقطع واحد: "...عبورو apouro...".

كما نجد لوحات دينية متقنة على جذوع الأعمدة الكبيرة والصغيرة في بهو الأساطين. وهي تصور جميع الآلهة المصرية الرئيسية على التوالي، لا سيما تلك التي ترتبط عبادتها بصورة

خاصة بإقليم "طيبه"، وهي تبشر "رمسيس" بالنعم التي تنوي إغداقها عليه في مقابل القرابين الثمينة التي يقدمها لها. ثم تعاود الآلهة الحامية للقصر الظهور في مقدمة اللوحة، كما سبق أن رأينا في نقوش ركائز وأعمدة الفناء الثاني. ولما كان هذا البناء الرائع مكرساً بصورة خاصة لها، نراها تنتحل دائماً لقب [القاطنة] أو [التي تقطن في "الرامسيوم" بـ"طيبه"]. ويحتل الإله "آمون رع" مركز الصدارة، ويظهر على هيئة رب الأرباب أو على هيئة خالق الكون. ثم تأتي من بعده الآلهة "بتاح" و"رع حور آختي" و"اتوم" و"هو" و"جب"، وأخيراً المعبودتان "سخمت" و"حتحور". ويسبغ كل إله من تلك الآلهة على فرعون نعمة خاصة من نعمه. وفيما يلي نسوق بعض مقتطفات من صيغ المنح والعطاء المدونة في نصوص الأروقة وصفوف أعمدة "الرامسيوم":

[أمن عليك بأن يدوم بيتك ويُعْمر مثل السماء] (آمون رع).

[أمنحك عمراً مديداً لتحكم مصر] (ايزيس).

[أهبك السيطرة والهيمنة على كافة الأقطار] (آمون رع).

[أخصك بالصلاحيات الملكية للشمس] (تحوت).

[أكتب لك أن تكون منتصراً مثل "منتو"، وحريصاً مثل إبن "نوت"] (آمون رع).

[أخضع لك الجنوب والشمال، والشرق والغرب] (آمون رع).

[أهبك عمراً مديداً لتسوس العالم، ولكي يكون حكمك سعيداً] (جب).

[أمنحك مقاليد حكم مصر العليا ومصر السفلى] (نوت).

[أخضع لك الهمجيين في الجنوب والشمال لتسحقهم تحت نعليك] ("تيميThméi" إله العدالة).

[سأفتح لك كل أبواب الخير الموصودة في وجهك] (حارس الأبواب السماوية).

[تقتضي مشيئتي أن يبقى قصرك معمراً إلى الأبد] (هو).

[أمن عليك بالانتصارات العظيمة في كافة أنحاء العالم] (الإلهة "تفنوت").

[أنعم عليك بحفر اسمك في قلوب الهمجيين] (الإلهة "سخمت").

وتمدنا أجزاء جدران بهو الأساطين التي نجت من عبث العابثين بمناظر أكثر ثراء واستفاضة. ولازلنا نجد على جانبي الباب الرئيسي لوحتين رائعتين من حيث أبعادهما الضخمة وتنفيذهما المتقن. وفي اللوحة الأولى نرى الإلهة "سخمت" وقد مُثلت على هيئة امرأة برأس أسد، زوجة الإله "بتاح" وسيدة القصر السماوي، ترفع يدها اليمنى مشيرة إلى رأس "رمسيس" وخوذته. كما تخاطبه قائلة: [لقد أعددت لك تاج الشمس، لتظل تلك الخوذة على جبينك حيث وضعتها]. وفي نفس الوقت تقدم "سخمت" الملك إلى "آمون رع"، الإله الأعظم، جالساً فوق عرشه. ويمد هذا الأخير شارات الحياة الطاهرة تجاه وجه الملك.

أما اللوحة الثانية فتصور لنا تنصيب البطل المصري ملكاً. كما نرى أكبر إلهين مصريين يخلعان عليه السلطات الملكية. ويُسلم "آمون رع" -وتعاونه "موت" الأم الإلهية العظيمة- إلى الملك "رمسيس" منجلاً كبيراً يُستخدم في الحرب، وهو سلاح فتّاك يسميه المصريون القدماء "شوبش schopsch". كما يناوله في نفس الوقت شارات الحكم والاعتدال، والسوط والعصا المعقوفة مردداً الصيغة التالية:

[هذا ما يقوله "آمون رع" الذي يقطن في "الرامسيوم": فلتأخذ منجل القتال لصد الأمم الأجنبية وكبح جماحها، والاطاحة برقبة الأنجاس. ولتأخذ السوط والعصا المعقوفة لتحكم أرض "كيمي Kémé" (مصر)].

وينطوي أسفل تلك اللوحتين على أهمية من نوع آخر، إذ يضم صوراً كاملة لأبناء "رمسيس الأكبر" الذكور مرتبة ترتيباً زمنياً حسب أعمارهم. ويرتدي هؤلاء الأمراء ثياباً تدل على مكانتهم العالية. كما يمسكون بشارات تعكس منزلتهم الرفيعة: أي عصا معقوفة، ومروحة مصنوعة من ريش النعام الطويل المثبت في مقبض أنيق. ويبلغ عددهم ثلاثة وعشرين أميراً. ولكن لا ينبغي أن تدهشنا كثرتهم إذا وضعنا في اعتبارنا أولاً أن "رمسيس" كان له -على حد علمنا- زوجتين شرعيتين على الأقل: الأميرتان "نفرتاري Nofré-Ari" و"إيزيس نفرت Isénofré". كما أنه من المرجح أن الأطفال الذين أنجبهم ذلك البطل من عشيقاته ومحظياته

كانوا يضافون إلى باقي أطفاله الشرعيين: وهي عادة كانت شائعة في الشرق كله كما يؤكد التاريخ القديم. ومهما يكن الأمر، فقد نُقش فوق رأس كل أمير منهم اللقب المشترك الذي يربط بينهم جميعاً أي [ابن الملك ونطفته]؛ كما يحمل الثلاثة الأوائل -وبالتالي الأكبر سناً- إشارة إلى المناصب المرموقة التي كانوا يشغلونها خلال الفترة التي نُفذت فيها تلك النقوش البارزة. وينتحل الابن الأول لقب: [حامل المراوح على يسار الملك، الكاتب الملكي الشاب، القائد الأعلى للجنود (الجيش)، الابن البكر والمفضل من بين ذريته، "آمونحيشوبش Amenhischopsch"]. أما الأمير الثاني الذي كان يُدعى "رمسيس" مثل أبيه فكان : [حامل المراوح على يسار الملك، الكاتب الملكي، القائد الأعلى لجنود سيد العالم (القوات التي يتألف منها حرس الملك)]. وكذلك كان الأمير الثالث مثل أخويه السابقين: [حامل المراوح على يسار الملك] (وهو لقب كان يُطلق عامة على جميع الأمراء في نقوش الآثار الأخرى). وفضلاً عن ذلك كان: [الكاتب العام، قائد سلاح الفرسان، أي العربات الحربية في الجيش المصري]. وسأمسك نفسي هنا عن تسجيل أسماء الأمراء العشرين الآخرين، مكتفياً بالإشارة إلى أن بعض تلك الأسماء ينطوي بكل تأكيد على تلميح إما إلى ما أحرزه الملك من انتصارات حين ولادتهم مثل "نب-إن-شاريNéb-én-Schari" (سيد بلاد "شاري")، و"نب-إن-تونيب Nébénthonib" (سيد العالم كله)، و"سناشتينامون Sanaschtenamoun" (المنتصر بـ"آمون") ؛ وإما إلى ألقاب جديدة مستحدثة أدمجها "رمسيس الأكبر" في بروتوكوله مثل "باتافيامون Pataυéamoun" ("آمون" أبي)، و"ستباناريSetpanri" (الذي ترضى عنه الشمس). ويدخل ذلك اللقب الأخير في تركيب اسم الملك.

وتجدر بنا في نفس الوقت ملاحظة أمر هام فيما يتعلق بقائمة هؤلاء الأمراء. فعقب وفاة "رمسيس الأكبر" تم تمييز ابنه الثالث عشر "مرينبتاح" الذي خلفه على عرش مصر. إذ جرى تعديل ثياب ذلك الأمير المرسومة في اللوحة، وإضافة صورة الحية المقدسة على جبينه، وإحلال ملابسه القصيرة برداء ملكي طويل. وإلى جانب النص القديم الذي يحمل اسمه "مرينبتاح" الذي احتفظ به عند ارتقائه العرش، تم إضافة خرطوشه الملكي الأول [الشمس-الروح

المحبوبة من الآلهة] الذي دونه بالفعل على كافة الآثار التي ترجع إلى عهده.

وبعد مغادرة الباب الرئيسي لبهو الأساطين، نجد أنفسنا داخل حجرة احتفظت بجزء من أعمدتها، وتتميز زخارفها بطابع خاص. وقد طالعتنا في أجزاء القصر التي جبناها حتى الآن ابتهالات عامة موجهة إلى آلهة مصر الرئيسية، كما جرى عليه العرف في زخرفة الأفنية والباحات المعمدة المفتوحة أمام عامة الشعب، وكذا بهو الأساطين حيث كانت تقام الاجتماعات والاحتفالات الضخمة. إلا أن هذه الحجرة تمثل حقاً بداية الجزء الخصوصي في القصر، والحجرات المخصصة لسكن الملك، أي الحجرات التي كان من المفترض أن يسكنها كذلك رب الأرباب الذي تم تكريس هذا البناء الضخم له على وجه التحديد. هذا ما تؤكده لنا النقوش الجدارية المنحوتة على جانبي الباب. إذ تصور لنا تلك اللوحات أربع مراكب مقدسة تحمل كل واحدة منها ناووساً صغيراً تنسدل من فوقه الستائر لحجب ما بداخله عن الأنظار. ويتوقف عدد الكهنة الأربع وعشرين أو الثمانية عشر الذين يحملون تلك المراكب المقدسة على أكتافهم على أهمية المعبود الذي يشغله. وتزدان مقدمة ومؤخرة المركبين الأولين برأسين يرمزان إلى المعبودة "موت" والمعبود "خنسو"، زوجة "آمون رع" وابنه. بينما يزدان المركبان الآخران برأس الملك والملكة في كامل زينتهما الملكية. ونستدل من النصوص الهيروغليفية إلى أن تلك اللوحات تصور قدوم الإلهان والزوجان الملكيان لتمجيد رب الأرباب "آمون رع" الذي انتقى قصر "رمسيس الأكبر" ليكون مسكناً له. كما أن العبارات التي ينطق بها كل واحد من الزائرين لا تدع لنا مجالاً للشك في الغرض من وراء قدومهم. إذ تقول المعبودة "موت": [أتيت لتمجيد ملك الآلهة، "آمون رع"، عساه أن يطيل في عمر ابنه المتعلق به، الملك "رمسيس"].

ويقول المعبود "خنسو": [جئنا إليك لخدمة جلالتك، يا "آمون رع"، يا ملك الآلهة، يا من تقطن في بيت ابنك "رمسيس". امنح ابنك، سيد العالم الذي يحبك حياة مستقرة وطاهرة].

ويكتفي الملك "رمسيس" بالقول: [أتيت إلى أبي "آمون رع"، بعد الآلهة التي يرتضيها في حضرته إلى الأبد].

أما الملكة "نفرتاري"، التي تحمل هنا لقب "أحمس" (أي التي أنجبها القمر)، فتستفيض في التعبير عن أمنياتها بصورة دقيقة. إذ نقرأ في النص: [هذا ما تقوله الزوجة الإلهية، الأم الملكية، الزوجة الملكية، سيدة العالم القوية، "أحمس نفرتاري" : أتيت لتمجيد أبي "آمون". يا ملك الآلهة، إن قلبي يخفق فرحاً تعلقاً بك (أي للحب الذي تكنه لي)، ويفيض بي الاستبشار عند التطلع إلى نعمائك، يا من اصطفيت منزل ابنك، سيد العالم "رمسيس"، ليكون مقراً لقوتك وسلطانك؛ امنحه حياة مستقرة وطاهرة، وليطول به العمر ملايين السنين !].

أما اللوحات الجدارية العديدة التي كانت تزين تلك الحجرة، والتي تصور تلبية تلك الدعوات، وتُذّكِر بالنعم التي أسبغها "آمون رع" على البطل المصري، فلا يبقى منها سوى لوحة واحدة فقط تقع على يمين الباب. ونرى فيها الملك متربعاً على العرش، أسفل عرش "آمون-رع-اتوم"، في ظل أوراق وأغصان الشجرة السماوية الكثيفة التي ترمز إلى الحياة. ويقوم الإله الأعظم والمعبودة "ساف Saf" المشرفة على الكتابة والعلوم برسم خرطوش "رمسيس الأكبر" على فاكهة تلك الشجرة التي تشبه القلب في شكلها. ومن ناحية أخرى نلمح المعبود "تحوت" يُدْوِن كذلك خرطوش الملك الذي يتوجه إليه "آمون-رع-اتوم" بالعبارات التالية: [أقبل، أكتب اسمك لكي يبقى عمراً طويلاً فوق الشجرة الإلهية].

وينبغي علينا أن نولي عناية خاصة إلى باب هذة الحجرة الذي كان يفضي إلى حجرة أخرى لا تزال تحتفظ بأربعة من الأعمدة التي كانت تزينها، سواء من حيث الطريقة التي استُخدمت في تنفيذه، أو من حيث الزخارف التي تغطيه.

ويزدان إفريز الباب وكتفاه بنقوش ضئيلة البروز جداً. وقد خُيّل إليّ في بادىء الأمر أن ضعف النتوء ربما يرجع إلى تأثير العوامل الزمنية وعبث العابثين. إلى أن اكتشفت، بعد إزاحة الرمال عن أسفل ركائز الباب، نص إهداء عادي يرجع إلى "رمسيس الأكبر" يقول فيه أن ذلك الباب كان [مكسياً بطبقة من الذهب الخالص]. عندئذ شرعت في فحص سطحه بمزيد من العناية. وبمعاينة طبقة الجص الأبيض الرقيقة التي لاتزال تغطي بعض أجزاء

نقوشه اتضح لي أن ذلك الجص قد وُضع على قطعة من القماش قبل لصقه على اللوحات ليأخذ شكل وحدود الصورة، ويطابق أجزاءها البارزة قبل أن يُشرع في تذهيبه. ونظراً لغرابة هذة الطريقة المستخدمة فقد رأيت من المفيد تسجيلها هنا.

وتسترعي انتباهنا لوحتان من بين تلك التي تزين الباب. إذ غُطي الإفريز وأعلى الكتفين بنحو إثني عشر نقشاً بارزاً صغيراً يصور الملك "رمسيس" يتعبد أفراد ثالوث "طيبه" المقدس. ومن الطريف أن تلك الآلهة تدير ظهرها إلى مدخل الباب لأنها تتبع الحجرة الأولى فقط، ولا تتعلق بالحجرة الثانية التي يفضي إليها ذلك الباب. بيد أننا نجد على العكس من ذلك أسفل الكتفين وأعلى نص الإهداء مباشرة، اثنين من الآلهة ينظران إلى فتحة الباب وإلى الحجرة الثانية الواقعة بالتالي تحت سلطتهما. وهذان الإلهان هما من اليسار إلى اليمين: "تحوت" إله العلوم والفنون، مخترع الكتابة، ذو رأس "أبو منجل" ؛ ورفيقته المعبودة "ساف" التي تحمل لقب [سيدة الآداب ورئيسة المكتبة (صالة الكتب)]. وفضلاً عن ذلك يتبع الإله "تحوت" واحد من رفقائه نستدل من خلال النص وصورة العين الكبيرة التي يحملها فوق رأسه بأنه تجسيد لحاسة النظر. في حين أن رفيق المعبودة "ساف" يُجسد حاسة السمع، ويتميز بصورة أذن كبيرة مرسومة فوق الرأس، وكذا بكلمة "سوتم sotem" (السمع) المدونة في النص. علاوة على أنه يمسك في يده بكل أدوات الكتابة ؛ كما لو كان متأهباً لتدوين كل ما يسمعه.

وإنني أتساءل عما إذا كانت هناك وسيلة أفضل من تلك النقوش للإشارة إلى المدخل المؤدي إلى مكتبة ؟ لقد توصلت إلى معطيات جديدة تهدف إلى إلقاء مزيد من الضوء وحسم الخلاف السائد بين العلماء حول "أثر اوسيمندياس" الشهير بمكتبته وحول علاقته بـ"الرامسيوم".

فمنذ الأيام الأولى التي رحت أطالع فيها وسط أطلال "الرامسيوم" الوصف الكامل الذي اقتبسه "ديودور Diodore" الصقلي عن المؤرخ "هيكاتيه Hécatée" لـ"أثر اوسيمندياس"، أذهلني التطابق الشديد بين هذين الأثرين حتى في أدق تفاصيلهما تقريباً.

إذ يحدد ذلك الرحالة اليوناني القديم موقع "أثر اوسيمندياس"

على بُعد عشر وحدات طولية من آخر مقابر "محظيات آمون" كما يُطلق عليها. وقد عثرنا بالفعل على بُعد مسافة مقاربة من "الرامسيوم" على واد يضم مقابر لاتزال تحتفظ بنقوشها ونصوصها لنحو اثنتي عشر ملكة مصرية تحملن دائماً في بداية ألقابهن لقب "زوجة آمون".

ويتقدم "أثر اوسيمندياس" صرح كبير مشيد من أحجار متنوعة. وكذلك حال الصرح الأول للرامسيوم المشيد من الحجر الرملي الحمر، بينما استُخدم الحجر الجيري الأبيض في تشييد بابه: مما يبرر تماماً ذلك التعبير "أحجار متنوعة". ويفضي الصرح الأول لـ"أثر اوسيمندياس" إلى باحة معمدة تزدان ركائزها بصور عملاقة. ثم نبلغ صرحاً ثانياً يفوق الصرح الأول من حيث جودة النقوش وإتقانها، وينتصب في مدخله [أضخم تمثال عملاق موجود في مصر] منحوت من كتلة واحدة من جرانيت أسوان. ويتماشى ذلك الوصف مع "الرامسيوم" على أكمل وجه؛ مع الاقرار ببعض الاختلافات الطفيفة في المقاييس. ولكن من يضمن لنا دقة النسّاخين القدماء فيما سجلوه من مقادير تلك المقاييس ؟ وحتى اليوم لاتزال تطالعنا هنا الأنقاض الهائلة لأضخم تمثال عملاق معروف في مصر. زد على ذلك أنه منحوت أيضاً من جرانيت أسوان: وكل ذلك يُعد من الأدلة الدامغة.

ويذكر المؤرخ "هيكاتيه": [تضم الباحة المعمدة التي تتبع الصرح صوراً للملك يُدعى "اوسيمندياس" يخوض معركة لقمع تمرد الحيثيين، ويحاصر مدينة تحوطها مياه نهر...الخ ...الخ]. ويُعد ذلك وصفاً دقيقاً للنقوش البارزة التي لاتزال موجودة أسفل الباحة المعمدة الثانية في "الرامسيوم". وإن كانت تلك النقوش تخلو من صورة الأسد يهاجم مع الملك قوات العدو، وكذا الأمراء الأربعة يقودون فرق الجيش، فإنما يرجع السبب في ذلك إلى انهيار بقية جدران الباحة المعمدة. ومن ذا الذي يتطاول بالإدعاء بوجود صور في كل الآثار المصرية لملوك يحاصرون مدناً [يحوطها نهر] ! وفي حقيقة الأمر توجد مثل تلك اللوحات في معابد "ابو سمبل" و"الدر" و"الأقصر" و"الرامسيوم". بيد أن كل هذة الآثار ترجع إلى عهد "رمسيس الأكبر"، وتصور أحداث "نفس الحملة العسكرية".

وإذا تابعنا قراءة وصف "أثر اوسيمندياس" فنجد أن [الجدار

الثاني للباحة المعمدة يصور الأسرى الذين عاد بهم الملك من غزوته، وقد قُطّعت أيديهم وأعضاؤهم التناسلية]. إلا أنني عثرت بدوري، عقب إزاحة الرمال عن جدار الباحة المعمدة في "الرامسيوم"، على بقايا لوحة تصور إحضار الأسرى أمام الملك، وقد كُدست أمام قدميه أجزاء من أيدي مقطوعة.

وكان الجدار الثالث للباحة المعمدة في "أثر اوسيمندياس" يصور تقديم [أضحية] و[عودة الملك من تلك المعركة ظافراً]. كما يصور لنا الصف العلوي للوحة الحرب الجدارية في "الرامسيوم" نهاية احتفال ديني عظيم شارك فيه الملك والملكة.

ويواصل المؤرخ اليوناني وصفه: [ندخل بعد ذلك في بهو أساطين "أثر اوسيمندياس" عن طريق ثلاثة أبواب تزدان بتمثالين عملاقين]. ويوجد كل ذلك بالضبط في "الرامسيوم" بعد الباحة المعمدة الثانية مباشرة.

وبعد بهو الأساطين في "أثر اوسيمندياس" نجد حجرة أصغر حجماً أطلق عليها اسم "الاستراحة". وهي تطابق نفس الصالة في "الرامسيوم" المزدانة بالمراكب المقدسة والتي تتبع بهو الأساطين.

ثم يشير "ديودور" الصقلي بعد ذلك إلى وجود [مكتبة]. وقد وجدت بالفعل على الباب الذي يقود من "استراحة" "الرامسيوم" إلى الحجرة التالية نقوشاً بارزة تتماشى تماماً مع مدخل مكتبة.

وفي ختام ذلك الوصف السريع للـ"رامسيوم" سأضيف أن صالة المكتبة قد تهدمت كلها تقريباً، ولا يبقى منها سوى أربعة أعمدة، وجزء من الجدران الواقعة على جانبي الباب. وتزدان تلك الجدران بلوحات تصور الملك يقدم القرابين إلى أكبر الآلهة المصرية على التوالي: "آمون رع" و"موت" و"خنسو" و"رع حور آختي" و"بتاح" و"سخمت" و"نفرتم" و"اتوم" و"منتو". وفضلاً عن ذلك تغطي معظم مساحة تلك الجدران لوحتان ضخمتان مقسمتان إلى أعمدة رأسية عديدة تشغلها ثلاث مجموعات كبيرة من أسماء الآلهة وصورهم المرسومة بمقياس رسم صغير: وهي تمثل مجمع أرباب كامل. ونرى الملك واقفاً أمام كل واحدة من تلك اللوحات الشاملة، يصب الماء الطهور، ويقدم القرابين إلى كافة الآلهة والآلهات، من صغيرهم إلى كبيرهم بدون استثناء. ونجد نفس النقوش في "مقبرة اوسيمندياس" ! إذ يذكر المؤرخ اليوناني:[تطالعنا صالة المكتبة

بصور كافة الآلهة المصرية. ويقوم الملك بتقديم القرابين المناسبة إلى كل واحد منها بنفس الطريقة].

وقد سبق أن قام السيدان "جولوا Jollois" و"ديفيلييه Devilliers" بتناول تلك المقارنة بين أطلال "الرامسيوم" ووصف "أثر اوسيمندياس" الذي تركه لنا "ديودور" الصقلي بمزيد من التفاصيل في كتابهم المُعنون "وصف عام لمدينة طيبه". وهو بحث هام يطيب لي أن أوفيه حقه من الثناء لأنني زرت تلك الأماكن،

وإلى هنا تنتهي أنقاض قصر "سيزوستريس"، ولا يبقى أي أثر لأبنيته الأخيرة التي من المرجح أنها تمتد ناحية الجبل. وعلى الرغم من أن "الرامسيوم" يُعتبر من أكثر آثار "طيبه" تعرضاً للتخريب والتشويه، إلا أن أطلاله المهيبة تترك بدون شك في نفوس الرحالة انطباعاً أشد عمقاً وأكثر استمراراً من أي أثر آخر.

* * *

بعد مغادرة قصر "سيزوستريس" الأنيق والمهيب (الرامسيوم)، وقبل الشروع في دراسة الأبنية العريقة العديدة المتراكمة فوق الهضبة التي يُطلق عليها اليوم اسم "مدينة هابو"، يتعين عليّ -من أجل انتظام أعمالي- الاهتمام ببعض الأبنية المجاورة التي تسترعي انتباه الرحالة بصورة أقل: إما بسبب صغر أحجامها، وإما بسبب التدمير الشامل تقريباً الذي لحق بها.

لذا فقد توجهت أولاً صوب وادي "العساسيف" الذي يقع إلى شمال "الرامسيوم"، وينتهي فجأة أمام سفح الصخور الجيرية الهائلة التي تتكون منها سلسلة الجبال الليبية. إذ توجد في تلك النقطة أطلال بناء مقدس قام السيدان "جولوا" و"ديفيلييه" بوصفه بدقة تحت اسم [الأنقاض الواقعة إلى شمال مقبرة اوسيمندياس].

ولما كان هدفي الأساسي يتمثل في تحديد تاريخ تشييد تلك الأبنية الذي لانزال نجهله، وتعيين الغرض الأصلي من وراء إقامتها، فقد انكببت على فحص النقوش وخاصة النصوص الهيروغليفية المدونة على الكتل الحجرية المتفرقة، وأجزاء الجدران المبعثرة على مساحة واسعة من الأرض.

وقد أذهلتني أولاً دقة تنفيذ بعض بقايا النقوش البارزة التي قام الأقباط الأوائل بكشطها وتشويهها. كما تيقنت من خلال فحص باب من الجرانيت الوردي لايزال منتصباً وسط تلك الأنقاض من الحجر الجيري الأبيض الجميل، من أن ذلك البناء يرجع إلى أزهى عصور الفن المصري. وقد تم توشية ذلك الباب بأكمله بالنصوص الهيروغليفية. كذلك يحمل كتفاه نقوشاً رائعة تمثل صورتين كاملتين لاثنين من الفراعنة في كامل زيهما وشاراتهما الملكية. وتضم كافة نصوص الإهداء المزدوجة اسمي اثنين من الأمراء. فأما الأمير الأول الذي يحتل دوماً الجانب الأيمن من اللوحة، أي موقع الصدارة، فيُدعى "امننتي Aménenthé". وأما الأمير الآخر الذي يتبعه فهو "تحتمس الثالث" أو "موريس Moeris" كما كان يسميه اليونانيون.

وقد أصابتني الدهشة لرؤية "تحتمس الثالث" العظيم في كامل شاراته الملكية يتراجع على هذا النحو في كل لوحات البناء أمام

الأمير الأول الذي لم يأت ذكره قط في أي من القوائم الملكية. غير أن دهشتي قد تضاعفت عند قراءة النصوص التي لا تتحدث عن ذلك الملك الملتح الذي يرتدي الزي التقليدي للفراعنة إلا باستخدام صيغة المؤنث، كما لو كان الأمر يتعلق بملكة. وفيما يلي أسوق على سبيل المثال ترجمة الإهداء المنقوش على الباب :

["حورس" حام الأوفياء، الملك السيد، ...الخ، الشمس المتفانية من أجل الحقيقة! (هي) قامت بتشييد أبنية تمجيداً (لوالدها)، "آمون رع"، سيد عروش العالم؛ كما نصبت له ذلك الباب (ليحمي "آمون" ذلك البناء!) من حجر الجرانيت. هذا ما فعلته (لكي) تحيا إلى أبد الآبدين]. ويحمل الكتف الآخر للباب إهداء مماثلاً، ولكن باسم الملك "تحتمس الثالث" أو "موريس".

وعندما نجوب بقية أنحاء تلك الأطلال، تطالعنا تلك الخصوصية العجيبة في كل مكان. وقد عثرت على اسم "امننتي Aménenthé" مسبوقاً بألقاب [الملك الحاكم للعالم] وكذا [ابنة الشمس]. وأخيراً تصور لنا تلك النقوش البارزة الآلهة وهي تخاطب ذلك الملك وتعامله كملكة على النحو التالي: [هذا ما يقوله "آمون رع"، سيد عروش العالم، لابنته الحبيبة، الشمس المتفانية من أجل الحقيقة: إن البناء الذي شيدته يشبه البيت الإلهي].

وقد تضاعف فضولي بعد أن لاحظت كشط خراطيش "امننتي" الموجودة في نصوص الباب على وجه الخصوص خلال العصور الغابرة، وإحلالها بخراطيش "تحتمس الثالث". وقد نُقشت في أماكن أخرى نصوص الفرعون "تحتمس الثالث" فوق نصوص "امننتي". وأخيراً تمدنا العديد من النصوص الأخرى باسم أحد التحامسة المجهولين لنا، يضم كذلك في خرطوشه اسم الملكة " امنسي Amensé ". وقد نُقش كل ذلك بالطبع فوق نصوص "امننتي" بعد استخدام المطارق في طمسها وتشويهها. عندئذ تذكرت رؤية ذلك الملك الجديد من التحامسة يُعامَل كأميرة في نصوص البناء الصغير الذي شيده "تحتمس الثالث" في "مدينة هابو".

وقد نجحت في تكملة معلوماتي حول ملوك النصف الأول من الأسرة الثامنة عشرة عن طريق مقارنة تلك الأمور والملابسات المختلفة بملاحظات أخرى عديدة من نفس النوع كنت قد سجلتها في قصر "الكرنك" الكبير. أما عملية صهر جميع الدلائل والمؤشرات

التي أمدتنا بها مختلف تلك الآثار، والتي لسنا بصدد الاستفاضة في شرحها هنا، فتقودنا إلى النتائج التالية:

(١) اعتلى "تحتمس الأول" العرش مباشرة عقب وفاة "امنحتب الأول" العظيم، مؤسس الأسرة الثامنة عشرة.

(٢) أمسك ابنه "تحتمس الثاني" بمقاليد الحكم من بعده، ثم توفي دون أن ينجب أطفالاً.

(٣) عندئذ خلفته أخته "امنسي" على العرش بصفتها ابنة "تحتمس الأول"، وحكمت البلاد طيلة واحد وعشرين عاماً.

(٤) واقترنت هذة الملكة أولاً بزوج يُدعى "تحتمس" أضاف إلى اسمه اسم زوجته "امنسي". كما أنجب منها "تحتمس الثالث" أو "موريس"، ومارس السلطة باسم "امنسي".

(٥) ثم تزوجت الملكة "امنسي" للمرة الثانية، عقب وفاة زوجها الأول، من "امننتي" الذي أدار شؤون الحكم أيضاً باسمها. ثم أصبح وصياً على العرش خلال فترة القصور الشرعي لـ"تحتمس الثالث" أو "موريس".

(٦) وأخيراً مارس "تحتمس الثالث" السلطة بالمشاركة مع الوصي "امننتي" الذي أخضعه لوصايته طوال بضعة أعوام أخرى.

إن معرفة ذلك التتابع على الحكم تشرح لنا بالطبع الأمور الغريبة التي تمخضت عنها الدراسة الدقيقة لكافة النقوش التي لاتزال باقية في بناء وادي "العساسيف". كما ندرك الآن السر وراء عدم ظهور الوصي "امننتي" في النقوش البارزة إلا لتلقي العبارات الرقيقة التي توجهها الآلهة للملكة "امنسي" التي ينوب عنها. كما يشرح لنا ذلك صيغة المؤنث التي يستعملها "امننتي" في نصوص الإهداء؛ إذ كان يتكلم بلسان الملكة. ونفس الشيء بالنسبة لنصوص الإهداءات المماثلة حيث نقرأ اسم "تحتمس" الزوج الأول لـ"امنسي" الذي لعب نفس الدور السلبي، والذي لم يكن -شأنه في ذلك شأن خليفته "امننتي"- سوى واجهة زائفة للسلطة الملكية المتمركزة في يد الملكة.

كما يشير كشط وتشويه معظم نصوص الوصي"امننتي" إلى أن الملك القاصر "تحتمس الثالث" كان ينوء بثقل وصايته المقيته التي لا تُحتمل. لذلك نراه قد أخذ على عاتقه مهمة محو ذكرى ذلك الوصي إلى الأبد. إذ قام "تحتمس الثالث" بالفعل خلال فترة حكمه بكشط

كافة نصوص "امننتي" تقريباً، وإحلالها سواء بنصوصه هو بعد أن اغتصب السلطة من "امننتي"، سواء بنصوص "تحتمس"، زوج "امنسي" الأول ووالده في نفس الوقت. كذلك فقد لاحظت التدمير المنظم لنفس تلك النقوش الموجودة أيضاً في مختلف آثار "طيبه". فهل كان مبعث ذلك الخِزْي والعار الذي ألحق بذكرى الوصي "امننتي" هو الحقد الشخصي الذي كان يعتلج في صدر "تحتمس الثالث"، أم كان من قبيل التملق الدنيء لطبقة الكهنة ؟ ويستعصي علينا الإجابة حالياً على هذا التساؤل، بيد أن الأمر بدا لنا غريباً لدرجة تستوجب تسجيله.

وتبرهن لنا كافة نصوص أثر "العساسيف" على أن ذلك البناء قد تم تشييده في ظل وصاية "امننتي" باسم الملكة "امنسي" وابنها الشاب "تحتمس الثالث". لذلك فهو يعود إلى تاريخ سابق لعام ١٧٣٦ قبل الميلاد، والذي يوافق بالتقريب السنوات الأولى لاستئثار "تحتمس الثالث" بالسلطة العليا. وهكذا يناهز عمر تلك النقوش ثلاثة الاف وخمسمائة عام.

كما تشير نصوص الإهداء والنقوش التي تزين بعض الحجرات التي لاتزال موجودة، أن البناء الداخلي كان لمعبد تم تكريسه إلى "آمون رع"، إله "طيبه" العظيم، رب الأرباب الذي كان يُعبد هنا تحت اسم "آمون-رع-بنب-انغيت-ان-تو-Amon-Ra-Pnèb enneghèt-en-tho" أي "آمون رع سيد عروش العالم". كما عثرت في "طيبه" على العديد من المعابد الأخرى التي تم تكريسها لذلك الخالق العظيم تحت أسماء أخرى خاصة به.

وينتصب معبد "آمون رع" على مساحة واسعة في قلب وادي "العساسيف". وتزينه نقوش وتماثيل على قدر عظيم من الروعة والإتقان. كما كان مسبوقاً بحرم وبطريق طويل ترتص على جانبيه تماثيل أبو الهول على الأرجح. كما نُحت قدس أقداسه تقريباً في الصخور العمودية التي تتكون منها سلسلة الجبال الليبية، والتي تنتشر فيها -مثل أرض الوادي- مقابر غنية إلى حد ما كانت تُستخدم لدفن سكان العاصمة القديمة.

وقد تسبب وقوع المعبد وسط المقابر والأسقف المقببة لبعض حجراته في تضليل عدد من الرحالة مؤخراً، وإيهامهم بأن ذلك البناء كان قبراً لـ"تحتمس الثالث". بيد أن كافة التفاصيل التي

أوردناها حول تشييد ذلك البناء المقدس والغرض من ورائه لا تُقيم وزناً لذلك الافتراض. ونستدل من خلال تخطيطه وملحقاته على أنه معبد حقيقي؛ وإن لم نجد نصوص الإهداء التي تشير إلى ذلك صراحة. كما أن زخارفه نفسها ومواضيع نقوشه البارزة التي تزين حجراته، لا تمت بأي صلة إلى زخارف ولوحات المقابر. ونجد هنا -مثلما نجد في المعابد والقصور- لوحات تقديم القرابين إلى الآلهة والملوك من أجداد فرعون مؤسس المعبد. وينطوي ذلك النوع الأخير من اللوحات على أهمية بالغة سواء من حيث تأكيد تسلسل الملوك على العرش المعروف لنا، أو من حيث إمدادنا بالتفاصيل الهامة حول الملوك الأوائل للأسرة الثامنة عشرة. وفي هذا الصدد سأشير أولاً إلى العديد من اللوحات الملونة التي تصور "تحتمس الثالث" يقدم القرابين إلى كل من والده "تحتمس" والفرعون "تحتمس الثاني". ويأتي في المرتبة الثانية نقش بارز كبير وملون يشغل كل مساحة الجدار الأيسر للحجرة الكبيرة ذات السقف المقبب، ويصور الوصي على العرش "امننتي" يتعبد المركب المقدسة لـ"آمون رع"، إله المعبد؛ ومن خلفه "تحتمس الثالث" تتبعه طفلة صغيرة تتزين بحلية غنية، وتحمل في النص لقب [ابنته، ابنة الملك التي تحبه، الزوجة الإلهية "رانوفريه Rannofré". كما نلمح خلف المركب المقدسة صوراً كاملة للفرعون "تحتمس الأول" وزوجته الملكة "أحمس" وابنتهما الصغيرة "سوتنوفريه Sotennofré". وقد قرأت هنا للمرة الأولى أسماء تلك الأميرات الثلاثة التي لم تحفظها لنا الوثائق التاريخية. أما لقب [الزوجة الإلهية] الذي تنتحله ابنة "تحتمس الثالث" التي لاتزال في سن الطفولة، فيشير فقط إلى أن تلك الطفلة الصغيرة الشريفة الأصل قد وُهبت لخدمة الإله "آمون"، مثل الفتيات الأخريات التي عثرت على قبورهن في واد آخر من وديان سلسلة الجبال الليبية.

وقد شهد معبد "آمون رع" الذي يقع في نهاية أحد وديان جبانة "طيبه" عمليات ترميم وتوسعات على مر العصور، في ظل عهد خلفاء "امننتي" و"تحتمس الثالث". وقد عثرت بالفعل على الأحجار التي تأتي من مختلف أجزاء المعبد والتي أعيد استخدامها في العصور المتأخرة في تشييد سور يستند عليه اليوم الكتف الأيمن للباب الجرانيتي، عثرت على أجزاء نصوص تشير إلى عمليات تجميل

وترميم البناء التي تمت في عهد ملوك الأسرة الثامنة عشرة: "حورس" و"رمسيس الأكبر" وابنه "مرينبتاح الثاني".

وتغطي آخر حجرات المعبد التي تمثل قدس الأقداس نقوش ركيكة وغير متقنة. وسرعان ما تلاشت دهشتي لرؤية تلك النقوش الرديئة، مقارنة برقة وأناقة اللوحات المنقوشة في الحجرتين السابقتين، بمجرد قراءة النصوص الهيروغليفية الكبيرة التي تشير إلى أن ذلك الترميم "الرائع" قد تم تنفيذه في عهد وباسم "بطليموس يورجتيس الثاني" وزوجته الأولى "كليوباترا". ها هو واحد من بين مئات البراهين الدامغة التي تدحض آراء الذين يصرون على أن الفن المصري القديم قد اكتسب بعض الاتقان من خلال اقامة اليونانيين في مصر.

وأنا أغتنم هذة الفرصة لتكرار أن الفن المصري لا يُدين إلا لنفسه بكل ما تمخض عنه من أعمال عظيمة وطاهرة ورائعة. ومهما كانت وجهة نظر العلماء الذين يؤمنون إيماناً راسخاً بالتوالد الذاتي للفنون في اليونان، فأنا مقتنع -مثل جميع الرحالة الذين زاروا مصر جيداً، والذين ألموا إلماماً حقيقياً بالآثار المصرية المنتشرة في اوروبا- بأن الفنون قد بدأت في اليونان بتقليد الفنون المصرية تقليداً أعمى. وعلى عكس الفكرة الشائعة، كان الفن المصري قد بلغ شأواً عظيماً في زمان اتصال الجاليات المصرية الأولى بسكان شبه جزيرة "اتيك **Attique**" و"بيلوبوناز **Péloponnèse**" الذين كانوا يرزحون حينئذ في ظلمات التخلف والهمجية. وتولت مصر القديمة تلقين الفنون لليونان التي قامت بدورها بتطويرها تطويراً هائلاً. إلا أنه لولا مصر لما أصبحت اليونان فيما بعد الموطن التقليدي للفنون الجميلة. ذلك هو رأيي الصريح أجاهر به في تلك القضية الهامة. لقد جلست لكتابة هذه السطور أمام النقوش البارزة التي نفذتها الأيدي المصرية بمنتهى الرقة والإتقان منذ ألف وسبعمائة عام قبل الميلاد. تُرى ماذا كان يفعل اليونانيون في ذلك الحين..... ؟

* * *

كرست نهار الأمس كله وصبيحة اليوم لدراسة الأطلال الهزيلة لواحد من أهم آثار "طيبه" القديمة. وقد اندثر تماماً ذلك الأثر الذي يضاهي من حيث مساحته قصر "الكرنك" الهائل، الذي نلمح من هنا مسلاته المنتصبة على الضفة المقابلة للنيل. ولا يبقى منه سوى بضعة أنقاض تعلو بالكاد فوق مستوى سطح الوادي الذي تغطيه ترسبات الفيضانات المتعاقبة التي تتوارى من تحتها كل كتل الجرانيت والرخام الصُنْعي وباقي الأحجار الصلدة المستخدمة في زخرفة ذلك القصر. ولما كان مشيداً في معظمه من الأحجار الجيرية، فقد لجأ الهمجيون إلى تكسيرها شيئاً فشيئاً، وتحويلها إلى جير لاستخدامه في إقامة بيوت حقيرة. بيد أن الأنقاض القليلة التي يراها الرحالة تكفي لإعطاء صورة مشرقة عن عظمة ذلك البناء العريق في الماضي.

ولنا أن نتخيل بالفعل مساحة يبلغ طولها نحو ألف وثمانمائة قدم، تغطيها ترسبات الفيضانات المتلاحقة التي أدت إلى تسوية سطحها، وتتناثر في العديد من نقاطها أنقاض عتبات وأجزاء تماثيل عملاقة، وجذوع أعمدة وأجزاء نقوش بارزة ضخمة لم يغمرها غرين النهر بعد ليواريها إلى الأبد عن أنظار الرحالة. وقد كان ينتصب في هذا المكان أكثر من ثمانية عشر تمثالاً ضخماً يبلغ ارتفاع أصغرها عشرين قدماً. وقد تهدمت كل تلك التماثيل المنحوتة من كتلة واحدة من مختلف الأحجار، وتناثرت أشلاؤها الضخمة في جميع الاتجاهات، وظل بعضها مبعثراً على سطح الأرض، بينما استقر البعض الآخر في قلب الحفر العميقة الناتجة عن عمليات التنقيب عن الآثار في العصور الحديثة. وقد أمدتني تلك الأجزاء المهشمة بأسماء عدد كبير من الشعوب الأسيوية. كما رُسمت صور زعماء تلك الشعوب الأسرى حول قاعدة التماثيل العملاقة التي تصور البطل المنتصر "امنحتب الثالث" الذي حرص اليونانيون على الخلط بينه وبين الملك "ممنون **Memnon**" الذي تذكره أساطيرهم البطولية. وتشير تلك النصوص إلى تواجدنا فوق موقع بناء "طيبه" الشهير الذي أطلق عليه اليونانيون اسم

الـ"ممنيوم Memnonium". وقد سعى السيدان "جولوا" و"ديفيليبيه" إلى اثبات ذلك في وصفهما الرائع لتلك الأنقاض.

وتثبت لنا الأبنية الأفضل حالاً من الحفظ وسط ذلك الدمار الفظيع أن تلك الأطلال تعود بالفعل إلى "ممنيوم" "طيبه"، أو "قصر الممنيوم" الذي يسميه المصريون "امينوفيون Aménophion" نسبة إلى اسم مؤسسه. كما دُوّن ذلك الاسم في النصوص الهيروغليفية العديدة التي تزين المقابر المجاورة، حيث كانت ترقد في سالف الزمان مومياوات العديد من كبار القادة الذين كانوا يقومون خلال حياتهم بحراسة وصيانة ذلك البناء الرائع.

وفي طرف تلك الأنقاض ناحية النهر لايزال ينتصب فوق سهل "طيبه" تمثالان عملاقان شهيران يبلغ ارتفاع كل واحد منهما نحو ستين قدم. وقد نال التمثال الشمالي المعروف باسم "تمثال ممنون colosse de Memnon" شهرة واسعة. وقد نُحت كل تمثال منهما من كتلة واحدة من الحجر الرملي-الرخام الصُنْعي الذي اقتُلع من محاجر جبال "طيبه" العليا، ونُصب فوق قاعدة ضخمة من نفس الحجر. وهما يصوران فرعون جالساً، يضع يديه فوق ركبتيه في وضع استرخاء. وقد حاولت بدون جدوى تبرير الخطأ الغريب الذي دفع السيد "دينون" الموقر إلى الاعتقاد بأن هذين التمثالين يصوران أميرتين مصريتين. إن النصوص الهيروغليفية التي لاتزال تغطي ظهر العرش الذي يجلس عليه التمثال الجنوبي، وكذا واجهات القاعدتين لا تترك لنا مجالاً للشك في اسم ومكانة الشخص الذي يُعد التمثالان تصويراً لملامحه وتخليداً لذكراه. إذ نقرأ حرفياً في النص المدوّن على ظهر العرش" ["حورس" القوي، أحكم الحكماء، ...الخ، الملك الشمس، رب الحقيقة (أو العدالة)، ابن الشمس، سيد التيجان، "امنحتب"، محبوب "آمون رع"، ...الخ، "حورس" المتألق، الذي قام بتوسيع البيت...(فراغ) إلى الأبد، قد شيد تلك الأبنية تمجيداً لأبيه "آمون"؛ كما أهداه ذلك التمثال الضخم المنحوت من الحجر الصلد، ...الخ]. كما نقرأ على واجهة القاعدتين اسم الملك الذي يصوره التمثالان ونصوصه مدونة بالأحرف الهيروغليفية الكبيرة والمنحوتة -خاصة نصوص التمثال الشمالي- بمهارة وذوق يفوقان كل مديح: [الإله الحاكم للمنطقة العلوية والمنطقة السفلية، مُصْلح الآداب، المهيمن على العالم،

"حورس" العظيم بقوته الذي دحر الهمجيين، الملك الشمس، رب الحقيقة، ابن الشمس، "امنحتب"، محبوب "آمون رع"، رب الأرباب].

تلك هي أسماء وألقاب "تحتمس الثالث"، أحد ملوك الأسرة الثامنة عشرة، الذي تبوأ عرش الفراعنة في عام ١٦٨٠ قبل الميلاد تقريباً. ويتماشى ذلك مع ما نقله لنا المؤرخ "بوزانياس Pausanias" على لسان سكان "طيبه" في ذلك الحين الذين راحوا يؤكدون بأن ذلك التمثال الضخم لا يُجَسد البطل الأسطوري "ممنون"، وإنما يصور أحد الملوك المصريين يُدعى "ف-امينوف-Ph-Aménoph".

وقد كان هذان التمثالان العملاقان يزينان على الأرجح الواجهة الخارجية لصرح "الممنيوم" الرئيسي. وعلى الرغم من التلف والتدمير الذي حاق بهما من جراء الهمجية والتعصب الديني، يمكننا أن نستشف الروعة والعناية الفائقة التي رُوعيت في تنفيذهما من خلال الصور الثانوية التي تُكون زخارف الجزء الأمامي لعرش كل تمثال. إذ نُحتت في كتلة التمثال نفسه صور لسيدات واقفات، لا يقل ارتفاعها عن خمسة عشر قدماً. كما تعكس لنا روعة تسريحاتهن وتفاصيل ملابسهن الغنية مكانتهن الرفيعة. أما النصوص الهيروغليفية المنحوتة على الرجلين الأماميتين لعرش كل تمثال، فتشير إلى أن الصورة اليسرى تمثل ملكة مصرية، الأم الملكية "تمو-حم-فا Tmau-Hem-Ua" أو "موت-حم-فا Maut-Hem-Ua"؛ بينما تمثل الصورة اليمنى الزوجة الملكية "تي Taia" التي سبق أن عثرنا على اسمها في العديد من الآثار الأخرى. وقد كنت أعرف اسم زوجة "تحتمس الرابع" "تمو-حم-فا Tmau-Hem-Ua"، وأم "امينوفيس-ممنون Aménophis-Memnon" من خلال النقوش البارزة لقصر "الأقصر".

ونجد في نقطة أخرى من أنقاض "الممنيوم"، ناحية سلسلة الجبال الليبية، على حدود الصحراء إلى يمين المحور الذي يمر بين التمثالين العملاقين، نجد كتلتين من الحجر الرملي-الرخام الصُنْعي على هيئة لوحتين ضخمتين، يبلغ طول كل واحدة منهما نحو ثلاثين قدماً. ويزدان سطحاهما المرئيان بنقوش ونصوص هيروغليفية رائعة تتكون كل منها من أربعة وعشرين إلى خمسة وعشرين سطراً. ومن المحتمل جداً أن تكون تلك الأجزاء الماثلة أمامنا ظهور كراسي

العرش لمجموعتين من التماثيل العملاقة المنبطحة على وجوهها والمدفونة تحت الأرض. إلا أنني لا أملك الإمكانيات اللازمة للتحقق من هذا الأمر.

وعلى أية حال تصور لنا اللوحات المنقوشة على تلك الكتل الضخمة الإلهين "آمون رع" و"بتاح-سكر" يستقبلان الملك "امينوفيس-ممنون" وزوجته الملكة "تي". ويتعلق هذان النصان بوضوح بقيام مؤسس ذلك البناء الهائل بإهدائه إلى آلهة "طيبه". أما عن شكل ومضمون نص الإهداء الذي قمت بعمل نسخة متقنة له على الرغم من احتوائه على العديد من الفراغات، فهما من نوع فريد جداً ومبتكر؛ كما سيتضح لنا من خلال التحليل الموجز لهما.

وقد تم الإشارة إلى تكريس القصر بصورة مسرحية للغاية. إذ يستهل الملك "امنحتب" الحديث من السطر الأول وحتى السطر الثالث عشر على النحو التالي: [الملك "امنحتب" (...الخ) قال: أقبل، يا "آمون رع"، يا سيد عروش العالم، الذي يقطن في أنحاء "اوبت" (طيبه) !، تأمل البيت الذي شيدناه من أجلك في البقعة الطاهرة، ياله من بيت رائع. فلتهبط من السماوات العلا لكي تتملكه !]. ثم نقرأ بعد ذلك مدح الآلهة يتخلله وصف البناء، وبياناً بنقوشه وزخارفه من الحجر الرملي والجرانيت الوردي، والحجر الأسود والذهب، والعاج والأحجار الكريمة التي أغدقها الملك؛ ومن بينها مسلتان كبيرتان لم يعد لهما اليوم أي أثر.

وتضم الأسطر السبعة التالية إجابة "آمون رع" على مجاملات الفرعون: [هذا ما يقوله "آمون رع"، الذي تزوج أمه، ...الخ : اقترب يابني، الشمس رب الحقيقة، من نطفة الشمس، ابن الشمس، "امنحتب" ! لقد استمعت إلى حديثك ورأيت الأبنية التي قمت بتشيدها؛ وباعتباري أباك، ينشرح صدري لمطالعة أعمالك الصالحة، ...الخ].

وأخيراً وفي منتصف السطر العشرين تبدأ الخطبة الثالثة والأخيرة التي تلقيها باقي الآلهة في حضرة "آمون رع"، سيدهم. إذ يعدونه بإسباغ خيراتهم على "امنحتب"، ابنه الحبيب، والإطالة في فترة حكمه السعيد مكافأة له على البناء الرائع الذي كرسه ليكون مسكناً لهم. ثم تُصرح الآلهة باستلام ذلك القصر بعد تفقده جيداً ومعاينته كما ينبغي.

ونستنتج من كل ما تقدم تطابق "الممنيوم **Memnonium**" كما يسميه اليونانيون و"الأمنوفيون **Aménophion**" كما يطلق عليه المصريون بصورة لا تدع مجالاً للشك. كما كان ذلك القصر يُعد بكل تأكيد من إحدى عجائب العاصمة العريقة. وقد قام السيد "ايانى **Iani**"، أحد أعوان السيد "سالت" اليونانيين القدماء، بإجراء حفائر على نطاق واسع أزاحت الستار عن عدد كبير من قواعد الأعمدة والتماثيل المنحوتة من حجر الجرانيت الأسود؛ علاوة على تمثالين عملاقين من الجرانيت الوردي لأبو الهول ذي رأس آدمية تصور الملك "امنحتب الثالث". أما عن تقاطيع وجه ذلك الأمير التي تنم إلى حد ما عن مسحة أثيوبية فتأتي مطابقة تماماً لملامح نفس هذا الفرعون التي سجلها النحاتون والرسامون في لوحات "الممنيوم"، ونقوش قصر "الأقصر"، ومقبرة ذلك الأمير التي تقع في غرب وادي الملوك. ويُعتبر ذلك برهاناً جديداً على أن التماثيل والنقوش البارزة المصرية كانت تمثل صوراً حقيقية للملوك القدماء الذين تحمل أسماءهم.

كما تطالعنا على مقربة من "الرامسيوم" أنقاض تمثالين عملاقين من الحجر الرملي الحمر، كانا ينتصبان على الأرجح أمام باب "الممنيوم" الشمالي الجانبي. مما يعطينا فكرة دقيقة عن ضخامة ذلك القصر، والمساحة الشاسعة التي كان يشغلها والتي لاتزال تحتوي على أطلال رائعة. ولم أولي أي اهتمام على الإطلاق للنصوص اليونانية واللاتينية التي تكسو ساقي التمثال العملاق الشمالي، المعروف باسم "تمثال ممنون": إذ يُعد كل ذلك حديثاً أكثر من اللازم بالنسبة لي. ولا يعني ذلك أنني أكذِب حقيقة الأصوات المتناغمة التي يؤكد العديد من الرومانيين بالإجماع انبعاثها كل صباح من فم التمثال بمجرد تعرضه لأشعة الشمس الأولى. بل سأكتفي بالإشارة إلى جلوسي مرات عديدة فوق ركبتي التمثال عند بزوغ الفجر دون أن يخرج من بين شفتيه أي نغمة موسيقية لتشنف أذني، وتلهيني عن تأمل المنظر الكئيب لسهل "طيبه" حيث ترقد الأشلاء المبعثرة لأعرق مدينة ملكية عرفها التاريخ.

* * *

لقد فرغت لتوي من زيارة وفحص جميع أجزاء معبد صغير في حالة رائعة من الحفظ يقع خلف "الممنيوم" في واد صغير محصور بين صخور الجبال الليبية وربوة كبيرة انفصلت عنها ناحية السهل. وقد قدم علماء الحملة الفرنسية وصفاً لذلك الأثر تحت اسم "معبد إيزيس الصغير".

ومما يجتذب الرحالة في تلك الأنحاء المنعزلة والمقفرة هو وجود حرم غير منتظم مُشيد من الطوب اللبن فوق أرض مرتفعة تجعلنا نلمحه على مسافة بعيدة. وندخل في ذلك المعبد عن طريق باب صغير من الحجر الرملي مندمج في سور الحرم، تغطي واجهته الخارجية نقوش ركيكة. وتصور لنا اللوحات التي تزين إفريز ذلك الباب "بطليموس سوتير الثاني" يقدم القرابين في الناحية اليمنى إلى المعبودة "حتحور" وثالوث "طيبه" المقدس: "آمون رع" و"موت" و"خنسو"؛ وفي الناحية اليسرى إلى "تمي Thmé" أو "تميي Thméi" (إلهة الحقيقة والعدالة)، وإلى ثالوث آخر يتألف من الإله "منتو" وزوجته المعبودة "ريتو Ritho" وابنهما "حربقراط Harphré". ويشغل ذلك الثالوث الذي تتركز عبادته في إقليم "أرمنت Hermonthis" جانب الإفريز الموجه ناحية عاصمة ذلك الإقليم.

وتكفي تلك التفاصيل الموجزة -لمن يُلم باسلوب زخرفة الآثار المصرية- لتوخي الدقة في تحديد اسم الآلهة التي كُرس لها هذا المعبد على نحو خاص. ويتجلى لنا بوضوح أن ذلك المعبد قد خُصص لعبادة عنصر الجمال مقترناً بعنصر الحقيقة والعدالة ومنصهراً معه في بوتقة واحدة؛ أو إذا أردنا استخدام تعبيرات ميثولوجية، تم تكريسه لعبادة الإلهة "حتحور" متقمصة في الإلهة "تميي". وبالفعل يتوجه "سوتير الثاني" بالابتهالات والتضرعات إلى هاتين المعبودتين أولاً. ولما كان هذا البناء التابع لإقليم "طيبه" يقع أيضاً في مجاورة إقليم "أرمنت"، فقد كانت الأضحية تُنحر تكريماً لكل من ثالوث "طيبه" المقدس وثالوث "أرمنت"؛ وفقاً للمبدأ السياسي الحكيم، واحتراماً لعلاقات حسن الجوار التي سبق أن قمت بشرحها. لذلك فقد تعجل علماء الحملة الفرنسية أكثر من الازم في إطلاق

اسم "معبد إيزيس الصغير" على ذلك الأثر استناداً إلى ملاحظات ترتكز على مجرد تخمينات.

وتتكرر نفس لوحات التعبد على باب المعبد نفسه الذي يفضي إلى باحة صغيرة تستند على أعمدة ذات تيجان على شكل أزهار اللوتس وحزم منسقة من أعواد البردي. ولا تحمل الأعمدة والجدران أية زخارف على الإطلاق. بيد أن الأمر يختلف بالنسبة لمقدمة الناووس التي تتكون من عمودين وركيزتين تزينهما رأس الإلهة "حتحور" التي كُرس لها هذا المعبد. كما تصور لنا اللوحات التي تغطي جذعي العمودين تقديم القرابين إلى تلك المعبودة وقرينتها الإلهة "تميي"، وكذا الآلهة "آمون رع" و"منتو" و"ايموت Imouth"، والعديد من الأشكال الثلاثية التي تتجلى فيها المعبودة "حتحور". ويرجع إهداء ذلك الأثر إلى الملك "بطليوس ابيفانس"، كما نقرأ في النص الهيروغليفي الكبير المنحوت على طول إفريز مقدمة الناووس. وفيما يلي نسوق ترجمة الجزئين المتقابلين لصيغة الإهداء:

(الجزء الأيمن) السطر الأول: [الملك (الإله "ابيفانس" الذي اختبره الإله "بتاح-توريه"، الصورة الحية لـ"آمون رع")، محبوب الآلهة والآلهات الأمهات، أثير "آمون رع"، قد أمر بتشييد ذلك البناء تمجيداً لـ"آمون رع" ...الخ، لكي يحيا إلى الأبد].

السطر الثاني: [الأخت الإلهية لـ("بطليوس" الحي الذي لا يموت، محبوب "بتاح")، أثيرة "آمون رع"، صديق الخير (بمانوفي Pmainoufé) ...] (بقية النص متهدمة].

(الجزء الأيسر) السطر الأول: [ابن الشمس، "بطليموس" الحي الذي لا يموت، حبيب "بتاح")، محبوب الآلهة والآلهات الأمهات، أثير "حتحور"، قد أمر بتشييد ذلك البناء تمجيداً لوالدته "حتحور"، مُوَجّهة الغرب، لكي يحيا إلى الأبد].

السطر الثاني: [الزوجة الملكية ("كليوباترا"، محبوبة "تميي"]، مُوَجّهة الغرب، قد أمرت بتشييد ذلك البناء ...] (بقية النص مفقودة).

وتأتي هذه النصوص تدعيماً لما استنتجناه من مجرد رؤية نقوش باب المعبد بشأن أسماء الآلهة التي كانت تُعبد فيه على نحو

خاص. كما أنه من الثابت أن "بطليموس الخامس" هو الذي أمر بتدوين نص إهداء ذلك البناء المقدس في عام ٢٠٠ قبل الميلاد تقريباً.

أما النقوش البارزة التي لاتزال موجودة على الجدارين الأيمن والأيسر لمقدمة الناووس، وكذا على واجهة المعبد، فترجع جميعها إلى عهد "ابيفانس"؛ كما تتعلق بالمعبودتين "حتحور" و"تميي" وبالآلهة الكبرى في إقليمي "طيبه" و"أرمنت".

وينقسم قدس الأقداس إلى ثلاث حجرات متلاصقة. فأما الحجرة الوسطى أو الرئيسية، فتغطيها تماماً النقوش ولوحات تقديم القرابين إلى كافة آلهة المعبد، والثالوثان المقدسان اللذان سبقت الاشارة إليهما، وخصوصاً المعبودتان "حتحور" و"تميي" اللتان تظهران في جميع اللوحات تقريباً. لذلك لا نجد سوى اسميهما في نصوص الإهداء التي قام "بطليموس فيلوباتور" بتدوينها على الإفريزين الأيمن والأيسر:

["حورس"، حام مصر، الذي قام بتجميل المعابد مثل "تحوت"، الإله العظيم مرتين، رب المحافل مثل "بتاح"، الزعيم الذي يشبه الشمس، المنحدر من نطفة الآلهة المؤسسين، الذي اختبره "بتاح"، ...الخ، ابن الشمس، "بطليموس" الحي الذي لا يموت، محبوب "إيزيس"، صديق والده (فيلوباتور)، قد نصب ذلك البناء تمجيداً لوالدته "حتحور"، مُوَجّهة الشرق] (إهداء اليمين)، و: [... لوالدته "تميي"، مُوَجّهة الغرب] (إهداء اليسار).

وباستثناء لوحتين فقط تصوران "بطليموس ابيفانس"، ابن "فيلوباتور" وخليفته على العرش؛ ترجع كافة نقوش قدس الأقداس الأول تقريباً إلى عهد الملك "فيلوباتور". إذ نراه يتعبد الإلهتين ومن خلفه زوجته "ارسنوي". وأخيراً يطالعنا الجداران الأيمن والأيسر بالنص التالي والمتعلق بعمليات التجميل التي تمت في عهد "يورجتيس الثاني" وزوجتيه:

[ترميم رائع للبناء قام به الملك، نطفة الآلهة المتألقة، الذي اختبره الإله "بتاح"، ...الخ، "بطليموس" الحي الذي لا يموت، ...الخ؛ وأخته الملكية، سيدة العالم، "كليوباترا"؛ وزوجته الملكية، سيدة العالم، "كليوباترا"، الآلهة العظيمة حبيبة "آمون رع"].

وقد كُرس قدس الأقداس الذي يقع على اليمين إلى المعبودة "حتحور" على وجه الخصوص. كما صُورت تلك المعبودة على أشكال وهيئات متنوعة، تتقبل تضرعات الملكين "فيلوباتور" و"ابيفانس". وتحمل نصوص الإهداء المنقوشة على الأفاريز اسم هذا الملك الأخير.

وبالمثل فقد كُرس قدس الأقداس الذي يقع على اليسار إلى المعبودة "تميي" على وجه الخصوص. ومن ثم تشير جميع اللوحات التي تزين تلك المقصورة إلى الوظائف الهامة التي تباشرها هذة المعبودة في الـ"أمنتي **Amenti**"، أي في المناطق الغربية أو جحيم الآخرة عند المصريين القدماء.

وتصور لنا اللوحة الإلهين اللذين يرأسان محاكمة الأرواح في ذلك المكان المهول، "أوزوريس" و"إيزيس"، يتقبلان تضرعات "بطليموس" و"أرسنوي"، الإلهين "فيلوباتور". كما يزدان الجدار الأيسر بلوحة كبيرة تصور وزن روح المتوفي في الميزان الإلهي. ويمثل هذا النقش البارز الضخم بهو الأساطين ("اوسخ**Oskh**") أو محكمة "الأمنتي" حيث يتربع "أوزوريس"، كبير القضاة، على العرش، وأمامه زهرة اللوتس التي ترمز إلى العالم الدنيوي تعلوها صور أولاده الأربعة الذين يهيمنون على الجهات الأصلية الأربعة.

ويجلس القضاة المُحلّفون الإثنان وأربعون الذين يعاونون "أوزوريس" في صفين، تعلو رأس كل واحد منهم ريشة نعام، شعار العدالة. كما نلمح أمام العرش وحشاً خرافياً يتكون من رأس تمساح وصدر أسد ومؤخرة فرس النهر، جاثياً فوق قاعدة، وفاغراً فمه الضخم مهدداً بالتهام الأرواح الآثمة. أما اسمه "عمعميت **Téouom-en-ément**" فيعني [مفترسة الموتى في الغرب] أو [في جهنم]. كما نرى ناحية باب المحكمة صورة مزدوجة للإلهة "تميي" بسبب اختصاصاتها المزدوجة كربة للعدالة وكربة للحقيقة في آن واحد. وتقوم الصورة الأولى لـ"تميي" مُوَجّهة "الأمنتي" (الحقيقة) بتقديم المتوفي إلى صورتها الأخرى كربة (العدالة). ونقرأ في النص: ["تميي" التي تقطن "الأمنتي"، حيث تزن القلوب في الميزان: ما من شرير يقوى على الإفلات من قبضتها]. وإلى جانب المتوفي الذي

يجب أن يخوض هذة المحنة، نقرأ الكلمات التالية: [صعود روح إلى "الأمنتي"]. وعلى مبعدة من ذلك ينتصب ميزان جهنم. ويضع الإله "حورس"، ابن "إيزيس"، ذو رأس صقر، روح المتوفي في إحدى كفتي الميزان. بينما يضع الإله "انوبيس"، ابن "أوزوريس"، ذو رأس ابن آوي، في الكفة الأخرى ريشة النعام التي ترمز إلى العدالة. وبين الميزان المُحَتَّم الذي سيحدد مصير الروح وبين عرش "أوزوريس" يقف الإله "تحوت": ["تحوت" العظيم مرتان، رب "الأشمونين"، سيد الكلمات الإلهية، كاتب عدالة الآلهة العظام الأخرى في قاعة العدالة والحقيقة]. ويسجل كاتب الحكمة الإلهية نتيجة المحنة التي اجتازها قلب المتوفي؛ ثم يتوجه بعد ذلك لرفع تقريره إلى كبير القضاة.

ويتضح لنا أن مجرد تكريس قدس الأقداس الثالث إلى المعبودة "تميي" قد استدعى تصوير لوحة المحاكمة. غير أن وجود تلك اللوحة العجيبة، التي تُصور في الجزء الثاني لكافة الشعائر الجنائزية، قد هيأ للبعض أن ذلك المعبد كان بناء جنائزياً ربما استُخدم لدفن أفراد مرموقين من الطبقة الكهنوتية. بيد أنه ليس ثمة ما يبرر ذلك الافتراض. ولسنا نُنكر أن الأنحاء المتاخمة للحرم الذي يضم ذلك الأثر قد غطتها سراديب الأموات والمقابر المصرية التي تعود إلى كافة الأحقاب التاريخية. ولكن معبد "حتحور" و"تميي" لا يُعد البناء المقدس الأوحد الذي ينتصب وسط المقابر؛ وإلا تحتم علينا أيضاً اعتبار قصر "سيزوستريس" أو "الرامسيوم"، ومعبد "آمون" في "العساسيف"، وقصر "القرنة"، ...الخ، بمثابة معابد جنائزية. وهي بالطبع حجة واهية يصعب الدفاع عنها؛ بل وتتناقض تناقضاً صريحاً مع كل النصوص المصرية التي تغطي جدرانها.

* * *

يمكننا بلوغ الهضبة الكبيرة التي تنتصب فوقها "مدينة هابو" إما عن طريق الدرب الذي يخترق "الرامسيوم"، وموقع "الممنيوم"، والأنقاض الجيرية للبناء الضخم الذي شيده ابن "رمسيس الأكبر" وخليفته؛ وإما عن طريق الوادي الصغير الذي ينتصب في مدخله معبد "حتحور" و"تميي" الصغير.

وتطالعنا في هذا المكان، تحت أنقاض المساكن الخاصة التي تعاقبت على مر الزمان، كتلة من الآثار على جانب كبير من الأهمية. ونهتدي من خلال دراستها بعناية إلى معرفة الأوضاع التي مرت بها الفنون في مصر على امتداد كافة الأحقاب الرئيسية لتواجدها السياسي. بل يمكننا اعتبارها "لوحة موجزة للآثار المصرية". إذ تحتوي تلك الآثار بالفعل على معبد يرجع إلى عهد الملوك الأوائل للأسرة الثامنة عشرة، الذي يُعد بحق من أبهى الحقب التاريخية الفرعونية؛ وقصر هائل يرجع إلى عهد الأبطال الفاتحين؛ وبناء يعود إلى عصر الاضمحلال الأول إبان الغزو الأثيوبي؛ ومقصورة قام بتشييدها أحد الأمراء الذين أطاحوا بنفوذ الفرس؛ وباب يعود إلى الأسرة اليونانية؛ وأروقة من العصر الروماني؛ وأخيراً نجد داخل أحد أفنية قصر فرعوني أعمدة كان يستند عليها قديماً سقف كنيسة قبطية.

إن تقديم قائمة تفصيلية للأشياء العجيبة التي تضمها تلك الآثار المتنوعة سيجعلنا نتطرق إلى أمور يطول شرحها. لذلك يتعين عليّ الاكتفاء بتقديم فكرة خاطفة عن كل عنصر من عناصر تلك الأبنية الهامة. وسأستهل بوصف تلك التي تطالعنا فور بلوغنا الهضبة من الناحية المطلة على النهر.

إذ نرى أولاً حرماً شاسعاً مشيداً من الحجر الرملي الجميل على ارتفاع منخفض من مستوى سطح الأرض الحالي. ثم نلج داخله عن طريق باب تحمل قوائمه -التي تتعدى بالكاد الإفريز الغليظ الذي يزين سور الحرم- صورة كاملة لأحد الأباطرة الرومانيين، ترك لنا اسمه مدوناً بالأحرف الهيروغليفية داخل خرطوشين متلاصقين: [الامبراطور"كايزر-تيتوس-ايليوس-هادريانوس-انتونينوس-ب

يوس Caesar-Titus-Aelius-Hadrianus-Antoninus-Pius".

كما نلمح على أحد البابين الجانبيين للحرم صورة أخرى لنفس ذلك الأمير يتعبد ثالوث "طيبه" المقدس على اليمين، وثالوث "أرمنت" المقدس على اليسار. ويُعد ذلك برهاناً إضافياً جديداً على آيات الاحترام المتجدد وحسن الجوار المتبادل بين مختلف الديانات المحلية.

وينتصب في قلب الحرم صف يتكون من ستة أعمدة، يربط كل ثلاثة منها جدار لا يحمل أية نقوش على الإطلاق. كما نجد وسط الأحجار المتراكمة التي تأتي من تساقط الأجزاء العلوية للبناء، الاسم الإمبراطوري آنف الذكر. لذلك يرجع الحرم والأروقة إلى عهد "انتونينوس بيوس". وهو ما تشير إليه فضلاً عن ذلك النقوش البارزة الركيكة.

وعقب اجتياز تلك الأروقة نصل إلى صرح ضخم زُين بابه بإفريز لايزال يحتفظ بألوانه الفاقعة. كما تغطي الباب لوحات دينية تصور "بطليموس سوتير الثاني" يقدم مختلف أنواع القرابين إلى الآلهة الرئيسية السبعة، وكذا إلى باقي آلهة إقليمي "طيبه" و"أرمنت".

وقد أمدني سور الحرم وأروقة "انتونينوس بيوس" وكذا صرح "سوتير الثاني" بخاصية جديرة بالملاحظة: فقد شُيدت تلك الأبنية الحديثة فوق بناء أكثر قدماً لا يخلو كذلك من الأهمية. أما الأحجار التي أعيد استخدامها في تشييد تلك الأبنية فتحتفظ لنا ببقايا نصوص هيروغليفية، وأجزاء من نقوش بارزة دينية وتاريخية: مثل رؤوس وأجسام بعض الآلهة، وعجلات حربية، وجياد وجنود، وأسرى حرب، وأخيراً أنقاض عديدة لتقويم مقدس. ولما كانت تلك الأحجار العديدة تحمل اسم "رمسيس الأكبر" أو أجزاء منه، فما من شك -بالنسبة لي على الأقل- في أن تلك الكتل الحجرية قد اقتُلعت من قصر "سيزوستريس" الكبير أو "الرامسيوم" الذي قام "الفرس" بتدميره منذ زمن بعيد، معاصر لزمن قيام "سوتير الثاني" و"انتونينوس بيوس" بتشييد الأروقة والصرح الذي نحن بصدد وصفهما.

وبعد صرح "سوتير" نجد بناء صغيراً أكثر أناقة، يشبه من حيث التخطيط البناء الصغير القائم فوق جزيرة "فيله"؛ بيد أن الأعمدة الثمانية التي تدعمه قد تداعت حتى ارتفاع الجدران التي تربط بينها. وتصور لنا كافة النقوش البارزة التي لاتزال موجودة "نختنبو"، أحد ملوك الأسرة الثلاثين السمنودية، يتعبد "آمون رع"، رب الأرباب، ويتقبل الهبات والعطايا من كل آلهة "طيبه" الأخرى.

وكانت تلك المقصورة التي ترجع إلى القرن الرابع قبل الميلاد تستند إلى بناء أكثر قدماً. وهو يتكون من صرح صغير الأبعاد قد لحق التلف بجزئيه في العديد من المواضع. كما تزدان واجهات جزئي الصرح وكذا الباب الذي يفصل بينهما بنصوص ونقوش بارزة تحتوي على اسم وألقاب ومديح الملك "طهرقا" الأثيوبي الذي أمر بتشييد ذلك الصرح في القرن السابع قبل الميلاد. إلا أنه يبدو عندما تبوأ الكوشيون عرش الفراعنة أنهم أمروا بكشط أسماء كل الغزاة الأثيوبين ومحوها من على كافة الآثار المصرية.

وقد سبق أن لاحظت كشط اسم الملك "ساباكون Sabacon" من قصر الأقصر. وقد انتُهك اسم "طهرقا" هنا بنفس الطريقة؛ بيد أن المطارق لم تفلح تماماً في مسح كافة العناصر التي تتكون منها معظم خراطيش ذلك الملك. وفضلاً عن ذلك نقرأ على الجزء الأيمن ذلك النص الخاص ببعض الأعمال التجميلية التي تمت في عهد "بطليموس سوتير الثاني" : [هذا الترميم الرائع قام به الملك سيد العالم، سليل الآلهة العظيمة، الذي اختبره الإله "بتاح"، الصورة الحية لـ"آمون رع"، ابن الشمس، سيد التيجان، "بطليموس" الحيّ الذي لا يموت، محبوب الإلهة "إيزيس"، الإله المنقذ، تكريماً لأبيه "آمون رع" الذي وهبه فترات حكم طويلة على عرش "حورس"].

وتجدر بنا مقارنة ذلك النص البطلمي الذي يغلب عليه الزهو والمباهاة بإعادة ترتيب بعض الأحجار بالنص الذي نقشه الملك الأثيوبي المؤسس الحقيقي للصرح فوق إفريز الباب. إذ يقتصر ذلك النص على العبارة التالية : [يحيا الملك "طهرقا" محبوب "آمون رع"، سيد عروش العالم].

كما صُور ذلك الملك ـ الذي تنسب إليه بعض المصادر التاريخية غزو إفريقية الشمالية كلها حتى أعمدة "هرقل" ـ على واجهة الصرح

عملاقاً يقبض بيد من حديد على مجموعة من الشعوب المهزومة من شعورهم، ويهددهم بما يشبه دبوس القتال.

وعلى مبعدة من صرح "طهرقا" في السور الشمالي للحرم نجد ركيزتين لباب من الجرانيت الوردي تحملان نصوصاً رائعة تضم اسم وألقاب المؤسس، وهو واحد من كبار الكهنة، الكاتب المقدس والنبي "بيتامينوفPétaménoph". وهو نفس الشخص الذي نحت مقبرة ضخمة ورائعة في مدخل وادي "العساسيف" والتي يطلق عليها الرحالة اسم "المقبرة الكبيرة".

ونصل أخيراً إلى البناء الأكثر قدماً. أما الرواق الروماني والصرح البطلمي ومقصورة "نختنبو" وصرح الملك الأثيوبي فما هي إلا ملحقات تابعة له؛ ولم تُشيد إلا للتمهيد بوقار إلى مثوى ملك الآلهة ومقر الفرعون الذي يُعد تجسيداً له على الأرض.

ويتكون هذا البناء العريق ـ الذي يغلب عليه في نفس الوقت الطابع المزدوج لمعبد كبير وقصر ـ من قدس أقداس تحيط به أروقة تستند على ركائز وأعمدة، وكذا على ثمان حجرات فسيحة إلى حد ما.

كما تحمل كافة الجدران نقوشاً منحوتة بدقة فائقة ومهارة جديرة بالملاحظة. وترجع النقوش البارزة إلى أزهى عصور الفن. ومن ثم فإن زخارف ذلك البناء تعود إلى عهد "تحتمس الأول" و"تحتمس الثاني" والملكة "امنسي Amensé" والوصي على العرش المدعو "امينتيAménenthé" و"تحتمس الثالث" الذي يطلق عليه المؤرخون اليونانيون إسم "موريس Moeris". كما ترجع معظم زخارف هذا البناء إلى عهد ذلك الفرعون الأخير الذي دُونت نصوص الإهداء باسمه. وفيما يلي نسوق ترجمة لنص الإهداء المنقوش أسفل الرواق الأيمن. وهو في حالة جيدة جداً من الحفظ، ويعطينا في نفس الوقت فكرة عن باقي النصوص الأخرى :

السطر الأول [الحياة لـ"حورس" القوي، محبوب الإله "رع حور آختي"، سيد العالمين العلوي والسفلي، القائد الأعظم لجميع أنحاء العالم، "حورس" المتألق، العظيم بقوته وبطشه، الذي دحر الأقواس التسعة (قبائل البدو)، الإله المنعم، سيد الكون، الشمس المثبتة للعالم، ابن الشمس، "تحتمس" المنعم على العالم، فليحيا اليوم وإلى الأبد].

السطر الثاني [أمر بتشييد تلك الأبنية تمجيداً لأبيه "آمون رع"، رب الأرباب؛ وقد نصب له هذا المعبد الكبير في الناحية الغربية من الحجر الرملي الجميل: ذلك ما فعله (الملك) الذي يحيا إلى الأبد].

وتصور معظم النقوش البارزة التي تزين الأروقة والحجرات الملك "تحتمس الثالث" يتعبد الآلهة ويتقبل منها الهبات والعطايا. وسأكتفي في هذا المضمار بالإشارة إلى لوحتين منحوتتين على الجدار الأيسر للقاعة الكبيرة. ففي اللوحة الأولى الأكبر حجماً نرى الإلهة "حتحور" والإله "آتوم" يقودان الفرعون مرتدياً خوذته إلى الشجرة المقدسة التي ترمز إلى الحياة. كما يطالعنا "آمون رع"، رب الأرباب، جالساً يخط اسم "تحتمس" بريشة فوق أوراق الشجرة الكثيفة قائلاً: [يابني، الشمس المثبتة للعالم، أضع اسمك على الشجرة "أوسشت Oscht" في قصر الشمس !]. ويدور ذلك المشهد أمام الآلهة الثانوية الأربعة والعشرين المقدسة في "طيبه"، وقد تراصوا في صفين، وفي مقدمتهم نقرأ النص التالي: [هذا ما تقوله باقي آلهة "اوبت " (طيبه) الكبيرة: تبتهج قلوبنا بالبناء الرائع الذي شيده الملك، الشمس المثبتة للكون].

أما اللوحة الثانية فقد أمدتني للمرة الأولى باسم وصورة "راميتيهRhamaithé"، زوجة "تحتمس الثالث". إذ تصاحب تلك الزوجة الملكية زوجها وهو يقدم القرابين الثمينة لـ"آمون رع"، الإله الخالق. كما تظهر تلك الملكة مرة أخرى في لوحتين تزينان إحدى الحجرات الصغيرة الواقعة إلى اليسار داخل البناء.

أما الحجرات الستة الآخرى -والتي تحتوي إحداها على مقصورة متداعية منحوتة من كتلة واحدة من الجرانيت الوردي- فتزدان بنقوش بارزة ترجع إلى عهد "تحتمس الأول" و"تحتمس الثاني" والملكة "امنسي" وابنها "تحتمس الثالث". وقد نقش هذا الأخير نصوصه الملكية فوق نقوش الوصي على العرش "امينتيه" بعد كشطها ومسحها بعناية، وكذا كل الصور الكاملة التي تصور ذلك الأمير الذي حرص "تحتمس الثالث" على محو ذكراه.

ويرجع تشييد ذلك البناء إلى صدر القرن الثامن عشر قبل الميلاد. وبالتالي فمن الطبيعي أن نتعرف من خلال فحصه بدقة على العديد من الترميمات، وكذا النصوص التي تشير إلى تاريخ تلك

الترميمات وأسماء الأشخاص الذين قاموا بها، وعلى سبيل المثال :

(١) قام "بطليموس يورجتيس الثاني" بترميم أبواب الصالة الكبيرة وجزء من سقفها فيما بين عامي ١٤٦ و١١٨ قبل الميلاد.

(٢) في عام ٣٩٢ قبل الميلاد قام الفرعون المندسي "هكر" بإصلاح وترميم الأعمدة التي ترتكز عليها أسقف الأروقة. وقد استُخدمت في سبيل ذلك أحجار اقتُلعت من بناء صغير شيدته الأميرة "نيتوكريسNéitocris"، ابنة الملك "بسماتيك الثاني".

(٣) تولى "رمسيس ميآمون" ترميم كافة نقوش الواجهتين العلويتين الجنوبية والشمالية في القرن الخامس عشر قبل الميلاد.

وقد تم تنفيذ تلك الترميمات الأخيرة التي تُعد من أقدم وأكبر الترميمات بغرض ربط قصر "تحتمس الثالث" الصغير بقصر "رمسيس ميآمون" الكبير الذي يغطي بملحقاته كل تل "مدينة هابو" تقريباً. وبالفعل نجد هنا أعظم أعمال ذلك الفرعون الذي يُعد من أشهر الملوك المصريين. وعلى الرغم من ذلك فقد خلط المؤرخون القدامى وكذا الكتاب المحدثون بين مآثره الحربية وبين أعمال "سيزوستريس" أو "رمسيس الأكبر".

وأول ما يجتذب أنظار الرحالة هو بناء صغير الأبعاد ولكنه فريد وغير مألوف من حيث الشكل. وهو البناء الوحيد من بين كل الآثار المصرية الذي يمكن أن يعطينا فكرة عما كانت عليه المساكن الخاصة خلال تلك الأحقاب التاريخية العريقة. كما نجد في موسوعة "وصف مصر" خريطة تعطينا فكرة دقيقة عن التخطيط العام لجزئي الصرح المتصلين بجناح كبير عن طريق بعض الأبنية. بيد أن اهتمامي سيقتصر على النقوش البارزة الفريدة والنصوص المنحوتة على كافة الجدران.

وتطل الواجهة الرئيسية على النيل. ونجد أولاً كتلتين ضخمتين تكونان ما يشبه صرحاً تغمره جزئياً تلال من أنقاض المساكن الحديثة. ويطالعنا إلى أعلى نقش ضئيل البروز يتكون من العناصر المكونة للنصوص الملكية لـ"رمسيس"، الابن الأكبر لـ"رمسيس ميآمون" وخليفته المباشر، [الشمس، حارس الحقيقة، الذي اختبره "آمون"]. كما نلاحظ فضلاً عن ذلك لوحات تَعَبُد تعود إلى نفس الفترة التاريخية، ونافذتين زُخرف إفريزاهما بقرص الشمس المجنحة، ونُقشت على قائمتيهما النصوص الملكية لـ"رمسيس

ميآمون"، [الشمس، حارس الحقيقة، صديق "آمون"].
أما الباب الذي يفصل بين هذين البناءين فيرجع إلى عهد الابن الثاني لـ"ميآمون"، [الشمس، سيد الحقيقة، محبوب "آمون"].
وتنتصب داخل ذلك الفناء الصغير كتلتا صرح مزدانتان -وكذا الأبنية التي تربطهما بالجناح الكبير- بنقوش ضئيلة البروز تشمل نصوص "رمسيس ميآمون" المؤسس؛ وكذا نقوش بارزة أخرى على جانب كبير من الأهمية نظراً لأنها تتعلق بالغزوات الحربية التي شنها ذلك الفرعون.
وقد نُقشت على كل الواجهة الأمامية للجزء الأيمن تقريباً صورة عملاقة لذلك البطل الفاتح شاهراً بلطة القتال، بينما يقبض بيده اليسرى على مجموعة من الأسرى الملتحين من شعورهم. كما تطالعنا صورة عملاقة للإله "آمون رع" يخاطب المنتصر قائلاً: "امسك بذلك السلاح، يابني الحبيب، وادحر زعماء الأقطار الأجنبية!].
ونرى أسفل تلك اللوحة الضخمة زعماء القبائل الخاضعة لـ"رمسيس ميآمون" راكعين، وقد قُيدت أيديهم خلف ظهورهم بقيود تنتهي بحزمة من البردي أو بزهرة اللوتس تبعاً لكون الأسير أسيوياً أو إفريقياً.
وتعطينا الملابس المتنوعة وتقاطيع وجوه هؤلاء الزعماء الأسرى صورة صادقة لسمات وملامح أهل تلك الشعوب ولثيابهم الخاصة. كما تمدنا النصوص الهيروغليفية على التوالي ياسم كل شعب من الشعوب. وقد طُمس اسمان تماماً. أما الخمسة أسماء المتبقية فهي:
- زعيم بلاد "كوشي Kouschi" (اثيوبيا) في قارة افريقية.
- زعيم بلاد "تيروزيس Térosis" في قارة افريقية.
- زعيم بلاد "تورروا Toroao" في قارة افريقية.
- زعيم بلاد "روبو Robou" في قارة آسيا.
- زعيم بلاد "مشوش Moschausch" في قارة آسيا.

وتزدان الواجهة الأمامية للكتلة اليسرى بلوحة مماثلة تصور الأسرى من الزعماء الأسيويين. وقد جاء ترتيبهم كالآتي :

- زعيم السلالة الدنيئة لبلاد " شيتو Schéto" أو"شيتاChéta".
- زعيم السلالة الدنيئة لبلاد "أمورو Aumor".
- زعيم بلاد "فيكارو Fekkaro".
- زعيم بلاد "شيروتانا Schairotana" الساحلية.
- زعيم بلاد "شا..." (باقي الإسم مطموس).
- زعيم بلاد "تويرشا Touirscha" الساحلية.
- زعيم بلاد "با..." (باقي الإسم مطموس).

وقد صُور "رمسيس ميآمون" على سُمْك الكتلة اليسرى مرتدياً خوذته ومعلقاً جعبة السهام على كتفه، يقود جماعات من أسرى الحرب بين يدي "آمون رع". ويخاطب الإله البطل المنتصر قائلاً : [فلتذهب ! ولتستول على تلك البقاع، اخضع حصونهم وقلاعهم، والق بزعمائهم في الأسر].

أما الكتلة الأخرى المماثلة، وكذا الجزء الرئيسي الذي يربط بين الصرح والجناح الكبير فتغطيهما العديد من النقوش؛ ولكن لا يتسع لنا المجال هنا لوصفها. كما نلاحظ وجود نوافذ مزخرفة من الخارج والداخل بذوق رفيع، وكذا شرفات تستند على تماثيل بارزة لأسرى همجيين.

وينقسم الجناح الكبير من الداخل إلى ثلاثة طوابق موشاة بنقوش بارزة تصور مشاهد من الحياة العائلية لـ"رمسيس ميآمون". وقد قمت بنسخ كل تلك اللوحات الهامة نسخاً دقيقاً. ومن بينها نرى فرعون يتناول وجبة طعام تحضرها له سيدات القصر، وكذا فرعون وهو يلهو مع أطفاله الصغار أو منشغلاً في اللعب مع الملكة بما يشبه لعبة الشطرنج ...الخ. وقد غُطي هذا الجناح من الخارج بنصوص ملكية ونقوش بارزة تذكارية لانتصاراته.

ثم نتبع المحور الرئيسي لتلك الأبنية الفريدة لنصل أخيراً أمام الصرح الأول لقصر "رمسيس ميآمون". علماً بأن البناء الذي وصفناه آنفاً ليس إلا مجرد ملحق تابع لذلك القصر الضخم والرائع.

وهنا تأخذ كل الأشياء أبعاداً ضخمة وهائلة. إذ تُذكرنا الواجهتان الخارجيتان لجزئي الصرح الأول الضخم -والتي تغطيهما

النقوش تماماً ـ بمآثر مؤسس ذلك البناء؛ ليس فقط من حيث لوحاتهما ذات المغزى الغامض والعام، وإنما أيضاً من حيث صور وأسماء الشعوب المهزومة، وكذا صور البطل الفاتح والإله الحامي الذي يهبه النصر. ويطالعنا الجزء الأيسر للصرح بصورة المعبود "بتاح ـ سكر" يُخضع لـ"رمسيس ميآمون" ثلاثة عشر قطراً اسيوياً لا تزال معظم أسمائهم منحوتة في إطارات على شكل دروع أمام الشعوب المكبلة في الأصفاد. وقد قام ذلك الفرعون بشن تلك الغزوات الحربية في العام الثاني عشر من حكمه، كما نقرأ في النص المسهب الذي لايزال يحتفظ بالأحد عشر سطراً الأوائل في حالة جيدة.

وتصور لنا اللوحة الكبيرة المنحوتة في الجزء الأيسر للصرح الإله "آمون رع" في هيئة المعبود "رع حور آختي" يعطي السلاح للملك "رمسيس" المحب للحرب لدحر تسعة وعشرين شعباً في الشمال والجنوب. ولايزال تسعة عشر اسماً لأقطار ومدن من بينها باقية في أماكنها، في حين طُمست بقيتها من جراء الأكواخ الحديثة التي تستند على جدران الصرح. ويوجه رب الأرباب خطاباً طويلاً إلى "ميآمون" نسوق فيما يلي نص الأعمدة العشرة الأولى: [يقول "آمون رع": يابني، نطفتي الغالية، سيد العالم، الشمس التي تحرس العدالة، صديق "آمون"، المالك لكل القوى الموجودة على وجه الأرض بأسرها، لقد سحقت تحت قدميك أمم الشمال والجنوب، وأخضعت لك زعماء الأقطار الجنوبية، فلتسقهم في الأسر هم وأطفالهم وأتباعهم، ولتنعم بكافة الخيرات التي تجود بها بلادهم، ولتهب الحياة لمن يقبلون الانصياع لك، وعاقب من يعادونك بأفئدتهم. كما أخضعت لك الشمال كذلك ... (فراغ)، الأرض الحمراء (بلاد العرب) وضعتها تحت نعليك] ...الخ. وترشدنا لوحة كبيرة ولكن غير مصقولة إلى قيام الملك بشن تلك الغزوات في العام الحادي عشر من حكمه.

كما ترجع النقوش البارزة للصرح الأول ناحية الفناء إلى نفس العام من حكم "رمسيس ميآمون". ويتعلق الأمر هنا بإحدى حملاته العسكرية ضد الشعوب الآسيوية المسماه "مشوش".

وقد تراكمت الأنقاض المتكدسة لتغطي كل الجزء السفلي للصرح، وتغمر صف الأعمدة الرائعة التي تزين الناحية اليسرى للفناء،

وكذا الرواق الذي يستند على أعمدة على هيئة تماثيل والذي يغلق ذلك الفناء من الناحية اليمني. وبالطبع فإن إزاحة الرمال عن ذلك الجزء من القصر ستتطلب أموالاً طائلة، وإن كانت ستؤدي بكل تأكيد إلى إبراز رواقين في حالة رائعة من الحفظ، وأعمدة مغطاه بالنقوش البارزة، وزخارف غنية لاتزال تحتفظ بألوانها المتألقة، وأخيراً سلسلة عديدة من اللوحات التاريخية الكبيرة. بيد أنه يتعين عليّ أن أقنع بنسخ نصوص الإهداء التي تغطي الإفريزين، وعتبات الأعمدة الأنيقة التي تشبه تيجانها زهرة اللوتس اليانعة.

وفي آخر ذلك الفناء الأول ينتصب صرح ثان مزدان بنقوش هائلة منحوتة تُذكرنا بالانتصارات التي أحرزها "رمسيس ميآمون" في العام التاسع من حكمه. إذ نرى ذلك الملك تعلو رأسه شارات الابن الأكبر لـ"آمون" يدخل معبد "آمون رع" والإلهة "موت"، ويسوق ثلاثة صفوف من أسرى الحرب غير الملتحين، والمقيدين في أوضاع مختلفة ومتعددة. ويُطلق على تلك الأمم التي تنحدر من نفس العرق أسماء "شاكالاشا Schakalascha" و"تاوناو Taonaou" و"بوروزاتو Pourosato". ويعتقد العديد من الرحالة بعد فحص سمات وجوه وثياب هؤلاء الأسرى أنهم من الشعوب الهندوسية. وعلى الجزء الأيمن للصرح نجد بقايا نص طويل تهدم ثلاثة أرباعه من جراء التشققات والحفائر. وقد استدللت منه أنه يتعلق بالحملة العسكرية ضد شعوب "شاكالاشا" و"فيكارو" و"بوروزاتو" و"تاوناو" و"اوشاشا Ouschascha". كما جاء في النص ذكر قطري "أمورو" و"اوركسا Oreksa"، وكذا معركة بحرية.

ويربط باب رائع من الجرانيت الوردي بين جزئي الصرح الثاني. وتزدان ركيزتاه بلوحات تعبد لمختلف مظاهر "آمون رع" و"بتاح". كما نتبين في أسفلهما نصي إهداء يشهدان بأن "رمسيس ميآمون" قد كرس ذلك الباب الكبير من أحجار الجرانيت الجميلة إلى أبيه "آمون رع". وأخيراً فقد ازدان مصرعا الباب بالمعادن النفيسة التي ينشرح لها صدر "آمون" عند تأملها. وعقب اجتياز ذلك الباب نجد أنفسنا داخل الفناء الثاني للقصر حيث يتجلى لنا الفن الفرعوني في أوج عظمته. إن البصر بمفرده يمكنه أن يعطينا فكرة عن الأثر العظيم الذي تتركه في النفوس رؤية تلك الباحة المعمدة التي تستند في الناحيتين الشرقية والغربية على صفوف

أعمدة ضخمة، وفي الناحية الشمالية على ركائز تستند عليها أعمدة ضخمة على هيئة تماثيل، وفي الناحية الجنوبية على أعمدة أخرى على هيئة تماثيل نلمح من خلفها صف آخر من الأعمدة. وقد غُطي كل ذلك بنقوش لاتزال تحتفظ بألوانها الزاهية. وينبغي إحضار كل الذين يكرهون الوحدات المعمارية الملونة في هذا المكان لكي يعدلوا عن رأيهم.

وقد احتفظت جدران الأروقة الأربعة لذلك الفناء بكامل زخارفها. إذ نرى لوحات كبيرة منقوشة وملونة تجذب فضول الرحالة. ويساعد اللون اللازوردي الجميل للأسقف المزدانة بنجوم صفراء برّاقة على استرخاء العين. ولكن سرعان ما تستحوذ المناظر المنقوشة التي شكّلها إزميل النحات على جام الاهتمام.

ويتكون الصف السفلي للرواق الشرقي ناحية اليسار من أربع لوحات تسرد لنا الوقائع الرئيسية لمعركة خاضها "رمسيس ميآمون" ضد الشعوب الأسيوية المسماه "روبو Robou" الذين يتميزون ببشرة فاتحة اللون وأنف أقني ولحية طويلة، ويلبسون رداء فضفاضاً من فوقه معطف مخطط بالعرض باللونين الأزرق والأبيض. وتتشابه تلك الثياب تماماً مع ثياب الآشوريين المرسومين على الاسطوانات البابلية.

وتمثل اللوحة الأولى معركة كبيرة نرى فيها البطل المصري منتصباً فوق عجلته الحربية المندفعة، يرشق بالسهام حشداً من الأعداء يلوذون بالهرب في فوضى عارمة. وفي مقدمة اللوحة نلمح القادة المصريين فوق عجلاتهم الحربية؛ بينما يمعن جنودهم وحلفاؤهم من بلاد "فيكارو" في قتل جنود "روبو" وقد سيطر عليهم الذعر، ويقيدونهم كأسرى حرب. وتحتوي تلك اللوحة على ما يناهز مائة صورة للأشخاص علاوة على صور الجياد.

وفي اللوحة الثانية نرى الأمراء وقادة الجيش المصري يسوقون إلى الملك المنتصر أربعة صفوف من الأسرى. كما ينهمك الكتبة في حصر وتسجيل عدد الأيدي اليمنى والأعضاء التناسلية المبتورة من جنود بلاد "روبو" الذين قُتِلوا في ساحة القتال. ونقرأ حرفياً في النص : [قيادة الأسرى في حضرة صاحب الجلالة. ويبلغ عددهم ألف أسير، وثلاثة الاف يد مبتورة وثلاثة الاف عضو تناسلي]. وقد كُدست تلك الغنائم وتذكارات النصر أمام قدمي فرعون الذي يوجه خطاباً

إلى جنوده جالساً في سكون فوق عجلته الحربية. إذ راح يهنئهم على ما أحرزوه من انتصار، ويسترسل في سذاجة شديدة في مدح شخصه والثناء عليها: [أطلقوا العنان لسعادتكم، ولتبلغ فرحتكم عنان السماء. فقد أطاحت قوتي بالأجانب، وأحل اسمي الرعب في قلوبهم. إذ واجهتهم كالأسد، وتعقبتهم كالصقر، وسحقت أرواحهم الآثمة. واجتزت أنهارهم، وأضرمت النيران في حصونهم. وقد فعلت من أجل مصر ما فعله المعبود "منتو": فقد قهرت الهمجيين. أما "آمون رع"، أبي، فقد جعل العالم كله ذليلاً تحت قدمي. وتبوأت العرش إلى الأبد].

وبخلاف تلك اللوحة العجيبة، نجد نصاً طويلاً جداً يتعلق بتلك الحملة العسكرية التي ترجع إلى العام الخامس من حكم "رمسيس ميآمون". ومن دواعي الأسف فإن ذلك النص قد أصابه التلف بصورة شديدة.

أما اللوحة الثالثة فتصور لنا عودة البطل الظافر إلى مصر، يقود عجلته الحربية ويمسك بالسوط في يده. ويدفع أمامه بجماعات من الأسرى المقيدين بالأغلال؛ بينما يبسط القادة مظلات كبيرة فوق رأس فرعون لتقيه وهج الشمس. وفي مقدمة اللوحة نرى قوات الجيش المصري مقسمة إلى فصائل تتقدم في صفوف منتظمة وفقاً للقواعد التكتيكية الحديثة. وأخيراً يدخل "رمسيس" "طيبه" ظافراً (اللوحة الرابعة). ثم يتوجه سيراً على الأقدام أمام معبد "آمون رع" والإلهة "موت"، ويسحب خلفه ثلاثة صفوف من الأسرى. ويوجه الملك خطاباً إلى الآلهة التي تجيبه بالوعود المعسولة.

ويشغل تكوين كبير كل مساحة الصف العلوي للرواقين الشمالي والشرقي على يمين الباب الرئيسي. ويصور احتفالاً عاماً يزيد عدد الأشخاص المرسومين فيه عن مائتي فرد. كما يشارك في تلك المسيرة الفخمة الصفوة المختارة من المصريين: إذ يتعلق الأمر بانتصار "رمسيس ميآمون"، والاحتفال الذي يقيمه هذا الملك وشعبه لشكر الآلهة على العناية المستمرة التي وهبتها للجيوش المصرية. ويرشدنا سطر من الأحرف الهيروغليفية الكبيرة المنحوتة أعلى اللوحة إلى وقوع ذلك الاحتفال تكريماً لـ"آمون-حورس" (اللذين يمثلان نقطتي البداية والنهاية في اللاهوت المصري) في "طيبه" في أول يوم من شهر "بشنس". وفضلاً عن ذلك يضم النص شرحاً

وتحليلاً دقيقاً للوحة الكبيرة التي يعلوها. كما يُعتبر -إذا جاز لنا القول- برنامجاً شاملاً للاحتفال.

إن التحليل السريع الذي أسوقه هنا ليس إلا ترجمة لذلك النص وللنصوص العديدة المنقوشة إلى جانب كل صورة وأعلى المجموعات الرئيسية.

يغادر "رمسيس ميآمون" قصره محمولاً داخل ناووس، فوق ما يشبه محفة غنية الزخارف يسندها اثنا عشر قائداً عسكرياً تزدان رؤوسهم بريش النعام. ويجلس فرعون مزداناً بكل شارات السلطة الملكية فوق عرش أنيق تحميه صور ذهبية لآلهة العدالة والحقيقة على هيئة طيور منبسطة الأجنحة. كما نجد تمثالاً لأبي الهول الذي يرمز إلى اقتران الحكمة بالقوة، وتمثالاً آخراً للأسد الذي يُجْسد الشجاعة والإقدام منتصبين على جانبي العرش لحمايته. ويهز الضباط المراوح الكبيرة حول الناووس؛ كما يسير أطفال صغار من الطبقة الكهنوتية إلى جانب الملك حاملين صولجانه وغمد قوسه وباقي شاراته. كما يسير خلف الناووس في صفين تسعة أمراء من العائلة المالكة، وكبار الكهنة، وقادة عسكريون. ويحمل عدد من المحاربين سلم الناووس وقاعدته. ثم يختتم المسيرة مجموعة من الجنود. كما يتقدم مسيرة فرعون مجموعات أخرى على نفس القدر من التنوع. إذ تتكون مقدمة الموكب من فرقة موسيقية تضم الناي والأبواق والطبول وجوقة المنشدين. ثم يتبعهم مباشرة أهل وأصدقاء فرعون المقربين، ومن بينهم نلمح لفيفاً من رجال الدين. وأخيراً يطالعنا الابن الأكبر لـ"رمسيس"، وقائد الجيوش من بعده، يحرق البخور أمام وجه أبيه.

وعند بلوغ معبد "آمون-حورس"، يقترب الملك من الهيكل، ويصب الماء الطهور، ويحرق البخور. في حين يحمل اثنان وعشرون كاهناً تمثال الإله موضوعاً فوق هودج وثير، ويتقدمون به وسط المراوح الكبيرة وأغصان الورود. ويسير الملك مرتدياً تاج العالم السفلي فقط أمام تمثال الإله. ويتبع مباشرة تمثال الثور الأبيض الذي يمثل الرمز الحي لـ"آمون-حورس" [الذي تزوج أمه]. ويقوم الكاهن بتبخير الحيوان المقدس. أما الزوجة الملكية لـ"رمسيس" فنراها في أعلى اللوحة تشاهد موكب الاحتفال الديني. وبينما يرتل كبير الكهنة بصوت عال الابتهال المستحب [عندما

يتجاوز النور الرباني عتبة معبده]، يتقدم تسعة عشر كاهناً حاملين مختلف الشارات المقدسة، والآنية وموائد القرابين، وكافة مواعين الطقوس والشعائر المقدسة. ويسبق ذلك الموكب الديني سبعة كهنة آخرون يحملون على أكتافهم تماثيل صغيرة لأجداد "رمسيس ميآمون" لإشراكهم في الاحتفال بانتصاراته.

عندئذ يُقام طقس ديني أخطأ البعض في تفسيره بصورة غريبة. إذ تُنصب شارتان مقدستان خاصتان بالإله "آمون-حورس" فوق الهيكلين. ويأتي كاهنان -نميزهما بفضل رأسيهما المحلوقين ولقبيهما المدونين إلى جانبهما- لتلقي أوامر الكاهن الأعظم الذي يرأس الاحتفال، ويمسك في يده بصولجان "بات Pat" الذي يشير إلى علو منزلته. ويطلق كاهن رابع أربعة طيور لتحلق في عنان السماء. وينبع الخطأ في تفسير ذلك المشهد على كونه يمثل تضحيات آدمية؛ باعتبار صولجان الكاهن الأعظم سكيناً، والكاهنين ضحيتين، والطيور رمزاً لروحي هذين التعيسين بعد ذبحهما. بيد أن النص المنقوش أمام الكاتب الديني المشارك في ذلك الاحتفال يطمئننا تماماً، ويثبت براءة ذلك المشهد، ويسرد علينا تفاصيله والغرض من ورائه.

وفيما يلي نورد ترجمة لذلك النص :

[يقول رئيس الاحتفال الديني:

أطلقوا الأوزات الأربعة،

"أمستAmset"، "سيسSis"، "سومتفSoumautf"، "كبسنيف Kebhsniu"

توجهوا صوب

الجنوب، الشمال، الغرب، الشرق،

وأخبروا آلهة الجنوب

وأخبروا آلهة الشمال

وأخبروا آلهة الغرب

وأخبروا آلهة الشرق

بأن "حورس"، ابن "ايزيس" و"أوزوريس" قد ارتدى لباس "البشنت"

وأن الملك "رمسيس" قد ارتدى لباس "البشنت"].

ونستنتج من ذلك بوضوح أن الطيور الأربعة ترمز إلى أبناء "أوزوريس" الأربعة: "أمست"، "سيس" ...الخ، الذين يمثلون الجهات الأصلية الأربعة. لذلك نهيب بهم التوجه إلى العالم كله للإعلان بأن الملك "رمسيس ميآمون" -مثل الإله "حورس"- قد وضع فوق رأسه التاج الذي يرمز إلى بسط هيمنته على العالمين العلوي والسفلي. ويُطلق على ذلك التاج اسم "بشنت pschent". وبالفعل يرتدي الملك ذلك التاج هنا للمرة الأولى واقفاً ومشاركاً في ذلك الطقس الديني المقدس الذي وصفناه آنفاً.

ويصور لنا الجزء الأخير للنقش البارز الملك مرتدياً الـ"بشنت"، يتوجه بالشكر للإله في معبده. ويصاحب الملك ضباط البلاط، ويتقدمه كل طبقة الكهنة والموسيقى المقدسة. كما نراه بعد ذلك يمسك بمنجل ذهبي ويقطع حزمة من القمح. ثم يضع أخيراً خوذته الحربية التي كان يرتديها عند خروجه من القصر، ويصب الماء الطهور، ويهم بمغادرة الإله "آمون-حورس" بعد وضعه في قدس الأقداس. وتبقى الملكة لمشاهدة هذين الطقسين الآخرين. ويتضرع الكاهن إلى الآلهة؛ ويرتل كاتب ديني دعاء طويلاً؛ بينما يظل تمثال الثور الأبيض وتماثيل أجداده الملوك منتصبة على قاعدة واحدة إلى جانب فرعون. وقد قادتني دراسة ذلك الجزء من اللوحة إلى التأكد أخيراً من المكانة التي يحتلها "رمسيس ميآمون" وسط سلسلة الأسرات المصرية المتعاقبة. إذ رُصت هنا تماثيل أسلافه الملوك ورُتبت ترتيباً زمنياً يتفق مع ما جاء في آثار "طيبه" الأخرى. مما لا يدع مجالاً للشك في ذلك التسلسل التاريخي على العرش. وقد نُقش في مقدمة كل تمثال من تلك التماثيل التسعة خرطوش واسم كل ملك منهم. وهم على التوالي بدأ من أقدمهم :

(١) أمنحتب الثالث (ممنون Memnon).

(٢) حورس.

(٣) رمسيس الأول.

(٤) مرينبتاح الأول (اوزيري Ousiréi).

(٥) رمسيس الأكبر.

(٦) مرينبتاح الثاني.

(٧) مرينبتاح الثالث.

(٨) رعميري Rhamerre.
(٩) رمسيس ميآمون.

وهكذا فقد استخلصت من مختلف الآثار ضرورة إدراج "رمسيس الأكبر" أو "سيزوستريس" كما يسميه المؤرخ "هيرودوت" بين ملوك الأسرة الثامنة عشرة. كما يتعين علينا الاعتراف بأن "رمسيس ميآمون" هو مؤسس الأسرة التاسعة عشرة.

وقد تميز عهد هذين الملكين بالمآثر العسكرية العظيمة؛ لدرجة أن المؤرخين اليونانيين قد خلطوا بينهما ومزجوهما في شخص واحد. بيد أن ما خلفاه من آثار تميز بينهما بصورة واضحة لا تترك مجالاً للإلتباس. وسأتصدى للحديث عن ذلك الفرق الهام بينهما بمزيد من التفصيل في مقام آخر. ولنعاود الحديث الآن عن زخارف فناء "مدينة هابو" الرائع. ففي الصف العلوي للرواق الشرقي ناحية اليسار، وكذا في الرواق الجنوبي نُقشت لوحة ثانية تمثل احتفالاً عاماً لا يقل حجماً عن الاحتفال السابق. إذ يتعلق الأمر باحتفال أقامه الملك تكريماً لأبيه الإله "سكر-اوزوريس" في اليوم السابع والعشرين من شهر "هاتور". وقد قمت بنسخ رسوم ذلك الاحتفال نسخاً أميناً، وكذا العديد من النصوص التفسيرية المصاحبة لها.

ولن أتوقف للحديث طويلاً عن اللوحات التقديسية والأمجاد الملكية التي تهبها الآلهة لـ"رمسيس ميآمون"، كما نتبين من مجموعة النقوش البارزة الكبيرة المنحوتة في الصفوف السفلية للأروقة الشرقية والشمالية والجنوبية. كما أنه لا حاجة بي لذكر أسماء الآلهة التي يقدم لها فرعون مختلف القرابين، والمدونة في مائة وأربعة وأربعين نقشاً بارزاً وملوناً يزين الركائز الستة عشر المنتصبة في الرواقين الشرقي والغربي؛ فضلاً عن بقية الأسماء الأخرى المنقوشة على جذوع صفوف الأعمدة الثلاثة التي يستند عليها الرواقان الشمالي والجنوبي وكذا الرواق الغربي من الداخل. كما تطالعنا جدران ذلك الرواق -الذي يتكون من صفين من الأعمدة والركائز على هيئة تماثيل- بأربعة وعشرين نقشاً بارزاً كبيراً تصور تضرع الملك وورعه تجاه الآلهة، وكذا النعم التي تغدقها آلهة "طيبه" العظيمة على فرعون المنتصر. ويزدان الجزء السفلي لذلك الرواق بمجموعة من الرسوم تصور أشخاصاً تجدر ملاحظتها بصورة خاصة.

أما النصوص الهيروغليفية المنقوشة إلى جانب هؤلاء الأشخاص الذين يرتدون ملابس الأمراء المصريين، ويمسكون في أيديهم بالشارات المميزة، فتشير إلى أن الأمر يتعلق بأطفال "رمسيس ميآمون". وقد جاءت صورهم مسلسلة تبعاً لأعمارهم؛ بعد أن تم تقسيمهم إلى مجموعتين من الذكور والإناث. أما الأمراء الذكور التسع، فقد نُقش اسم كل واحد منهم إلى جانب صورته على النحو التالي :

(١) "رمسيس-آمونمي Rhamsès-Amonmai"، كاتب ملكي وقائد الفرق العسكرية.

(٢) "رمسيس-آمون-حي-شوبش Rhamsès-Amon-hi-schopsch"، كاتب ملكي وقائد سلاح الفرسان.

(٣) "رمسيس-مندو-حي-شوبش Rhamsès-Mandou-hi-schopsch"، كاتب ملكي وقائد سلاح الفرسان.

(٤) "فريحيبفبور Phréhipefhbour"، كبير موظفي الإدارة الملكية.

(٥) "ماندو-شوبش Mandou-schopsch"، كبير موظفي الإدارة الملكية.

(٦) "رمسيس-ميتمو Rhamsès-Maithmou"، رسول المعبودين "فريه" و"آتوم".

(٧) "رمسيس-شا-حم-كم Rhamsès-Scha-hem-kame"، كبير كهنة الإله "بتاح".

(٨) "رمسيس-آمون-حي-شوبش Rhamsès-Amon-hi-schopsch"، لا يحمل سوى لقب أمير.

(٩) "رمسيس ميآمون Rhamsès-Méiamoun"، لا يحمل سوى لقب أمير.

وقد تعاقب الأمراء الثلاثة الأوائل على عرش الفراعنة عقب وفاة والدهم. أما فيما يتعلق بتلك القائمة الهامة من الأسماء، فيتعين علينا ملاحظة أن اسم "رمسيس" قد أصبح في ذلك الوقت إلى حد ما الاسم الذي يُطلق على الأسرة نفسها. وأن ذلك البطل الفاغ قد أسند أهم المناصب في الجيش والإدارة المدنية وطبقة الكهنوت إلى أفراد أسرته. أما عن أسماء الأميرات الإناث من بنات الملك فلم يتم تدوينها أبداً.

وتشغل صور تلك المجموعة من الأمراء والأميرات الجزء السفلي، على جانبي باب كبير ورائع يفضي إلى وسط الرواق الغربي. وكان ذلك الباب يقود في سالف الزمان إلى فناء ثالث مُسّور يتبعه عدد كبير من الحجرات. إلا أن الأنقاض المتراكمة قد دفنت منذ زمن بعيد ذلك الجزء من القصر الذي لا يزال موجوداً تحت حطام الأبنية الهزيلة التي تتابعت على مر السنين. وقد تكشف لنا عمليات التنقيب الواسعة في تلك المنقطة عن لوحات ونصوص على جانب كبير من الأهمية. بيد أن إمكانياتي المادية لا تسمح لي بالتفكير في إجراء تلك الحفائر. إذ أنني احتفظ بما في حوذتي من أموال لتكريسها لإزاحة الرمال عن النقوش البارزة الضخمة التي تغطي كل الجزء الشمالي الخارجي للقصر ابتداء من الصرح الأول، وكل السور الجنوبي الخارجي المدفون حتى مستوى الإفريز الذي يتوج البناء كله.

ويمدنا السور الشمالي بسلسلة من النقوش البارزة التاريخية على جانب عظيم من الأهمية. وسأقدم فيما يلي عرضاً موجزاً لموضوع كل واحد من تلك النقوش ابتداء من الطرف الغربي للجدار.

حملة عسكرية ضد شعوب "مشوش" و"روبو"

تُبرز لنا اللوحة الأولى تقدم القوات المصرية في ثمانية أو تسعة صفوف. كما نرى نافخ البوق ومجموعة من الجنود شاهرين أسلحتهم يتقدمون عجلة حربية يقودها سائق شاب. وقد نُصبت في وسط عجلة الإله "آمون رع" الحربية سارية يعلوها رأس كبش ويزينها قرص الشمس. وهي تقود الملك "رمسيس ميآمون" لملاقاة أعدائه منتصباً فوق عجلة حربية غنية الزخارف؛ ومحاطاً بالقواسين من رجال حرسه، وكذا الضباط المكلفين بحمايته. وإلى جانب عربة الإله نقرأ : [هذا ما يقوله "آمون رع"، رب الأرباب: إنني أقود خطاك يا بني !].

وفي اللوحة الثانية نرى معركة دامية : "المشوش" يفرون هرباً أمام الملك وأربعة أمراء مصريون يمعنون فيهم ذبحاً وتقتلاً.

وفي اللوحة الثالثة يطل علينا "رمسيس" واقفاً فوق ما يشبه منصة يخطب في خمسة صفوف من القادة والمحاربين المصريين الذين يسوقون أمامهم حشداً من أسرى "مشوش" و"روبو". ويتبع ذلك

إجابة القادة العسكريين على الملك. ثم تقدم كل فصيلة من فصائل الجيش إحصاء بعدد الأيدي اليمنى والأعضاء التناسلية المبتورة من الأعداء الذين سقطوا في ساحة الوغى. وينطوي ذلك على مدح لشجاعة الفريق المهزوم وبسالته. كما يحدد لنا النص عدد تلك الغنائم ودلائل الانتصار بألفين وخمسمائة وخمسة وثلاثين عضواً مبتوراً.

حملة عسكرية ضد شعوب "فيكارو" و"شاكالاشا" وغيرها
من الشعوب الهندوسية المنحدرة من نفس العرق.

في اللوحة الأولى (التي تتبع اللوحات السابقة) نرى الملك "رمسيس ميآمون" مرتدياً الزي المدني، يلقي خطاباً أمام القادة العسكريين الراكعين أمامه، وكذا حاملي رايات فصائل الجيش المختلفة. وعلى مبعدة من ذلك يصغي الجنود واقفين إلى عبارات الملك الذي راح يحضهم على القتال للقصاص من أعداء مصر. ويلبي القادة نداء الملك مشيدين بانتصاراته الأخيرة، ويؤكدون إخلاصهم وولاءهم لأميرهم الذي يلتزم بتعاليم الإله "آمون رع". ثم يُنفخ في النفير، وتُفتح ترسانات الأسلحة. ويتقدم الجنود مقسمين إلى فصائل في نظام شديد خلف قادتهم. ثم تُوزع عليهم الخوذ والأقواس وجعاب السهام، وفؤوس القتال والرماح، وكافة الأسلحة التي كانت مستخدمة في ذلك الوقت.

وتصور لنا اللوحة الثانية الملك عاري الرأس ومجدول الشعر يمسك بعنان جياده، ويتقدم صوب العدو. ويحتل جنود المشاة المدججين بالسلاح مقدمة صفوف الجيش المصري. بينما تتقدم فصائل القوات الخفيفة من مختلف الأسلحة على الجناحين. ثم تأتي العجلات الحربية في ختام المسيرة. ونجد في أحد نصوص ذلك النقش البارز تشبيهاً للملك بنطفة الإله "منتو" الذي يتقدم لإخضاع الأرض بأسرها لقوانينه. كما يُشبّه جنود المشاة بالثيران المرعبة؛ وأخيراً يُشبَّه الفرسان بالصقور الخاطفة.

وتُبرز لنا اللوحة الثالثة هزيمة شعوب "فيكارو" وحلفائهم، وفرارهم من ساحة القتال أمام جنود المشاة المصريين. ويستعين الملك "ميامون" بعجلاته الحربية لسحقهم بلا شفقة. كما نرى مقاومة بعض قادة العدو الذي يركبون عربات يجرها جوادان أو أربع بقرات. وفي خضم تلك المعمعة، نلمح في أحد أطراف اللوحة جنود

"فيكارو" يدافعون عن العديد من العربات التي تجرها الأبقار والمملوءة بنسائهم وأطفالهم. إلا أن قواهم تخور أمام هجمات الجنود المصريين الذين ينجحون في أسرهم.

وفي أعقاب ذلك الانتصار الأول، تصور لنا اللوحة الرابعة القوات المصرية تعاود الزحف في نظام دقيق ومحكم للانقضاض من جديد على العدو. ويخترق الجيش بلاداً وعرة تنتشر فيها الحيوانات المتوحشة : إذ نرى أسدين يهاجمان الملك الذي يقتل أحدهما ويصارع الأسد الآخر.

وفي اللوحة الخامسة يبلغ الملك وجنوده شاطيء البحر في لحظة اشتباك الأسطول البحري المصري مع أساطيل "فيكارو" وحلفائهم "شيروتاناسSchairotanas" الذين يرتدون خوذاً مزودة بقرنين. وتلجأ البوارج المصرية في مناوراتها إلى استخدام الشراع والمجاديف. بينما يرتص القواسون على متنها، وتزدان مقدمتها برأس أسد. ثم نرى غرق أول سفينة تابعة لـ"فيكارو"، ومحاصرة أسطول حلفائهم بين الأسطول المصري من ناحية وبين شاطيء البحر من ناحية أخرى. ومن أعلى الشاطيء يلقي "رمسيس ميآمون" وجنود المشاة بوابل من السهام على السفن المعادية. ثم حاقت الهزيمة بالأعداء، وراح أفراد الأسطول المصري يكدسون الأسرى إلى جانب الجدافين. وفي مؤخرة اللوحة على مقربة من فرعون، نرى عجلته الحربية وحشد الضباط المكلفين بحراسته. وقد قمت بعمل نسخة دقيقة لتلك اللوحة الضخمة التي تحتوي على عدة مئات من صور الأشخاص.

وفي اللوحة السادسة نرى المحاربين المصريين ينتشرون على طول الشاطيء، ويقودون مجموعات عديدة من أسرى "شيروتاناس" و"فيكارو". ثم يتجه المنتصرون للحاق بالملك وجزء من جيشه أمام موقع محصن يُطلق عليه اسم "موجاديرو Mogadiro" حيث يتم إحصاء عدد أيدي الأعداء المقطوعة. وينتصب الملك فوق منصة مستنداً بذراعه اليسرى على وسادة لإلقاء خطاب على أولاده وكبار قادة جيشه. ثم يختم خطابه بالعبارات البارزة التالية: [كان "آمون رع" يساندني عن يميني وعن يساري. وقد استلهمت قراراتي من روحه، فـ"آمون رع" نفسه هو الذي هيأني على هزيمة أعدائي، ووضع العالم كله في قبضتي]. ويجيب

الأمراء والقادة قائلين بأن فرعون هو الشمس المؤهلة لإخضاع كافة شعوب العالم؛ وأن مصر تبتهج بالانتصار الذي أحرزه ابن "آمون" الذي يجلس على عرش أبيه].

أما اللوحة السابعة فتصور لنا عودة فرعون إلى "طيبه" ظافراً بعد الحملة العسكرية المزدوجة التي شنها ضد شعوب "روبو" و"فيكارو". ونرى "رمسيس" يقود زعماء تلك الشعوب الرئيسيين أمام معبد ثالوث "طيبه" العظيم: "آمون رع" و"موت" و"خنسو". وفيما يلي نسوق ترجمة لنص الخطاب الذي يلقيه كل واحد من المشاركين في تلك اللوحة الحماسية والدينية :

[كلمات زعماء بلاد "فيكارو" و"روبو" الواقعين تحت هيمنة صاحب الجلالة، والذين يسبحون لله المنعم، سيد الكون، الشمس التي تحرس العدالة، صديق "آمون": إن عنايتك المطلقة لا حد لها، إنك تحكم مصر مثل الشمس الجبارة، ما أشد قوتك وبأسك، ...، إن أرواحنا ملك لك، وكذلك مصائرنا التي تسيطر عليها إلى الأبد].

[كلمات الملك، سيد العالم (...الخ) إلى أبيه "آمون رع"، رب الأرباب: لقد لبيت أوامرك، وتعقبت الهمجيين، وحاربت في شتى أنحاء الأرض، وما عاد شيء يستوقفني بعد أن أتيت على العالم كله، ...، وأخضعت يدي جميع زعماء الأرض، وفقاً للوصايا والتعاليم التي تفوهت بها ...].

[كلمات "آمون رع"، سيد السماء: لتصاحب عودتك البهجة والسعادة! لقد تعقبت "الأقواس التسعة" (الهمجيين)، وأطحت بكل الزعماء، وطعنت الأجانب في قلوبهم، وحررت أنفاس كل ... (فراغ). لذلك فإن لساني يؤيدك].

وتمتد تلك اللوحات التي تسرد الوقائع الرئيسية لغزوتين شنهما البطل المصري في العام الحادي عشر من حكمه، حتى الصرح الثاني للقصر. كما تكثر النقوش بنفس القدر ابتداء من تلك النقطة وحتى الصرح الأول؛ على الرغم من اختفاء العديد من اللوحات تحت تلال الأنقاض المتراكمة. بيد أنني تمكنت من نسخ نقشين بارزين كبيرين يصوران حملة عسكرية ثالثة قادها الملك ضد شعوب أسيوية، مصحوبة بنصوص في حالة سيئة جداً من الحفظ. وتصور لنا اللوحة الأولى "رمسيس ميآمون" متسلحاً بدرع كبير يقاتل أعداءه، ويطاردهم صوب مدينة محصنة تقع في مكان مرتفع. أما اللوحة

الثانية فتصور لنا الملك على رأس عجلاته الحربية يسحق خصومه أمام مدينة محصنة فرض عليها جزء من الجيش المصري حصاراً مشدداً. ويقوم الجنود بقطع الأشجار، والاقتراب من الخنادق محتمين بدرع متنقل. وينجح جنود آخرون في عبور الخنادق، ويداهمون باب المدينة، وينهالون عليه بالفؤوس والبلْط. وأخيراً يتمكن كثيرون منهم من نصب سلالم لتسلق الأسوار واقتحامها واضعين دروعهم فوق أكتافهم.

كما تطالعنا خلف الصرح الأول لوحة تتعلق بإحدى الغزوات ضد الأمة الكبيرة المسماه "شيتا" أو "شيتو". إذ نرى الملك منتصباً فوق عربته، يسحب سهماً من الجعبة المثبتة على كتفه ويسدده إلى حصن يكتظ بالهمجيين. ويتقدم الجنود المصريون في أربعة صفوف متوازية خلف الملك، وكذا الضباط المكلفون بحراسته.

تلك هي اللوحات التاريخية الضخمة التي لا نزال نراها في قصر "مدينة هابو" الرائع، على الرغم من كميات الرمال التي تغطيه. ويرجع بناء ذلك القصر إلى عهد "رمسيس ميآمون"؛ علماً بأن خلفاءه المباشرين لم يضيفوا سوى بعض الأشياء البسيطة التي لا تكاد تُذكر. أما الكم الهائل من أسماء الشعوب والأمم الأسيوية والإفريقية التي جمعتها فتفتح لي مجالاً خصباً وجديداً للأبحاث الجغرافية المقارنة. كما تُشكل عناصر هامة لإعادة رسم خريطة "اثنوغرافية" للعالم في فترة من أعرق فتراته التاريخية. ويحدوني الاعتقاد في امكانية التوصل إلى مرادفات بين أسماء تلك الشعوب التي وضعها المصريون القدماء وبين نفس تلك الأسماء التي تركها لنا الجغرافيون اليونانيون، وكذا تلك التي ورد ذكرها في النصوص العبرية والمذكرات الأصلية للأمم الأسيوية على وجه الخصوص. ومما سيسهل من اجراء تلك الدراسة الهامة والعظيمة هو إلمامنا الإيجابي بملامح وجوه وثياب كل شعب من تلك الشعوب؛ وكذلك مقارنة تلك الأسماء بالأسماء الأخرى التي أمدتني بها بوفرة بقية الآثار المصرية في "طيبه" وبلاد النوبة.

وقد تعين علينا إزاحة الرمال عن كل السور الخارجي للقصر في الناحية الجنوبية وحتى الصرح الثاني لاكتشاف الأسطر الهيروغليفية الرأسية الكبيرة التي تحتوي على التقويم المقدس الذي كان متبعاً في قصر "رمسيس". ويحتوي الجزء الذي أنفقنا أموالاً طائلة في سبيل تنقيبه على أسماء الأشهر: "توت" و"بابه" و"هاتور" و"كهيك" و"طوبه". كما عثرنا في طرف القصر على نص يعود إلى شهر "بشنس"، آخر شهور العام عند المصريين القدماء. ويحدد لنا ذلك التقويم أسماء كل الأعياد التي يجري الاحتفال بها في كل شهر من الشهور على مدار العام. كما يمدنا بجدول إجمالي يشمل عدد كل نوع من أنواع القرابين التي ينبغي تقديمها في كل عيد. ولكي نعطي فكرة عن ذلك التقويم، نسوق فيما يلي ترجمة لبعض تلك الأسطر:

[شهر "توت"، عيد القمر الجديد الذي يواكب ظهور نجم الشعرى اليمانية. يخرج تمثال "آمون رع"، رب الأرباب، في موكب من المعبد يصاحبه الملك "رمسيس" وكذا تماثيل باقي آلهة المعبد الأخرى].

[شهر "بابه"، اليوم التاسع عشر الذي يواكب الاحتفال الرئيسي بعيد "آمون" في "اوبت " (قصر الكرنك). يخرج تمثال "آمون رع" من المعبد وكذا باقي تماثيل الآلهة كلها في صحبة الملك "رمسيس" للاحتفال بذلك اليوم].

[شهر "هاتور"، اليوم السادس والعشرين الذي يواكب عيد الإله "بتاح-سكر". يصاحب الملك تمثال الإله الذي يحمي "الرامسيوم" و"الميامون" (قصر مدينة هابو) و"طيبه" على الضفة اليسرى للاحتفال بذلك اليوم].

ويستمر ذلك الاحتفال خلال يومي السابع والعشرين والثامن والعشرين من نفس ذلك الشهر. وقد صُور ذلك الاحتفال في النقوش البارزة العلوية الكبيرة التي تزين الرواقين الشرقي والجنوبي الواقعين في الفناء الثاني للقصر. وفضلاً عن ذلك فقد استنتجت من عدد كبير جداً من النصوص أن المصريين كانوا يطلقون اسم "رامسيوم الميامون" على قصر "مدينة هابو" الرائع الذي سبق أن قدمت وصفاً سريعاً له.

* * *

رغبة مني في اعطاء فكرة عامة وشاملة عن الحي الجنوبي-الغربي للعاصمة الفرعونية العريقة الواقعة على مقربة من إقليم "أرمنت Hermonthis"، يتعين عليّ تقديم بعض التفاصيل حول بناءين مقدسين أقل أهمية في حقيقة الأمر من قصر "ميآمون" الفاخ، ولكن يمثلان مع ذلك بعض الأهمية من مختلف النواحي التاريخية والميثولوجية.

ينتصب البناء الأول وسط غابة من العُشْب والأشواك خارج الزاوية الجنوبية-الشرقية، وعلى مقربة شديدة من الحرم المربع الضخم المشيد من الطوب اللبن، والذي كان يحيط بقصر ومعابد "مدينة هابو" في سالف الزمان. وهو عبارة عن بناء صغير الأبعاد، لم يتم الانتهاء من تشييده أبداً. ويتكون من حجرة تسبق قدس الأقداس بالإضافة إلى ثلاث حجرات متتالية، زُينت الحجرتان الأخيرتان فقط بلوحات منحوتة وملونة، أو بمناظر تم وضع خطوطها الأولى، أو تم تحديدها بالمداد الأحمر فقط. ولا تدع لنا تلك اللوحات مجالاً للشك حول الغرض من وراء إنشاء هذا الأثر أو تاريخ تشييده. فهو يرجع إلى عصر البطالمة كما نستدل على ذلك من إهداءين رديئين منحوتين حول قدس الأقداس من الداخل، وكذلك من الأسماء الملكية المدونة أمام الأشخاص المرسومين في كل لوحات التعبد. ونتبين بوضوح من الإهداء أن الملك "يورجتيس الثاني" وأخته الملكة "كليوباترا" قد شيدا ذلك البناء، وكرساه لأبيهما المعبود "تحوت".

ويُعد ذلك المعبد الوحيد الذي لايزال قائماً في مصر ومكرساً على وجه الخصوص إلى راعي العلوم ومبتكر الكتابة وكافة الفنون النافعة، والمنظم للمجتمع الإنساني. وتطالعنا صورته على معظم اللوحات التي تزين جدران الحجرة الثانية، وخاصة جدران قدس الأقداس. وقد كان المصريون القدماء يتضرعون إليه تحت اسمه المألوف "تحوت" المتبوع على الدوام بلقب "سوتم SOTEM" أي "المدبر الأسمى للأمور المقدسة"، أو بنعت "حو-إن-حيب Ho-en-Hib" الذي يعني "ذو رأس أبي منجل". وقد رُسمت جميع صور هذا الإله

في المعبد على هيئة رأس ذلك الطائر المقدس تعلوها تيجان مختلفة.

كما كانت تقام أيضاً في نفس ذلك المعبد طقوس وشعائر خاصة للإلهة "نوحيموو Nohémouo" أو "ناحاموو Nahamouo" على هيئة النسر الذي كان يرمز إلى الأمومة. أما النصوص التفسيرية المنحوتة إلى جانب الصور العديدة لرفيقة المعبود "تحوت" فتدمجها بالإلهة "ساشفموSaschfmoué" الرفيقة المألوفة لـ"تحوت"، والمنظمة لفصول السنة للمحافل المقدسة. وتتلقى هاتان الإلهتان فضلاً عن ألقابهما العادية، لقب "المقيمتان في مانتوم Manthom" وهو الاسم العريق لذلك الموقع من "طيبه" حيث ينتصب معبد "تحوت".

ويزدان إفريز الباب الذي يفضي إلى الحجرة الأخيرة في المعبد أي قدس الأقداس بأربع لوحات تمثل الملك "بطليموس" يقدم قرابين ثمينة أولاً إلى الآلهة الرئيسية الحامية لـ"طيبه": أي "آمون رع" و"موت" و"خنسو" الذين تنتشر عبادتهم في تلك العاصمة المترامية الأطراف؛ ثم إلى إلهيي المعبد أي المعبود "تحوت" والمعبودة "ناحاموو". كما نجد داخل قدس الأقداس صوراً لثالوث "طيبه" العظيم، وكذلك للثالوث المعبود في إقليم "أرمنت" الذي يبدأ على مقربة من المعبد. وتطالعنا لوحتان كبيرتان واحدة على اليمين والأخرى على اليسار، تصوران كالمعتاد المركب المقدسة لآلهة المعبد. وقد رُسمت مركب المعبود "تحوت" (ذي رأس أبي منجل Peho-en-Hib) على اليمين؛ بينما رُسمت مركب "تحوت" (المشرف على الأمور المقدسة Psotem) على اليسار. وتتميز كلتاهما برأس الصقر التي تزين مقدمتهما ومؤخرتهما يعلوها قرص الشمس والهلال. وترمز تلك الرأس إلى المعبود "خنسو"، الابن الأكبر لـ"آمون" و"موت"، والذي يُكون معهما ثالوث "طيبه" المقدس. علماً بأن المعبود "تحوت" ليس إلا شكلاً ثانوياً من أشكال "خنسو".

ونجد دائماً في هذة الحجرة، كما في الحجرة السابقة، الملك "بطليموس يورجتيس الثاني" يقدم القرابين والهدايا النفيسة إلى الآلهة المحلية. بيد أن أربعة نقوش بارزة داخل قدس الأقداس، نُحت اثنان منها على يمين الباب واثنان آخران على يساره، قد استرعت

انتباهي على وجه الخصوص. إذ أن الملك الورع لا يقدم الهبات والعطايا إلى آلهة بمعنى الكلمة. بل إن "يورجتيس الثاني" ـ كما جاء حرفياً في النصوص التفسيرية المصاحبة للنقوش ـ يُطلق البخور [تكريماً لآباء آبائه ولأمهات أمهاته]. كما يقوم الملك بالفعل بتأدية مختلف الطقوس الدينية في حضرة أشخاص من الجنسين، اصطف كل اثنان منهما على حدة، واضعين شارات بعض الآلهة. وتهدينا النصوص التفسيرية المنحوتة أمام كل واحد من هؤلاء الأشخاص إلى أن ذلك الاحتفاء موجه إلى ملوك البطالمة وملكاتهم، الأجداد المباشرين لـ"يورجتيس الثاني". وبالفعل يصور لنا النقش البارز الأول جهة اليسار "بطليموس فيلادلف" متنكراً في زي "أوزيريس" متربعاً على العرش، وبجواره تقف زوجته الملكة "أرسينوي" متخذة شارات الإلهتين "موت" و"حتحور". ويرفع "يورجتيس الثاني" يديه في وضع المتعبد أمام الزوجين المعروفين في النصوص بـ [الأب الإلهي لآبائه "بطليموس"، الإله "فيلادلف"؛ والأم الإلهية لأمهاته، "أرسينوي"، الإلهة "فيلادلف"].

وعلى مبعدة من ذلك يُهدي "يورجتيس الثاني" البخور إلى شخص جالس كذلك على العرش، ويحمل شارات الإله "سكر-أوزيريس"؛ وتصاحبه ملكة واقفة يزدان رأسها بتاج "حتحور". ونقرأ في النصوص: [والد آبائه، "بطليموس"، الإله الخالق؛ الأم الإلهية لأمهاته، "برينكي"، الإلهة الخالقة]. ويمكننا التعرف في هذة اللوحة إما على "بطليموس سوتير الأول" وزوجته "برينكي" ابنة "ماجاس Magas"؛ وإما على "بطليموس يورجتيس الأول" وزوجته وأخته "برينكي". وقد نميل إلى أحد هذين الاحتمالين على السواء بسبب عدم وجود الخرطوش الذي يحدد الاسم الأول لـ"بطليموس" في النصوص. ولكن إذا وضعنا في اعتبارنا أن هذين الزوجين يتلقيان تكريم "يورجتيس الثاني" على إنعامهما أولاً على "بطليموس" و"أرسينوي فيلادلف"، فسنقتنع بأن اللوحة الثانية تتعلق بأبناء وخلفاء البطالمة المباشرين: أي "يورجتيس الأول" وأخته "برينكي". علماً بأن لقب "الإله الخالق أو المؤسس Pther-mounk" يتناسب تماماً في حقيقة الأمر مع "بطليموس سوتير الأول" مؤسس النفوذ البطلمي. بيد أنني على

يقين من أن ذلك اللقب قد أسند إلى حشد من الملوك الذين لم يقوموا بتأسيس أسرات.

كما نرى نقشين بارزين منحوتين على يمين الباب يصوران "يورجتيس الثاني" يقدم ابتهالات مماثلة لصور أجداده وخلفائه الآخرين. وتطالعنا اللوحة الأولى بالملك يصب الماء الطهور أمام الأب الإلهي لأبيه، "بطليموس"، الإله "فيلوباتور"؛ والأم الإلهية لأمه، "أرسينوي"، الإلهة "فيلوباتور". ونراه أخيراً في اللوحة الثانية يُهدي النبيذ إلى أبيه الملك "بطليموس"، الإله "إبيفانس"؛ وإلى أمه الملكة "كليوباترا"، الإلهة "إبيفانس". وقد تنكر أبوه وجده في زي الإله "أوزيريس"، كما تنكرت والدته وجدته في زي الإلهة "حتحور". أما الألقاب "فيلادلف" و"فيلوباتور" و"إبيفانس" فقد نُقشت بعد الخراطيش التي تحمل الأسماء، وعُبر عنها بأحرف هيروغليفية صوتية (تمثل الكلمات المناظرة باللغة القبطية). وهكذا نستنبط من تلك اللوحات الأربعة شجرة النسب الكاملة لـ"يورجتيس الثاني"، وتتابع أسماء ملوك الأسرة البطلمية ابتداء من "بطليموس فيلادلف".

وعلى هذا النحو تُعيننا الآثار المصرية على تأكيد الشواهد التاريخية المستقاه من كتابات اليونانيين، فضلاً عن إلقائها الضوء وتنسيقها للمفاهيم الغامضة وغير المتماسكة التي نقلها لنا اليونانيون حول تاريخ مصر عامة، وحول عصوره القديمة على وجه الخصوص. أما عن العادة التي انتهجها قدماء المصريون في توشية جدران آثارهم بمجموعات عديدة من اللوحات التي تصور مناظر دينية أو أحداث معاصرة تضم صور الملك الحاكم الذي نُحتت في عهده تلك النقوش البارزة، فإن تلك العادة كان لها عظيم النفع على التاريخ نظراً لأنها حفظت لنا حتى الآن كنزاً عظيماً من الأفكار والمفاهيم التي كنا سنبحث عنها بدون جدوى. وبوسعنا القول بمنتهى الصدق بأن كل أثر من الآثار المصرية يشرح نفسه بنفسه بفضل تلك النقوش البارزة والنصوص العديدة المصاحبة لها. وتكفينا في الواقع دراسة النقوش التي تُزين قدس الأقداس للبناء الواقع إلى جوار حرم "مدينة هابو"، أي الجزء الوحيد في الأثر الذي تم الانتهاء من زخرفته بالفعل، لكي نتيقن على الفور بأننا داخل معبد كُرس إلى الإله "تحوت"، وتم تشييده في ظل حكم "يورجتيس

الثاني" وأخته وزوجته الأولى "كليوباترا". كما تم الانتهاء من نقوشه في وقت لاحق لتاريخ زواج "يورجتيس الثاني" بابنة أخته وزوجته الثانية "كليوباترا" التي ورد ذكرها في النصوص الملكية التي تُزين سقف قدس الأقداس. كما أن الطابع المُخنث والأخرق الذي يغلب على النقوش البارزة، والخشونة في رسم الأحرف الهيروغليفية، والعناية القليلة التي تمت مراعاتها عند تلوين النقوش، كل تلك الدلائل تتفق تماماً مع التواريخ الواردة في نصوص الإهداء، وتشير إلى أن معبد "تحوت" الصغير يُعد نتاجاً لاضمحلال الفنون المصرية وانحطاطها المتسارع خلال العهود الأخيرة للاحتلال اليوناني.

كما يوجد بناء آخر يعود إلى عصر لاحق، ويُعتبر بالنسبة للرحالة مثالاً بليغاً لما آل إليه فن النحت من انحطاط واضمحلال تحت تأثير الحكومة الرومانية. ونقصد بذلك الأطلال التي أطلق عليها السيدان "جولوا" و"دوفيلييه" في "الوصف العام لطيبه" اسم [المعبد الصغير الواقع على الطرف الجنوبي للميدان]. وقد كرست نهار الأمس كله في تفحص أنقاضه.

وفي الصباح الباكر غادرت أنا و"سالفادور شاروبيني" منزلنا بـ"القرنة"، وعدونا صوب "مدينة هابو". ثم مررنا على مقربة من معبد "تحوت" الصغير، وبلغنا سفح التلال المصطنعة التي تُكون الحرم الشاسع الذي أطلق عليه علماء الحملة الفرنسية اسم "الميدان". ثم حاذيناه من الخارج عبر السهل الكثير الحصى الممتد حتى سفح سلسلة الجبال الليبية. وبعد مسيرة طويلة وشاقة للغاية بلغنا جنوب تلك التحصينات المترامية الأطراف والتي كانت تضم على الأرجح منشأة عسكرية، أو ما يشبه مخيم دائم كانت تشغله حامية "طيبه" وحرس الفراعنة في سالف الزمان. ثم تسلقنا هضبة صغيرة قليلة الارتفاع تشرف على السهل، وتغطيها أنقاض أبنية وشظايا فخار تعود إلى مختلف الحقب التاريخية.

وأول ما يخطف الأنظار هو ردهة أمامية كبيرة تنتصب في الناحية الغربية. بيد أنها في حالة سيئة جداً من الحفظ بالرغم من المواد الصلدة والجيدة التي شُيدت منها في الأصل. ولاتزال توجد أربعة نقوش بارزة ناحية "الميدان" تصور كلها الإمبراطور "فسباسيان Vespasien" مرتدياً الزي المصري يقدم القرابين لمختلف

الآلهة. وتصور لنا اللوحات المنقوشة على الواجهة الداخلية للردهة ناحية المعبد الإمبراطور "دوميتيانوس Domitien" يؤدي طقوساً وشعائر دينية مشابهة. ولم يبق من الزخرفة الداخلية سوى تسعة نقوش بارزة تصور لنا ملكاً جديداً (الإمبراطور "اوتون Othon") يرشق سلحفاة بالرمح، وكانت ترمز إلى التكاسل، ويصب الماء الطهور، ويهدي الخبز المقدس للآلهة.

ولم يسبق لي حتى الآن قراءة اسم هذا الإمبراطور المدون بالأحرف الهيروغليفية، والذي يستحيل العثور عليه في أي من الآثار المصرية التي لا تزال قائمة فيما بين البحر الأبيض المتوسط و"الدكه" في النوبة، التي تمثل الحد الأقصى للأبنية التي شيدها المصريون في ظل الاحتلال اليوناني والروماني. وقد كانت فترة حكم "اوتون" قصيرة للغاية، لدرجة أن اكتشاف أثر يُخلد ذكراه يثير دائماً في نفوسنا نفس القدر من الدهشة والاهتمام. وفضلاً عن ذلك يبدو أن مصر قد سارعت في تأييد "اوتون" نظراً لعثورنا في ولاية الإمبراطورية على وجه الخصوص على الأوسمة البرونزية الوحيدة التي سُكت في عهد هذا الإمبراطور. كما أن وجود اسم "اوتون" يبرهن بصورة دامغة على أن زخرفة الردهة الأمامية كانت قد بدأت في العام التاسع والستين من التقويم القبطي؛ وانتهت على أبعد تقدير في العام السادس والتسعين الذي يوافق تاريخ وفاة "دوميتيانوس".

وإلى الأمام وعلى مقربة من الردهة الأمامية نجد سلماً كان يفضي قديماً إلى باب صغير تزينه نقوش بارزة ركيكة، مقارنة بتلك التي تزين الردهة. إلا أنني تعرفت وسط أنقاضه على نص يعود إلى عهد الإمبراطور "أغسطس". ويبرهن ذلك على وجود عمال أكفاء وآخرين غير مهرة في نفس الوقت في مصر خلال تلك الحقبة التاريخية.

وعلى نفس المحور وعلى مسافة ستين متراً تقريباً من الردهة الكبيرة ينتصب المعبد، أو على الأحرى مقصورة صغيرة ومهجورة اليوم. أما جدرانها الخارجية التي تم تشذيبها بالكاد، فلم تتلق أية زخارف على الإطلاق؛ بينما ازدانت الحجرات الداخلية بنقوش بارزة ركيكة ورديئة التنفيذ. وترجع كل اللوحات تقريباً ـ خاصة لوحات قدس الأقداس ـ إلى عهد الإمبراطور "هدريان Hadrien".

إذ أغدق خليفة "تراجان Trajan" الهبات والقرابين على آلهة المعبد. ونُقش اسمه التفصيلي [الإمبراطور قيصر تراجان-هادريان] إلى جانب كل صورة من صوره. وأخيراً فقد لاحظت أن الإفريز الخارجي لقدس الأقداس يعطينا اسم "انتونينوس" على النحو التالي: [الإمبراطور تيتوس ايليوس ادريانوس انتونينوس بيوس].

ولما كانت تلك الأسماء الإمبراطورية تحدد لنا بوضوح تاريخ زخرفة قدس الأقداس وباقي حجرات المعبد، فلا يبقى علينا سوى تحديد أسماء الآلهة التي عُبدت بصورة خاصة في ذلك المعبد. إذ أن ايضاح هذة النقطة سيُعيننا في نفس الوقت على التأكد مما إذا كان هذا البناء يتبع قديماً إقليم "طيبه " أم إقليم "أرمنت". ومن الدراسة المستمرة لآثار مصر والنوبة نستنتج أن الثالوث المقدس في عاصمة أحد الأقاليم كان يظهر على الدوام ويحتل مركز الصدارة في الأبنية المقدسة المشيدة في كافة المدن التابعة لذلك الإقليم. كما كان لكل إقليم من الأقاليم طقوس وشعائر دينية خاصة به، تمجيداً للعناصر الثلاثة المتميزة التي تشكل الذات الإلهية مع اختلاف أسمائها وأشكالها. كما أن المؤشرات الإيجابية في هذا الصدد ينبغي أن تنبع من دراسة النقوش التي تزين قدس الأقداس؛ لاسيما عندما نعثر على ذلك الجزء الرئيسي من المعبد في حالة جيدة من الحفظ. وذلك هو الحال على وجه الخصوص بالنسبة للأطلال الواقعة إلى جنوب "الميدان".

وتغطي الجدار الداخلي لقدس الأقداس أربعة نقوش بارزة كبيرة. إذ يصور النقشان البارزان العلويان الإمبراطور "هادريان" متنكراً في زي الابن الأكبر لـ"آمون"، في وضع المتعبد أمام إلهة تضع تاجاً على هيئة النسر، الذي كان يرمز إلى الأمومة، يعلوه قرنا بقرة وقرص الشمس وعلامة عرش صغير. وهي نفس شارات "إيزيس" التقليدية. ونقرأ في النصوص التفسيرية المنحوتة إلى جانب صورتي الإلهة: ["إيزيس"، الأم الإلهية العظيمة التي تقطن الجبل الغربي]. أما النقشان البارزان السفليان فيصوران نفس الإمبراطور يقدم القرابين للإله "مونت Month" أو "منتو Manthou" الذي اشتُق اسم إقليم "أرمنت" من اسمه؛ وكذلك للملك الآلهة، "آمون رع" الذي اشتُق اسم إقليم "طيبه" من اسمه.

إن النظرية التي ترتكز على رصد المعطيات المتماثلة تماماً، والتي تتكرر في كل مكان بدون أي استثناء تدفعنا إلى استنتاج مؤكد قوامه أن ذلك المعبد قد تم تكريسه إلى الإلهة "إيزيس" على وجه الخصوص: نظراً لأن صورتها تحتل بدون منازع مكان الصدارة على جدران قدس الأقداس. ثم تأتي في المرتبة الثانية الآلهة الكبيرة لإقليمي "طيبه" و"أرمنت" التي كانت تُعبد كذلك في هذا المعبد. بيد أن الإله "منتو" يشغل الجانب الأيمن، على الرغم من أن منزلته في الأساطير المقدسة تأتي بعد رب الأرباب "آمون رع" الذي يشغل هنا الجانب الأيسر. لذلك فمن المؤكد أن معبد "إيزيس" الواقع إلى جنوب "الميدان" كان تابعاً لإقليم "أرمنت" وليس لإقليم "طيبه": نظراً لأن ابتهالات وتضرعات الإمبراطور "هادريان" تذهب مباشرة إلى الإله "منتو" بعد "إيزيس"، وقبل "آمون رع" إله إقليم "طيبه".

كان سكان الضيعة التابعة لإقليم "أرمنت"، والتي كانت تقع غابراً حول المعبد، يعتبرون الإلهة "إيزيس" التي [تقطن الجبل الغربيPtoou-en-Ement] بمثابة حاميتهم الرئيسية وإلهتهم المحلية. بيد أن ذلك النعت ينطوي على شيء من الالتباس والغموض. فهل لنا أن نفسر نعت "Ptoou-en-Ement" بمعناه العام، ولا نرى فيه سوى الإشارة إلى (الجبل الغربي) الذي تغرب الشمس من خلفه كل يوم بعد انقضاء مدارها كما تقول الأسطورة ؟ ويقع ذلك "الجبل الغربي" تحت نفوذ "إيزيس"؛ تماماً مثلما يقع "الجبل الشرقي Ptoou-En-Eiebt" تحت نفوذ الإلهة "نفتيس". أم ينبغي على الأحرى أن نأخذ ذلك النعت بمعناه الضيق المحدود، ومن ثم نترجم لقب "إيزيس Hitem-Ptoou-en-Ement" على أنه "الإلهة التي تقطن Ptoou-en-Ement أو Ptoou-Ement على اعتبار أن ذلك هو اسم الضيعة التي شُيد فيها المعبد ؟ وفي هذة الحالة سيصبح ذلك النعت مناظراً لألقاب "Hitem-Pselk" أي "الذي يقطن بسلكيس"، و"Hitem-Manlak" أي "الذي يقطن فيله"، و"Hitem-Souan" بمعنى "الذي يقطن أسوان"، و"Hitem-Ebou" بمعنى "الذي يقطن إلفنتين"، و"Hitem-Sné" أي "الذي يقطن ليتوبوليس"، و"Hitem-Ebot" بمعنى "الذي يقطن أبيدوس" ...الخ التي تُطلق دائماً على كل من "تحوت" و"إيزيس" و"خنوم" و"ساتت"

و"نيت" و"أوزيريس" ...الخ في المعابد المشيدة في تلك المدن العريقة الواقعة تحت رعايتهم المباشرة. ولما كان نعت "Ptoou-en-Ement " غير متبوع دائماً مثل "بسلك" و"مانلاك" و"سوان" ...الخ بالأداة التي تحدد أسماء الأعلام، فيحدو بنا الإعتقاد -دون أن يكون في ذلك استبعاد لتلك الفرضية الأولى إطلاقاً- أن ذلك النعت يشير هنا بصورة مباشرة إلى (الجبل السماوي الغربي) حيث تتقاسم "إيزيس" ووالدتها "نوت" مهمة استقبال إله الشمس يومياً بعد أن أنهكته رحلته النهارية الشاقة وأصبح مشرفاً على الموت. وهو نفس الإله الذي تنتزعه "نفتيس" أخت "إيزيس" من رحم أمها "نوت" كل صباح نابضاً بالحياة على الجبل السماوي الشرقي. أما إذا نظرنا إلى الأمور بصورة أكثر مادية، فإن "الجبل الغربي" يشير إلى سلسلة الجبال الليبية الواقعة على مقربة من المعبد، والتي نُحت بها عدد لا يحصى من المقابر. وبالتالي فهي تمثل جحيم الآخرة (الأمنتي Amenthi) أي القطر الغربي المريع حيث يقطن الموتى في مملكة "إيزيس" وزوجها "أوزيريس" الديّان، الذي سيحاكم كل نفس بما أتت.

أما النقوش البارزة المنحوتة على الجدران الجانبية وعلى باب قدس الأقداس، وكذا تلك التي تزين الباب الخارجي للناووس وباقي الردهة الأمامية الكبيرة، فتصور لنا أيضاً الإمبراطور "اوتون" وخلفاءه يقدمون القرابين لـ"إيزيس"، إلهة الجبل الغربي، وكذا لآلهة إقليم "أرمنت" العظيمة "منتو" و"ريتو Ritho". كما تُقَدّم تضرعات مماثلة إلى آلهة "طيبه": "آمون رع" و"موت" و"خنسو". ويتم ذلك وفقاً للعادة الثابتة في تكريس المعبد لعبادة الآلهة المحلية في المقام الأول، ثم آلهة الإقليم كله بعد ذلك، وأخيراً أحد آلهة أقرب إقليم بغية إيجاد علاقة وطيدة ومستمرة ونزعة توحيدية بين الطقوس الخاصة بكل إقليم من الأقاليم المصرية. ونجد في كل معابد مصر والنوبة براهين على تلك الممارسة التي تُمليها اعتبارات وطنية وسياسية على جانب كبير من الأهمية.

تلك هي النتائج العامة التي توصلت إليها من خلال دراسة الأنقاض الأخيرة لسهل "طيبه" من الناحية الجنوبية-الغربية. وفضلاً عن ذلك فإن هذين الأثرين، أي معبدي "تحوت" و"إيزيس"، يمثلان مرحلة من مراحل التراجع والاضمحلال التي مر بها الفن المصري

في ظل حكم الملوك اليونانيين والأباطرة الرومانيين. كذلك فإن النقوش المنحوتة في عهدي كل من "هادريان" و"انتونينوس بيوس Antonin Le Pieux" تتميز بالفعل بطابع الركاكة المتناهية التي سادت خلال تلك الحقبة التاريخية.

* * *

طيبه (القرنة) في ٤ يوليو ١٨٢٩

صديقي الحميم ،،

أجيب أخيراً مع شيء من التأخير على رسائلك الثلاثة التي بعثتها لي بتاريخ الثلاثين من يناير، والثاني والعشرين من مارس، والعاشر من أبريل. بيد أنه يمكنك اعتباري كرجل رُدت له الحياة من جديد. فحتى الأيام الأولى من شهر يونيو كنت من نزلاء المقابر الذين قلّما يحفلون بشؤون هذا العالم. وعلى الرغم من ذلك ظل قلبي ينبض تحت تلك الأقبية المعتمة، وكثيراً ما كان يجتاز مصر والبحر الأبيض المتوسط لكي ينغمس في ذكريات ضفاف نهر "السين" العذبة. كانت تلك الذكريات العائلية تُنعش دمائي وتقوي من رباطة جأشي. وكم كنت في حاجة حقيقية إلى الشجاعة والإقدام لتنفيذ برنامج دراساتي الذي كان يشمل مقابر وادي الملوك ! وقد اضطلعت بتلك المهمة على خير وجه، ولم أرجع إلى "طيبه" إلا بعد أن أتيت تماماً على كل مقابر وادي الملوك.

أقطن قصر "القرنة" منذ الثامن من شهر يونيو. وهو عبارة عن بيت متهدم صغير مشيد من الطين ذي طابق واحد. إلا أنه يُعد مسكناً عظيماً مقارنة بالجحور والأوكار التي يقطنها إخواننا العرب. كما ننعم بداخله بدرجة حرارة تتراوح بين واحد وثلاثين وثمان وثلاثين درجة مئوية. بيد أننا نتأقلم سريعاً ونعتاد على كل شيء؛ حتى أننا نتنفس بسهولة كبيرة في ظل ثمان وعشرين درجة مئوية. وفضلاً عن ذلك فإنني لا أقضي في قصر "القرنة" سوى فترة الليل فقط. إذ أنهض مع بزوغ النهار، وأمتطي حماري منطلقاً في

السهل بخطى بطيئة. وأستنشق الهواء بلذة غامرة وأنا في طريقي إلى "الرامسيوم" أو إلى قصر "مدينة هابو" حيث أقطع اليوم كله في العمل. أما الآن فقد انتهيت تماماً من دراسة هذين الأثرين الرائعين. وسيكفيني من خمسة عشر إلى عشرين يوماً لدراسة قصر "مينيفتاح-اوزيري Ménéphtha-Ousiréi" الصغير في "القرنة"، بالإضافة إلى ثلاثة أو أربعة معابد صغيرة ومقابر منحوتة في الجبل الذي لم أزره حتى الآن.

وفي مطلع شهر أغسطس سننتقل إلى الضفة الشرقية للنيل حيث تنتظرنا معابد الكرنك العظيمة. وقد سبق أن انتهينا من نسخ نقوش معبد الأقصر؛ لذلك فلن نحتاج لأكثر من شهر واحد لرفع النقوش البارزة التاريخية القليلة التي لاتزال موجودة في قصر الملوك الكبير، ولتدوين أبرز ما يميز اللوحات الدينية التي تكثر في ذلك البناء الضخم. أعتزم إذن الشروع بجدية في مغادرة "طيبه"، أمنا العريقة، والتأهب للعودة إلى فرنسا في الأول من شهر سبتمبر. وفي طريق نزولنا النيل، سنعرج لرؤية "دندره" من جديد وزيارة "أبيدوس". عندئذ سنكون قد أتممنا مهمتنا، ومن ثم سنعود إلى القاهرة ومنها إلى الأسكندرية التي سنبلغها بكل تأكيد في أواخر شهر سبتمبر. فإذا أثمرت مساعيك في وزارة البحرية سنجد في ميناء الأسكندرية الجديد باخرة جاهزة لاستقبالنا في أوائل شهر أكتوبر، ولإنزالنا على شواطيء "البروفانس" السعيدة في أواخر نفس ذلك الشهر. علماً بأنني أعتزم الرجوع إلى فرنسا مباشرة. فإذا مضت الأمور على هذا النحو سأبلغ "باريس" في أواخر شهر ديسمبر. بعد النزول فترة في الحجر الصحي اللعين، والقيام بعدة جولات قصيرة في جنوب فرنسا دون أن أحيد كثيراً عن طريقي. تلك هي خطتي النهائية؛ ويمكنك تدبير الأمور بناء على ذلك. إن برنامج العودة الذي وضعته في غاية البساطة، حتى أنني لا أرى من ناحيتي أية عراقيل من شأنها الإخلال به.

كما أنني جد مرتاح لتلك الفكرة الرائعة التي واتت العالم والمهندس الإنجليزي في عمل طريق مُعَبَّدة ستتكلف ثلاثمائة ألف فرنك، والتي كان لها عظيم الأثر في صرف أنظار حكومتي انجلترا وفرنسا عن نقل مسلتي الأسكندرية الرديئتين. وأنا أشعر حيالهما بالشفقة والرثاء منذ أن رأيت مسلات "طيبه". فإن كان محتماً نقل

مسلة مصرية إلى "باريس" فلتكن إحدي مسلتي معبد الأقصر. وستجد مدينة "طيبه" العريقة عزاءها في الاحتفاظ بمسلة الكرنك التي تُعد من أروع المسلات جميعاً. بيد أنني لن أوافق بتاتاً (إن كان لرفضي أو لموافقتي أي وزن أو اعتبار) على المشروع الذي يهدف إلى نشر إحدى تلك المسلات المنحوتة من كتلة حجرية واحدة إلى ثلاثة أجزاء لتسهيل عملية نقلها. إذ أن ذلك سيُعد تدنيساً وإنتهاكاً للحرمات: فإما أن تُنقل المسلة كما هي، وإما أن نصرف النظر عن الموضوع من أوله. وفي الواقع يمكننا -دون تضييع ثلاثمائة ألف فرنك في تجهيزات تمهيدية- استخدام سفينة مناسبة لشحن إحدى مسلتي الأقصر (وبالتحديد تلك المنتصبة على اليمين لأسباب وجيهة لا يعلمها سواي، بالرغم من أن قمتها الهرمية مكسورة مما يجعلها تبدو أقل ارتفاعاً من المسلة الأخرى الواقعة على اليسار). وستدفع مياه الفيضان بالمسلة حتى البحر الأبيض المتوسط حيث سيكون بانتظارها سفينة أخرى لشحنها إلى أوروبا. وسيكون من الممكن تنفيذ ذلك، بل ستصبح فرصة عظيمة لعرض أثر بمثل ذلك القدر من الروعة في فرنسا بدلاً من الأشياء التافهه والزينة الرخيصة التي نسميها بكل زهو "آثاراً وطنية" والتي تصلح بالكاد لتزيين صالونات صغيرة، والتي لا ترقى إلى مستوى عظماء أمتنا. ومهما قلنا فإن العظمة تكمن دائماً في الأشياء العظيمة دون غيرها. وإن كتلة تلك المسلة المهيبة تكفي بمفردها للتأثير بشدة على العقول والأعين. كما أن أسطوناً واحداً من أساطين الكرنك يُعد أثراً قائماً بذاته أكثر من الواجهات الأربعة لفناء متحف "اللوفر". وبالمثل فإن تمثالاً عملاقاً واحداً من تماثيل "الرامسيوم" ننصبه أمام جسر "البون نيف" سيكون أكثر بلاغة وأشد دلالة من ثلاثة أفواج من تماثيل الخيْل، حتى وإن كانت بحجم تمثال "لومون".

أرسل إليك مذكرتين سيكون من شأنهما -كما آمل- اشباع فضولك عن "طيبه"، وتسلية رئيسنا الذي يهتم بالأشياء الجميلة أيما اهتمام. وتتعلق هاتان المذكرتان بوادي الملوك وبـ"الرامسيوم" أو "مقبرة اوسيمانديasOsymandyas" كما يسميه علماء الحملة الفرنسية الذين كان سيحالفهم الصواب لو أنهم أطلقوا عليه بدلاً من كلمة "مقبرة" اسم "أثر اوسيمانديس". وقد عثرت على أشياء عجيبة للغاية. ويمكننا أن نحكم من خلال تلك اللمحة السريعة على

مدى غزارة المعلومات التي تكنها الآثار المصرية لزائريها، وعلى الكم الهائل من الوثائق التاريخية التي حفظتها لنا حتى الآن على الرغم من تهدم أجزاء كبيرة منها.

وقبل مغادرة "طيبه" سأرسل إليك بضع صفحات عن "مدينة هابو" حيث قمت بحصد كمية مذهلة من أسماء القبائل الإفريقية والآسيوية القديمة؛ وكذلك عن قصر "القرنة" الذي سأنكب على دراسته غداً. وفي طريق نزولي النيل سأدون مذكرة عن "الكرنك" و"دندره" و"أبيدوس"، وسأرسلها إليك فور بلوغي الحجر الصحي. وهكذا سيصبح في حوذتك ملخص عن أعمالي في تلك الأرض المقدسة، وعن النتائج التي جئت أبحث عنها.

وأما فيما يتعلق بالأرض المقدسة، فستعلم أن رئيس أساقفة "القدس" قد منحني أنا و"روزليني" وسام صليب بدرجة فارس "سان سيبيلكر". ويمكننا استلام الأوسمة في الأسكندرية مقابل دفع مبلغ مائة ليرة ذهبية فقط لاغير ! كم يغالي السيد المطران في سعر بضاعته ! ومهما كانت رغبتي في الإمساك برمح الفرسان، والخوض في قتال المشركين لكي تكون كلمة الله هي العليا، يتعين عليّ التنازل عن ذلك الشرف الرفيع، والقناعة بمجرد فكرة أنهم اعتبروني أهلاً لذلك. يا لها من فكرة: بيع قصاصة من شريط وسام بمبلغ مائة ليرة ذهبية ! سيدي المطران، هل بلغ الحرير بالفعل هذا القدر من الغلاء ؟ ألا يعلم جلالته أن العلماء الأوروبيين لا يملكون ذهباً ولا فضة؛ وأن عجلة الحظ تميل اليوم ناحية أصحاب المصانع ؟ فليرسلوا إليهم بتلك الأوسمة !

أبلغ تحياتي الحارة إلى "لوترون". لعله يجد آرائي حول "الرامسيوم" معقولة ومنطقية. وأنا في انتظار توصياته بشأن "طيبه" التي آمل أن تصلني في أسرع وقت نظراً لمغادرتي تلك العاصمة نهائياً في غضون شهرين على أكثر تقدير. لا يفوتك أن تُبلغ تحياتي للسيد "دي ساكي". وسأكون سعيداً لو جاءت النتائج التي أحرزتها على قدر العناية التي حباني بها، والرعاية التي أبداها لأعمالي.

لم أتسلم أي رد على الخطابين اللذين أرسلتهما إلى السيد الدوق "دي بلاكاس": واحدة من "طيبه" في طريق صعودي النيل،

والأخرى عقب رجوعي من الشلالات. وقد أوردت له فيها بياناً سريعاً حول انجازاتي في النوبة. عليك إذن بالذهاب لرؤيته ـ إن كان موجوداً في "باريس"ـ واعطائه ما دونته من مذكرات. وليغفر لي ضيق الوقت الذي منعني من ارسالها له مباشرة. سأكون حزيناً وغاضباً لو لم تصله رسائلي، ولو فسّر صمتي تجاهه على أنه نسيان لأفضاله عليّ. فليس الجحود من خصالي، ولا النسيان من شريعة فؤادي.

وغني عن البيان أنك لن تكون في حاجة للرد على هذة الرسالة التي لن تصلك إلا في شهر سبتمبر على أفضل تقدير؛ وبالتالي سيصل ردك عليها إلى مصر بعد أن أكون قد غادرتها. لقد كتبت إلى زوجتي بشأن المسكن الذي ينبغي استئجاره. فإن لم يكن في وسعها الاهتمام بهذا الأمر، فعليك بالنهوض بذلك مستخدماً التفويض الذي تركته لك. ابحث لي عن مسكن بجوارك يتكون من حجرة مكتب كبيرة، وغرفة نوم صغيرة. أنا في حاجة إلى مسكن دافيء على وجه الخصوص، يأويني من فصل الشتاء القارس الذي ينتظرني عند عودتي إلى فرنسا، ويجعل الرعشة تسري في جسدي من الآن.

لقد ذهب "باريزت" إلى سوريا لمطاردة الطاعون والكوليرا. وسيتقدم حتى مدينة "حلب"، وإن كان يعدني بلذة لقائه في القاهرة في أواخر شهر سبتمبر. فليرع الله ذلك الرجل الشجاع والعظيم! وداعاً يا صديقي العزيز. أبلغ أشواقي وتحياتي لأصدقائنا الذين يقطنون في ممر "كولبير"، وديىر "سان جرمان دي بريه"، والـ"بانتيون"، وباقي شوارع "باريس". قبلاتي لك ومشاعري الفياضة.

ج.ف. شامبليون

* * *

طيبه (قصر القرنة) في ٦ يوليو ١٨٢٩

إن أول أثر يزوره الأوروبيون في الناحية الغربية لـ"طيبه" عندما تطأ أقدامهم أرض تلك العاصمة العريقة، أي قصر "القرنة"

الواقع على مقربة من شجرة الجُميز الجميلة التي عادة ما ترسو أمامها قوارب الرحالة الشراعية، قد أصبح لأسباب خارجة عن إرادتي آخر قِبلة لأبحاثي على الضفة اليسرى للنيل. إذ اجتذبني أولاً "الرامسيوم" بلوحاته التاريخية والدينية التي لاحظناها أثناء صعودنا النيل. ثم ذهب اهتمامنا بعد ذلك إلى "مدينة هابو" بكتلها الحجرية ونقوشها البارزة العسكرية العديدة. ولم أغادر هذين القصرين إلا بعد التعمق في دراسة الآثار الصغيرة الواقعة بجوارهما.

بيد أن قصر "القرنة" يستحق ـعلى الرغم من أبعاده الصغيرة جداً مقارنة بالأبنية الضخمة والهامة الأخرىـ دراسة خاصة لأنه يرجع إلى العصور الفرعونية، ويعود إلى أبهى العهود التي حفظت لنا الحوليات المصرية ذكراها. ومن ناحية أخرى فإنه يتميز بطابع جديد. وإذا كان تخطيطه العام يُوحي بمسكن خاص، ويستبعد كونه معبداً، فإن عظمة زخارفه وكثرة نقوشه، وروعة المواد التي شُيد منها، وكذلك العناية الفائقة في بنائه تبرهن على العكس من ذلك بأن هذا القصر كان في سالف الزمان مسكناً لملك ثري وجبار. وفي الواقع فإن أنقاضه تشغل فقط طرف هضبة مصطنعة شُيدت عليها قديماً أبنية أخرى قد تكون على ارتباط بالقصر الذي كان قائماً حينئذ. كما أن كافة الأنقاض المبعثرة على الأرض تحمل أسماء ملكية ترجع إلى عهد آخر فراعنة الأسرة الثامنة عشرة أو أوائل الأسرة التاسعة عشرة.

وعلى نفس ذلك المحور وسط غابة صغيرة من النخيل والبيوت المتداعية والمشيدة من الطوب اللبن، ينتصب رواق يناهز طوله مائة وخمسين قدماً، بينما يبلغ ارتفاعه ثلاثين قدماً؛ ويستند على عشرة أعمدة تتكون جذوعها من حزم من أعواد اللوتس، بينما تتكون تيجانها من براعم زهرة اللوتس. ويرجع ذلك التخطيط الذي لا يُميز الأبنية المدنية على وجه الخصوص نظراً لأننا نجده في معبد الإله "خنوم" في جزيرة "إلفنتين" الذي دمرته مؤخراً يد الجهل والهمجية التركية، يرجع بدون شك إلى العصور المعمارية المصرية القديمة، ولا يسبقها من حيث القدم إلا الأعمدة المخددة المشابهة للأعمدة الدورية اليونانية والتي اقتصر استخدامها على أقدم الآثار المصرية.

وقد نُحتت على الواجهات الأربعة لمكعبات تيجان أعمدة الرواق نصوص ملكية لكل من "مينيفتاح الأول Ménéphtha I" و"رمسيس الأكبر". كما دُون إسماهما ملتصقين على جذوع الأعمدة داخل إطار مربع. ونجد تفسيراً طبيعياً لاقتران هذين الاسمين الملكيين في نصي الإهداء اللذين يزينان عتبة الرواق بطولها. إذ نقرأ : ["حورس" الجبار، صديق الحق، سيد العالم السفلي، منظم مصر، الذي اقتص من الأقطار الأجنبية، الصقر الذهبي الذي يحمي الجيوش، أعظم المنتصرين، الملك الشمس الحارس للحقيقة، محبوب الإله "رع حور آختي"، ابن الشمس، صديق "آمون"، "رمسيس" قد أنشأ تلك الأبنية تمجيداً لأبيه "آمون رع"، ملك الآلهة. كما زين قصر أبيه، ملك الشمس، المدعم للعدالة، ابن الشمس "مينيفتاح بوريبيMénéphtha-Boréi". تلك هي انجازاته ... التي أحاطها بأسوار من الطوب مشيدة للأبد: تلك هي انجازات ابن الشمس، صديق "آمون"، "رمسيس"].

ويرشدنا هذا الإهداء إلى أمرين رئيسيين: أولهما أن الفرعون "مينيفتاح الأول" هو الذي قام بتأسيس وبناء قصر "القرنة". وثانيهما أن ابنه "رمسيس الأكبر" هو الذي أتم زخرفة هذا البناء الرائع، وأحاطه بحرم مزين بردهات أمامية مماثلة لتلك التي تحيط بكل أثر من الآثار الملكية الضخمة بـ"طيبه".

وبالفعل فإن كل النقوش البارزة التي تزين الرواق من الداخل، وكذلك الواجهة الخارجية للأبواب الثلاثة التي تفضي إلى حجرات القصر، تصور لنا "مينيفتاح الأول" وخصوصاً "رمسيس الأكبر" يمجدان ثالوث "طيبه" المقدس وباقي الآلهة المصرية؛ ويتلقيان من الآلهة السلطات الملكية وهبات نفيسة من شأنها تجميل وإطالة فترة حياتهما على الأرض. كما تجدر بنا على وجه الخصوص ملاحظة مجموعة تتكون من عشرين لوحة صغيرة تصور بالتعاقب الآلهة المسيطرة على نهر النيل في كافة حالاته؛ وكذا الآلهات الحاميات لأرض مصر طوال كل شهر من شهور السنة تقدمن لـ"رمسيس الأكبر" كافة المنتجات الزراعية وخيرات المياه على امتداد كل فصل من فصول العام. وأعلى تلك النقوش البارزة يمتد أفقياً النص التالي :

[هذا ما يقوله الآلهة والآلهات الذين يقطنون العالم السفلي

إلى ابنهم المهيمن على العالمين السفلي والعلوي، سيد الكون، الشمس التي تحرس العدالة، محبوب الإله "رع حور آختي" (رمسيس). لقد جئناك بكافة المنتجات المخصصة للقرابين، واضعين تحت تصرفك كل الخيرات النقية والطاهرة كي تحتفل بعيد بيت أبيك؛ لأنك ابن بار بأبيه مثل الإله "حورس" الذي أخذ بثأر أبيه].

وتتعلق كل تلك النقوش بالطبع بالمحفل المقدس الذي قام "رمسيس الأكبر" خلاله بافتتاح قصر أبيه "مينيفتاح الأول" بمجرد الانتهاء من زخارفه الداخلية والخارجية بفضل عنايته وورعه. أما عن النقوش التي تم إضافتها في وقت لاحق لعهد "رمسيس الأكبر" فتتمثل في بضع نصوص ملكية تتعلق بأسماء الأعلام، نُقشت على سُمْك الأبواب وقاعدة البناء دون أن يكون لها أي ارتباط بمجموع الزخارف الأصلية. كما تعود كلها إلى عهد "مينيفتاح الثاني"، ابن "رمسيس الأكبر" وخليفته المباشر على العرش؛ بإستثناء نقش واحد منحوت أسفل النقوش البارزة للقرابين ويحمل اسم وألقاب "رمسيس الرابع" أو "ميآمون"، وهو خامس خلفاء "رمسيس الأكبر"، وكذا تاريخ يرجع إلى العام السادس.

ويفضي الباب الأوسط للرواق إلى حجرة تبلغ أبعادها التقريبية ثمانية وأربعين قدماً طولاً، وثلاثة وثلاثين قدماً عرضاً. وهي تُعد أضخم حجرة في القصر، لاتزال تحتفظ بمعظم سقفها الذي يستند على ستة أعمدة مماثلة لأعمدة الرواق. كما نجد نصين طويلين باسم "مينيفتاح الأول" على شكل إطار رُسمت داخله النسور المجنحة التي تزين السقف. ويحتوي النص الواقع إلى اليمين على الإهداء العام للقصر الذي كرسه مؤسسه إلى أكبر الآلهة المصرية :

[... سيد الكون، الشمس الحارسة للعدالة، يُكرس تلك الأبنية تمجيداً لأبيه "آمون رع"، رب كل العروش الذي يقطن في البيت الإلهي لابن الشمس "مينيفتاح بوريبي" في "طيبه" على الضفة اليسرى. وقد قام (الملك) بتشييد "مسكن السنين" (أي القصر) من الحجر الرملي الأبيض الجميل ومقصورة لرب الأرباب].

ويدلنا ذلك النص في المقام الأول على الاسم الذي كان يُطلقه سكان "طيبه" القدماء على قصر "القرنة". إذ كانوا يسمونه "بيت مينيفتاح" أو "المينيفتاحيوم Ménéphthéum" تخليداً لذكرى الأمير الذي أرسى دعائمه. كما يفسر لنا النص في ذات الوقت

الطابع الازدواجي الذي يغلب على ذلك البناء كمعبد وكقصر في آن واحد. إذ يبدو من حيث تخطيطه مكرساً لسكن إنسان، بيد أن كل زخارفه تشبه ما يزين معابد الآلهة من نقوش.

أما النقش الثاني الواقع على يسار السقف، فيذكرنا بأن تلك الحجرة الكبيرة التي قام بتشييدها الملك "مينيفتاح الأول" كانت "مانوسخManoskh": أي قاعة تشريفات ومكاناً لإقامة التجمعات الدينية والسياسية ولانعقاد محاكم العدل. وهي تشبه القاعات الفسيحة الموجودة في قصور "طيبه" الكبيرة، والتي تستند على صفوف عديدة من الأعمدة، والتي جرت العادة حتى الآن على تسميتها بقاعات الأساطين. إلا أن جميع تلك القاعات تحمل اسم "مانوسخ" في النصوص الفرعونية المنحوتة على أسقفها وعلى عتبات صفوف أعمدتها. بيد أنه لا يتسع لنا المقام هنا للإسهاب في تفسير الاعتبارات التي تعلل ذلك الاسم "مانوسخ" (أي مكان الحصاد وموضع كيل الحبوب) الذي أطلقه المصريون القدماء على أوسع القاعات الموجودة داخل أبنيتهم العامة.

وتتزدان الجدران اليمنى واليسرى لبهو الأساطين بالعديد من اللوحات التي تصور جميعها مؤسس القصر، الملك "مينيفتاح الأول" يهدي العطور والزهور إلى ثالوث "طيبه" المقدس، وعلى وجه الخصوص إلى "آمون رع" رئيس ذلك الثالوث في صورته الجوهرية وكذا في صورته كخالق للكون. وقد كان "آمون رع" الإله الحامي للقصر الذي يحتوي على مقصورة لعبادة ذلك الإله العظيم. أما الجدران الصغيرة الواقعة على الناحيتين اليمنى واليسرى للباب الرئيسي فتصور أعضاء ثالوث "طيبه" المقدس يتقبلون تضرعات فرعوناً آخر غير "مينيفتاح الأول" يحمل اسم "رمسيس"؛ لا ينبغي أن نخلط بينه وبين "رمسيس الثالث" المعروف بـ"رمسيس الأكبر".

وقد جمعت داخل الآثار الأصلية مجموعة من الشواهد التي لا تقبل المنازعة تثبت أن "رمسيس الثاني" في القائمة الملكية قد خلف أباه "مينيفتاح الأول" مباشرة على العرش. وفي أعقاب فترة حكم قصيرة للغاية، تبوأ العرش من بعده أخوه "رمسيس الثالث" أو "رمسيس الأكبر" المعروف أيضاً باسم "سيزوستريس".

أما النقش البارز السفلي الواقع على يسار الباب في بهو الأساطين فيُذكرنا بتتويج "رمسيس الثاني" عقب وفاة "مينيفتاح

الأول". إذ نرى الإلهة "موت" والإله "خنسو" يقدمان الملك الشاب جاثياً أمام سيد الكون "آمون رع". ويمنحه الإله الأسمى الصلاحيات الملكية وفترة حكم طويلة في حضرة والده "مينيفتاح الأول" الذي صُور واقفاً من خلف عرش "آمون"، وممسكاً في نفس الوقت برموز الملكية الأرضية التي تركها، وكذا بشعار الحياة الإلهية التي يسعد بها في صحبة الآلهة.

وعلى مبعدة من ذلك نرى طفولة "رمسيس الثاني" الذي صُور واقفاً تقبله الإلهة العظيمة "موت"، و تعطيه ثديها لإرضاعه. ونقرأ حرفياً في النص التفسيري المصاحب :[هذا ما تقوله "موت" سيدة السماء: "ابني الذي يحبني، سيد التيجان الملكية، "رمسيس" المحبوب من "آمون"، إنني أمك التي تسعد بأعمالك الصالحة، فلترضع من لبني"]. وعلى الجدار المواجه يطالعنا نقش مماثل يصور الإلهة "حتحور" تُرضع الملك "مينيفتاح الأول"، وتوجه له نفس العبارات السابقة.

ويتكون إفريز بهو الأساطين كله من أسماء ذلك الفرعون المكررة والمحاطة بشارات السلطة الملكية، والتي نجدها أيضاً منقوشة على مكعبات وزخارف قواعد الأعمدة، ولكن ممتزجة بخراطيش "رمسيس الثاني". كما تحمل العتبات العديد من نصوص الإهداء، بعضها باسم مؤسس القصر "مينيفتاح الأول"، والبعض الآخر باسم "رمسيس الثاني" الذي أتم زخرفته.

وتتميز النقوش البارزة المنحوتة في عهدي هذين الأميرين ببساطة الأسلوب، ورقة التنفيذ، والتناسب الأنيق للرسوم. كما أن نظرة خاطفة تكفي للتفرقة بينها وبين النقوش التي ترجع لعهد "رمسيس الأكبر" التي تحمل في طياتها مؤشرات واضحة على انحطاط الفن واضمحلاله.

كما ندهش لذلك الاختلاف البالغ بين النقوش البارزة التي تزين بهو الأساطين وتلك التي تغطي جدران الحجرة الأولى الواقعة على اليمين، وبوجه عام كل أجزاء القصر الواقعة على يمين قاعة الأساطين، والتي تم زخرفتها في عهد "رمسيس الأكبر". ولا تخلو دراسة ذلك الاختلاف من بعض الأهمية، بل إنها تخص جداً تاريخ الفن عامة؛ لاسيما عندما يتعلق الأمر بعهود سابقة للمحاولات الأولى التي انبثقت عن عبقرية اليونانيين التي لا تنضب في هذا

المجال. وأنا أجد هنا في متناول يدي وثائق خاصة بذلك التاريخ الهام.

* * *

كان شامبليون في قمة التعب والإنهاك على الرغم من حرصه على عدم مصارحة نفسه بتلك الحقيقة. إذ أخذت قواه تخور شيئاً فشيئاً من جراء إقامته الطويلة في وادي الملوك، والتي امتدت من الثالث والعشرين من مارس حتى الثامن من يونيو، وخاصة الأبحاث المتعددة والمعقدة للغاية التي اضطر لإجرائها وسط الصمت المطلق في المقابر بغية التعمق في تحري الطبيعة الحقيقية للتسلسل التاريخي وللديانة التي كان يعتنقها المصريون القدماء. وقد عثروا عليه مرات عديدة منهاراً على الأرض، مغشياً عليه داخل السراديب حيث كان يريد الاختلاء بنفسه على الرغم من معارضة صديقه "شاروبيني" وحزنه عليه. وعلى ما يبدو كان شامبليون يكرر على مسامعه كثيراً: "يلزمني السكون والصمت المطلق كي أتمكن من سماع صوت الأجداد. لشد ما كان تأثره بالمقابر عظيماً !"

وغني عن البيان أن فترة الإقامة في "قصر القرنة" تمت في ظروف أكثر ملاءمة، بل لم تخل من الفكاهة والمرح. إذ كان سكان القرى الأربعة المشيدة على موقع "طيبه" العريقة، أي "الكرنك" و"الأقصر" و"القرنة" و"مدينة هابو"، يُحضرون يومياً إلى شامبليون حيوانات حيّة على اختلاف أنواعها. كما لو كان الهدف الحقيقي من وراء بعثته يتمثل في تكوين حديقة حيوانات في "القرنة" نفسها. وبالفعل فقد عادت الغزالة وقط "الكردفان" في صحة جيدة بعد إقامتهما في الوادي؛ حتى أن العناية التي كانا يلقيانها خَيَّلت للسكان المحليين بأن خير وسيلة لكسب ثقة ضيوفهم هي إهداؤهم حيوانات جديدة لتدليلها واستئناسها.

كان شامبليون منذ نعومة أظافره مولعاً بالحيوانات، يمارس عليها نوعاً من الجاذبية العجيبة. وقد فطن المصريون لذلك. إلا أنه بعد عودة البروفيسور "راضي" من الصحراء الليبية بمجموعة رائعة من الفراشات والحشرات النادرة، كان لطلباته المستمرة دوراً رئيسياً في دفع جميع السكان -وحتى البدو- إلى جمع والتقاط كل ما يجدونه في طريقهم من الحيوانات والحشرات على اختلاف أحجامها. وكان ذلك العالِم الذي لا يتكلم اللغة العربية يقلد صوت

الحيوانات التي يرغب في شرائها، مما كان يؤدي في الكثير من الأحيان إلى مفاجاءات مضحكة. وإلى جانب "متحف التاريخ الطبيعي" الذي كان يتميز بمجموعة هامة ونفيسة من المعادن، كان "متحف الآثار المصرية" الذي كونه شامبليون أقل غزارة وأهمية: فقد توقفت أعمال الحفائر في كل من "القرنة" و"الكرنك" منذ أواخر شهر مايو لأكثر من سبب.

وقد نسج شامبليون علاقات ودية مع سكان تلك القرى لدرجة إسدائه لشيوخها بنصائح تهدف إلى حمايتهم من الإجراءات التعسفية الجديدة التي اتخذها الباشا. كما سلك نفس المسلك مع بدو قبيلة "العبادة" الكبيرة الذين كان معجباً منذ سن الثامنة عشرة بـ [لغتهم العربية الفصحى التي احتفظت بنقائها منذ عهد الرسول ابراهيم] كما كان يلقنه معلمه "دوم رافائيل Dom Raphael" عندما كان تلميذاً. ثم قام "شامبليون" بمصاحبة "روزليني" وباقي أعضاء البعثة الفرنسية التوسكانية بعمل زيارة رسمية للبدو. وقد سُحروا بجمال وكرم سكان الصحراء، ونظام حياتهم الأبوي. وقد كانوا فيما مضى ألد أعداء الحكومة المصرية حتى منحهم الوالي هبات وامتيازات أدخلت السعادة في قلوبهم، مكافأة لهم على ملاحقتهم المستبسلة للمماليك : إذ أجّر لهم الأراضي المتاخمة للصحراء يزرعونها في طمأنينة وسلام. وقد حصلوا منذ ذلك الحين على الجنسية المصرية على الرغم من أنهم ظلوا يخشون من أن يقلب ابراهيم باشا كل شيء رأساً على عقب بعد وفاة محمد علي! ولما كان شيوخ "العبادة" يعلمون تماماً -مثل جميع سكان مصر- بتأييد الوالي لبعثة "شامبليون"، فقد التمسوا من هذا الأخير أن يشفع لهم لدى محمد علي عند مقابلته. وقد وعدهم "المصري" بذلك ووفي بوعده.

وقد كان أعضاء البعثة يعملون خلال فترة إقامتهم بـ"القرنة" من الساعة السابعة صباحاً وحتى الثانية عشرة؛ ومن الساعة الثانية من بعد الظهر وحتى الرابعة (تماماً). عندئذ يأتيهم خادمان عربيان بحمير مسرجة وملجمة لقيادتهم إلى حيث يحلو لهم. وكان "لوت" يقول : [لقد بلغ بي النشاط والحماسة حد الرغبة في التهام وافتراس كل شيء... فقد أصبحت "طيبه" كلها في جيبي] وقلبه يتراقص فرحاً للخمسمائة لوحة ورسم مائي التي فرغ من تصميمها قبل نهاية

شهر يوليو. وفي المساء كان يكتب رسائل طويلة ومقالات لنشرها في صحف "باريس". غير أنه كان لا يكف عن الشكوى والتذمر لدرجة أنه كتب يوماً إلى "شامبليون" : [... لتعلم أني إذا كنت قد قدمت إلى مصر من أجلك إلى حد ما، فإنني أطيل الإقامة بها ليس من أجلك أنت وإنما من أجلي أنا، ولخدمة أبحاثي وتثقيفي وإشباع فضولي]. كما راح تحت وطأة الاهتياج والتوتر العصبي يتذمر من الأموال الطائلة والجهود المضنية التي بُذلت في سبيل جمع النصوص الهيروغليفية : [لقد أصابتنا جميعاً النصوص الهيروغليفية بالتخمة ! ترانا نجحنا في هضمها ! ترانا نجحنا في التهامها ! لقد انقضى عام كامل من العمل المتواصل بدون يوم واحد من الراحة، بدون دقيقة واحدة من الهدنة] ... وقد غضب "لوهو" و"برتان" و"ديشان" من أحاديث "لوت" في يوم التاسع والعشرين من شهر يوليو لدرجة دفعتهم إلى التذرع بأي حجة لمغادرة "طيبه" في اليوم التالي. ولما كان يوم الثلاثين من يوليو هجر "ديشان" بمفرده البعثة، في حين استسلم "برتان" و"لوهو" لتأنيب وعتاب زميلهما "شاروبيني" الذي كان مخلصاً لـ"شامبليون"، وبقيا حتى نهاية البعثة. إلا أن "شامبليون" لم يكن على علم بكافة المصاعب الناجمة عن توتر "نستور لوت" الذي كان في قريرة نفسه انساناً طيب الخلق، وإن كان لا يُقدِر عاقبة ما يقوله ويكتبه.

وتجدر بنا الإشارة في هذا الصدد إلى السبب الرئيسي من وراء الاستياء والسخط: فقد قال "دروفيتي" لأعضاء البعثة الفرنسية أن "شامبليون" كان يتعين عليه أن يحصل لهم على لقب [مندوبون من الحكومة الفرنسية]، وهو أفضل بكثير من مجرد لقب [فنانون تابعون للبعثة]. وعندما عاد "لوت" إلى فرنسا، قام "شارل لونرمون" بتبكيته وتعنيفه على ما بدر منه من سلوك في مصر. وقد كان لذلك عظيم الأثر على "لوت" الذي أصبح فيما بعد من أشد أعوان "شامبليون" اخلاصاً وتواضعاً.

وقد قام "شارل لونرمون" بفضل ما يتمتع به من حكمة ورأي صائب بتحليل شخصية "شامبليون" وطريقته في العمل بصورة دقيقة قائلاً : [لقد نجح معظم الناس في تكوين فكرة عما يتطلبه تنفيذ مثل هذه الأعمال من فطنة ومثابرة وحصافة؛ وتشهد اوروبا كلها بصحة هذا الرأي. بيد أن قليلاً من الناس يعترفون لـ"شامبليون"

مثلي بحضور البديهة في التوصل إلى النتائج، وقوة الحدس التي يتمتع بها العباقرة فقط، وفي نفس الوقت الطهارة وسلامة النية في تحري الحقيقة، والبساطة النبيلة في الاعتراف بالخطأ عند وقوعه، والتسليم الهادىء بالجهل بما لم يحن الوقت بعد لمعرفته... عسى أن أوفي بهذة الشهادة النابعة من الاعجاب الصادق والصداقة الوفية بجزء من الدَين الذي يفرضه عليّ دلائل الثقة والاهتمام تجاه "شامبليون" !].

وقد كانت "الكرنك" بأنقاضها العديدة والرائعة تتطلب كل القوة الجسمانية والذهنية لـ"شامبليون" الذي كان في أمس الحاجة في هذا الموقع على وجه الخصوص إلى وجود "ديبوا"، و"لونرمون"، و"وليم جل William Gell" إلى جانبه. وبدلاً من ذلك فقد هجره "بيبان" و"ديشان" اللذان كانا يتفانيان في العمل. أما الدكتور "ريتشي"، أفضل معاونيه، فقد أصيب بجرح خطير في ذراعه من لدغة عقرب منعه من اتمام أعماله. ومن ناحية أخرى فقد عاد "جالستري Gallastri" الشاب مريضاً من الصحراء الليبية، مما استدعى رجوعه إلى ايطاليا حيث توفى بعد ذلك بقليل. وكان "راضي" كذلك مريضاً، ولكن بدلاً من التماثل للشفاء والراحة فقد قرر فجأة التوجه فوراً إلى الدلتا واختراقها سيراً على الأقدام، على الرغم من وباء الطاعون الذي جاء نتيجة حتمية للفيضانات الشديدة التي شهدها عام ١٨٢٩. ولنا أن نتخيل مدى الذعر والهلع الذي أصاب "روزليني" و"شامبليون" من قرار "راضي" الذي كان يعاني من مرض "الديزنتاريا"، والذي سرعان ما لقى حتفه عقب مغادرتهما.

وفي "الكرنك" أقام أعضاء البعثة في المعبد الصغير الذي كرسه "يورجتيس الثاني" لعبادة "أوزوريس" والإلهة "آبت Apet" (اوبت)، على مقربة من المعبد الرائع الذي كرسه "رمسيس الثالث" لعبادة الإله "خنسو". وعلى الرغم من مشقة العمل اليومي، كان "شامبليون" يقضي قسطاً من الليل في العراء مثلما كان يفعل في "القرنة"، ليس فقط لتأمل السماء، وإنما ايضاً لاستيحاء كل عظمة "طيبه" الفرعونية بفضل خياله الخصب. وكثيراً ما كان يدفعه ذلك الإجلال العميق إلى اعطاء وصف حدسي عقب عودته إلى "باريس" حيث كان العديد من الأشخاص يعشقون الاستماع إليه.

لم يترك لنا "شامبليون" أية مذكرات أو رسائل تفصيلية عن

"الكرنك" باستثناء الوصف الموجز الذي كتبه على جناح السرعة عقب الاستكشاف السريع الذي قام به في الثالث والعشرين من شهر نوفمبر ١٨٢٨. أما معظم المذكرات العلمية البحتة فنجدها في كتابي "الآثار المصرية"، و"المذكرات الوصفية". وقد طرحت آثار "الكرنك" على "شامبليون" العديد من علامات الاستفهام التي لم يتمكن دائماً من حلها، كما يتضح لنا على سبيل المثال من مقدمة كتاب "قواعد اللغة الهيروغليفية" (ص ٢٢). وقد قام أولاً بدراسة قاعة الأجداد التي شيدها "تحتمس الثالث" والتي سبق أن ذكرها عقب زيارته الخاطفة الأولى للـ"كرنك". وقد فطن عندئذ في أسف إلى أنه لم يهتم كما ينبغي بما نشره "بورتون Burton" في عام ١٨٢٥ بخصوص هذا الأثر الهام الذي راح يوليه الآن نفس القدر من الأهمية مثل قائمة "أبيدوس" الملكية الشهيرة.

كما عثر "شامبليون" سريعاً على المكان الذي فاجأ فيه "كايليو Cailliaud" منذ اثني عشر عاماً "ويليم بانكس William Bankes" وهو يقتلع السبع عشرة كتلة حجرية التي تصور [القائمة العددية] والتي أدمجت في مجموعة آثار السيد "سالت"، قبل أن تُعرض في متحف "اللوفر" في عام ١٨٢٦ بفضل عناية "شامبليون" الشخصية.

وفي باكورة الرابع من شهر سبتمبر ١٨٢٩، غادرت البعثة الفرنسية "الكرنك" لرؤية آثار الضفة اليسرى للنيل للمرة الأخيرة، بما في ذلك مقابر وادي الملوك. وعقب مشاهدة غروب الشمس لآخر مرة فوق أروقة معبد "القرنة"، أعطى "شامبليون" في الساعة التاسعة مساء إشارة الرحيل، وسط حزن كل سكان المنطقة الذين هرولوا ومعهم أطفالهم لتوديع "القائد العظيم" وكل رفاقه مطلقين صيحات ينفطر لها القلب.

كما اقترب العديد من بدو "العبادة"، ولم تخل هيأتهم الصامتة والحزينة من البلاغة المؤثرة في النفس.

ثم أقلعت البعثة أسفل نفس شجرة الجميز العملاقة التي كانت قد رست أمامها في التاسع عشر من شهر نوفمبر ١٨٢٨. بيد أن "شامبليون" لم تغمض له عين خلال ليلة الرحيل لشدة انشغاله وقلقه لفكرة توديع القبة السماوية الزرقاء الخلابة والمرصعة بالنجوم أعلى ["طيبه"، المدينة الملكية] التي ظل يحلم برؤيتها منذ بلوغه سن الثانية عشرة.

وفي صباح الخامس من سبتمبر استأنف أعضاء البعثة العمل في معبد "دندره" حتى مساء اليوم التالي فقط نظراً لأنهم كانوا قد فرغوا من قبل من نسخ أهم نقوشه، وكذلك لأن "شامبليون" كان في قمة التعب والإعياء. إلا أنه لم يصارح أخاه بذلك في الرسالة التالية.

* * *

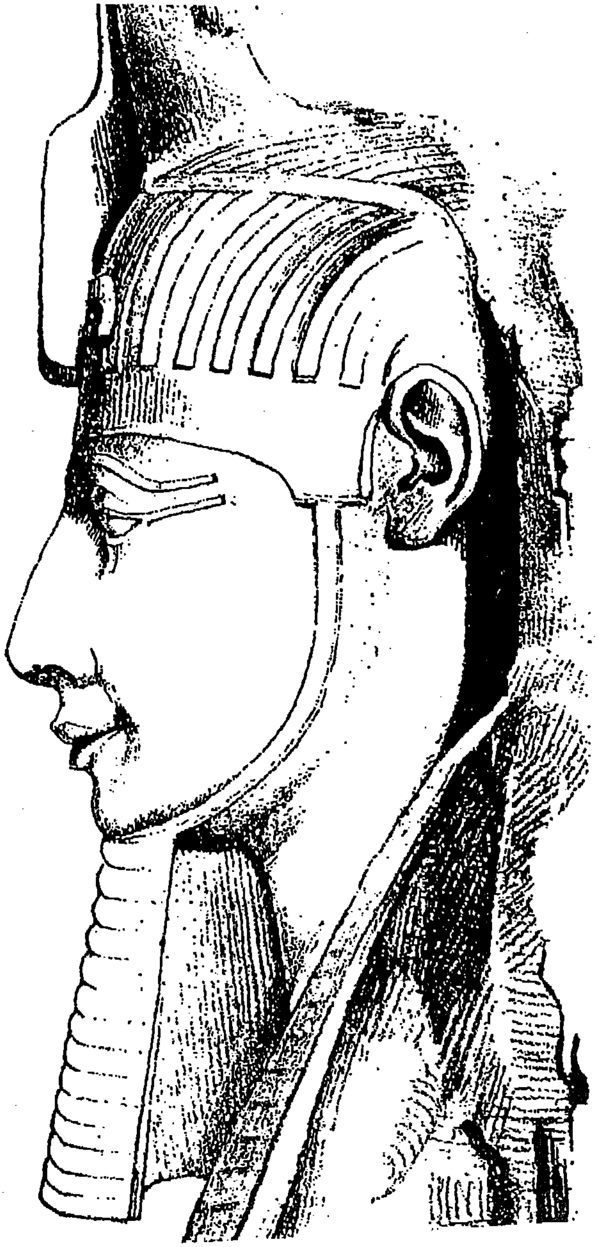

على النيل بالقرب من الشيخ عبادة في ١١ سبتمبر ١٨٢٩

ستعلم جيداً من خلال تاريخ ومكان كتابة هذة الرسالة أن رحلتي الدراسية قد انتهت بالفعل، ولم يبق أمامي سوي العودة بأسرع ما يمكن إلى الإسكندرية، ومنها إلى أوروبا حيث سأنعم برضى القلب وراحة الجسد، وإن كنت لا أشعر بحاجة ماسة إلى الراحة البدنية. إذ أنني قد نعمت فعلاً بعيشة رغدة منذ مغادرتي "دندره" في صباح اليوم السابع من سبتمبر، فكنت أقضي طيلة اليوم مستلقياً في القارب الشراعي الجميل الذي تفضل بتأجيره لنا صديقنا محمد بك في أخميم. وكنت أقطع الوقت في التأمل، ومتابعة اتجاه الرياح، وحث ومراقبة المجدفين. وبالرغم من عنفوان تيار النهر المنهمر بإفراط والذي تعدى أقصى منسوب لفيضانه، نجحت الرياح الشمالية في معاكستنا طويلاً. وبالطبع فإن فيضان هذا العام رائع وعظيم بالنسبة للرحالة من أمثالنا، والذين لا يستهويهم في تلك الأرياف سوى متعة المشاهدة. بينما يختلف الأمر كثيراً بالنسبة للفلاحين الفقراء والمزارعين التعساء، حيث تسبب الفيضان الزائد عن الحد في إتلاف محاصيل عديدة، مما سيدفع الفلاح -حتى لا يتضور جوعاً- إلى أكل القمح الذي "تركه" له الباشا لبذره في الموسم القادم. وقد رأينا بالفعل قرى بأكملها وقد أذابتها مياه النهر التي ما كانت لتصمد أمامها أكواخ صغيرة وحقيرة مشيدة من الطمي المجفف في أشعة الشمس. وكانت المياه تمتد من جبل لآخر في العديد من الأماكن. أما في الأماكن المرتفعة التي لم تغمرها المياه، كنا نرى الفلاحين الأشقياء من رجال ونساء وأطفال ينقلون على جناح السرعة قففاً مملوءة بالأتربة بغرض إقامة سدود وحواجز بارتفاع ثلاث أو أربع بوصات لصد نهر عات، وانقاذ بيوتهم والمؤن الغذائية القليلة المتبقية لديهم. يا له من مشهد مكدر ومؤسف تدمع له العين ويدمى له الفؤاد! فمصر ليست بلد التطوع والاكتتاب، بل إن الحكومة لن تتنازل عن جباية مليم واحد بالرغم من تلك المصائب والنكبات.

وبوسعك أن تتخيل مدى أسفي لفراق "طيبه" وجلالها على مضض، بعد أن أمضيت بها ستة أشهر كاملة. كان معبد "أوبت Oph (Rhea) " الواقع على مقربة من معبد الجنوب الكبير آخر مكان حللنا فيه في الكرنك، وسط طريق الكباش على مدخل قصر الملوك العظيم.

وقد قمنا لدى مرورنا بـ"طيبه" خلال شهر مارس الماضي باستكشاف معبد الكرنك، ونسخ كافة الرسوم البارزة الهامة، بدءاً من المناظر العملاقة المنحوتة على برجي الصرح. وقد نفذنا هذا العمل بنشاط وحماسة، وأصبح في حوزتي بلا استثناء كل مجموعة الرسوم البارزة التاريخية التي في حالة جيدة من الحفظ في معبد الكرنك، وهي تضارع نقوش معبد "أبو سمبل" من حيث روعة النمط والتنفيذ، إن لم تفقها بالفعل. وترتبط كافة هذة النقوش بالغزوات التي شنها الملك "مرينبتاح الأول" على آسيا. علاوة على ذلك فقد قمت بنسخ ما يقرب من خمسين نقش بارز يمكن تصنيفها كذلك في باب التاريخ، نظراً لأنها تصور ملوكاً يمثلون إضافة وإثراء للمعلومات العديدة التي جمعتها عن الأسر من الثامنة عشرة إلى الثانية والعشرين. وستجد المزيد من التفاصيل حول إنجازاتي في الكرنك في الملخص الذي سأرسله إليك من الحجر الصحي، والمتعلق بهذا الكم المدهش من القصور والمعابد والأبنية المذهلة التي يعجز اللسان عن وصفها، والتي تعود إلى مختلف العصور الفرعونية.

ثم غادرت "طيبه" في مساء اليوم الرابع من سبتمبر لأبلغ "دندره" في اليوم التالي. وعلى قدر روعة وجمال الطابع المعماري لرواق معبدها، فإن نقوشه البارزة سيئة ومقززة بسبب مسحة الانحطاط والاضمحلال التي تغلب على جميع أجزائه. وحتى النصوص الهيروغليفية نفسها ركيكة، ونستشف من خلالها رغبة الكاتب الذي خطها في التحذلق والإكثار من الرموز والأشكال المجازية، حتى وقع في المزاح الماجن والتورية. غير أن كتلة البناء توحي بالهيبة والجمال، وتُذهل حتى الرحالة من أمثالنا الذين سبق لهم زيارة "طيبه"، ولاتزال مخيلتهم تذخر بالتكوينات المعمارية الرائعة التي ترجع إلى العصور الفرعونية. وقد رغبت في التأكد مرة ثانية بأم عيني من أن خراطيش النصوص الجانبية للأبراج السماوية خالية فعلاً، ولم يطلها إزميل النحات أبداً، وهو أمر أكيد لا ريب فيه. كما أن كلمة "autocrator" ما هي إلا إضافة قام بها صديقنا "جومار". وسأرسل إليك أيضاً من الحجر الصحي مذكرة مسهبة حول آثار "دندره".

أما باقي الرحلة وحتى يومنا هذا (الحادي عشر من سبتمبر) فقد انقضت دون شيء يذكر، وآمل في بلوغ القاهرة في مساء غد. وهناك لن أطيل التوقف أكثر من أربعة أو خمسة أيام، قبل أن أتوجه إلى الإسكندرية، ثم إلى "تولون" بعد ذلك إذا نجحت مساعيك، وصدقت وعود وزير البحرية الفرنسي في تدبير سفينة لنا. وكما ترى فليس في نيتي إطلاقاً قضاء فصل الشتاء في ايطاليا؛ بل أزمع قضاءه في "باريس"، على الرغم من أن تلك الفكرة تثير مخاوفي في حقيقة الأمر، نظراً للاختلاف الشديد في الطقس. لذلك سأكون في حاجة إلى مسكن دافيء جداً، لن أبارحه حتى أولى بوادر فصل الصيف، وسأكون مضطراً للتقوقع بعض الوقت مثل دودة القز.

وفيما بين "دندره" و"هو" المعروفة عند اليونان باسم "ديوسبوليس بارفا"، جاءنا البريد بمحض الصدفة بخطابين أرسلا من "طيبه" إلى القاهرة منذ نهاية شهر يونيو، وكنا قد بقينا طوال تلك الفترة بدون أخبار عن أوروبا. ثم مر بنا الوقت في الانتظار دون أن نتمكن من الكتابة إلى فرنسا... فلتُبلغ تحياتي واحترامي لرئيسنا الجليل. وكلي أمل في ألا يكون قد تكدر لأن أعضاء الأكاديمية ـ المصابين بمرض الشَّبَخ ـ فضلوا إعطاء أصواتهم للسيد "بارديسي" بدلاً مني؛ وهو أمر لم يُدهشني إطلاقاً. فلو كانت الأكاديمية قد انتخبتني حينما كانت اكتشافاتي موضع تشكك وجدل عن حسن أو سوء نية لكنت وجدت في ذلك إطراء وعرفاناً حقيقياً تجاهها. ولو كان أعضاؤها قد فكروا فيّ بينما شرعت في إتقان دراساتي والقيام بحصاد عظيم وسط أطلال "طيبه" لكنت رأيت في ذلك تشجيعاً؛ ولكنت اعتبرت ترشيحي كنوع من المكافأة الوطنية. بيد أن الأكاديمية شاءت أن تضن عليّ بهذة الترضية. لذلك فمن الآن فصاعداً لن أقوم بأي خطوة واحدة تجاهها. وعندما يأتي نصيبي في الترشيح فلن أسارع في شغل ذلك المنصب، تماماً مثلما يعاف سكير محنك شرب زجاجة شمبانيا فاسدة منذ ستة أشهر. حتى ماء النيل نفسه يبعث على التقزز والاشمئزاز عندما لايكون المرء عطشاناً.

لم تصلني أية أخبار عن "ديبوا" الذي كتبت إليه من "طيبه". في حين أرسل لي السيد "ميمو" رسالة لطيفة للغاية. وتصوره الشائعات في القاهرة على أنه رجل طيب ومرح. ولقد تقابل وجهاً لوجه مع السيد "دروفيتي" بينما كان أحدهما يغادر والآخر يصل إلى الميناء

الجديد. ولن أجد حرجاً في التعامل مع السيد "ميمو" طالما أنه لا يعمل في تجارة العاديات.

لقد سبق أن تنبأت بأن الأموال الإضافية التي طالبت بها لن تصلني إلا بعد فوات أوان استخدامها في "طيبه". بيد أنه لا ضرر في ذلك، إذ أنني لو كنت قد تسلمتها في "طيبه" بالفعل لما أنفقت منها مليماً واحداً في عمل حفائر. فقد صرفت النظر عن ذلك الأمر منذ عدة شهور: فالتنقيب عن الآثار ليس مهنتي، ولأن العربان الذين نستخدمهم في الحفائر تلزم مراقبتهم بلا هوادة وإلا فلن ينجحوا في اكتشاف أي شيء، أو أنهم سيقومون بسرقة وإخفاء كل ما يعثرون عليه. ومع ذلك فقد أحضرت في الوقت الراهن قطعاً أثرية هامة بالرغم من صغر أحجامها. أما عن القطع الكبيرة فيقتصر الأمر على ثلاث أو أربع مومياوات تحمل نقوشاً جديدة ونصوصاً فضلاً عن :

١) أجمل نقش بارز وملون في مقبرة الملك "مرينبتاح الأول" الواقعة في وادي الملوك. وهي قطعة جوهرية تساوي بمفردها من حيث القيمة مجموعة كاملة من القطع. ولقد تكبدت مشاق جسيمة من أجلها، وستتسبب بكل تأكيد في إثارة الشجار مع الإنجليز المقيمين في الإسكندرية، والذين يدّعون أنفسهم الملاك الشرعيين لمقبرة "مرينبتاح الأول" التي قام "بلزوني" باكتشافها لحساب السيد "سالت". وعلى الرغم من ذلك الادعاء الجميل، فليس أمامي سوى أحد أمرين : إما النجاح في الخروج بتلك القطعة وتوصيلها إلى "تولون"، وإما الإلقاء بها في أعماق البحر أو النيل بدلاً من تسليمها إلى أيدي غريبة. وقد حزمت أمري على ذلك.

(٢) لقد اشتريت في القاهرة من محمود بك -وبفضل مدخراتي وأموالي الخاصة- أروع تابوت رأته عينا بشر في الماضي والحاضر والمستقبل. وهو من حجر البازلت الأخضر، وتغطيه من الداخل والخارج النقوش البارزة أو بالأحرى الرسوم الجزعية المنقوشة بدقة وإتقان يتعذر تصورهما. وهو أروع ما يمكن أن تتخيله: تحفة حقيقية جديرة بتزيين صالون أو قاعة استقبال للدقة المتناهية في نحته. ويحمل غطاؤه نقشاً بارزاً يصور امرأة منحوتة بروعة. وبفضل هذه القطعة وحدها سأوفي ما عليّ تجاه البلاط الملكي، لا من حيث العرفان ولكن من الناحية المالية. إذ أن هذا التابوت يستحق بكل

تأكيد مائة ألف فرنك، مقارنة بغيره من التوابيت التي تم شرائها بعشرين وثلاثين ألف فرنك.

ويُعتبر النقش البارز والتابوت من أروع القطع الأثرية المصرية التي تم إرسالها إلى أوروبا حتى يومنا هذا. وسيكون من الإنصاف أن تستأثر "باريس" بهما كتذكار لنجاح بعثتي إلى مصر. وهما هدية أخص بها متحف "اللوفر" حيث ستبقيان تخليداً لذكراي.

وهكذا فإن لم أجد في القاهرة عند تجار العاديات الذين ينتظرونني بفارغ الصبر منذ أن اشتريت التابوت (بثمانمائة بوطقة بينما كنت على استعداد لأن أدفع فيه حتى ألف ومائتين بوطقة) إن لم أجد لديهم بعض القطع الجديرة بالعرض في متحف "اللوفر"، فلن أنفق مليماً واحداً من الأموال التي وضعوها تحت تصرفي. وأخيراً فإن لم أجد كذلك في "مارسيليا" التي سأمر بها عقب مغادرتي الحجر الصحي شيئاً ذا قيمة فسأكون سعيداً برد خطاب الاعتماد كما هو إلى السيد "دي لا روشفوكو"، بالإضافة إلى قائمة بالقطع التي سأثري بها المتحف دون أن يُكلفه ذلك مليماً واحداً. سأنهي هذة الرسالة في القاهرة وأضعها في البريد بنفسي.

* * *

منذ ربيع عام ١٨٢٨ لم يتوان الفيكونت "دي لا روشفوكو" في مقاومة التكتل المألوف الذي كان يرغب في إحباط الحفائر التي كان شامبليون يعتزم القيام بها في مصر. بيد أن غياب الكونت "فوربن" قد خدم مساعي شامبليون، وجعل نجاحه أمراً ممكناً وإن كان متأخراً. وقد أرسل الخطاب الرسمي المبشر بالنجاح في نفس اليوم الذي تم فيه اعتماد الأموال الإضافية للحفائر :

باريس في ١٤ مايو ١٨٢٩

سيدي ،،

يسعدني أن أنهي إلى مسامعكم بأنه بناء على ما بذلته من مساع لتلبية رغبتكم التي أعربتم عنها في خطابكم بتاريخ الفاتح من يناير من هذا العام، فإن جلالة الملك قد وافق على إضافة مبلغ عشرة الاف فرنك إلى ميزانية المتاحف في عام ١٨٢٩ لكي تخصص لعمليات التنقيب عن الآثار المصرية لإثراء متحف "شارل العاشر". وأنا على ثقة في أن تلك الإمكانيات الجديدة التي يَسّرها لكم البلاط الملكي ستُهيء لكم الفرصة في زيادة الخدمات العديدة التي تُدين لكم بها الفنون والعلوم. وأنا أبتهج لنجاحي في المساهمة في تدبير الأموال اللازمة لتسهيل نجاح بعثتكم.

وسأقوم في نفس هذا اليوم بإبلاغ السيد مدير المتاحف بالقرار الخاص بالإعانة المقدرة بعشرة الاف فرنك، وأهيب به بالإسراع في اتخاذ كافة التدابير اللازمة. كما أرجو من سيادتكم الاتفاق معه حول التفاصيل المتعلقة بهذا الشأن.

وتفضلوا سيادتكم بقبول فائق الشكر ووافر الاحترام ،،

مرافق الملك
مدير عام الفنون الجميلة
الفيكونت/ دي لا روشفوكو

ملحوظة : كونوا على ثقة من سعادتي باللقاء بكم عقب انتهاء أعمالكم الهامة.

* * *

بيد أن منازعات جديدة تسببت في مزيد من التأخير. حتى أن شامبليون فيجاك لم يتسلم الأموال المخصصة لأخيه إلا في الثالث والعشرين من يوليو ١٨٢٩. وبمقدورنا أن نتخيل مدي الضيق الذي انتابه حينذاك.

* * *

من شامبليون إلى شامبليون فيجاك
(نهاية الرسالة السابقة)

القاهرة في ظهر يوم ١٥ سبتمبر

هاأناذا أصل إلى عاصمة مصر دون أن أجد رسائل أو أخبار من أوروبا، أو حتى صديقي "باريزيت" المتواجد حالياً في الإسكندرية -كما يُقال- في تمام الصحة والعافية، بعد أن أتم بعثته إلى سوريا على أكمل وجه. وسأذهب للحاق به خلال بضعة أيام، بعد زيارة ابراهيم باشا الذي سأكون جد مرتاح للتعرف عليه شخصياً. وستكون تلك آخر رسالة أكتبها لك من مصر. أما رسالتي القادمة فسأبعثها إليك من الحجر الصحي في "تولون"...

وداعاً يا صديقي العزيز. صحتي جيدة، وكل شيء يجري على خير ما يُرام. وداعاً.

ج.ف. شامبليون

* * *

قام شامبليون لدى وصوله إلى القاهرة باستعراض كافة القطع الأثرية التي احتفظ له بها تجار العاديات. وكان "ديشان" قد اهتم كثيراً بهذا الأمر عقب مغادرته "طيبه"، وندمه الشديد على هجره لشامبليون بعد انقضاء اثني عشر شهر على إقلاع البعثة الفرنسية من ميناء "تولون"، رغم أن العقد كان ينص على التزام أعضاء

البعثة باتباع تعليمات رئيسيها خلال فترة تمتد من اثني عشر إلى أربعة عشر شهر.

وقد ذكر "ديشان" في خطاب طويل أرسله إلى شامبليون في منتصف شهر أغسطس : [سيدي، إن التابوت ملك لنا. فقد دفعت فيه ثمانمائة بوطقة، وسأتولى نقله غداً. وتغمرني البهجة وأنا أزف إليكم هذا النجاح غير المتوقع... وقد رأيت تابوتاً آخراً عند رجل يُدعى "أنطونيو دسبيرو"، وهو على شكل صندوق لحفظ المومياء، ويحمل غطاؤه نقشاً تقليدياً لرجل ممدد الذراعين، يرتدي ثوباً مُغضّن عريض الأكمام. أما النصوص الهيروغليفية، فهي في حالة جيدة جداً من الحفظ، ولا تحتوي على أية خراطيش. وهو منحوت من الجرانيت الرمادي وسليم تماماً... فلا يفوتنكم الذهاب لرؤيته إذ أنه يستحق عناء الذهاب على ما أعتقد. كما أوصيكم باقتناء هذا التابوت الفريد الذي لا نملك له مثيلاً. وهو في حوزة مقاول حفائر في حاجة إلى المال يعرضه بسعر سبعمائة جنيه. كما أنه يمتلك تابوتاً آخراً على شكل صندوق لحفظ المومياء منحوتاً من حجر البازلت على ما أعتقد. وإلى جانب هذين التابوتين فقد عُثر داخل نفس المقبرة على تمثال صغير من الحجر الجيري، وخمسة أو ستة آنية كانوبية. وقد ناشدته ألا يُفرق بين تلك الآنية والتابوتين المصاحبين لها. كما يوجد أيضاً هرم صغير من الجرانيت الوردي.

[إن اللغط والحماقات التي قيلت عن الآثار المصرية تفوق بكثير عدد المنقبين عنها. ولقد عثرت في النصوص الهيروغليفية على إشارات إلى كنوز عديدة. كما كشفت لكم المومياوات عما تدخره من مكافآت لمن يفلح في العثور عليها، وتفسير معاني النصوص التي تغطيها...الخ.

[ويبدو من المؤكد تقريباً أن السيد "روزليني" لم يبذل أية مساعي في سبيل اقتناء التابوت. وقد صرحت للسيد "ماك أردل" -وهو رجل معروف بالكياسة واللطف- بأنه تناهى إلى مسامعي أن محمود بك قد خفض كثيراً من السعر الذي عرضه لشراء التابوت، حتى اقتصر على مبلغ ألف بوطاقة. ولقد كلفتني بالتأكد من صحة ذلك، وفي هذة الحالة بشراء التابوت ونقله... ولايزال غطاء التابوت وجزء مكسور منه على ضفاف النيل، بينما نجحت في تحميل الباقي فوق المركب. وما كنت لأدخر وسعاً في سبيل نقل قطعة أثرية بمثل

هذا القدر من الروعة والقيمة... أما الآن فقد أصبح كل شيء على ما يرام، بعد أن لازمتني الحُمى طوال اليوم، والتوجس من عدم استطاعتنا تحميله على المركب، أو كسره أثناء تلك العملية. إلا أنني أخبركم بارتياح شديد بأننا فرغنا من مهمتنا دون أن يمسه ولو خدش بسيط. ما أروع ذلك التابوت! وما أشد سعادتي وفخري بإحضاره إلى فرنسا!

[وقد وجدت فرقاطة في الإسكندرية ستُقلع عما قريب وسأستقلها حاملاً معي كافة الحاجيات التي أوصيتموني بها. كنت أود أن آخذ وقتي في الكتابة إليكم إلا أنه بالرغم من أنني في عجلة من الأمر فقد أخبرتكم بالأشياء الأساسية. إنني أحب القاهرة كثيراً بالرغم من فظاعة هذا البلد والتعقيدات الشديدة التي تعترض تنفيذ أبسط الأمور. فيا لهم من قوم!

[كل تجار العاديات ينتظرونكم بقلق ولهفة بالغين. وهم يعتقدون بأن كل القطع التي سترفضون شراءها عند مروركم ستُصاب بكساد لا رجعة فيه، ولن تجد أي مشتر آخر. وقد قابلت "أنطونيو" مرة ثانية، وهو يأمل ويرغب بشدة في بيع التابوت لكم. وقد أخبرته بأنكم قد تمرون به، وأنكم لستم من هواة المساومة. فإن حاز التابوت على إعجابكم بعد فحصه وتقدير قيمته، فستعرضون عليه السعر المناسب إذا كنتم ترغبون في اقتنائه...]

وقد قام "ديشان" بنقل التابوت إلى الإسكندرية مع كافة الآثار التي تم شراؤها قبل التوجه إلى مصر العليا. وبعد ذلك بعدة أسابيع قام شامبليون بتحميلها فوق السفينة باتجاه فرنسا.

* * *

الإسكندرية في ٣٠ سبتمبر ١٨٢٩

منذ ما يقرب من عشرة أيام وأنا أعيش منعماً عند السيد "ميمو"، قنصل عام فرنسا. وهو رجل لطيف لا أستطيع أن أوفيه حقه من المديح. فهو يغمرني بكافة مظاهر الود الحقيقي. أنا ورفاقي في تمام الصحة والعافية. وسنكون في قمة السعادة لو لاح لنا في الأفق شراع السفينة التي كان ينبغي أن تأتي لاصطحابنا. بيد أن البحر يلتزم الصمت المطبق منذ ستة أسابيع، ولم تعد تجوبه ولا حتى مركب تجارية واحدة! ولقد قبعت هنا في انتظار تحقق الوعود الوزارية، وبوسعك أن تتخيل مدى الحنق والغيظ اللذان يتملكاني. فصبراً!

لم أغادر القاهرة إلا عقب زيارة ابراهيم باشا الذي أحسن استقبالنا. وقد أطلنا الحديث معه عن منابع النيل، كما وطدت لديه الفكرة التي كانت تراوده في تخليد اسمه بهذا الاستكشاف الجغرافي العظيم: سواء عن طريق تشجيع الرحالة الذين يقومون به، أو عن طريق قيامه شخصياً بقيادة بعثة صغيرة من الرحالة بصحبة عدد من الرجال المسلحين لحمايتهم. ومن يدرينا لعل بذور هذا المشروع تثمر في المستقبل. وعلى أية حال فإن الباشا يعي أهمية ذلك.

ثم قدمت فروض الاحترام والولاء والعرفان لمحمد على، وهو دائماً طيب ولطيف تجاه الفرنسيين.

وأغتنم هذة الفترة من التوقف والانتظار لترتيب أوراقي وثرواتي الطائلة، والتي لن يُسعفني الوقت لسرد كل تفاصيلها. وستُبحر السفينة بتلك الرسالة، وبرسالتي السابقة غداً في مطلع الفجر. وداعاً يا صديقي العزيز وداعاً. وإلى اللقاء في "تولون"!

ج.ف. شامبليون

* * *

الأسكندرية في أكتوبر ١٨٢٩

صديقي العزيز ،،

هاأناذا في نفس الحال الذي كنت عليه في أواخر شهر سبتمبر الماضي. ولايزال البحر الأبيض المتوسط يفصل بيننا. وقد غادرت "طيبه" ومصر العليا على مضض لآتي إلى هذا الشاطيء الحزين أضرب أخماساً في أسداس. ومنذ يومين وصلت الحرّاقة "الأسترولاب l'Astrolabe" إلى ميناء الإسكندرية، وقد كُلِفت بمهمة إرجاعنا إلى فرنسا. أما قبطانها السيد "دي فرنيناك" فهو رجل طيب ومثقف جداً. وكاد كل شيء يجري على خير ما يرام لولا أنه لسوء الحظ لن يمكنني الإقلاع صوب فرنسا قبل الخامس عشر من نوفمبر، نظراً لأن تلك الحرّاقة يجب أن تقوم أولاً بتوصيل السيد "ماليفوار"، قنصل حلب، إلى سوريا. لذلك ينبغي عليّ الإذعان لعدم مغادرة الحجر الصحي في "تولون" قبل أواخر شهر ديسمبر القادم. وما أصعب الرضوخ لتلك الفكرة !

مازلت بدون أية أخبار عنكم جميعاً، منذ الرسائل الأخيرة التي تسلمتها في شهر يوليو. فإما أن تكون مكاتب البريد في غاية الفوضى (وهو ما يغيظني ويشقيني)؛ وإما أنكم لا تكتبون لي، وهو أمر لا يُغتفر. ولا يسعني في كلا الاحتمالين إلا الشعور بالحزن ينشب أظافره في صميم قلبي. تُعتبر مصر أفضل مدرسة في العالم لتعليم الصبر وطول البال. بيد أنني لم أع دروسها جيداً. تحياتي لكل أصدقائنا، وقبلاتي الحارة لك

ج.ف. شامبليون

ملحوظة : لن أعاود الكتابة إليك إلا في "تولون". لقد أبحر "روزليني" وأعضاء البعثة التوسكانيون منذ عدة أيام على متن مركب تجاري. وكنت على وشك أن أحذو حذوهم عندما وصلت الحرّاقة إلى الإسكندرية. وخلال إقامتنا الجبرية في هذه المدينة، قام رفاقي الشبان بتصميم نقوش وديكورات مسرح يعتزم بعض الهواة الفرنسيين افتتاحه قريباً. وهكذا تمضي الحضارة قدماً إلى الأمام ! وقد فُتنوا بلطف فنانينا الشبان. وسأذهب لحضور عرض مسرحي حتى يحين موعد الإبحار.

* * *

من شامبليون إلى الدكتور "باريزت"

الإسكندرية في ٢٧ أكتوبر ١٨٢٩

عزيزي "إيموت" !

لقد تسلمت رسالتك القصيرة بفرحة غامرة. وكم انشرح صدري لما أحرزته من نجاح وانتصار! وإنك تعلم مدى ثقتي في قدراتك.
ستصلك هذة الرسالة عن طريق رفاقي الثلاثة الذين قرروا العودة مرة أخرى إلى القاهرة لرسم بعض مناظرها انتظاراً لموعد إبحارنا النهائي في الخامس عشر من نوفمبر. ويُقال أنك تمتلك بيتاً كبيراً يُمكن أن يجدوا فيه حجرة تأويهم. فإن كان ذلك صحيحاً فأنا أصرح لهم بالنزول عندك إيماناً مني بالتعبير عن رغبتك.
تُرى هل قررت الرجوع إلى فرنسا بصحبتي؟ والآن وقد بلغت مرادك فإن كل أصدقائك يأملون في ذلك. ولن أطيل الحديث في هذة النقطة. وفي انتظار أخبارك، لك مني أحّر القبلات.

شيآمون

* * *

الإسكندرية في ٢٩ أكتوبر ١٨٢٩

عزيزي "إيموت" !

أستحلفك بآلهة مصر أن تأتي في الحال إلى الإسكندرية، ولو لقضاء يومين أو ثلاثة فقط. فما أشد حاجتي إلى وجودك بجانبي ! قبلاتي لك.

* * *

من شامبليون إلى شامبليون فيجاك

الإسكندرية في ٩ نوفمبر ١٨٢٩

لقد تسبب سوء الأحوال الجوية في تأجيل اقلاع الحرّاقة "الأسترولاب" باتجاه السواحل السورية لتوصيل السيد "مليفا". وبالتالي فقد أرجيء رحيلي حتى العشرين من هذا الشهر. فليلهمني الله الصبر !

سأكون مرتاحاً جداً لدي وصولي إلى ميناء "تولون" للعثور على خطابات رسمية لمدير الجمارك حتى أتفادى التشاجر مع هؤلاء الناس بشأن: ١) الصناديق التي تحتوي على قطع أثرية مخصصة للمتحف الملكي. ٢) الأشياء المختلفة الأخرى مثل المعاطف الصوفية والأحذية الرجالي والحريمي، والأقمشة المُطرزة من الموصل، والأسلحة وغير ذلك من الملابس الشرقية التي أحملها أنا ورفاقي الشبان الذين يزمعون استخدامها في رسم بعض المواضيع واللوحات الآسيوية والإفريقية. ولهذه الأسباب الفنية البحتة، ألتمس منك الحصول على الإعفاءات الجمركية لهذه الأشياء التي جلبناها معنا من مصر. لذلك فعند بلوغي "تولون" في منتصف شهر ديسمبر، سيكون من المستحسن أن أجد تعليمات دقيقة بهذا الشأن، وأوراق رسمية لتذليل كافة العقبات.

لقد قمنا بنقل التابوت أمس لحسن الحظ على متن الحرّاقة، بفضل عناية القبطان الطبيب، السيد "دي فرنيناك". ونكون بذلك قد انتهينا من عمل شاق. لا تزال صحتي على أحسن حال. أما رفاقي الشبان فيواصلون رسم المناظر في القاهرة. وبمناسبة عيد الملك، فقد تم افتتاح المسرح الفرنسي الذي كانوا قد قاموا بتنفيذ نقوشه، مما عاد بالسرور على رواده من الفرنسيين. وداعاً يا صديقي العزيز. قبلاتي لك ولذوينا.

ج.ف. شامبليون

* * *

الإسكندرية في ٢٨ نوفمبر ١٨٢٩

صديقي العزيز ،،

أخيراً وبعد طول انتظار فقد سمح لي "آمون" العظيم بتوديع أرضه المقدسة. وسأغادر مصر في الثاني أو الثالث من ديسمبر، بعد أن غمرني أهلها القدامى والمعاصرون بكل جميل ومعروف. فقد عادت الحرّاقة "الأسترولاب" من سوريا، وأصبحت جاهزة لاستقبالي أنا ورفيقي المخلص "سالفادور". أما السادة "لوت" و"لورور" و"برتان" فيرغبون في الانتهاء تماماً من العمل الكبير الذي كانوا قد بدأوه. وهم محقون في ذلك تماماً لأن الرسوم البانورامية لمدينة القاهرة ستكون رائعة للغاية. وبالتالي فسيبقون شهراً آخراً في مصر، بينما سأسبقهم أنا إلى "تولون" وفرنسا. وفضلاً عن ذلك فإننا جميعاً في تمام الصحة والعافية. أشعر بمزيد من القوة لمجابهة الزوابع والعواصف التي ستعترضنا في أعالي البحار خلال هذا الشهر "الكريم" من الملاحة. وكل ما في الأمر أن ذلك سيكون له الفضل في تطهيرنا. ومن ناحية أخرى فإننا على استعداد لتحمل ما هو أعتى من الأمواج الهائجة في سبيل رؤية فرنسا من جديد.

سأسلم هذه الرسالة للسيد "أودر"، مرافق الجنرال "جييومينو" الذي سيغادر الإسكندرية غداً على متن سفينة "الإكليبس **l'Eclipse**". وهو رجل لطيف للغاية جمعتني به وشائج الود والصداقة. وسيسعدك كثيراً التعرف عليه إذا سمحت له الظروف بحمل تلك الرسالة بنفسه إلى "باريس". فعليك إذاً باستقباله كصديق. وسيسبقني في الوصول إلى فرنسا بنحو عشرة أيام نظراً لسرعة السفينة التي يستقلها مقارنة بالحرّاقة التي ستُقلني، والتي لا تعبأ بقصف القنابل وهيجان المحيطات التي كثيراً ما جابهتها خلال جولاتها المتعددة حول العالم. ومن المحتمل أن أطأ سواحل فرنسا فيما بين العشرين والخامس والعشرين من شهر ديسمبر. ولن أكون حر التصرف في نفسي قبل منتصف شهر يناير.

سأمضي فيما بين عشرين وثلاثة وعشرين يوماً في الحجر الصحي بـ"تولون"، أو ربما في جزيرة "مالطة" لكي أكسب بعض الوقت. بيد أن ذلك يتوقف على شدة الرياح التي ستواجهنا...

وسأصل ومعي التابوت ونحو عشرين صندوقاً. ومن المهم ألا يُجبروني في الحجر الصحي وفي الجمارك على فك الطرود وفتح الصناديق مرتين لتعريضها للهواء، وتنقيتها من وباء الطاعون الذي لم يعد له أثر في مصر منذ خمسة أعوام. أستحلفك بالله أن تحصل من الوزراء المعنيين، أي وزير الداخلية فيما يتعلق بالحجر الصحي، ووزير المالية فيما يختص بالجمارك، على كافة التسهيلات التي يُمكن تخيلها. لا سيما وأن الأشياء التي أحملها تُعتبر من ممتلكات الحكومة...

وداعاً... إن الحظ السعيد الذي رافقني طوال رحلتي سيلازمني حتى النهاية. قبلاتي لك... ولتحي فرنسا !

ج.ف.شامبليون

* * *

من دواعي الأسف أن شامبليون لم يتمكن من تنفيذ مشروعه الخاص بكتابة مذكرات تفصيلية حول كل ما حَلّ به خلال إقامته الثانية في القاهرة والإسكندرية. إذ كان ينبغي طباعتها، ليس بهدف نشرها في الجرائد، وإنما لتوزيعها كتذكار على عائلته وأصدقائه الكثيرين. ولما كانت تلك الفكرة تراوده فقد أوجز فيما أرسله إلى أخيه من خطابات. بيد أنه عقب عودته إلى "باريس" راح يسهب في سرد الوقائع التي عاشها خلال تلك الفترة. لذلك فنحن ندين بجزء كبير من المعلومات التالية لابن أخت شامبليون الذي كان يصغي بشغف لما يقوله خاله، والذي لم يتردد في تسهيل أبحاثنا.

لقد كانت فترة إقامة شامبليون في القاهرة والإسكندرية أكثر قلقاً وإعياء وكذلك أكثر إثراء مما تخيله أخوه. كما كان لقاؤه الأول بابراهيم باشا في حضرة جميع أعضاء البعثة لقاء هاماً. وفي اليوم التالي تقابل شامبليون مرة ثانية مع الباشا في حضور "لينان" بك فقط. وقد وافق ابراهيم باشا عن طيب خاطر خلال تلك المقابلة الهامة على اقتراح إرسال بعثة مصرية لاستكشاف منابع النيل، وأن يقوم "لينان" بك برئاستها علمياً.

كما تم مناقشة موضوع آخر أكثر إلحاحاً في تلك الآونة: ألا وهو صيانة وضمان بقاء المستشفي العظيم ومدرسة الطب النموذجية في "أبو زعبل" على مقربة من القاهرة، والتي تم انشاؤها وفق توجيهات السيد "كلوت" بك من مدينة "جرينوبل" الفرنسية. وقد أقام في مصر منذ عام ١٨٢٥ حيث قام بتوفير خدمات صحية وتأسيس مجلس للصحة العامة. وقد علم شامبليون قبل وصوله إلى القاهرة بأن ولي العهد -الذي كان فخوراً حتى الآن بهذا المستشفى النموذجي- قرر فجأة تحويله إلى معمل حرير نموذجي! مما أثار وأغضب كل سكان القاهرة. وقد سارع شامبليون في الذهاب لمقابلة "كلوت" بك، رئيس جراحي الجيش المصري لمعرفة ما إذا كان بإمكانه حل هذه القضية المؤسفة ومناقشتها مع ولي العهد. وقد انتزع "المصري" من ابراهيم باشا وعداً بعدم المساس بهذا المستشفى.

وبعد أن اطمأن شامبليون لحسم هاتين القضيتين الخطيرتين، وبعد أن تفحص كافة القطع الأثرية الموجودة لدى تجار العاديات دون أن يعجبه شيء، قام بمغادرة القاهرة، مما يعني بالنسبة له مغادرة مصر. ثم بلغ الإسكندرية حيث جعل ينتظر السفينة التي كان من المفترض أن تصل عما قريب. وهناك تقابل شامبليون أخيراً مع "باريزيت" واثنين من زملائه، الطبيبين "لاغويسكي" و"جيلو" الذين نزلوا جميعاً مثله في ضيافة السيد "ميمو". وقد انشغلوا في الأيام الأولى باستعراض القطع الأثرية التي تم جمعها لرؤساء البعثة، والتي كانت تفوق من حيث الأهمية كل ما عرضوه عليهم في القاهرة. بيد أنه كانت هناك مفاجأة مؤلمة في انتظار شامبليون عند أحد تجار العاديات. فقد أودع "ديشان" -الذي توجه فجأة إلى اليونان بدلاً من العودة مباشرة إلى باريس- الآثار التي كانت في عهدته ومن بينها التابوت الذي تحدثنا عنه آنفاً وباقي القطع الأخرى، أودعها لدى هذا التاجر الذي قام بالتصرف في أهمها. وقد استحق "ديشان" الذي لم يتوجه إلى "ميمو" بدلاً من ذهابه إلى هذا التاجر، نقمة "ميمو" و"المصري" على فعلته تلك.

وغني عن البيان أن جميع أعضاء البعثة قد قاموا بمجرد أن سنحت لهم الفرصة بتقديم أنفسهم إلى ولي العهد الذي استقبلهم بنفس الرفق والعطف اللذين يبديهما عادة نحو الأوروبيين. وعقب

تلك الزيارة الرسمية بيوم، توجه ابراهيم باشا فور قدومه من القاهرة إلى القنصلية الفرنسية، ودعا "باريزيت" وشامبليون إلى الذهاب معه إلى محمد علي الذي كان يرغب في الحديث معهم. كان ابراهيم متوتراً ومهتاجاً أكثر من المألوف، مما حث "باريزيت" على أخذ بعض الأدوية معه. وحسناً فعل: إذ انتابت ولي العهد أزمة قلبية أثناء تناول وجبة العشاء، فسقط على الأرض مغشياً عليه. عندئذ هب "باريزيت" لمداواته بفعالية وانقاذه من الموت المحدق. ثم اضطر لإرجاء سفره أسبوعاً لعلاج ولي العهد من وعكته تماماً. وقد ابتهج شامبليون و"ميمو" لذلك ابتهاجاً شديداً.

وقد بكي الملك من فرط التأثر والانفعال. وراح يُغدق نعمه على ضيفيه منذ تلك اللحظة المهيبة التي لا تُنسى، مردداً دون انقطاع أن [أحدهما قد بعث ابني إلى الحياة من جديد، بينما قام الآخر بإحياء مجد وعزة بلدي الذي اندثر منذ زمن سحيق !] ومنذ ذلك الحين اغتنم شامبليون و"باريزيت" الفرصة للتحدث بحرية مطلقة أمام الملك وولي عهده. فقد تعذبت روحهما المرهفة كثيراً لرؤية مظاهر البؤس والشقاء الشديد الذي يطحن عامة الشعب، لدرجة دفعتهما إلى محاولة اصلاح ذلك الوضع. وقد التقيا مرات عديدة، وبدون أي شهود، عند الرجلين اللذين يحكمان هذا البلد التعيس، والذي كان من الممكن أن يكون أفضلاً حالاً بكثير! وخلال تلك الجلسات التي كانت تمتد لساعات طويلة، كان شامبليون يتصدى للدفاع عن قضية الآثار المصرية العريقة المهددة على الدوام بالتدمير النهائي. أما "باريزيت" فكان ينبري للزود عن مصر المعاصرة والتحسينات الصحية التي ينبغي إدخالها. بيد أن الاثنين كانا يضمان صوتهما للمطالبة بالإجراءات التي من شأنها النهوض بحالة الشعب الاجتماعية الراهنة. وكانت طباعهما تبرز بجلاء من خلال تلك الجلسات. إذ كان شامبليون يلمح غالباً قصداً خفياً وراء [ابتسامة ولي العهد الساحرة]، مما يدفعه على الدوام إلى التحفظ الرزين. بينما كان "باريزيت" يُطلق العنان بدون خوف للحماس والجسارة التي تغلب على طباعه النبيلة. [أيها الملك، رد للعربي عزة نفسه وروحه ! انتشله من ظلمات الجهل والعبودية التي يرزح في نيرها ! انهض به إلى مستوى الشرف والكرامة الإنسانية !]. كان "باريزيت" لا يكل إطلاقاً من إثارة تلك النقطة في أحاديثه مع

محمد علي. وفي سبيل إنصاف الملك كان شامبليون يحدثه بسرور عن التقدم الذي يحرزه الطلاب الخمسة والأربعون الذين يكونون "الجالية المصرية المؤقتة"، الذين أوفدهم للدراسة في "باريس" تحت إشراف "جومار" والأستاذ القبطي "عجوب". وكان شامبليون يعرفهم جميعاً بما فيهم أبناء الأمراء الزنوج الستة الذين أضافهم "دروفتي" إلى أعضاء الجالية. كما كان قد قابلهم قبل مغادرته "باريس" لرغبته في توصيل أخبار صحيحة عنهم لمحمد علي. وفي صيف عام ١٨٢٨ أعجب المستشرقون الباريسيون بالترجمة العربية للعديد من المراجع العلمية الهامة، والتي قام بها خمسة من هؤلاء الطلبة الشبان. وكان ولي العهد يُطلق عليهم: "عمداء الكليات في المستقبل". وقد أرسل إليه الشيخ "دشتوتي" كتاباً في الطب، في حين بعث إليه زميله الشيخ "رفاعة الطهطاوي" أشعاراً من بينها قصيدة "القيثارة المهشمة" التي قام الأستاذ "عجوب" بصياغة نصها الأصلي، فضلاً عن أعمال خاصة بعلم الفلك.

وكان محمد علي يتحدث كثيراً عن المهندس المعماري "ب.س. جزافييه" الذي غادر مصر فجأة في عام ١٨٢٧، بالرغم مما أغدقه عليه من عطايا ونِعم. وكان الباشا يرغب أخيراً في معرفة الأسباب التي دفعته إلى هذا الفرار الذي جرحه وأغاظه. وكان "باريزيت" يذكر جيداً مثل شامبليون الفظاعة البالغة التي حدثهم بها "جزافييه" عن بؤس وشقاء الفلاح المصري الذي يتعذر وصفه. عندئذ دفعت الشجاعة "باريزيت" لوضع النقاط فوق الحروف، فأخبر الباشا بأن "جزافييه" كان يرغب في الرحيل بين لحظة وأخرى أثناء شق ترعة المحمودية، وما كان يربطه بمصر سوى الأمل في مساعدة هؤلاء الضحايا الأبرياء في يوم من الأيام. ثم غادر مصر عندما مات هذا الأمل في داخله. عندئذ خيم الصمت على الباشا وابنه. وفي نفس اللحظة بسط شامبليون أمامهما خريطة كبيرة ودقيقة للدلتا ومجرى النيل. كان أحمد الرشيدي، الريس الثاني لمركب "إيزيس" قد رسمها بنفسه وأهداها إلى شامبليون في السابع عشر من سبتمبر ١٨٢٨. ثم أحدق النظر في محمد علي، وصرح له في رباطة جأش بأن هذا العمل العظيم الذي قام بتنفيذه ابن فلاح نشأ في الفقر والبؤس والجهل يشير إلى كل ما يمكن أن ينجزه هذا الشعب إذا لقي من يهتم به ويعينه على النهوض.

عندئذ ابتسم محمد علي، وأراد أن يُغيّر مجرى الحديث فسأل في غبطة: "ترى هل كان رمسيس حقاً أعظم الفراعنة ؟". عندئذ سارع ابراهيم في تهدئة روع شامبليون الذي كان على وشك أن ينفجر غاضباً.

كان محمد علي يهوي الحديث والاستماع إلى أخبار "بونابرت" في مصر. وقد أكد له شامبليون أنه وفقاً لشهادة "فورييه"، كان "بونابرت" يستقبل في باكورة كل صباح علماء الأزهر الذين وعدهم بالدخول في الإسلام، وبناء مسجد لقواته. وقد رُسمت الخرائط بالفعل، بيد أن رحيل هذا القائد العظيم بصورة مفاجأة قد وضع حداً لتلك المهزلة. وبالمقابل فقد أخبر الباشا شامبليون بقصة ذلك المطران من مدينة "منف" الذي أرسله مجمع التبشير ليغريه هو ـ محمد علي ـ باعتناق الديانة المسيحية. فلما علم بوصول السفينة التي تُقل هذا الأسقف القبطي في كامل زيه الكهنوتي، بعث إليه قائلاً: "إن جلادي في انتظارك !" عندئذ ارتعد هذا القس خوفاً، وولى هارباً صوب مدينة "نابولي" الإيطالية. ثم بلغ "روما" حيث اعتصم في قصر "سانت أغ"، ولم يبارحه بعدها أبداً. عندما فرغ الوالي من رواية تلك الواقعة، أخذت الابتسامة العذبة التي كانت لا تفارق شفتيه تخبو شيئاً فشيء. وراح يقبض بشدة ـ على ما يبدو ـ على رأس الأسد المهيب المستأنث الذي كان قابعاً بجواره. عندئذ نهض ابراهيم باشا لتهدئة الموقف، خوفاً من أن يقوم الأسد بحركة مباغتة نحو الضيفين. فقال: "إشارة واحدة من ملك مصر تكفي لتهدئة ملك الصحراء". عندئذ أخذ محمد علي يضحك بحرارة، والتفت إلى شامبليون ليقول له بنبرة فروسية حازمة: "من بين كل المذاهب الأوروبية، لا أطالب لي ولشعبي إلا بمذهب فك الرموز الهيروغليفية !". ثم التمس من شامبليون أن يكتب له موجزاً عن تاريخ مصر القديمة، فوعده بذلك عن طيب خاطر. وفي اليوم التالي ـعلى مايبدوـ توجه "باريزيت" إلى القاهرة التي اتخذها مقراً عاماً له خلال "أبحاثه الشاقة حول حالة انتشار وباء الطاعون في مصر". وكان الفيضان المريع لعام ١٨٢٩ ينذر بعودة الأوبئة المفجعة التي كانت قد اجتاحت مصر في أعوام ١٧٩١ و١٨٠٠ و١٨٢٤.

ثم رحل "روزليني" في السابع من أكتوبر بصحبة رفاقه التوسكانيين الثلاثة، بعد أن تلق هدية: "سيف فارسي رائع محلى

بالذهب" تبلغ قيمته أربعة آلاف فرنك. وفي باكورة الرابع من نوفمبر، يوم الاحتفال بعيد ملك فرنسا، حضر رسول إلى شامبليون لإيقاظه وإهدائه -باسم ولي العهد- سيفاً مماثلاً، وإخباره بقدوم ابراهيم باشا لزيارته في ساعة مبكرة. وقد أغدق عليه ولي العهد هبة أخرى أغلى وأثمن: القرار الرسمي هذه المرة والمؤكد تماماً بالإبقاء على مستشفى "أبو زعبل" وعدم المساس به! بيد أنه في التاسع والعشرين من أكتوبر وتحت عناد وإلحاح مستثمر أوروبي نكث الأمير وعده، وعاد إلى فكرته السابقة بتحويل المستشفى إلى مصنع. وقد استغاث "ميآمون" بصديقه "إيموت" الذي لم يتمكن من المجيء، واكتفى بارسال مذكرة احتجاج شديدة اللهجة إلى الأمير. وأخبره فيها باعتزامه التصدي شخصياً لجميع المستثمرين في العالم الذين لن يفلحوا في دخول المستشفى إلا مروراً فوق جثته. وقد نجح ابراهيم باشا الذي كان يفوق والده ذكاء في إنقاذ المستشفى.

وفي التاسع والعشرين من نوفمبر سلم شامبليون إلى محمد علي "مذكرة موجزة عن تاريخ مصر"، نسوقها في الصفحات التالية. وقد ذكر فيها أن [القبائل التي قطنت وادي النيل فيما بين شلال أسوان والبحر الأبيض المتوسط كانت تأتي من الحبشة و"سنار"]. وتفسر لنا تلك السطور رغبة شامبليون العارمة في إرسال بعثة علمية لاستكشاف تلك البلاد التي كان يعتقد أنها مسقط رأس المصريين القدماء. ولما كان يعلم أن هذة المذكرة لن يتم نشرها، فقد أرجع شامبليون بناء الأهرامات إلى الأسرات الفرعونية الأولى. ولم يُقدم على التصريح بذلك من قبل نظراً لحرص الأثريين الدينيين في أوروبا على استبعاد الخمس عشرة أسرة الأوائل بسبب تعارضها مع نظام التسلسل الديني المتبع حتى الآن في الديانة المسيحية. كما أرجع اثنين من ملوك الأسرة الثانية عشرة (أمنمحات) إلى الفترة السابقة لقيام الهكسوس بغزو مصر، وإن كان في ذلك توريطاً شديداً له في نظر السلطات الدينية في ذلك الوقت. بيد أنه بعد ذلك بعدة أشهر حررت ثورة ١٨٣٠ المؤرخين من ضرورة التقيد بمثل هذة الاعتبارات.

وبالإضافة إلى المذكرة آنفة الذكر، سلم شامبليون في نفس اليوم للوالي "مذكرة حول صيانة الآثار المصرية"، سنوردها في الصفحات التالية. ونستشف من خلال التوجيهات الصريحة التي

أعرب عنها شامبليون للوالي بعضاً من اللوم والعتاب لما يتحمله من مسؤولية في هذا الصدد.

وقبل توديع محمد علي وابنه، نجح "المصري" في حسم قضية نقل مسلتي الأقصر اللتين أهدياهما إلى فرنسا. وقد كُلف السيد "بيسون"، مدير ترسانة "تولون" البحرية، ببناء مركب عملاق لنقل المسلتين واحدة تلو الأخرى من الأقصر إلى متحف "اللوفر"! علماً بأن شامبليون هو الذي قام بتصميم كل مواصفات هذا المركب الذي لم يشهد العصر الحديث مثيلاً له. وقد وافق الوالي وابنه على ترتيبات "المصري" معجبين بشمولية معارفه.

أما فيما يتعلق ببعثة الاستكشاف إلى "سنار"، فقد تم الاتفاق عليها كذلك. وقد استدعى ابراهيم باشا "لينان" بك لإعجابه البالغ بإنجازاته الهيدروليكية العظيمة، لوضع دراسة تفصيلية معه وفي حضور الوالي لمزايا هذا المشروع والعقبات التي يتعين تذليلها. وعند رحيل "المصري" إلى فرنسا كان كل شيء مُعَداً، وآفاق رحبة تلوح أمام عينيه. ويشق علينا أن نضيف أن اهتمام الوالي وابنه بهذا المشروع قد ذهب أدراج الرياح تحت وطأة الأحداث المختلفة.

كان الأمل في حمل الوالي وابنه على الاهتمام بنصائحه وبإرشادات "باريزيت" يُعزي شامبليون بعض الشيء عن إضاعة خمسة وسبعين يوماً في الإسكندرية انتظاراً للإبحار. وكان تواجده على مقربة من "منف" التي لاتزال تُكن له المزيد من الاكتشافات، والتي لمحها من بعيد تحت ضوء القمر ليلة الخامس عشر من سبتمبر ١٨٢٩، كان ذلك يؤجج من لوعة الانتظار. كما صرف النظر كذلك عن القيام بزيارة أخرى لـ"صان الحجر" التي عكف على دراستها منذ عام ١٨١٠. بيد أن "ميمو" وعده بزيارتها وإجراء بعض الحفائر بها عند حلول فصل الربيع. وكان القنصل العام لفرنسا ينوي حين وصوله إلى مصر في الثالث والعشرين من يونيو ١٨٢٩ الاكتفاء بمهام منصبه، وعدم تقليد زملائه الذين كانوا ينشغلون أيضاً بالتنقيب عن الآثار. بيد أن شامبليون نفسه قد دعاه يوماً "لممارسة تلك المهنة" بالقرب من "عمود السواري". وقد أسفر ذلك عن اكتشافات عديدة من بينها تمثال بدون رأس للإله "باخوس" أو "هرقل". مما أدخل السرور في نفس شامبليون وصديقه وكذلك ابراهيم باشا الذي كان بصحبتهما. ومنذ تلك اللحظة، حذا "ميمو"

حذو الآخرين، وأصبح منقباً شديد الحماسة. وكان ذلك سبباً إضافياً لأسفه الشديد على رحيل شامبليون عن مصر في السادس من ديسمبر.

* * *

نبذة عن مذكرة دونها "نستور لوت" عن الحالة الاجتماعية للفلاح المصري

كان الفلاحون الفقراء شبه العرايا يفرون لمرآنا مثل قطيع من الغزلان لاعتقادهم في بادىء الأمر أننا من جباه الضرائب. ولكن سرعان ما كانوا يأنسون إلينا عندما يدركون أننا قوم مسالمون، وخاصة فرنسيون. فذكريات حملة "بونابرت" على مصر لم تُمح تماماً من ذاكرة هؤلاء العرب المعدمين، والذين كانوا يمتلكون في ذلك الوقت -على حد قولهم- حميراً وأبقاراً ولا يدفعون الضرائب مرتين. أما اليوم فلا يجدون كسرة خبز يقتاتونها، بل تقوم السلطات بنهبهم واختطاف أولادهم الذين هم قرة أعينهم لتحويلهم إلى جنود لدرجة أنه من المتعذر أن نجد اثنين أو ثلاثة صبيان فيما بين خمسة عشر وعشرين عاماً في قرية يبلغ تعدادها ثلاثمائة نسمة. وقد شاهدنا بأنفسنا عمليات الاختطاف هذه والمطاردة التي ينفطر لهولها أقسى القلوب.

فعندما تدق ساعة استدعاء وحدات الجيش بدون تجنيد نظامي أو إنذار مسبق أو أي أسلوب آخر سوى القرع بالعصا، يطلق الطاغية زبانيته، ويترك العنان لجواسيسه للانتشار في القرى، وتعقب كل من يستطيع حمل السلاح، ومطاردة فرائسهم في أكثر الأماكن عتمة، ثم يدفعون أمامهم تحت وقع السياط هؤلاء الضحايا التعساء المقيدين غالباً مثل المجرمين، ومن خلفهم الشيوخ والنساء والأطفال في موكب جنائزي حزين. بعد ذلك يُساقون إلى قصر البك أو الحاكم الذي غالباً ما يقع بعيداً عن القرية، وبعد أن يقوم هذا الأخير بفرزهم واختيار العدد الذي يراه مناسباً، يطرد الباقين ليعودوا إلى بيوتهم شاكرين الحاكم الذي اكتفى بأن أوسعهم ضرباً قبل أن يرد إليهم بعضاً من الحرية، ويتركهم يتضورون جوعاً...

وإذا أخذنا بعين الإعتبار كل مساويء وفساد الحكومة التركية لما اندهشنا للفقر المدقع المستشري في كافة هذه القرى. إن مصر التي تحمل بذور الرخاء والازدهار يُمكن أن تصبح أكثر خصباً وثراء وانتاجاً حتى لخزانة الدولة إذا كانت الضرائب الباهظة والتعسفية المفروضة لا تفوق قدرة الشعب على سدادها، وإذا أحجم عديمو الشفقة من المستغلين ومصاصي الدماء عن إغراق هذا البلد في مستنقع البؤس والشقاء الذي يستحيل تخيله في أوروبا.

نعم إن مصر تستحق مصيراً أفضل ومستقبلاً أكثر إشراقاً. وسيكون من صالحها أن تأتي قوة أخرى للقضاء على هيمنة الأتراك، ووضع حد لهذا الشقاء.

* * *

مذكرة مختصرة عن تاريخ مصر القديم كُتبت في الإسكندرية خصيصاً للوالي وسلمت لسموه في التاسع والعشرين من شهر نوفمبر ١٨٢٩

إن القبائل الأولى التي قطنت مصر، أي وادي النيل فيما بين شلال أسوان والبحر الأبيض المتوسط، قدمت من الحبشة أو "سنار". بيد أنه يستعصي علينا تحديد تاريخ تلك الهجرة الأولى الغارق في القِدَم.

وينتسب المصريون القدماء تماماً إلى نفس العرق الذي ينحدر منه النوبيون، أي سكان النوبة الحاليين. بينما لا نجد في أقباط مصر أياً من الملامح المميزة لسكان مصر الأصليين. فما الأقباط إلا نتاج مزيج مشوش لكافة الشعوب التي فرضت هيمنتها على مصر على مر العصور. لذلك فمن الخطأ محاولة التعرف فيهم على الملامح الأساسية للعرق المصري القديم.

كان المصريون الأوائل من البدو الرحل الذين يجهلون الاستقرار في مكان ثابت مثل البدو المعاصرين، وبالتالي لم يكن لديهم أي إلمام بالعلوم أو الفنون، أو أي شكل من أشكال الاستقرار الحضاري.

وبعد مرور عدة قرون، بدأوا أخيراً يشتغلون بزراعة الأرض بعد أن كانوا رُحَّلاً، ثم عرفوا الاستقرار بصورة ثابتة ومستمرة. وتواكب ذلك مع بداية ظهور المدن التي لم تكن حينئذ في الأصل إلا قرى صغيرة، أصبحت مع التطور الحضاري المتواصل فيما بعد مدناً قوية ومترامية الأطراف. أما عن أعرق المدن المصرية فلنا أن نذكر "طيبه" (الأقصر والكرنك) و"إسنا" و"إدفو" وباقي مدن الصعيد أعلى "دندره". ثم جاء الدور على مصر الوسطى، بينما لم تصبح مصر السفلى آهلة بالسكان والمدن إلا فيما بعد. وقد تتطلب ذلك

وفي مهد الحضارة المصرية القديمة كانت شؤون الحكم تتمركز في أيدي رجال الدين الذين راحوا يُديرون كل الأقاليم المصرية، تحت رئاسة الكاهن الأعظم الذي كان يصدر أوامره -كما يدعي- باسم الإله نفسه. ويُعرف هذا النوع من الحكومة الإلهية التي يشرف عليها رجال الدين بالحكومة التيوقراطية. وهي تشبه، ولكن بصورة أقل مثالية، نظام الحكم الذي عرفه العرب في عهد الخلفاء المسلمين الأوائل.

وعلى امتداد فترة طويلة من الزمان وقفت هذة الحكومة التيوقراطية، التي كثيراً ما كانت تميل إلى الظلم والطغيان، عائقاً أمام التقدم الحضاري، كما نتج عن ذلك تقسيم الدولة إلى ثلاث طبقات متميزة : ١) رجال الدين، ٢) رجال الجيش، ٣) عامة الشعب. وكان العمل حكراً على الشعب، بينما كان الكهنة يلتهمون ثمرة هذا العمل، ويستأجرون رجال الجيش للدفاع عن مصالحهم، ويستخدمونهم للسيطرة على بقية الشعب.

ثم جاء الوقت الذي شعر فيه العسكريون بالسأم من طاعة الكهنة طاعة عمياء. عندئذ قام قائد عسكري يُدعى "نعرمر" بثورة أدت إلى تعديل الأوضاع في مصر، وتشكيل حكومة ملكية، وانتقال السلطة من بعده إلى ذريته المباشرة.

ويرجع تاريخ هذة الثورة إلى نحو ستة آلاف عام قبل حلول الإسلام.

ومنذ ذلك الحين تقلد الملوك مقاليد الحكم في مصر، وأصبحت الحكومة أقل بطشاً وأكثر حكمة واستنارة. ويرجع السر في ذلك إلى أن السلطة الملكية لم تكن مطلقة تماماً، وإنما كانت تواجه نوعاً من الموازنة المتمثلة في النفوذ الذي احتفظت به حتماً طبقة الكهنة التي قُلِصت إلى دورها الحقيقي: أي تهذيب وتلقين القوانين ومباديء الأخلاق وأسس الفنون. وقد ظلت "طيبه" عاصمة للدولة. بيد أن الملك "نعرمر" وابنه وخليفته "آتوتي Athothi" قاما بتأسيس "منف"، وتحويلها إلى مدينة محصنة وعاصمة ثانية للحكم. كانت "منف" تقع على مقربة من النيل، لذلك فقد عثرنا على أطلالها في قرى "منف" و"مخنان" و"ميت رهينه" على وجه الخصوص. وقد أطلق المؤرخون القدماء على "منف" اسم "مصر القديمة" للتمييز بينها

وبين "مصر العتيقة" (الفسطاط أو القاهرة العتيقة) وبين "مصر القاهرة" (القاهرة) العاصمة الحالية.

ثم تعاقب على حكم مصر من بعد "نعرمر" سلسلة طويلة من الملوك، وتبوأ العرش العديد من الأسرات. وأحرزت الحضارة قدماً إلى الأمام على مر القرون. وفي عهد الأسرة الثالثة تم تشييد أهرامات "دهشور" و"سقارة" والتي تُعتبر من أقدم الآثار المعروفة في العالم. أما أهرامات الجيزة فقد قام بتشييدها "سوفي الأول Souphi I" و"سنساوفي Sensaouphi" و"منقرع"، الملوك الثلاثة الأوائل في الأسرة الخامسة لتكون قبوراً لهم. ومن حولها نجد أهرامات صغيرة ومقابر مشيدة من الأحجار الكبيرة لأمراء هذة الأسرة. ثم أخذت العلوم والفنون تنمو وتزدهر تدريجياً في ظل تلك الأسرات أو العائلات الحاكمة التي تعاقبت الواحدة تلو الأخرى. وكانت مصر آنذاك ثرية وقوية. بل لقد قامت بعدة غزوات حربية كبيرة خاصة في عهد الملوك "سيزوخريس Sésokhris" و"أمينيميه Aménémé" و"أمنحتب". بيد أن التاريخ لم يحتفظ لنا بآثار هؤلاء الملوك، أو بأية تفاصيل عن أعمالهم العظيمة. ويرجع السبب في ذلك إلى الاضطرابات الهائلة التي اجتاحت القارة الآسيوية في أعقاب حكم هؤلاء الملوك. إذ قامت شعوب همجية بغزو مصر، وفرض سطوتها عليها، وتخريب كل ما يعترض طريقها. وقد عاثوا في البلاد فساداً، وقلبوا "طيبه" رأساً على عقب.

ويعود هذا الحدث إلى ألفين وثمانمائة عام قبل حلول الإسلام. وقد استقر عدد من هؤلاء الهمجيين في مصر، واضطهدوا أهلها على مدى قرون طويلة. كما تسببوا في إيقاف وتقويض الحضارة المصرية الأولى، وتخريب الدولة من جراء عمليات السلب والنهب والابتزاز، وفرض البؤس والشقاء والقضاء على جزء من الشعب. ثم قاموا بعد ذلك بانتخاب واحد من بينهم زعيماً اتخذ كذلك لقب "فرعون" الذي كان يحمله حينئذ كل ملوك مصر.

وفي عهد رابع هؤلاء الزعماء الأجانب، أصبح "يوسف" ابن "يعقوب" رئيساً للوزراء، وجلب إلى مصر عائلة والده، مكوناً بذلك أصل الأمة اليهودية.

ومع مرور الوقت أخذت أجزاء مختلفة من مصر العليا تتحرر من نير الاستعمار الأجنبي. وتزعم حركة المقاومة الأمراء

المنحدرون من سلالة الملوك المصريين الذين قام الهمجيون بخلعهم عن العرش. وأخيراً نجح "أحمس"، أحد هؤلاء الأمراء، في تكوين قوة لمهاجمة المستعمرين حتى مصر السفلى التي اتخذوها مقراً حصيناً لهم، وأنشأوا فيها حاميات من بينها معسكر "هوارة Aouara" الضخم الذي كان يشغل الموقع الحالي لـ"أبو خشيد" ناحية "الصالحية".

وقد أثمرت مآثر "أحمس" الحربية في تخليص مصر من استبداد الهمجيين، إذ قام بطردهم من "منف" التي اتخذوها عاصمة لهم، وأجبرهم على التقوقع داخل معسكر "هوارة" الحربي ومحاصرتهم فيه. وفي أثناء ذلك توفى "أحمس" فواصل من بعده ابنه "أمنحتب" حصار الأعداء، وأجبرهم على الاستسلام والجلاء عن مصر، والتوجه إلى سوريا حيث استقرت بعض قبائل منهم.

وهكذا نجح "أمنحتب الأول" في توحيد مصر كلها تحت رايته، وتبوأ عرش الفراعنة أي الملوك المصريين. كما قام بتأسيس الأسرة الثامنة عشرة. وقد كرس كل فترة حكمه وكذلك خلفاؤه الثلاثة المباشرون "تحتمس الأول" و"تحتمس الثاني" و"تحتمس الثالث" في إعادة تشكيل حكومة مصرية نظامية، وفي النهوض بالأمة بعد أن سحقتها سنوات طويلة من التبعية والاستعمار الأجنبي.

قام الهمجيون بتدمير كل شيء، وبالتالي كان من الضروري إعادة تعمير كل شيء بعد رحيلهم. ولم يدخر الملوك العظام وسعاً في الارتقاء بمصر مما آل إليه حالها من انحطاط : فأعادوا النظام إلى نصابه في شتى أرجاء المملكة، وأعادوا الرخاء والرفاهية بين رعاياهم، مما زاد من ثروات الحكومة. وسرعان ما أعادوا تعمير المدن وتشييد الأبنية الدينية في جميع الأنحاء، حتى أن العديد من الآثار المشيدة على ضفاف النيل والتي لا تزال تسحر الألباب تعود إلى ذلك العصر من ترميم وإعادة تعمير مصر بفضل حكمة ملوكها. ونذكر في هذا الصدد آثار "سمنه Semné" و"عمدا" في النوبة، والعديد من آثار "الكرنك" و"مدينة هابو"، وهي تُعد من الأعمال الجميلة التي قام بها كل من "تحتمس الأول" و"تحتمس الثالث".

وقد فاق "تحتمس الثالث" الذي أمر بنحت مسلتي الإسكندرية كل الفراعنة في تشييد الآثار العظيمة. كما تدين له مصر بشق بحيرة "قارون" في مدينة الفيوم. وبفضل القنوات والأعمال العملاقة التي أمر بتنفيذها تحولت هذة البحيرة إلى خزان يهدف إلى المحافظة على توازن دائم ومستمر في كل مصر السفلى بين أيام التحاريق ومواسم الفيضانات الزائدة عن اللازم. وكانت هذة البحيرة تُسمى بحيرة "موريس Moeris" أما اليوم فيُطلق عليها اسم "بركة قارون".

ومن الواضح أن هؤلاء الملوك وعدد من خلفائهم قد احتفظوا بكامل السلطة الملكية التي انتزعوها من زعماء الهمجيين. بيد أنهم لم يستغلوها إلا لما فيه خير وصلاح البلاد، وراحوا يوظفونها في إصلاح وإعادة تشكيل المجتمع بعد أن أفسدته سنوات العبودية والاستعمار، وفي وضع مصر من جديد في مكان الصدارة السياسية التي تستحقها وسط بقية الأمم.

علماً بأن بعض الشعوب الأسيوية كانت قد بلغت في تلك الحقبة التاريخية شأواً من الحضارة والنفوذ؛ حتى باتت تشكل تهديداً لأمن مصر. مما دفع "تحتمس الثالث" وخلفاءه إلى حمل السلاح، والإغارة كثيراً على قارتي آسيا وأفريقية : إما لدعم نفوذ وسيطرة مصر، وإما لتخريب وإضعاف تلك البلاد، وتأمين أمن وسلامة الدولة المصرية.

ومن بين هؤلاء الفاتحين الغزاة يتعين علينا ذكر "أمنحتب الثاني" ابن "تحتمس الثالث" الذي قام باخضاع سوريا وامبراطورية "بابل" القديمة وفرض الجزية عليهما. وكذلك "تحتمس الرابع" الذي قام بغزو الحبشة و"سنار". وأخيراً "أمنحتب الثالث" الذي أتم غزو الحبشة، وقام بارسال حملات عسكرية كبيرة على آسيا. ولا يزال هناك آثار تخلد ذكرى هذا الملك الذي أمر بتشييد قصر "صولب" في النوبة العليا وقصر الأقصر الرائع، وكل الجزء الجنوبي لقصر الكرنك الكبير في "طيبه"، بالإضافة إلى التمثالين العملاقين في "القرنة" اللذين يمثلان هذا الملك الشهير.

أما ابنه "حورس" فقد قام بقمع بعض حركات التمرد في الحبشة، ومواصلة أعمال والده. بيد أن اثنين من أبنائه اللذين خلفاه على عرش مصر كان ينقصهما حزم وشجاعة أجدادهما : إذ أضاعوا في

سنوات قليلة نفوذ مصر وسطوتها على الأقطار المجاورة. إلا أن الملك "مينفتاح الأول Ménéphtha I" أحيا مجد مصر وعزتها، وقام بشن حملات ناجحة على سوريا و"بابل" وحتى شمال بلاد فارس.

إلا أنه عقب وفاته عادت الشعوب الخاضعة لمصر إلى التمرد من جديد. عندئذ خاض بنه وخليفته "رمسيس الأكبر" غمار الحرب، وجدد كل الغزوات التي شنها والده، وتوسع فيها حتى بلاد الهند. كما استنفذ البلاد المهزومة وأنهكها، وأثرى مصر بالغنائم التي سلبها من آسيا وأفريقية.

وكان هذا البطل الفاتح المعروف أيضاً باسم "سيزوستريس" من أشجع المحاربين وأفضل الأمراء في نفس الوقت. وقد كرس كل الثروات التي سلبها من الأمم المهزومة، وكذا الجزية التي فرضها عليهم في تنفيذ أعمال عملاقة لخدمة الصالح العام. إذ قام بتأسيس مدن جديدة، ورفع مستوى الأراضي في بعض المدن، وأحاط العديد من المدن الأخرى بكميات هائلة من الرديم والصخور لجعلها في مأمن من مياه الفيضان، كما شق الكثير من القنوات. وترجع إليه فكرة ربط النيل بالبحر الأحمر عبر قناة. وأخيراً فقد غمر مصر بالأبنية الرائعة، لا يزال عدد كبير منها قائماً حتى يومنا هذا : ولنا أن نذكر آثار "أبو سمبل" و"الدر" و"جرف حسين" و"وادي السبوع" في النوبة، و"القرنة" و"دير المدينة" بالقرب من "القرنة"، وجزء من معبد الأقصر، وأخيراً بهو الأساطين في معبد الكرنك الذي بدأه والده. علماً بأن هذا الأثر الأخير يُعد من أعظم ما شيدته يد الإنسان على الإطلاق.

لم يكتف هذا الفرعون بتزيين مصر بأبنية فخمة وعظيمة، بل كان يرغب في ضمان سعادة أهلها عن طريق سن القوانين الجديدة. وكان من أهمها ذلك الذي أعاد إلى كافة فئات الشعب حق الملكية الكاملة. وبذلك فقد تنازل الملك عن السلطة المطلقة التي تمسك بها أجداده عقب تحرير مصر من قبضة الهمجيين. وقد أدى هذا الصنيع العظيم إلى تخليد اسمه الذي ظل مقدساً على مر الدهر. وقد بلغت مصر في عهد "رمسيس الأكبر" أو "سيزوستريس" قمة نفوذها السياسي في الخارج، وذروة الثراء والأبهة في الداخل.

وقد فرض الفرعون الجزية وامتد نفوذه في ذلك الحين ليشمل: (١) مصر، (٢) النوبة بأسرها، (٣) الحبشة، (٤) "سنار"، (٥) مجموعة من الأقطار الواقعة في جنوب إفريقية، (٦) كل القبائل الهائمة في الصحراء الشرقية والغربية للنيل، (٧) سوريا، (٨) بلاد العرب حيث قام الملوك المصريون القدماء بإقامة منشآت في الأماكن المعروفة حالياً بجبل "المقاتب" و"وادي المغارة" و"سرابيط الخادم" حيث توجد على ما يبدو مسابك للنحاس، (٩) مملكتي "بابل" و"مينيف" (الموصل)، (١٠) جزء كبير من "الأناضول" وآسيا الصغرى، (١١) جزيرة "قبرص" والعديد من جزر الأرخبيل، (١٢) العديد من الممالك التي تكّون ما يُعرف اليوم ببلاد فارس.

وفي ذلك الحين كانت هناك اتصالات مستمرة ومنتظمة بين مملكتي مصر والهند. كما كانت العلاقات التجارية النشيطة تربط بين هاتين القوتين. لذا فإن ما نكتشفه يومياً داخل مقابر "طيبه" من الأقمشة والمنسوجات الهندية، والأثاث الخشبي المصنوع في الهند، وكذا الأحجار الصلدة المنحوتة والتي تأتي بكل تأكيد من الهند لا تدع مجالاً للشك في المبادلات التجارية التي كانت قائمة بين كل من مصر القديمة والهند في عصر كانت فيه جميع الشعوب الأوروبية وجزء كبير من الأقطار الأسيوية لا تزال ترزح في ظلمات الهمجية والتخلف الحضاري. ومن ناحية أخرى فإنه يستعصي علينا تبرير العدد الهائل من الآثار المصرية القديمة والعظيمة دون أن نجد في الازدهار التجاري الذي عرفته مصر في ذلك الوقت مصدراً رئيسياً للثروات الطائلة التي أنفقت في سبيل تشييدها. ومن الثابت أن مدينتي "منف" و"طيبه" شكلتا مركزاً تجارياً، وسبقتا باقي المدن المجاورة لمصر، أي "بابل" و"صور" و"سيدون" و"الإسكندرية" و"تدمور" و"بغداد"، والتي ورثت عنهما على التوالي هذا الامتياز الهام والعظيم.

أما فيما يتعلق بالوضع الداخلي في مصر خلال تلك الحقبة التاريخية، فكل الدلائل تشير إلى أن الحضارة والفنون والعلوم قد بلغت شأواً كبيراً من التقدم والرقي.وكانت مصر مقسمة إلى ستة وثلاثين إقليماً أو حكومة يُديرها موظفون من مختلف الرتب، وفقاً لمجموعة كاملة من القوانين المدونة.

وكان مجموع عدد السكان يتراوح بين خمسة ملايين نسمة على أقل تقدير وبين سبعة ملايين نسمة على الأكثر. وقد كُرس عدد من السكان بصورة خاصة لدراسة العلوم وتقدم الفنون، بالإضافة إلى إقامة الطقوس والشعائر الدينية، وتطبيق العدل، وسن وجباية الضرائب التي فُرضت بصورة متفاوتة تبعاً لنوعية كل ملكية خاصة وأبعادها المحسوبة مسبقاً، وبكافة فروع الإدارة المدنية. وكان القائمون على ذلك ينتسبون إلى صفوة المثقفين ونخبة العلماء في الأمة. وكان يُطلق عليهم "الطبقة الكهنوتية". وكانت الوظائف الرئيسية لتلك الطبقة يشغلها أو يشرف عليها أفراد من العائلة الملكية.

كما كانت هناك طبقة أخرى من الشعب مكلفة بالسهر على الأمن الداخلي والدفاع الخارجي عن البلاد. وكانت عمليات التجنيد تتم من داخل تلك العائلات الكثيرة التي كانت تعيش على نفقة الدولة، وتُكون طبقة العسكريين، وكانت تمد الجيش المصري بصورة منتظمة بنحو مائة وثمانين ألف جندي. وكانت أولى وحدات هذا الجيش وأصغرها مُدَربة على قيادة العجلات الحربية التي يجرها حصانان. وكانت تُسمى سلاح الخيالة في ذلك العصر (بيد أن سلاح الفرسان بمعنى الكلمة لم يكن معروفاً في مصر حينئذ). أما باقي الجيش فكان يتكون من جنود المشاة الذي يحملون مختلف الأسلحة: جنود الجبهة المسلحون بالدروع والتروس والرماح والسيوف، والقوات الخفيفة، والرامون بالسهام والنبال والمقاليع، والمسلحون بالفؤوس والبلط والمناجل. وكانت القوات مدربة على القيام بمناورات منتظمة، والتقدم والتحرك في صفوف مقسمة إلى فيالق وسرايا. وكانت حركاتها تتم على إيقاع الطبول والأبواق.

وعادة ما كان الملك يعهد بقيادة فيالق الجيش إلى أمراء من عائلته.

كانت الفئة الثالثة من فئات الشعب تتكون من طبقة المزارعين، وكان أفرادها يكرسون كل اهتمامهم لزراعة الأرض بصفتهم مالكين لها أو مجرد مستأجرين. كانت المحاصيل الزراعية ملكاً لهم بعد اقتطاع حصة مخصصة لإعاشة الملك وطبقتي الكهنة والعسكريين، وكان ذلك يمثل أحد الموارد الأساسية والمؤكدة للدولة. ووفقاً للمؤرخين القدماء، يمكننا تقدير الدخل السنوي

للفراعنة، بما في ذلك الجزية المفروضة على البلاد الأجنبية، بما يتراوح بين ستمائة وسبعمائة ألف فرنك فرنسي على أقل تقدير.

أما الفئة الرابعة من فئات الشعب فكانت تتألف من الحرفيين والتجار والعمال بشتي تخصصاتهم، كما كانت تلك الطبقة العمالية تخضع لضريبة نسبية، وتسهم بأعمالها في زيادة ثروات الدولة وتحمل أعبائها في نفس الوقت.

وقد بلغت مصر ذروة الرخاء والازدهار بفضل منتجات تلك الطبقة. وفي الواقع فقد مارس المصريون القدماء الصناعات بمختلف أنواعها، مما عاد بالنمو والتطور الكبير على علاقاتها التجارية مع باقي دول العالم التي كانت معروفة على الخريطة السياسية في تلك الحقبة.

وكانت مصر تتاجر بصورة منتظمة وعلى نطاق واسع بفائض منتجاتها من الحبوب والغلال، كما كانت تحقق أرباحاً كبيرة من وراء بيع الخيول والحيوانات. كذلك كانت تقوم بتصدير الأقمشة القطنية والمنسوجات من الكتان التي كانت تضارع من حيث الروعة والرقة كل منتجات الهند وأوروبا حالياً. ولما كانت مصر تخلو تماماً من المناجم، فقد كانت تقوم بجلب المعادن من البلاد الخاضعة لها، أو عن طريق المبادلات التجارية المربحة مع البلاد المستقلة. وكانت تلك المعادن تخرج من ورشها بعد أن تأخذ مختلف الأشكال لتصبح أسلحة أو معدات أو مواعين أو حلية تتهافت على اقتنائها كل الشعوب المجاورة. وكانت مصر تُصدر سنوياً كمية هائلة من الفخار بشتى أنواعه، وكذلك منتجات لا تحصى من المصنوعات الزجاجية والخزفية، وهي فنون احترفها المصريون وأتقنوها أيما إتقان. وأخيراً كانت مصر تُزَوِّد الدول المجاورة بأوراق البردي المصنوعة من الأغشية الرقيقة الداخلية لنبات اندثر من مصر منذ عدة قرون، كان ينمو في المستنقعات بوجه خاص، كما كانت زراعته تُمثل مصدراً للربح والثراء لسكان ضفاف بحيرتي "البرلس" و"المنزلة".

لم يعرف المصريون القدماء نظاماً نقدياً مشابهاً لنظامنا، بل كانوا يملكون عملة اصطلاحية يستخدمونها في التجارة الداخلية. أما في المعاملات التجارية الضخمة فكانوا يستخدمون حلقات من الذهب الخالص أو من الفضة محددة الوزن والقطر.

أما فيما يتعلق بالبحرية في ذلك العهد القديم، فلا يزال ينقصنا العديد من المعلومات الجوهرية بشأنها. وكانت مصر تمتلك أسطولاً حربياً يتكون من سفن شراعية كبيرة تعمل كذلك بالمجاديف. ومن المعتقد أن الأسطول التجاري قد لاقى قدراً من الازدهار والنمو، على الرغم من أننا شبه متأكدين من أن التجارة والملاحة على مسافات واسعة كانت تتم على أيدي بعض الوسطاء الخاضعين لمصر، والمنحدرين أساساً من مدن "صور" و"صيدا" و"بيروت" و"عكا Acr".

كانت الرفاهية والرخاء الداخلي في مصر يرتكزان على التقدم الكبير في مجالي الزراعة والصناعة. وتزخر مقابر "طيبه" و"منف" بقطع أثرية على جانب عظيم من الإتقان تبرهن على أن هذا الشعب قد عاش عيشة رغدة مستمتعاً بكافة مظاهر الترف والبذخ. فما من أمة قديمة كانت أو حديثة ضارعت المصريين القدماء في عظمة منشآتهم وفخامتها، وفي قمة ذوقهم في ابتكار الأثاث والمواعين والملابس والزخرفة.

هكذا كانت مصر في ذروة مجدها وأبهتها. ويرجع هذا الازدهار إلى عهد آخر ملوك الأسرة الثامنة عشرة التي ينتسب إليها "رمسيس الأكبر" أو "سيزوستريس". وقد استمر هذا الرخاء لفترة من الوقت بفضل المؤسسات الحكيمة والعديدة التي أنشأها هذا الملك الذي كان قاسياً على أعدائه، حنوناً ومعتدلاً مع رعاياه.

وقد استمتع خلفاؤه بثمرة أعماله في سلام، وحافظوا على أغلب فتوحاته. بل إن خليفته الرابع المسمى "رمسيس ميآمون" -وكان محارباً طموحاً- توسع فيها لدرجة أن عهده كله كان سلسلة متصلة من الحملات الناجحة على أعتى الدول الأسيوية. كما قام هذا الملك بتشييد قصر "مدينة هابو" الجميل (في طيبه)، وزخرف جدرانه بنقوش تصور كل الغزوات التي شنها على آسيا، والمعارك البرية والبحرية التي خاضها، وحصار العديد من المدن واحتلالها، وأخيراً احتفالات عودته ظافراً من الحملات العسكرية البعيدة. ويبدو أن هذا البطل الفاتح قد رفع من كفاءة سلاح البحرية في عهده.

وقد نعمت مصر بنصيب كبير من الراحة والسلام في عهد الفراعنة الذين خلفوه على العرش. وخلال تلك الحقبة من الاستقرار التام خبت الروح القتالية والنزعات التوسعية التي سيطرت على مصر في عهد الأسرات السابقة، مما دفعها بالضرورة إلى تحسين

نظام الحكم الداخلي، والنهوض تدريجياً بالفنون والصناعات. في حين راح نفوذها الخارجي يتقلص شيئاً فشيئاً على مر القرون نظراً للتقدم الحضاري الذي أحرزته العديد من الأقطار بفضل علاقاتها مع مصر. ولم تعد مصر قادرة على إحكام قبضتها على تلك الأقطار دون تعزيز وتطوير قواتها الحربية بصورة مُفرطة.

والواقع أن الخريطة السياسية للعالم من حول مصر قد تغيرت إذ أخذت شعوب بلاد فارس -بعد انصهارها في كيان واحد- تهدد الممالك المتحدة في "نينوي" و"بابل". كما سعت إلى اغتصاب الامتيازات التجارية الهامة التي كانت تسيطر عليها مصر عن طريق تخليص سوريا من قبضة مصر واحتلالها، وكذا الاستعانة بالشعوب والقبائل العربية في الإغارة على حدود الامبراطورية المصرية. وفي خضم ذلك النزاع، راح الفينيقيون، وكانوا الوسطاء التجاريين الطبيعيين للقوتين المتنافستين، يؤيدون هذا الفريق تارة، ثم يعطون ولاءهم للفريق الثاني تارة أخرى وفقاً لمصالحهم الشخصية. وكان الوجود التجاري لإحدى القوتين العظميين مرهوناً بنجاح ذلك الصراع الطويل والمتصل.

وقد تمكنت الحملات العسكرية التي اجتازت غرب آسيا والتي أرسلها كل من الملك "شاشنق الأول" وابنه "وسركون الأول"، من المحافظة على نفوذ مصر لفترة من الزمان. وكان من الممكن أن تنعم مصر لأمد طويل بثمار تلك الانتصارات لولا قيام الأثيوبيون (أو الحبشيون) بالإغارة عليها؛ مما دفعها إلى توجيه اهتمامها إلى حدودها الجنوبية. وقد ذهبت جهودها أدراج الرياح، إذ نجح "ساباكون" ملك الأثيوبيين في احتلال النوبة، واختراق الشلال الأخير على رأس جيش تدعمه كل الشعوب الإفريقية الهمجية. ثم وقعت مصر في براثن الاحتلال بعد مقاومة استشهد فيها الفرعون "بوخوروس".

كان المستعمر الأثيوبي ليناً وإنسانياً. إذ أعاد نصاب العدالة بعد الفوضى والاضطرابات التي صاحبت الغزو. ثم قام خليفة "ساباكون" الإثيوبي بالإغارة على آسيا، وتوجيه حملة طويلة إلى شمال إفريقية. ويذكر لنا التاريخ أنه نجح في اخضاع كل القبائل حتى مضيق جبل طارق. كما قام الملك "طهرقا" بتشييد واحد من القصور الصغيرة في "مدينة هابو"، لايزال قائماً حتى الآن. إلا أنه

عقب وفاته بقليل قامت أسرة مصرية بطرد الأسرة الأثيوبية من مصر، والتربع على عرش الفراعنة. وكان ذلك إيذاناً بقيام الأسرة السادسة والعشرين الصاوية، نسبة إلى مدينة "سايس" (صا الحجر حالياً) في غرب الدلتا التي كانت مسقط رأس مؤسسها وزعيمها "ستيفيناتي **Stéphinathi**".

وبعد أن وطدت تلك الأسرة سلطانها، عملت على تعزيز نفوذ مصر على الدول الأسيوية المجاورة، واستعادة سيادتها التجارية. فقام الملك "بسماتيك الأول" بفتح الموانيء القليلة التي وهبتها الطبيعة لمصر أمام التجار الأجانب. ومن بين تلك الموانيء كان هناك ميناء مدينة الإسكندرية التي لم تكن في ذلك الحين سوى ضيعة صغيرة جداً تُسمى "راكوتي **Rakoti**".

وقد أقام هذا الفرعون علاقات خاصة مع الأيونيين والكاريين. ولم يكتف بالسماح لتجار الشعوب الإغريقية التي كانت مستقرة في آسيا بالإقامة في مصر، بل ارتكب خطأً فادحاً عندما وهبهم أراض، وجَنَّد لخدمته عدداً هائلاً من القوات الأيونية والكارية. أما الجنود المصريون الذين كانوا يحتكرون امتياز الذود عن مصر لانتمائهم إلى طبقة العسكريين، فقد أغضبهم أن يوكل الملك أمر الدفاع عن مصر إلى جنود أجانب همجيين، لا يفقهون شيئاً في الحضارة المصرية المتقدمة. وعلاوة على ذلك فقد كان "بسماتيك" من الطيش وعدم البصيرة بحيث أسند المناصب العليا في الجيش لهؤلاء اليونانيين. عندئذ طفح الكيل، واستشاط غضب الجنود المصريين وسخطهم، فقاموا بتدبير مؤامرة كبيرة شملت جميع أعضاء طبقة العسكريين تقريباً: أكثر من مائة ألف جندي مصري هجروا تلقائياً الثكنات العسكرية والمواقع التي أوكلها إليهم الملك، واجتازوا الشلالات متجهين صوب أثيوبيا حيث أسسوا دولة مستقلة.

وسرعان ما تفككت عرى الدولة بعد أن حُرمت فجأة من كل حُماتها الطبيعيين تقريباً، حتى بات فقدان استقلالها السياسي أمراً محتوماً.

عندئذ فطن ملوك "بابل" إلى الجرح العُضال الذي كانت مصر تعاني منه، فأخذوا يضاعفون من هجماتهم. وأصبحت سوريا مسرحاً مستمراً للصراع الدامي الذي خاضه هذان الشعبان. حتى

قام "نيكاو الثاني" ابن "بسماتيك الأول" بمطاردة البابليين والآشوريين حتى حدودهم الطبيعية، ثم راح يبحث عن طرق تجارية جديدة، مُركزاً كل اهتمامه على البحرية. وبالفعل فقد أرسل أسطولاً عبر البحر الأحمر لاستكشاف كل الحدود الإفريقية، وتجاوز رأس إفريقية الجنوبي باتجاه الشمال، وبلغ مضيق جبل طارق، ثم عاد إلى مصر عن طريق البحر الأبيض المتوسط. كما قام هذا الملك بتنفيذ أعمال كبيرة خاصة بالقناة التي تربط بين النيل والبحر الأحمر. بيد أن نهاية عهده كانت مؤسفة: إذ تمكن "نيبوكادنيذار Nebucadnesar" ملك "بابل" من طرد الجيوش المصرية من فينيقيا وسوريا بأسرها.

وقد حاول "بسماتيك الثاني" ابن "نيكاو" استعادة الولايات التي انفصلت عن الامبراطورية المصرية، ولكن دون جدوى. وكان خليفته "أوافريه Ouaphré" أسعد حظاً: إذ أخضع مرة أخرى شعوب "صور" و"صيدا" وجزيرة "قبرص"، بيد أنه أخفق في غزو مدينة "قورنية" الأفريقية. وقد تسبب فشل تلك الحملة العسكرية في تفاقم سخط ما تبقى من أفراد طبقة العسكريين المصريين. وفجأة اندلع سخطهم على الفرعون "أوافريه" الذي لم يتعظ من الدرس القاسي الذي تلقنه جده "بسماتيك الأول"، وأحاط نفسه بقوات أيونية ويونانية، فقام الجنود المصريون المتمردون بتتويج واحد من رجال البلاط يُدعى "أمازيس"، وتصدوا لـ"أوافريه" وهزموه هزيمة نكراء في "مريوط"، حيث كان يحارب على رأس قواته الأجنبية.

شغل "أمازيس" الحكم لمدة اثنين وأربعين عاماً. وكان عهده يسوده السلام والخير، وانتعشت التجارة أيما انتعاش، وانهمرت الثروات على مصر. ولم يكن ذلك بسبب نفوذها أو استخدامها القوة لفرض سطوتها في الخارج، وإنما لتوقف ملوك "بابل" عن تهديدها نظراً لانشغالهم بمقاومة شعوب بلاد فارس الذين اتحدوا تحت زعامة "قورش". وقد هاجم هذا الأخير "آشور" بعنف ووحشية، وتمكن من احتلالها تدريجياً. كما انتهى به الأمر إلى اخضاع "بابل والاستيلاء عليها.

ومنذ تلك اللحظة تنبأ "أمازيس" بأفول نجم الامبراطورية المصرية ونهايتها القريبة. فقد أضعفت الحرب الأهلية الأخيرة ما تبقى من قوات الجيش الوطني التي أصابها كلها تقريباً الاختلال

من جراء السياسة الخاطئة التي اتبعها خلفاؤه. ولم يعد بمقدوره الاعتماد إلا على ولاء وإخلاص القوات اليونانية التي جَنَّدها لخدمة مصالحه. وقد توفى "أمازيس" بعد فترة حكم مزدهرة. في نفس اللحظة التي أخذت الجيوش الفارسية تزحف للإنقضاض على مصر.

وبمجرد اعتلائه العرش بعد والده، اضطر "بسماتيك الثالث"، الذي كان يُلقب كذلك "بسامنينيس Psamnénis"، إلى الهروع إلى "البيلوز"، أقوى الحصون المصرية الواقعة ناحية سوريا. ثم راح يجمع كل ما تبقى هناك من طبقة العسكريين المصريين والقوات الأجنبية الموالية له. وقد اخترق الفرس تحت قيادة الملك "قمبيز" ابن "قورش" وبمساندة العرب، الصحراء الفاصلة بين سوريا ومصر بدون أي عقبة، ثم اصطف هذا الجيش الهائل في مواجهة القوات المصرية المعسكره تحت أسوار "البيلوز".

ثم حمي وطيس الحرب، وعند غروب الشمس تراجع المصريون وقد دحرتهم كثرة عدد القوات الفارسية. ومع انتصار "قمبيز" فقدت مصر استقلالها الوطني إلى الأبد.

وواصل الفرس انتصاراتهم، وانقضوا على مدينة "منف" وقاموا بسلبها ونهبها. وراحت رياح الدمار والموت تعصف في شتى الأرجاء على أيدي الفرس الذين كانوا لا يزالون في طور التخلف والهمجية. وعاثوا في "طيبه" فساداً، ودمروا وخربوا أروع آثارها. وخضع الشعب المصري لنير الطغيان والاستبداد على أيدي الحكام الفرس الذين قام ملوك فارس بتنصيبهم. واندثرت الفنون والعلوم كلها تقريباً من مصر بعد أن كانت مهداً لها.

وبين الحين والحين كانت الشجاعة تدفع بعض القادة المصريين إلى انتزاع وطنهم بصورة مؤقتة من ذل التبعية. بيد أنه سرعان ما كانت جهودهم النبيلة تبؤ بالفشل أمام نفوذ الامبراطورية الفارسية المتنامي باستمرار.

ثم قدم "الإسكندر الأكبر" على رأس جيش يوناني للإطاحة بنفوذ الفرس في آسيا. وأخيراً تنفست مصر الصعداء بين يدي هذا السيد الجديد. وعقب وفاة هذا البطل العظيم الذي أسس مدينة الإسكندرية نظراً لموقعها الجغرافي الذي يهيؤها لأن تصبح مركزاً للتجارة العالمية، راح القادة اليونانيون يتقاسمون فتوحاته. فقام واحد منهم يُدعى "بطليموس" بتنصيب نفسه ملكاً على مصر،

وتأسيس الأسرة اليونانية التي ظلت تحكم مصر على مدى ما يقرب من ثلاثة قرون.

وفي ظل حكم هؤلاء الملوك الذين انتحلوا جميعاً اسم "بطليموس"، حققت مدينة الإسكندرية تنبؤات "الإسكندر الأكبر". إذ أصبحت مرفأ تجارياً لإعادة تصدير منتجات قارتي آسيا وإفريقية كلها مع أوروبا التي كانت تتكون حينئذ من عدد كبير من الدول المتحضرة. إلا أن فساد الملوك اليونانيين الأواخر واستبدادهم مهد الطريق أمام تصدع أركان دولتهم. فقام امبراطور الرومان القيصر "أغسطس" بانتزاع العرش من تلك الأسرة. وفقدت مصر إلى الأبد كيانها كدولة لتصبح مجرد ولاية تابعة للامبراطورية الرومانية، ومنذ تلك اللحظة ارتبطت بنفس مصير الامبراطورية التي تخضع لها، حتى قام العرب المسلمون بغزوها باسم الخليفة "عمر" وتحت زعامة القائد "عمرو بن العاص".

* * *

مذكرة سُلمت إلى الوالي حول حفظ وصيانة الآثار المصرية القديمة.

من بين الأوروبيين الذين يزورون مصر كل عام يوجد عدد غفير منهم لا يأتون سعياً وراء أي مصلحة تجارية، وإنما لمجرد الرغبة في التعرف بأنفسهم على آثار الحضارة المصرية القديمة المتناثرة على ضفتي النيل، والتي يستطيع المرء حالياً تأملها ودراستها في أمان وسلام، بفضل الإجراءات الحكيمة التي اتخذتها حكومة جلالة الملك.

كما أن فترة الإقامة الطويلة إلى حد ما التي يضطر الرحالة لقضائها في مختلف أقاليم مصر والنوبة تعود بالنفع على العلم الذي يثرونه بملاحظاتهم، وكذلك على مصر نفسها نظراً لما ينفقونه من أموال لتنفيذ أعمالهم، أو لإشباع فضولهم، أو لاقتناء مختلف منتجات الفن القديم.

لذلك يصبح من الأهمية بمكان أن تعنى حكومة سمو الملك بحفظ وصيانة الأبنية والآثار القديمة التي تمثل الهدف الرئيسي من

وراء قدوم أفواج الأوروبيين الذين ينتمون إلى أرفع وأغنى الطبقات الاجتماعية.

بيد أن الرحالة يشعرون بالأسف والحسرة، وكذلك كل أوروبا المتحضرة التي تدين بشدة تدمير عدد كبير من الآثار العتيقة تدميراً تاماً وشاملاً منذ بضعة سنوات دون أن يبقى منها أدنى أثر. ومن المعلوم جيداً أن تلك العمليات التخريبية الهمجية تتنافى مع نوايا سمو الملك وآرائه المستنيرة التي لا تخفى على أحد. كما تم ذلك على أيدي أفراد لا يستطيعون تقدير مغبة الأضرار التي يلحقونها بالبلد عن جهالة. إلا أن ذلك لا يغير من فداحة ما يجري، كما أن فقدان تلك الآثار يثير مخاوف كل طبقات المثقفين وقلقهم بشأن المصير الذي ينتظر الآثار الأخرى التي لا تزال قائمة حتى الآن.

وفيما يلي قائمة بأسماء الآثار التي تم تدميرها مؤخراً :

(١) كل آثار "الشيخ عبادة" التي لم يبق منتصباً منها سوى بعض الأعمدة الجرانيتية.

(٢) معبد "الأشمونين" الذي يُعد من أجمل الآثار المصرية.

(٣) معبد "قاو الكبير" الذي أتت عليه مياه النيل والأيدي الهمجية.

(٤) معبد يقع إلى شمال مدينة "إسنا".

(٥) معبد يقع على الضفة اليمنى للنهر في مواجهة "إسنا".

(٦) ثلاثة معابد في "الكاب".

(٧) معبدان يقعان في جزيرة أسوان في مواجهة مدينة أسوان.

وهكذا يبلغ مجموع ما تم تدميره من آثار عتيقة نحو ثلاثة عشر أو أربعة عشر أثراً، من بينها ثلاثة على وجه الخصوص كانت في غاية الأهمية بالنسبة للرحالة والعلماء.

لذلك فما أمس الحاجة إلى أن يدرك هؤلاء الأفراد أهمية اجراءات حفظ وصيانة الآثار التي سنها سمو الملك ادراكاً تاماً، ويضعونها موضع التنفيذ، ويطبقونها بحذافيرها. فأوروبا بأسرها ستدين بالعرفان لسمو الملك لما يتفضل باتخاذه من تدابير فعَّالة تهدف إلى صيانة المعابد والقصور والمقابر وكافة الآثار الأخرى التي لا تزال تشهد بعظمة وقوة مصر القديمة، والتي تُعد في نفس الوقت أروع ما يُزين مصر الحديثة والمعاصرة.

ولتحقيق ذلك الهدف المرجو، يمكن لجلالة الملك أن يأمر بما يلي :
(١) عدم اقتلاع -بأي حال من الأحوال- أية أحجار أو قوالب طوب منقوشة أو غير منقوشة من الأبنية والآثار القديمة التي لا تزال قائمة في المواقع التالية سواء في مصر أو النوبة :

أولاً: في مصر

- "صان" الواقعة على قناة "المُعِز" في مصر السفلى.
- "بهبيت" بالقرب من "سمنود" في مصر السفلى.
- "صان الحجر" في مصر السفلى.
- "قصر قارون" الذي يقع في إقليم الفيوم.
- "الشيخ عبادة" لما تبقى فيها من آثار قليلة.
- "العرابة المدفونة" الواقعة أعلى مدينة "جرجا".
- "قفط".
- "قوس".
- "القرنة" وضواحيها.
- "مدينة هابو" وضواحيها.
- "الأقصر".
- "الكرنك" وضواحيها.
- "المدامود".
- "أرمنت".
- "الطود" الواقعة على الضفة اليمنى للنيل في مواجهة "أرمنت".
- "إسنا".
- "إدفو".
- "كوم أمبو".
- أسوان.
- "جزيرة أسوان".

ثانياً: النوبة فيما وراء الشلال الأول

- جزيرة "البردة".
- جزيرة "بغيه".

ـ جزيرة "سهيل".
ـ "دابود".
ـ "دندور".
ـ "بيت الوالي" بالقرب من "كلابشة".
ـ "كلابشة".
ـ "جرف حسين".
ـ "الدكا".
ـ المحرقة".
ـ "وادي السبوع".
ـ "عمدا".
ـ "الدر".
ـ "إبريم".
ـ "أبو سمبل".
ـ "جبل عده".
ـ "المساخيط".
ـ "وادي حلفا" بعض الأنقاض الواقعة على الضفة اليسرى للنيل.

ثالثاً: ما وراء الشلال الثاني

ـ "سمنة" و"صولب" و"برقل" و"أسور" و"نجا" وغيرها من المواقع التي تحتوي على آثار عتيقة حتى حدود "سنار" حيث لا يوجد شيء.

(٢) إن الآثار العتيقة المنحوتة في الجبال تضارع من حيث أهمية المحافظة عليها الآثار المشيدة من الأحجار التي تم اقتلاعها من نفس تلك الجبال. لذلك فإن الحاجة ماسة إلى الأمر بعدم إحداث أية أضرار أو تلفيات داخل تلك المقابر التي يقوم الفلاحون بتدمير نقوشها إما لإعادة استخدامها في بناء أماكن تأويهم هم وحيواناتهم، وإما لبيع أجزاء صغيرة من نقوشها إلى الرحالة، حتى وإن اقتضى ذلك تشويه حجرات بأكملها. أما عن المواقع الرئيسية التي تجدر حمايتها على وجه الخصوص، فتتمثل في المغارات الجبلية الواقعة على مقربة من :
ـ "منف".
ـ "بني حسن" وضواحيها.

- "تونا الجبل".
- "التل".
- "سمون" بالقرب من "منفلوط".
- "العرابة المدفونة".
- "القرنة" وضواحيها.
- "وادي الملوك" بالقرب من "القرنة".
- "الكاب".
- جبل "السلسلة".

ففي مثل هذا النوع من الآثار تقع يومياً عمليات التخريب والتدمير التي يقترفها الفلاحون إما لحسابهم الخاص، وإما لصالح تجار العاديات على وجه الخصوص الذين يستخدمونهم. كما أنني أعلم علم اليقين بأن هؤلاء المضاربين الأوروبيين قد دمروا أبنية أملاً في اكتشاف بعض القطع الأثرية الفريدة في أساساتها. بيد أن المغارات المنحوتة والمنقوشة التي تُكتشف يومياً في "منف" و"العرابة المدفونة" و"القرنة" سرعان ما تتهدم تقريباً بمجرد فتحها من جراء جهل وطمع وشراهة المنقبين عن الآثار أو الأشخاص الذين يستخدمونهم.

لقد آن الأوان لوضع حد لتلك العمليات التخريبية البربرية التي تحرم العلم في كل لحظة من آثار غاية في الأهمية، وتصيب الرحالة بالحسرة وخيبة الأمل لاندثار النقوش الفريدة التي تكبدوا مشاق كثيرة في سبيل القدوم لرؤيتها.

ومجمل القول فإن مصلحة العلم لا تقتضي بالطبع إيقاف الحفائر التي يكتسب من خلالها يومياً المزيد من التأكيدات والمعارف غير المنتظرة. وإنما تقتضي المصلحة إخضاع تلك الحفائر للوائح وقوانين تضمن الصيانة الكاملة لما يتم اكتشافه من مقابر في الحاضر والمستقبل، وحمايتها من كافة التعديات، سواء كان مصدرها الجهل أو الطمع والجشع الأعمى.

الإسكندرية في نوفمبر ١٨٢٩

* * *

من شامبليون إلى شامبليون فيجاك

تولون في ٢٥ ديسمبر ١٨٢٩

"دع عنك القلق، كل شيء سيتم على خير ما يرام !" كانت تلك آخر الكلمات التي وجهتها إليك لحظة وداعنا. وستعلم من خلال تلك الرسالة أنني وفيت بوعدي، وعدت إلى "تولون" حيث أخضع حالياً في سلام لواجب الحجر الصحي. صديقي العزيز، لقد انتهت رحلتي إلى مصر، وجاء كل شيء وفق رغباتنا. لقد رست "الأسترولاب" أخيراً في مرفأ "هيار" الفرنسي في الثالث والعشرين من ديسمبر. وربما كان ذلك للاحتفال بذكرى عيد ميلادي. ثم سمحت لنا الرياح اليوم بالرسو في ميناء "تولون". وسأكون في منتهى السرور لتسلم الخطابات التي قد تكون في انتظاري هنا في مكاتب البريد، أو في مكتب ضابط المقاطعة البحرية. وسأترك هذه المهمة للغد.

لقد قررت قضاء فترة الحجر الصحي (أي عشرين يوم فقط كما آمل) على متن "الأسترولاب". ومع ذلك فسأحجز غرفة في الحجر الصحي بغية التمتع بشيء من الدفء، والقيام ببعض التمارين، وكتابة مذكرات عن "مدينة هابو" و"القرنة" و"الكرنك" و"دندره" لاستكمال سلسلة المقالات التي تم نشرها في الجرائد. وستحتوي المذكرة الأخيرة على بعض التفاصيل عن مدينتي القاهرة والإسكندرية. ويفرض عليّ العرفان بالجميل واجب الإشارة إلى الاستقبال الطيب الذي ادخره لنا ابراهيم باشا؛ ولطف وكرم محمد علي باشا الذي أهداني سيفاً رائعاً تعبيراً عن اغتباطه يوم الاحتفال بعيد الملك. ولايسعني إلا أن أثني على السيد "ميمو" لمشاعر المودة والتعلق التي غمرني بها. حقاً إنه رجل يؤثر في النفس، وقد كان بالنسبة لي ما كان يجب أن يكونه "دروفيتي"، بل أكثر من ذلك : كان أخاً وصديقاً.

لم يصاحبني في رحلة العودة إلا رفيقي "سالفادور". بينما رغب السادة "لوت" و"لوهو" و"برتان" في إتمام اللوحات البانورامية لمدينة القاهرة التي شرعوا في رسمها، مع بعض صور لاثنين من الباشاوات. أبلغ عبارات الود للسيد "داسييه" ولكل ذويه ولكل أهلنا.

لقد تركت التابوت والنقش البارز الكبير وكل الصناديق التي تضم اللوحات والمومياوات وغيرها من القطع الأثرية المخصصة لمتحف "اللوفر" على متن سفينة "الأسترولاب"، إذ أن عملية تفريغها وإعادة شحنها من جديد تنطوي على العديد من المخاطر. وتقتضي المحافظة عليها نقلها إلى "هافر" على متن نفس السفينة. لذلك ينبغي أن يحصل السيدان "دي لا بويري" و"دي لا روشفوكو" من صديقنا وزير البحرية على أمر تكليف السيد "دي فرنيناك"، قبطان "الأسترولاب"، بالاحتفاظ بها على متن السفينة؛ تمهيداً لنقلها بنفسه إلى "هافر" بمجرد أن تسمح حالة البحر بذلك، أي في أواخر شهر فبراير أو أوائل شهر مارس، بحيث يبلغ "هافر" في الأول من شهر إبريل. فلتتدبر الأمر من ناحيتك لكي يتم بهذه الصورة العظيمة. وسأقوم بالكتابة في هذا الشأن إلى السيدين "دي لا بويري" و"سوستان".

مرفق طيه مذكرة حول أحد معابد "طيبه". فلترسل إليّ كل ما تم نشره من سلسلة تلك المذكرات، وسأوافيك تباعاً بباقي المذكرات الأكبر حجماً لو أرشدتني إلى طريقة اقتصادية ورخيصة لتوصيلها إليك. وداعاً وفي انتظار أخبارك.

ج.ف. شامبليون

* * *

الحجر الصحي في تولون في ٢٦ ديسمبر ١٨٢٩

إلى حضرة البارون "دي لا بويري"
المسؤول العام عن شؤون البلاط الملكي

حضرة البارون ،،

يفرض عليّ الواجب قبل أي شيء وأنا أطأ أرض الوطن من جديد أن أجدد التعبير عن امتناني العميق لليد الراعية المنعمة التي جادت عليّ بسخاء بالإمكانيات اللازمة لتنفيذ مجموعة

الأبحاث التي كان يعقد عليها العلم آمالاً في كافة أرجاء مصر والنوبة. وقد دفعني التفاني والإخلاص في سبيل تنفيذ ذلك المشروع الهام الذي جعلتموني أهلاً بلاضطلاع به لأن أبذل قصارى جهدي حتى أكون على مستوى تلك المهمة النبيلة، وأن أحقق على خير وجه الآمال التي تفضل علماء أوروبا بتعليقها على رحلتي.

لقد جبت أرض مصر شبراً شبراً، كما حللت بكل المواقع التي لا تزال تحتفظ ببعض أنقاض تشهد بعظمة الماضي. وقد كان كل أثر موضع دراسة خاصة. كما قمت بنسخ كافة النقوش البارزة والنصوص التي من شأنها إلقاء مزيد من الضوء على الماضي السحيق لأمة يمتزج اسمها العريق بأقدم تراث دونته البشرية.

وقد فاقت المقتنيات التي جمعتها كل توقعاتي. وإن رسومي تمثل ثروة هائلة لدرجة تسمح لي أن أصرح بأن تاريخ مصر وديانتها وفنونها لن تصبح معروفة، ولن تُقدر حق قدرها إلا بعد نشر الرسوم التي تمثل ثمرة رحلتي.

وقد التزمت بتكريس كل ما أمكنني إدخاره لتنفيذ حفائر في "منف" و"طيبه"...الخ، بغية إثراء متحف "شارل العاشر" بمزيد من القطع الأثرية الجديدة. وقد أسعدني الحظ بجمع العديد من القطع التي ستُكمل مجموعات مختلفة في متحف "اللوفر". كما نجحت أخيراً، وبعد تردد وحيرة، في اقتناء أروع وأنفس تابوت اكتُشف حتى الآن في المقابر الفرعونية. فما من متحف أوروبي يمتلك قطعة فنية مصرية بمثل هذا القدر من الجمال. كما كونت مجموعة من القطع الأثرية الهامة، من بينها تمثال صغير من البرونز رائع مُطَعَّم كله بالذهب يمثل ملكة مصرية من الأسرة البوباستية، ويُعتبر من أعظم وأجمل القطع المعروفة.

وسأسارع على قدر ما تسمح لي به حالتي الصحية وضرورة احتجازي في الحجر الصحي، بالتوجه إلى "باريس" بأسرع ما يمكن كي أتشرف بأن أعرض عليكم، سيدي البارون، كافة النتائج التي أسفرت عنها رحلتي. وسأكون في غاية الفرح والسعادة إذا تفضلتم باعتبارها دليلاً على حماسي في خدمة الملك، وفي نفس الوقت برهاناً على عرفاني بجميلكم، ووفائي الموقر لشخصكم...الخ.

* * *

تولون في ٢٦ ديسمبر ١٨٢٩

إلى حضرة الفيكونت "سوستان دي لا روشفوكو"،
مدير قسم الفنون الجميلة في البلاط الملكي.

حضرة الفيكونت ،،

يُشرفني أن أنهي إليكم نبأ وصولي مساء أمس إلى أرض الوطن على متن السفينة الملكية "الأسترولاب"، بعد رحلة بحرية استغرقت تسعة عشر يوماً. كما أسارع في أن أزف إليكم النتائج الباهرة التي أحرزتها.

أما فيما يتعلق بالأبحاث العلمية التي كانت تمثل الهدف الأساسي لتلك الرحلة فقد تجاوزت كل آمالي وتوقعاتي. ولم يعد لي ما أطمح فيه بعد ما جمعته من رسوم نفيسة تحمل تفسيراً للعديد من النقاط التاريخية، وتسلط في نفس الوقت أضواء هامة على الحضارة المصرية القديمة في أدق تفاصيلها. وأخيراً فقد جمعت معلومات ومعارف مؤكدة حول تاريخ الفنون الجميلة بصورة عامة، وحول كيفية انتقالها من مصر إلى اليونان بصورة خاصة.

وكان واجباً عليّ أن أجهد في سبيل إثراء قسم الآثار المصرية بالمتحف الملكي بمختلف أنواع الآثار التي تنقصه، وكذا بتلك التي يمكن أن تكمل ما يحتوي عليه من مجموعات عظيمة. ولم أدخر وسعاً في سبيل بلوغ ذلك الهدف : إذ استخدمت كل ما أمكنني إدخاره من الأموال التي تفضل البلاط الملكي والوزارات العديدة في وضعها تحت تصرفي، في اجراء حفائر، واقتناء قطع أثرية على اختلاف أنواعها لتكريسها لمتحف "شارل العاشر". ولقد تكبدت مشقة بالغة في سبيل قطع نقش بارز ضخم لازال يحتفظ حتى الآن بكل ألوانه تقريباً، وإخراجه من داخل مقبرة والد الملك "سيزوستريس" بـ"طيبه". وبوسع هذه القطعة الرائعة بمفردها إعطاء فكرة دقيقة عن عظمة وفخامة المقابر الفرعونية. كما نجحت في اقتناء قطعة أثرية من الطراز الأول : تابوت من حجر البازلت الأخضر تغطيه نقوش على قدر عظيم من الرقة والأهمية الميثولوجية. وقد كانت هذة

القطعة التي تُعد من أروع ما اكتُشِف حتى الآن في حوزة محمود بك، وزير الحربية.

وقد شُحِنت كافة القطع المخصصة للمتحف على متن "الأسترولاب"، ووصلت إلى "تولون" في صحبتي. ولم يتبق الآن سوى نقلها إلى المتحف الملكي. وبما أن المحافظة على التابوت والنقوش البارزة وبعض الرسوم العتيقة تتطلب تفادي تحريكها من أماكنها على قدر الإمكان، فسيكون من المستحسن تكليف سفينة "الأسترولاب" التي يوجد على متنها تلك الآثار النفيسة بنقلها من "تولون" إلى "هافر"، بمجرد أن تسمح حالة البحر بذلك. وبحصولكم من وزير البحرية على هذا القرار فستساهمون، سيدي الفيكونت، في تأمين حفظ وصيانة تلك الآثار، ووصولها إلى "باريس" في الأول من شهر إبريل كما يتحتم بغرض الانتهاء أخيراً من ترتيب صالات العرض السفلية بمتحف "اللوفر".

ومن ناحية أخرى فسأشحن إلى "باريس" عن طريق شركة النقل نحو عشرة صناديق تحتوي على قطع أثرية مختلفة صغيرة الحجم، يمكن أن تتحمل عملية النقل البري دون ضرر. بينما ستصل القطع الأخرى عن طريق البحر مع باقي القطع الكبيرة.

ولتسمحوا لي، سيدي الفيكونت، بأن ألتمس منكم حث السيد وزير البحرية على الإسراع في إرسال سفينة "الأسترولاب" إلى "هافر" لتوصيل الآثار المخصصة للمتحف الملكي، وذلك كي يتسنى لي -عقب مغادرتي الحجر الصحي- اتخاذ كافة التدابير المناسبة بغية المحافظة عليها.

وفي ختام هذه الرسالة، أتوجه إليكم من جديد بالتعبير عن امتناني الشديد لعنايتكم النشطة والتي كان لها عظيم الفضل في نجاح رحلتي. ولتتقبلوا في نفس الوقت مشاعر الاحترام والولاء الخالص...الخ.

* * *

من شامبليون إلى "ديبوا"

المحجر الصحي بتولون في ٢٧ ديسمبر ١٨٢٩

صديقي العزيز ،،

لقد شاءت المقادير أن يبقى كلانا بدون أخبار عن الآخر طيلة ثمانية عشر شهراً. فعندما شرعت في الكتابة إليك من "طيبه" علمت بسفرك إلى "المورة"، وباعتزامك على الكتابة لي عند وصولك لإخباري بعنوانك الجديد في اليونان. بيد أن انتظاري راح سُدى، وعند رجوعي إلى الإسكندرية أخبرني رجل بولندي كان قد رآك في "إيليد" بأنك توجهت إلى فرنسا. وقصارى القول أن الحديث سيطول بنا عند لقائنا من جديد هذا الشتاء.

إلا أنني أصرح لك مقدماً بأن كل أفكارنا عن الفن المصري القديم أصبحت الآن بالنسبة لي ـبعد أن رأيت كل شيء بأم عينيـ حقائق ثابتة (مهما كان ذلك مخالفاً لرأي العالمين "روشيت" و"كاترماتر" العظيم). بل إنك ستجد في الرسوم الألف وخمسمائة التي قمت بنسخها وتلوين جزء كبير منها في أماكنها ما يكفي لإقناعك بذلك. لقد عكف الرسامون الشبان على العمل بذمة وضمير. وأستطيع أن أؤكد بجرأة نجاحهم بدقة وأمانة في تقليد الطابع الحقيقي والمتنوع تنوعاً شديداً للآثار المصرية على اختلاف عهودها التاريخية. وقد دفعني الأمر إلى إعادة نسخ كل الرسوم الجوهرية التي قام علماء الحملة الفرنسية بنشرها تقريباً، وخاصة النقوش البارزة التاريخية. ولابد أن الدهشة ستغلب عليك عند مطالعة تلك المجموعة الكاملة، نظراً لأنه ليس هناك من شيء حتى الآن يعطيك فكرة ولو تقريبية عنها. وقد نزعت إلى نسخ تلك اللوحات الهامة بالحجم الكبير بغية إبراز أدق تفاصيلها، وحتى يسهل إضافة النصوص التفسيرية العديدة المصاحبة لها. ويستحق علماء الحملة الفرنسية و"جو" والإنجليز عقوبة الجلد في ميدان عام لتجاسرهم على نشر رسوم ناقصة ومشوهة لتلك التكوينات الكبيرة والرائعة.

لقد تفقدت جميع آثار مصر والنوبة من الأهرامات وحتى الشلال الثاني. وجمعت كافة النصوص والنقوش التاريخية المنحوتة

على جدرانها. وإن الكتيب الذي دونت فيه بأمانة كافة النقوش البارزة التي تزين كل أثر من الآثار يجعلني على يقين بأنه ليس هناك شيء طريف أو هام غاب عني تسجيله. وهكذا فقد راكمت عملاً يكفي لملء حياة بأكملها.

كما أنني لم أنس قسم الآثار المصرية بمتحف "اللوفر". ولا يخفي عليك أن المسؤولين قاموا، عند منحي الاعتمادات المالية المتعلقة بمصروفات رحلتي، بشطب المبلغ المخصص لإجراء حفائر لحساب المتحف. وعلى الرغم من ذلك فقد استخدمت بعض المدخرات التي لم تكن في الحسبان في اجراء بعض عمليات التنقيب في "سقارة" (منف) و"أبيدوس" و"طيبه". وسرعان ما عثرت في فترة وجيزة على مومياوات وقطع جنائزية. بيد أنني لم أحتفظ من هذا الكم الهائل إلا بكل ما هو فريد وجديد سواء من حيث الشكل أو المادة. وقد أحضرت معي أربع مومياوات فقط : إثنتين لطفلين، ومومياء أخرى رائعة ترجع إلى العصر اليوناني مزودة بنصوص يونانية طويلة، ومومياء مصرية رابعة. كما جلبت معي : العديد من الآنية الجميلة من المرمر وغيرها من المواد العجيبة، وتزدان أغلبها بنقوش تفسيرية؛ وقلادة كبيرة مجدولة من لؤلؤ "فينيقيا" كانت مِلكاً لمرضعة الملك الأثيوبي "طهرقا" من الأسرة الرابعة والعشرين، كما يشير النص الطولي المجدول كذلك من لؤلؤ "فينيقيا"؛ والعديد من الآنية البرونزية الجميلة؛ ومركب جنائزية رائعة الشكل منقوشة ومطلية، وهي في حالة جيدة جداً من الحفظ (قطعة أثرية فريدة)؛ وصنجين معدنيين، ومواعين مختلفة من البرونز؛ وكمية كبيرة من مختلف القطع الصغيرة والنفيسة، من بينها العديد من الملاعق الجميلة المزخرفة بشخوص؛ وقطع عديدة من العاج القديم؛ وأروع إناءين كبيرين من البرونز؛ ولوحات كثيرة صغيرة من حيث الحجم، ولكن فريدة من حيث دقة تنفيذها والنصوص التي تحملها.

لقد دفعتني الرغبة في خدمة الفن إلى استعمال منشار في نزع نقش بارز من جدران مقبرة "أوزيري Ousiréi" التي تُعد بحق أروع مقبرة ملكية في "طيبه". ويصور لنا هذا النقش الإلهة "حتحور" تستقبل الملك، وتعطيه يدها مشيرة إلى قلادة مرضعته. وهي نفس الإلهة "حتحور" التي سحرتك رأسها الجميلة التي عرضها

"بلزوني". وقد أحضرت معي على متن "الأسترولاب" هذة الكتلة الكبيرة التي يتراوح ارتفاعها بين سبعة وثمانية أقدام، والتي تُعد نموذجاً رائعاً للنحت. كما جلبت معي تابوتاً من حجر البازلت الأخضر الغامق، اشتريته بمدخراتي الخاصة من محمود بك، وزير الحربية. وتُعتبر الأشياء التي أحضرتها معي من حيث العدد والدقة المتناهية في نحتها من أروع ما نجده في المقابر المصرية. وحتى إذا سلمنا بأن هذا التابوت ليس تابوتاً ملكياً، فإن ذلك لا ينقص من قيمته شيئاً على الإطلاق.

لقد رأى المسئولون تخصيص مبلغ عشرة آلاف فرنك لي لإجراء حفائر في مصر، بيد أن تلك الأموال لم تصلني -كما يمكن أن تتخيل- إلا بعد فوات آوان استخدامها. إذ بلغني ذلك القرار بالفعل عند مغادرتي "طيبه" ونزولي النيل بالقرب من "دندره". وبما أن الواجب يُحتم عليّ استغلال أكبر قدر من هذا المبلغ في إثراء المتحف، لم أتردد إذن في اقتناء بعض القطع الأثرية الرائعة. وهكذا أحضرت معي إلي متحف "اللوفر" أجمل تمثال صغير من البرونز اكتُشف في مصر حتى الآن. ولا يقل ارتفاعه عن قدمين، وهو يمثل زوجة الملك "تكلوتيس Takellothis" من الأسرة الثانية والعشرين، وهو مُطَعَّم بالذهب الخالص من الرأس حتي القدمين، ويُعد تحفة فنية رائعة، وآية من حيث دقة نحته. وأنا على يقين من أنك ستنهال على وجنتي تلك الأميرة تقبيلاً على الرغم من طبقة الأكسيد التي تغطيهما قليلاً جداً، والتي تكونت بين الكتفين لتشكل حدبة على الظهر. إنها قطعة جوهرية ستُدخل في نفسك السعادة. إنني في انتظار أخبارك بفارغ الصبر. ولتتقبل التعبير عن تعلقي الذي لا يفنى.

ج.ف. شامبليون

* * *

من شامبليون إلى القس "جازيرا"

الحجر الصحي بتولون في ٢٨ ديسمبر ١٨٢٩

صديقي الحميم ،،

أخط إليك سطرين لأزف إليك نبأ عودتي إلى فرنسا على متن السفينة الملكية "الأسترولاب" التي أقلعت في السادس من هذا الشهر من الإسكندرية حيث قبعت في انتظرها منذ الأول من شهر أكتوبر. وقد جاء كل شيء وفق ما تمنيته، كما قمت بحصاد عظيم، وأحضرت معي كماً هائلاً من الملاحظات والرسوم والنصوص والمذكرات التي دونتها عن كل أثر لايزال قائماً في وادي النيل من الأهرامات وحتى الشلال الثاني، علاوة على ألف وخمسمائة رسم بُذل في نسخها كل ما يمكن تخيله من عناية وأمانة. ويراودني الاعتقاد في أن مجرد رؤية تلك الرسوم من شأنها اعطاء فكرة دقيقة وصائبة عن الفن المصري القديم، وعن عظمة وأبهة نقوش المعابد والقصور الفرعونية. وقد تم تلوين جزء كبير من تلك الرسوم في أماكنها وفقاً للنقوش البارزة الأصلية. كما التزمت بإتمامها في وجود القطع الأثرية نفسها التي يتعين نسخها. إن المذكرات السريعة التي دونتها عن الآثار المختلفة التي قمت بزيارتها، فضلاً عن الظروف الرئيسية التي صاحبت رحلتي والتي تم نشرها في الجرائد الفرنسية لابد أن تكون قد طمأنتك على المصير الطيب الذي لازمني بفضل عناية "آمون رع" العظيم، وأمدتك بفكرة عن النتائج الرئيسية التي أحرزتها.

كم أود أن أطيل الحديث معك لبضع ساعات ! ترى ألا يمكنك بذل شيء من الجهد في سبيل ذلك؟ فقصيرة جداً المسافة التي تفصل بيننا ! سأكون في غاية الامتنان لو تكرمت بالقيام بجولة سريعة إلى فرنسا للحاق بي في "تولون" فيما بين الثالث عشر والسابع عشر من يناير؛ أو أفضل من ذلك في مدينة "إكس" بين الثالث والعشرين والرابع والعشرين حيث سأقيم لمدة ثمانية أيام تقريباً لدراسة برديات مجموعة "سالييه". فعساك أن تأتي، يا صديقي العزيز. وأنا أهيب بالكونتيسة وبكل ذويها الوقوف في صفي،

وتزكية ذلك الرجاء عندك. كما أكلف صديقنا "بوشرون" بتأييدي في ذلك مطلقاً العنان لفصاحته. وأخيراً ألزم صديقنا "بلانا" بأن يُثبت لك ضرورة أن تأتي للحاق بي. كما أرسل مقدماً قبلاتي لكل من يساندني ويدافع عني، وكذلك للخصوم.

ج.ف. شامبليون

ملاحظة : أرسل لي الرد على عنوان المحجر الصحي بـ"تولون". وأعرض كذلك على "بيرون" أن يأتي معك، وأبلغه تحياتي. وأنا أتعهد من ناحيتي بتسليتكما لمدة أربعة أيام على الأقل، وأن أريكما صوراً جميلة.

* * *

يطيب لنا في هذا المقام أن نسوق بعض فقرات من رسالة كتبها شامبليون إلى القس "جازيرا" في وقت لاحق :

[... لم أتمكن خلال فترة إقامتي في "طيبه" من الذهاب إلى "أبيدوس". فعندما اعتزمت القيام بتلك الرحلة وقفت مياه الفيضان الشديد عائقاً دون بلوغي "أبيدوس". إلا أنني لم أتأسف في قرارة نفسي بسبب هذا المانع، لأن الملاحظات والأبحاث التي أجراها أحد رفاق رحلتي خلال زيارته لتلك الأنقاض في شهر يناير من عام ١٨٢٩ قد أمدتني بكافة المعلومات التي أبتغيها. إن وجود القصر مدفوناً بعمق تحت الرمال لن يسمح لنا بجمع أية معلومات جديدة بدون انفاق أموال طائلة على افتراض إمكانية العثور عليها. وإنني أعرف على وجه الدقة الحقب التاريخية التي تنتمي إليها تلك الأبنية، وكذلك طقوس الديانة المحلية. أما السور الذي نُقشت عليه القائمة الملكية، فقد أصبح الآن مهدماً تقريباً، لذلك لا أشعر بأي أسف من هذة الناحية. وسأقدم معلومات وافية عن "أبيدوس"، وعن الديانة المحلية لـ"أوزوريس" الذي كان يحمل من بين ألقابه الأكثر تداولاً على اللوحات الجنائزية لقب "سيد أبيدوس". وسأستفيض في شرح كل ذلك في إحدى رسائلي الأخيرة التي ستتبع تلك التي تم نشرها. وسأضمها كلها في مجلد واحد ليكون بمثابة دليل لإرشاد

الرحالة الأوروبيين الذين يأتون لزيارة آثار مصر العتيقة. كما ستجد أيضاً في تلك الرسائل التي سأتولى نشرها في أسرع وقت كافة المعلومات المتوفرة عن بردية السيد "ساليبه" التي تحتوي بالفعل على نص يتعلق بالحملة العسكرية الضخمة التي شنها "رمسيس الأكبر" على "السيت Scythes" وكل شعوب آسيا الغربية الموالين والمتحالفين معهم. إن بردية السيد "ساليبه" موثوق بها، وينبغي اعتبارها معاصرة لذلك الحدث، حتى أنني عثرت في معبد الكرنك العظيم بـ"طيبه" على نفس ذلك النص منحوتاً بالأحرف الهيروغليفية الكبيرة على الجدار الخارجي الجنوبي للمعبد. وإنك لتدرك مدى الخطأ في التهكم على السيد "ساليبه" حينما أعلن رأيي في هذا المخطوط النفيس. إلا أن المتهكمين ينتمون إلى زمرة القوم الذين تعرفهم تماماً مثلما أعرفهم أنا بسوء النية.

ومن المتعذر أن أقوم هذا العام بجولة سريعة إلى مدينة "ليد" نظراً لأنني كرست كل وقتي لتحرير كتابي عن "قواعد اللغتين الهيروغليفية والهيراطيقية" الذي أود نشره في نهاية هذا العام. لذلك فإنني أعمل بدون كلل أو تعب أو توقف، وآمل في أنك ستكون سعيداً بذلك النشر الذي سيُغلق أفواه كل الحاسدين والحمقى بصورة نهائية.

* * *

من شامبليون إلى "داسييه"

مرفأ تولون في الأول من يناير ١٨٣٠

لقد سمح لي "آمون رع" العظيم بتوديع أرضه المقدسة. أما الإلهة "حتحور" المقدسة فقد تكرمت بتيسير رحلتي البحرية من شواطيء الإسكندرية وحى سواحل "البروفانس"، مراعاة لكم وعرفاناً منها بالورع الشديد الذي تكنونه لها. وإن لفظ "كن فيكون" الذي تفوهت به قد بارك تلك الرحلة، وجعلها سريعة بقدر ما يمكنني تمنيه في مثل هذا الفصل من العام.

وعند وصولي إلى "بلد النواقيس" وهو الإسم الذي يطلقه على

فرنسا أصدقائي الذين يقطنون الصحراء، تحتم عليّ أن أدعهم يعاملونني كموبؤ بالطاعون، ويحتجزونني في محجر صحي قذر وكئيب. ولولا ذلك الإجراء الصحي اللعين لكنت نعمت بلذة تقبيلكم وتهنئتكم بمناسبة حلول العام الجديد. ولكن عليّ أن أقنع في الوقت الراهن بمجرد الكتابة إليكم. علماً بأنني لن أضيع لحظة واحدة عقب إطلاق سراحي من ذلك المكان في العودة سريعاً إلى "باريس"، وتجديد أمنياتي لكم مشافهة. عندئذ ستعلمون يا سيدي بأن نتائج رحلتي فيما وراء البحار قد فاقت كل ما تمنيته.

وسأحضر معي مجموعة كبيرة من الرسوم الرائعة بعد أن اضطررت إلى إعادة نسخ العديد منها لأن واحداً من "محاسيبكم" (جومار) لم يراع التدقيق جيداً في النقوش الأصلية.

وسيكون بوسعكم عند تصفح رسوماتي تأمل الصور الحقيقية للعديد من أصدقائكم القدامى "موريس Moeris" والتحامسة والرعامسة. ولقد غاشيت نسيان الملكات المصريات منهن واليونانيات، والبيضاوات والسمراوات والسوداوات والصفراوات وحتى الكستنائيات، والجميلات منهن والدميمات كما شاء "آمون رع" العظيم أن يخلقهن على هواه. وأما المعارك الحربية فما أكثرها في أبحاثي ورسومي. ولكم آسف يا سيدي لفقدان عالم التخطيط الحربي الكبير السيد "جيل" الذي كان بوسعه أن يشرح لنا كل المناورات، أو على الأقل مناورات "رمسيس الأكبر" ووالده "مرنبتاح". كما أزمع على وجه الخصوص أن أضع تحت أنظاركم لوحة أخلاقية للحياة الإنسانية قمت بنسخها خصيصاً لكم من سقف إحدى المقابر الملكية.

لقد أكثرت من رؤية ابراهيم باشا في القاهرة والإسكندرية. وهو رجل فريد، على مستوى الحضارة المصرية تماماً. أما والده محمد علي باشا فهو رجل "عظيم" في حقيقة الأمر، ليس له من مأرب سوى ابتزاز أكبر قدر ممكن من أموال الدولة. ولما كان يعلم بأن أسلافه الأقدمين كانوا يصورون مصر على هيئة بقرة، فإن محمد علي لا يتورع عن حلبها وإنهاكها ليل نهار، انتظاراً لشق بطنها ونحرها في وقت قريب. إن مصر تثير في النفوس الرعب والشفقة في آن واحد. ولا مناص من الاعتراف بتلك الحقيقة بالرغم

من السيف الرائع والمُطعّم بالذهب الذي أهداه لي الباشا تعبيراً عن اغتباطه الشديد.

سأذهب لقضاء بضعة أيام في مدينة "إكس" بغية دراسة البرديات الهيراطيقية العجيبة الخاصة بالحملات العسكرية التي شنها "رمسيس الأكبر"، والتي عثرت عليها وسط مجموعة السيد "ساليبه". وعقب الانتهاء من ذلك العمل، سأتوجه في الحال إلى "باريس"، حيث انتظر بفارغ الصبر لكي أجدد لكم، يا سيدي، التعبير عن تعلقي المخلص والموقر.

ج.ف. شامبليون

* * *

من شامبليون إلى شامبليون فيجاك

المحجر الصحي بتولون في ٢ يناير ١٨٣٠

أخيراً بدأت تكثر رسائلك. وأنا أجيب اليوم على تلك التي أرسلتها لي بتاريخ السادس والعشرين من أكتوبر، والسادس من نوفمبر، والثامن من ديسمبر، والثالث والعشرين والخامس والعشرين من ديسمبر. وقد كنت في حاجة إلى هذا السيل من الخطابات لمساعدتي على التأقلم من جديد. وبادىء ذي بدء أجيب على الموضوع الخاص بالسكن : فحسبي أن أجد سجادة سميكة في حجرة المكتب وأخرى في غرفة النوم. إذ يُعد ذلك أمراً جوهرياً بالنسبة لي. كما يلزمني أيضاً مقعد مريح من الجلد، ومكتب صغير ومنضدة كبيرة في وسط حجرة المكتب أو غرفة النوم. أما فيما يتعلق بالسرير فيستوي عندي كل شيء. ويمكنني أن أواصل النوم على الأريكة؛ بيد أنني سأكون جد مرتاح لوضعها في البهو الصغير حيث يمكن استخدامها كسرير لإيواء أحد الأصدقاء. وفضلاً عن ذلك لك أن تفعل كل ما تراه جيداً ومفيداً. ولا يسعني أن أشكرك يا صديقي القديم على كل ما تكبدته من مشاق في سبيل تدبير مكان لإقامتي. والآن وقد أصبحنا جيراناً، فليحيا الفشل ! ...

وأما فيما يتعلق بموضوع "ريفو"، فإن تقارير فقهاء الأكاديمية لا

تنم إلا على الارتباك والتورط. فإن الألف وخمسمائة رسم للآثار والموضوعات الهيروغليفية التي قمت بنسخها لا يمكن مقارنتها إطلاقاً برسومه هو. إذ أن قائمته منافية للمنطق، وتتسم بالسخف والعبث. وقد منعتني مياه الفيضان من الذهاب إلى "صا الحجر" لرؤية القطع الأثرية الضخمة التي يقترح اقتنائها للمتحف. زد على ذلك أنها لا تستحق عناء نقلها إلى فرنسا. لقد كتبت إلى السادة "دي لا بويري" و"دي لا روشفوكو" و"فوربن" و"كايو" بخصوص تكليف سفينة "الأسترولاب" بالتوجه إلى "هافر".

لابد أن تكون رسالتي قد بلغت صديقنا "ديبوا" : إذ يتحتم علينا الإنتهاء من ترتيب صالات العرض السفلية بالمتحف قبل رحيله من جديد إلى "أوليمي". أقطع الوقت في الحجر الصحي في تدوين مذكرات مقتضبة عن الآثار. وها هي تكملة يجب إدماجها وسط مجموعة المذكرات التي سبق أن أرسلتها إليك. وسأتولى من ناحيتي الإنتهاء من ذلك العمل في أسرع وقت ممكن، في الحجر الصحي إذا سمح لي الوقت بذلك. ومن المقرر أن أغادر المحجر الصحي يوم الثالث عشر أو الرابع عشر من الشهر الجاري. وسأقيم ثلاثة أيام في "تولون"، ثم أربعة أيام أخرى في "مارسيليا" للوقوف على إمكانية شراء بعض القطع الأثرية للمتحف بباقي مبلغ العشرة الاف فرنك التي منحوها لي. وعقب ذلك سأتوجه إلى مدينة "إكس" لدراسة برديات السيد "ساليبه".

وسيضحى باستطاعتي لدى وصولي إلى مدينة الملك "رينيه" أن أعطيك خط سير رحلتي النهائي إلى باريس. وداعاً يا صديقي العزيز. أتمنى لك صحة طيبة وعاماً سعيداً ! ولتبلغ أمنياتي إلى كل أصدقائنا من صغيرهم إلى كبيرهم. سأعاود الكتابة إليك من "تولون". وداعاً.

ملاحظة : أجب على رسائلي أولاً بأول على عنوان مكتب البريد "بتولون"، أو على عنوان السيد "تركا" في مدينة "إكس".

* * *

مرفأ تولون في ١٤ يناير ١٨٣٠

صديقي الحميم ،،

لقد كان مقرراً أن أستعيد حريتي اليوم، وأن أفقد لقب "موبؤ بالطاعون"، وأن أقول وداعاً للمحجر الصحي، ومرحباً بشوارع فرنسا. بيد أن مجلس الصحة قد قرر احتجازنا عشرة أيام إضافية بسبب توجه سفينة "الأسترولاب" -قبل أن تُقلع بنا من الأسكندرية- إلى مدينة "الطاقية" الواقعة على الساحل السوري لتوصيل السيد "ماليفوار" قنصل "حلب". وليس أمامنا سوى الرضوخ لذلك القرار الأحمق والغير منطقي؛ مادام المسؤولون عن الصحة العامة يفعلون ما يحلو لهم في غياب القواعد والقوانين. لقد اختفى وباء الطاعون من مصر منذ خمسة أعوام، والوضع الصحي في مدينة "الطاقية" السورية كان على خير ما يرام. وقد إنقضى أكثر من أربعين يوم على مغادرة "الأسترولاب" لتلك المدينة دون ظهور أية أمراض على متنها. وبإنقضاء عشرين يوم بالأمس في المحجر الصحي "بتولون"، بالإضافة إلى الأربعين يوم الأخرى، يكون قد مضى شهران كاملان على اختبار صحة طاقم السفينة. وعلى الرغم من ذلك ها هم يطالبوننا بعشرة أيام إضافية ! وأعجب ما في الأمر أن سفينة "الإكليبس" التي اختلطنا بطاقم ضباطها وبالمسافرين على متنها طوال فترة إقامتنا بمدينة الأسكندرية، قد وصلت إلى "تولون" قبلنا بثلاثة أيام، ولم تخضع إلا لعشرين يوم من الحجر الصحي. ولو كنا مصابين بالطاعون حقاً فلابد أن نكون قد نقلنا العدوى إلى طاقم "الإكليبس". وبالمثل فإذا كان قد تم اعتبارهم خالين من الأمراض فلابد أن نكون نحن أيضاً كذلك.

كل ذلك يفتقر إلى التفكير السليم، وسيكون من المستحسن أخيراً أن نضع حداً للسلطة المطلقة التي يمارسها هؤلاء الحمقى الذين يشكلون مجلس الصحة، والذين يسيئون يومياً إلى حركة الملاحة التجارية والعسكرية بما يتخذونه من قرارات عفا عليها الزمان. وبوسعك توصيل تلك الأحداث لبعض الصحفيين المكرة في "جريدة التجارة" للتنديد بهؤلاء المستشارين "الشجعان". ومع ذلك فليس للحكومة أي ذنب في كل ما يجري، إلا أنه أصبح من المُلِح أن تُولي

الأمر بعض الأهمية، وأن تشرع في سن اللوائح والقوانين اللازمة. وسأظل إذن حبيس القفص حتى يوم الثالث والعشرين أو الرابع والعشرين من يناير.

لقد كتبت إلى السادة "دي لا بويري" و"دي لا روشفوكو" و"فوربن" و"كايو"، كما وصلني رد من الفيكونت؛ ولكنني أنتظر قبل كل شيء القرار الرسمي بتكليف "الأسترولاب" بنقل القطع الأثرية إلى "هافر". فذلك هو أهم ما في الأمر حتى أغادر "تولون" مطمئن النفس.

مازلت في انتظار رد صديقنا "ديبوا" وتوصياته الخاصة بما يجب شراؤه من آثار في "مارسيليا" التي سأبلغها عقب مغادرة "تولون"، وقبل الإقامة في مدينة "إكس" لدراسة برديات السيد "ساليبه" الذي يُصر على إيوائي طوال مدة إقامتي والتي قد تستغرق أسبوعاً أو أكثر.

ستصلك هذه الرسالة عن طريق السيد وزير البحرية الذي أسديت إليه بعض المعلومات حول كيفية نقل مسلة الأقصر. ليرع الله تنفيذ ذلك المشروع العظيم! كما أرفق برسالتي "مذكرة حول قصر مدينة هابو" تحتوي على معلومات جديدة سيكون من شأنها سحق كل "الحشرات" التي تهاجمني بضراوة، إذا كانت النتائج التاريخية الكبيرة وحدها تكفي للتخلص منها.

أما فيما يتعلق "بدروفيتي"، فلابد أنه يعتب على نفسه ذلك السلوك المشين الذي انتهجه معي فيما يختص بالحفائر، وبالفرمان الذي تطلب الأمر انتزاعه منه بالقوة. وقد يروق لي التظاهر بتصديق خديعته، والإحتفاظ معه بكافة مظاهر الوفاق التام؛ إلا أن ثقتي فيه قد انعدمت تماماً. كما ألوم عليه ميوله السياسية وسلوكه في مصر حيث انصب كل اهتمامه على خدمة مصالحه الشخصية المرتبطة بمصالح الباشا، دون أن يُعير أدنى انتباه إلى حماية المواطنين الفرنسيين. لذلك فلا غرابة في أن كل الفرنسيين المقيمين بمصر يمقتونه، وهم بالطبع محقين في ذلك. أما القنصل الفرنسي الجديد فهو محبوب لما يتمتع به من شهامة الرجال. ولن أنكر ما ورد في رسائلي الأولى من مدح "لدروفيتي"، بيد أنني سأتحدث عن خليفته كما يفرضه عليّ الواجب، وكما تُمليه عليّ مشاعري. ذلك هو أقصى ما يمكنني عمله.

تتسم الحياة في المحجر الصحي بالرتابة والضجر. كما أنني في تمام الصحة والعافية، وكذلك حال "سالفادور"، بالرغم من الرياح والأمطار وتساقط الثلوج وإستحالة إشعال النار للتدفئة على متن المركب. بيد أنني أقضي قسطاً من النهار في التدفئة على قدر المستطاع داخل حجرة سيئة بالمحجر الصحي. فلتسارع في الكتابة إليّ. أبلغ عبارات الود لرئيسنا وكذلك إلى كل الأصدقاء، وخاصة السيد "دي فريساك" وقرينته، و"أرجو" المسكين الذي أرثي له من صميم قلبي. وداعاً.

ج.ف. شامبليون

* * *

من شامبليون إلى مدير جريدة "لافيزو دي لاميديتيرانيه"

تولون في ١٥ يناير ١٨٣٠

سيدي ،،

لقد خال لكم -إستناداً إلى ما نشرته بعض الصحف الباريسية- تكرار أن محمد علي باشا، الذي تشرفت بعرض نتائج أبحاثي عن آثار مصر والنوبة عليه، قد استخدم القوة في الإستيلاء على بعض رسومي. وبما أنني لم ألق من جلالته سوى أسمى دلائل الحماية، وأعمق مشاعر الرفق وحسن الإلتفات، فإن الواجب يحتم عليّ الإحتجاج على مثل ذلك الإدعاء الكاذب.

لذلك ألتمس من سيادتكم الإشارة في العدد القادم من جريدتكم إلى اعتراضي وتكذيبي الصريح لذلك الزعم الذي يتنافى تماماً مع المشاعر النبيلة التي تميزت بها دائماً علاقات محمد علي باشا بالأوروبيين عامة وبالفرنسيين على وجه الخصوص.

وتفضلوا بقبول فائق الشكر ووافر الإحترام ،،

ج.ف. شامبليون

* * *

عند مغادرة شامبليون المحجر الصحي جاءه "دروفيتي" بالعديد من كبار الموظفين بوزارة البحرية لكي يشرح لهم بنفسه كيفية بناء سفينة "الأقصر" العملاقة التي تحدثنا عنها آنفاً. وقد أثار ذلك المشروع في باديء الأمر حفيظتهم، حتى أنهم صرحوا لشامبليون باستحالة تنفيذه. بيد أنهم عدلوا عن رأيهم بعد ليلة من التدبر والتفكير. وفي صباح اليوم التالي راحوا يسهبون في مدح "المصري" لدرجة أنه في اليوم نفسه أرسل خطاب رسمي من "تولون" إلى وزير البحرية لتزكية بناء تلك السفينة، وحث الوزير على مناقشة الملك في هذا الشأن في أقرب وقت ممكن.

ولما علم "شامبليون فيجاك" بذلك الأمر كتب إلى أخيه قائلاً :
"... لقد أخبرني السيد "دوسيه" باهتمامه الشديد بنقل مسلة الأقصر إلى باريس. وقد شُكلت لجنة لصياغة ذلك المشروع، إلا أنه يرغب في معرفة رأيك وكافة المعلومات التي من شأنها مساعدة أعضاء اللجنة. وقد أخبرته بما كتبته لي : أي بوجوب إرسال بنائين وليس علماء؛ فرد عليّ بأنه سيضع هذا الرأي الرشيد موضع الإعتبار. وسأفتش في رسائلك عن كافة المعلومات الخاصة بذلك الأمر، وأرفعها إليه في الحال ... ولتكتب إليه من ناحيتك في ذلك الخصوص، مستهلاً رسالتك بشكره على ما أبداه من اهتمام بذلك المشروع".

كان البارون "دوسيه" والي مقاطعة "إيزير" في "جرونبل" خصماً سياسياً للأخوين شامبليون كما ذكرنا آنفاً. إلا أنه كان يخفي ذلك في البداية لحرصه على فتح الرسائل التي كان الأخوان يتبادلانها من "باريس" إلى "جرونبل"، والإطلاع سراً على محتوياتها. ولما تنبه شامبليون أخيراً إلى ذلك الوضع الخطير، لم يتردد في تعنيف الوالي وتبكيته تبكيتاً قاسياً؛ ووقعت بينهما مشادة لم يغفرها له هذا الأخير أبداً. لذلك فقد كان ينبغي على الأخوين أن يأخذا حذرهما من السيد "دوسيه" الذي أصبح الآن وزيراً للبحرية، والذي نجح مرة أخرى في تضليلهما بصورة غريبة، وخداعهما حول مشاعره الحقيقية. إذ كان على حد قوله صديقهما المخلص ونصيرهما الوفي! وعلى الرغم من تلك الصداقة لم يتم بناء سفينة "الأقصر". بل فضلاً عن ذلك تم اعداد سفينة "درومادير" الكبيرة ذات الحمولة العادية لنقل -ليس مسلتي الأقصر- وإنما مسلتي الأسكندرية، وذلك عن

طريق الإستعانة بالبارون "تيلور" الذي كان صديقاً للبارون "دوسيه" و"لجومار". وقد غادر "تيلور" فرنسا بالفعل في شهر مارس بعد حصوله على موافقة الملك الذي خصص له مبلغ ثمانين ألف فرنك لإجراء "حفائر عملاقة". وعقب عودة شامبليون إلى فرنسا انشغل البلاط الملكي قليلاً بما أحرزه من نتائج علمية في مصر؛ بينما انصب جام الاهتمام على النتائج العظيمة التي سيحققها البارون "تيلور". ولن نسوق في هذا الصدد المزيد من التفاصيل حول تلك القضية المؤسفة، بل سنكتفي بالإشارة إلى أنه لم يصل إلى باريس أية مسلات في حياة شامبليون. وفي الخامس والعشرين من أكتوبر عام ١٨٣٦، عندما نُصبت أخيراً في ميدان "الكونكورد" بباريس إحدى المسلتين اللتين وضعهما "رمسيس الثاني" في سالف الزمان أمام مدخل معبد الأقصر، سرى إسم "شامبليون الصغير" دون سواه بين جموع الحاضرين.

وقد كان البارون "دوسيه" حينئذ بعيداً عن باريس. ولنرجع إلى المجلد الثاني من "مذكراته" (ص ١٦٧-١٧١) للوقوف على الألم المبرح الذي سببته له النهاية الغير متوقعة لموضوع المسلات. بيد أنه لا يليق بنا الإنتهاء من تلك النقطة دون الإشادة بوضوح بجدارته الفائقة كوالي لمقاطعة "إيزير"، وأكثر من ذلك كوزير للبحرية. كما أن النهاية المفاجئة لمهامه الوزارية في أعقاب ثورة ١٨٣٠ كانت نكبة حقيقية على فرنسا.

* * *

من شامبليون إلى شامبليون فيجاك

إكس في ٢٩ يناير ١٨٣٠

صديقي العزيز،،

هاأناذا أحل في ضيافة السيد "ساليبه" الطيب، ولا أبارح المدفئة هرباً من البرد القارس الذي مايزال يسود مناخ "البروفانس" المعتدل. وإنني أرتعش لمجرد فكرة التوجه فجأة إلى شمال فرنسا، والخوض في ضباب نهر "السين". وحتى الآن لم تعاودني الآم

النقرس المعتادة في بداية العام. إلا أن بعض الآلام الغير حادة تنذرني بعودة المرض بمجرد تعرضي للرطوبة.

لقد غادرت المحجر الصحي اللعين في الثالث والعشرين من الشهر الجاري. ولم أقض سوى يومين في صحبة السيد "دروفيتي" الذي حضر لزيارتي في المحجر الصحي، ومد فترة إقامته لحين خروجي النهائي منه. وقد غادرنا "تولون" سوياً في نفس اللحظة في يوم السادس والعشرين : فتوجه هو شرقاً إلى مدينة "نيس"؛ بينما توجهت أنا غرباً إلى "مارسيليا" التي بلغتها في باكورة نفس اليوم، وأمضيت فيها يوم السابع والعشرين وليلة الثامن والعشرين. وقد تفحصت كل ما في حوذة تجار العاديات: أي القليل من الآثار المصرية. وعندما هممت بالرحيل بلغتني رسالة "ديبوا"، فرحت أتفاوض مع السيد "مايه" حول المسلة المصرية التي يمتلكها، والتي قرر التنازل عنها وإرسالها مباشرة إلى المتحف الملكي. ولدى بلوغي "تولون" أرسلت إلى السيد البارون "دي لا بويري" عن طريق شركة الشحن خمسة صناديق متفاوتة الحجم تزن ثمانمائة كيلوجرام، وتحتوي على قطع أثرية وبرونز ...الخ. كما أرسلت على عنوانك نحو ثمانية صناديق أخرى تحتوي على أمتعتي ومتعلقاتي الشخصية ...

أشعر برغبة عارمة في رؤية "باريس" بكل تأكيد، ولكن البرد القارس الذي يسود تلك العاصمة يجعل القشعريرة تسري في جسدي. لذلك فقد اعتزمت على مواصلة طريقي بحيث لا أغادر شمس الجنوب إلا في وقت متأخر على قدر الإمكان، بغية تهيئة الإنتقال تدريجياً من مناخ إلى مناخ آخر. ولن أسلك الطريق المؤدي إلى مدينة "ليون" والذي أصبح شبه وَعْراً بسبب تساقط الجليد، خاصة في الجزء الذي يربط بين مدينتي "ليون" و"باريس". وسأجد ما يشغلني في مدينة "إكس" طوال ما لايقل عن ثمانية أيام في دراسة برديات السيد "سالييه" دراسة وافية حتى لا أضطر للعودة إلى تلك المدينة مرة أخرى. ثم أنوي التوجه بعد ذلك إلى "أفينيون" لزيارة متحف "كالفيه". ثم أعرج على مدينة "نيم" لتفقد الحفائر الجديدة، ثم أخترق كل من "مونبلييه" و"ناربون" و"كاركاسون" و"تولوز" و"بوردو" و"مونتوبون". ولكي لا أفقد الوقت سأضرب موعداً لأخواتي في "فيلفرانش-دافيرون" أو في "كاهور"؛ وبعد ذلك

أستقل عربة نقل البريد حتى "باريس" التي سأبلغها في غضون يومين أو ثلاثة، أي فيما بين العشرين والرابع والعشرين من شهر فبراير ...

لقد عثرت هنا عند السيد "ساليه" على بعض رسائل الهجاء التي استهدفتني بها في غيابي جماعة الحاقدين. وهي تبعث على القيء من فرط ما يغلب عليها من سوء نية. لذلك فسأتحاشى دوماً الهبوط إلى مستوى هؤلاء السوقة الأوباش، والدخول معهم في مناولة. بل سأقتصر في الرد عليهم في متابعة طريقي، وإزدراء كل تلك الحيل الخسيسة. إن الغيرة والحسد يصبان من جميع الجهات، وهو أمر طبيعي لا مفر منه. فحسبي أن أبصق على تلك الدسائس، وأن أمضي في طريقي. وبعد عودتي إلى "باريس" سأتابع تحرير كتابي عن "قواعد اللغة المصرية القديمة"، وإضافة ملحق يضم نصوصاً مترجمة ترجمة حرفية ومشروحة.

ينبغي معارضة هؤلاء القوم جهاراً، ومعاملتهم بكل الاحتقار الذي يستحقونه. وسأريهم النجوم في عز الظهر ...

* * *

من شامبليون إلى "روزليني"

إكس في ٢٩ يناير ١٨٣٠

لابد أن تكون قد علمت ـ من خلال الخطاب الذي أرسله "سالفادور" إلى السيدة قرينتك ـ بنبأ عودتنا إلى أرض الوطن، بعد رحلة استغرقت تسعة عشر يوماً، عشنا خلالها السراء والضراء، وحتى الركود المطلق للبحر الذي أفقدنا خمسة أيام كاملة. ولكن في نهاية المطاف لا غل لنا الشكوى لأن رحلتنا البحرية كانت سعيدة ومواتية بالرغم من كل شيء ونظراً لحلول فصل الشتاء. وقد احتجزوننا ثمانية وعشرين يوم في المحجر الصحي، ولم يطلقوا سراحنا إلا في الثالث والعشرين من يناير. ثم قضيت يومين في "تولون" في صحبة السيد "دروفيتي" الذي تفضل بانتظار خروجي من المحجر الصحي كي نتمكن من الحديث بحرية. ثم توجهت إلى

"مارسيليا"، وأقمت بها يوم ونصف يوم دون أن أعثر على قطع أثرية هامة لدى تجار العاديات. لذلك فلم أتمكن من استثمار الإعتمادات المالية المتبقية معي في شراء بعض الآثار. وكنت قد أنفقت جزءاً منها في الأسكندرية لإقتناء أفضل ما في مجموعة الخواجة "إياني" الذي كان مهذباً وخنوعاً ورفيقاً معنا مثل الحَمَل الوديع. وقد اشتريت منه تمثالاً رائعاً من البرونز يمثل زوجة "تاكيلوتيس" البوباستية، ومائة قطعة أخرى نفيسة، علاوة على إناءين رائعين من البرونز مزدانان بالنقوش والنصوص مقابل مبلغ مائة بوطاقة (وهو سعر زهيد بكل تأكيد).

... لقد قررت قضاء نحو ثمانية أيام في مدينة "إكس" لدراسة ونسخ بردية السيد "ساليه". وربما تكون قد بلغتك سخرية جماعة الحاقدين واستهزاءهم بذلك الاكتشاف. وسيقتصر ردي عليهم في نشر تحليل تفصيلي لذلك النص الهام.

لقد استعرضت هنا جزءاً من رسائل الهجاء التي خصتني بها زمرة الحاقدين في غيابي. يا له من أمر يبعث على التقزز ! ولعلك تدرك أن أفضل طريقة للرد على ذلك تتمثل في الإزدراء ومواصلة الطريق دون أن نقيم وزناً لتلك "الحشرات". ستشهد نهاية هذا العام صدور كتابي عن "قواعد اللغة المصرية القديمة" والذي يمثل تمهيداً لا غنى عنه لرحلتنا. ومع ذلك فإنه لن يُغير من رأي المعارضين لنظريتي والذين يغضون من شأن أعمالي لتمسكهم بآرائهم وإتصافهم جميعاً بالجور وسوء النية. بيد أن كل ذلك أمر طبيعي. ولما كنت أعرفهم جيداً فلا يسعني إلا أن أبصق عليهم، وأن أمضي في حال سبيلي. إنك تعلم بأنني أدخلت بعض التعديلات على قائمة "أبيدوس" الملكية لأن النُسخ الرديئة التي عملها "بانكس" و"ويلكينسون" لا تتفق مع رسم "كايو" الذي ينطبق تماماً مع المسلات والبرديات والآثار الأخرى التي تقدم لنا خراطيش كل واحد من هؤلاء الملوك على حدى. ما عساك أن تقول لقوم يفكرون بهذة الطريقة ؟ فلكي يثبتوا أنني أتناقض في القول، فهم يستشهدون بآرائي المختلفة حول بعض النقاط دون أن يذكروا -وهنا تكمن سوء النية- في أي وقت قلت ذلك، وفي أي وقت آخر عدلت عن رأيي؛ لأن ذلك لا يوافق مقاصدهم. فهم يستشهدون بأقوالي وكأنني قلتها في نفس اليوم، دون أن يضعوا في اعتبارهم

التعديلات التي أدخلتها على بعض النقاط بفضل تقدم أبحاثي. وإن ردي الوحيد عليهم يتمثل في أن رحلتي إلى مصر لم يتمخض عنها أي نوع من التعديلات على مبادىء القواعد الهيروغليفية التي شرحتها في "الملخص" الذي عرضته على الأكاديمية. وتلك المبادىء راسخة، لا ولن تتغير أبداً لأنها عين الحقيقة التي لم أتوصل إليها إلا بعد الكثير من المقاربات والتخمين. ولكن لننحي ذلك جانباً، ولنواصل مسيرتنا.

وفضلاً عن ذلك لم يتولد عن كل هذا الوابل من الهجاء والإنتقادات أي رد فعل في فرنسا : فإن مذكراتي عن مصر تسحقها سحقاً، وتضع في صفي جمهور العلماء. لقد اختلقوا كل تلك الأكاذيب لتهيئة الرأي العام لفكرة عدم ترشيحي (لو أمكنهم ذلك) لدخول الأكاديمية في الإنتخابات المقبلة. وقد ينجحون فعلاً في فرض مرشحيهم و"محاسيبهم". وعلى أية حال فإنك تعلم أنني لست من الطامعين في أمر. فإن كانت الأكاديمية ترغب في عضويتي فما عليها سوى تعييني. فحسبي أنني رشحت نفسي مرة لأنني لست من هؤلاء الذين يقبلون على أنفسهم مهانة الرفض مرات عديدة متتالية. لقد حزمت أمري في هذا الموضوع، ولابد أنك تؤيدني في ذلك. وليقع المُقدَّر !

لقد عكفت هنا على دراسة بردية السيد "ساليبه" الذي يأمل في أن تُدر عليه أموالاً كثيرة. وإنني أجهل إن كان الحظ سيوفقه في ذلك. بيد أن مايهمنا نحن هو الإلمام بمضمون تلك البردية إلماماً تاماً، وعمل نسخة كاملة لها إن أمكن. ولكنني أعتقد بأن ذلك لا يدخل إطلاقاً في مشاريع السيد "ساليبه". ومهما يكن الأمر فسأبذل قصارى جهدي في دراستها، مع العلم بأن السيد "ساليبه" سينتهي به الأمر إلى الموافقة على نشرها كاملة.

... لا يبقى عندي ما أذكره لك سوى أن الطقس بارد وكئيب. أبلغ تحياتي إلى السيدة قرينتك التي آمل ألا يُنسيها مناخ مدينة "بيز" العظيم أصدقاءها الباريسيين. ولتبلغ تحياتي كذلك إلى أسرتكم ورفاق رحلتنا. ترى كيف حال الغزالة ؟

ج.ف. شامبليون

* * *

أعلن شامبليون في خطاب أرسله إلى السيد "ساليبيه" عقب عودته إلى "باريس" أنه يعتزم كتابة سبع أو ثمان رسائل أخرى عن رحلته، بالإضافة إلى تحليل تفصيلي عن بردية "رمسيس الأكبر" التي تُعد أهم البرديات الهيراطيقية الخمسة التي يملكها "ساليبيه". وقد سمحت له تلك البردية بالفعل في تكملة النسخة الهيروغليفية لنفس النص، والتي عثر عليها في حالة سيئة جداً من الحفظ على إحدى جدران معبد الكرنك العظيم. ولم يجد شامبليون الفرصة لكتابة تلك الرسائل أبداً، ولكن عند مغادرته "إكس" سلم "مذكرة مقتضبة حول مضمون البرديات الخمسة" للسيد "ساليبيه" الذي كلف أمين مكتبة المدينة، والذي كان من كبار المعجبين بشامبليون، بقراءتها أمام الأكاديمية المحلية في الثلاثين من شهر إبريل عام ١٨٣٠. كما أعطى شامبليون "لساليبيه" مذكرة دقيقة جداً حول مضمون البردية الكبيرة والتي تتمثل في "قصيدة شعرية على هيئة حوار... قبائل الهكسوس يتحاضون على مهاجمة الجيوش المصرية. إحصاء لزعمائهم ولمختلف الأمم المتحالفة معهم. وقد ورد إسم عدد كبير من شعوب آسيا الغربية وخاصة شعوب آسيا الصغرى مثل "الليسيين Lyciens" و"الآيونيين Ioniens" ...الخ. إحصاء للقوات المصرية. الملك يخطب فيهم لإثارة حميتهم على القتال. الجنود المصريون يجيبونه في حماسة، وينقضون على الأعداء مثل الصقور، ويمعنون فيهم ذبحاً وتقتيلاً. وأخيراً "سيزوستريس" يخبرهم باستسلام زعماء الأعداء، ويدعوهم إلى حقن الدماء ووقف تلك المذبحة. ويجيبه الجيش بالهتاف والتهليل، وألقاب المجد والعزة ...الخ. وقد دارت رحى تلك المعركة على ضفاف نهر "أوكسيس Oxus"، وتبعها احتلال مدينة "باكتر Bactres" عاصمة الهكسوس. ثم ينتهي المخطوط بتاريخ تدوينه".

ولنضيف أخيراً بأن "شارل لونرمون" قد نشر في مارس من عام ١٨٣٠ في العدد الرابع عشر من "الجريدة الفرنسية" (ص ١٥٩-١٩٦) مقالة تعطي فكرة دقيقة عن تقدم علم المصريات بعد رجوع شامبليون إلى فرنسا.

* * *

من شامبليون إلى شامبليون فيجاك

تولوز في ١٨ فبراير ١٨٣٠

صديقي العزيز ،،

هـأنـاذا وسط شعراء مـدينـة "تـولـوز". وقد قـمـت بـإرسـال "سالـفادور" بمجرد وصـولنا حـاملاً حقائبي الثقيلة الـتي تحتوي عـلى الرسوم وكل المذكرات. وبعد أن قضيت بضع ساعات في كنف العائلة هنا وفي "فيل فرانش"، سأستقل أول عربة قاطعاً الليل والنـهار في التوجه إلى "باريس".

لقد استغرقتني بردية السيد "ساليـيه" أكثر مما كنت أتـوقع. كما تحتم عـليّ أن أمد فترة إقامتي نـظراً لرغبة مضيفي العظيـم في أن يظل المالك الوحيد لتلك البرديـة، ولرفضه في أن أقوم بنسخها. ولما كنت أود فـي الاحتفاظ بـنسخة لي بـأي ثمن، تعين عليّ اللـجوء إلى المهارة والتحايـل في سبيـل ذلك. ولم أغـادر "إكس" إلا عقب نـسخ أهـم أجـزاء ذلك المخطـوط الـفريـد. وقـد أدركـت مـن خلال دراستـه باستفاضـة إلى احتوائه على وصـف مثير للمعركة الـتي دارت رحاهـا بين "سيـزوستريس" والـهكسوس المتحالفين مع معظم شعوب آسيا الـغربية. وأعجب مـا في الأمر أنني عثرت على نـفس ذلك النص في حالـة سيئة جداً من الحفظ مـنحوتاً بـالأحرف الـهيـروغليفية الـكبيـرة على الجدار الجنوبي الخارجي لمعبد الـكرنك "بطيبه". وبـعد أن وجدته كاملاً في مدينة "إكس" مـا كان مني أن أضيّع تلك الفرصة.

ولما كنت أبحث عن الدفء والشمس الساطعة وسط الثلوج التي تغطي "البروفانس"، توجهت إلـى مدينة "نيم" لرؤية "المُدرَّج" وخاصة "الميزون كاريه Maison-Carrée" الذي يُعتبر على حـالته الراهنة من أفضل الآثـار الرومـانية المـوجودة في أوروبا. وفي "مـونـبلـيـيه" قابـلت الـسيـد "فابر" الـذي سبـق أن تعـرفت عـليه فـي ايطـاليـا. وقد اصطحـبني لزيارة متـحف اللوحات الـرائع والمكتبـة النفيسة الـلذين تبرع بهما إلى المدينة التي كـانت مسقط رأسه. وقد استـمرت موجة البـرد وتسـاقط الثـلوج عنـد مغـادرتي "مونبلـييه". تبـاً لـهذا الـشتـاء اللعين الـذي أرسلته لنا الـسماء هذا العام ! إنـني أعـاني منه كـثيراً،

وأخشى أن يعاودني مرض النقرس لدى عودتي إلى الضباب الذي يخيم على "باريس". بيد أنني أشعر بأن الوقت قد حان للرجوع؛ ولكن بما أنني لم أمر بمدينة "فيجاك" عند رحيلي إلى مصر، فإن الواجب يحتم عليّ أن أعرج عليها لرؤية أسرتنا في طريق عودتي. إن فؤادي يهفو إلى مقابلة شخص يتعطش لرؤيتي منذ إثنتا عشر عام. فلتغفر لي بضعة أيام من التأخير... وسأمضي في الحال إلى "فيل فرانش" لحضور تجمع عائلي لن يستغرق أكثر من يومين. وستحضر أخواتنا في نفس اللحظة. وبعد ذلك سأشد الرحيل، ولن أتوقف إلا في فناء مكتب بريد "باريس" حيث افترقنا منذ عام ونصف، وحيث آمل في لقياك من جديد سالماً مثلي بالرغم من بعض الآم النقرس الغير حادة، وعودة طنين الأذنين. فلتتذرع بمزيد من الصبر. سأبعث إليك قريباً بآخر رسالة لأخبرك بموعد وصولي إلى "باريس". وداعاً.

ج.ف. شامبليون

ملاحظة : لقد أسهبت الجرائد في ذكر مدح ملك "نابولي" لي. ولكنه لن يصل إلى "باريس" إلا بعدي بأيام عديدة. تحياتي الحارة لرئيسنا ...

* * *

بوردو في ٢ مارس ١٨٣٠

صديقي الحميم،،

هأنذا أبلغ "مدينة الثاني عشر من مارس". وسأجوب آثارها سريعاً قبل أن أستقل العربة غداً، الأربعاء الثالث من مارس في الساعة العاشرة مساء، لأبلغ "باريس" أخيراً يوم الجمعة. ويمكنك الإستعلام عن ساعة وصولي. كما آمل في أن أجد أحداً في انتظاري عند نزولي من العربة. فإلى يوم الجمعة إذن.

ج.ف. شامبليون

ملاحظة : لقد قام "سالفادور" بتوصيل الصناديق التي تحتوي على الرسوم، وقد تكون باقي الصناديق قد وصلت ؟ أهيب بك أن تخبر المسؤولين بمتحف "اللوفر" بوصول إثنتا عشر صندوقاً مليئاً بالقطع الأثرية اليوم على عنوان السيد "دي لا بويري". فليقوموا باستلامها.

* * *

ملحق

رسائل بعثها محمد عبده، مأمور طهطا إلى شامبليون

هو

أعز الأحباب وذخر الأصحاب محبنا العزيز المكرم الجيشار الصينور المحترم سلمه الله تعالى

غب اهدى الدعا بمزيد اوفر الاشواق والداهي لتحريره اولا السواو عن الخاطر الفاخر وثانيا بالامس اتفقنا مع حضرتكم على يوم تاريخه نقيم مع بعض لاجل المشاهدة وزود المحبة فيوم تاريخه حضرنا ما يليق وفي الصباح توجهنا نشق على الترعه حضرنا وجدناكم توجهتوا بالسلامة فمن خصوص ذلك صار لنا حق عليكم ولاكن الحق بتاعنا حين حضوركم بالسلامة وتراكم وانتم بغاية الاوصاف الحميدة وواصل لبين اياديكم سلامة ونقوله والله تعالى يردكم بالسلامة ونراكم وحضرتكم بغاية الاوصاف الكاملة والله تعالى يحفظكم في ٣ جا سنة ٤٤

الختم
محمد
عبده

من المحب
محمد مامور
طهطا وجرجا

VOYAGE DE CHAMPOLLION EN ÉGYPTE
1828 - 1829

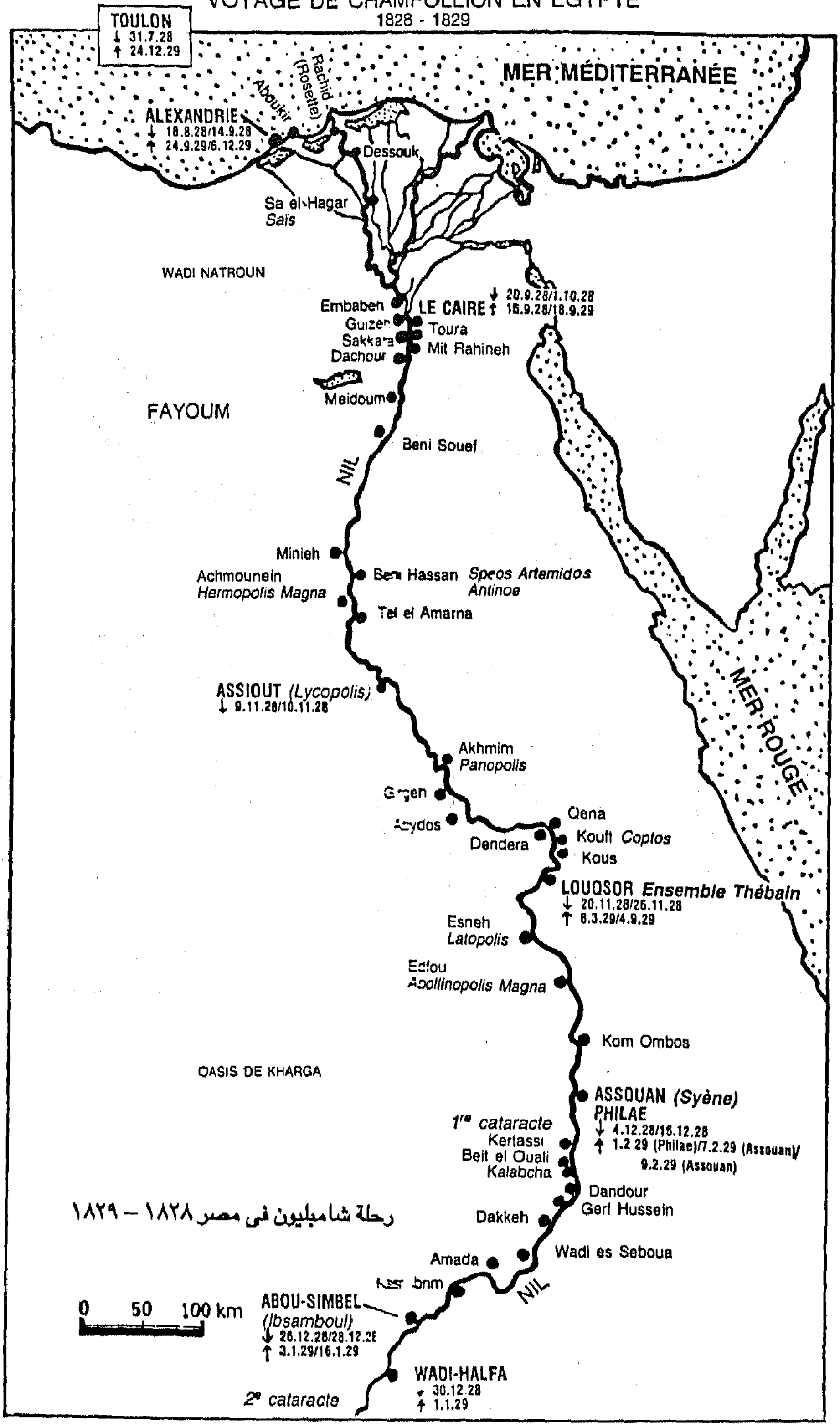

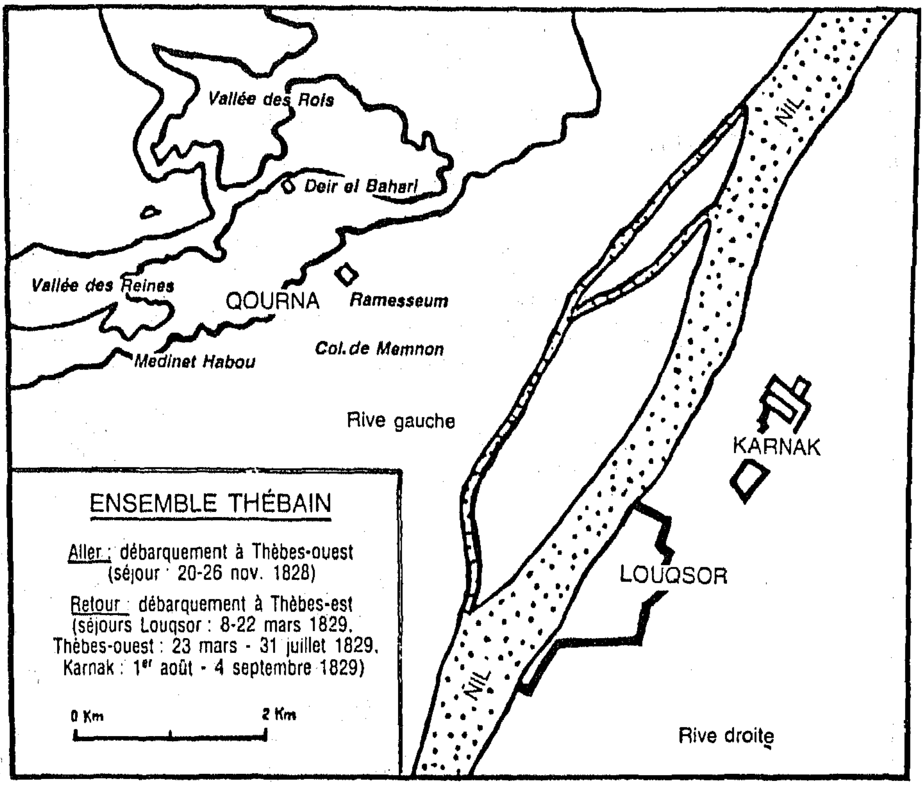
Vallée des Rois
Deir el Bahari
Vallée des Reines
QOURNA
Ramesseum
Medinet Habou
Col. de Memnon
Rive gauche
NIL
KARNAK
LOUQSOR
NIL
Rive droite
ENSEMBLE THÉBAIN
Aller : débarquement à Thèbes-ouest
(séjour : 20-26 nov. 1828)
Retour : débarquement à Thèbes-est
(séjours Louqsor : 8-22 mars 1829,
Thèbes-ouest : 23 mars - 31 juillet 1829,
Karnak : 1er août - 4 septembre 1829)
0 Km
2 Km

مجمع طيبة

فهـــرس

كلمة المترجم ٥

المقدمة ٩

عام ١٨٢٨

من "دروفيتي" إلى شامبليون. الجمالية في ٣ مايو ٤٣

من شامبليون إلى القس "جازيرا". باريس في ٢٦ مايو ٤٤

إلى بوهة توسكانيا. باريس في ١١ يونيو ٤٥

إلى القس "جازيرا". باريس في ٩ يوليو ٤٦

إلى "أوجيستان تفنيه". باريس في ١٠ يوليو ٤٧

من شامبليون إلى شامبليون فيجاك. "ليون" في ١٨ يوليو ٤٨

من "شاروبيني" إلى شامبليون فيجاك. "إكس" في ٢٣ يوليو ٤٩

من شامبليون إلى شامبليون فيجاك. تولون في ٢٥ يوليو ٥٠

إلى نفس الشخص. تولون في ٢٩ يوليو ٥١

إلى نفس الشخص. تولون في ٣٠ يوليو ٥٣

إلى نفس الشخص. في البحر في ٣ أغسطس ٥٤

إلى نفس الشخص. في البحر في ٤ أغسطس ٥٤

إلى نفس الشخص. في البحر في ٥ أغسطس ٥٥

إلى نفس الشخص. في البحر في ٦ أغسطس ٥٥

إلى نفس الشخص. في البحر في ٧ أغسطس ٥٦

نبذة عن الرحلة (من ١٨ إلى ٢٠ أغسطس) ٥٧

من شامبليون إلى شامبليون فيجاك. الإسكندرية في ٢٢ أغسطس ٦٥

إلى نفس الشخص. الإسكندرية في ٢٣ أغسطس ٦٦

إلى نفس الشخص. الإسكندرية في ٢٤ أغسطس ٧٠

إلى نفس الشخص. الإسكندرية في ٢٥ أغسطس.................................. ٧٢
من "هيبوليت روزليني" إلى شامبليون فيجاك. الإسكندرية في ٢٦ أغسطس......... ٧٢
من شامبليون إلى شامبليون فيجاك. الإسكندرية في ٢٩ أغسطس............ ٧٤
إلى نفس الشخص. الإسكندرية في ١٠ سبتمبر.................................. ٧٧
إلى نفس الشخص. الإسكندرية في ١٣ سبتمبر.................................. ٧٩
التعليمات التي يتعين إتباعها أثناء الرحلة...................................... ٨١
نبذة عن الرحلة (من ١٤ إلى ٢١ سبتمبر)... ٨٥
من شامبليون إلى شامبليون فيجاك. القاهرة في ٢٧ سبتمبر......................... ١٠٥
نبذة عن الرحلة (من ٣٠ سبتمبر إلى ٥ أكتوبر).. ١١٣
من شامبليون إلى شامبليون فيجاك. "سقارة" في ٥ أكتوبر............................ ١٣٢
نبذة عن الرحلة. (من ٦ إلى ٨ أكتوبر)... ١٣٦
من شامبليون إلى شامبليون فيجاك. الجيزة في ٨ أكتوبر............................ ١٤٢
نبذة عن الرحلة. (من ٢٠ أكتوبر إلى ٦ نوفمبر)...................................... ١٤٣
من شامبليون إلى شامبليون فيجاك. "بني حسن" في ٥ نوفمبر......................... ١٤٨
إلى نفس الشخص. "الشيخ عبادة" في ٦ نوفمبر....................................... ١٥٤
إلى نفس الشخص. أمام "منفلوط" في ٨ نوفمبر.. ١٥٥
نبذة عن الرحلة. (من ٧ إلى ١٠ نوفمبر)... ١٥٨
من شامبليون إلى شامبليون فيجاك. "طيبه" في ٢٤ نوفمبر............................ ١٦٦
إلى مدير "مجلة الموسوعات" (أكتوبر ١٨٢١).. ١٦٩
إلى نفس الشخص. "فيله" في ٨ ديسمبر.. ١٧٩

عـــام ١٨٢٩

إلى نفس الشخص. "وادي حلفا" في ١ يناير.. ١٨٥
إلى السيد "داسيبيه". "وادي حلفا" في ١ يناير... ١٩٢
إلى "أوجيستان تفنيه". "وادي حلفا" في ١ يناير.. ١٩٤

نبذة عن الرحلة (من ٣٠ ديسمبر إلى ٢٢ يناير)........................ ١٩٥
من شامبليون إلى شامبليون فيجاك. "أبو سمبل" في ١٢ يناير.................. ٢١٧
إلى الدكتور "باريزيت". "أبو سمبل" في ١٦ يناير........................ ٢٢٢
إلى شامبليون فيجاك. "المليسة" في ١٠ فبراير............................ ٢٢٣
إلى نفس الشخص. "كوم أمبو" في ١٤ فبراير............................ ٢٤٣
إلى نفس الشخص. "كوم أمبو" في ١٥ فبراير............................ ٢٤٥
إلى نفس الشخص. "طيبه" في ١٢ مارس................................ ٢٤٦
إلى نفس الشخص. "طيبه" (وادي الملوك) في ٢٥ مارس..................... ٢٤٦
إلى نفس الشخص. وادي الملوك في ١٨ مايو............................. ٢٧٤
إلى نفس الشخص. وادي الملوك في ٢٦ مايو............................. ٢٧٦
إلى نفس الشخص. "طيبه" في ١٨ يونيو................................ ٢٩٧
إلى نفس الشخص. "طيبه" في ١٨ يونيو................................ ٣١٥
إلى نفس الشخص. "طيبه" في ٢٠ يونيو................................ ٣٢١
إلى نفس الشخص. "طيبه" (البر الغربي) يونيو............................ ٣٢٦
إلى نفس الشخص. "طيبه" (مدينة هابو) في ٣٠ يونيو...................... ٣٣١
إلى نفس الشخص. "طيبه" (ضواحي مدينة هابو) في ٢ يوليو.................. ٣٥٤
إلى نفس الشخص. "طيبه" (القرنة) في ٤ يوليو............................ ٣٦٣
إلى نفس الشخص. "طيبه" (قصر القرنة) في ٦ يوليو........................ ٣٦٧
إلى نفس الشخص. على النيل بالقرب من "الشيخ عبادة" في ١١ سبتمبر........... ٣٧٩
من الفيكونت "دي لاروش فوكو" إلى شامبليون الصغير. باريس في ١٤ مايو......... ٣٨٤
من شامبليون إلى شامبليون فيجاك. القاهرة في ١٥ سبتمبر...................... ٣٨٥
إلى نفس الشخص. الإسكندرية في ٣٠ سبتمبر.............................. ٣٨٨
إلى نفس الشخص. الإسكندرية أكتوبر.................................... ٣٨٩
إلى الدكتور "باريزيت". الإسكندرية في ٢٧ أكتوبر.......................... ٣٩٠
إلى نفس الشخص. الإسكندرية في ٢٩ أكتوبر.............................. ٣٩٠
إلى شامبليون فيجاك. الإسكندرية في ٩ نوفمبر............................ ٣٩١
إلى نفس الشخص. الإسكندرية في ٢٨ نوفمبر.............................. ٣٩٢
نبذة مقتضبة عن مذكرة كتبها "نستور لوت" عن الحالة الاجتماعية للفلاح المصري.... ٤٠٠
مذكرة مقتضبة عن تاريخ مصر القديم.................................... ٤٠٢

مذكرة سُلمت إلى الوالي حول حفظ وصيانة الآثار المصرية........................ ٤١٦
من شامبليون إلى شامبليون فيجاك. تولون في ٢٥ ديسمبر........................ ٤٢١
إلى البارون "دي لا بويري". الحجر الصحي بتولون في ٢٦ ديسمبر........................ ٤٢٢
إلى الفيكونت "دي لاروش فوكو". الحجر الصحي بتولون في ٢٦ ديسمبر........................ ٤٢٤
إلى "ديبوا". الحجر الصحي بتولون في ٢٧ ديسمبر........................ ٤٢٦
إلى القس "جازيرا". الحجر الصحي بتولون في ٢٨ ديسمبر........................ ٤٢٩

عام ١٨٣٠

إلى "داسييه". مرفأ تولون في ١ يناير........................ ٤٣١
إلى شامبليون فيجاك. الحجر الصحي بتولون في ٢ يناير........................ ٤٣٣
إلى نفس الشخص. مرفأ تولون في ١٤ يناير........................ ٤٣٥
إلى مدير جريدة "لافيزو دي لاميديتيرانيه". تولون في ١٥ يناير........................ ٤٣٧
إلى شامبليون فيجاك. "إكس" في ٢٩ يناير........................ ٤٣٨
إلى "روزليني". "إكس" في ٢٩ يناير........................ ٤٤١
إلى شامبليون فيجاك. "تولوز" في ١٨ فبراير........................ ٤٤٥
إلى نفس الشخص. "بوردو" في ٢ مارس........................ ٤٤٦

ملحق - رسائل بعثها مأمور طهطا إلى شامبليون (١٤ نوفمبر ١٨٢٨)........................ ٤٤٨

رقم الإيداع ٢٠٠٩/٩٢
I.S.B.U: 977-5091- 09- 8

International Press

انترناشيونال برس

• شارع جمال الشاهد ــ مدينة الصحفيين ت ٣٤٧٤٢٥٩

شامبليون في مصر

الرسائل والمذكرات

في أواخر حياته القصيرة تمكن چان فرانسوا شامبليون من أن يقوم برحلته إلى مصر.. والتي ظل يحلم بها طوال عشرين عاما.

جاءت هذه الرحلة بعد أن تمكن شامبليون من حل طلاسم الكتابة الهيروغليفية، ومن هنا كانت هذه الرحلة منعطفا هاما في التعرف على تاريخ مصر القديمة، وكانت عملية المسح والتسجيل الشاملة لآثار مصر القديمة، والتي قام بها شامبليون أثناء رحلته ذات قيمة أهم وأشمل من تلك التي قام بها علماء الحملة الفرنسية الذين رافقوا نابوليون إلى مصر.

فبالنسبة لهؤلاء العلماء كانت الهيروغليفية مجرد نقوش على الصخور لا تقول شيئا، أما بالنسبة لشامبليون فإنها كانت لغة مقروءة تقول الكثير عن تاريخ مصر القديمة وعن حياة وديانة وأفكار المصريين القدماء.

ولغزارة وأهمية ما استخلصه شامبليون من هذه النقوش فلقد استحق بجدارة أن يوصف بأنه مؤسس علم المصريات.

" الناشر "

دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع

5 4 97
الأهرام AL-AHRAM